الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
نيابة مديرية الجامعة للتكوين العالي في الطور الثالث, التأهيل الجامعي, البحث العلمي
و التكوين العالي فيما بعد التدرج
Vice-rectorat de la formation de troisième cycle, l'habilitation universitaire,
la recherche scientifique et la formation supérieure de post-graduation

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

طموحات محمد علي باشا الوحدوية وانعكاساتها على العلاقات الدولية 1805 م – 1840 م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم تخصص التاريخ الحديث والمعاصر

من إعداد الطالبة: **فاطمة بن عيسى**

تحت إشراف الأستاذ الدكتور: **دحو فغرور**

لجنة المناقشة		
أ.د/ حمدادو بن عمر	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	رئيسا
أ.د/ دحو فغرور	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مشرفا ومقررا
أ.د/ مكحلي محمد	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أ.د/ جيلالي بلوفة عبد القادر	جامعة وهران 2 محمد بن أحمد	مناقشا
أ.د/ بن صحراوي كمال	جامعة تيارت	مناقشا
د/ رنيمة أحمد	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى ... من بلغ الرّسالة وأدى الأمانة ... إلى نبي الرّحمة ونور العالمين

سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم

إلى أبي وأمي الكريمين

وإلى الإخوة والأخوات

إلى زوجي الكريم

إلى روح الشّهداء الأبرار الّذين ضحوا بأنفسهم حتى نحيا بكرامتنا واستقلالنا

شكـــر وعـــرفان

أولًا وقبل كل شيء أشكر **الله** شكراً كثيراً على نعمه، وعلى توفيقنا في إنجاز هذا الدّراسة ونحمده كثيراً.

وبكل عبارات الّتقدير والاحترام، وبكل كلمات الشّكر والامتنان أتقدم به.

إلى الأستاذ المشرف... **دحو فغرور**.... على توجيهاته الصائبة.

وإلى أعضاء لجنة المناقشة

الذين وضعوا لمساتهم وخبرتهم العلمية وملاحظاتهم وتوجيهاتهم على هذا الجهد المتواضع

الدكتور حمدادو بن عمر ... إلى **الدكتور مكحلي محمد.**

الدكتور جيلالي بلوفة عبد القادر... الدكتور رنيمة أحمد.

... الدكتور كمال بن صحراوي.

قائمة المختصرات

باللغة العربية

ط: الطّبعة

د.ط: بدون طبعة

د. ت: بدون تاريخ نشر

تر: ترجمة

هـ: الهجري

م: الميلادي

ص: الصّفحة

(...): حذف

د.م: بدون مكان نشر

ج: جزء

مج: مجلد

مر: مراجعة

تق: تقديم

تع: تعريب

د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية

تح: تحقيق

م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب

ع: العلبة

م.م.ز.ج.د.ت: مركز المحفوظات الوطنية الجزائرية للدّراسات التّاريخية

ش.و. ن. ت: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع

باللغة الأجنبية

Vol: **Volume**

R.: **La Revue**

N° : **Numéro**

T: **Tome**

Ed: **Edition**

p: **page**

pp: **Page contenues**

مقدمة

حمل تاريخ القرن التّاسع عشر ميلادي في طياته سمات الحركات القومية والتّحررية في أوروبا، فقد بدأ نموها –النّزعة القومية – مع مطلع القرن التّاسع عشر وتمثل بحركتين حركة متجهة نحو المركز، والّتي دفعت بالشّعوب التّابعة لدول مختلفة إلى الإتحاد في دولة قومية واحدة، وهو ما سلكته بعض الدّول والإمارات الأوروبية كإيطاليا وألمانيا، أما الحركة الثّانية فهي حركة نفور من المركز تدعو الشّعوب الخاضعة للسّيطرة الخارجية إلى التّحرر من هذه السّيطرة، وهي قضية الأقليات القومية الّتي كانت تعيش في الولايات التّابعة للدّولة العثمانية والشعوب المجرية النمساوية.

أماعن أساليب وأشكال حركات الاستقلال الّتي عرفتها الولايات العربية يجدر بنا الإشارة إلى مسألة جد مهمة، وهي اختلافها اختلافا بيّنا عن الحركات الأوربية، فإذا كانت الكتابات الغربية عن ما اصطلح بتسميته بـ " المسألة الشّرقية " قد درجت على دمج ما يعرف بالأزمة المصرية في عهد محمد ضمن الأزمات الأوربية في البلقان وبشرق أوروبا الّتي كانت خاضعة إلى الدّولة العثمانية، حيث تم خلالها اختبار التّوازنات الأوروبية من خلال التّطورات الّتي عرفتها المسألة الشّرقية، كما أنه وانطلاقا من الاعتراف بمحدودية مصطلح" المسألة الشّرقية " وضرورة التّمييز بين الأزمات الأوروبية والأزمات في العلاقات العثمانية العربية لاعتبارات عديدة، انصب اهتمامنا في هذا الموضوع بالحالة المصرية في ظل محمد علي فقط، وهي أكثر الحالات شيوعا وجذبا للاهتمام؛ ومع ذلك لم نغفل عن نماذج أخرى ذات مدلولات هامة على سبيل الاستدلال والمقارنة وخاصة فيما يتعلق بمسألة مدى تأثير التّدخل الأوروبي.

فإذا كانت الأزمات الأوروبية قد عكست شكلاً واحدا وإن اختلفت درجته على امتداد القرن 19م من حيث رد الفعل العثماني ودرجة التدخل الأجنبي خلال تكرار الأزمات، إلّا أنّ الحركات العربية الإسلامية كانت حركات متنوعة الأشكال والأساليب، ويمكن أن نميز على هذا الصعيد بين نماذج الحركات السّياسية ويقع في نطاقها تجربة محمد علي، والحركات الدّينية الإصلاحية كالحركة الوهابية.

وبقدر ما يبدو مهمًا وأساسيًا التّمييز بين الحركات الاستقلالية في البلقان ونظيراتها في الوطن العربي، بقدر ما يبدو أساسيا أيضا تمييز عمق وبعد الاختلافات بين نماذج المنطقة العربية نفسها، فبالرغم من أنّها لا ترقى لتكتسي صبغة الحركات القومية مثل الحركات الأوروبية، فلا يمكن في المقابل أن نطلق عليها – بصورة مطلقة تسمية – حركات انفصالية أو تحررية، أضف إلى ذلك كونها تختلف عن بعضها البعض من حيث الدوافع والأهداف ومن حيث التفاعل مع السياسات العثمانية ومن حيث طبيعة التدخل الأوروبي الذي رافقها.

تتدرج تجربة محمد علي والي مصر في نظر العديد من المؤرخين والمفكرين من حيث التسلسل الزمني ضمن نمط فريد من نوعه في مسعاها الرّامي إلى التّعبير عن الهوية العربية. حيث مرت بعدة مراحل أولها إصلاحات في إطار الدولة العثمانية والشراكة العربية التركية، وثانيها شكل المطالبة بالانفصال عن الدّولة العثمانية والمطالبة بالاستقلال التام، فقد كانت حركة سياسية خرجت على النّظام السياسي للدولة العثمانية، مدفوعة بحالة الضعف العام لمؤسسات الدولة والتّدني المعيشي الذي كانت الجماهير تتخبط فيه وعجز الدّولة العثمانية عن مواجهة خطر الهجمات الخارجية، ومن ثم كانت تعبيرا ورد فعل ضد التّهالك في مواجهة الغرب وعن ضرورة إعداد السبل لمقاومته، ولهذا فإن هذه الحركات كشفت السّتار عن ضعف الدّولة العثمانية في نظر المسلمين، ومن ثم فإن تناولنا لهذه النّماذج وبالاعتماد على نموذج محمد علي أساس للمقارنة بين محورين أساسيين من ناحية دوافع وأهداف وأدوات كل نموذج.

وتأتي أهمية دراسة موضوع طموحات محمد علي باشا وفحصها من زاوية وقعها في مسار التّاريخ المصري الحديث؛ لأن تاريخ العرب الحديث والمعاصر هو تاريخ صراع مثير بين الأمة وأعدائها، وهو تاريخ حافل بالمعارك والمواجهات والانتصارات والانكسارات، ومؤامرات التّفتيت ومحاولات التّوحيد، وهبّات التّقدم ونكسات التّخلف، وهجمات الهيمنة الاستعمارية وحركات التّحرر والاستقلال، وفوق هذا وذاك فهو تاريخ أمة حية وفيه الكثير من العظات والعبر والدروس والتّجارب المفيدة التي تهم أجيال الحاضر وقادة المستقبل في الوطن العربي عموما وفي مصر – موضوع بحثنا – على وجه الخصوص.

من المؤكد أنه عندما نتحدث عن عصر النّهضة في تاريخ العرب الحديث لا يستقيم الحديث إلا إذا توقفنا عند تجربة محمد علي باشا، الّتي انقسم حولها وحول صاحبها المفكرون والمحللون والمؤرخون؛ فهي عند البعض منارة عصر الاستنارة والتّجديد والتّحديث في تاريخ الإسلام الحديث، وعند البعض الآخر مستنقع سقط فيه المسلمون تمخضت عنه ويلات فكرية وثقافية وسياسية لا زلنا نتجرع نتائجها إلى اليوم. حيث تعتبر حملة نابليون بونابرت **1789م** حتى عام خروجها **1801م** بداية فترة جديدة في تاريخ مصر بسبب صدام المصريين مع القوات الفرنسية، وأيضا بسبب ما تم من الاحتكاك بينهما بصورة مباشرة وخاصة النّخبة المثقفة والعلماء المصريين، وإدراك محمد علي حينها، أن مصر بقيت لقرون طويلة مستبعدة من التّقدم العلمي ومهمشة في ساحة السّياسة الدّولية، وسوق التّجارة، وأن هوة عميقة عزلت المجتمع الشّرقي عن دول أوروبا.

تعتبر الجهود الّتي قام بها محمد علي باشا في بناء دولته بمثابة نقطة البداية في مسار إرساء قواعد الدّولة المصرية الحديثة وأُسسها، حيث تم فيها الانتقال بمصر في بضع سنوات من عصر الفوضى والتّخلف إلى دولة شكلت تحديا للقوى الكبرى في ذلك الوقت كون محمد علي باشا شخصية سياسية وعسكرية فقد أدى دوراً كبيراً ليس في تاريخ مصر وحدها، بل في تاريخ العرب الحديث فلقد كان له السّبق في إرساء قواعد أول نموذج مشرقي لدّولة ذات مؤسسات قوية.

كما تأتي أيضًا أهمية هذه الدراسة من خلال الإضاءة على التّحولات التي أحدثتها اِنعكاسات الصّراع الدّولي بين فرنسا وبريطانيا على المشرق العربي لاسيما في أحوال مصر خلال مرحلة مفصلية في تاريخها ومدى تجذر تلك التحولات في بنية السّلطة على الصّعيد السّياسي والاقتصادي، كما يشير إلى الأهمية المتزايدة لمصر على الصعيد الدّولي مع نهايات القرن الثّامن عشر وبدايات القرن التّاسع عشر وحساسية القوى العظمى تجاه صعود نجم محمد علي باشا في المشرق العربي على حساب القوة العثمانية.

وقد كتب الكثير من المؤرخين عن تجربة محمد علي في إقامة وحدة عربية بمساعدة الدّول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، فكانت الرّؤية المنهجية في هذا المجال تنطلق من محاولات الدّول الأوروبية في إضعاف الدّولة العثمانية من الدّاخل تمهيداً لتجزئتها وتقسيم

ولاياتها، وتندرج تجربة محمد علي ضمن هذا السياق العام، فلقد استمد والي مصر القوة والخبرة من النّماذج الأوروبية المتوفرة لديه، ولاسيما النّموذج الفرنسي الأكثر تأثيراً على السّاحة المصرية نظراً للإرث الّذي تركته الحملة الفرنسية على مصر في مطلع القرن التّاسع عشر. فهذه التّجربة تتميز بجانب كبير من الدّقة، فضرب السّلطنة العثمانية بواسطة ولاتها بعد مدهم بكافة الوسائل الحديثة التي تظهر تفوقهم على السّلطنة وتهديدها في عقر دارها شكلت استراتيجية واضحة لجأت إليها الدّول الأوروبية لتفكيك بُنى السّلطنة العثمانية وانتزاع ولاياتها واحدة تلوا الأخرى.

أما عن منطلق هذه الدّراسة فهو متعدد الأسباب، فهو في المقام الأول نابع من ميول شخصي رسخته أسس علمية. فعندما نقرأ عن بلد متقدم أو نزوره يراودنا – من دافع الفضول – سؤال يتمحور حول سبب تقدمه لهذا المستوى؟ رغم أنه قبل سنوات قليلة كان بلداً غارقا في الفوضى والحروب من كل حدب وصوب. وحتى حين يروي التّاريخ لنا عن تجارب خاضتها دول ومجتمعات مثل الثّورة الصّناعية في أوروبا، وتأثيرها على تقدم المجتمع نتيجة للتّطور العلمي الّذي قامت على أساسه وجعلها في مقدمة قطار التّطور العصري، وهنا نتعرف على مواكبة مصر للعالم المتقدم في فترة قصيرة أيام حكم محمد علي باشا من خلال إصلاحاته العميقة لإرساء الدّولة الحديثة في مصر وجعلها في صدارة الرّيادة العالمية، بالإضافة إلى الرغبة في فهم نوايا ومخططات الدّول الاستعمارية من وراء تقديم الدعم المادي والمعنوي لمحمد علي من أجل تحقيق برنامجه الطّموح، ومدى اِستجابة محمد علي لذلك واِنعكاساته على الدّولة العثمانية والدّول العربية الأخرى. ومن هنا جاءت هذه الدّراسة الموسومة بـ **" طموحات محمد علي باشا الوحدوية وانعكاساتها على العلاقات الدّولية 1805– 1840"**؛ لأنه من المعلوم أن الإحاطة بتجربة محمد علي باشا؛ ضرورية لكل من يريد أن يؤرخ للعلاقات الإسلامية الغربية في العصر الحديث، لخصوبتها وثرائها من جهة، ولتداعياتها وتأثيراتها على الحياة الإسلامية المعاصرة من جهة أخرى.

وأما اختيار الفترة الزّمنية فقد انحصر بمدة لا تتجاوز أربعين عاماً – **1805م/ 1840م**– ومع قناعتنا بصعوبة انتزاع فترة زمنية ودراستها عن الزّمن السابق لها أو اللاحق أيضاً، وبصعوبة حصر الدّراسة بمرحلة قصيرة، حيث تهدف هذه الدّراسة إلى إلقاء الضّوء

على حقبة مهمة من تاريخ المشرق العربي خلال النّصف الأول من القرن التّاسع عشر، تربع فيه محمد علي باشا على عرش مصر، وما ترتب على ذلك من تحولات داخلية وخارجية وخاصة في سياسته التّوسعية حيث أصبح يحلم بتوسيع رقعة أراضيه المصرية، فوجه أنظاره شرقا نحو الأراضي الحجازية، وغربًا نحو ليبيا، وجنوبا نحو السّودان حتى منابع النيل، كما زاد في طموحه فشمل تهديد الخلافة العثمانية شمالا، الأمر الذي أدى إلى انفتاح الباب على مصرعيه أمام المطامع الأوروبية، ونبه الدّول الكبرى إلى أهميتها الاقتصادية والعسكرية، وهي أحداث كبيرة نبهت الدّولة العثمانية إلى أن الزحف الاستعماري الأوروبي باتجاه الوطن العربي قادم بشكل أعنف مما كان عليه الغزو الفرنسي لمصر.

وقد اختلف المؤرخون والمفكرون والمثقفون في تقييم هذه التّجربة، مثلها مثل سائر التّجارب الإنسانية والحضارية والسّياسية في تاريخ الأفكار خاصة أنها التّجربة العربية الوحيدة التي ظهرت على إثر اندلاع الثّورات القومية الأوروبية عند بداية القرن التّاسع عشر. ومن ثم فإننا نتناول تجربة محمد علي أساسا المقارنة بين محورين أساسيين من ناحية دوافع وأهداف وأدوات كل نموذج على نحو يركز بصفة أساسية على الرغبة في الإجابة على الإشكالية التالية: كيف كانت تجربة محمد علي باشا الوحدوية؟ هل كانت تشبه مثيلاتها في أوروبا من حيث الأهداف؟ أم كانت تجربة وحركة منغلقة على نفسها ومختلفة تماما عن الحركات الأوروبية؟ وهل اختلفت جدية الإمبراطورية العثمانية عن التّحدي الذى مثلتها لحركات القومية الأوروبية؟ وهل استعانت هذه الحركات بالقوى الأوروبية في مواجهة الدولة العثمانية؟ وقد تثير فترة محمد علي باشا كذلك قضية إدارة الصّراع مع الخارج أو مع القوى الدّولية أو النّظام الدّولي، وبالتالي ما هي طبيعة الاستراتيجيات المختلفة التي اعتمد عليها محمد لي باشا في ادارة صراعه مع الدولة العثمانية من جهة ومع الدّول الأوروبية من جهة أخرى خاصة أن حقبة محمد علي باشا شهدت تحولا بين سياسات مختلفة واستراتيجيات متعددة؟

وتندرج ضمن هذه الإشكالية الشّاملة مجموعة من التّساؤلات وجب علينا الإجابة عليها من أجل إزالة الإبهام والغموض والوصول إلى الحقيقة التّاريخية وهي على النحو التالي:

1. كيف وصل للحكم؟ وما هي أهم الصعوبات التي واجهته عند وصوله؟

2.ما هي الدعائم التي اعتمد عليها الباشا من أجل أن يثبت نفسه في حكم مصر ويجسد مشاريعه وطموحاته التي طالما حلم بها ؟

3.ما درجة الاستقلالية التي كان يبحث عنها وهل وصلت إلى درجة السّعي للانفصال عن الدّولة العثمانية؟

4.لصالح من كان يعمل ذلك؟ هل لصالحه من أجل كسب تأييد لحكمه ولتحقيق مطامعه في الانفصال وتأسيس إمبراطورية عربية يحكمها هو وأسرته؟ أم لصالح الشّعب المصري؟ أو بمعنى أخر هل كانت طموحات محمد علي التّوسعية لدوافع وأهداف شخصية؟ أم لدوافع إسلامية عثمانية (إصلاحية)؟ أم لأسباب ودوافع وحدوية عربية (قومية)؟

5.هل استعان محمد علي باشا بالدول الأوروبية من أجل تحقيق نهضة مصر والنّهوض بالخلافة الإسلامية أم لتحقيق طموحاته الوحدوية؟ وإذا كان ذلك صحيحا هل تقدم الدّول الاستعمارية جميع أشكال الدّعم المادي لدّولة قد تشكل خطراً على نفوذها ومصالحها المستقبلية في المنطقة؟ وهل وتبنى وحدة العالم الإسلامي بمساعدة أوروبية استعمارية مضادة؟

6.ما هي مصلحة الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا في إقامة مثل تلك الوحدة؛ فهل كانت تجربة محمد علي مجرد أداة تمكنت الدّول الأوروبية من خلال تشجيعها ودعمها استغلالها في ضرب الدولة العثمانية الإسلامية ؟

7.ما موقف الدّولة العثماني وباقي الدّول الأوروبية الكبرى من مشاريع وطموحات محمد علي باشا؟

8.هل حققت معاهدة لندن رغبات محمد علي، أم رغبات الباب العالي؟ وهل استطاعت الدولة العثمانية في نهاية الصّراع أن تجمع الدّول الأوروبية إلى جانبها وتُخرج محمد علي من بلاد الشّام؟

9.ما موقف المؤرخين والمفكرين من تجربة محمد علي باشا؟

وانطلقت هذه الدارسة من عدة فرضيات أساسية وهي على النّحو التالي:

ومن أجل فهم اِشكالية هذه الدّراسة والإجابة عنها وعن التّساؤلات المطروحة، ومعالجة هذا الموضوع من كل جوانبه قسمنا خطة دراستنا إلى مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة

والتي كانت عبارة عن حوصلة لما خرجنا به من البحث، وألحقنا ذلك بمجموعة من الملاحق والفهارس.

مقدمة: جاء فيها رسمٌ للمشهد العام الذي كان يحيط بالمكان والزمان الذي يتناوله البحث، مع محاولة وضع المحاور والأطر الّتي سترتكز عليها الدّارسة تحت عناوين أولية، والتّعريف بهيكل البحث، مع شرح سبب اختيار البحث وأهميته، والإشارة إلى الإشكالية الأساسية فيه مع تحديد المناهج المتبعة في هذه الدراسة، والمصادر والمراجع المعتمدة عليها تمهيداً للدّخول في تفاصيل البحث.

وبعدها تمت التّهيئة للموضوع **بمدخل:** تعرضنا فيه إلى واقع أوروبا السّياسي والّذي كان يتميز بطابع الثّورات القومية، وكيف كان موقف الدّول الأوروبية منها. وهو مسلك سلكناه قصد معرفة موقف الدول الأوروبية الكبرى من الثورات القومية الّتي ظهرت في تلك الآونة سواء كانت خاضعة للسّلطة المسيحية أو الخلافة الإسلامية، وإلى معرفة أيضًا الظروف الدولية والإقليمية الّتي أثرت في تجربة محمد علي باشا من خلال تحليل شامل ومتكامل للتّطورات التّاريخية والسّياسية.

أما الفصل الأول: والذي جاء بعنوان "الصّراع الدّاخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي باشا في ظل التّنافس العثماني الفرنسي البريطاني"، فتطرقنا فيه إلى الحديث عن الأوضاع الدّولية وأوضاع مصر قبل وصول محمد علي باشا إلى السّلطة حيث تكلمنا على التّنافس الأوروبي قبيل بداية القرن التّاسع عشر كما تحدثنا أيضا على الحملة الفرنسية على مصر والّتي كانت سبب في مجيء محمد علي إلى المصر، ثم أخذنا الحديث إلى ذكرى صفات محمد علي باشا الجسمية والرّوحية وأخلاقية، ثم إلى مولده ونشأته، وبعدها تحدثنا عن الصّراع الدّاخلي في مصر بين القوى المملوكية والعثمانية وانعكاسات تطورات الحرب في أوروبا على التّنافس بين فرنسا وبريطانيا في السّاحة المصرية لاسيما مع بروز شخصية محمد علي وتثبيت أقدامه في حكم ولاية مصر عقب انحسار الغزو المباشر لمصر من قبل القوتيين الأوروبيتين المتنافستين بعد فشل حملة فريزر عام **1808م**، وفي أخر الفصل تكلمنا على الطّريقة التي قام بها محمد علي في تثبت حكمه من خلال الحديث عن كيفية استعانته

بالعلماء والمعارضين والأعيان ثم التخلص منهم، وحديث عن مذبحة القلعة عام **1811م** وتخلصه من جميع المماليك الذين كانوا يهددون ملكه، وختمنا الفصل بخلاصة الّتي هي عبارة عن موجوعات استنتاجات واجابات عن بعض التّساؤلات كنا قد طرحناها في المقدمة.

وفي الفصل الثاني: عنوانه بـ "سياسة محمد علي بشا الدّاخلية وبناء دولة مصر الحديثة"، تناولنا فيه كيفية تأسيس محمد علي باشا لدّولة مصر الحديثة من خلال الحديث عن الدّعائم التي اعتمد عليها محمد علي باشا في بناء دولته والتي كان ضمنها أفراد الأسرة والأتباع والأتراك وأهل الذّمة من المورنة والأقباط واليهود وأيضا الأجانب من المسلمين كالأرمن واليونانيين، وغير المسلمين كالإيطاليين والفرنسيين والانجليز، وبعده تعرضنا إلى مدى تأثير هؤلاء الجاليات على المجتمع المصري، وبعدها تطرقنا إلى نظرة الغرب في المساعدة التي تم تقديمها لمحمد علي باشا في بناء دولته الحديثة، وفي آخر هذا الفصل تحدثنا عن سياسة محمد علي باشا الدّاخلية في بناء دولة مصر الحديث في مختلف المجالات كالإدارة والتعليم والزراعة والصناعة والتجارة. وختمنا الفصل بخلاصة.

الفصل الثالث: حمل عنوان "سياسة الضم والالحاق في دولة محمد علي باشا وانعكاساتها على العلاقات الدولية"، فقد أوردنا في بدايته إلى التّغيرات الّتي حدثت في سياسة محمد علي باشا الخارجية، وأخذنا الحديث إلى ذكرى أسباب وأهداف التي دفعت بمحمد علي باشا إلى القيام بتلك الحمالات التّوسعية قصد تكوين إمبراطورية عربية يحكمها هو وأولادها من بعده؛ لأن المؤرخين اختلفوا في ذلك فهناك من أرجعها لدوافع شخصية والبعض من رأى أنّها لدوافع قومية، والبعض الآخر أرجعها لدوافع دينية اصلاحية، وبعدها تناولنا عمليات الضم والالحاق التي قام بها محمد علي من أجل تحقيق حلمه وطموحه في إنشاء امبراطورية، فتحدثنا خلالها عن حملته ضد الحركة الوهابية ثم حملته على بلاد الشّام، ثم تطرقنا إلى حملته على السودان واليونان، وفي الأخير تعرضنا إلى مشروع محمد علي باشا في احتلال الجزائر. وختمنا الفصل بخلاصة.

الفصل الرابع: عنوانه هو الأخر بـ "نظام مصر النّهائي وانعكاسات طموحات محمد علي باشا على العلاقات الدّولية في النّصف الأولى من القرن التّاسع عشر"، تعرضنا في المبحث الأولى إلى معاهدة لندن ونظام مصر النّهائي، فادرجنا ضمنه بنود معاهدة لندن

1840م، والتدخل الأوروبي عسكريا لتنفيذ بنودها، ثم أخذنا الحديث لذكر موقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدة، وفي آخره تطرقنا لمرض محمد علي باشا ووفاته، وفي المبحث البحث الثاني تحدثنا فيه عن عوامل وأسباب فشل محمد علي باشا في تحقيق طموحاته ما بين أسباب وعوامل متعلقة بشخص محمد علي وبالمجتمع المصري، وأسباب وعوامل خارجية ومتمثل في طموح محمد علي المتنافي مع الغرب، ثم ذكرنا في المبحث الثالث انعكاسات طموحات محمد علي باشا الوحدوية على العلاقات الدولية في ذلك الوقت من سقوط الدولة السعودية الأولى، والأخطاء التي ارتكبها محمد علي والتي كانت سبب في عودة اليهود إلى فلسطين وتحقيق حلمهم فيما، كما أخذنا الحديث إلى ذكر مشروع حفر قناة سويس التي كانت سبب في التّنافس الدّول الاستعمارية على المشاركة فيه وانتهى باحتلال مصر من طرف بريطانيا، وفي أخر هذا الفصل تناولنا تقييم تجربة محمد علي باشا من طرف المؤرخين باعتبار أن شخصيته كانت من أهم الشخصيات، والتي ساهمت في بناء دولة مصر الحديث، فكانت المواقف تتباين ما بين مؤيد ومعارض.

الخاتمة: فقد عبرت في سطورها عن استنتاجات تمكنا أن نسطرها بعد أن توصلنا إليها من خلال هذه الدّراسة والبحث في موضوع طموحات محمد علي باشا وانعكاساته على العلاقات الدولية، وأتبعتها بالملاحق مكملة للموضوع تضمنت وثائق أرشيفية وخرائط، وبيبليوغرافيا الدراسة، وفي الأخير قوائم الفهارس.

وقد عالجنا دراستنا برؤية خضعت لما هو متوفر من وثائق رسمية وغيرها مما تمكنا من جمعه من مادة علمية مع إخضاع مقاربتنا لمنهج البحث التاريخي، حيث اعتمدت الدّراسة على المنهج السّردي التاريخي في إطار من الوحدة المتكاملة لدراسة تاريخ مصر ومنطقة المشرق العربي، وهو منهج راعينا فيه تناول الأحداث السياسية بالمنطقة، واعتمدنا أيضاً في هذه الدراسة على المنهج الوصفي من خلال وصف الأحداث والوقائع التاريخية، ونقلها كما وردت في المصادر والمراجع، كما عملنا على دمج بين منهجين المقارن والتحليلي من خلال تتبع الحقيقة التّاريخية والنّظر إلى خلفيات الحدث انطلاقا من العلل القوية والحجج المستنبطة من المصادر والوثائق التّاريخية حيث أنه ورد في ثنايا الدراسة بعض المعلومات المتناقضة حول شخصية محمد علي وأعماله كما ورد أيضا ضمن هذه

الدراسة عدد من المعاهدات والاتفاقيات التي تحتاج إلى مثل هذه المناهج قصد التحليل والوصول إلى الحقيقة التاريخية، ويأمل أن نكون قد كشفنا في هذه الدراسة عن الحقيقة التّاريخية بروح محايدة.

لم تهدف هذه الدراسة إلى استعادة هذه التّجربة وتعرض لسيرة محمد علي، وإنّما القصد هو وضع هذه التّجربة تحت الدّراسة لاستقاء العبر منها ما أمكن، وخاصة حول العلاقة بالدول الكبرى حيث استفاد والي مصر محمد علي باشا استفادة ملموسة من التّناقضات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا، فعزز قدراته بما كانت تغدقه عليه كل دولة ليكون صدى لها. وقد أغرته هذه التّناقضات بأن يدخلها بقوة واقتدار، فأصبحت الدبلوماسية ركنا أساسيا في استراتيجيته لتحقيق أهدافه، وقد حرص أن يجمل صورته في أعين الغرب باعتباره مصلحا مستنيرا ومنفتحا ومتسامحا مع الأجانب ويقتفي آثارهم في التحديث. وكان الهدف أيضًا أن تكون هذه الدراسة إسهاما في الوصول إلى الحقيقة التاريخية في تاريخ مصر الحديث من ناحية وإثراء المكتبة العربية عامة والجزائرية خاصة من ناحية أخرى؛ لأنه ومما لا شك فيه أن هذه المكتبات في حاجة ملموسة إلى المزيد من الكتب العلمية التي تعالج العلاقات في العالم العربي وتطورها في العصر الحديث.

علاوة على ذلك فلقد أفادنا في تناول هذا الموضوع ودراسته عدد من المصادر المتنوعة وفى مقدمتها الوثائق العربية والعثمانية والأجنبية الموجودة بدار الوثائق القومية وبدار المحفوظات المصرية بالقاهرة ومكتبة دار القومية بمصر، وأيضا الوثائق الموجودة بمركز المحفوظات الأرشيفية بالجزائر العاصمة، والمكتبة الوطنية الجزائرية (الحامة) فضلاً عن عديد الوثائق الأخرى المنشورة، وهى وثائق تكشف حقيقة وأبعاد مطامع محمد علي باشا وسياسته الخارجية، وتوضح بشكل عام علاقته مع الدولة العثمانية والحكومة البريطانية وباقي الدّول الأجنبية، والأثر الذي تبع استيلاء قواته على تلك المناطق العربية.

كما اعتمدنا على وثائق منشورة، وهي الوثائق التي عمل بعض المؤرخين على تجميعها من مراكز الوثائق ونشرها. نجد أهمها كتاب المؤرخ **أسد رستم** " **المحفوظات الملكية المصرية**"؛ الذي أعطى " بيان بوثائق الشّام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير" انطباعاً عن وجهة النّظر المصرية لاسيما فيما يتعلق ببلاد الشام من

خلال وضع ترجمة مختصرة لوثائق الإدارة المصرية الأصلية المدونة باللغة العثمانية تسهيلاً لاستفادة الباحثين منها. كما تم الاعتماد على **كتاب** "**الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا**" **أيضا لأسد رستم** ويحتوي على مجموعة لا بأس بها من الوثائق والأوراق السياسية، وكذلك **كتاب "عصر محمد علي" لمؤلفه عبد المنعم إبراهيم الجميعي** وهو عبارة عن دراسة وثائقية لتاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي في عهد محمد علي باشا. ويقدّم **محمد فؤاد شكري وزميلاه في كتاب** " **بناء دولة مصر، محمد علي: السياسة الداخلية**" مجموعة من النصوص والوثائق المترجمة عن الأصل الفرنسي والإنكليزي، فمرة يوردها المؤلفون ضمن معالجتهم لنص الكتاب في القسم الأول منه ،ومرة يوردونها كاملة كتقارير القناصل الأجانب في القسم الثاني الأمر الذي وفّر مادة علمية أصيلة للبحث.

أما في ما يخص المصادر نجد **عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب** " **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**" **الذي** حاول خلاله إظهار نوع من الحياد خلال تعليقه على الأحداث ،إلا أنه لطالما برز تعاطفه مع علماء الأزهر وعامة الشعب المصري وبالتالي انجرّ قلمه لذكر مظالم باشوات الدولة العثمانية وبكوات المماليك وأخيراً محمد علي باشا، كما أن موقفه كان واضحاً من الغزو الأوروبي لبلاده لكن ذلك لم يمنعه من تدوين ما وصل إليه الأوروبيون لاسيما الفرنسيون من تفوق علمي وعسكري وإداري.

كما اعتمدنا أيضا على **كتاب**" **عنوان مجد في تاريخ نجد**" **لعثمان بن عبد الله بن بشر، وكتاب**" **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب لحسين الريكي،** وهي كتابات حولية تخص مرحلة القرنيين الثّامن عشر والتّاسع عشر، تسرد تاريخ منطقة الجزيرة العربية، ومنها ما يهتم بتاريخ محمد علي باشا، وتثبيت للوقائع والأحداث التي مرت بها مصر والجزيرة العربية، وقد كتب الكتاب بطريقة الحوليات وهي طريقة تعتمد على التّسلسل الزّمني للأحداث، وتكمن أهمية الكتاب كون عثمان بن بشير عاصر نهاية الدولة السّعودية الأولى، ويعتبر كتابه مصدر مهم لمن يريد التّأريخ لنشأت الدولة السعودية.

وكتاب كلوت بيك الموسوم بـ " **لمحة عامة إلى مصر** " حيث اعتبر كلوت بك مؤسس الإصلاحات الطبية في الديار المصرية، فوصف في كتابه مصر إداريًّا وزراعيًّا واجتماعيًّا

على اختلاف الأزمان، وأفاض في تاريخها الطبيعي، وتقويمها بما فيها من السكان وعددهم، واختلاف أجناسهم وآدابهم وعوائدهم، ونظر في مصر نظرًا دقيقًا من حيث تجارتها وصناعتها وعُلُومها وجندها، وأعمالها في الري وحفر الترع، وما يُشاهَد من آثارها.

وهناك مصدر آخر في دراستنا لليعقوبي آغا أبكاريوس الأرمني اسكندر الموسوم بـ "تاريخ محمد علي باشا المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية"، وهو مصدر جد مهم للباحثين المتخصصين في تاريخ مصر والشّام في عصر محمد علي باشا، ذلك أن محتواه أظهر اهتمامًا خاصًا بالوثائق، وأظهر العديد منها في ثنايا الكتاب، كما أنه تعرض لجوانب عديدة من مظاهر الحكم المصري للشّام، بالإضافة إلى أن للكتاب أهمية للدارسين والمهتمين بتاريخ الأدب في العصر الحديث، حيث جمع المؤلف في ثنايا كتابه عدد كبير من القصائد النّادرة للأدباء والشّعراء الشّوام ممن قصدوا بلاط إبراهيم باشا لعرض ابداعاتهم عليه.

ومن أهم المراجع العربية كتاب **عبد الرحمن الرافعي** "**عصر محمد علي**" وفي هذا الكتاب عرض وافٍ ومستفيض لجميع الأحداث والتّطورات السّياسية والعسكرية والاقتصادية التي شهدتها مصر في عهد محمد علي باشا.

ومن الكتب المهمة الأخرى **كتاب إلهام محمد علي ذهني** " **مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر 1805- 1879** " ويتناول هذا الكتاب دور الرحالة الفرنسيين في مصر ويستعرض أيضاً تزايد الاهتمام الفرنسي بمصر في عهد محمد علي فضلاً عن أحوال مصر السّياسية والاقتصادية كما سجلها الرحالة الفرنسيون، كما يحتوي على تعريف بأهم الرحالة الفرنسيين في عهد محمد علي وحتى نهاية عصر إسماعيل.

وكذلك **كتاب محمد صبري المعنون** " **تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث**"، وفيه تفاصيل عن نشأة محمد علي، وكيف آل إليه حكم مصر، فضلاً عن إشارة المؤلف إلى طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين مصر وفرنسا حتى أن بريطانيا كانت تعتبر انتصار محمد علي انتصاراً للنفوذ الفرنسي في المنطقة لذلك عملت على إحباطه والقضاء عليه.

وهنالك كتاب آخر للمؤلفين **عمر الاسكندري وسليم حسن بعنوان** " **تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر**" وفيه عرض شامل للأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية منذ الفتح العثماني، كما يستعرض أهم الإصلاحات التي قام بها محمد علي باشا في مصر، فضلاً عن ذلك فإنه يتناول سياسة محمد علي باشا الداخلية والخارجية والموقف الفرنسي منها.

واعتمدت الرسالة أيضا على عدد من المراجع المترجمة والمعربة أهمها **كتاب رينيه قطاوي وجورج قطاوي المعنون** "**محمد علي وأوربا** " وهو مترجم عن الفرنسية، وهذا الكتاب عبارة عن عرض موسع للعلاقات بين محمد علي وأوربا وبالخصوص فرنسا، إذ تم الاعتماد عليه بشكل كبير في توضيح مواقف الحكومة الفرنسية تجاه سياسة محمد علي باشا.

وكذلك كتاب جورج يانج المعنون " **تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل**" وهو مترجم عن الانكليزية ، ويروي فيه المؤلف بشيء من التفصيل تاريخ مصر من عهد المماليك وحتّى نهاية حكم إسماعيل باشا أي من عام **1760** وحتى عام **1879** ويركز فيه على عدد من الأحداث المهمة الّتي شهدتها مصر في عهد محمد علي باشا وعلاقته بالدول الأوربية ولاسيما فرنسا، إذ يشير في أحد فصولهِ إلى استعانة محمد علي بالعلماء والفنانين الفرنسيين في العديد من المجالات .

أما المصادر الانكليزية فتعتبر ذات أهمية كبيرة إذ غطت أجزاء واسعة من الرسالة لأن بعضها يحتوي على معلومات قيمة وأهم هذه المصادر كتاب **Henry Dodwell** والمعنون **The Founder of Modern Egypt A study of Muhammad Ali** وفيه عرض موسع لتاريخ مصر، والأحداث الّتي شهدتها مدة حكم محمد علي باشا، ومحاولاته إنشاء دولة قوية ومواقف الدول الأوربية، ولاسيما الموقف الفرنسي من هذا التوجه.

ومن المصادر الانكليزية الأخرى كتاب للمؤلف **Anderson** والمعنون **The Great Powers and the Near East 1774 – 1923** ويحتوي على عرض موسع لسياسة الدول الأوربية الكبرى في الشرق الأدنى ويعتمد على مجموعة من الوثائق المهمة.

أما المصادر الفرنسية فإنها ساهمت في دعم البحث بشكل كبير وأغنته بالكثير من المعلومات ووجهات النظر ومن أهم تلك المصادر كتاب **L' empire Egyptien Sous Mohamed Ali** لصحابه **M. Sabry**، والذي يتحدث عن سياسة محمد علي باشا في مصر واليونان وبلاد الشام وصولاً إلى مؤتمر لندن عام **1840- 1841** وتحجيم دوره السياسي، كما تضمن مواقف الدول الأوربية، ولاسيما فرنسا من محمد علي ونشاطاته في اليونان وبلاد الشام.

ومن المصادر الفرنسية الأخرى كتاب للمؤلف : **Gabriel Enkiri** والمعنون بـ **Ibrahim Pacha 1789 – 1848**، و الذي يعد من المصادر المهمة إذ أنه يغطي جميع حملات محمد علي باشا، والتي كان يقودها ابنه إبراهيم باشا وخصوصاً حملته على بلاد اليونان وبلاد الشام، كما يبين فيه مواقف الدول الأوربية في مؤتمر لندن، والتغيير الكبير الذي طرأ على الموقف الفرنسي وتخليها عن مصر وانضمامها الى بقية الدول الأوربية .

كما استفادت الدراسة من عدد من الرسائل العلمية الجامعية، وهى تمثل جهد عدد من الباحثين الذين اهتموا بفترة حكم محمد علي باشا، فهي تعطى معلومات مركزة إلى حد كبير تخدم في كثير من الأحيان موضوع الدراسة، وتساهم في ترصين عناصر البحث، فقد سهلت علينا التّعرف على الكثير من الأحداث والتّطورات السياسية، والتي أغنت الرّسالة بالمعلومات والتّفاصيل الممتازة والوافية ومنها رسالة عبد الله علي عبد الحميد سمك الموسومة بـ "**دور العلماء الأزهر في مواجهة الحملة الفرنسية والآثار المترتبة عليها 1978م- 1801م**"، وأطروحة حلمي محروس إسماعيل "**دراسات في الحالة الاجتماعية في مصر في النّصف الأول من القرن التّاسع عشر**"، والّتي استفدنا منها عند تعرضنا إلى الظروف الاجتماعية التي عاشها الشعب المصري تحت حكم محمد علي باشا. وأطروحة ملك محمد رشوان الموسومة "**بسياسة محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية**".

بالإضافة إلى مذكرات الماجستير أهمها مذكرة "**سياسة محمد علي باشا في الخليج العربي1818- 1840**" لعلام عبد السلام عيسى الفلاح، ومذكرة لصالح رمضان محمد "**دور الجاليات الأجنبية في مصر في القرن التاسع عشر (1801م- 1882م)**"، ومذكرة ناصر

محمد ناصر " **دور العامل الخارجي في إجهاض تجارب النهضة العربية (دراسة تطبيقية في تجربة محمد علي 1805- 1849)**".

هناك العديد من الدراسات التّاريخية في جامعة الجزائرية تناولت تاريخ مصر في عهد محمد علي باشا أهمهما:

1- رسالة دكتوراه لخليصة سعودي بجامعة المسيلة الموسومة بـ " إصلاحات محمد علي باشا في ميدان التّعليم وانعكاساته على عصر النهضة في الفكر المشرق العربي 1811م- 1870م" تعرضت فيها جوانب مهمة في مسيرة حركة الفكر السياسي والثقافي والحركة الاصلاحية للشرق العربي خلال الفترة الحديثة، كما تناولت إصلاحات محمد علي باشا لقاعدة تعليمية حديثة في مصر والتي انتقل تأثيرها إلى أقطار المشرق العربي.

2- رسالة دكتوراه لجلول بوقراف بجامعة الجزائر 2 أبو قاسم سعد الله الموسومة بـ" العلاقات المصرية الجزائرية في عهد محمد علي باشا 1805م- 1849م" والتي رأى من خلالها أن العلاقات بين مصر والجزائر تميزت بخصوصية لا مثيل لها نتيجة للتأثير الفرنسي على ذلك إذ أوحت فرنسا لمحمد علي باشا باحتلال الجزائر سنة 1828م بمساعدتها في اطار سياسته التوسعية.

3- مذكرة ماجستير لجمال حمادي بجامعة الوادي حامة لخصر تحت عنوان " توسع محمد علي باشا في بلاد الشّام وانعكاساته 1831م 1840م" تعرض فيها إلى أسباب التوسع المصري على حساب الاراضي الشامية والظروف المحيطة به ومختلف التّغيرات التي عرفها سكان بلاد الشّام أيام الحكم المصري أي محاولة معرفة نمط العثمانيين في تسير بلاد الشّام ومقارنتها بالعهد السّابق وكذلك سعت الدّراسة إلى معرفة المناخ السياسي الذي عزم فيه محمد علي باشا على غزو الشّام ومدى التّدخل الأوروبي في منطقة المشرق العربي بصفة عامة، ثم تعرضت الدراسة في الأخير إلى الانعكاسات التي انتجها هذا التوسع على مصر والشّام والتدخل الأوروبي في المنطقة.

ومثل كل باحث واجهتنا صعوبات عدة، أولها اتساع المساحة الجغرافية كونها تشمل مصر والدّول العربية الّتي حاول محمد علي ضمها إلى دولته مثل الخليج العربي والشّام والسودان واليمن، فضلا عن أحداث الدول الأوروبية التي أثرت بشكل كبير في معطيات دراستنا، مما أدى إلى تعدد المعطيات التاريخية والموضوعات التي سيتم التطرق إليها بشكل مفصل ومكثف، فعلى الرغم مما كتب حول هذه الموضوع إلّا أن توجيه ذلك ليخدم موضوع هذه الدّراسة لم يكن أمرا يسيرا أبدا، إذ بدت العملية وكأنها غربلة أحداث ثم جمع ما يصلح منها لمادة الدّراسة، وصياغتها من جديد بعد تلخيصها، إلا أن المشكلة الحقيقية التي صادفتنا تضارب المعلومات واختلافها خاصة عند المؤرخين الذين عاصروا فترة حكم محمد علي باشا مثل الرجبي والجبرتي وغيرهم، وأيضا اختلاف وجهات نظر بعض الدّراسات والمصادر بسبب الرؤية المنحازة إلى الدّولة الّتي ينتمي إليها المؤرخ أو الباحث بسب الصّراع التّاريخي بين مصر ودولته، بمعنى أخر أن هذه الدراسات لم تكن تخلو من الذّاتية مثل الدراسات السعودية والتركية والسودانية، كما أن عصر محمد علي باشا نال اهتمام الكثير من الباحثين غير أن هذه الدراسات تتصف في أغلبيتها بطابع السردي أكثر من اهتمامها بالتّحليل التّاريخي، ومن دون أن تهتم بدراسة مجرى الأحداث بفهم والإدراك، فعصر الباشا من العصور المتميزة في تاريخ مصر بسبب ما حققه من انجازات كثيرة ولا سيما في الجانب العلمي والعسكري، ونجاحاته المتواصلة في شتى الجوانب، فقد كان عصر ذهبيا لمصر لذلك يجب أن يدرس بالصورة الحقيقية لتلك الشخصية، غير أن ذلك لم ينقص من عزيمتنا وإرادتنا على إكمال العمل، فإذا وفقنا فمن الله، وإذا أخطأنا فمن أنفسنا، آملين من باحثين آخرين إتمام نقائص هذا البحث وإعطائه لبنات أخرى تزيد من إثراءه، وتزيل عنه الإبهام والغموض، وإثراء المكتبة الجزائرية بمثل هذه الدراسات.

وفي الختام لا بد من القول إن الكمال لله وحدهُ فله الحمد والشكر والثّناء وهو على كل شيء قدير، فقد قدمت الجهد الذي استطيع تقديمه وأتمنى أن أكون قد حققت الهدف في استكمال شروط البحث العلمي وتقديم الدراسة التي تضيف لبنة أخرى إلى صرح التّأريخ الحديث والمعاصر للمكتبة الجزائرية، بعد أن تضع لجنة المناقشة لمساتها وخبرتها العلمية وملاحظاتها وتوجيهاتها على هذا الجهد المتواضع، فيقول العماد الأصفهاني:" إني رأيت أنه

ما كتب أحدهم في يومه كتابًا إلّا قال في غداه لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد ذاك لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك ذاك لكان أجمل، وهذا منّا عظيم العبر، وهو دليل على استيلاء النّقص على جملة البشر".

فأعتذر مقدمًا عن النقص والخطأ إذا كنت قد نقلت غير الصحيح بحسن نية، كما أتمنى أن تستمتعوا بقراءته وتستفيدون منه، كما استمتعت واستفدت في إعداده من دون أن يصيبكَم الإرهاق الذي أصابني. وندعو الله بقولهِ الكريم: "رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا "– **سورة البقرة: 286** – إنه على ما يشاء قدير. ومن الله التوفيق ...

المدخل

أولا: أوضاع مصر قبل وصول محمد علي باشا إلى السلطة

لكي نضع محمد علي في اطاره الحقيقي، ونُقَوِم مكانته في منظومة التّاريخ المصري، فإن علينا أن نبدأ بإطلالة على أوضاع مصر نود في البداية أن نلقي نظرة على ارجاء مصر قبل وصول محمد علي إلى أراضيها نظرة شاملة لستة قرون عاشتها مصر وتعايشت معها في ظل دولة الممالك، تلك هي نقطة البداية والانطلاق في هذه السّاحة التّاريخية منذ أن اعتلى الممالك عرش مصر إلى أن أفل نجمهم وسلطانهم مروراً بما آل إليه حال البلاد، وانتهاء بمولد عصر جديد لمصر بقيادة محمد علي باعث نهضة مصر الحديثة؛ فكيف كانت تحكم مصر؟ وماذا عن مستوى التعليم والثقافة والعادات والتقاليد السائدة؟ وهل كان للمصريين نصيب في ثروات وطنهم؟ ومن هنا كان واجبنا أن نستجلى هذه الحقائق حتى يتبين لنا الفارق بين حالت مصر في عهدين متاليين، ومن خلال المقارنة سيتضح لنا دور محمد علي في بعث مصر من وهدتها، وجعلها قاعدة لدولة عظمى تحمل رسالة المدنية، وتستأنيف رسالتها الحضارية.

ستكون البداية بدولة السلاطين الممالك، حيث امتد سلطانها وحكمها لإقليمين كبيرين هما سوريا والشام في الشمال، ومصر والحجاز في الجنوب، وبحرين عظيمين هما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، فقد بدأت هذه الدولة في كامل العنفوان والقوة وانتهت ضعيفة مصابة بالشيخوخة، الأمر الذي يعني أن هناك عوامل ومؤثرات خارجية وداخلية كان من شأنها أن تعمل على نهاية هذه الدولة بهذا الشكل[1]، ويمكن القول بأن العوامل الخارجية انحصرت بصفة عامة في الحدث الخطير المتمثل في الانقلاب التجاري العالمي الذي تم علي أيدي البرتغال والإسبان، على أثر سقوط الدولة الاسلامية في الأندلس مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، هذا الانقلاب الذي تحولت بواسطته التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر ومصر والبحر الأبيض المتوسط إلى طريق

[1] - حسين كفافي، محمد علي، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص 11.

الرجاء الصالح حول افريقيا، فقد حرم هذا التحول التّجاري مصر من عدم المرور بأرضيها مصدراً هاماً لتمويل الخزانة وبسببه لم تعد مصر سوقاً للتجارة العالمية، وفتح هذا التحول التجاري أزمة اقتصادية عانت من جراءها مصر وشعبها[2].

أما عن العوامل والمؤثرات الداخلية، فهي التي تنحصر في سياسة الممالك السيئة التي أدت في النهاية إلى السقوط متعدد الأنواع والأشكال، سقوط في كافة مظاهر ونواحي الحياة الاجتماعية واقتصادية وزراعية، ففي هذه الحقبة توالى على مصر عدد كبير من السلاطين الممالك وتخللتها المؤامرات والانقلابات والانتفاضات والثورات الشّعبية، فكان الممالك لا يبقوا على كرسي السّلطنة في مصر إلا عدة شهور لا تتجاوز العام مثل ما حدث مع السّلطان الكامل شعبان[3]، وقليل من السلاطين طالت مدة حكمهم بعض الشيء مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي بالرغم من ذلك تخللت فترة حكمه انقلابات عديدة، ترك فيها كرسي الحكم وغادر البلاد، وكل هذه الأمور أدت إلى تفكك المجتمع المصري وتخلفه خاصة بعد أن صار لنظام البذل والرشوة يمثل المورد الأساسي والدخل الثابت لموظفي الدولة، فالدولة خزينتها فارغة فلا مرتبات ولا مكافآت للموظفين[4].

فذكر الكثير من المؤرخين أنّ المجتمع المصري عاش أواخر العصر العثماني المملوكي أسوأ فترات حياته في مختلف المجالات، ففي المجال الثقافي والعقلي فقد انحطت الأخلاق واندثرت العلوم وفشا الوباء وسادت الخرفات والخزعبلات، وخيم الركود على العقول والأفهام، وفقد العلماء روح الابتكار والتجديد، وتجمدوا في إطار التقليد والنقل عن الأسلاف، وانطفأت الجذوة الخلافة التي دفعت المسلمين الأوائل إلى ارتياد آفاق العلوم وإكتشاف أسرار

---

[2]– المرجع نفسه، ص 12.

[3]– السّلطان الكامل سيف الدّين شعبان بن النّاصر محمد بن قلاوون سلطان مملوكس تولى حكم مصر من 1345م إلى 1346م بعد وفاة أخيه الصّالح إسماعيل **ينظر**: مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي، التاريخ المعتبر في أنباء من غبر «وهو كتاب جامع لتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام وتراجم أئمته العظام إلى مبتدأ القرن العاشر الهجري، حق: لجنة مختصة من المحققين، دار النّوادير، سوريا، 2011، ج3، ص 197– 203.

[4]– حسين كفافي، المرجع السابق، ص ص 12– 13.

الكون، واقتصر الإنتاج العقلي على القشور، والإغراق في التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر والشعوذة عكس الشعوب الأوروبية التي قطعت شوطا بعيد في مجال الصحوة العقلية والثقافية والعلمية منذ عصر النهضة الإيطالية[5].

غير أن الإمام شهاب الدين أبي العباس المعروف بالسمين الحلبي[6] يذكر في كتابه الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون عكس ما ذكره المؤرخون عن حالة العلم والعلماء في مصر في عصر المملوكي فقال :" أصبحت مصر في العصر سلاطين المماليك محوراً لنشاط علمي كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار، والدليل على ما نقول ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف الفنون، فقد أفصح المماليك حكام مصر فيهذا العصر صدورهم للعلماء وأولوهم المكانة اللائقة بهم حتى أوقف الأمراء والسلاطين وذوي اليسار الأوقاف الكبيرة على دور العلم والعلماء والطلاب، فشيدت المدارس والجامعات والمساجد التي تحمل رسالة الدين العلم، وكانت هذه المدارس خلايا تزخر بالطلاب الذين يفدون إليها من كل صوب، وكان منهج التعليم في هذه الجامعات كفيلاً بتنمية المواهب لدى الطلاب فهم أحرار في اختيار الكتاب الذي يدرسونه والاستاذ الذي يلتفون حوله"[7].

---

[5] – جمال بدوي، مصر من نافذة التاريخ، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1994، ص 45.

[6] – السمين الحلبي: هو أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود، كنيته أبو العباس، ويُلقب بشهاب الدين أو الشهاب الحلبي المعروف بالنحوي أو السمين الحلبي وهذا هو أشهر ألقابه،، لم تذكر المصادر العربية شيئا عن زمن ولادته، إلا أن أغلب المؤرخين لا يختلفون في زمن وفاته، فقد توفي في القاهرة سنة 756هـ ، يُجمع المؤرخون على أن نشأة الرجل كانت في حلب، وقد اكتسب فيها لقبه السمين، ثم يذكرون أنه رحل إلى مصر متنقلاً بين بيئاتها العلمية ولازم. علمائها مدة طويلة، وبخاصة أبوحيان الأندلسي الذي يعد السمين أحد أكابر أصحابه، ولما مهر فيما تعلمه تولى التدريس والإعادة في مساجد القاهرة، وتصدر للإقراء فيها، منها جامع ابن طولون والشافعي... ويبدو أن الرجل قد فقهٍ علوم العربية وتمثلها، وكتابه الدر خير شاهد على ذلك... ومن مؤلفاته الأخرى: (تفسير الدر المصون)،(التفسير الكبير). **ينظر**: خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس التّراجم لأشهر الرّجال والأعلام والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم الملايين ، بيروت.

[7] – شهاب الدين أبي العباس بن يوسف، الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: علي محمد معوض، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.ن)، ج1، ص 11.

ونفس حقيقة أشار إليها إحدى الدراسات الحديثة لساواش بن يوسف كوجاباش في رسالة الماجستير بعنوان الامام فخر الدين الزيعلي تبين الحقائق في قوله :" أن القرن الثامن عشر بشكل عام شهد تقدماً علمياً بارزاً، وكثرت فيه المدارس، والمكتبات، وكثر العلماء ونشاطهم، وكان ذاك لعوامل منها، أولا تشجيع الكثير من السلاطين للعلم والعلماء، فسلاطين الممالك أقاموا وزنا كبيراً للعلماء وعظموهم وقدموهم في مسائل كثيرة، فكان الأثر المباشر في نفوس العلماء على أن يظلوا مجاهدين في سبيل الله حريصين على الشريعة، وثانيا إنشاء دور التعليم، وهجرة العلماء الذين رحلوا إلى مصر مثل الإمام الزيلعي، وساعد على نشاطهم العلمي في مصر أنهم وجدوا فيها تعظيم السلاطين والعامة لهم ومعاملتهم الحسنة واستشارتهم في أمورهم "[8].

ففي المجال الاجتماعي والاقتصادي يصف **جبرتي** حالة مصر قبل وصول محمد علي باشا إلى السلطة في قوله:" ان هذه السنة 1198هـ/ 1784م قد انقضت كالتي من قبلها في الشد والغلاء وقصور – يقصد بها فيضان– النيل، والفتن المستمرة، وتواتر المصادمات والمظالم من الأمراء، وانتشار أتباعهم في النواحي لجلب الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع من المظالم ويسمونها مال الجهات والفردة، حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشو – يعني فروا – من بلادهم، فحاولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين في بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ما هم فيه من المصادرات الخارجية، وتتبع ما يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما قدر عليه، وتوالي طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة، ولما تحقق التجار من عدم الرد استعاضوا خسارتهم من زيادة الأسعار، ثم مدوا أيديهم إلى المواريث فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أولا، وصار بيت المال من جملة المناصب التي يتولاها شرار الناس بجملة من المال

[8] – ساواش بن يوسف كوجاباش، الإمام فخر الدين الزَّيلَعي وكتابه تبيين الحقائق، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.ن)، ص 50.

يقوم بدفعه في كل شهر ولا يعارض فيما يفعل من الجزئيات، وأما الكليات فيختص بها الأمير، فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء إلا من تداركه الله برحمته، أو اختلس شيئا من حقه فان اشتروا عليه عوقب على استخراجه، وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد في الناس لبعضهم البعض، فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلي به إلى الظالم، حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وفقد الأمن، وجَلَت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم، وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشور البطيخ وغيره..."[9].

ومن العوامل التي أثرت على المجتمع المصري الصراعات التي نشبت بين البيوت المملوكية المختلفة من أجل الاستحواذ على المناصب الادارية الكبرى والاستشرافية، أو على الالتزام المقاطعات المختلفة، وكانت مصر قد أصبحت ملكاً مشاعا تتقاسمه البيوت التالية من هؤلاء المماليك، وكانت الحروب تدور بينهم في الشوارع القاهرة، وتصبح الحياة صعبة ويصاب السكان بأضرار بالغة[10].

أما المؤرخ **الرجبي** يذكر في قوله عن حالة مصر قبل تولي محمد علي باشا السلطة في قوله: "...أعقب خروج الفرنسيين في أكتوبر سنة 1801م، وهي فترة انتابت مصر فيها حالة من الفوضى والاضطراب في مختلف مناحي الحياة، وهي استمرار للفوضى التي اعتورت مصر قبيل الحملة الفرنسية وأدت إلى مجيء الفرنسيين واحتلالهم مصر زهاء ثلاث سنوات، وعقب انسحابهم انقسم المماليك إلى طوائف عدة متناحرة وتحول الكثير منهم من حكام ورجال دولة إلى رجال عصابات، كما أن الجنود الأتراك من الأرنوّط والألبان وغيرهم

[9] – الجبرتي عبد الرحمان، عجائب الأثار في التراجم والأخبار، الغزوة الفرنسية، ج4، حق: عبد العزيز جمال الدين، مكتب مدبولي، مصر ، ص 144.

[10] – عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة ابان العصر العثماني (1517– 1798م)، المجلة التاريخية المغاربية، عدد خاص حول الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء الحكم العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية وتوثيق المعلومات، زغوان – تونس، 1988، ص 498– 499.

الذين قدموا إلى مصر للمساعدة في طرد الفرنسيين منها تحولوا إلى القتل والسرقة والنهب، وامتلأت عاصمة مصر وقراها ومدنها المختلفة بعصابات من الأتراك والمماليك والبدو، وافتقدت المن على الأموال والأنفس والممتلكات، ووقعت مصر فريسة صراعات بين طوائف عدة متناحرة تحكمها اهوائها ومصالحها الخاصة... " [11].

كما أشارت بعض أغلب المصادر الرحالة الأجانب في كتاباتهم حول المجتمع المصري قبل الحملة الفرنسية، إذ رسموا صورة سيئة لهذا المجتمع كان الغاية منها تبرير استعمارهم والإشادة بدورهم في تحديث تلك المجتمعات ودور الرجل الأبيض فيها، لكن الحقيقة أن ايتهم العكس تماما والتي سنتناولها في الفصل الموالي.

ثانيا: التّنافس الأوروبي على مصر قبيل القرن التّاسع عشر الميلادي

كانت مصر منذ وقت طويل ملتقى لطرق المواصلات العالمية، ومعبراً تمر به التّجارة بين الشّرق والغرب، فموقعها الجغرافي وسط أفريقيا وأوربا وآسيا التي تمثل مراكز الإنتاج والصّناعة والاستهلاك فضلا عن موقعها الاستراتيجي بين البحرين المتوسط والأحمر جعلاها محطاً مهما لتجارة الشّرق والغرب[12].

اهتمت الدّول الأوروبية بالحفاظ على ما حصلوا عليه من امتيازات في الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة، فبالنّسبة لفرنسا لفتت ثروات مصر الزّراعية، وموقعها الجغرافي انتباهها، ويرجع ذلك إلى كتابات الرحالة الفرنسيين والقناصل الذين كتبوا بإفاضة عنها، كما أن أوضاع فرنسا الدّاخلية كانت سبب في نمو فكرة غزو مصر، وذلك عندما انهزمت في حرب السّنوات السّبع، وفقدت مستعمراتها في الهند والعالم الجديد، ويستدل على ذلك من

[11]– الرجبي جليل بن أحمد، تاريخ الوزير محمد علي باشا، تح: دانيال كريسيليوس وآخرون، ط 1، دار الأفاق العربية، القاهرة، ص 89.

[12] – عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص71.

خلال ما كتبه الدّوق شوازيل choiseul[13] إلى الكونت فرجين virgin[14] عام 1766م يطالب في رسالته "بغزو مصر لكي تكون بديلا عن أمريكا والهند"[15].

وعندما ظهر مشروع تقسيم الدولة العثمانية بين روسيا والنمسا رحب دي شوازيل عام 1769م بالفكرة على أن تكون مصر من نصيب فرنسا، وذلك من أجل تنمية التجارة وتعويض ما فقدته من مستعمرات، وأثناء حرب الاستقلال الأمريكية (1776- 1782م) وضع البارون ولدنيه waldn عام 1782م مشروعا بالاستيلاء على مصر واستعباد تجارة بريطانيا من البحر الاحمر والهند، وعندما قامت الثورة الفرنسية عين ماجلون magallon قنصلا في مصر 1783م حيث لعب دورا هاما في تنبيه حكومة بلاده إلى أهمية الاستيلاء على مصر فكتب تقريرا يقول فيه:" لابد من إنهاء عبث الحكام المماليك بمصالح فرنسا التجارية، ولابد للجمهورية أن تستخدم القوة لغزو مصر للمزايا والفوائد السياسية والاقتصادية التي سوف تجنيها فرنسا من سيطرتها على مصر وعلى البحر الأحمر"، وأوضحت التقارير

---

[13]- إتيان-فرانسوا، كونت ستانفيل دوق شوازيل Étienne-François, conte de Stainville, duc de Choiseul : (28 جوان 1719 - 8 ماي1785م) كان ضابطاً ودبلوماسياً ورجل دولة فرنسياً .وبين 1758 و 1761، و 1766 و 1770، كان وزير خارجية فرنسا وكان له تأثير كبير على استراتيجية فرنسا العالمية طوال تلك الفترة. **وللمزيد ينظر:**

-Blaufarb, Rafe. The French Army, 1750–1820: Careers, Talent, Merit. Manchester University Press, 2002.

[14] - **شارلز غرافييه كونت دي فيرجين** (29 ديسمبر 1719 - 13 فبراير 1787) رجل دولة فرنسي ودبلوماسي، شغل منصب وزير الخارجية من عام 1774 في عهد لويس السادس عشر، ارتقى إلى صفوف السلك الدبلوماسي أثناء التعيينات في البرتغال وألمانيا قبل أن يتسلم منصب المبعوث المهم إلى الإمبراطورية العثمانية في عام 1755، وبينما كان هناك أشرف على المفاوضات المعقدة التي نتجت عن الثورة الدبلوماسية قبل في عام 1768، عاد إلى بلاده وتم ترقيته إلى وزير الخارجية،. **ينظر**: جلال يحي، مصر الحديثة، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1982، ص 332. **ينظر أيضا:**

- Murphy Charles Gravier, Comte De Vergennes: French Diplomacy in the Age of Revolution, 1719-1787 ,p.ix

[15] - نجلاء عبد التواب خلاوي حسنين، الامتيازات الأجنبية في مصر (1213- 1297هـ/ 17986 1879م)، رسالة ماجستير، حامعة الاسكندرية، كلية الآداب فرع دمنهور، قسم التاريخ والأثار المصرية والاسلامية، ص 25.

التي كتابها ماجلون مزايا الاستيلاء على مصر لخصوبة أراضيها وتحويلها إلى مستعمرة زراعية وسوق لتوزيع السلع[16].

وقد ذكر سويتني دي مانتكور sweetney de mantkor hg الرحالة الذي زار مصر بعد نشوب الثورة الفرنسية، وعدّد مزايا احتلالها فقال:" أنه لابد من غزو مصر للإفادة من ثرواتها، فضلاً عن أن بريطانيا استأثرت بالهند وأصبحت ممتلكاتها فريسة في يدها، فمن الأفضل لفرنسا أن تستولي على مصر فهي تقع على ساحل افريقيا، وتُعتبر همزة وصل بين آسيا وأوروبا، ومن الممكن أن تكون مركزاً لتجارة العالم لو استولت عليها فرنسا أن تكون أكثر دول العالم ثراء بسبب التجارة "، وذكر أوليفيه عن مصر أيضاً في قوله: " مصر هي الانحطاط والجهل والبؤس والطغيان، إنها تنحني دائماً أمام أقدام الأجانب، طوال تاريخها، وذلك بسبب موقعها الجغرافي وأراضيها الخصبة ولا نستطيع أن نعدد الغزوات التي تعرضت لها مصر، وهي من السهل غزوها"، كذلك دعا أوليفيه لانفصال مصر عن الباب العالي لأن ذلك سيؤدي إلى استقرار الفرنسيين وتجارتهم ولا سيما أن المماليك لا يكفون عن التطاحن، والحكومة العثمانية عاجزة عن القضاء على سلالة العبيد الاسيوية بسبب انتشار الفوضى ولا بد من غزوها لإعادتها إلى عظمتها والافادة من طريق البحر الاحمر، وفتح الموانئ للملاحة مع الهند ولابد أن يعود للإسكندرية مكانتها السابقة"، وعدد اولفييه أيضا الفوائد أيضا التي ستعود لفرنسا من الغزو فقال:" ستصبح مصر أغنى دولة في العالم وفي نفس الوقت سيضيف الغزو مجدا عسكريا لفرنسا" وقال أيضا :" ينبغي علينا الا ننتظر سقوط الدولة العثمانية لتكون مصر من نصيبنا أن الغزو سيتيح لنا الحصول على المنتجات الفارسية الصينية الحبشية"، ولكن لا ينبغي أن ننكر ضعف أحوال مصر الداخلية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على اتمام هذه الفكرة، فقد شاهد القرن الثامن عشر ضعف السلطة

[16]– إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر،(د.ط)، دار الهيئة المصرية الهامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص ص 35– 42.

المركزية، وانتشار المنازعات بين المماليك بعضهم البعض مما أدى إلى انتشار المذابح في الشوارع، وشجع البدو على الإغارة على القوافل التجارية[17].

وأما بالنسبة للمصالح الانجليزية فكانت إنجلترا ترغب في ايجاد طريق مباشر للتجارة بين الهند وميناء سويس، فكانت المراسلات بين هؤلاء التجار وعلي بك الكبير وراء عقد معاهدة تجارية لتحقيق هذا الهدف وقد عقدت هذه المعاهدة بين محمد أبو الذهب وبين حاكم البنغال وارن هستنجر عام 1775م مقتضاها أصبح بإمكان تجار الانجليز الحصول على المنتجات المصرية دون تحصيل ضرائب عليها، وتعاهد محمد أبو الذهب للمحافظة على التجارة عند نقلها من الطور والسويس إلى القاهرة، وقد عارضت السلطات العثمانية هذه المعاهدة وطلبت من السلطات البريطانية منع السفن انجليزية من الوصول إلى السويس، ولكن السفن الانجليزية استمرت في التردد على ميناء سويس، فأصدر السلطان العثماني 1779م فرنانا من منع السفن الانجليزية من الاقتراب من السويس وأرسلت حملة القبطان حسن باشا عام 1786م لوضع حد لسيطرة المماليك في مصر، وكان السبب الحقيقي وراء معارضة البابا العالي:

1- معراضة المجمع التجاري العثماني في جدة، الذي كان يرى في وصول التجارة إلى ميناء سويس عاملا في تدهور ميناء جدة لحساب ميناء سويس[18].

2- تدفق التجارة الشرقية عبر مصر، سوف يزيد من قوة المماليك المتطلعين إلى السطلة، ومناوئين للحكم العثماني[19].

[17] – المرجع السابق، ص ص 42- 45- نجلاء عبد التواب خلاوي حسنين، المرجع السابق، ص 25.

[18] – علي بركات، رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، سلسلة تاريخ مصر رقم 103، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص 18.

[19] – المرجع نفسه، ص 19.

3- عقد مثل هذه المعاهدات يعد اعترافاً ضمنياً بسلطة المماليك في مصر، وتعدي على سلطة البا العالي، صاحب الحق في السيادة على مصر، وبسبب هذه المعارضة فشلت هذه المعاهدة[20].

وأما روسيا فتكمن مصالحها في سياستها البحرية التي كانت تهدف دائما إلى الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط حيث المياه الدافئة، وذلك لأنها تفتقد إلى المنافذ البحرية الصالحة للملاحة طوال العام على الرغم من موقعها على ثلاث بحار هم: المحيط الشمالي ، والمحيط الهادي، وبحر البلطيق، أما البحر الأسود فيستلزم العبور إليه المرور عبر مضيقي البسفور والدردنيل، وهما في قبضة الدولة العثمانية، ولهذا السبب برز الوجود الروسي في مياه البحر الأحمر عقب معاهدة **كوتشيك كينارجيه**[21] عام 1774م، والتي حصلت روسيا بوجبها من الدولة العثمانية على حق الملاحة في البحر الأسود وفي مياه العثمانية كلها[22]،وقد عقدت معاهدة تجارية أخرى بين الامبراطورية الروسية والباب العالي في اسطنبول 12 جوان 1783م، أقيمت على اساسها حرية التجارة والملاحة الروسية في كل البحار واقاليم الدولة العثمانية وفي كل مكان اخر من أملاك الدولة العثمانية دون قيود

---

[20] -المرجع نفسه، ص 20.

[21] – معاهدة كيتشوك كاينارجي، هي معاهدة سلام بين روسيا والدولة العثمانية المنعقدة في 21 جويلية 1774م، في معسكر قرب قرية كيتشوك كاينارجي التي تقع في بلغاريا المعاصرة، جاءت تلك المعاهدة في 28 مادة ومادتين منفصلتين، وبمقتضى هذه المعاهدة انفصلت خانية القرم إداريا عن الدولة العثمانية، وأصبحت دولة مستقلة، لا ترتبط بالدّولة إلا بقيام شيخ الإسلام في إسطنبول بتنظيم الشؤون الدينية للقرم، واعتبرت المعاهدة ضربة مدمّرة للسّياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على البحر الأسود والمضايق، فقد قرّرت المعاهدة أن تكون الملاحة للسفن الروسية التجارية حرة ومفتوحة وغير مشروطة، ويكون لها الحق في حرية المرور في المضايق بين البحر الأسود والبحر المتوسط، وحرية دخول الثغور والموانئ الواقعة على ساحل البحر الأسود، وممارسة التجارة فيها، وقرّرت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا بصورة كاملة ودائمة عدة مواقع وقواعد عسكرية عثمانية، مثل: قلعة كينبرن التي تقع عند مصب نهر دنيبر، وقلعة جنيكال وقلعة كيرتش الواقعتين في شبه جزيرة القرم ومدينة آزوف بمنطقتها وحدودها، وهو ما أفقد الدولة سيطرتها على منطقة القرم وأضعف قبضتها على البحر المتوسط. ينظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، المصدر السابق، ص 317- 319.

[22] – عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 51.

بحرية أو تجارية، وكان ذلك بناءاً على ما ذكر في المادة الأولى التي نصت على ما يلي: "على الباب العالي أن يسمح تماماً فكل ما يخص روسيا بشكل عام في الملاحة البحرية والتجارية بالحرية في كل أرضيها وبحارها ومياهها حول الدانوب وفي كل مكان بما يتفق و المصالح الروسية"[23].

وعلى الرغم من كل المعاهدات والاتفاقيات التي حصلت فيها روسيا على فتح جميع الموانئ والبحار الخاضعة للحكم العثماني أمامها إلا أنها كانت تخشى أنه في حالة قيام حرب بينها وبين الدولة العثمانية، فإن الدولة العثمانية قد تغلقهم أمامها، ومن جهة أخرى نجد أن فرنسا من مصلحتها السياسية عدم التورط في حرب مباشرة مع انجلترا وإلحاق أكبر ضرر ممكن بها كما ذكر **شارل موريس دو تاليران بير غور** Charles Maurice De Tallerand Perigord، وعلى هذا قررت حكومة الادارة 1798م في شهر أفريل ايفاد حملة عسكرية بقيادة الجنرال نابليون بونابرت الى مصر، وفي الحقيقة أن بونابرت نفسه تحدث في 6 أوت 1797م أثناء وجوده في إيطاليا وكتب إلى حكومة الإدارة مبينا أهمية مصر لفرنسا قائلا:" ان المواقع على شواطئ البحر الابيض المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر وإذا كانت بريطانيا تنازعنا طريق رأس الرجاء الصالح فلنتجاوز عنه، ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطرق المفضي للهند ويسهل علينا أن ننشئ بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم، وإذا أردنا أن نهاجم بريطانيا فلنهاجمها في مصر"[24]، وليس هذا فقط ما أرادته فرنسا بل أرادت فتح سوق لمنتجاتها في افريقيا وبلاد العرب وسوريا، وجلب المواد الخام من هذه البلاد إلى فرنسا، أي تحويل التجارة الشرقية الى مصر، كما أرادت جعل

[23] – نجلاء عبد التواب خلاوي حسنين، المرجع السابق، ص 27.

[24] – المرجع نفسه، ص 29.

مصر قاعدة لها تتمركز فيها لغزو الهند ومهاجمة الاملاك البريطانية بها وهزيمة هولندا التي كانت لها مستعمرات في الهند الشرقية[25].

وكان نتيجة هذا التنافس والظروف السائدة في أوروبا أن تعرضت مصر إلى حملة فرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام 1798م الذي سعى أن يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية .

[25] – المرجع نفسه، ص ص 29– 30.

ثالثا: الحملة الفرنسية على مصر 1798م

أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية بعد الانتصار الذي حققه العثمانيون على المماليك في موقعة الريدانية[26] في 23 جانفي عام 1517[27]، وكان من نتائجها أن استولى السلطان العثماني سليم الأول (1512- 1520) على مصر، فأصبحت منذ ذلك الحين جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، أما قوة المماليك في مصر فإنها قد اضمحلت تقريباً عند دخول العثمانيين لمصر، ومن بقي منهم كانوا فئة قليلة أبقاهم العثمانيون في مصر من أجل حفظ التوازن بين الوالي ورؤساء الحامية العثمانية[28].

لفتت الحملة الفرنسية على مصر (1798- 1801)، اهتمام عدد كبير من المؤرخين والكتاب والباحثين على اختلاف آرائهم واتجاهاتهم، منذ بدء الاحتلال الفرنسي وحتى الوقت الحاضر، وذلك نتيجة لأهميتها ودلالتها الواضحة في الصراع والتنافس الدولي من جهة، ولتأثيرها البالغ على الشرق العربي على العموم وتاريخ مصر على الخصوص من جهة ثانية[29]

لم تنشأ فكرة احتلال فرنسا لمصر بصورة مفاجئة وإنما كان لها دوافع وأسباب عديدة، ولكي أفهم طبيعة العلاقات التي أرادت فرنسا إقامتها مع مصر، لا بد لي من

---

[26] – **موقعة الريدانية:** هي المعركة التي دارت بين القوات العثمانية والقوات المملوكية في 23 جانفي عام 1517، وكانت نتيجتها انتصار العثمانيين وهزيمة المماليك وأصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية، إذ دخل سليم الأول القاهرة وأصبح اسمه يذكر في الخطبة كما ضربت عملة جديدة باسم السلطان سليم الأول. للتفاصيل ينظر: عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516- 1916، منشورات ألف باء- الأديب، ط1، دمشق، 1974، ص63.

[27] – ابن اجا محمد محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، حق: محمد أحمد وهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 282.

[28] – سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1997، ص68.

[29] – سيد مصطفى سالم، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، مركز الدراسات اليمنية، القاهرة، 1974، ص9.

استعراض أهم الأسباب التي دفعت فرنسا لاحتلال مصر، ويمكن تقسيمها إلى أسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة، ويمكن إجمالها بما يأتي:

أ- رغبة فرنسا في إقامة وتطوير العلاقات التجارية بينها وبين الشرق عموماً ومصر بصورة خاصة[30].

ب- استمرار تفاقم أحوال الدولة العثمانية وضعفها وتدهورها في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، كما تطور الصراع بين الدول الأوربية خصوصاً بريطانيا التي سعت وحتى أواخر القرن التاسع عشر للمحافظة على نفوذها السياسي والاقتصادي في المنطقة، من أجل عرقلة التقدم الروسي باتجاه البحر المتوسط، أما فرنسا فقد سعت هي الاخرى للتوسع المالي والتجاري وبسط نفوذها وسيطرتها على بعض البلدان التابعة للدولة العثمانية ولا سيما مصر وبلاد الشام[31].

جـ- موقع مصر (الجيوستراتيجي) بين آسيا وأفريقيا: إذ كانت فرنسا ترى بأن احتلالها لمصر سوف يضع يدها على أقصر طريق بري بين الشرق والغرب، فكان لتلك العوامل الأثر البارز في تحفيز فرنسا وتزايد رغبتها في احتلال مصر[32].

أما السبب المباشر للحملة الفرنسية فإنه يتمثل برغبة فرنسا الشديدة في ضرب المصالح البريطانية من خلال السيطرة على طريق الهند، كما أنها كانت ترغب في جعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية وبعبارة أخرى فإن نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte، كان يفكر بطريقة معينة لمهاجمة بريطانيا في الشرق وقطع طريق الاتصال بينها وبين مستعمراتها، وفي ذلك الوقت كان كلٌ من نابليون وكذلك وزير الخارجية الفرنسية تاليران Talerand يحثان الحكومة الفرنسية بضرورة إرسال حملة عسكرية إلى مصر من أجل

[30]- طلال المهتار، آثار حملة بونابرت على مصر، دار اقرا، بيروت، 1962، ص9.

[31]- عمر الاسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، مصر، 1917، ص86.

[32]- محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، المرجع السابق، ص51.

تهديد مركز بريطانيا وكانا يعتقدان أن ذلك سوف يكون[33]، ومن أجل توضيح ذلك أكثر لا بد أن نرجع لسنوات سبقت الحملة الفرنسية على مصر، فقد اهتمت إنجلترا بمصر نسبيا عكس فرنسا التي كانت أكثر نشاطاً، فبعد سلام باريس في عام 1763م، التي فقدت فيه جانبا كبيرا من إمبراطوريتها حينها بدأت فرنسا في النظر إلى مصر كمستعمرة محتملة لها، وكقاعدة للهجوم على الهند، وأيضا على خطوط الاتصال الانجليزية عبر رأس الرجاء الصالح، وفي عام 1785م أبرمت معاهدة للصداقة والتجارة مع الحاكم المملوكي في القاهرة، وبعد أن اندلعت الحرب ضد النمسا عام 1793م أعيدت القنصلية الفرنسية إلى القاهرة بعدما أغلقت في عام 1777م، وفي عام 1796م أرسلت بعثة علمية ذات طابع علمي – دبلوماسي إلى طهران، ولم تكن لفرنسا علاقات وثيقة فقط مع مصر وإيران ضد انجلترا، ولكن مع شريف مكة ومع إمام المسقط (شبه الجزيرة العربية) الذي اسست عنده عام 1795م قنصلية، كما لا ننسى التبادلات التجارية مع جزيرة ماوريشيوس، ومع سلطنة ميسوري في الهند[34]، وبالتالي فإنه يمكن القول بأنه في عام 1793م كانت قد تبلورت فكرة القيام بعملية احتلال مصر كخطوة أولى نحو الهند.

ويقابل النشاط الفرنسي المكثف ذلك النشاط البريطاني المحدود، فقد وصل أوائل التجار الانجليز في القرن السابع عشر، ولكن على خلاف زملائهم الفرنسيين، لم تكن لهم قنصليات إلا على فترات متقطعة: في 1630م و1645م و1658م، وحدث فقط بين 1686م و1756م أن كان لهم قنصل بصورة متواصلة، وحاولوا حينها منافسة التجار الفرنسيين، ولكن عام 1756م أغلقت القنصلية نظراً للأنشطة القليلة التي قام بها العدد الضئيل من الانجليز المقيمين في مصر، ومع ذلك فإن انجلترا بعد سنوات حاولت استخدام

[33]– المرجع نفسه، ص 51.

[34]– كارلو جيليو، القضية المصرية من عام 1798 إلى عام 1841، ، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا "،(مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين)، تر: عماد البغدادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 م، ص 149.

السويس للتجارة مع الهند وأبرمت اتفاقيتان مع حاكم مصر والرحالة **جيمس بروس**[35] وحاكم البنغال البريطاني **وارين هاستينجر**[36]، ولكن سلطات القسطنطينية احتج على الاتفاقيتين مذكرا بالخطر القديم المفروض على الأوروبيين بالنسبة للملاحة في البحر الأحمر وشمال جدة، وقد اضطرت لندن للتنازل والاقتصار على استخدام طريق السويس لإرسال المراسلات بشرط أن ينقلها السكان المحليون بين جدة والسويس، لكن حكومة وشركة الهند استخدمتا طريق سويس قليلا جداً بين عامي 1777م و1780م للمراسلة بين الهند وانجلترا، وفي أعقاب طلب من India Board بشأن إمكانية تنظيم اتصال مع الهند عبر مصر، قررت الحكومة الإنجليزية إعادة فتح قنصلية القاهرة في عام 1786م، لكن النفقات المتعلقة بذلك وجد أنها غير مجدية، ولذا فقد ألغيت القنصلية في عام 1793م في الوقت الذي كانت فرنسا تفتح فيه قنصليتها، وقد بقي القنصل بالدوين بمبادرة منه في القاهرة معتقداً أن وجوده هناك أثناء الحرب مع فرنسا كان يمكن أن يكون مفيداً لإنجلترا، بل إنه أبرم في 20 ماي 1798م معاهدة مع حاكمي مصر آنذاك، وقد استشفت إنجلترا من عملية مصر جسامة الخطر في أن تنتقل تلك الدول ودول العربية أخرى إلى أيدي معادية، ومن ذلك الحين زاد الاهتمام الانجليزي بمصر وبشبه الجزيرة العربية بصورة ملموسة، ومنذ ذلك الحين وبعد تردد

---

[35] – **جيمس بروس James Bruce** : **(1143 – 1208 هـ / 1730 – 1794 م)**: يعتبر من أبرز الرحالة الذين زاروا السوّدان في ق 18م، ولد في استكلندا في 14 ديسمبر 1830م، والتحق بجامعة أندبرة لدراسة القانون، ومن ثم بدأ حياة المغامرة والسّياحة خارج بلاده، فقام برحلات مختلفة في بلاد أوروبا وانتهى المطاف إلى بلاد الشّرق، وللتّعرف أكثر عن شخصية الرّحالة جيمس بروس **ينظر:** نسيم مقار، رحالة الأجانب إلى السودان 1830م – 1851م، ط 1، مركز الدراسات السودانية/ القاهرة، 1995، ص ص 21– **وينظر أيضا:**

– James Bruce, Travels To Discover The Source Of The Nile, In The Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 (7 Vols), London, 1804.

[36] – **وارين هاستينغز** Warren Hastings : عاش في الفترة بين (6 ديسمبر 1732 – 22 أغسطس 1818) كان أول حاكم عام على الهند في الفترة بين عامي 1773 إلى 1785، اتهم بالفساد في قضية رسمية في عام 1787 لكن تم إثبات براءته في عام 1795، وللتعرف اكثر عنه **ينظر:** كوهن برنارد س، الاستعمار وأشكال المعرفة: البريطانيون في الهن مطبعة جامعة أكسفورد، أوكسفورد ، المملكة المتحدة،1997.

وصعوبة بدأت سياسة السيطرة الإنجليزية في البحر المتوسط مع معاقلها الثلاثة في جبل طارق ومالطة والاسكندرية التي يضاف إليها بعد ذلك قبرص وحيفا[37].

إن ميل نابليون إلى الشرق لم يكن جديدا على نابليون اثناء اقتراح الحملة على مصر، حتى أن بعض المؤرخون اعتقدوا أن هذا ما يفسر وجود أثار دماء شرقية نتيجة انحدار نسله من بعد الأجداد من أصل شرقي، حتى أنه أثناء حملة إيطاليا وعند وصوله إلى أنكونا في فيفري 1797م قال:" في 42 ساعة من هنا نصل إلى مقدونيا "، ولكن فكرة القيام بحملة إلى الشرق سواء لإسقاط إنجلترا أو لتكوين إمبراطورية استعمارية لفرنسا بدأت تشق طريقها بوضوح في عقل نابليون في الفترة التي انقضت بين مقدمات سلام **ليبون** في 18 أبريل 1797م، **ومعاهدة كامبو فورميو**[38] في 17 أكتوبر 1797م، وبعد الحصول على خطابات للقيصر باولو لفرسان ماطا، يطلب فيها القيصر السيطرة على الجزيرة، وبعد ذلك بقليل ومع وعود كثيرة بالحرية والاستقلال نجح نابليون في الحصول على أسطول من جمهورية فينيسيا لاحتلال الجزر الأيونية، وهكذا كتب في 13 سبتمبر 1797م للوزير الخارجية تاليران " أنني أعتقد أن المبدأ الرئيسي للجمهورية الفرنسية من الأن فصاعدا يجب أن يكون عدم التخلي أبد عن **كورفو**[39] **وزانتي**[40] ... الخ، بل إنّما على العكس من ذلك يجب أن نتمركز هناك بقوة، وسوف نجد هناك موارد هائلة للتجار وستكون على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا في التحركات القادمة لأوروبا، ولماذا لا لا يتعين علينا الاستيلاء على مالطا؟ " وإذا حدث

---

[37] – كارلو جيليو، المرجع السابق، ص 150.

[38]– معاهدة كامبو فورميو فرن Traité de Campo–Formio هي معاهدة وقعت في 18 أكتوبر 1797م للصلح بين نابليون بونابرت والكونت فيليب فون كوبنزل بوصفهم ممثلين الجمهورية الفرنسية الأولى و ملكية هابسبورغ الملكية النمساوية . كانت المعاهدة اختتام سلسة انتصارات حملات نابليون في إيطاليا وانهيار حرب التحالف الأول التحالف الأول ونهاية المرحلة الأولى من الحروب الثورية الفرنسية.

[39]– جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا حيث يفصلها عن ألبانيا كيلومترين ، تبلغ مساحة الجزيرة 592 كم ^{2}.

[40]– مدينة يونانية

عند إبرام السلام مع انجلترا أن اضطررنا للتنازل عن رأس الرجاء الصالح، فإننا يجب أن نستولي على مصر، فمصر يجب ألا تنتمي للسلطان"[41].

بعد أن عاد نابليون منتصراً من حملة إيطاليا، تلقى من الحكومة التكليف بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الفرنسية، فبعد الانتصار على الخصم الضعف وهو النمسا، فكان لابد لها من محاربة الخصم الأقوى وهو انجلترا والقضاء عليه، وفي البداية عاد نابليون لبحث إمكانية تنظيم غزو لإنجلترا، ولكن اعتبارات عديدة جعلته يتخلى عن المشروع مثل الفترة الزمنية الطويلة اللازمة للإعداد ونقص السيطرة البحرية واستحالة المفاجأة، ولكنه اقترح تنظيم حملة إلى الشرق بهدف ضرب إنجلترا في خطوط التجارة التي لا غنى عنها لحياتها.

فكان أهم اعتداء خارجي تعرضت له الدولة العثمانية عند نهاية القرن الثامن عشر الميلادي هو الاعتداء الفرنسي على مصر عام 1798م الذي قام به الجنرال نابليون بونابرت[42]، في أعقاب الثورة الفرنسية، فسعت فرنسا لتحريض الشعوب من أجل نيل حريتها واستقلالها، رغم أنها لم تكن قد تخلت عن سياستها التوسعية والاستعمارية، وكان نابليون يطمح إلى إخراج إنجلترا العدو اللدود لفرنسا من البحر الأبيض المتوسط، ويخطط لضربها باحتلال مصر الواقعة عند أهم النقاط المؤدية إلى الهند كما ذكرنا سابقاً[43].

وهكذا فقد استقر رأي حكومة الإدارة في فرنسا على الانتقام من إنجلترا، التي ألّبت جميع المماليك الأوروبية ضد الثورة الفرنسية، والتي فرضت حصاراً بحرياً على فرنسا،

---

[41] – كارلو جيليو، المرجع السابق، ص 151.

[42]–Richard F . Peters, Histoire Des Turcs De L'empire A Démocratie, Traduit: Lucien Piau, Payot, Saint– Garmain, Paris, 1966, P 81.

[43]– أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح شعباوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، استانبول، 1999، ص 83.

وكخطوة أولى وعاجلة في توجيه حملة إلى مصر لاحتلالها[44]، وكان ذلك نتيجة مقولة نابليون لتلك الحكومة:" **لكي نحطم إنجلترا يتحتم علينا أن نغزو مصر بالذات**"، وكان هدف نابليون لاحتلاله مصر استراتيجي بحري يعرقل التواجد الإنجليزي في البحر المتوسط وعرقلة خطوط ملاحتها، فعمل في بادئ الأمر على احتلال جزيرة مالطا لأنها تتمتع بموقع استراتيجي هام، واستعمالها كحلقة وصل بين فرنسا وجيوش حملتها في مصر، كما أن احتلالها لمالطا سوف يقوده إلى الثأر من **منظمة فرسان القديس يوحنا**[45] لأنه كان يحمل حقدا كبيراً لهذه المنظمة الصليبية التي كانت حينها واقعة تحت حماية قيصر روسيا، والتي تحالفت ضد الثورة الفرنسية منذ قيامها، وساندت الكرسي البابوي وبقية المماليك الأوروبية

44– إن فكرة احتلال فرنسا لمصر قديمة العهد، ويرجع تاريخ اهتمامها إلى القرنيين السادس عشر والقرن السابع عشر الميلاديين، حينما حرصت على التعرف على الامبراطوريات في الشرق خاصة الامبراطورية العثمانية والفارسية والصينية والهندية وكان الاهتمام بمصر في ذلك الوقت جزء من الاهتمام الأكبر والأهم بالإمبراطورية العثمانية، أما في القرن الثامن عشر فقد اختلف الوضع فاهتمت فرنسا لذاتها بسبب ثرواتها وموقعها الجغرافي الذي خطف أنظار الساسة الفرنسيين نتيجة كتابات الرحالة الفرنسيين والقناصل، فدعا الرحالة الفرنسي الأب كوبان في النصف الأول من القرن السابع عشر إلى غزو مصر ونشر رحلته فيها في كتابه الحروب الصلبية وعمل على إثارة حماس العالم المسيحي لغزوها، كما دعا إلى اتحاد أوروبا ضد الامبراطورية العثمانية وتحرير الشرق المسيحي منها، منها، ثم تجددت هذه الفكرة في عهد لويس الرابع عشر إذ عرض الفيلسوف الألماني ليبتز مشروعاً لغزو مصر عام 1675م موضحاً أنه سيمكن فرنسا من احتكار تجارة الهند، وقد نادى بفكرة غزو مصر أيضاً سفراء فرنسا في الآستانة أهمهم **دنيس دي هاي Denis de Haye** و**الماركيز دي نوانتيل De nointel وجيردان Girardin**، وقد أثيرت الفكرة في عهد لويس السادس عشر خاصة بعدما فقدت فرنسا مستعمراتها في العالم الجديد، وأصبحت هذه الفكرة لها طابع رسمي بعد ذلك. **أنظر** عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الأثار في التراجم والأخبار، الغزوة الفرنسية، ج4، حق: عبد العزيز جمال الدين، مكتب مدبولي، مصر، ص ص 34– 41.

45–**فرسان مالطا: هم فُرسان القديس يوحنا** جماعة دينية تابعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، يُطلق عليهم أيضًا اسم**"**الاسبتاريين"و "فرسان مالطة"، وقد أسس هذه الجماعة رجل يُدعى جيرارد في أواخر القرن 11م في أحد الأديـــرة بالـــقدس، وكان الدير مُخصصًا للنَّبيّ يحيى بن زكريا . عليهما السلام . الذي يطلق عليه النصارى القديس يوحنا المعمّدان، وهو ابن خالة عيسى المسيح . عليه السلام، وأطلق الرهبان على أنفسهم اسم **إخوة القديس يوحنا**، أو الاسبتاريين، واقتصر عملهم في البداية على العناية بالزوار والمرضى وفي وقت لاحق اشتركت الجماعة في الحروب الصليبية وأصبح أعضاؤها منافسين أقوياء لفرسان الهيكل. وحينما أُلْغِيتْ جماعة فرسان الهيكل عام 1312م، استولى الاسبتاريون على معظم ممتلكات الجماعة، وقد نعم فرسان القديس يوحنا بالثراء والقوة، وحينما استعاد المسلمون بيت المقدس، نقلت الجماعة مقرها من القدس إلى جزيرة قبرص، ثم إلى جزيرة رودس، وبعد أن غزا العثمانيون الأتراك جزيرة رودس خلال القرن السادس عشر، وطردهم السلطان العثماني سليمان منها سنة 1533م انتقلت الجماعة إلى مالطة عام 1530م، وظلت =

في عدائها للجمهورية الفرنسية، وكان لحكومة الإدارة هدف آخر آلا وهو إبعاد نابليون عن فرنسا، لأنها كانت تخوض صراعاً خفياً معه بسبب شهرته، فأصبح معبود الجماهير الفرنسية منذ أن حقق انتصارات باهرة على الجيوش الامبراطورية النمساوية، وتغلبه على التحالفات الأوروبية الموجهة ضد بلاده، فكانت حكومة الإدارة تريد سلبه هذه الشهرة التي صار يتمتع بها في باريس، وبالتالي قبلت حكومة الإدارة بغزو مصر لعل شعبيته تنقص وتضمحل، وتنسى الجماهير الفرنسية انتصاراته في أوروبا[46]، هذا إلى جانب أن حكومة الإدارة قويت اتجاهاتها نحو احتلال مصر عندما أدركت بالفعل أن تحطيم قوة إنجلترا في الجزر الإنجليزية نفسها أمر يصعب تحقيقه من قبل الجيوش الفرنسية، كذلك تاليران عارض خطة محاولة غزو إنجلترا نفسها، ووجه هو الآخر أنظار الساسة والعسكريين الفرنسيين إلى سياسة توسعية في المشرق العربي، واحتلال مصر، لأن التقارير القنصلية التي وصلت إلى وزارته قد جعلته على دراية كبيرة بأحوالها المتردية في عهد المماليك، والعمل بعد ذلك على حفر قناة تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عند برزخ السويس[47]، ونتيجة لهذه الأهداف والاعتبارات أصدرت فرنسا قراراً نهائياً يقضى بغزو مصر في 05 مارس

= هناك حتى فرق نابليون صفوفهم عام 1798م، وسرعان ما استولى البريطانيون على مالطة، وانتهت السلطة الدنيوية التي كان يتمتع بها فرسان القديس يوحنا، لكن الجماعة استمرت في الوجود بوصفها جماعة دينية. **وللمزيد أنظر:** محمد عبد الكريم الوافي، في تاريخ العرب الحديث يوسف باشا والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس ـ الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ص 71. **ينظر أيضاً:** عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الأثار في التراجم والأخبار، الغزوة الفرنسية، ج4، حق: عبد العزيز جمال الدين، مكتب مدبولي، مصر ، ص 43.

[46]–P .lyantey, e drame orientale et le rôle de la France, société d étions géographiques maritimes et coloniales, paris, 1923, p 88.

ينظر أيضا:

–(M). Mignet, Histoire De La Révolution Française Depuis 1798 Jusqu' En 1814, T2, Librarie Firmin Didot Frères, Paris, 1851, P 221.

1. [47]– محمد عبد الكريم الوافي، في تاريخ العرب الحديث يوسف باشا والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس ـ الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، (د.ت)، ص 71– 73.

1798م[48]، وذلك من خلال تجهيز جيش أسمته "**جيش المشرق**" تحت قيادة نابليون بونابرت[49].

في 12 أفريل 1798م أصدرت حكومة الإدارة تعليماتها إلى نابليون بونابرت بتجهيز الحملة وقيادتها[50]، حيث قام هذا الأخير بتجهيز أسطول ضخم، ويعتبر أكبر حشد عسكري ومدني عرفته فرنسا[51]، إلا أن المؤخرون اختلفوا في عدد وعدة هذا الجيش، وذكر **نقولا ترك عن ذلك في قوله:**" **... وقد كانت الفرنساوية جهزت عمارة عظيمة في طولون، وكانت عدتها أربعمائة وخمسين مركباً، وعدّة عساكرها ستين ألفاً ورؤساء العساكر ستة وعشرون رجلاً معروفين بالشجاعة والقوة والبراعة، وعدّة الصلد الحربية ستة وثلاثون الفاً، وباقي العساكر فيسالية[52]، وأصحاب الصنائع ونوتية[53]...**"[54]، وأشار **الدراندلي** إلى عدد أفراد جيش الحملة الفرنسية في قوله:"**... خرج نابليون بونابرت من طولون بجيش قوامه 38 ألف جندي وخمسة عشر سفينة إلى البحر الأبيض المتوسط...**"[55]، وقد ذكرت معظم المصادر والمراجع العربية والغربية أن عدد جنود الحملة يتراوح بين 30 و 40 ألف جندي، إضافة إلى القوات العسكرية كانت هناك بعثة علمية لدراسة البلاد المصرية من

---

[48]– M. Mignet, op, cit, p 224.

[49]– محمد عبد الكريم الوافي، المرجع السابق، ص73.

ينظر:

– Edmond Ferry, La France En Afrique, Librairie Colin Mézières, Paris, 1905, Pp 04-05

– Henry Laurens, L'expédition 1798- 1801, Armand Colin Editeur, Paris,1989, P 32.[50]

[51]– محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر نحتفل أو لا نحتفل، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ـ مصر، 1999، ص 07.

[52]– ويقصد بها الخدم.

53– معناها بحاراً.

54– نقولا الترك، ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية وبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، تحقيق وتقديم:(ياسين سويد)، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1990، ص 26.

[55]– عزت حسن أفندي الدراندلي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني" **ضيانامة**"، تر:(سعيد عبد الغني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999، ص 21.

مختلف الجوانب حيث كانت هذه البعثة تتألف من نحو مائة عالم من علماء الفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات ومهندسين وعلماء الطبيعة والنباتات ورسامين وفنانين وشعراء وموسيقيين وعلماء فن المعمار[56] وكان هؤلاء العلماء منخرطين في لجنة تعرف بـ **لجنة العلوم والفنون**[57].

وفي 19 ماي 1798م غادر الأسطول الفرنسي ميناء طولون[58]/[59] تحت قيادة نابليون، الذي كان يستقل سفينة الأميرالية تدعى "**Orient المشرق**" تدشينا للهدف الاستعماري[60]، وقد تكتَّمت فرنسا على مشروع الحملة حتى لا تعلم إنجلترا، ولم يعلم أحد في فرنسا بوجهتها إلا نابليون ورؤساء حكومة الإدارة وتاليران[61]، وأطلق اسم "**الجناح الأيسر لجيش إنجلترا**" على القوات التي أعدتها[62]، لتُوهِم إنجلترا بأنها مصممة على غزوها، وذلك من خلال خطاب ألقاه نابليون قبل مغادرة الأسطول الموانئ الفرنسية والمتمثل في:"... **أنتم أحد أجنحة جيش إنجلترا، قمتم بحرب الجبال والسهول والحصار، وبقي لكم أن تقوموا**

---

[56]– عبد الرحمان الجبرتي، المصدر السابق، ص 42.

[57]– E. Driault, la vraie figure de napoléon, Edition Albert marrance, paris, s.d, p 55.

[58] – **طولون:** ميناء بحري في الجنوب الشرقي من الساحل الفرنسي.

[59]– Edmond Ferry, Op. Cit, p 03.

[60]– محمد عبد الكريم الوافي، المرجع السابق، ص 78.

[61]– مثل هذه الاستعدادات التي جاءت في الوقت الذي ترددت فيه أنباء عن عمليات هجوم على إنجلترا لم تلبث أنّ أثارت تكهنات عديدة لدى الجنود حتّى ظن كل منهم أنّ له عقلية ثاقبة وخبرات عسكرية خاصة تأهله للتكهن بالهدف من وجهة هذه الحملة، فقد خمن البعض أنّها تهدف إلى الاستيلاء على سردينيا، بينما قال البعض الأخر أن الهدف هو صقلية ومالطا حتى يتحقق للجمهورية سلب السيطرة والسطو على البحر الأبيض من بريطانيا، وراح آخرون يأكدون أن بداية ستكون بعبور مضيق جبل طارق لرفع الحصار عن ميناء قادش ليلحق بأسطول إسبانيا الحربي وتنضم للأسطول الفرنسي في بريست لشن للهجوم على إنجلترا، أما أغلب الشباب المتعلم الذي كان يطلق عليه لقب العلماء أضافة الى الفنانين كان يعتقد أن الأسطول الفرنسي متوجه إلى مصر ومنها إلى الهند الشّرقية بهدف تدمير المصاريف الإنجليزية. **ينظر إلى** : جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط في حملة الفرنسية على مصر، د ط، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 19–20.

[62]– عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر مصر 1517– 1801، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980، ص 99.

بحرب بحرية..."، ووصل أسطول الحملة إلى جزيرة مالطا في 09 جوان حيث شرع نابليون في قصفها، ولم تلبث أن سقطت مالطا في أيدي الفرنسيين بكل سهولة ودون عناء[63]، وبعد ذلك وضع نابليون حوالي 6000 جندي فرنسي، وعوضها بالمالطيين، واتجه بعدها نحو الإسكندرية[64].

كانت إنجلترا في الوقت نفسه تتقصى أخبار استعدادات نابليون العسكرية بكل قلق وحذر، ولكنها لم تكن على بينة من معرفة الجهة التي يقصدها نظراً لتكتم الحكومة الفرنسية، وكان الفكر الراجح لدى حكومة إنجلترا أن اتجاه هذه الحملة نحو جبل طارق قاصدة احتلال إيرلندة، فأمرت الأميرال **نلسون**[65] بمراقبة هذه الحملة، والعمل على إغراقها أو إحراقها مهما كلفه ذلك، وكان نلسون يخالف حكومته في ظنها من حيث وجهة هذه الحملة، وبعد أن أجبرته زوبعة قوية على الالتجاء إلى جزيرة سردينيا، تمكنت العمارة الفرنسية من السفر دون معارضة الأسطول الإنجليزي[66]، ومع ذلك فإن نلسون كان على يقين بأن العمارة الفرنسية سوف تتجه نحو مصر، ورأى من الضروري أن يتبعهم، حيث وصل إلى الإسكندرية في 28 جوان من نفس السنة، ورسا بالقرب من ميناء المدينة، وقال **نقولا** عن ذلك:" ...**وحين دخلت مراكب الإنجليز ثغر الاسكندرية، أرسلوا قارباً يطلبون حاكم المدينة، فتوجه إلى مقابلتهم**

---

[63]– محمد عبد الكريم الوافي، المرجع السابق، ص 78.

[64]– نقولا الترك، المصدر السابق، ص 26.

[65]– **نلسون هوراشيو (1805 – 1758)** : وُلدد نلسون في بيرنهام ثورب في نورفوك بإنجلترا وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره عمل ربّانً اعلى السفينة **كاركاس**، وأصبح ملازمًا في الأسطول البريطاني وعمره 18 عامًا، وفي عام 1779م، أصبح قائدًا للفرقاطة **هنتشينبروك**، ولم يكن قد بلغ عامها الحادي والعشرين بعد، وكان معروفًا بأنه ضابط قدير، ثم أصبح نائب أميرال عام 1801م، ثم قائدا عامًا للأسطول في مايو 1803م، كان هوراشيو أشهر أميرال وبطل بحري في بريطانيا، وقد هزم الأسطولين الفرنسي والإسباني مجتمع ينفي معركة الطرف الأغر البحرية في أشهر انتصار بحري في التاريخ البريطاني.

[66]– عبد الرحمان الجبرتي، المصدر السابق، ص43.

محمد الكريم[67]، فسألهم عن سبب قدومهم فاخبروه أنهم طالبون العمارة الفرنساوية لكي يصدوها عن دخول ثغر الإسكندرية، فارتاب السيد محمد الكريم وقال في نفسه: ما هذا إلا خداع عظيم، وأجابهم: إن الفرنساوية غير ممكن أن يحضروا لبلادنا، ولا لهم في أرضنا شغل، ولا بيننا ولا بينهم عداوة، ولا جلبنا عليهم رداوة... أما أنتم فليس لكم الإقامة بهذه الديار، وإذا جئتم تأخذون شيئاً من الماء، والمأكل فلكم الاختيار..."[68]، وبعد مرور ثلاثة أيام على مغادرة نلسون ظهر أسطول فرنسي ضخم على مشارف الإسكندرية في 01 جويلية 1798م، وأوصى نابليون جنوده باحترام المسلمين عند نزولهم[69].

وكان قبل ذلك قد بعث رسالة إلى باشا مصر أبوبكر موضحا أسباب حملته على مصر [70]:"**بسم الله الرحمان الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه، من طرف الجمهورية الفرنساوية المبني على أساس الحرية والساري عسكر الكبير بونابرتيه أمير الجيوش الفرنساوية، وتعرف أهالي جميعهم إن من زمان مديد السناجق يتسلطون في البلاد المصرية، ويتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع التعدي، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم، وحسرة من مدة عصور طويلة، هذه الزمرة**

---

[67]– **محمد كُرَيِّم (؟–1798م)**: من مناضلي مصر في عهد الاحتلال الفرنسي ولد ونشأ بالإسكندرية، كان في أول أمره وزانًا، ترقى إلى أنتقلد أمر الديوان والجمارك بثغر الإسكندرية، قاد المقاومة الشعبية المصرية ضد الفرنسيين عندما نزلوا الإسكندرية بقيادة نابليون، فاعتقل وتم اعدامه.

[68]– نقولا الترك، المصدر السابق، ص 27.

[69]– غير أن الواقع عكس ذلك فيذكر عودة المزاري في قوله:"... **وقتلوا كل من أثار الفتنة ـ أي دعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين ـ ولقد ثار بينهم وبين المغاربة الذين بمصر فقتلوا كل من وجدوه استنضافاً، ودخلوا جامعها الأعظم وهو الأزهر، وشتتوا خزائن كتبه بما استظهر وأخذوا أموالاً كثيرة من نساء...**". **ينظر**: الآغَابن عَودَة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1990، ج2، ص 74.

[70]– محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، د.ط، المرجع السابق، ص 27.

[70]– غير أن الواقع عكس ذلك فيذكر عودة المزاري في قوله:"... **وقتلوا كل من أثار الفتنة ـ أي دعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين ـ ولقد ثار بينهم وبين المغاربة الذين بمصر فقتلوا كل من وجدوه استنصافاً، ودخلوا جامعها الأعظم وهو الأزهر، وشتتوا خزائن كتبه بما استظهر وأخذوا أموالاً كثيرة من نساء...**" **ينظر**: عودة محمد و الخطيب إبراهيم ياسين، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص 74.

المماليك المجلوبين من جبال الأبازا والكرجستان[71] يفسدون في الأقاليم الأحسن ما يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فقد حتم في إنقضاء دولتهم، أيّها المصريون قد يقولوا لكم إنني ما نزلت في هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب فلا تصدقوه، وقولوا للمغتربين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، واحترم نبيه محمّد والقرآن العظيم..."[72].

وعند نزول نابليون إلى البَّر اندهش عندما شاهد من على بعد أهل المدينة محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، ولم يُجد توزيع المنشور، ولم يملك سوى إصدار أمره بالهجوم العام، وبذلك بدأت المعارك بين المصريين والفرنسيين[73]، غير أن المصريين انهزموا بسب عدم التكافؤ بين الجيشين عدة وعتاداً وذكر **عودة المزاري** في كتابه **طلوع سعد السعود** عن ذلك في قوله:"... **فدخلوا الإسكندرية عنوة بعدما أخذوا مالطة من يد الفرائلة بالحتف (فرسان مالطا)، وتخطوا إلى مصر فلقيهم باشتها مراد بالريف مع النيل بعساكر الغزّ، فانهزم الغزّ بعد ساعة وصاروا لهفاً وقد حل بهم القتل الذريع والغرق في النيل الشنيع، ودخلوا مصر مع طاغيتهم بونابرت فقتلوا من وجدوا من الغزّ واستباحوا ديارهم في المشهور، وامنوا من سواهم على المغرم، ونزعوا منهم السلاح وهدموا من المدينة كل ما يتوقع منه السوء لإصلاح..."[74].**

---

[71]– ورد عند الجبرتي جبال الأبازة و الجراكسة في ج2 ص 182، ويقصد بها عند البعض جورجيا وهي دولة في جبال القوقاز تقع غالبيتها في قارة آسيا، لكن جزءًا من شماليها يقع في قارة أوروبا، مع العلم أن جورجيا هي الجزء الجنوبي من القفقاس، وبلاد الجراكسة هي الجزء الشمالي منها، **ينظر**: نقولا الترك، المصدر السابق، ص 30.

[72]– **والملاحظ** أن فرنسا استعملت نفس التبريرات عند احتلالها للجزائر، ووزعت نفس المنشور على الجزائريين

[73]– محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر ، ط1، دار لثقافة الجديدة، القاهرة ـ مصر، 1999، ص 11.

[74]– الآغَابن عَودَة المزاري، المصدر السابق، ص 74.

أما السّلطة العثمانية فظلت مترددة في اتخاذ موقفها ضد الحملة وقطع علاقاتها مع فرنسا، رغم أن مصر كانت تعتبر أهم مقاطعة عثمانية بموقعها الجغرافي الاستراتيجي، ومواردها الطبيعية[75]، وذلك بسبب ضعفها وانشغالها بالنظام الجديد، ولم تكن تملك قوة تستطيع بها مواجهة الجيش الفرنسي في مصر[76] من جهة، وخوفها من أن تكون هذه الحملة مقدمة لمخطط أوروبي عام لالتهام ممتلكاتها من جهة أخرى[77]، ولهذا بدأ **سليم الثالث**[78]يبحث عن حلفاء بين الدول الأوروبية المنافسة لفرنسا، ولحسن الحظ الدولة العثمانية كان الأميرال الإنجليزي ونلسون قد تمكن بأسطوله الموجود في البحر الأبيض المتوسط من تحطيم الأسطول الفرنسي في معركة **أبي قير**[79] البحرية، حيث قطع وسيلة اتصال نابليون بفرنسا فكانت هذه المواجهة سبباً في حدوث تقارب عثماني ـ إنجليزي، ومالت روسيا أيضاً للسياسة التي اتبعتها بريطانيا تجاه فرنسا، فأصبح للدولة العثمانية بذلك حليفين في وقت واحد، وهكذا أعلنت الحرب على فرنسا في 04 أفريل 1798م، وكان أسطولا روسيا قد وصل إلى إسطنبول في نفس الوقت، وقد حقق الأسطول العثماني انتصارات بحرية كبيرة بمساعدة الأسطول الإنجليزي والروسي[80].

---

[75]– I. B. Juchereau, histoire de l’empire ottoman depuis 1792 jusqu’en 1844, 2t, imp.de guiraudet et jouaust, paris, 1844, p 79.

[76]– سَيِّد محمد السَّيِّد، دراسات في التاريخ العثماني، ط1، دارة الصحوة للنشر، القاهرة ـ مصر، 1996، ص 208.

[77]– كمال حسنة، العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث 1789– 1808، مذكرة ماجيستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2005– 2006،ص 116.

[78]– **سليم الثالث** (1761 – 1808م): ابن السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد الثالث، وترتيبه الثامن والعشرون من سلسلة سلاطين آل عثمان، ارتقى العرش خلفًا لعمه السلطان عبدالحميد الأول عام 1789م، وكانت البلاد في حالة متدهورة عندما جاء إلى السلطة، وعزل عن العرش سنة 1808م، وقتل إثر فتنة داخلية في العام نفسه، وكانت إصلاحاته سببًا رئيسيًا في عزله، **أنظر**: عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمّد زينهم محمّد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة ـ مصر، 1995، ص 112– 113.

[79]– **أبي قير**: هي مدينة مصرية تقع على بعد 23كلم من الاسكندرية، وعبارة عن شبه جزيرة، وعن تفاصيل المعركة أنظر: عزت حسن أفندي الدراندلي، المصدر السابق، ص 164– 166.

[80]– سَيِّد محمد السَّيِّد، المرجع السابق، ص 208.

وبعدها عينت الدولة العثمانية **أحمد باشا الجزار**[81] على رأس القوات المصرية، وذلك على الرغم من إعلانه حالة العصيان ضد الدولة، وفي ذلك الوقت كان نابليون الذي فقد أسطوله في البحر المتوسط مضطراً للتوجه صوب العريش وغزّة ويافا، حيث تمكن من احتلالها، وذلك بغرض الخروج من حالة الحصار التي كان قد وقع فيها، ولما وصلت جيوش نابليون أمام قلعة عكا تصدى له أحمد باشا الجزار مدافعاً عن القلعة دفاعاً مستميتاً، الأمر الذي أجبر نابليون على رفع الحصار عنها بعد 64 يوماً، وعاد مهزوماً، ومن ناحية أخرى مكنت الجيوش العثمانية مصطفى باشا من استرداد قلعة أبي قير، وتمكن أيضاً يوسف ضيا باشا عن طريق البر من استرجاع العريش في 02 ديسمبر 1799م، وفي هذه الفترة كان نابليون قد ترك جيشه في مصر، وعاد إلى فرنسا[82] وأحل محله الجنرال **كليبر Kléber** [83] الذي عقد عدة اتصالات مع يوسف ضيا باشا، والتي تقضي بطلب الجلاء عن

---

[81]– **الجزار أحمد باشا(1804–1720م):** هو والي عكا في فلسطين الذي صمد أمام حصار نابليون بونابرت الشهير، أصله من بلاد البوسنة، وقيل إنه من ودين أونيش، عمل عند حكيم أوغلو علي باشا، قدم معه إلى مصر عندما ولي عليها للمرة الثانية سنة 1757م، أتيح له أن يسافر إلى مكة للحج، فلما عاد وجد أن سيّده قد صُرِف عن ولاية مصر، فقرر أن يبقى بها، وتنكر بزي المصريين، وخدم عبدالله تابعا لأمير علي بك الكبير، عام 1755م، وتعلم الفروسية على طريقة المماليك. حدث أن أرسل علي بك أحد رجاله عبدالله بك بقوة عسكرية إلى أعراب البحيرة، فقتله أهلها، وكان أحمد من بينهم، فوكل إليه علي بك أن يحل محلّ عبدالله بك، صمم أن يثأر لسيده، فقتل منهم سبعين رجلاً خدعة وغيلة، ولذلك لقب بالجزار.

[82] – هناك عدة أسباب دعت نابليون إلى ترك مصر والعودة سراً إلى فرنسا فقد تركت هزيمة أسطوه في معركة أبي قير البحرية أثراً عميقاً في نفسيته،، إضافة إلى عجزه عن الاستيلاء على عكا التي كانت في نظره مفتاح الشرق، وضياع أمله في الوصول إلى الهند، كما أنه شعر بأن مشروع الحملة في الشرق قد أخفق نهائيا، وبعدها جاءت الاخبار بتجدد الحرب بين فرنسا والنمسا وأن الاخيرة استردت شمال ايطالي التي كان قد استولى عليها قبل مجيئه إلى مصر، لذلك قرر ترك مصر بعد أن عهد بقيادة الجيش إلى جنرال كليبر. **للاطلاع أكثر ينظر:** محمد رفعت، المرجع السابق، ص 67.

[83] – **كليبر jeankléber** :(1753– 1800) تطوع في الجيش الثوري الفرنسي عام 1792م حيث رقي إلى رتبة جنرال عام 1793م، وشارك في عدة حمالات منها الحملة على ألمانيا ومصر وسوريا، قُتل على يد طالب شامي يدعى سليمان الحلبي في حديقة قصر الألفي في الأوزبكية بالقاهرة وذلك في14 جوان 1800م.

مصر[84]، فانتهت الحرب في البحر الأبيض المتوسط بين دول الحلفاء ـ الدولة العثمانية وروسيا وبريطانيا ـ وفرنسا بانهزام هذه الأخيرة.

نستنتج أن الحملة الفرنسية على مصر وايضا الشام شكلت منعطفا خطيرا في تعامل الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية حيث انتقلت العلاقة من حالة الاختراق للسلطنة عبر اتفاقيات والمعاهدات إلى السيطرة العسكرية المباشرة على أطرافها الاستراتيجية، ولعل المحاولة الفرنسية في احتلال مصر وانتزاعها من الباب العالي كانت المحك العلمي لاختبار الحقيقة الضعف العثماني، وترتب على حدوثها نتائج مهمة على مختلف الأصعدة، كما ولدت أيضا الحملة نشوء وعي جماعي عند المواطنين المصريين لحقائق كثيرة منها ادراكهم ما لبلدهم من أهمية ومكانة عند الغربيين، ومنها ادراكهم لضعف العثمانيين والمماليك وعجزهم عن مقاومة الغزو الأوروبي لبلدهم وحمايته، وبالتالي اكتشفوا أنهم لا يستحقون التبعية والطاعة لهم، بل يجب ان يتحرروا من سيطرتهم عليهم وتولي زمام أمورهم بأنفسهم، ولذلك تولى المصريون تنظيم الثورات ضد الوجود الفرنسي في بلادهم وقاموا بعد جلاء الحملة بالمشاركة الفعالة في اختيار من يتولى قيادتهم.

فشلت الحملة الفرنسية[85] في تحقيق أهدافها العسكرية، واضطرت إلى الجلاء نهائياً عن مصر في 18 أكتوبر 1801م (17 فانديمير من العام العاشر

---

[84]– المرجع نفسه، ص 209.

[85]– **ونستنتج** أن الاحتلال الفرنسي كان قصير وفاشل إلا أنه كان مشحون بنتائج كثيرة بالنسبة لمصر والدولة العثمانية، فقبل الحملة لم تتعرض الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني لاعتداء من جانب القوى السياسية في أوروبا، ولكن انتهت هذه العزلة التي عاشها الشرق العربي، وأصبحت هذه الأراضي مجال تنافس بين الدول الأوروبية الكبرى إذ أظهرت الحملة الفرنسية منطقة الشرق الأوسط ومصر منطقة ذات أهمية استراتيجية كبيرة للقوى العظمى، وفي القرن التاسع عشر ترسخت في ذهن الحكومة البريطانية فكرة أنه من الضروري أن يحكم مصر حاكم تربطه بإنجلترا روابط الصداقة حتى لا تترك مصر للفرنسيين، وبالتالي ظهر التنافس الأنجلو ـ فرنسي على مصر اختتم بالاحتلال البريطاني لها في عام 1882م، كما أن من أهم الآثار السياسية للحملة الفرنسية، أن مصر كانت تحكم قبلها بنوع من التوازن بين الهيمنة العثمانية وتبعية مصر لدولة الخلافة، وسيطرة العثمانيين عليها، وبين "التشخيص المصري" المتمثل في بكوات المماليك فكان ثمة توازن بين السلطة المركزية للدولة العثمانية في حكم مصر، وبين المشاركة المحلية في حكم مصر من جانب =

للجمهـورية الفرنســاوية)[86]، والأمر الذي ساعد على إخفاقها موقف بريطانيا، والجهود التي بذلتها في أوروبا والشرق الأوسط لإخراج الحملة، واشتراك السلطان في المجهودات الحربية التي قامت بها إنجلترا لطرد الفرنسيين، وحشد جيوشاً كبيرة على الحدود الشرقية، واستغل نفوذه الديني وسيطرته الروحية على المصريين، كما قضى على تجربة الفرنسين الاستعمارية في مصر لأنهم فشلوا في فهم تلك الشعوب التي جاءوا لحكمها، واستهتارهم بأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولقد كان المجتمع المصري في ذلك الوقت تربطه العاطفة الدينية بحيث كان من الصعب الفصل بينهم[87]،كما كان من نتائج الحملة الفرنسية وصول شخصية اثرت على واقع مصر والعلاقات الدولية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي، وهو محمد علي باشا وبسبب ذكاء هذا الضابط، وبمساعدة الظروف له استطاع أن يكون والياً لمصر، وأن يثّبت مركزه، ويتخلص من منافسيه فكان هو الشخصية الأكثر شهرةً في تاريخ مصرِ لما قام به من إنجازات داخلية شملت كل مرافق الحياة من نواحٍ اقتصادية وإجتماعية وتجارية، وحتى عسكرية مما ساعده في بناء قوة عسكرية كبيرة استطاع من خلالها أن يحمي بلاده من خلال تجربته الطموحة في الاستقلال عن الدولة العثمانية وتأسيس أسرة حاكمة بمصر، فقد كانت فترة الاحتلال الفرنسي البونابرتي لمصر بالنسبة إليه زاخرة بالفوائد على صعيد مصلحته في الحكم، إذ استطاع أن يستغل التقارب الفرنسي المصري الذي تم بعد انسحاب الفرنسيين من مصر، ويؤمن بواسطته الوسائل التي ساعدته على الانطلاق في

= القوة السياسية الاجتماعية المحلية للمماليك المصريين المقيمين بمصر، والذين تتكون منهم قوة عسكرية تدعم الحكم وتشارك في السلطة إصدار القرارات السياسية المحلية، والحاصل أن الحملة الفرنسية هزمت قوة المماليك ونجحت في تشتيتها، مما أضعف وجودها العددي، ومما أضعف من وجودها السياسي والاجتماعي في مصر.

[86] – محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العَلِيّة العثمانية، تحقيق إحسان حقيّ، ط1، دار النفائس، بيروت،1981، ص 379.

[87]– عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي 1516– 1922، دار المعرفة الجامعية، الأزارطة – مصر، 2003، ص 234.

محاولته الجادة لتحقيق طموحه[88]، ولقد اختطّ لنفسه سياسة خارجية مع البلدان الأوربية والدولة العثمانية عدّت بنظر المراقبين سياسة طموحة جداً حتى استطاع في نهاية الأمر أن يسيطر على العديد من المناطق المحيطة بمصر مثل الشام والسودان والخليج العربي والعراق، فمن خلال دراستنا هذا سوف نتعرف على شخصية أكثر وعلى اهدافها الحقيقية وعلاقتها مع الدول الأوروبية، وعلى تجربته.

وللحديث عن عصر النهضة لا يستقيم إلا بالعروج على تجربة محمد علي باشا، التي انقسم حولها وحول صاحبها المفكرون والمحللون والمؤرخون، فهي عند البعض منارة عصر الاستنارة والتجديد والتحديث في تاريخ الإسلام الحديث، وعند بعضهم الآخر مستنقع سقط فيه المسلمون وجر ويلات فكرية وثقافية وسياسية ما نزال نتجرع نتائجها إلى اليوم، لكن قبل الحكم على الرجل وعلى تجربته نطرح السؤال: **ما هي قصة محمد علي باشا؟ وكيف وصل للحكم؟ وما هي أهم الصعوبات الي واجهته عند وصوله لسدة الحكم؟ كل هذه التساؤلات سنجيب عنها في الفصل الأول.**

[88]– ياسين سويد، البعد الاستراتيجي لحملة محمد علي على بلاد الشام، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي ، ع3، جانفي 1982، لبنان، ص 227.

الفصل الأول

الصّراع الدّاخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي باشا في ظل التّنافس العثماني الفرنسي البريطاني

أولًا: التّنافس الأوروبي على مصر قبيل القرن التّاسع عشر الميلادي.

ثانياً: الحملة الفرنسية على مصر 1798م.

ثالثاً: سيرة محمد علي باشا.

رابعاً: أوضاع مصر قبل وصول محمد علي باشا إلى السّلطة.

خامسًا: الصّراع الدّاخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي في ظل التّنافس البريطاني الفرنسي العثماني.

سادسًا: وصول محمد علي باشا إلى السّلطة.

سابعًا: المواقف الدّولية من وصول محمد علي باشا إلى السّلطة في مصر.

ثامنًا: خطوات محمد علي باشا لتثبيت حكمه في مصر.

تعتبر الفترة الواقعة بين جلاء الحملة الفرنسيين من مصر وتولي محمد علي السلطة(1801م– 1805م) بأنها الثّورة الأولى التي عرفتها مصر في تاريخها البادئ مع القرن التّاسع عشر، قد كانت هذه الثّوّرة سببا إلى بلوغ محمد علي حكم مصر واليًا عليها من قِبل السّلطة العثمانية، ولكن باختيار من الشعب المصري ذاته ودعم ذلك أن عامة المصريين صاروا قوة سياسية حلت محل قوة المماليك أو نمت على حسابها، ورد فعلهم بعد أن صاروا قوة سياسية صارت أسرع استجابة، فقد انهارت صيغة النّظام الّتي كانت حاكمة لمصر في خضم هذا الحراك الشعبي والسياسي الذي شارك فيه المصريون بنهوضهم الثّوري، وشاركت فيه القوة العثمانية، وترك هذا الانهيار فراغًا سياسيًا وتنظيميًا على مدى السّنوات الأربع التّالية، وهي حالة عرفتها كل الثّورات، عندما تنهار أسس وصياغات وعلاقات الحكم القائمة، وتبدأ أسس وصياغات وعلاقات جديدة تتشكل وتنتظم علاقاتها على نحو آخر والسّؤال الذي يطرح نفسه والذي سوف نجيب عليه في هذا الفصل **كيف استطاع محمد علي باشا استغلال كل الظّروف السّياسية السائدة في مصر أنذاك وحتى الدولية من أجل بلوغ السّلطة؟**

أولاً: سيرة محمد علي باشا

قبل الولوج إلى نسب ونشأت وسيرة محمد علي باشا لابد من اعطاء القارئ لمحة أو صورة عنه والمتمثلة في الصّفات الجسمية والرّوحية والأخلاقية حتى تكون رؤية واضحة تجمع بين الصّفات المادية والمعنوية في مخيلة القارئ وخاصة عندما تكون من عند معاصريه.

1- الصفات الجسمية لمحمد علي باشا من خلال معاصريه

يتعذر أحيانا فهم سياسة دولة ما دون فهم مزاج و شخصية حاكمها أو رئيسها، ولهذا وجدنا أنه من الضروري أن نتحدث عن مميزات شخصية الباشا المرتبطة بالنفس وحب الذات بالفكرة الدينية، فنستخلص من الرّوايات الكثيرة التي تحدثت عنه وصفا ومضمونا مزايا اتصف بها دون غيره، نبدأها بالخاص إلى العام، فحتما كان لشكل محمد علي تأثيره الخاص على شخصيته حيث أن ملامحه تدل على قوته وشخصيته.

فمحمد علي متوسط قامة اذ كان طوله يصل حوالي متر وسبعين سنتمتراً مع تقوس في قامته، وكانت قسمات وجهه واضحة وبيدين صغيرتين وناعمتين[1]، بارز الجبهة صاحب بنية قوية وعيونا زرقاء ونظرات حادة[2]. ويؤكد ذلك **السير شارلس ماري**[3] في قوله:" كان غلاماً براق العينين ذكي فؤاد يتدفق نشاطاً ومرحاً""[4].

---

[1] – **جيلبرت سينويه**، الفرعون الأخير محمد علي 1770– 1849، تق: دبروشنوبلكور ، تر: عبد السلام المودني، ط1 منشورات الجمل، بغداد – بيروت، 2012، ص 32.

[2]– **نشأت الديهي**، محمد علي باشا بدايات قاسية ومجد عظيم، ط1 ، دار كتاب الجمهورية، مصر، 2009، ص12.

[3] – **السير شارلس ماري**: قنصل انجليزي في مصر في عهد محمد علي وعباس الأول، ولد يوم 22 نوفمبر 1806م، تعمق في أخلاق الشرقيين ودرس لغات المشرق وتاريخيه، وقد توفي في بارس ن عمر يناهز 89 من عمره.

[4]– **السير شارلس** ماري، صفحة من تاريخ محمد علي، تع: سليم حسن وطه السباعي، دار المعارف ، مصر،1916م، ص 10.

أما **ادريس أفندي**[5] يذكر عن ملامح محمد علي التي تميزيه عن الآخرين في قوله: "صغير الفم باسم الشفتين، غليظ الأنف، وقد تؤلف هذه الملامح في مجموعة خلقة عادية، لكن خلقته تمتاز بسرعة التعبير، وبمزاج متسق من الدهاء والتلطف، ويحوط وجهه إطار من اللحية بيضاء جميلة تغطي صدره أيضاً، وهي موضع عناية قصوى، وله يدان كاملتان الحسن، وذلك اللون من الجمال يقدره الشرقيون كثيراً، قوي البنية، انيق الهيئة، يمشي في حزم وخيلاء، وفي مشيته شيء من الدقة والنظام العسكري، وكثيراً ما يعقد يديه وراء ظهره، فهو يحب أن يمشي على هذه الصورة في جناحه كما كان يفعل بونابرت[6]، وقلما يرتدي الباشا ملابس باذخة، كان في الماضي يلبس دائما زي المماليك القدماء، لكنه بعد بضع سنوات استبدل العمامة العريضة التي كانت ذات مظهر شرقي نبيل بالطربوش العسكري، وكانت ملابسه بسيطة دائما حتى ظنه الكثيرون أنّه واحد من حاشية الباشا لا الباشا الكبير بحد ذاته، وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الحشم المسلحين كما يفعل سلاطين آسيا وإنما يحرس بابه موظف واحد يفتحه لكل قادم، وفي دوانه يراه القوم لا يحمل سلاحاً، بل يعين في العادة بعلبة تبغ ثمينة أو بالمسبحة التي يصطنعها أهل الشرق..."[7].

---

[5]– **ادريس أفندي (1808– 1879م):** مؤرخ عاصر محمد علي وأربعة من أولاده (ابراهيم، عباس، سعيد، اسماعيل) وعرف الاسرة العلوية من قريب معرفة مباشرة، ولد فرنسا في اقليم فلاندرز من اسرة انجليزية اسمه الحقيقي بريس دافينprisse d'avennes كان أبوه مفتشاً لغابات تاليران، وفي سنة 1822م التحق بمدرسة الفنون والصنائع بشالون وتخرج منها عام 1825م بشهادة المهندس المعماري عن عمر تسعة عشر سنة، وبعدها أبحر إلى الهند حيث أصبح سكرتيرا لحاكمها العام، ثم ذهب الى فلسطين وهناك سمع خبر حاجة محمد علي والي مصر إلى الأخصائيين الأوروربين يستعين بهم لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة، فالتحق بخدمة الباشا محمد علي عام 1829م فعين مهندساً للري، ثم استاذا للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب وفي الوقت نفسه مربيا لأبناء ابراهيم باشا، وله عدة مؤلفات منها " الفن العربي" و "الاثار المصرية" الذي يضم خمسين لوحة من القطع الكبيرة، وله أيضا مقالات كثيرة منشورة في الصحف والمجالات والمجموعات الدورية، اضطرت زوجته الى أن تبيع جزء كبير من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومكتبته الثمينة للإنجليز وهو على فراش الموت لا يدري ماذا يحدث حوله.، وللتعرف أكثر على ادريس افندي ينظر : ادريس أفندي، ادريس أفندي في مصر(مذكرات الفنان المستشرق بريس دافين في مصر 1808م– 1879م)، تر: أنور لوقا، د(ط، د، س)، ص 5– 26.

[6]– وهذا دليل تأثر محمد علي باشا بنابليون بونابرت ويمكن جدا حتى في طموحاته التوسعية

[7] – ادريس أفندي، المصدر السابق، ص 76.

2- الصفات الروحية والأخلاقية لمحمد علي بين مادحيه وذاميه:

صورتان متناقضتانا كلاهما يقع على طرف بعيد عن الاخر، في صورة الاولى تظهر لنا محمد علي في صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم، أما الصورة ثانية فتظهر لنا على انه يبدو جبارا طاغية غليظ الفؤاد يتحكم في مصير البلاد كما يتحكم في ملكه.

وفي خصاله وسيرته ومحاسن أخلاقه يحدثنا الشيخ بن أحمد الرجبي[8] في كتابه تاريخ الوزير محمد علي باشا فقال:" فمع كبير جلالته وشدة قوته، لطيف الألفاظ، فما كأنّهما إلا محاسن ألحاظ، بحيث أنه لا يخاطب الكبير ولا الجليل ولا الحقير، إلا بألطف عبارة وحسن انسجام، مع تنزه خطاياه عن الصعوبة عن الدوام، جميع من كلمه من الخواص والعوام، وبهذا السبب تنجذب له النفوس بالمحبة ولا يدخرون في خدمته من الاجتهاد وزن حبة، وهذا خلق شريف، ومعنى ملكي جميل ظريف..."[9]

ويذكر أيضا **الإسكندر اليعقوبي**[10] في مدحه لمحمد علي : " وكان مع عظمته وعلو شانه لطيف الذات، ظريف الصفات، متصفاً بمكارم الأخلاف، وعلو الهمة، ومعاملة الكبير والصغير بالمكارم والرحمة، لا يميز بين الغني والصعلوك، ولا يحابي مع الملك على الملوك"[11].

---

[8]- الشيخ الرجبي: هو جليل بن أحمد الشافعي الشاذلي لا يعرف عن تاريخ مولده أم تاريخ وفاته هناك اختلاف بين المؤرخين، فيذكر اسماعيل البغدادي في كتابه "إيضاح المكنون وهدية العارفين" أنه توفي سنة 1827م، بينما يذكر عمر رضا كحالة في "معجم المؤلفين" أنه كان حياً سنة 1829م، كان الرجبي مؤرخاً متكلما صوفيا وأديباً وشاعراً، وكان ميسور الحال وقريبا من الاسرة العلوية.

[9] - الرجبي جليل بن أحمد: تاريخ الوزير محمد علي باشا، تح: دانيال كريسيليوس وآخرون، ط 1، دار الأفاق العربية، القاهرة، ص 84.

[10] - **اسكندر يعقوبي** : كاتب لبناني معروف أحد أشهر الكتاب البارزين من الشوام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ينحدر جذوره من اصول أرمينية، وصار أحد كبار أعيانيها، ثم ما لبث أن توطدت علاقته بإبراهيم باشا .

[11]- اسكندر اليعقوبي آغا أبكاريوس الأرمني: تاريخ محمد علي باشا المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية، تح: أحمد المنعم، مج و تق: رؤوف عباس، مركز الدراسات الأرمنية، القاهرة، 2009، ص 60

ويضيف **كلوت بيك**[12] مواصلة مدحة مثل سابقيه حيث قال:" لست أدعوا أحد إلى اعتباره من رسل الحضارة والمدنية، بل ادعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وإنه مع كونه لم يعلم شيئاً من شؤون الأمة التي ظهر بينها أمره، ولم يجد تشجيعا ولا مؤازرة على العمل، قد سلك مسلكاً مبنياً على الحذق وحسن التدبير، رام به الاستيلاء على زمام الحكم ثم الاحتفاظ به بعد ذلك..."[13].

ويزيد على ذلك القنصل **لورد كرومر** في قوله: " إن شخصية محمد علي كان فيها الكثير من الصفات التي تستحق الإعجاب، فقد كان محمد علي شجاعاً وجنديا متمكناً، كان الرجل يتمتع أيضاً بطبائع رجال الدولة"[14]

لكن أغلب الشهادات تتفق على وصفه بالرجل المتعطش إلى السلطة وإلى العمل العسكري والمزايدات السياسية التي جعلته المبالغة فيها يتناسى حدوده، وإمكاناته، وبهذا سيبدو جديراً بكونه الأخ التوأم لمثاله نابليون بونابرت.

فيرى فيه السير شارل موراي في كتابه الحامل لعنوان "مذكرة قصيرة عن محمد علي" :" هذا الرجل ولد من أجل المجد والقوة ... وخلق من أجل القيادة والتوجيه ... "، وذكر أيضا بول ميرو فيه فيقول في كتابه "مصر المعاصرة من محمد علي إلى سعيد باشا" :"طبعه الذي كان شديد العزم، ورجل سياسة في الأن ذاته، وهو ما كان يؤهله للقيادة..."، فيحين عبر أنطوان دولاتور عن إعجابه الشديد به إذ قال :" أما تكون إرادته شديدة القوة تستهوي الشعوب وتخضع الطبيعة فذلك ليس مهماً أن تكون إرادته شديدة القوة تستهوي الشعوب وتخضع الطبيعة فذلك ليس مهماً بالنسبة له، إذ يلزم هذا الشيخ النبيل المجد..."،

---

[12] – كلوت بيك: **نطوان براثيليمي كلوت** Antoine Barthelemy Clot : المشهور ب **كلوت بيك** او **كلوت بيه** هو طبيب فرنسي ولد سنة 1793 م بمرسيليا عاش فترات طويلة من حياته فى مصر بعد ما طلب منه محمد على باشا تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري ، وبقى رئيس أطبا الجيش. اخد لقب " بك " كتكريم لجهوده و صبره، رجع لمارسيليا سنة 1849 و مات هناك سنة 1868م

[13] – كلوت بيك، لمحة عامة إلى مصر، تر: محمد مسعود، (د ط)، القاهرة، ج3، ص 176.

[14] – لورد كرومر، مصر الحديثة، تر: صبري محمد حسن، تق: أحمد زكرياء الشلق، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ج1، ص 73.

ويدعم كلوت بقية المؤرخين بقوله :" لم يكن طموحه يتغذى فقط على فرض هيمنته على مصر، بل كان يحلم بأن يخلد اسمه في صفحة من الصفحات المجيدة على نحو ما قرأ عن تاريخ نابليون"، كما أن السمة الظاهرة في شخصيته كما يشير بعض المؤرخين الحذر الشديد دون إغفال؛ إذ كان دائم الحذر من كل شيء ومن كل الناس بما في ذلك أبنائه الذي كان يراقب كل أعمالهم وتحركاتهم باستمرار، حيث كتب الأمير بوكلير موسكو الذي كان يتميز بدقة الملاحظة في أعقاب زيارته له سنة 1837م :"... وبغض النظر عن مظاهر سلوكه الأليف جدا، وعن سمات الرضى التي تعلو قسمات وجهه، والتي تمنحك الانطباع أنك أمام أطيب الحكام أكثرهم رقة ومودة، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يصدر عن سيماته تعبير عن الحذر الشديد في اللحظات التي كان يعلم أن جليسه لا ينظر إليه... "، يبدو أن هذا الحذر لم يكن يمنعه من أن يعبر أحيانا بصدق كبير كقوله: "لا تحكموا علي مقارنة بكم، قارنوني بالجهل الذي يحيط بي، فلا يمكنكم تطبقوا القوانين نفسها في مصر... تلزمونا قرون طويلة لنصل إلى المستوى الذي بلغتموه... لديكم عدد كبير من الأذكياء الذين يستوعبون إرشادات رؤسائهم، ولا أستطيع إيجاد قلة من الناس يستطيعون فهمي وتنفيذ أوامري، أبحث عن أي شخص يمكنه مدي بالمعلومات فيخيب الأخرون بسلوكاتهم أملي، وقد يحدث أحيانا أن يخيب أملي حتى في نفسي[15]، يعني أن محمد علي لم يكن يثق أبداً في قدرات شعبه ولم يعتمد عليهم في نهضته في بقدر كبير.

واتصف محمد علي في مذكرات إدريس أفندي بأنّه حاكم تميز بطابع القسوة والظلم والإرهاب، وعن العدالة في دولة محمد علي باشا قال:" أننا نتورط في الخطأ إذا قلنا أنّ في ذهن الباشا أفكار منطقية عن العدالة، وأنّ في قلبه حباً حقيقيا لها، فالقانون الذي أذاعه محمد علي أطنب المطنبون في الإشادة بحكمته وتماشيه مع روح الحرية، ولم يوضع يوماً موضع التنفيذ، ويدعوا الفلاحون محمد علي باسم "ظالم باشا" لأنّ روح محمد علي في فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة في ابتزاز المال روح لا نظير لها، وأنه لم يكن يرد دفع

[15] – جليبرت سينويه، المصدر السابق، ص 40.

مرتبات لأحد لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال، ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع..."[16]

أما الجبرتي فقد كانت له نظرة أخرى عكس ما كتبه الشيخ الرجبي واليعقوب فقد وصف محمد علي بأنّه:" شاب مغرور وجاهل وظالم غشوم و أطلق عليه اسم " **باشا النصارى**"، وعلى الرغم من كراهية عبد الرحمن الجبرتي للوالي محمد علي لما رآه من ضروب العنف والاستبداد والقسوة التي وقعت في عهده، ووضْعه لأدوات الإنتاج في يده، وقيامه بإلغاء **الالتزام**[17] الذي أضير منه شخصيا، فقد كانت كتاباته عنه في معظم الأحيان تتسم بالموضوعية، فأشاد بمحمد علي في بعض المواقف وانتقده في مواقف أخرى.

واختلف الناس في تقدير أعمال محمد علي كما هي عادتهم في شأن سواه من عظماء الرجال فمنهم على ما يقول بريس دافين[18] Prisse D'avennes :" ... من رأى فيه ذلك البطل الذي استطاع أن يعيد الحياة إلى مصر ويجعل منها بلدا له حظه من الحضارة والمدنية... ومنهم من رأى فيه ذلك المغامر الحاذق الذي سعى في سبيل الحاكم ليستأثر

---

[16] – ادريس أفندي، المصدر السابق، ص 23.

[17]– **الالتزام:** هوطريقة لجباية الضرائب اتبعتها الدولة العثمانية .يعطى حق جمع الضرائب إلى أشخاص يسمون مقاطعجية أو ملتزمين، مقابل أن يدفعوا مسبقاً مبلغاً من المال عن المنطقه التي خضعت لهم، وبموجب هذا يتسلم من السلطة العثمانية صكا يخوله جباية الضرائب في هذه المنطقة، وكانت مدة الالتزام في الأساس، لسنة واحدة، واشترط على الملتزم عدم تحصيل أكثر من النسبة المعينة حيث كان الملتزم يدفع من صافي ما يجمع من الأموال بعد النفقات المختلفة، جزءاً لخزينة السلطان، ولكن بانحطاط الدولة أصبح الملتزمون يستغلون مناصبهم ويجمعون أكثر من المبالغ القانونية، ويسيئون بذلك إلى الفلاحين والى اقتصاد الريف بصورة عامة، وبلغ من ازدياد قوة وسلطة بعض الملتزمين إزاء ضعف الدولة أن احتكروا الالتزام عدة سنوات، وأورثه بعضهم إلى أبنائهم من بعدهم، وأصبحت غالبية الملتزمين تتمتع بسلطة سياسية، ولم يبق امام محمد علي لبسط سيطرته على مصر سوى المماليك، وهم اشد معارضيه فقام محمد علي بإلغاء ضريبة الالتزام لان معظم الملتزمين من المماليك فهكذا عمل محمد علي على ضرب مركز المماليك الاقتصادي بالإضافة الى ذلك قام محمد علي بتدبير مؤامرة للتخلص من المماليك نهائيا فقام بدعوتهم للاشتراك في حفل رسمي في القلعة لتوديع ابنه طوسون الذي كان متجها لمحاربة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية فتم ذبح المماليك في القلعة فبهذا اصبح محمد علي سيد الموقف في مصر بدون منافس ومهدت الطريق امامه لتحقيق اهدافه الرامية الى بناء امبراطوريه عظمى تحمل اسمه واسم ابناءه واحفاده من بعده. **ينظر:** جمال بدوي، محمد علي وأولاده، مكتبة السرة، مصر، 1999، ص 24.

[18]– المعروف بادريس أفندي

بكل سلطة ويستغل الباشوية التي دانت لسلطانه استغلالا يحقق مصلحته الشخصية وحدها... >> وكان من الطبيعي أن يعمد فريق المادحين إلى الاشادة إلى ذكر ما تم على يديه من الاصلاحات والتحدث عن ما بذله من جهود حتى ينهض بتلك البلاد التي ظل يسوي أمورها أكثر من أربعين عاما، أما فريق القادحين فقد حاول الحط من قيمة هذه الجهود وتلك الاصلاحات ناظرا إلى الباشا من خلال منظار أسود؛ " لأن هذا نصيب الرجل الذي ترفعه العناية الإلهية فوق أقدار الرجال" كما يقول مانجان[19] Mengin [20].

وكثير ما دون الذين عاصروا الباشا من أولئك المادحين وقادحين آرائهم في رسائل وتقارير انتفع بها المؤرخون في تقدير أعمال محمد علي باشا؛ لأن مرور قرن من الزمان أو ما هو دون ذلك بقليل عن وفاة الباشا كفيل بأن يقضي على كثير من البواعث الشخصية التي تفسد على الناس أحكامهم إذ تميل بهم إما إلى جانب التحامل أو إلى جانب المحاباة، ولما كانت كتابات الذين عاصروا الباشا وراقبوا تصرفاته عن كثب هي المنبع الأول الذي نستقي منه معلوماتنا عن الوالي وحالة مصر في عهده فإنّ الوقوف على ما تتضمنه تلك الكتابات من مختلف الآراء أمر ضروري لا مناص منه، وقد أصدر "جان ماري كاريه jean marie carré " في عام 1932م كتابا عنوانه " السائحون والكتاب الفرنسيون في مصر" يجد القارئ في محتواه كثيرا من الحقائق والآراء التي تساعده على فهم ما اصطنعته طائفة كبيرة من المعاصرين الذين تصدوا للحكم على أعمال الباشا من طرائق وأساليب[21].

ومما سبق ذكره فقد كانت شخصية محمد علي محل جدل بين المؤرخين، فهي حقيقة شخصية يكتنفها الغموض وتحتاج إلى البحث أكثر حتى تتبين حقيقته التّاريخية التي قد تكون سببا في تغير حاضر مصر ومستقبلها.

---

[19]– فيلكس مانجان مؤرخ فرنسي في عهد نابليون ألف عدة كتب عن مصر أيام محمد علي باشا وعن الجزيرة العربية.

[20]– محمد فؤاد شكري وأخرون، بناء دولة مصر محمد علي،(د.ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009، ج1، ص 03.

[21] – محمد فؤاد شكري وأخرون، المرجع السابق، ص 03

3- مولد ونشأت محمد علي باشا

لا نكاد نعرف عن نشأت محمد علي باشا إلا القليل، وذلك راجع لتضارب المعلومات التي جمعتها عن نشأته مما يجعل الباحث في حيرة من أمره إذا ما تعرض إلى سيرته الذاتية في المرحلة الأولى من حياته، كما أنّه لم يحقق بعد في أصل ونسب محمد علي باشا في بحث مستقل، كذلك فإن الفترة التي قضاها من عمره في مسقط رأسه بقوالة[22] قبل قدومه إلى مصر صحبة الجيش العثماني لإجلاء الفرنسين عنها غامضة وقليلة التفاصيل، وغالبا فإن المعلومات الضئيلة التي توفرت لنا عن أصله وحياته قبل قدومه إلى مصر هي مرويات محمد علي نفسه.

هناك من الباحثين الذين تعرضوا إلى سيرته الأولى على أنه ولد من سلالة ألبانية في بلدة قولة[23] وطن الإسكندر الأكبر، غير أنّه لا يعرف على وجه التحديد تاريخ ولادته إلا ما كان يرويه عن نفسه[24] لزواره ومقربيه في المجالس الخاصة أنه ولد في عام 1182هـ الموافق لـ 1769م وهو العام الذي أنجب عظماء الرجال في مختلف الميادين السياسية والعسكرية والأدبية، **لكن لماذا تم الاحتفاظ بتاريخ 1769م؟** قدر يرجع ذلك إلى ما استقر في نفسه بأنه يتحتم عليه الإعلاء عن أصوله المتواضعة، وذلك بتغذيتها ببعض التفاصيل المهمة التي يمكنها أن تؤثر في النفوس[25]، غير أن هناك من الباحثين من شككوا في صحة ذلك التاريخ

---

[22]- تقع المدينة على الساحل الشمالي لبحر إيجة على رأس خليج قولة، ترتفع المدينة من مستوى سطح البحر حتى قمم تلال **ماندرا كاري**، كما تعتبر المرفأ البحري الأول لمقدونيا الشرقية إلى الجنوب منها تقع جزيرة ثاسوس على بعد 10 كيلومتر

[23]- M. Paul Mérruau, l'Egypte contemporaine de Mohammed Ali A Said pacha, Librairie académique, Paris, 1864, p45.

[24]- وهذه الروايات والمعلومات التي قدمها محمد علي عن نفسه في غالب صحيحة لأنها مرتبطة بأسماء أشخاص حقيقين كان لهم الفضل على محمد علي وأثروا فيه في فترة شبابه حتى أنه حاول استقدامهم فيما بعد إلى مصر ليعيشوا في كنفه كشخصية "**المسيو ليون**" وهو دبلوماسي فرنسي كان يعيش في قوالة وتولى تعليم محمد علي واعتمد عليه اعتمادا كاملا في مشروعاته التجارية، ويمكن ان يكون تأثر الباشا بمسيو ليون هو سبب مليه وثقته بالفرنسيين واعتماد عليه في مشروعاته الاصلاحية أكثر من غيرهم، لكن ليون توفي غداة سعي الباشا لاستقدامه الى مصر.

[25] - جيلبرت سينويه، المصدر سابق، ص 34.

إذ لم يكون هناك سجلات خاصة بالمواليد آنذاك[26]، وأنه فيما يبدو أراد أن يربط سنة ولادته بنفس السنة التي أنجبت شخصيات بارزة[27] كان معجبا بها أمثال نابليون بونابرت[28] ودوق ولنجتون القائد البريطاني الذي قهر نابليون بونابرت في معركة واترلو الشهيرة، فضلا عن أنه ولد في نفس المكان الذي ولد فيه الإسكندر الأكبر[29] وهو ميناء لاكافالا La cavalla والذي تغير اسمه فيما بعد إلى ميناء قولة[30]،

[26] – ويشكك البعض في تاريخ ميلاده ويرده إلى عام 1770م أو حتى بين أعوام 1768م و1771م، وربما يرجع هذا الخلط إلى غياب سجلات للمواليد في هذه الفترة، فضلا عن ظاهرة هامة في الكتابات التاريخية أن التاريخ في الواقع لا يهتم كثيرًا بتسجيل فترة البدايات للشخصية التاريخية ويركز على فترة الأمجاد، ولذلك وبشكل عام تحيط بفترة النشأة لمعظم الشخصيات التاريخية الكثير من الغموض والقصور فى المعلومات، إذا قورنت بغزارة المادة مع التحول إلى "بطل تاريخي".

[27]– أمثال العالم جورج كوفييه (Georges Cuvier :) ولد في 23 أغسطس 1769 ميلادية وهو فرنسي الجنسية ويعد من أهم أقطاب العلم في القرن الثامن عشر ويعد كذلك من أهم من ترأسوا أكاديمية العلوم، و ألكسندر فونهومبولت von Humboldt Alexander ولد 14 سبتمبر 1769 م وتوفي 6 ماي 1859 هو مستكشف وعالم نبات ألماني، ينظر: إلياس الأيوبي، محمد علي سيرته وأعماله وأثاره، الكلمات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 10.

[28]– كان محمد علي باشا شديد الاعجاب بشخصية نابليون بونابرت للدرجة أنه كان بمثابة مثلا اعلى له خاصة باعتباره قائدا عسكريا، فبحسب ما قاله العالم والمؤرخ الفرنسي جى فالتون حفيد بيسون بك الذى كان يعمل قائدا للبحرية المصرية في عهد محمد على، حيث ذكر خلال محاضرة ألقاها في المجمع العلمي الفرنسي إن محمد على كان يرغب في تكليف سفينة دنماركية لخداع الإنجليز وإقناعهم بإحضار نابليون إلى الإسكندرية في عام 1819م، وأضاف أن محمد على أعطى أوامره إلى بيسون بك لتولى قيادة هذه المهمة، وقال إن السفينة الدنماركية وصلت بالفعل إلى سانت هيلانة، لكن نابليون رفض الصعود إليها، لأنه شك فى وجود مؤامرة إنجليزية لقتله، مشيرًا إلى أن الوالي العثماني على مصر كان على وشك وضع خطط أخرى بتشجيع من سليمان باشا قائد الجيش وإبراهيم باشا، ومنها خطف نابليون قسرا أو بحث مقايضته مع الإنجليز، إلا أن انشغال محمد على بالحروب التي خاضها، ثم وفاة نابليون عام 1822، أحبطت هذه الخطط، وأشار إلى أن إعجاب محمد على بنابليون كقائد عسكري كان بلا حدود، وقال إنه كان فخورا بأنه ولد فى العام نفسه الذى ولد فيه نابليون، وهو عام 1769م. **ينظر**: عصام عبد الفتاح، أيام محمد على: حكاية رجل سبق عصره !! : عبقرية الإرادة وصناعة التاريخ"، الشريف ماس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012، ص 20.

[29] – الإسكندر الأكبر(323–356) ق.م: ملك مقدونيا، واشتهر أيضًا باسم الإسكندر المقدوني، وهو أحد كبار القادة العسكريين في التاريخ وكان قد فتح كثيرًا من بلاد العالم المتمدن المعروفة في ذلك الوقت، ونقل إليها الأفكار الإغريقية، والطرق التي كان الإغريق يتخذونها لصنع الأشياء، واستطاع هذا الفاتح أن ينشر الثقافة الإغريقية التي عرفت فيذلك الوقت بشكل واسع في البلاد التي فتحها.

[30]– اسكندر اليعقوبي، المصدر السابق، ص 44.

وإضافة إلى ذلك فقد قدم محمد علي مجموعة من الروايات عنه لا تخلو من الخيال والطابع المسرحي[31]، وذلك أنّ أمه وهي حامل رأت في المنام حلماً قصته على أحد الدجليين فأنبأها أن الجنين الذي يضطرب في أحشائها سيبلغ ذات يوم أرفع مراتب المجد، وقيل أن هذه النبوءة أخذت من مخيلتها كل مأخذ، وأنها طالما كانت تكررها على مسامع ولدها، والتي كانت تحرك في نفسه الطموح وعوامل الطمع حتى أثمرت، وحققت وعدها، إذ لا نزاع في أن الغلام بمزاجه الحاد وذكائه العجيب مازال يحرص على لأن تحين الفرصة لإظهار نفسه وإعلاء شأنه، فما لبث الفتى إلا قليلاً حتى سنحت له فرصة حسنة[32] كما سنرى في المباحث الموالية.

واختلفت أيضا الآراء حول تكوين أسرة محمد علي باشا أصول العائلية، وتذكر الدكتورة عفاف لطفي السيد أن محمد علي جاء من سلالة متواضعة، وهو ابن إبراهيم أغا بن عثمان أغا بن ابراهيم وهو يظهر خلفية عسكرية امتدت لثلاث أجيال، وأما اسم والدته فإن التاريخ بفضل العادات الشرقية التي كانت ولا تزال تأبى على المرأة أن يعرف اسمها خارج بيتها، جهله ومن غير ذلك لا يعرف إلا القليل عن الأسرة أو عن أصولها، وبينما وصفهم المؤرخون بأنهم من أصول ألبانية[33]، وأيضا من المعلومات المتواترة في الأسرة قد يكونون من سلالة كردية، وجاءوا من إحدى القرى اسمها قرية إليتشي في شرقي الأناضول، بينما يوجد من يقول بأنه من سلالة فارسية، ويستند القول الأول لقوة بنية محمد علي ومتانة أخلاقه، بينما يستند القول الثاني إلى ذكائه المرن وسعة حيلته، وهناك من يقول بأنه منحدر

[31]– منها قصة الحلم الذي رأته أمه عند ولادته بأنها شاهدته يشرب من ماء النيل فلا يرتوي والذي فسر لها بأنه يملك كصر ولا يكتفي بها

[32] – السير شارلس ماري، المصدر السابق، ص 12-13.

[33]– اسكندر اليعقوبي، المصدر السابق، ص44.

من سلالة تركية[34]، كا يؤكد ذلك أيضا **شفيق غربال** في قوله :"... هو تركي عثماني لا يمن للألبانيين ولا لصقالبة مقدونيا ويونانها بسبب ولا نسب..."[35].

يشير جيلبرت سينويه في شأن أصول محمد علي الألبانية فيقول إذ أننا أسهبنا في القول بأنه تريكي ألباني، والواقع أن شجرة نسبه نحيفة، وهي تفرض عليه أجداداً غامضين في إليكيا تلك القرية الأناضولية الصغير ة والواقعة في الجنوب الغربي لإسطنبول، ذلك أن والد جده ولد في قونيا، وبالأناضول دائما ولد جده عثمان في إديرن، فلا شيء من ألبانيا وسط كل هذا بيد أن كل الشهادات سواء لمساعده أو أحفاده تتحدث عن أصله الألباني... وفي هذا السياق يخبرنا صديق واسع الاطلاع عن تاريخ مصر ، وتاريخ الملكية به بقصة جاء في سنوات الخمسينيات، وعندما كان الملك فاروق في اليونان منع من مطعم هناك محرم على العرب والأتراك، فاحتج بهدوء قائلاً: " لست تركيا، أنا ألباني" ويبدو من ذلك أن أصله شديدة التجذر، ودعما لنظرية الانتماء الألباني تحضر بقوة الصلات المتميزة التي جمعت بين محمد علي والمرتزقة الذين شكلوا على الدوام نخبة الجيش العثماني، ومع ان الألبان مسلمون إلا أنهم كانوا يكرهون أسيادهم الأتراك، ولا يتحدث أغلبيتهم إلا لغتهم الخاصة، وبما أنهم كانوا من البدو الجبليين القساة، فقد كان من الصعب إخضاعهم إلى النظام إلا من قبل رجل منهم، يفهمهم ويعرف كيف يغازلهم ويخضعهم، وكون محمد علي ولد بأصل مزدوج، فهو يفسر مشاعر الحب والكراهية التي كان يحملها الباشا المقبل لسادة الباب العالي، فقد كان يحتقرهم بالقدر نفسه الذي كان يحترمهم به، وهو ما يفسر أنه طيلة فترة حكمه كان يتردد في إعلان العصيان على حكومتهم التي كانت تحت رحمته، وإذا صح ذلك فإنه يمكن تور فرضية أخرى؛ إذ أنه في ذلك الوقت كانت الروملي تعرف تواجد عدد كبير من الألبان ومثلهم من السلافيين، ومن المحتمل جدا أن يكوم والده واحد منهم، استقر حوالي 1768م بكافالا حيث تعرف هناك على زوجته زينب ابنة حسين أغا التي لم تنجب له رسميا إلا ابنين هما محمد علي وأحمد، وإن كان يعتقد خلافا لذلك أن نسلهما عرف عددا

[34] – محمد صبري السربوني، الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية 1811– 1849، تر: ناجي رمضان عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ج1، ص 58.

[35] – محمد شفيق غربال، محمد علي الكبير، (د.ط)، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 12.

أكبر من ذلك الحد، فبعض المؤرخون أجمعو على إعطاء عدد مقبول جدا وهو ستة عشر بين طفل وطفلة[36].

فقد حاول الحكام من أسرة محمد علي بعده كتابة تاريخ الجد الأكبر، ومن وجهات نظر متعددة، وفي بعض الأحيان متناقضة، ولا ريب في ذلك إذا عرفنا طبيعة الخلافات التي سادت أفراد العائلة الملكية، وخاصة بعد محاولة الخديوي إسماعيل بن إبراهيم باشا ونجاحه في انتزاع فرمان 24 ماي 1866م الذي وافق عليه السلطان عبد العزيز ، والذي بموجبه تم تغير نظام الباكورية في ولاية العهد من أكبر أفراد أسرة محمد علي إلى تخصيص وحصر ولاية العهد في أبناء إسماعيل وحده، ونتيجة لذلك حرم عمه حليم باشا الذي كان من حقه أن يرث العرش أبيه باعتباره أصغر أبناء محمد علي لصالح توفيق بن خديوي إسماعيل، وبموافقة البابا العالي أيضا، وكان لهذا الأمر أثر البالغ في خروج الكثير من الحكايات والقصص محمد علي مصدرها أحفاده المختلفون فيما بينهم على أحقية ولاية العهد[37].

كان محمد علي الوحيد لأبيه بعد موت كل إخوته تباعاً، وكان عددهم 17 ولداً لم يعش منهم سواه ، لذلك حصر والده كل حنانه واهتمامه فيه وحاطه بعناية خاصة، وعلى الرغم من أن الحالة المعيشية للعائلة كانت ضعيفة ومتواضعة إلا أنّها كانت كريمة ومجدّة ، فقد كان والده يعمل بوظيفة مرتبها لا يكفي لإعالة عائلته[38]، حيث كان يشتغل منصب يول آغازي أي أنه كان ضابطا مكلفاً بأمن الطرق، وبموازاة مع أغلب الأهالي يتاجر في التبغ، فكان شخص عادي في بيئته[39]

[36] – جيلبرت سينويه، المصدر سابق، ص ص 35–36.

[37]– كارولين جونييه كورخان، العلاقات المصرية الفرنسية في عهد محمد علي 1805– 1849، ط1، مركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015، ص 24.

[38] – سامي صالح الدوري، عظماء صنعوا التاريخ، ط1، مطبعة جامعة تكريت، العراق – تكريت، 2017، ص 134.

[39] – جيلبرت سينويه، المصدر سابق، ص 36.

توفي والده **ابراهيم باشا** قبل ولادته[40] ثم تلته والدته بعد ذلك وكفله عمه "**طوسون أغا**" الذي ما لبث أن توفي هو أيضاً فلم يبق له أحد من ذويه ليكفله، فقبل حاكم قوالة **إسماعيل أغا** كفالته والانفاق عليه، فاكتشف حينها ما حبته الطبيعة لهذا الشاب من همة وذكاء فطري[41]، ثم دُرِّب على ركوب الخيل وحمل السلاح، وأغلب الظن أنه عندما بلغ سن الشباب خرج في صحبة الدوريات المكلفة بمطاردة العصابات أو بتحصيل الخراج، ومن ثم تعلم القواعد الأولية للحرب، وفن مباغتة العدو وأساليب القيادة، وهناك ما يدل على خروجه على رأس بعض هذه الدوريات حيث أبلى أحسنَ بلاء[42]، وهنا نرى أنفسنا تحت رحمة القصاصين ومروِّجي الحكايات، الذين أُولِعوا بالمبالغة فيما يروونه من الروايات، وبما يضيفونه على الموضوع من الحواشي التي يتخيلونها تخيلًا؛ لإظهار آثار العبقرية التي لمحوها حتى في تلك السن المبكرة لمحمد علي ومقارنة عظمته فيما بعد بما كان يظهر عليه في البداية من سيما التواضع، ويروى أن أهل بروسطة في اليونان، امتنعوا عن دفع الجزية لحاكم قولة فذهب إليها ومعه 10 رجال فقط، وطلب أعيان وكبراء البلدة لمفاوضتهم فلما ذهبوا بحسن نية احتجزهم كرهائن في المسجد وهدد الأهالي بذبحهم إن لم يدفعوا الجزية، وتقديرا لكفاءته عين ضابطا برتبة ملازم تحت الاختبار في الجيش العثماني وواصل نجاحه إلى أن رقّي لقائد حرس حاكم قولة الذي وطد صلاته به بتزوج[43] إحدى قريباته المطلقات اسمها **أمينة**

---

[40] – أكد محمد علي أن والده ابراهيم أغا توفي وهو صغير، وأن عمه طوسون هو من تكفل بتربيته، غير أنه من يمكن أن يقرأ على شاهدة أقيمت بإبراهيم آغا بأمر من الخديوي إسماعيل باشا حفيد محمد علي مايلي:<< توفي سنة 1205 هـ وهو ما يوافق سنة 1791م؛ أي عندما كان يشارف محمد علي على سنته الحادية والعشرين، ومن المحتمل جدا أنه أقدم على ذلك ليمنح للأجيال اللاحقة ورما لأقاربه ولأبنائه خاصة انطباعا بأنه رجل عصامي ناضل بنفسه حتى يصل إلى القمة >> **ينظر**: جيلبرت سينويه، المصدر سابق، ص 34.

[41] – اسكندر اليعقوبي، المصدر السابق، ص44.

[42] – هنري دوديل، الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد علي (مؤسس مصر الحديثة)، تر: أحمد محمد عبد الخالق و أحمد شكري)، مؤسسة هنداوي، ص 19.

[43] – أما زواجه الثاني فكان من **ماء دوران هانم** ولها اسم اخر هو(**قمش قادين**)، لم يرزق منها أولاد، وفضلاً عن زوجتيه السابقتين اتخذ لنفسه خلال مدة حكمه في مصر جواري او اماء(أي ما ملكت اليمين)وفقاً للشريعة الاسلامية، سماهن المستولدات (اي اللائي يلدن الابناء للحاكم)، وهن كثي ا رت دونت السجلات الرسمية اسماء احدى عشرة =

.

هانم[44]، وهو ما يزال في بدايات العشرينات من عمره، و كان يحترم زوجته ويودها كثيراً[45] ، ثم ترك العسكرية برتبة يوزباشي، واتجه لتجارة الدخان وبدأت حياته في التوجه لحياة التاجر الثري[46]، وأنجب خمسة أولاد منهم ثلاث ذكور سماهم إبراهيم[47] وطوسون وإسماعيل إكراماً وذكراً لإبراهيم أبيه وطوسون عمه وإسماعيل الشوبرجي المحسن إليه، وبنتان تزوجتا فيما بعد؛ الكبرى توحيدة بمحرم بك أمير الأسطول المصري، والذي تسمى باسمه أحد أحياء الاسكندرية الأكثر اتساعاً، والصغرى ناضلي بأحمد بك الدفتر دار فاتح الكردفان[48] وسِنَّار[49]

= مستولدة للباشا، اهمهن عين الحياة قادين التي انجبت له محمد سعيد والي مصر لاحقاً (1854- 1863) ، كما حفظت السجلات اسماء عدد ابناءه الذي بلغ سبعة عشرة ولداً، وثلاثة عشر بنتاً أي 30 ابناً ، واسماء اخرين لم تسجل اسمائهم. **ينظر:** صوفيا لين بول، حريم محمد علي باشا، تر: عزّة كرارة، ط1، مكتبة الاسكندرية، مصر، 1999.

[44] – كان يعتبر محمد علي أن زوجته أمنة هانم طالع سعد عليه كما كانت السّيدة خديجة رضي الله عنها طالع سعد على نبينا محمد صلى الله وعليه وسلم، وكما كانت جوزفين طالع سعد على نابليون، لأن زواجه بها مكنه من النّظر إلى المستقبل بعين لم تعد ثقلها هموم المعيشة المادية، ومكنه من الاندماج في سلك تجار التبغ برأسمال يضمن النجاح، ويشعل شيئا فشيئا في فؤاده لهب النزاع إلى المعالي والرغبة في المجد والفخار

[45] – وبعد أن تولى مصر أرسلها إلى اداء فريضة الحج بموكب مهيب حتى اطلق عليها اهل الحجاز لقب(ملكة النيل) وذلك لأنها عندما سافرت إلى الديار المقدسة في عام 1808م كان يرافقها موكب يتكون من 255 جمل تحمل متاعها وخدمها وجشمها.

[46] – أحمد فتحي سليمان، بلد فرعون، (د. ط)، الرواق لنشر والتوزيع، (د. ن)، (د. ت)، ص 23.

[47] – تشير بعض الدّراسان إلى أن إبراهيم باشا ليس من سلالة علي باشا بل ابن زوجته وتعهده بالاهتمام والرعاية وأصبح ساعده الأيمن في فتوحاته العسكرية، لكن ما يدحض تلك المقولات ما تحفل به المكاتبات التي كان يبعث بها محمد علي إلى إبراهيم باشا أثناء قيامه بالحملات العسكرية سواء في الجزيرة العربية أو في بلاد المورة أو بلاد الشام وغيرها ما تضمنته من عبارات دافئة وحب أبوي جارف مما يؤكد أنه كان ابناً من صلبه وليس ابناً لزوجته كما تشككت في ذلك تلك الدراسات.ينظر: أحمد زكرياء وآخرون، محمد علي وعصره،(د.ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005، ص 12.

[48] – **كردفان:** هي إقليم ولائي في وسط السودان .سميت كردفان بهذا الاسم هي كلمة نوباوية مشتقة من كلدوفان التي تعني أرض الرجال في لغة النوبة في 1994 تم تقسيمها إلى ثلاث ولايات فيدرالية: شمال كردفان (North Kurdufan) ، وجنوب كردفان (South Kurdufan) ، وغرب كردفان .(West Kurdufan) في أغسطس 2005 تم إلغاء ولاية كردفان الغربية بين ولايتي كردفان الشمالية والجنوبية كجزء من تنفيذ اتفاقية السلام الشاملة بين حكومة السودان وحركة تحرير السودان، وتم إنشاء ولاية غرب كردفان مرة أخرى في عام 2013.

[49] – **سِنَّار:** مدينة تقع في ولاية تحمل اسمها في وسط السودان على الضفة الغربية لنهر النيل الأزرق على ارتفاع 427 م فوق سطح البحر وتبعد عن العاصمة الخرطوم مسافة 280 كلم جنوباً، وكانت سنار لقرون عديدة =

والمشتهر بالقسوة لا حد لها[50].

انظم محمد علي وهو ابن الثلاثين عاماً من عمره إلى الكتيبة الألبانية(بصفة وكيل قائد للكتيبة)التي ارسلت ضمن الجيش العثماني إلى مصر للتصدي للاحتلال الفرنسي (1798م- 1801م)، وقد اظهر موهبة وشجاعة وذكاء حاد ومنطق سليم مكنته بسرعة ومهارة ان يصبح قائداً للكتيبة الالبانية بعد وفاة قائدها طاهر باشا[51].

ومن هنا تبدأ قصة محمد علي ومساعيه لتحقيق حلمه في تأسيس امبراطورية عربية يحكمها هو ويرثها أولاده بعده

ثانياً: الصراع الداخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي في ظل التنافس البريطاني الفرنسي العثماني

اتفق المؤرخون على تسمية الفترة الواقعة بين رحيل الفرنسيين عن مصر عام 1801م وتوليه محمد علي 1805م بفترة الفوضى السياسية، فبمجرد أن رحل الفرنسيون عن الأراضي المصرية نشب خلاف بين العثمانيون وبين المماليك والإنجليز الذين كانوا متحالفين من أجل محاربة العدو المشترك حيث اختلفوا فما بينهم على تقسيم غنائم الإنتصار[52]، بالإضافة إلى زعمات الشعبية التي كان لها دور هي أيضا في هذا الصراع.

= عاصمة للسلطنة الزرقاء التي حكمت السودان في القرن السابع عشر وحتى عام 1821 م، وهي اليوم واحدة من أكبر المراكز التجارية وأبرز نقطة تقاطع لخطوط السكك الحديدية في السودان.

[50] – الياس الأيوبي، محمد علي سيرته وأعماله وآثاره،(د. ط)، ادارة الهلال، مصر، 1923، ص 16.

[51] – سامي صالح الدوري ، موقف بريطانيا من سياسة محمد علي باشا في اليونان وبلاد الشام (1821م –1841م)، ط1، للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، 2013 ، ص ص 27– 28.

[52] – أنجلو ساماركو، دولة مصر في الوثائق الإيطالية غير المنشورة، تر: محمد صابر عرب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006، ص 40 – بن أعراب كلثوم، خطاب الإصلاح والنهضة في القرن 19م (حمدان خوجة ورفاعة رافع الطهطاوي أنموذجا)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ص110

1- الدّولة العثمانية:

تطلعت الدولة العثمانية إلى بسط حكمها المطلق على مصر بعد خروج الحملة الفرنسية وعودة مصر إلى حظيرتها في عام 1801م بدعوى أنها أعادت فتحها بحد السيف، وأرادت أن تجعل منها ولاية تحكمها كما كانت تحكم ولايات الاخرى[53]، وفي هذا الوقت شدد فيه السلطان العثماني على أهمية استعادة مصر، والتخلص من البكوات الذين تسببوا في تدهور الحياة المصرية[54]، ولذا استقر عزمها على محاربة المماليك الذين كانوا قد أصبحوا أصحاب الكلمة العليا في مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر، وخصوصا قبيل الحملة الفرنسية فترة الحكم الثنائي بمراد[55] وابراهيم[56]، والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها في سلطة الحكم، فكانت تعليماتها للصدر الأعظم **ضيا باشا** الذي قاد القوات العثمانية البرية إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها بالتحالف مع الانجليز تقضي بإبادة بقية المماليك حتى لا تقوم لهم قائمة أو ابعادهم عن مصر واسكانهم في ولاية أخرى من ولايات الدولة، لكن العثمانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون تحقيق غرضهم هذا، فلجأوا إلى الحيلة والمؤامرة مع المماليك، فعمل **يوسف ضيا باشا** على ايقاع الفرقة والانقسام بين الممالك بضربهم ببعضهم البعض والقضاء عليهم جميعا عندما تسمح له الفرصة، ومن أجل ذلك

---

[53] – عبد الله محمد عزباوي، الحالة السياسية في مصر عند مجيء الحملة الانجليزية 1807 (حملة فريزر)، أعمال ندوة معركة الرشيد عام 1807 قرنان على مقاومة حملة فريزر 1807– 2008، مركز تاريخ مصر المعاصر، 25 نوفمبر 2007، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009، ص 13.

[54] – أنجلو ساماركو، المرجع السابق، ص 12.

[55] – **مراد بك (1750م– 1801م):** مملوكي جركسي الأصل زعيم سلاح الفرسان والحاكم المشترك لمصر مع إبراهيم بك، وبعد هزيمته على يد نابليون في معركة الأهرام، فر مراد إلى صعيد مصر، وشن حرب عصابات قصيرة ضد الحملة بقيادة دوزيه لمدة عام، وفي عام 1800 م عقد مراد بك اتفاقية سلام مع جان بابتيست كليبر، ووافقت عليها حامية القاهرة، ولكنه توفي من الطاعون أثناء رحلته هناك.

[56] – **إبراهيم بك (1735–1817)** : واحد من كبار أمراء المماليك في مصر .ولد عام 1735م في قرية مارطقوب، عند تفليس، في جورجيا، اشتراه الأمير محمد أبو الذهب ثم اعتقه وزوجه من أخته، ثم أصبح أحد البكوات الاربع والعشرين.

عين **محمد بك الألفي**[57] أكيرا على الصعيد وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك الذين حنقوا على الألفي لانفراده بهذه الامارة[58].

بالإضافة إلى ذلك اعتزمت الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان قائد الأسطول العثماني الذي شارك مع الإنجليز في إخراج الفرنسيين من مصر على أن يأخذا رؤساء المماليك غيلةً، واتفقا على أن يدعو كل منهما فريقاً من زعمائهم إلى الاجتماع به، الأول في القاهرة والثاني في الإسكندرية بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم في البلاد، فاذا اجتمعوا فتك به الجنود وقبضوا عليهم وارسلوهم إلى استانة ليقرر البابا العالي مصيرهم، وفي أوائل أكتوبر 1801م نفذ حسن باشا قبطان خطته في أبي قير، كما قام الصدر الأعظم بتنفيذ خطته في القاهرة وقد قتل بعض المماليك في أبي قير، وتم القبض على البعض الأخر، كذلك تم القبض على الأمراء المماليك في القاهرة وعندما علم الانجليز المؤيدون للمماليك بهاتين المؤامرتين أظهروا للعثمانيين غضبهم وطالبوهم بالإفراج عن المماليك المعتقلين، وإلا فإنهم سيحاربونهم الأمر الذي أجبر العثمانيين على الإفراج عنهم، وتوضح هاتين المؤامرتان اللتان قامت بهما ضد الدولة العثمانية والمماليك في مصر أن محمد علي لم يكن أول من فكر في التخلص من المماليك عن طريق التآمر عليهم في مذبحة القلعة عام 1811م، وإن كان قد نجح في التخلص منهم بينم فشل العثمانيون في التخلص منهم نتيجة تدخل الانجليز .

ولما كانت موارد الثروة في مصر في تأخر مستمر لجأ الجنود الأتراك إلى نهب والسلب والسطو على البيوت والأفراد والمحالات التجارية، ومما زاد الأمر سوءا انقسام الأتراك في مصر إلى طوائف متعادي، فكانت المعارك بين الجماعات والأفراد تنشب في

---

[57] – **محمد الألفي بك:** قدم محمد الألفي إلى مصر بواسطة بعض التجار عام 1189 هـ، واشتراه أحمد بك جاويش أحد أمراء المماليك، والذي كان يلقب بالمجنون، نظرا لما يتصف به من سفه ومجون، بعد عدة شهور طلب الألفي مغادرة قصر جاويش فاشتراه سليم أغا الغزاوي الملقب بتيمور لنك وبعد شهور أهداه إلى مراد بك الكبير ودفع ثمنه ألف أردب غلة ومن هنا كانت تسميته بالألفي. **ينظر** : عبد الرحمان الرافعي، الزعمات الشعبية في السنوات الأولى من حكم محمد علي ."تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم"، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ج3، ص ص 52–54

[58] – عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 13.

معظم الأوقات، وفي مختلف الشوارع مما أدى إلى غلق الحوانيت ومحال التجارة، وتملك الفزع النّاس، ولم تتخلص مصر من هذه الأفة إلا بتولي محمد علي الحكم في عام 1805م.

2- المماليك[59]

لم تستقر الأوضاع الداخلية في مصر منذ إن دخلت تحت السيطرة العثمانية في عام 1517م، فقد بقي المماليك هم المسيطرون على الإدارة في مصر، على الرغم من انقسام المماليك في مصر إلى قاسمية وفقارية وتنافسهم المستمر على السلطة أن أصبحت مصر أرض صراع دائم كل فئة فقد حاولت إسناد مرشحها للوصول إلى السلطة وتولي منصب شيخ البلد، فضلا عن براعة المماليك بالأعمال القتالية جعلتهم يصلون إلى المناصب القيادية ولاسيما قيادة الجيش.

فكان المماليك يطمعون بعد جلاء الحملة الفرنسية في استعادة حكمهم في مصر بحجة أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد لسنين عديدة، وخاصة أنهم كانوا يرون أن نصيبهم في محاربة الفرنسيين، وبأهلهم لاستعادة مركزهم الذي حرمتهم منه الحملة الفرنسية عند مجيئها في عام 1798م، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بها ويريدون التخلص منهم[60]، غير أن رحيل الفرنسيين كشف عن حالة الانقسام التي عمت صفوف الممالك، ففريق منهم فضل الاعتماد على الفرنسيين، وقد ترأس هذا الفريق عثمان بك البرديسي، وفريق ثاني التزم الحياد أو المولاة الأتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن، وفريق ثالث تزعمه محمد بك الألفي رأى أن يستظل بحماية الانجليز[61] الذين كانوا لم يبرحوا البلاد بعد خروج الحملة يطلبون منهم الحماية ويستجدون منهم الماعونة، وكانت خطة الانجليز حيالهم مغرية لهم على الاسترسال في أوهامهم وأمالهم، ذلك أن الجنرال هتشنسون قائد القوات الانجليزية في مصر التي حاربت الفرنسين سعى قبل أن يزحف إلى القاهرة في ظل المماليك

---

[59] – وللمزيد عن تاريخ المماليك ونشأتهم وحروبهم مع الدولة العثمانية **ينظر:** محمد أحمد دهمان، العراك بين بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986.

[60] – عبد الله محمد عزباوي، المرجع 14.

[61] – امجلو ساماركو، المرجع السابق، ص 12.

من أتباع مرد بك إلى صفه وكانوا في ذاك الوقت موالين للفرنسيين بحكم الاتفاق مراد / كليبر ، فوعدهم ان يعيد لهم سلطتهم القديمة في مصر اذ انظموا الى جيوش الحلفاء (الاتراك والانجليز)، وقد رأى هؤلاء أن صفة الانجليز أربح وأن نجم الفرنسين أخذ في أفول، ولذا انقضوا عليهم ونكثوا بالاتفاق زعيمهم معهم، وانضموا الى صفوف الانجليز الذين عزموا على اتخاذهم صنائع لسيادتهم في مصر، فأيدوهم وناصروهم وساعدوهم على استعادت سلطتهم القديمة في مصر، ومن أجل ذلك فقد توثقت على المودة بين المماليك والانجليز واعتقد المماليك في استظلال بحمايتهم، وعندما انتهت الحرب بجلاء الفرنسين ابدى الجنرال **هتشنسون**[62] عطفا كبيرا عليهم[63].

ولكن الممالك فشلوا في استعادت سلطتهم وذلك لأسباب التالية:

1- أن الحملة الفرنسية قط حطمت الهيبة التي كانوا يتمتعون بها لدى المصريين، كما أن الحرب أفت عددا كبيرا منهم، زلم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين 3500 إلى 4000 مملوك بمن فيهم بضع مئات من الأرقام الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار كانوا قد ضموهم الى صفوفهم بالإضافة إلى 300 من الجنود الفرنسين الذين لم يرحلوا مع الحملة الفرنسية وفضلوا البقاء في مصر وانضموا الى صفوف المماليك، ولم يكن باستطاعة المماليك شراء الرقيق من الخارج لضمهم الى صفوفهم بسبب معارضة البابا العالي الذي كان يسيطر على الأسواء الرقيق، مما اضطرهم الى استخدام بعض البدو، وبالرغم من ذلك فقد ظل المماليك بالنسبة للعثمانيين قوة عسكرية لا يستهان بها[64].

2- لم يستطيع الممالك في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر أن يتناسوا ما بينهم من خصوما، فقد استمر التنافس القديم الذي كان بين حزبي ابراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية، فكان لكل منهما انصاره وشيعته من الاتباع والبكوات، ولما مات مردا بك استكمل الانقسام بين الانصار ابراهيم واتباع مراد ، وقد استخدمت الدولة العثمانية هذا التنافس

[62] – الجنرال جون هالي–هتشنسون، إيرل ثاني دونوگمور(1757م – 1832م): هو سياسي، وجندي أنكلو–أيرلندي.

[63] – عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 15.

[64]– عبد الرحمان الجبرتي، المصدر السابق، ص 287.

لتضرب الممالك بعضهم ببعض فكانت تعد كل فريق بان تكون له السلطة والسيادة في مصر[65].

3- كره المصريين لهم بسبب سطوهم على القرى ورغبتهم في التمتع بخيرات البلاد دون غيرهم من العناصر[66].

وعندما جلا الانجليز عن البلاد في 16 مارس 1803م ووقف لمعاهدة أميان[67] الموقعة في 28 مارس 1802م بين فرنسا وانجلترا وهولندا واسبانيا اصطحب الانجليز معهم محمد بك الالفي الذي اصطحب معه 15 من ممالكه وأقام مكانه في مصر بشتك بك أحد مماليكه الذي سمي بالألفي الصغير ، وأمرّه على رجاله وأمرائه وأمرهم بطاعته وأوصاه بهم، وكان الجنرال (ستيوارت) قائد الجيش الانجليزي في مصر قد أيقن أن انجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخر المماليك في مستقبل لتحقيق أطماعها فيها، وأن تتخذهم أداة لبس نفوذها في البلاد، ولذا فقد أغرى الألفي أن يسافر إلى انجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك في حكم البلاد، ومساومتها في هذا الشأن، ولم يكن الألفي أقل منه رغبة في الرحلة إلى انجلترا، فقد كانت هذه الرحلة تختلج في صدره وذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو عرض على الجنرال ستيوارت أن يأذن له باصطحابه إلى لندن، وهكذا كان الألفي شأنه في ذلك شأن المعلم اليعقوب القبطي المصري الذي ارتحل مع الحملة الفرنسية ومات في عرض البحر قبل أن يصل إلى فرنسا وكان لديهم مشروع لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية بمساعدة كل من فرنسا وانجلترا مع فارق واحد هو أن الألفي كان يسعى لاستقلال مصر لتكون تحت حكم المماليك بمساندة انجلترا فقط، وبعد جلاء الانجليز عن مصر أصبح الأتراك أصحاب القول فيها كما أصبحت الاسكندرية خطر على الممالك بعدما كانت ملاذا لهم مدة الوجود البريطاني في مصر ، ولذا فقد انسحبوا منها بقيادة " **عثمان بك البرديسي**" إلى الصعيد حيث كان الجيش العثماني يحتل بعض المدن الكبرى، وأهمها المنيا واسيوط

---

[65] – المصدر نفسه، ص 288.

[66] – المصدر نفسه، ص 288.

[67] – **أميان Amiens:** مدينة في شمالي فرنسا تقع قرب نهر السوم، وتُعتَبَر عاصمة مقاطعة السوم وإقليم بِيكَارْدي.

وجرجا، وقد هاجم البرديسي المنيا واحتلالها 17 أفريل 1803م بعد قتال عنيف، وعندما تم المماليك احتلال المنية اضرموا فيها النيران وقتلوا من فيه من الأهالي والجنود الأتراك، وقد أدى احتلال الممالك للمنيا إلى سيطرتهم على الملاحة في النيل ومنعوا بذلك وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحري، وصارت الحاميات العثمانية في أسيوط وجرجا في خطر، وأسرف الفريقين المتحاربان في ظلم الاهالي وسلب أموالهم فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الاتاوات والغرامات ووضعوا ايدهم عنوة على ممتلكات الاهالي من مال وحاصلات ومن ثم ضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهم[68].

3- المصريون وزعامتهم الشعبية:

كانت الحملة الفرنسية سببا مهماً في ظهور زعامات وطنية حظيت بإجماع المصريين، كما كان للصراعات المملوكية العثمانية أكبر الأثر في أن يتبوأ هؤلاء الزعماء مكانتهم وسط المصريين، من أمثال **عمر مكرم، والشيخ السادات[69]، والشيخ الشرقاوي[70]، والشيخ محمد الأمير[71]** وغيرهم، في الوقت الذي كان فيه المماليك والعثمانيون قد استنفذوا كل طاقتهم في

---

[68] – عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 16.

[69] – **هو الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن السادات آل الوفا:** ينتهي نسبه إلى آل البيت الأطهار، تلقى العلم على يد كبار شيوخ عصره، حتى صار عالمًا مسموع الكلمة، مرهوب الجانب، تقبل شفاعته لدى الولاة العثمانيين وأمراء المماليك، وقد ورث عن والده مالاً وفيرًا، وكان تاجرًا يشتري البيوت القديمة ويقوم بإصلاحها ثم بيعها, كما كان له أسطولاً نهريًّا لنقل البضائع والركاب بين الجيزة والفسطاط وجزيرة الذهب، وبعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى القاهرة، واستقرت الأوضاع لـ"تابليون" فيها، قام بتشكيل (الديوان)، وهو مجلس يمكننا أن نشبهه بمجالس الحكم

[70] – **الشرقاوي (1737 م . 1812م)** : عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشهير بالشرقاوي، فقيه أصولي شافعي المذهب من علماء الأزهر، من قرية الطويلة بمحافظة الشرقية بمصر، حفظ القرآن ثم قدم الأزهر وَجَدّ في طلب العلم، فسمع من والدمنهوري وعلي بن العربي، وبلغ من العلم حتى أذن له بالتدريس بالجامع الأزهر، ثم تولى مشيخته عام 1208هـ.، ومن مصنفاته:" **التحفة البهية في طبقات الشافعية**"، و"**تحفة الناظرين في من ولي مصر من السلاطين**"، و"**حاشية على تحفة الطلاب**".

[71] – **محمد الأمير** (1742 – 1817 م) : هو العلامة الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن محمد السنباوي المالكي الأزهري الشهير بالأمير، وهو لقب جده الأدنى أحمد، وسبب هذا اللقب أن جده أحمد وأباه عبد القادر كان لهما إمرة بالصعيد، ختم العلامة الأمير القرآن ببلدته وهو ابن تسع سنين، ثم قدم القاهرة والتحق بدروس الجامع الأزهر، فحفظ المتون واجتهد في تحصيل العلوم، فلم يبق فن حتى أتقنه، ودرس فقه المذاهب الأربعة والقراءات والهيئة =

صراعتهم الشخصية التي بددت من قوى الجميع، لقد نظر المصريون إلى الممالك والعثمانيين بقدر هائل من السخط إذ كانت قسوتهم في معاملة الشعب ومبالغتهم في فرض الضرائب أمر في غاية السوء[72] فبدأ المصريون يظهرون بقوة سياسية خلال السنوات الثلاث التي قضتها الحملة الفرنسية في مصر، وكانت هذه السنوات الثلاث بمثابة التمرن على النضال والكفاح، فقد ثار المصريون في وجه الحكم الفرنسي أكثر من مرة فاعتدوا مقاومة الاضطهاد والوقوف في وجه القوة المسلحة، ومن ثم عندما جلت الحملة عن مصر وعلى الحكم العثماني إلى البلاد استطاع هذا الشعب بما يملك من خبرات سابقة في مواجهة الفرنسيين أن يتصدى لظلم كل من المماليك والأتراك وينجح في النهاية في الاطاحة بالوالي العثماني الظالم خورشيد باشا، ويعين بواسطة زعمائه من العلماء محمد علي حاكما على مصر في عام 1805م[73].

أما الزعامة الشعبية فقد تمثلت في جامعة العلماء التي كانت تتكون من مدرسي الأزهر[74] وأرباب الطرق الصوفية والقضاة والمفتيين ونقيب الاشراف ممن كان يطلق عليهم

= والهندسة والفلكيات والأوقاف والحكمة وغير ذلك، وقد تصدر لإلقاء الدروس في حياة شيوخه، ونما أمره واشتهر فضله؛ خصوصا بعد موت أشياخه، وشاع ذكره في الآفاق، وخصوصًا بلاد المغرب، وتأتيه الصلات من سلطان المغرب وتلك النواحي في كل عام، ووفد عليه الطالبون للأخذ عنه والتلقي منه، وتوجه في بعض القضايا إلى دار الخلافة العثمانية، وألقى هناك دروسًا حضره فيها علماؤهم وشهدوا بفضله واستجازوه وأجازهم بما هو مجاز به من أشياخه، وأنعمت عليه الدولة بعطايا سنية، وظل مدة ناظرا على الجامع الأزهر، ودرس بمدرسة محمد بك أبي الذهب مدة.

[72] – أنجلو ساماركو، المرجع السابق، ص 12.

[73] – المرجع السابق، ص ص 12 – 13.

[74] – ظل الأزهر أكثر من عشرة قرون منارة مصر لما قام به من أدوار في الاصلاح والمعرضة السياسية وقيادة الانتفاضات والثّورات ومقاومة الاستعمار وبرفعه العلم والتعليم، والنهوض باللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبفضله ظهرت الحركات التي طالبت بالحريات لحقوق العامة، وناضلت في سبيل رفع المظالم وترسيخ قواعد العدل ومن أجل ذلك اندلعت الثورات والانتفاضات في وجه السلطة الجائرة وضد الاستعمار، ومن مظاهر نجاحه استطاع علماء الازهر في فترة الحكم العثماني إسقاط بعض الحكومات العثمانية الجائرة في مصر، كما استطاعت أن تقضي على بعض الأحزاب المملوكية الحاكمة المتسلطة التي أهلكت الشعب المصري من مظاليمها وطغيانها، استطاع الأزهر أن يقوم فى عهد دولة المماليك (648هـ– 922هـ /1250م – 1517م) ومن بعدهم العثمانيون(922هـ – 1250هـ/ (1517م –1805م) بدور سياس ي وحضاري هائل، تبوأ من خلاله مكان الصدارة فى مصر والعالم الإسلامي، وعقب انتهاء مرحلة حكم العثمانيين، والتي

تجاوز اسم رجال الدين، وقد كان هذا راجعا إلى أنهم حملة القرآن الكريم وحفظت الشرع الشريف، واشتهارهم بالتقوى والصلاح وهذه الامور قيمتها في مجتمع يحترم رجال الدين ويبجل رجاله، وقد اتاح هذا الوضع الاجتماعي للعلماء ان يلعبوا دورا سياسيا في المجتمع المصري في القرن 18 م وأوائل القرن 19م[75]، وقد مرّ دور العلماء السياسي في مصر خلال هذه الفترة بأربع مراحل هي:

المرحلة الأولى: خلال القرن الثامن عشر وإلى قبيل نهاية القرن، وكان العلماء يكتفون بها في الدفاع عن حقوق الشعب أمام الممالك ووساطة بين الزعمات المتقاتلة منهم.

=وصل الأزهر فى نهايتها إلى قمة قوته. السياسية بتعيين علماء الأزهر لمحمد على واليا على مصر عام 1805م دخل الأزهر مرحلة أخرى من تاريخه تعد نقطة تحول تميزت بعمل محمد علي على إضعاف الأزهر باعتباره عائقا يقف أمام بناء دولته الحديثة؛ حيث اتجه إلى إنشاء مدارس علمانية، ورفض تماماً فكرة الاهتمام بالأزهر وإصلاحه، مقررا أن مناهجه تبعد عن تدريس العلوم الحديثة التي يحتاج إليها تطور المجتمع وقد أدت المدارس التي أقامها فضلاً عن البعثات التعليمية لأوربا لتكوين فئة جديدة من المتعلمين تكونت منهم الصفوة الجديدة للمجتمع، حيث نشأت علمانية الفكر والسلوك على عكس صفوة العلماء، وهو ما أدى إلى تغييرات فى بناء الصفوة المصرية، فلم يعد العلماء يحتلون المكانة الأولى فى النسق الاجتماعي، ولم يعد نفوذ الصفوة الجديد ة مستمدا من تعليمها الديني؛ وبذاك أصبحت هذه الصفوة هي المسئولة عن التحديث فى مصر يضاف إلى هذا ما اتخذه محمد على من وسائل لإضعاف تأثير علماء الأزهر منها : اتباع سياسة "فَرِقْ تَسد"، وهى السياسة التي ساعده على اتباعها انقسام العلماء على أنفسهم وتنافسهم، وشغل العلماء بمشكلات دنيوية عن الأمور الدينية، وهو ما أدى إلى تشويه صورتهم فى أعين الشعب، وذلك بعد أن قام بمنحهم عدداً من المزايا المادية بتوزيع القرى التي كانت بحوزة المماليك وآلت إلى الحكومة على المشايخ وكبار العلماء، فأصبح للعلماء حصص التزام كثيرة، مكنتهم من شراء الأراضي والمنازل وما إليها والعيش فى ترف، فكان أن انصرف عدد كبير منهم تدريجيا عن الانقطاع لشؤون الدين، فضلاً عن تأدية دورهم التقليدي فى المجتمع تجاه الشعب ، وهو الأمر الذى جعل محمد على لا يخشاهم بعد هذا أو يستجيب لنصحهم، ثم لم يلبث أن عمل منذ عام 1807م على إلغاء عدد من المزايا المالية للعلماء، ومنها إحباسيات الرزق، وهى الأموال التي كانت تُوقف على العلماء، كما لجأ إلى فرض ضرائب جديدة على إيراداتهم من العقارات والأطيان. **ينظر:** على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج 4، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، 1306هـ ، ص 31. و**ينظر أيضا:** عبد الرحمن الجبرتى، وقائع الدهور فى بدائع الزهور ،ج1، مطبعة بولاق ، القاهرة، ص 277. و**ينظر أيضا:** عبد الجواد صابر إسماعيل، دور الأزهر في مصر إبَّان الحكم العثماني، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996، ص ص 5- 6. **ينظر أيضا:** عبد الله على عبد الحميد سمك، دور علماء الأزهر في مواجهة الحملة الفرنسية على مصر والاثار المترتبة عليها 1313-1316هـ /1798- 1801م، **رسالة دكتوراه**، جامعة الأزهر، مصر، 2006.

[75]- عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 17.

المرحلة الثانية: في نهاية القرن 18م وقبيل مجيء الحملة الفرنسية حيث بلغ ظلم المماليك حدا لا يطاق فتزعم العلماء والجماهير وفرضوا شوطهم في عام 1795م.

المرحلة الثالثة: خلال الحملة الفرنسية حين واجه العلماء مسؤولية الجهاد في سبيل الله وتحري البلاد.

المرحلة الرابعة: من بعد خروج الحملة الفرنسية وتولية محمد علي في عام 1805م، وفيها وجد العلماء أنهم أصحاب الحق في تولية من يتولى حكم البلاد وقد اختاروا في النهاية محمد علي.

ومن أبرز القيادات الشعبية التي لعبت دوراً بارزا في مقاومة ظلم الولاة العثمانيين وتولي محمد علي السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، لقد كان أكثر الزعماء الشعب نفوذاً لدى الشعب ولا يعرف الكثير عن مولده ونشأته، فلم يترجم له الجبرتي لأنه لم يدرك وفاته، وإن أشار إليه في مناسبات عديدة ومن هذه الاشارات أن السيد عمر مكرم أسيوط المولد والنشأة ولد بأسيوط، ونشأ فيها ولذلك يسميه الجبرتي في بعض المواضع السيد عمر الأسيوطي[76]، وهو من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– أصبح نقيباً للأشراف قبل مجيء الحملة الفرنسية، وعندما جاءت هذه الحملة دعى المصريين إلى التطوع والقتال، ولما وقعت الهزيمة بالممالك في موقعة أم بابا، ترك البلاد بالرغم من أن الفرنسيين كانوا قد اختاروه لعضويته الديوان الأول، وهاجر إلى بلاد الشام، وظل في منافيه الاختياري في مدينة يافا إلى أن استولى عليها بونابرت الذي كان يعرف منزلته ومكانته في مصر، فأمر بإرساله إلى مصر معززا مكرماً فعاد إليها لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف في بيته، ولم يشئ أن يتصل بهم أو يتقرب إليهم، واستمر في عزلته إلى أن ابرمت معاهدة العريش بيم كليبر والأتراك التي نقضها الأخرون بتحريض من الانجليز، ومن ثم فقد تجددت الحرب بين الفرنسين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية(20 مارس حتى 20 أفريل 1800م) فكان من زعمائهم، ولما تمكن كليبر من اخماد هذه الثورة هاجر من مصر مرة ثانية ثم عاد إليها بعد جلاء الفرنسيين فزادت منزلته القديمة بين المصريين وعادت إليه نقابات الأشرف التي

[76]– الجبرتي، المصدر السابق، ص 230.

كانت قد نزعت منه أثناء هجرته الأولى وكانت له اليد الطويلة في الثورة التي قامت ضد حكم الممالك في سنة 1804م وضد الوالي العثماني خورشيد باشا في سنة 1805م، والتي تولى على اثرها محمد الحكم في ماي من نفس العام[77].

4- الإنجليز

كان الإنجليز منذ النصف الثاني من القرن الماضي مهتمين بشدة بطرق المواصلات في البحر المتوسط، والبحر الأحمر، فقد أصبحوا بسبب تهديد نابليون لسيطرتهم الهندية مدركين تماماً لأهمية مصر بالنسبة لأملاكهم في الشرق، ولذا حالوا الاحتفاظ بتأثيرهم عليها، وليمنعوا اي عودة محتملة للفرنسيين إلى الشرق، وقد بقيت لهم بعد جلاء الفرنسين قوة بالقرب من القاهرة وأخرى بالإسكندرية، وقد رأوا أن تعود مصر ولاية عثمانية لتتمتع بالضمانة الأوروبية العامة[78].

لم تتمكن كلا الدولتين – انجلترا وفرنسا – من السيطرة على مصر بسبب تعقيدات الحالة المصرية من حيث تعدد السلطات الحاكمة – العثمانية و المملوكية – بالإضافة لتوازنات القوّة على الصعيد الدولي، وذلك على الرغم من دخول مصر وجوارها في خضم الصراع الاقتصادي والسياسي الذي تطلّب تدخلاً عسكرياً مباشراً من قبل فرنسا وبريطانيا طوال عقد كامل بدأ بالحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، وانتهى بالانسحاب البريطاني من الإسكندرية عام 1807م. لتجد شخصية محمد علي طريقها إلى حكم مصر نتيجة تآكل بنية السلطة القديمة خلال الصراع بين الفرنسيين والبريطانيين على الأرض المصرية. وبفضل ذكائه وحنكته السياسية في استغلال كل الظروف كما سنرى في المبحث التالي.

[77] – عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص ص 17- 18.

[78] – أحمد زكرياء الشّلِق، العرب والدّولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516- 1916، ط1، مصر العربية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2002، ص 155.

ثالثاً: وصول محمد علي إلى السّلطة

لا ترتبط عملية التحويل التاريخي من حقبة إلا حقبة أخرى بطول الفترة الزمنية اللازمة لعملية التحول بل بمدى عمق التحولات، فمن المعروف أن الأمم تمر بين الحين والآخر بفترات انتقالية تصبح عملية التغيير فيها ضرورية، وتنتج عن هذه الضرورة النازعة إلى التغيير غالبا من عدم قدرة النظام القائم على اللحاق بالمتغيرات التي تصنعها عملية التطور الإنساني التي هي عملية مستمرة ودائمة لا تتوقف، وقد عرفت مصر هذا الموقف خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث أنه وصل إلى ذروته مع وصول الحملة الفرنسية إلى البلاد في أواخر هذا القرن 1798م – 1801م، ولقد تكفلت هذه الحملة بكشف العجز التاريخي البالغ الذي واجهه الحكم العثماني المملوكي في ذلك الوقت، الأمر الذي تأكد معه أنه خرج عن دائرة العصر، وكان مطلوبا أن يأتي من يملك القدرة على تشييعه إلى مقبرة التاريخ، وهو الدور الذي أداه محمد علي باشا القادم من ألبانيا، لكن المعلوم أن هذا محمد علي حين قدم إلى مصر لم يكن حينها يملك أي شرعية سياسية خاصة توفر له شروط الامساك بمقدمة السلطة، **فسؤال يطرح نفسه أين وجد محمد علي الظروف المناسبة لتحويل تصوره للأوضاع القائمة ومواقف منها إلى مشروع سياسي فعلي؟**

حين جاء محمد علي باشا إلى القاهرة من مدينته قوالة كان ضابطاً في الفرقة الألبانية التي أرسلها السلطان العثماني سنة 1799م لتقضي على حملة نابليون، وكان آنذاك شاباً في الثلاثين من عمره، ولم تكن مواهبه الفذة قد كشفت بعد، وقد هزم نابليون الألبانيين من غير مشقة، ومع ذلك فقد كانت هذه الهزيمة هي التي اتاحت لمحمد علي الفرصة، فاستلم قيادة الفرقة ووجد نفسه حين جلا الفرنسيون عن مصر بعد ذلك بعامين على رأس جيش صغير وفي منصب يتيح له الحكم والنفوذ، فانتهز هذه الفرصة واستغلها لفائدته[79]، خاصة فوضى البؤس الذي سقطت فيه مصر عند رحيل الفرنسيين يتحدى أ ي وصف، ويصرح القناصل الفرنسي في ذلك العهد بانهم غالبا ما كانوا يقفون دون مستوى الحقيقة حتى لا يبدوا

[79] – جورج أنطونيوس، يقظة العرب – تاريخ حركة العرب القومية تر: ناصر الدين الأسد و إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، ص 81.

وصفهم غير محتمل، وأصبح المماليك الذين كانوا قد حكموا البلاد دائما كمستبدين أفظاظا وعنفين، أصبحوا أيضا أشد قسوة بسبب الكفاح الذي كانوا يخضونه ضد الباب العالي الذي كان يريد بكل السبل التخلص منهم، إلى جانب الشرور التي كان يجلبها هذا الصراع على السكان، كانت تضاف مظالم الأرنؤوط[80] والألبان وسلب ونهب البدو، ووسط الكثير من الفوضى والقمع الخطير [81]، فنجح محمد علي في استثمار السخط الشعبي فلعب دوره بمهارة ودهاء، فضرب الأتراك بالمماليك وأخذ يؤيد المتنافسين واحدا ضد الاخر إلى أن شعر بأنه أقوى من الجميع، فتقرب من زعماء الشعب وأظهر تعاطفاً معهم حتى تبلور الشعور العام في ثورة صحيحة حيث ثار سكان القاهرة على خورشيد، وقام عمر مكرم إبان هذه الحوادث بدور صانع الملك، واحتج خورشيد على خلع المصريين له واعتبر ذلك اعتداءً على حقوق السلطان، لكنهم لم يأبهوا له وساروا وراء عمر مكرم الذي حرضهم على الاجتماع والاستعداد، فتجمعوا حوله مسلحين بالعصي والأسلحة، واشتدوا في حصارهم للقلعة فضربت بعض نواحي القاهرة بالقنابل، ثم ركب عمر مكرم وحوله عدد كبير من الناس في 13 ماي 1805م[82]، وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا ولا بد من عزله من الولاية، فقال :" ومن تريدونه يكون واليًا؟ قالوا له :" لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا لِمَا نتوسمه فيك من العدالة والخير؛ فامتنع أولًا ثم رضى، وأحضروا له كركًا وعليه قفطان، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه إياه، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة"[83]، وقدما له التهنئة وحرروا وثيقة بذلك تنص على: " **تم**

---

[80] – **أرناؤوط** : الألبان هم احد الشعوب المعروفة جنوب شرق أوروبا) الألبان يقال لهم بالألبانية وبالتركية أرناؤوط، بدأت حركة الأسلمة في أوساط الألبان مع بداية الفتوحات العثمانية وقد اقتصرت أول الأمر على الطبقة الحاكمة آنذاك، والتي تولى بعض اف ا ردها م ا ركز هامة في الجيش وفي الإدارة العثمانية .بل أن معظم الجند المرتزقة الذين تألف منهم الجيش الانكشاري كانوا من الألبان.

[81] – أنجلو سان ماركو، الشرق الحديث – الوثائق الديبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشيفات الدولة الإيطالية، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا "،(مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين) ،تر عماد البغدادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 م، ص 116.

[82]– نفس المرجع، ص 116– محمد فريد بك المحامي، الدولة العلية، المصدر السابق، ص 391. **وينظر في تاريخ التعين:** الأمير شكيب أرسلان، مدونة أحداث العالم العربي 1800– 1950، ط2، دار التقومية، 2011، ص 9.

[83] – محمد شقيق غربال، المرجع السابق، ص 27.

الأمر بعد المعاهدة المعاقدة علي سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم، وأن لا يفعل أمراً إلا بمشورته – عمر مكرم – ومشورة العلماء، وإنه متى خالف الشروط عزلزه واخرجوه، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الأن"[84]، فتعهد وأقر محمد علي باشا على الاتفاق المنعقد على أن يكونوا يدا واحدة في إعادة وتأييد نظام الدولة الذي طرأ عليها بعض أمور مخلة في السنين الأخيرة لمناسبة حصول منافسات وأغراض شخصية، وإنه متعهد قلباً وقالباً بشرائط[85] هذا الاتفاق والانقياد لما تدون به"، وكان هذا على الرغم من معارضة فريق الألبانيين الذين نادوا لصالح أغا قوج وعمر آغا[86]، وفي جوان 1805م وصل مرسوم الدولة ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقًا ووالي مصر حالًا من ابتداء عشرين من ربيع الأول حيث رضي بذلك العلماء والرعية، وأن أحمد باشا خورشيد معزولٌ عن مصر وأن يتوجه إلى الإسكندرية بالإعزاز والإكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجُّه إلى بعض الولايات[87]، وبالعودة إلى مؤرخ الجبرتي، نجد أن ما كتبه عن تاريخ تولية محمد علي باشا 13 ماي 1805م يعتبر وثيقة مهمة لا يخرج في حقيقته عن إطار التصور الإسلامي العام للحكم في الدول الاسلامية يكشف عنه الحوار الذي دونه الجبرتي بين السيد عمر مكرم قائد الحركة الشعبية وعمر بك الألباني أكبر أعوان الوالي التركي أحمد خورشيد :" قال عمر

---

[84] – عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج4، مطبعة بولاق، القاهرة، 1236هـ، ص2– جمال الدين الشيال، محمد علي وصلته بالغرب، ص6.

ذوقان قرقوط ، تطور الفكرة العربية في مصر 1805– 1936، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت ، 1972، ص 72.

[85]– تعهد واقرار محمد علي على الاتفاق المنعقد بين الوكلاء والوزراء والأعيان، الأمر رقم 11، دون تاريخ، ص 3.

[86] – وللتعرف على الجاليات الألبانية في مصر ودورهم السياسي والاجتماعي ينظر على مصدر مهم تعرض إليها بالتفصيل كتاب "**النحلة الألبانية**" لصاحبه **ثيمو ميتكو**، وهو مصدر نادر الوجود حيث تحدث عن الألبان الذين كانوا متواجدين في مصر حيث صدر لأول مرة في تيران ضمن سلسلة " الجامعون الأوائل للفلكور الألباني، وبعدها صدرت طبعة ثانية في فيينا واصبحت نادرة الوجود إلى سنة 1961م ، ومن ثم صدرت طبعة رابعة سنة 1981 مع مواد جديدة اكتشفت في غضون أشعار ورسائل ميتكو بعنوان " **أعمال ثيمي ميتكو** " **ينظر:** محمد . م. الأرناؤوط، مداخلات ثقافية بين ألبانيا ومصر في القرنيين التاسع عشر والعشرين، (د. ط)، دار الشروق، (د. س)، ص ص 26– 78.

[87]– محمد شقيق غربال، المرجع السابق، ص 27– أنجلو سان ماركو، الشرق الحديث – الوثائق الديبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشيفات الدولة الإيطالية، المرجع السابق، ص 116– محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، المصدر السابق، ص 391.

بك: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى :" أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم ، فقال له عمر مكرم: أولوا الأمر العلماء، وحملة الشريعة، والسلطان العادل، أما هذا رجل ظالم، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شيء معروف، وحتى الخليفة والسّلطان إذا سار فيهم بالجور فإنّهم يعزلونهم ويخلعونه"[88]، ثم قال عمر بك :" كيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ هل نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟"، فقال له عمر مكرم :" أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة"، فقال عمر بك:" إن هذا القاضي كافر "، فقال عمر مكرم: "إذا كان قاضيكم كافراً فكيف بكم، وحاشا الله من ذلك، إنه رجل شرع لا يميل عن الحرف..."[89]، وقد أفتى الشيخ محمد المهدي أحد علماء الأزهر في قوله:" إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً، ولما تقتضي به الشريعة الإسلامية الحق أن يقيموا الولاة، ولهم الحق أن يعزلوهم إذا انحرفوا [90]عن سنن والعدل، وساروا بالظلم، لأن الحكام الظالمين خارجو عن الشريعة[91].

وقد جاء تعليل المؤرخين الصحوة الشعبية وتجنب اسنادها إلى ذاتية الشعب بضغط واضح من الإعلام البريطاني الذي أشاع بأن الشعب المصري مسكين ومسالم، دائم الخضوع لحكامه لم يرفع رأسه منذ أيام الفراعنة، ومن وجهة نظر أخرى فإن هذا الإعلام تغافل

---

[88]– **لكن السؤال المطروح لماذا اختار المصريون محمد علي الأمي الذي لا يعرف اللغة العربية، ولا يعرف القراءة ولا الكتابة بدلا من أن يختاروا واحدا منهم مصريا مثلهم عالما ويخاطبهم بلغتهم؟**

الأسباب كثيرة منها: خوفهم من محمد علي باشا، فالقوة العسكرية المدربة تحت يد محمد علي إن لم تكن لهم، فهي عليهم ولم يكن لهم القدرة على تكوين قوة مماثلة وكذلك الخشية من الاختلاف على شخص القائد بينهم وسلطاته ولم يحكم المصريون أنفسهم منذ الغزو الفارسي قبل5000 عام تقريبا، ولم تتمتع النخبة المصرية بأدنى درجة من النضج السياسي، فاعتمدوا في عهدهم مع الباشا على كلمة الشرف ولم تكن عقولهم تدرك فكرة التعهد الدستوري أو تحديد الاختصاصات والسلطات، ويبقى السبب الأهم أنه لم يكن هناك من" مصريين "بالمعنى القومي وقتها فرغبة النخبة المصرية وقتها في التمايز عن سائر الولايات العثمانية، وتطلعهم للحكم الرشيد، ومشاركتهم الفاعلة في إدارة البلاد، لم يلازمها حس قومي، بل ظل العامل الديني هو الغالب بالإضافة إلى عدم الجرأة على التطلع للانفصال التام عن الدولة العثمانية، التي ظلت حتى سقوطها رمزا للإسلام، فكان لازماً أن يحكم مصر مواطن عثماني.

[89] – الجبرتي، المصدر السابق، ج3، ص 331.

[90] – ذوقان قرقرط، المرجع السابق، ص 25.

[91] – عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص 36.

الحديث عن صحوة الشعب ونضاله، خشية أن يقودهم سياق الكلام إلى الحديث عن خداع محمد علي، الذي كان اختياره سابقة لم تحدث من قبل ولا حدث من بعد، وإذا كان هناك تاريخ مرحلة يجب إعادة كتابته هو تاريخ مرحلة حكم محمد علي باشا وفترة اعتلائه لعرش[92].

لقد أظهر محمد علي منذ في البداية حضوره إلى مسرح السياسة في مصر قدرة عالية على استيعاب وإدارة الصراع مع كافة القوى التي تحتل خارطة السلطة مظهراً ذلك ما يملكه من حبكة كبيرة في استخدام اساليب وتقنيات العمل السياسي السلطوي التي تميزت بها دوائر السلطة العثمانية بشكل عام، فقد عرف كيف يضرب القوى العسكرية ببعضها البعض عبر جملة من التحالفات السياسية المناسبة، والاجراءات العسكرية الفعالة إضافة إلى الكتلة الشعبية التي كان يقودها السيد عمر مكرم كما ذكرنا سابقا، وإليها يعود الفضل في توفير الشروط الأساسية التي أمنة لمحمد علي مصادر القوة السياسية والشرعية التي مكنت من التغلب على منافسيه وكافة القوى المناوئة له وصولا إلى تثبيت شرعية لدى السلطة المركزية – الدولة العثمانية – وبقيت هذه القوى تلعب دورا اساسياً في تدعيم سلطة محمد علي حتى عام 1811م.

[92] – نفس المرجع، ص ص 36– 37.

رابعاً: المواقف المتباينة من وصول محمد علي باشا إلى السّلطة في مصر.

1- موقف المماليك من تعين محمد علي باشا واليا على مصر

بدأ المماليك ينظرون إلى محمد علي بارتياب بعد تعينه واليا على مصر، فهو رجل الواقف الصعبة وصديق لكل الأطراف وكانت البلاد في حالة فوضى عامة، وخراب تام حيث كان المماليك يحتلون الصعيد يسيطرون علي فكان خوفهم من محمد علي بعد استيلائه على السلطة في مصر أن يسيطر على صعيدها الذي يمثل الشيء الوحيد لثرواتهم، وكان بكوات المماليك يخافون على أنفسهم من سياسة هذا الرجل لان سياسته كانت توحي الى القضاء عليهم فأصبح المماليك يقمون بكل جهد لكي يوقفوا زحف هذا الوالي ممن أجل القضاء عليهم، فكانت هناك مؤامرة ستنفذ ضد محمد علي في أوت 1805م لخلعه ولكي يوضحوا له أنهم مازالوا قادرين على المقاومة والوقوف ضد أعدائهم، وأرسل بعضا من الشيوخ والقوات الموجودين في القاهرة لبكوات المماليك سراً، وأيضاً جهراً بدون مراعاة الاحتياط من الوالي فأعطوهم وعوداً لكي يدخلوا المدينة ويطالبوهم بأن ينادوا بملكهم في القاهرة، وقرروا تنفيذ المؤامرة بعد خروج محمد علي للاحتفال بقطع الخليج في 18 أوت عام 1805م، فتقدم أربعمئة من المماليك بقيادة ستة من البكوات المماليك من بينهم عثمان بك، وحسن وشاهين بك المرادي نحوى باب الفتوح، وكان هناك حراسة على هذا الباب، ففتح الباب بسهولة بواسطة أعوان المماليك وقد دخل المماليك بدون مقاومة[93].

ذهب بكوات المماليك أولا إلى عمر مكرم لمعاونته، ولكنه رفض فذهبوا بعد ذلك إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي فنصحهم بأن يعودوا إلى الصعيد لأنه لا يستطيع أن يقدم لهم العون أو أي مساعدة، فدب الفشل والارتباك بين صفوفهم فتفرقوا فمنهم من خرج من باب البرقية[94] ومنهم مَن خرج مِن باب

[93]- إدوار جوان، مصر في القرن التاسع عشر، تر: محمد مسعود، ط1، القاهرة، 1921، ص 333- 334.

[94] - أنشأه جوهر الصقلي عام (359هـ/970م) في سور القاهرة الشرقي.

زويـلة[95] والباقـي مـنهم خـرج من إلى درب الأحـمر [96]؛ لكن جند الباشا تلقـوهم بالأسلحة، أم عن المماليك الذين ذهبوا لعمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي كانوا ينتظرون منهما المعونة لمساعدتهم في الهروب من محمد علي، ولكن كل منهما رفض مساعدتهم لما لاقوه المصرين من ظلم وعدوان، ويوضح ذلك أن المماليك لم يكن لديهم سياسة بل كانوا يعتمدون على القوة والقهر[97].

فتقهقر بكوات المماليك إلى باب زويلة ومنهم جماعة دخلوا جامع البرقوقية[98] فقتل خمسون وأسرى نحو ثمانون، وقد أمر محمد علي بقتل من تبقى منهم فقاموا بقتلهم جميعا

[95] – **باب زويلة:** هو من بين أبواب القاهرة الفاطمية وهو أحد الأبواب التي لا تزال قائمة إلى الآن، لتشهد على فترة مهمة من تاريخ مصر، خاصة حقبة الفاطميين والأيوبيين، وشهد الباب أهم الأحداث التاريخية هو تعليق رؤوس رسل هولاكو قائد التّتار =

= عليه حينما أتوا مهددين للمصريين، كما أعدم عليه أيضاً السلطان طومان باي عندما فتح سليم الأول مصر وضمها للدولة العثمانية، وسلط مؤخرا مسلسل "ممالك النار"، الضور عليه وقام بدور طومان باي النجم خالد النبوي، وهو أكبر أبواب القاهرة وأضخمها يقوم على رأس شارع المعز لدين الله من الجهة القبلية ويعلوه مئذنتي جامع الملك المؤيد شيخ ويسميه بعض الناس باب المؤيد أو باب المتولي، باب زويلة هو الباب الثالث الذى لا يزال يقاوم عوامل الزمن والاهمال بعد بابي النصر والفتوح، ويعتبر هذا الباب أجمل الأبواب الثلاثة وأروعها، سمى باب زويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة من البربر بشمال أفريقيا، انضم جنودها إلى جيش جوهر لفتح مصر، وأنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي فى سنة 485هـ-1092م، وكان يواجه تقريباً باب زويلة الذى كان فى سور القائد جوهر وقد هدم، ويتكون من كتلة بنائية ضخمة عمقها 25 مترا وعرضها 25.72 متر وارتفاعها 24 مترا عن مستوى الشارع، ويتكون الباب من برجين مستديرين يبرز ثلث الكتلة النباتية خارج السور ويتوسط البرجين ممر مكشوف يؤدى إلى باب المدخل ويرتفع البرجان الى ثلثي الارتفاع فى بناء مصمت ويأتي فى الثلث العلوى من كل منهما حجرة دفاع يغطيها قبو طولي يتقاطع مع قبو عرضي.

[96]– **حي الدرب الأحمر** : يعرف بأنه أحد أقدم الأحياء الشعبية في القاهرة القديمة بمصر، ويقدر عمره بحوالي عشرة قرون، ترجع تسمية الحي بهذا الاسم إلى روايات مختلفة، أبرزها أنه بسبب مذبحة المماليك التي نفذها محمد علي باشا والي مصر ضد أعدائه المماليك عام 1811، حيث يقال إن الشارع امتلأ بدمائهم بعد أن دعاهم محمد علي لوليمة كبيرة في قصر، وتخلص منهم، فعُرفت المنطقة بالدرب الأحمر **ينظر: المقريزي، الخطط، تح: أيمن فؤاد، ج4، ص 395.**

[97] – نادية شعبان عطية حسن، المماليك في السياسة المصرية (1798– 1811)، مذكرة ماجستير، جامعة المنيا – قسم التاريخ، مصر، 2004، ص 125.

[98] – **جامع البرقوقية** : كان يعرف باسم جامع المدرسة البرقوقية الذي يحتل جزءا من موقع القصر الفاطمي الصغير ، بني هذا الجمع سنة (786هـ/ 1384م– 1385م) بواسطة السلطان ظاهر برقوق ينظر: إدورد وليم لين، القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر ... مصر بعيون أوروبية، تر: أحمد سالم سالم، (د. ط)، دار المصرية اللبنانية، (د. ت. ن)، ص 190.

بهذه النتيجة فضل المماليك في محاولة اهتزاز مكانة محمد علي سواءا عند باب العالي أو عند الشعب المصري فالأهالي والعلماء يفضلون محمد علي ويرفضون وجود المماليك لأنهم لم يقدموا العون لهم، ولأنهم لم يفعلوا شيئا يشجع الشعب على مساعدتهم لرجوع السلطة اليهم[99].

ونتيجة لما فعله المماليك وتآمرهم ضد محمد علي أمر هذا الأخير خروج جيش بقيادة حسن باشا لتأديب المماليك في صعيد مصر، والقضاء عليهم فمضى حسن باشا بقواته في النيل من الجيزة حتى بلغ الرقة[100] ولم يتجاوزها حتى التقى مع قوات المماليك بقيادة الألفي بك الكبير الذي كان محتل الفيوم، وكان مع الألفي بك عدة آلاف من العرب، فقامت بينهما معركة كبيرة، وانتهت بهزيمة الألفي بك وقواته وانسحبوا إلى الجيزة ومنها غلى البحيرة، أما حسن باشا فذهب إلى بني سويف[101].

تمكن محمد علي ومنذ توليه الحكم في مصر من التغلب على المصاعب الخارجية والمتمثلة بمعارضة الباب العالي وبريطانيا، والمنافسة الداخلية المتمثلة بمحاولات المماليك المستمرة للاستئثار بالحكم[102]، خصوصاً بعد الاتصالات والمشاورات التي تمّت بين محمد بك الألفي والحكومة البريطانية، والتي تنحصر برغبة المماليك في الحصول على مساعدة بريطانيا في خلع محمد علي على أن يقوم الألفي بتحقيق المصالح البريطانية[103]، ففي 16 أوت 1805م، شن المماليك هجوما على القاهرة من أجل الاستيلاء على الحكم بالقوة وخلع محمد علي، وقد حاول المماليك استمالة الشيخ عمر مكرم ليقف إلى جانبهم، لكنه رفض التعاون معهم وعمل على الاستمرار بتقديم المساعدة لمحمد علي من أجل

---

[99] – نفس المرجع، ص 125– عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص ص 15–16.

[100] – **الرقة**: هي مدينة على شاطئ النيل تابعة لمديرية – ولاية أو مقاطعة – الجيزة.

[101] – الجبرتي ، المصدر السابق، ج4، ص 6

[102] – محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، ص87.

[103] – جرجي زيدان، المصدر السابق، ص152.

التصدي لهم وعدم تمكينهم من الوصول إلى السلطة مرة ثانية[104]. وحينها أرسل محمد علي باشا مكاتبة إلى السلطان الثماني يذكر فيها:" أنه صمم على استئصال الأمراء المصريين (يقصد المماليك) نظراً لعدم انقيادهم لأوامره على الاتفاق الذي حصل بينهم، وحصول تعويق منهم في أمر انجاز مأمورية الأقطار الحجازية، وبأنه حصل وشاية في هذا الأمر من بعض الذوات عند وقوع هذا الأمر فلا يصغى لأقاويلهم"[105]؛ يعني أن الباشا كان يسعى إلى جمع الأسباب للقضاء على المماليك دون ردة فعل سلبية ضده من قبل الباب العالي.

وبعد فترة وجيزة عاد المماليك مرةً أخرى إلى محاولة تحقيق مسعاهم القديم بعزل محمد علي، ولكن هذهِ المرة عن طريق وساطة بريطانيا لدى الباب العالي واستعمال أسلوب الضغط السياسي على حكومة الباب العالي[106]، فقد طلب القنصل البريطاني في مصر من الباب العالي بعودة المماليك إلى ما كانوا عليه من سطوة ونفوذ في البلاد، ومقابل ذلك تتعهد الحكومة البريطانية بأن زعيم المماليك محمد بك الألفي سيكون والياً مطيعاً لأوامر السلطان العثماني[107]، وقد وافق الباب العالي على ذلك المطلب فأصدر عفواً عن المماليك كما قرر تعيين موسى باشا والياً جديداً على مصر وفي نفس الوقت أصدر مرسوماً يقضي بنقل محمد علي إلى ولاية سلانيك[108]، وقد يعزى سبب اتخاذ الباب العالي لهذا القرار أيضا إلى الخشية من محاولة محمد علي الاستقلال بمصر[109]، وفي الواقع فإن الباب العالي كان يفضل رجوع المماليك لحكم مصر من جديد بدلا من أن يحكمها محمد علي باشا الذي

---

[104] – جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص152.

[105]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه إلى الصدر الأعظم، الأمر رقم 20، ربيع آخر 1225، ص 4.

[106] – عبد العزيز محمد الشناوي، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب رقم 67، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص168.

[107] – محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، ص87.

[108]– هي إحدى ولايات الدولة العثمانية ما بين عامي 1867 إلى عام 1913 ، والتي تغطي اليوم أجزاء من أراضي اليونان، مقدونيا وبلغاريا .كانت ولاية سالونيك في القرن التاسع عشر مقسمة إلى أربعة سناجق: سنجق سالونيك، سنجق سيروز، سنجق ذراما، سنجق ثاسوس، وتعتبر بمثابة العاصمة الاقتصادية والثقافية لمنطقة شمال اليونان.

[109] – جرجي زيدان، المرجع السابق، ص152.

وصل إلى السلطة بحد السيف وباختيار الشعب له رغما عن ارادة الباب العالي، ولم ترغب الاستانة في ترك هذا الباشا القوي ينعم بسلطته في هدوء لكي لا يتوصل إلى الانفصال عليها والتمرد عليها في المستقبل، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الشك يغلف علاقة السلطان بمحمد علي[110]، إلا أن تلك الخطة التي تم الاتفاق عليها بين بريطانيا والباب العالي لصالح المماليك لم يُكتب لها النجاح وذلك بسبب تحالف وتضامن محمد علي مع الشعب المصري[111]، فقد استعان بنفس القوة التي كان لها الدور في تنصيبه وتوليته الحكم في مصر، وهي قوة العلماء والمشايخ الذين وقفوا إلى جانبه وفي مقدمتهم الشيخ عمر مكرم[112]، فضلاً عن الدور البارز الذي لعبته فرنسا في مساعدة محمد علي، ولاسيما عن طريق سفيرها في اسطنبول سيباستياني والذي أبدى الرغبة الشديدة في بقاء محمد علي والياً على مصر[113].

2- موقف الدولة العثمانية

اتخذ محمد علي موقف المدافع على الشعب واكتسب بالتدريج يوما بعد يوم مزيدا من المكانة حتى استولى على السلطة العليا وفي جويلية 1805م عينه الباب العالي باشا، لانه اعترف به على أنه الرجل الوحيد القادر على وقف تلك الحالة من الصراعات والمذابح التي لا تحتمل، وبعد نجح في هذا العمل الكبير من المهارة قام بعمل اكثر صعوبة، وهو البقاء على العرش ربما يكون اضعف عرش على الاطلاق من خلال حكومة قوية ومستنيرة، ومن الفوضى والانحطاط الذي كانت فيه مصر استطاع ان يقيم في بضع سنيين دولة تتمتع بصورة مطلقة بالأمن والأمان وهي أولى المتطلبات الدولة المتحضرة[114].

---

[110] محمد صبري السوربوني، المصدر السابق، ص 62.

[111] – محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، ص87.

[112] – عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق،ج4، ص11.

[113] – محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، ص87.

[114] – محمد صبري السوربوني، المصدر السابق، ص 62.

ولم تستتب الأمور في مصر لمحمد علي بمجرد صدور فرمان التعين حيث أن السلطان الذي اضطرته الظروف إلى إصداره أخذ منذ اللحظة الأولى يتحين الفرص للتخلص من محمد علي وإبعاده عن حكومة مصر[115]، فعدم خلوص نية الباب العالي، فإنه ظهر جليًّا في سلوك القبطان باشا التالي لما بدا منه في تثبيت محمد علي على سدة خورشيد، فإن القبطان باشا هذا لم يبرح الإسكندرية بعد انقضاء مهمته وأقام فيها كأنه – عملًا بأوامر سرية – متربص للطوارئ، فكاتبه محمد بك الألفي، وعرض عليه أن يضم مماليكه إلى قوى سلحدار خورشيد باشا، وكان لا يزال في الجيزة ويأبى الاعتراف بولاية محمد علي.

أما القبطان باشا، فإنه أمام هذه المؤثرات المختلفة، أقام مترددًا مدة، فاغتنمها محمد علي للقضاء على سلحدار خورشيد باشا، واضطراره إلى التسليم، والتخلي عن جنده ومهماته، واللحاق بمفرده بخورشيد باشا مولاه في الإسكندرية، وأما الاستانة فإنها أصاخت سمعًا إلى أقوال السفير الفرنسي، وطابت قلبًا لهدايا محمد علي مرة أخرى، فأرسلت إلى القبطان باشا تأمره بالعودة إلى مياه البوسفور بعمارته، فأقلع الرجل في 28 أكتوبر سنة 1805م وأخذ معه خورشيد باشا.

وقد قال بعض المؤرخين أنهم وجدوا في مذكرات هذا القبطان ورقة كتب عليها ما يأتي، مشيرً إلى محمد علي:" إني أترك خلفي رجلًا سوف يصبح يومًا ما أكبر متمردٍ على الدولة العلية، وأن سلاطيننا لم يوفقوا البتة إلى سياسي داهية كهذا، ولا إلى رجل قوي العزم والحزم مثله"[116]، أي أن الباب العالي في الواقع كان يفضل رجوع المماليك لحكم مصر من جديد بدلاً من أن يحكمها باشا قوي وصل إلى السلطة بحد السيف وباختيار الشعب له رغما

[115]– أحمد فريد علي مصطفى، مصر والشام في عصر محمد علي ...، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، قاهرة، 2018، ص 10.

[116]– الياس الأيوبي، المرجع السابق، ص ص 49– 50.

عن ارادة الباب العالي، ولم ترغب الاستانة في ترك محمد علي ينعم بسلطته في هدوء لكي لا يتوصل إلى الانفصال بمصر[117].

أما مبدأ الباب العالي في عدم إبقاء وال على مصر أكثر من سنة، فإنه تجلى في ظهور عمارة عثمانية في ميناء الإسكندرية في أول الشهر جويلية التالي تحت قيادة أمير بحر غير السابق، وعليها ثلاثة آلاف جندي من جنود النظام الجديد وموسى باشا، والي سلانيك المعين خليفة لمحمد عل، وما استقر المقام في الثغر لأمير تلك العمارة، إلا وأرسل رسولًا بفرمان من الباب العالي إلى محمد علي يأمره فيه بالتخلي عن ولايته إلى موسى باشا، والذهاب لتولي ولاية سلانيك مكانه، فأظهر محمد علي رغبته في الامتثال، وأرسل رسولًا إلى القبطان باشا يقول له :" إن جل رغبة مولاه الابتعاد عن قطر الفتن"، ولكي يظهر أن قوله هذا حقيقة لا إيهام، جعل عسكرًا يرافقونه أينما يتنقل، ويطالبونه بعلواتهم – أجورهم– جهارًا، ثم أراد أن يتأكد من نفسية قواده، ومقدار عطفها عليه، فجمعهم وقال لهم إنه مستعد للخضوع والطاعة والسفر، فهتف جميعهم " ولكنا لا نسمح لك بذلك البتة "، فقال محمد علي بحماسة: " أو كيف ؟ أتريدون منعي من تنفيذ الأوامر التي صدرت إليَّ، وليس فى استطاعتكم المدافعة إذا ما هوجمنا؟ فجنودكم لا تفتأ عابثة بالنظام، فاتكة بالأهالي، ملحة علي في كل حين بإعطائها أجورها، وأنتم رؤساؤهم وقوادهم، أتدرون كيف تعملون على إبقائهم في حدود الواجب؟ وألا تفضلون لذات الراحة ونعيمها على مشقات الحروب وأخطارها؟ أنتم تتمتعون بهناءٍ بالأموال التي جمعتموها، وأنا وحدي هدف لضربات الأعداء، وأنوء وحدي بعبء الأمور الثقيل، فإذا شئتم أن أبقى معكم، رفيقًا أمينًا وزميلًا صادقًا مثلما كنت في الماضي، فأقسموا لي على القرآن الشريف بأنكم لن تتركوني ولن تتخلوا عني، وأنكم تموتون إذا اقتضت الحال في سبيل قضية هي قضيتنا جميعاً "[118].

وفي رواية أخرى قال محمد علي:" أنتم لا تودون رحيلي، لكن كيف لنا بمقاومة الأدميرال هو والألفي؟ أنتم تعيشون في بحبوحة وتسمحون لرجالكم بسلب الناس ونهبهم،

---

[117]– محمد صبري السربوني، المصدر السابق، ص 62.

[118]– نفس المرجع، ص 50.

وهذا ليس في صالحي، وأنا وحدي قد أكون الضحية الأولى، لكن كيف سيكون مصيركم بعد سقوطي؟ وأنتم إذا كنتم تودون بقائي، فأقسموا بسيوفكم أن تطيعوني وتتبعوني حتى الموت"[119]، فألهبت هذه الخطبة الوجيزة البليغة أفئدة جميع الحاضرين وكانوا أكثر من سبعين زعيمًا – فأقسموا في الحال القسم المطلوب منهم، ولكي يجعلوه مقدسًا قداسة لا يتمكن أحد معها من العبث به، فأحاطوه بسياج عادة ألبانية قديمة :فأمسك اثنان منهم – وكانا أكبر الموجودين سنًّا– حزام محمد علي من طرفيه ومداه، فمر الجميع فوقه واحدًا بعد الآخر، ولم يكن يمكن بعد ذلك إلا للموت أن يحل عروة تعهد عقدت بمثل هذا الشكل[120].

ثم جمع العلماء وعلى رأسهم السيد عمر النقيب والشيخ عبد الله الشرقاوي، وفاوضهم في الأمر، فأجمع رأيهم على إرسال كتابة إلى الباب العالي يشرحون له الحال، ويعرّضون بالأمراء المماليك بجارح الكلام، ويحبذون أعمال محمد علي، ولكن بكياسة لا تجعل مجالًا للاعتقاد بأن الكتابة موحى بها منه، ثم إذ أتاهم كتاب من القبطان باشا يعرفهم فيه بما قر عليه رأي الديوان، سألوا محمد علي عما يجب أن تكون إجابتهم عليه، فقال لهم: " سأرسل إليكم غدًا بصورة الرد "، وفي اليوم التالي أرسلها، إليهم، فنسخوها، وإذا بها تقول للقبطان باشا أن الجند قد لا يطيعون أميرهم، وقد يثورون إذا علموا باضطراره إلى الرحيل، فيعبثون بالأمن والنساء، وسموّه رحيم لا يرضى بذلك[121].

فاتضح من هذا جميعه أن محمد علي مصمم عل عدم تنفيذ أوامر الديوان، وأن لا شيء يحوله عن تصميمه، وفاتح هو نفسه بعض أخصائه في الأمر، فقال لهم:" أيظنون أن مصر دار حمام مفتوحة يدخلها من يشاء؟ إني قد اكتسبتها بحد حسامي، ولن أتخلى عنها إلا مكرهًا بقوة السلاح، أنا أعرف الأتراك؛ هم قوم يبيعون أنفسهم إذا وجدوا من

---

[119]– أندرياس كاميرون، مصر في القرن التاسع عشر أو محمد علي ومن خلفوه إلى الاحتلال البريطاني في عام 1881، تر: صبري محمد حسن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2019، ص 76.

[120]– نفس المرجع، ص ص 76– 77.

[121] – الياس الأيوبي، المرجع السابق، ص 49– 50.

يشتريها، فأنا سأشتريها قد فزت بالولاية العام الماضي، وأنا على رأس خمس مئة جندي فقط، مقلقلي العزم، أأتخلى عنها اليوم، ولديَّ ألف وخمس مئة بطل كلهم ولاء لي؟"[122].

وبينما موسى باشا على ظهر سفينة يلح على القبطان باشا بتنفيذ أوامر الديوان، وبينما القنصل البريطاني بالإسكندرية يهتم اهتمامًا فائقًا لحمل القبطان على العمل، ويرسم له خططًا للهجوم، ويجند أرواما وإيطاليين في الإسكندرية ويرسلهم مددًا إلى الألفي، الذي كان في ذلك الوقت يحاصر دمنهور، ويجتهد في افهام محمد علي بأن إنجلترا تضمن له البقاء واليًا على سلانيك إذا هو رضي بالذهاب إليها، وبينما الألفي كان قد وعد الاستانة بألف وخمس مئة كيس، بضمانة الخزينة البريطانية إذا هي أخرجت محمد علي من مصر يَجِدّ لحمل باقي الأمراء على الاشتراك معه في دفعها ولا يفلح[123].

أقبل قنصل فرنسا يضع الألغام تحت مساعي زميله، القنصل البريطاني، ويحول إلى محمد علي خدمة خمسة وعشرين مملوكًا فرنسيا كانوا تحت لواء الألفي، وما فتئ يؤكد للسفير الفرنسي في الاستانة أن محمد علي صديق صدوق لفرنسا، وأن بقاءه واليًا على مصر يتفق دون وجود سواه، أيًّا كان، مع مصالح الفرنسيين في القطر، وأقبل السفير الفرنسي في الاستانة يعضد مساعي الرسول الذي أرسله محمد علي إليها بالحوالات السمينة، ويعضدها بكل النفوذ الذي كان يستمده من مولاه نابليون الأول، صاحب الكلمة العليا في أوروبا، بعد أن قهر النمساويين والروس في، **واقعة اوسترلتز**[124] سنة 1805م، فبعث الديوان إلى القبطان باشا يكل إليه التصرف المطلق في الأمر، وكان القبطان باشا قد

[122] – المرجع نفسه، ص 50.

[123] – المرجع نفسه، ص ص 50– 51.

[124]– كانت معركة **اوسترلتز** إحدى المعارك الكبرى في الحروب النابليونية، وقد جرت عام 1805م على مقربة من مدينة اوسترلتز المورافية (في تشيكيا)، وقد هزمت القوات الفرنسية بقيادة نابليون الأول جيشاً نمساوياً روسياً مشتركاً، تم خلالها احتلال فيينا وتوقيع صلح بريسبورغ في ديسمبر 1805م بموجبه فقدت الامبراطورية أراضي جديدة وتقرر أن يتخلى الإمبراطور فرانسوا الثاني عن لقب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وحلت محلها الامبراطورية النمساوية في أوت 1806م وأنشأ نابليون اتحاد الراين من بعض الولايات الألمانية تحت نفوذ فرنسا124. **ينظر**: بن عيسى فاطمة، التحالف الأوروبي ودوره في رسم العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط، مذكرة ماجستير، جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015، ص 40.

أرسل مندوبًا إلى الألفي ليأتيه بالألف والخمسمائة كيس السابق ذكرها، فعاد إن الأمير محمد بك الألفي، لعدم تمكنه من الاتفاق مع زملائه : « المندوب إليه وقال على أن يقوموا، جميعهم، بدفع ذلك المبلغ، يعرض على سموكم أن تقبلوا منه وحده أيظن هذا الرجل أن لحية الصدر " : فاستشاط القبطان غيظًا وقال: " خمسمائة كيس وأقبل في الحال على مخابرة محمد علي في اتفاق يُبْرِمانه "، فاستقر الرأي على أن يدفع محمد علي أربعة آلاف كيس، وأن الديوان والقبطان يبقيانه مقابل ذلك في منصبه، على أن يعود العلماء والأعيان إلى التماس ذلك بعريضة لكيلا يقال إن ذمة الديوان اشْتُرِيَتْ، فكتب العلماء والأعيان العريضة وسافر إبراهيم بك ابن الوالي الأكبر بها وبهدايا فاخرة إلى أمير البحر، وبقي رهينة حتى يفي أبوه بتعهده المالي[125].وأرسل القبطان باشا كتخداه[126] إلى القاهرة بالمرسوم المثبت محمد علي في ولايته[127]، على أن يمتنع عن محاربة المماليك ويتصالح معهم، ففرحت القاهرة ثلاثة أيام متواليات[128].

وأقلع القبطان باشا في اليوم الثالث من أكتوبر/تشرين الأول بعمارته، وعاد بموسى باشا والي سلانيك من حيث أتى به. وفي 2 نوفمبر كان محمد علي قد دفع الأربعة آلاف كيس – قدم كابجي من الاستانة بفرمانين :أحدهما يقر محمد علي على سدته، والثاني، يأمره بتسفير الحج والمحمل وإرسال ستة آلاف إردب بر إلى جدة، واستمر الأمر كذلك من دفع أموال سنويًا، وتثبيت سنوي، حتى استتبت قدما محمد علي، وأصبح مركزه في مأمن من تقلبات أهواء الديوان[129].

ولقد كان ما أظهره محمد علي من المهارة السياسية أثناء هذه الحوادث؛ فإنه أولًا ساعد المماليك على قهر خسرو باشا، ثم إنه رجَّح بعد ذلك كفة أحد حزبَي المماليك ضد

---

[125] – أندرياس كاميرون، المرجع السابق، ص 77– الياس الأيوبي، المرجع السابق، ص 49– 50.

[126]– **كتخدا:** لفظ تركي – فارسي أصله كدخدا كَتْخُدَا : أَمينُ الوالى أَو وكيلُه، وهي مكونة من كلمتين كدا بمعنى البيت و خدا بمعنى الرب والصحب؛ أي «رب الدار أو رب البيت»، وأصبح فيما بعد لقبا بمعنى: حاكم أو عمدة.

127 – المرجع نفسه ، 51.

[128] – أحمد فريد علي مصطفى، المرجع السابق، ص 11.

[129]– الياس الأيوبي، المرجع السابق، ص 52.

الحزب الآخر، وبعد هذا وذاك شدَّ أَزْر خورشيد باشا ضد المماليك، وأخيرًا وضع نفسه على رأس أهالي القاهرة في ثورتهم على خورشيد، وأيضًا على الأتراك والمماليك بالتوالي، ولكنه كان في كل هذه الحركات واقفًا عن كثب لا يسمح لنفسه بالتورط في تأييد أحد من هذه الأحزاب المتطاحنة، ثم إنه تمكَّن في نهاية الأمر من نَيْل رضاء السلطان بتوليته ولاية مصر، ولقد شاء بعض الباحثين أن يرى في سعي محمد علي للحصول على موافقة السلطان؛ رغبة منه في صبغ قوته بصبغة قانوني، ولكن محمد علي كان سياسيًّا عمليًّا قوي الشكيمة، لا يُعنَى إلا بلباب الأمور دون قشورها؛ ولذا لم يكن يحفل كثيرًا بقيمة الحق المعنوي على أن اعتراف السلطان لم يضاعف نفوذ محمد علي داخل مصر نفسها؛ لأنه لم يكن يتوقع لوصول إمدادات من الجنود من الآستانة لتأييده، ولا أن يواصل الباب العالي تأييده ولو أدبيًّا، بل إن الديوان المغامر الذي نخر سوسُ الرشوة عظامَه لن يتردد في أن يقلب له ظهر المجنِّ متى ظهر على المسرح مُرشح يمكن أن تُعقَد عليه الآمال هذا إلى أن المماليك كانوا لا يزالون يحتلون الوجه القبلي بأسره وجزءًا غير قليل من الوجه البحري، ولكن الاعتراف الشاهاني بولايته قد أراح باله مؤقتًا على كل حال، وجعله يطمئن إلى عدم التدخل من ناحية الدولة العثمانية ولو إلى أجل مسمى، وهكذا صار في وسعه – ولو لبضعة أشهر – أن يتفرغ للمماليك وحدهم دون أن يكون مضطرًّا للموازنة بين الأتراك والمماليك، إلا إذا تدخلت في شئون مصر إحدى الدول الأوروبية العظمى صدفة[130].

ويتضح لنا من خلال حوادث سابقة الذكر أن هنالك محركا غير منظور يدير من وراء الستار حركات الجنود والطامعين بالولاية بحذاقة لاعب الشطرنج البارع وكان ذلك المحرك محمد علي، لكنه رغما عن طموحه الشديد إلى منصب الولاية، لم يتعجل الأمر بل اتبع خطة تضمن له الوصول إلى الولاية بعد أن تقضي على سائر المرشحين لها والطامعين فيها، وتزيل من طريقه العناصر المعادية، وبمقتضى تلك الخطة أصبح كل من يتولى الحكم عرضة للقتل أو العزل العاجل، بعد أن ينال محمد علي بواسطته بعد مآربه، فعليه بعد أن تولى طاهر باشا أعمال الولاية، حمله محمد علي على مراسلة البرديسي أحد زعيمي

[130]– هنري دوديل، المرجع السابق، ص 29.

المماليك الكبيرين ليتقرب من المماليك، ويأمن شرهم في أثناء العراك القائم بسبب الولاية، لكن عهد ظاهر باشا بالولاية لم يطل لأن الانكشارية ثاروا عليهم مطالبين بمرتباتهم، فأدى ذلك إلى خصام بين الباشا والضباط الذين انتدبهم الانكشارية لمفاوضته، وانتهى الخصام بقتل طاهر باشا، واغتنم محمد علي الفرصة فاتفق مع المماليك[131]، وكان في مصر حينئذ أحد وزراء الدولة العثمانية المدعو أحمد باشا قاصدا إلى المدينة المنورة التي عين واليا عليها فأراد الانكشارية إجلاسه على كرسي ولاية مصر، غير أن محمد علي لم يوافقهم على ذلك، وبالاتفاق مع المماليك طردوا أحمد باشا من القاهرة، ثم بطش الألبانيون بالانكشارية بإغراء محمد علي، ولم يبق في مصر من الرجال المنتمين إلى حكومة الآستانة الذي يخشى محمد علي شرهم سوى خسرو باشا الوالي السابق الذي كان مقيما في دمياط فهاجمه محمد علي وعثمان بك البرديسي برجالهما وأحضراه إلى القاهرة. وهكذا لم يبق لمحمد علي خصم ظاهر من رجال الآستانة، كما أن عثمان بك البرديسي صارت إليه السلطة العليا بين المماليك، لأن مناظره محمد بك الألفي كان قد ذهب إلى إنجلترا طامعا بالاستقلال بالحكم في مصر بمساعدة إنجلترا، واتصلت بالدولة العثمانية أخبار الحوادث المصرية، فراعها اتحاد المماليك والألبانيين، فوجهت علي باشا الجزائري واليا وأصحبته بألف جندي وبعد مناورات اعترض جنود علي باشا في طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة ففتكت بجنوده وقادته أسيرا إلى القاهرة ثم وجهوه إلى سوريا لكنهم قتلوه في الطريق[132]، وفي أوائل سنة 1804 عاد محمد بك الألفي من انكلترا، حاملا الكثير من التحف والأموال، وصعد نحو القاهرة في النيل، ولما كان وجوده في مصر يهدد محمد علي وعثمان بك البرديسي على السواء، اتفقا على مقاومته فاعترضه رجالهما في النيل ونهبوا الأموال والتحف التي جاء بها، أما هو فبادر إلى النزول إلى البر ونجا بنفسه واختبأ عند العرب[133]، فقد كان لمحمد علي نصيب كبير في تدبير جميع الحوادث التي سلف ذكرها، غير أنه مع هذا كان بعيدا عن كل مسئولية تجاه الشعب والجند، فكان إذا تأخر دفع مرتبات الجند وقعت المسئولية على من يتولى إدارة البلاد وثارت

[131] – الياس الأيوبي، المرجع السابق، ص ص 52– 53.

[132] – هنري دوديل، المرجع السابق، ص 29– 30.

[133] – أحمد فريد علي مصطفى، المرجع السابق، ص 12

الجنود عليه لا على قائد الجند، وإذا فرضت الأموال على الأهلين واستثقلوا وطأتها نقموا على الحكام الذين فرضوها. أما محمد علي فكان في تلك الأحوال يشارك الجند والشعب في التوجع لما أصابهم، ويظهر الاهتمام بتحصيل حقوقهم وتخفيف كروبهم، فأصبح صديق الجند والشعب، وهذه أهم النتائج التي يبغي الحصول عليها قبلما يرشح لمنصب الولاية، لأن على الجند والشعب يتوقف تثبيت قدمه في البلاد.

3- الصمت الأوروبي من وصول محمد علي باشا إلى الحكم في مصر

سعت الدّول الأوروبية الكبرى إلى التمزيق التدريجي للدولة العثمانية، وبدأ التّنافس واضحاً فيما بينها بهدف فرض سيطرتها أو نفوذها على أوروبا والبلدان الواقعة على الجانب الشرقي للبحر المتوسط وعلى ضفافه الجنوبية، فالروس يرغبون بحماية الارثوذكس والسلاف ومد نفوذهم للسيطرة على البلقان والوصول إلى البحر المتوسط، والبريطانيون كانوا يسعون لحماية طريق الهند ومن ثم الاستحواذ على الممر الذي يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندي، والفرنسيون يريدون الدفاع عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى مسيحيي الشرق ويجدون أنفسهم في تعارض، وبحسب الظروف، مع الروس تارة أو مع البريطانيين تارة أخرى، أما النمساويين فانهم يحاولون إقامة سد أمام التوسع الروسي في البوسنة والهرسك ويأتي في نهاية المطاف الألمان الذين يهتمون بالدولة العثمانية من منظور "سياسة الاندفاع نحو الشرق" [134]، ولهذا الأمر كان يتحينون أي فرصة من أجل ضرب الخلافة العثمانية الإسلامية وتفكيكها واستعمار الولايات التابعة لها وهذا ما حدث بالفعل في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي.

ولم تبدي الدول الأوروبي أي ردة فعل معادية بعد اعتلاء محمد علي باشا العرش في مصر باستثناء انجلترا، ويرجع ذلك إلى جملة من الأسباب:

[134] – روبير ماتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة :بشير السباعي، الجزء الأول، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص5 .

أ- مصر طريق الهند بحماية محمد علي:

لقد تأثرت تاريخ مصر الحديث بموقعها على البحر الأحمر[135] إذ أن هذا البحر أصبح في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي شرياناً من أهم شرايين المواصلات بين الشرق والغرب، وخاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه في المواصلات البحرية، وظهر التنافس واضحا بين بريطانيا وفرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وبدأ الصراع يشتد بينهما عندما أخذت كل من الدولتين تهدد مصالح الأخرى عبر الطرق المؤدية إلى الهند، ومن بينها طريق البحر الأحمر[136]، ومع وجود للقوة العربية المتمثلة في مصر كانت دافع لاكتشاف رأس الرجاء الصالح، وعلى الرغم من حلول الدولة العثمانية في حكم مصر محل دولة المماليك فقد ظلت دول أوروبا تتوجس خفية لتوغل في مصر والاقتراب من البحر الاحمر والامكان المقدسة، ناهيك عن عدم وجود الطرق الصالحة والوسائل اليها، وكان استئجار الدواب والجمال يعرض المرء إلى خطر مزدوج، وبعد أن بدت

---

[135] – أطلق إسم البحر الأحمر اليوم على المسطح المائي الذي يفصل ما بين قارتي آسيا من الشرق، وأفريقيا من الغرب، وهو يربط ما بين المحيط الهندي وبحر العرب (من الجنوب) والبحر الأبيض المتوسط من الشمال، كان هذا البحر معروفًا في التاريخ باسم «بحر القلزم»، أمّا شهرته بالبحر الأحمر فتعود إلى لون بعض الطحالب التي تنبت، وتنتشر على سواحله، خلافًا للاعتقاد السائد الذي كان يعزو سبب التسمية إلى كثرة الشعب المرجانية، التي تعطيه هذا اللون،. كذلك كان يعرف بالبحر الجنوبي وفق رأي المؤرخ اليوناني هيرودوت، لتمييزه عن البحر المتوسط الذي كان يعرف بالبحر الشمالي، كما أن بعض المؤرخين والجغرافيين القدماء أطلقوا عليه اسم «بحر العرب»، أو «بحر مصر»، لأن الشعوب العربية تتواجد على سواحيله في مختلف الجهات شرقاً وغرباً، وتكمن الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر في موقعه الجغرافي الوسيط، كرابط ما بين المحيط الهندي وبحر العرب من الجهة الجنوبية والبحر الأبيض المتوسط من الجهة الشمالية عبر قناة السويس التي شكلت منذ إنشائها بعدًا استراتيجيًا، لأنها ربطت الدول المشاطئة له بالبحر المتوسط واوروبا والغرب عبر أقصر الطرق، وسهلت حركة التجارة والانتقال ما بين هذه الدول وغيرها، أما البعد الآخر للقناة في كونها تشكل مع مضيق باب المندب في الجنوب، معبرين استراتيجيين متلازمين مهمين كوّنا البعد الجيوستراتيجي للبحر الأحمر كطريق آمن وقصير ما بين الشرق الأقصى والخليج العربي من جهة، واوروبا والقارة الأميركية من جهة أخرى، وهذه الطريق تختصر آلاف الكيلومترات أمام حركة الملاحة البحرية لنقل البضائع، والبترول، والغاز، بدلًا من الدوران حول القارة الأفريقية، وللمزيد من المعلومات عن البحر الاحمر وتاريخه **ينظر**: خالد جماد أحمد عياد، أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي...، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، قسم العلوم السياسية، ص ص 1- 3.

[136]– طارق عبد العاطي غنيم بيومي، سياسة مصر في البحر البيض المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر 1811- 1848، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت.ن)، ص ص 23- 33.

الامبراطورية العثمانية مفككة الاوصال قبل أن تتفكك فعلاً ويهيأُ للمُمَعن فيها بأنها تعيش برئتين من أوروبا، تنتظر اتفاق الدول الكبرى على تقسيمها أخذت دول أوروبا تعمل منفردة على عقد اتفاقيات مع متنفذين محليين لقصد حماية تجارتها وتجارها وتضمن لهم المرور[137].

فقد كان استعصاء اتفاق لدول الكبرى على تقسيم الامبراطورية العثمانية يجعل وجود شخص مثل محمد علي ضرورة لتأمين مصالحها، ذلك أن الدولة العثمانية كانت تمنع الملاجة في البحر الأحمر ما بين المخا والسويس بحجة المحافظة على الأماكن المقدسة، وإن كانت الحقيقة هي في أن فتح الطريق للتجارة مضرّ بتجارة الاستانة عن طريق حلب، وقد أدرك محمد علي على حاجة الدول الأوروبية إليه، فعمل على التوفيق بين مصالحه ومصالحها[138].

ومنه نستنتج أن البحر الاحمر كطريق لم يفتح إلا بمجيء الحملة الفرنسية على مصر ثم أغلق، ثم أخذ يزداد الأمن بوجود محمد علي باشا، ولكن هذا الموضوع يفرض علينا تساؤل وهو لصالح من كان يعمل ذلك؟ هل لصلحه من أجل كسب تأييد لحكمه ولتحقيق مطامعه في الانفصال وتأسيس امبراطورية عربية يحكمها هو واسرته؟ أم لصالح الشعب المصري؟

أ- موقف فرنسا من تنصيب محمد علي والياً على مصر

كانت العلاقات السياسية بين فرنسا ومصر كانت ضعيفة نوعا ما خلال هذه المُدّة بسبب الظروف التي مرت بها مصر والمتمثلة بالاحتلال الفرنسي لمصر (1798-1801)، وما تركه من نتائج كان لها أثر سلبي على طبيعة العلاقات بين البلدين لاسيما وان موقف الشعب المصري كان مناهضاً للاحتلال الفرنسي، لذلك كانت نظرة الشعب المصري إلى فرنسا بأنها دولة محتلة، فقد سبب هذا الاحتلال فتوراً في العلاقات بين

[137] – ذوقان قرقوط ، المرجع السابق، ص 53.

[138] – المرجع نفسه، ص 58.

البلدين، وبالرغم من ذلك فإن فرنسا اعترفت بمحمد علي واليا على مصر خاصة وأنها كانت ترتبط مع مصر بعلاقات تجارية وثقافية، ولها أطماع سياسية تعود إلى زمن طويل كما ذكرنا سابقا، كما أن محمد علي نفسه كانت له الرغبة في إقامة وتوثيق أواصر العلاقات الودية مع قنصل فرنسا ومبعوثها التجاري في الإسكندرية ماثيودي ليسبس[139]، وكان قد كتب تقريراً إلى حكومته في شهر أفريل 1804م واصفاً فيه محمد علي بأنه (يبدو له بأنه مخلصٌ كل الإخلاص الممكن للحكومة الفرنسية)، وذكر أيضا (بأنه يعتقد بأن محمد علي هو أقدر الزعماء الحاليين في مصر على التغلب على الفوضى المنتشرة في البلاد)[140]، ويؤكد الكثيرون بأن هذا التقرير عن شخصية محمد علي والذي بلغ إلى الكولونيل سيباستياني السفير الفرنسي في أسطنبول كان من بين العوامل التي ساعدت على وصول محمد علي للولاية في مصر، كما تجددت الاتصالات بين فرنسا ومصر في إبان الأزمة التي نشبت بين الشعب المصري وخورشيد باشا (الوالي العثماني المخلوع) لإيجاد السبل الكفيلة لحل المشاكل التي كانت تعاني منها البلاد في ظل حكم خورشيد باشا، فقد أشار احد الدبلوماسيين الفرنسيين ويدعى منجن(Mengin) بأنه كان دائم الاتصال مع محمد علي من اجل توثيق أواصر العلاقات بين البلدين، وكان ماثيودي ليسبس يطمح إلى كسب ثقة محمد علي ورضاه، فشهدت تلك المُدّة نشاطا ملحوظا للوكلاء التجاريين الفرنسيين في مصر، فضلا عن أن محمد علي بدأ يرسل البعثات العلمية والدراسية إلى فرنسا بعد توليه حكم مصر

---

[139]– تعيينه يوم 7 مارس عام 1803 مفتشًا عامًا على الشؤون الفرنسية في مصر وخاصةً مندوبًا للشؤون التجارية في دمياط، وبهذه الصفة أصبح أول ممثل رسمي للحكومة الفرنسية في مصر قبل عصر القناصل والسفراء، قنصل فرنسي في مصر تم تعيينه قنصلاً في الإسكندرية عام 1803، نجح السيد "ماتيو" بجدارة في مهمته السرية، فقد اقترب من التنظيمات الشعبية والوطنية التي كان يسيطر عليها شيوخ الأزهر، المتحدث باللغة العربية الفصحى، حتى أنه أوجد صلة صداقة حميمة مع بعضهم مثل" عمر مكرم"، ومن جانب آخر وقع اختياره على قائد من قوات الأرناؤوط التابعة للجيش العثماني، واكتشف فيه المواصفات اللازمة ليكون زعيمًا لمصر في المستقبل القريب، فاختار محمد علي وقام بتقديمه لشيوخ الأزهر موضحًا أنه سيكون الوحيد القادر على التخلص من المماليك داخليًا وصد الهجمات الخارجية، سواء من الأتراك أو الإنجليز، وقد تقبله قادة الحركة الوطنية المصرية بصفته مسلمًا، وله صفات القيادة العسكرية، وحاصلًا على ثقة الحكومة الفرنسية. **ينظر**: محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ص66– محمد صبري، المصدر السابق، ص34.

[140] – محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ص66.

مباشرة، ومن جانب آخر فإن فرنسا كانت تتطلع إلى لعب دورٍ جديدٍ في مصر من خلال دعم محمد علي ومساعدتهِ في تولي الزعامة في مصر، فأرادت أن تكسب مصر سياسياً واقتصادياً من أجل تحقيق مصالحها وكذلك لمواجهة الأطماع البريطانية، أي أنها أرادت أن تتخذ من الأعمال التجارية والأنشطة المتعلقة بهذا المجال كغطاء لتحقيق ما كانت تصبو إليه من توطيد علاقاتها السياسية مع الدولة العثمانية أولاً وكذلك مع محمد علي الوالي الجديد في مصر ثانيا[141].

ونتيجة لذلك حاولت فرنسا وكما تشير بعض المصادر إقامة علاقات دبلوماسية مع مصر بعد تولي محمد علي الحكم عام 1805م مباشرة، ولو عدنا قليلاً إلى الوراء للاحظنا أن بداية هذه الاتصالات كان عبارة عن الإعجاب الذي أبدتهُ القنصلية الفرنسية في مصر بشخصية محمد علي قبيل ولايته (منذ أن كان قائداً للكتيبة الألبانية)، إلا أن ذلك الإعجاب بشخصية محمد علي لم يمنع فرنسا من اتخاذ جانب الحذر منه لاسيما قبيل توليه الحكم في مصر باعتباره شخصية جديدة تحتاج إلى دراسة[142]، ومن الإجراءات الأخرى التي قامت بها فرنسا بعد تولي محمد علي أن زادت من أعداد الوكلاء والتجار الفرنسيين في مصر وقامت بإجراء الاتصالات والمشاورات كان الهدف منها إعادة وتنظيم العلاقات بين البلدين، وكان من ابرز هؤلاء الوكلاء التجاريين والدبلوماسيين الفرنسيين في مصر الدبلوماسي الفرنسي **منجن** الذي بدء بالتقرب من محمد علي كما حذره من زعيم المماليك محمد بك الألفي ومن دسائسه باعتباره صنيعة لبريطانيا[143]،لذلك أدركت الحكومة الفرنسية ومنذ الوهلة الأولى بأن هنالك عنصراً جديداً يعمل لصالح المصريين ضد العثمانيين والمماليك ويطمح إلى تنفيذ

---

[141]– المرجع نفسه، ص 66.

[142]– برز ذلك بصورة واضحة من خلال التعليمات التي أرسلتها الحكومة الفرنسية إلى قنصلها في مصر ماثيودي ليسبس والتي كانت تشير إلى وجوب التزامه جانب الحذر في تعامله مع محمد علي وان يكتفي بمراقبة الأحداث في مصر، أما بالنسبة لمحمد علي فإنه سعى في تلك المُدّة إلى التقرب من الجانب الفرنسي إذ كتب إلى القنصل الفرنسي ماثيودي ليسبس في 11 مارس 1804م يقول له "أتمنى توطيد علاقتي الأخوية في المستقبل"، إلا انه في ذلك الوقت الحرج لم يثق ماثيودي ليسبس بقدرات محمد علي فقد كتب إلى وزير الخارجية الفرنسي تاليران عام 1804 يقول له: "إن مصلحتهِ هي المحرك الأساسي لاتصالاته بي". للتفاصيل ينظر: إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص22.

[143]– المرجع نفسه، ص 23 .

الخطة التي بدأها بونابرت في الشرق وقد عملت فرنسا على معاضدتهِ ومساندتهِ منذ البداية[144].

شهدت مصر تحولاً كبيراً في تاريخها السياسي وفي علاقاتها الدولية خلال تلك المُدّة ولاسيما مع فرنسا التي حرصت على تدعيم نفوذها بشتى الوسائل وفي مختلف المجالات[145]، كما أن محمد علي وجد الحليف الذي يمكن الاستفادة منه لكي يلعب دوراً هاماً لجعل مصر مستقلة نوعاً ما عن الدولة العثمانية أي أنها تبقى تحت السيادة الاسمية للباب العالي بينما ينفرد محمد علي بالسيادة الفعلية على مصر والسيطرة على زمام الحكم ومن هنا فقد حرص محمد علي ومنذ توليه الحكم عام 1805م على إعداد مصر بالشكل الذي يتفق وأهمية هذه البلاد[146]، فأخذ موقفه يزداد قوة في مصر، وبالمقابل أصبحت سياسته تشكل خطورة إزاء الباب العالي وخاصة بعد توثيق علاقتهِ بفرنسا، ولم تقتصر المخاوف من إقامة العلاقات بين فرنسا ومصر على الباب العالي فحسب بل شمل ذلك بعض الدول الأوربية وخصوصاً بريطانيا[147].

ويمكن ملاحظة ابرز مؤشرات الموقف الفرنسي من تولي محمد علي والاعتراف الرسمي بولايته من خلال الإعجاب الذي أبداه نابليون بونابرت بشخصية محمد علي حيث قال : " **ستكون مصر مرهوبة الجانب حينما يتولى حكمها باشا يُختار من بين أبنائها**

---

[144]– محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، المرجع السابق ص80.

[145]– إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص20.

[146]– محمد علي الغتيت، الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، مطابع الدار القومية للطباعة والنشر، روض الفرج، د.ت، ص162.

[147]– كانت بريطانيا من بين الدول الأوربية التي كان يعتريها القلق من التطورات الحاصلة في مصر منذ خروج الفرنسيين منها عام 1801 ومروراً بتولي محمد علي الحكم عام 1805 ومن ثم طبيعة علاقتهِ بفرنسا (الغير محبذة بالنسبة لبريطانيا)، فقد اتخذت بريطانيا موقفاً عدائياً تجاه محمد علي في بادئ الأمر فأخذت تسعى وبمختلف الوسائل على إعادة السلطة إلى زعيم المماليك محمد بك الألفي (حليف بريطانيا) وقد عمل القنصل البريطاني في مصر آنذاك ويدعى ميسيت (Missett) على إمداد المماليك بالمساعدة والمعونة اللازمة وأكد لهم عدم تخلي بريطانيا عنهم، كما اصطدم هذا القنصل بمحمد علي ونظر إليه على انه من أنصار فرنسا لذلك فإن تقاريرهُ قد امتلأت بالانتقاد الصارم له، حتى انه كان يؤيد تجريد محمد علي من سلطاتهِ الفعلية في مناطق =

فضلاً عن إنها تحصل عندئذٍ على استقلالها ومن المؤكد كذلك إنها تقيم إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي "[148]؛ لذلك فإن الحقيقة التي لا مبالغة فيها أن فرنسا هي التي أخذت بيد محمد علي وفتحت له الأبواب المغلقة، كما أن أول يد امتدت لمساعدته في بداية حياتهِ كانت يداً فرنسية[149]، وكان ذلك عندما التقى محمد علي بتاجر فرنسي من مدينة مرسيليا ويدعى المسيو ليون (Leon) فتلقى من هذا الرجل أول عبارات التشجيع التي نبّهت في نفسه الطموح والآمال[150]، وبذلك فقد أصبح محمد علي مقبول الجانب من الفرنسيين كما أصبحت أعمال الفرنسيين قريبة إلى نفسه كثيراً، فمن جهة كان محمد علي ومنذ تسلمهِ زمام الحكم قد اقتدى ببعض خطط نابليون وسياساته مستفيداً من تجارب القتال مع الفرنسيين بعد احتلالهم لمصر[151].

من جهة أخرى كان المبعوث الفرنسي للشؤون التجارية في مصر دروفيتي والذي عُيّن قنصلاً فرنسياً في مصر مكان القنصل السابق ماثيودي ليسبس كان من بين الشخصيات الفرنسية التي تقرُّ (بأن محمد علي يُعتبر الشخص الوحيد الذي يستطيع إقرار النظام والاستقرار في مصر)[152]، لذلك فقد بدأ دروفيتي بالتقرب من محمد علي، وكان من المؤيدين له ولهذا السبب فقد اتهمه الكثيرون بأن سياستهِ هذه كانت معادية للنفوذ البريطاني، ويمكن القول بأن السياسة التي كان يتبعها دروفيتي في مصر كانت في الحقيقة تمثل سياسة حكومتهِ، إلا انه نتيجة لانشغال فرنسا آنذاك بحروبها في القارة الأوربية لم يكن بوسعها في

= الإسكندرية والسواحل والاكتفاء بسيطرته على المناطق الداخلية في البلاد لكي لا يتمكن من إقامة علاقات سياسية مع بعض الدول الأجنبية وخاصة فرنسا. للتفاصيل ينظر: إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص20- 21.

[148]- محمد علي الغتيت، المرجع السابق، ص163.

[149]- M.Et J. De Brevery Cadalvene, L' Egypte Et La Nubie, Tome I,Paris, 1841, P. 138.

[150]- إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص144- 145.

[151]- كَلوت بك، المصدر السابق، ص175.

[152]- رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، محمد علي وأوربا، نقله عن اللغة الفرنسية الفريديلوز، دار المعارف، مصر، 1952، ص48.

تلك المُدّة متابعة ومراقبة الأوضاع والتطورات السياسية في مصر، لذلك عمل دروفيتي وبصورة رسمية على متابعة ورصد الأحداث هناك [153].

أما بخصوص الموقف المصري من فرنسا، فإنه يمكن الإشارة إلى أن محمد علي أراد أن يخلق توازناً بين قوتين أوربيتين كان لكل منها أطماع في مصر وهما بريطانيا وفرنسا هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن محمد علي كان يشعر بأن الدولة العثمانية التي اعترفت به كانت ترغب في زيادة الدور البريطاني على حساب الوجود الفرنسي في مصر، ولكي يعمل على تحقيق استقلال مصر عن الدولة العثمانية كان لا بد له من الارتكاز على قوة تساعده في تحقيق أهدافه، لذلك فإن السياسة التي كانت متبعة من قبل محمد علي تجاه فرنسا في ذلك الوقت كانت ايجابية خصوصاً انه كان يرغب دوماً في تحقيق استقلال مصر، وعلى هذا الأساس حاول توطيد علاقاتهِ الدبلوماسية مع فرنسا، وكان يثق دائماً بالقنصل الفرنسي دروفيتي كما انه كان يتبع نصائحه وارشاداتهِ التي يبديها له[154].

انشغلت فرنسا في أحداث القارة الأوربية لكنها كانت في ذلك الوقت تخشى قيام محادثات أو اتصالات بريطانية – روسية مع المماليك، خصوصاً الحكومة البريطانية التي كانت ترى في ولاية محمد علي وطبيعة علاقته بفرنسا بأنه انتصار للنفوذ الفرنسي؛ لذلك فإنها عملت جاهدة في سبيل إحباط مساعي الحكومة الفرنسية عن طريق التحالف مع المماليك[155]، وبالمقابل فإن الخطر الكبير الذي كان يقلق فرنسا يتمثل بخشيتها من تعاظم نفوذ محمد بك الألفي، لذلك فقد سعى دروفيتي لاتخاذ سياسة تتسم بالإيجابية تجاه محمد علي لأنه اعتبرهُ؛ الضمان الوحيد للمصالح الفرنسية في مصر والعمل ضد المشاريع البريطانية[156].

---

[153]– إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص22.

[154]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص91.

[155] – محمد صبري، المرجع السابق، ص34.

[156]– إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص23.

تمكن محمد علي ومنذ توليه الحكم في مصر من التغلب على المصاعب الخارجية والمتمثلة بمعارضة الباب العالي وبريطانيا، والمنافسة الداخلية المتمثلة بمحاولات المماليك المستمرة للاستئثار بالحكم[157]، خصوصاً بعد الاتصالات والمشاورات التي تمّت بين محمد بك الألفي والحكومة البريطانية، والتي تنحصر برغبة المماليك في الحصول على مساعدة بريطانيا في خلع محمد علي على أن يقوم الألفي بتحقيق المصالح البريطانية[158]، ففي 16 أوت عام 1805م، شن المماليك هجوما على القاهرة من اجل الاستيلاء على الحكم بالقوة وخلع محمد علي، وقد حاول المماليك استمالة الشيخ عمر مكرم ليقف إلى جانبهم، لكنه رفض التعاون معهم وعمل على الاستمرار بتقديم المساعدة لمحمد علي من اجل التصدي لهم وعدم تمكينهم من الوصول إلى السلطة مرة ثانية[159]، وبعد فترة وجيزة عاد المماليك مرةً أخرى إلى محاولة تحقيق مسعاهم القديم بعزل محمد علي، ولكن هذهِ المرة عن طريق وساطة بريطانيا لدى الباب العالي واستعمال أسلوب الضغط السياسي على حكومة الباب العالي[160]، فقد طلب القنصل البريطاني في مصر من الباب العالي بعودة المماليك إلى ما كانوا عليه من سطوة ونفوذ في البلاد، ومقابل ذلك تتعهد الحكومة البريطانية بأن زعيم المماليك محمد بك الألفي سيكون والياً مطيعاً لأوامر السلطان العثماني[161]، وقد وافق الباب العالي على ذلك المطلب فأصدر عفواً عن المماليك كما قرر تعيين موسى باشا والياً جديداً على مصر وفي نفس الوقت أصدر مرسوماً يقضي بنقل محمد علي إلى ولاية سلانيك، وقد يعزى سبب اتخاذ الباب العالي لهذا القرار أيضا إلى الخشية من محاولة محمد علي الاستقلال بمصر[162]، إلا أن تلك الخطة التي تم الاتفاق عليها بين بريطانيا والباب

---

[157]– محمد صبري، المرجع السابق، ص36.

[158]– جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص152.

[159]– عبد العزيز محمد الشناوي، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب رقم 67، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص168.

[160]– محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، المرجع السابق، ص87.

[161]– جرجي زيدان، المرجع السابق، ص152.

[162]– محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، المرجع السابق، ص87.

العالي لصالح المماليك لم يُكتب لها النجاح وذلك بسبب تحالف وتضامن محمد علي مع الشعب المصري[163]. فقد استعان بنفس القوة التي كان لها الدور في تنصيبه وتوليته الحكم في مصر وهي قوة العلماء والمشايخ الذين وقفوا إلى جانبه وفي مقدمتهم الشيخ عمر مكرم[164]، فضلاً عن الدور البارز الذي لعبته فرنسا في مساعدة محمد علي، ولاسيما عن طريق سفيرها في اسطنبول سيباستياني والذي أبدى الرغبة الشديدة في بقاء محمد علي والياً على مصر[165].

إن السياسة التي أتبعتها فرنسا في مصر منذ تولي محمد علي الحكم عام 1805م قد شكلت بداية لتوطيد وإقامة العلاقات بين البلدين وفي مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية، إذ تدفقت إلى مصر الأفكار والنظم الفرنسية وتوثقت معها العلاقات بين ممثلي الحكومة الفرنسية ومحمد علي[166]، كما تؤكده رسالة السلطان محمود الثاني التي أرسلها إلى داي الجزائر حاج علي باشا حين قال:" **فنحن نعلم جيداً أن هذا الوزير عندما كان مجاورا للفرنسيين ومتعاملا معهم كانت العلاقات الودية والصداقة التي تربطه واياهم قد وصلت إلى الندوة بحيث أصبح يسود الطرفين تفاهم كلي في جميع الميادين...**"[167].

كانت فرنسا كدولة عظمى واستعمارية ذات علاقات تاريخية بالشرق، قد عملت في أثناء المسألة المصرية من أجل الحفاظ على مصالحها في هذه المنطقة المهمة من العالم، وبخاصة أن فرنسا كان لديها مصالح سياسية واهتمامات استعمارية في منطقة سورية، لذلك تحركت الدبلوماسية الفرنسية فو راً من أجل حماية هذه المصالح بمجرد اندلاع الصا رع بين

---

[163]– عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق،ج4، ص11.

[164]– محمد رفعت، تاريخ مصر السياسي، المرجع السابق، ص87.

[165]– جرجي زيدان، المرجع السابق، ص153.

[166]– أحمد عبد الرحيم مصطفى، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة، (د.ط)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1973، ص15.

[167]– مركز محفوظات الأرشيف الوطني الجزائري: دفتر: خط همايون، رسالة من السلطان محمود الثاني إلى الحاج علي باشا،ع:6، رقم الوثيقة: 47623، تاريخ: 1225هـ.

محمد علي باشا والدولة العثمانية عام 1831 م كما سنرى في الفصل الثالث، وبخاصة بعد تدخل روسيا، التي أرسلت قواتها وأسطولها إلى إستانبول لحماية السلطان برضى وبقبول ودعم النمسا اللتين كانت فرنسا تخشاهما، ولأن فرنسا ليس لديها القدرة على حماية مصالحها وحدها، فقد عملت من أجل التقارب مع بريطانيا للوصول إلى توازن للقوى في هذا الصا رع، وهو الأمر الذي قبلته بريطانيا؛ حيث بدأ عهد جديد من التنسيق السياسي والعسكري بين البلدين لمواجهة روسيا ، وكان واضحاً أن ما قيل عن الدعم الفرنسي لمحمد علي وطموحاته؛ كانت مسألة محط نقاش وشكوك، أمام الخطر الذي شكلته روسيا وشعرت به فرنسا في الشرق كله[168].

ب/ موقف انجلترا من تولي محمد علي باشا السلطة في مصر:

بدأت السياسة البريطانية تقف ضد محمد علي، وكانت ترمي إلى إقصاءه عن مصر وإحلال سلطة المماليك مكانه، وقد ساعد الانجليز على هذا علاقتها السلمية مع الباب العالي وأيضاً انتصارها في حروبها مع فرنسا، لهذا ارسلت حملة اتجهت نحو الاسكندرية اطلق عليه تسمية " **حملة فريزر** " عام 1807م، كما تعتبر حملة الانجليزية على الإسكندرية ورشيد أول التحديات الخارجية التي واجهت محمد علي فى بداية حكمه لمصر، ولا يمكن فهم الدوافع الحقيقة وراء الحملة إلا بتتبع مجريات وتطور السياسة الأوربية آنذاك، فضلا عن العلاقات الأوربية العثمانية، فى الواقع اجتاح نابليون آنذاك أوربا ودخل فى صراعات سياسية مع القوى الأوربية التقليدية آنذاك لاسيما إنجلترا، العدو التقليدى لفرنسا، وأيضا روسيا، وتعقدت الأمور الدبلوماسية باعتراف السلطان العثماني بنظام نابليون، وازدياد نفوذ السفير الفرنسي فى إستانبول، مما دعا إنجلترا إلى التوجس من النشاط الفرنسي فى الشرق، وأرادت إنجلترا القيام باستعراض قوة ترهب به الدولة العثمانية، ويعزز مكانة روسيا فى مواجهة الدولة العثمانية، ويعتبر ورقة يمكن اللعب بها إزاء فرنسا، فكان هدف الأسطول البريطاني القيام بمظاهرة بحرية الغرض منها هو بث الرعب والفزع في صفوف

[168]- يوسف حسين يوسف عمر،" الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية من بداية الأزمة وحتى معاهدة هونكار . إسكله سي 1831- 1833"، الملجة الاردنية لتاريخ والاثار، المجلد 11، العدد 2، 2017 ص 69.

العثمانيين[169]، كما قدم السفير البريطاني أربوثنوت (Arbothnot) إنذاراً إلى السلطان سليم الثالث طالب فيه تحالف الدولة العثمانية مع بريطانيا وتسليم الأساطيل العثمانية وقلاع الدردنيل إلى بريطانيا والتنازل عن ولايتي الأفلاق والبغدان إلى روسيا، وطرد الجنرال سيباستياني من العاصمة اسطنبول، وقطع علاقاتها السياسية مع فرنسا وإعلان الحرب عليها[170]، فرفضت الدولة العثمانية الإذعان للمطالب البريطانية، وشرعت في تحصين مضيق الدردنيل وإقامة القلاع على ضفتيه، وكان ذلك الرفض بتحريض من قبل الحكومة الفرنسية، فقد كان السفير الفرنسي سيباستياني يبذل قصارى جهدهُ لحث السلطان العثماني على مواصلة الصمود أمام التهديدات البريطانية [171].

أما موقف الإنجليز فكان نقيض الموقف الفرنسي من عدة نواحٍ؛ فإن ما حصل عليه الانجليز من التجارب إبَّان حملة سنة 1801 م قد دفعهم إلى أن يعتقدوا اعتقادًا جازمًا وبحق بأن الأتراك لن يستطيعوا أن يستعيدوا مراكزهم في مصر أو على الأقل لن يتمكنوا من الاحتفاظ به؛ فلقد وصفهم الجنرال هتشنسون بأنهم قوم ضعاف لا ثقة لهم بأصدقائهم، وقد جعلوا اعتمادهم على أعدائهم، وتنقصهم الموهبة لوضع أي خطة معينة، ويعوزهم النشاط لتنفيذ تلك الخطط فيما لو وضعوها، وكان كل إنسان يعتقد في الوقت نفسه بأن الفرنسيين ما زالوا يحلمون بالعودة إلى فتح مصر؛ لهذا فإن نلسون بصفته القائد الأعلى في حوض البحر المتوسط قد صدرت إليه التعليمات بمجرد استئناف الحرب مع فرنسا بأن يراقب أي حملة فرنسية يقصد إرسالها إلى الشرق، بمجرد استئناف الحرب مع فرنسا، وهذا السبب نفسه هو الذي جعلنا نبسط سيطرتنا على جزيرة مالطة، وبديهي أنه لو صمم الفرنسيون على استئناف هجومهم على مصر وعجز الأتراك عن صدهم، فإن المماليك وحدهم يصبحون وقتئذ نواة الحكومة المحلية الفعالة؛ ومن ثم بُذِلَتْ مساعٍ عديدة، وطُرِح على الباب العالي مختلف المشروعات ليعهد إلى المماليك بإدارة البلاد، ونتيجة لموقف الدولة العثمانية الرافض

---

[169]– محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ص4.

[170]– محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، المصدر السابق، ص388.

[171]– عبد الحميد البطريق، عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر (1805– 1883)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص15– 16.

لمطالب الحكومة البريطانية السابقة الذكر فقد عمدت الأخيرة إلى استعمال القوة فبعثت بأسطولها لاقتحام الدردنيل والتوجه صوب العاصمة اسطنبول، وقد تمكن من تحطيم بعض السفن العثمانية الراسية هناك[172]، وقد أثار اقتراب الأسطول البريطاني من سواحل الدردنيل فزع الباب العالي، وكانت الدولة العثمانية قد وضعت الخطط والاستعدادات للدفاع عن العاصمة بمساعدة الضباط والمهندسين الفرنسيين، فضلاً عن إرشادات السفير الفرنسي ونصائحه للباب العالي[173]؛ لذلك أدرك الأميرال دكورث بأنه من الصعوبة على أسطوله الوصول إلى البوسفور خصوصاً بعد أن شاهد التحصينات التي أقامها العثمانيون في الدردنيل، وخشي من أن تقع سفنه في الحصار بين مضيقي البوسفور والدردنيل بحيث يصبح من السهل تدميرها، فاضطر قائد الأسطول البريطاني إلى سحب قطعهِ البحرية إلى البحر المتوسط، ومن ثم أتصل بالأسطول الروسي المرابط في مدخل الدردنيل في 1مارس عام 1807، بعد أن تكبد خسائر عديدة قدرت بما يقارب 600 قتيل فضلاً عن اغراق سفينتين بريطانيتين[174].

فلما تبيَّن أن الباب العالي مصمم على عدم التورط في مشروعات من هذا القبيل بدأت إنجلترا تقترح احتلال الإسكندرية على الأقل .ولما كان الباب العالي غير ميَّال إلى اتباع هذا الرأي أيضًا، فإن الوزارة البريطانية أصبحت من الآن فصاعدًا تعتقد أن أعمال الفرنسيين قد تدفعها إلى احتلال الإسكندرية، سواء أرضِيَ الباب العالي أو لم يَرْضَ[175]،وقد شجعهم على ذلك ارسال **شهين بك**[176] إلى القنصل البريطاني **ميست Misset** يعرض صداقته على بريطانيا ويطلب وضع مصر تحت الحماية البريطانية ويطلب وضع مصر

---

[172]– بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي، ص245– 246.

[173]– عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص16؛ رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص55.

[174]– بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي، ص246؛ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، المصدر السابق، ص389.

[175]– هنري دوديل، المرجع السابق، ص 30– 31.

[176]– **شاهين بك:** أحد زعماء الممالك لقي حتفه اثرى مذبحة الممالك التي خططا لها محمد علي ونفذها سنة 1811م

من جديد، ولذلك قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة بقيادة الجنرال **فريزر**[177]، فانطلقت هذه الحملة من جزيرة صقلية إلى الإسكندرية واحتلتها في 21 مارس 1807م[178].

كان حينها محمد علي منشغلا بالهجوم على المماليك في الصعيد لما علم بمجيء الحملة البريطانية إلى الاسكندرية فعاد لمواجهتها، وكانت الحكومة الانجليزية تعتقد أن محمد علي بينه وبين الحكومة الفرنسية مساعي لإقناعه بتسهيل فتح الباب للنفوذ الفرنسي على مصر، ولذلك تدخل القنصل البريطاني ميست وأقنع قائد الحملة الفرنسية فريزر أن يبعث بقوة تحتل **رشيد**[179] لتأمين الاتصال بداخل البلاد، كما أن احتلال الرشيد سوف يكون حافزا للأمراء الممالك المناصرين لبريطانيا لمساعدتها على تثبيت أقدامهم ونجاح مهمتهم، ولكن هزيمة[180] الجيوش الانجليزية في رشيد بفضل مقاومة الأهالي[181] وهزيمتهم في حملتهم

177– **فريزر: الجنرال ألكسندر مكنزي–فريزر** Alexander Mackenzie–Fraser (1758– 1809م) هو جنرال بريطاني عرف باسم الجنرال مكنزي حتى أضيف إليه فريزر في عام 1803، ولد في أبردينشاير في اسكتلندا، وتلقى تعليمه في جامعة أبردين، ثم التحق بالجيش البريطاني عام 1778، ظهر تميزه في الحصار الكبير لجبل طارق، ثم شارك في حرب الاستقلال الأمريكية وجرح فيها، ثم شارك في الحملة البريطانية في فلاندرز (1775–1774) ، حيث شارك تحت لواء دوق يورك، وشارك أيضًا في تجريدة رأس الرجاء الصالح عام 1796، وخدم في الهند من عام 1796 حتي عام 1800، من عام 1803 حتي عام 1805، تم تعيينه في هيئة الأركان الرئيسية، ثم أصبح القائد المؤقت على ألوية المشاة)الهانوفرية (في الفيلق الألماني للملك عام 1805،وفي عام 1806 خدم تحت إمرة الجنرال هنري جيمس كريكفي في الغزو الأنجلو–روسي لنابولي، أثناء خدمته في صقلية، وفي عام 1807 تولى قيادة الحملة على مصر.

178 – عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص17.

179– **الرشيد:** رشيد، مدينة مصرية تُلقب بـ بلد المليون نخلة، تقع في أقصى شمال مصر، وتتبع محافظة البحيرة إدارياً.

180– وكانت أسباب استسلام البريطانيون هي عدم مساعدة المماليك لهم حيث عقدوا اتفاقًا مع محمد علي يقضي بعدم مساعدة العدو، وأيضًا بسبب الهزيمة الثقيلة التي تلقتها جيوش الإنجليز في مدينة رشيد مرتين، وأخيرًا عقد معاهدتي تيليست بين فرنسا وروسيا مما جعل بريطانيا وحيدة بدون حليف، وأصبح لانتصار محمد علي باشا صدى كبير في مختلف أنحاء البلاد ونال ارتياح السلطان العثماني والباب العالي وتأييده ، فتوكدت سيادته على مصر ، وعظمت هيبته في النفوس ، وكانت الاسكندرية

حتى ذلك الحين تخضع للسلطان العثماني مباشرة ، يرسل لها حكام مثلها مثل باقي الولايات ، ولا تخضع لسلطة والي مصر، فأضحت تحت سلطة محمد علي باشا منذ ذلك الحين.

181– للتفاصيل أكثر عن معركة الرشيد **ينظر:** سليم محمود محاسيس، معجم المعارك التاريخية، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص 294–295.

الانتقامية على بلدة **حماد**[182]، وأخيراً في 14 سبتمبر 1807م دفعت الانجليز إلى طلب الصلح وأيضا خروج روسيا من صفهم وعقدها صلح **تلست Tilist** مع نابليون، وفي 1807م أعقب ذلك الصلح بين إنجلترا والدولة العثمانية على أساس الجلاء عن مصر، والمعاهدات دارت بين محمد علي **وشربروك Sherbrok والكابتن فاوز Fellowse**، وقد كان أهم ما ذكر بها أن ليس للإنجليز الحق في الذخائر وميناءها، وتمثلت الشروط الاتفاق حسب ما جاء في الوثيقة[183] ليس للإنجليز حق في الذخائر والعتاد الحربي الذي هو موجود بقلعة الاسكندرية وميناءها وابراجها ومخازنها، ولقد تسلمت بموجب هذه الاتفاقية والمقدم إلى الباب العالي صورة منها، وهي تحتوي على **خمسة شروط** وهي كالاتي[184] :

1.يجب أن تنقطع الحرب حالا حين انعقاد المؤتمر، وعلى القوات الانجليزية أن يتركوا الاسكندرية والقلاع والمتاريس والمدافع المعدات الحربية على حالها خلال مدة عشرة أيام من توقيع الاتفاقية، وعلى والي مصر أن يقدم رهائن من المقربين له يقيمون في السفينة الانجليزية حتى تنفيذ شروط هذه المعاهدة.

2.يجب إطلاق سراح جميع الأسرى الذين بمصر، وإرسالهم إلى الاسكندرية حتى يسترد محمد علي الرهائن عند تسليم الاسرى الانجليز .

3.العفو عن المصرين الذين تم اعتقالهم أثناء فترة الاحتلال، وعدم التعرض لهم ولممتلكاتهم.

4.عدم التعرض لأمين بك وأتباعه البالغ عددهم 12 شخصا الذين غادروا مصر أثناء الاحتلال الانجليزي للإسكندرية، وأن يكون لهم الحرية المطلقة في السفر أينما شاءوا.

5.يبقى مندوب انجليزي في مصر لتسليم الأسرى المعتقلين وترحيلهم إلى انجلترا.

---

[182]– **معركة الحماد:** هي احدى معارك حملة فريزر، وقعت في 21 أفريل 1807 بين القوات الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزر وقوات الجيش المصري بقيادة محمد علي باشا بالقرب من قرية الحماد بالبحيرة، وانتهت بانتصار مصري كبير.

[183]– دار الوثائق القومية بالقاهرة، محافظ الأبحاث، ملف 4، رقم 147، تاريخ 11 رجب 1222هـ/ 1807م.

[184] – دار الوثائق القومية بالقاهرة، المصدر السابق.

ومن كل هذا نستخلص أن حملة فريزر كانت جميعها نتائجها لصالح محمد علي باشا حاكم مصر، حيث استطاع محمد علي بسط سيطرته وحكمه على مدينة الإسكندرية الذي رحل واليها بعد مجيء الإنجليز وقد كانت الإسكندرية قبل هذا ولاية تابعة رأسًا للقسطنطينية ويرأسها أمين أغا، وأيضًا تمكن محمد علي من إخضاع المماليك له من خلال الصلح الذي عقده معهم قبل ذهابه إلى الإسكندرية لمحاصرة الإنجليز، ومن النتائج أيضًا استتباب الحكم في البلاد وهدوءها حتى لانت جميعها لمحمد علي طوعًا منها، نظرًا لما لمسوه فيه من هيبة وسلطة وقوة استطاعت ردع جميع الأعداء داخليًا وخارجيًا، هذا بجانب رضاء الدولة العثمانية وبابها العالي عن الوالي محمد علي باشا الذي تمكن من إخراج الإنجليز المحتلين من مصر بالقوة، فالحملة قد جاءت ضد الدولة العثمانية وليس ضد محمد علي أو مصر فقط، بل كان هدفها ضرب العثمانيون بشكل عام.

كما تعتبر حملة فريزر جزءاً من مخططات بريطانيا الاستعمارية في الوطن العربي، خاصة وان مطلع القرن التاسع عشر شهد صراعاً مريراً بين الدول الكبرى ومنها فرنسا وبريطانيا، فكان هذا الموقف يحتم على مصر الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في حربها مع روسيا، بالرغم من عدم اقتناع الباب العالي بولاية محمد علي بتأثير بريطانيا التي كانت ترى أنّ تثبيت محمد علي والياً على مصر يعد أمراً مخلاً بنفوذها ومضراً بمصالحها في المنطقة بأسرها، ومع ذلك وجدت بريطانيا إن مصالحها تتطلب الوقوف إلى جانب روسيا، فكانت الفرصة الذهبية لمحمد علي كي ينشط علاقته مع فرنسا ويستطيع بناء مصر اقتصادياً وعسكرياً.

خامساً: خطوات محمد علي باشا لثبيت حكمه في مصر

1- الاستعانة بالعلماء والمعارضين والأعيان ثم التّخلص منهم

خلال السنوات الأولى من حكم محمد علي ظل مقدراً للزعامة الشعبية التي استمد منها مشروعيته في الحكم، فضلا عن وقفها إلى جانبه في الكثير من الأزمات التي واجهها حيث ساندته في التصدي لمحاولات الباب العالي عزله عن الولاية كما دكرنا سابقا، كما تصدي لمحاولات المماليك الإطاحة به وفي إخماد حركات العسكر الدين تجمعوا في عام 1807م أمام دار سكناه بالأزبكية للمطالبة برواتبهم المتأخرة في الوقت الذي كان يعاني فيه من أزمة مالية طاحنة نتيجة استيلاء المماليك على أقاليم الصعيد، وما تكبده من نفقات لصد الحملة الإنجليزية عن مصر، وما كان عليه من إرسال الخراج إلى الإستانة لضمان استقرار في الحكم، ولما كانت الخزانة خاوية فقد قرر الشيوخ أن يتحمل الشعب تلك الأعباء التي ساهم فيها التجار وأرباب الحرف والصناعات والأعيان من أجل قمع تمرد الجند وإقرار الأمن، وقد ظل محمد علي يرجع على الزعامات الشعبية كلما احتاج إلى أموال أو كلما وقعت له مشاكل، وكان من الطبيعي أن يترتب على ذلك ازدياد نفود الشيوخ الدين أصبح لهم دور فاعل في توجيه شئون الحكم، كما ظلوا محتفظين بامتيازاتهم وبمكانتهم أمام الشعب الدي كان يلجأ إليهم مما كان سببا في تبرم محمد علي بهم[185] .

وبهذا أدرك محمد علي مبكراً أن قيام زعماء الحركة الشعبية من العلماء ومشايخ الحرف والأعيان تساندهم العامة من المصريين بعزل الوالي العثماني خورشيد باشا عام 1805م وتعيينه بدلا منه سوف يشكل قيداً على طموحه نحو بناء دولة ينفرد بحكمها هو وأبناؤه من بعده، لهذا سرعان ما تنكر محمد علي لهذه الحركة الشعبية، وسعى إلى تبني سياسات تهدف إلى إضعاف هذه القوى سواء التي شاركت في المجيء به أو التي تضعف من مركزية الدولة، فكان علماء الأزهر في مقدمة القوى التي شغلت تفكيره، خاصة أن الاجراءات التي استهدفت جميع الطبقات وأهل الحرف الصغيرة ضاعفت من شعبية المشايخ

[185] – أحمد زكريا الشّلق، المرجع السابق، ص ص 50- 51.

الذين استنجد بهم الناس، وكان المشايخ يعتقدون في بادئ الأمر أن محمد علي لن تبرم من تدخلهم، لذا راحوا يبالغون في مطالبهم ويتدخلون في مسائل تمس سلطة الدولة، ولتحقيق هدفه لجأ محمد علي إلى ممارسة سلطته معتمداً على سياسة اتسمت بالقسوة التي استهدفت حلفا الأمس، فنفي أحد ابرز الزعماء الحركة الشعبية وهو السيد عمر مكرم، وأعدم أخر هو حجاج الأخضري، وأمر بترك جثته معلقة على أحد الأسبلة على الرغم من موقف هذا البطل الشعبي في تدعيم سلطة محمد علي وتأمين وصول فرمان تثبيته في منصب الوالي[186].

2- القضاء على المماليك في مذبحة القلعة (1811م)

أ- أسباب المذبحة ومجرياتها

يمثل الصراع الرهيب بين محمد على والمماليك في مقتبل عهده الطويل فصلاً مثيراً من فصول تاريخ مصر الحديث، استعان فيه محمد على بكل ما أوتى من دهاء وحنكة وقدرة على المناورة فى ساحة السياسة وعلى المهارة فى حلبة الحرب، حتى تأتى له القضاء عليهم فى آخر الأمر قضاءاً مبرماً بعد صراع طويل ضاري، بلغ ذروته فى مذبحة القلعة فى أول مارس سنة 1811م التي لا تزال ماثلة فى وجدان المصريين إلى يومنا هذا رغم ما مر عليها من زمن طويل، وهدفنا في هذا البحث هو الكشف عن الأصول التاريخية للحادثة والظروف التي أدت إليها، ونعالج نقاط هامة حول مدى حتمية تصاعد الصراع وبلوغه هذا القدر الصارخ من الدموية والعنف، ونتقصى أحداث المذبحة ونضعها فى سياقها التاريخي.

لم يستطع محمد علي أن ينعم بحكم مصر بهدوء، بالإضافة إلى أن حكمه كان لا يزال مؤقتاً، فكان يجب أن يستخدم كافة عناصر عبقريته لكي يبقى في منصبه ويتجنب الأخطار التي كانت تحيط به[187]، فلا يزال المماليك يشكلون خطراً عليه في الصعيد، وكان عليه أن يصد هجماتهم وإبادتهم لكي تستعيد مصر وحدتها، أما الألبان فهم الذين كانوا يكونون جيشه

[186] – يونان لبيب رزق زمحسن يوسف، تحديث مصر، تق: اسماعيل سراج الدين، (د. ط)، مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، 2007، ص ص 27-28.

[187] – محمد صبري السربوني، المرجع السابق، ص66.

لكن قواتهم لم تكن قوات نظامية، ومع ذلك كان لا بد من زيادة أعدادهم لكي تزداد قوة الجيش، وبالإضافة إلى كل ما سبق، كان يجب على الباشا أن يضاعف رواتبهم مرتين أو ثلاث مرات حتى يتم تكوين جيش نظامي من أبناء البلد أنفسهم[188].

ومن جهة اخرى كان الباب العالي يسعى دائما لخلع محمد علي من منصبه كما كان يزعج الوالي بمطالبه المبالغ فيها، وفي الوقت نفسه كانت كلا من فرنسا وانجلترا تهددان بشن حملة جديدة على مصر، وكان هذا الوضع الشائك يتطلب من الباشا أن يتحلى بهدوء الأعصاب والجرأة والحيوية، فاستطاع أن يستفيد من حدثين مهمين أولهما نشوب حرب عامة اشتركت فيها كل الدول الأوروبية الكبرى ومن ضمنها الدولة العثمانية، وثانها نشوب حرب في شبه الجزيرة العربية حيث طلبت الآستانة من محمد علي التدخل فيها[189] بدليل ما جاء في رسالة موسى باشا يحث محمد على مساعدتهم في حربهم ضد الوهابيين جاء فيها: "... **لقد حررنا لكم هذا الخطاب المعبر عن ودنا الخالص الصادق وأرسلناه إلى سعادتكم لتحيطوا بما فيه ولتبلغكم به أن الذي ننتظره أن تفعلوه كذلك من بعد الأن أن تقدموا إقداماً تاماً على قطع دابر الوهابيين هؤلاء...** "[190].

وبفضل هاتين الحربين استطاع والي مصر زيادة سلطته وتدعيمها، فرفع مكانته وذاع صيته في جميع أنحاء الشرق،[191]. حينها أرسل محمد علي مكاتبة إلى السلطان العثماني يذكر فيها" أنه مع الالتفاف الكلي إلى الأمراء المصرية الفراعنة قد حصل منهم عصيان بالقول منهم: إننا لا نقبل أن نكون تحت أحكام العثمانيين، ولذلك صار سوق تجريدة عليهم،

[188] – المرجع نفسه، ص66.

[189] – المرجع نفسه، ص66.

[190] – دار الوثائق القومية، دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر 01، رقم 05، 8 شوال 1222 هـ/ 9 سبتمبر 1807م،" رسالة من موسى باشا قائم مقام السلطان يحث محمد علي على الحرب ضد الوهابيين "

[191] – محمد صبري السربوني، المرجع السابق، ص ص 66– 67– أحمد فريد علي مصطفى، المرجع السابق، ص 15.

وحصلت محاربة، وأسر منهم أكم وجملة أشخاص من أتباعهم، والبقية انسحبوا إلى أقاليم الصعيد ولا يؤمن منهم من بعد الآن"[192].

وفي شهر جوان 1808م كان المماليك يسيطرون على الصعيد بأكمله بدءاً من ولاية المنيا، فقرر محمد علي على إنهاء هذا الوضع بحد السيف[193]، فقاد قواته بنفسه لمطاردتهم، وخاض ضدهم معارك ضارية حتى استطاع الانتصار عليهم انتصاراً حاسماً في أغسطس 1810م[194]، وأعلن الوالي عن انتصاره قائلاً :" لقد انمحى طغيان المماليك بعون الله"،

---

[192]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه إلى الصدر الأعظم، الأمر رقم 21، جمادى آخر 1225، ص 4.

[193] – لكن السؤال يطرح نفسه أين كان السلطان من كل هذا، ومصر فى نهاية الأمر جزءاً هاماً من الإمبراطورية وواحدة من أهم ولاياتها؟ الحقيقة أن الباب العالي لم يكن بغافل عن هذا الصراع الرهيب الدائر منذ اعتلاء السلطة في مصر، بل كان يرقبه بحذر وترقب شديدين تحدوه عدة عوامل متداخلة وأبعاد متقاطعة، فمن ناحية كان ولاء محمد على أمراً لا يؤتمن وقد رأى السلطان رفضه الإذعان لأمر نقله بعد عام واحد من ولايته على مصر، فما بالك وقد مرت بعدها سنوات زادت فيها قوته وتثبت نفوذه فى البلاد. ومن ناحية أخرى كان فى تمرد المماليك واتصال بعضهم بالإنجليز داعياً لتأييد محمد على فى مواجهته لهم، رغم دس الوشاة من رجالهم فى الآستانة بدعوى أنه يعصى أوامر السلطان. ومن ناحية ثالثة كانت قوة محمد على العسكرية المتنامية قد بدأت فى الظهور، رغم أنه لم يكن قد أنشأ جيشاً مصرياً بعد، ولابد أن رجال السلطان قد حللوا كل هذه الأبعاد وأدركوا أن خلع محمد على من مصر سيسلمها إلى مماليك مشكوك فى ولائهم للباب العالي، على اتصال وثيق ببريطانيا، وهو فوق ذلك أمر عسير يستلزم قوة عسكرية كبيرة، فى وقت كانت الآستانة فيه تئن مما عليها من ضغوط فى أوروبا وتفضل تجنب فتح جبهة جديدة فى واحدة من أهم ولاياتها. من جهة أخرى، كان فى تزايد قوة محمد على وكسبه لجولة تلو الأخرى فى صراعه الدائر مع المماليك، فضلاً عن طول بقائه فى ولاية مصر أمور تزعج الباب العالي وتزيد خشيته من تمرد ذلك الوالي صعب المراس، على هذا رسم الباب العالي خطة بارعة ترمى إلى أكثر من هدف، فقد طلب السلطان من محمد على تجريد حملة إلى الحجاز لتأديب الوهابيين وإخضاعهم للسلطنة. هدف السلطان من ذلك إلى عدة أهداف كما ذكرنا، كان أولها توريط محمد على فى حرب تنال من قواته وتفت عضده. ثانياً كان فى قيامه هو بإخضاع الوهابيين توفير لقوات السلطنة الواهنة والأهم، تكريس لتبعية محمد على المطلقة للباب العالي التي ستتجسد فى قيامه إلى الحرب بأمر من السلطان. وثالثاً الخلاص من الوهابيين وما يسببونه من قلاقل فى بقعة هامة من أراضي السلطنة، صحيح أنها كانت لا تزال أرضاً مقفرة لا خير فيها ولا رجاء منها، بيد أنها تضم أطهر أراضي المسلمين وأعز رموز الدين الحنيف. وفى إزعاج هؤلاء للحجاج إشعار لهم بأن نفوذ السلطان قد انكمش وتقلص.

[194] – لم تكن تلك الصورة بجديدة وقت اعتلاء محمد على قمة الحكم، ولا كان الصراع بين الوالي و المماليك بجديد، فتاريخ مصر يحفل بالعديد من قصص الصراع بين الوالي المعين من قبل الباب العالي والمماليك المقيمين فى مصر، بيد أن تلك القصص كانت بطبيعتها قصيرة مختزلة؛ فالولاة كانوا يدركون أن مدة بقائهم فى مصر قصيرة وإن طالت بضع سنين، يأتي بعدها فرمان بالعزل أو النقل، وذلك طبعا إذا قدر لهم تجنب المؤامرات التي أحياناً ما كانت تنتهى بقتلهم =

وسمح هذا الانتصار لمحمد علي بأن يخضع الصعيد لسلطته، ويوحد سلطته في البلاد، وينعش التجارة والزراعة اللتين كانتا قد تأثرتا بسبب الحرب الداخلية التي شنها ضد المماليك[195].

لما عاد محمد علي باشا من الوجه القَبلِ أخذ يجهز جيشاً يرسله إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لنداء الباب العالي، وجعل يهيئ معدات الحملة في أوائل سنة 1811م وعقد لواء قيادتها لابنه أحمد طوسون باشا، وأعد مهرجانا فخما بالقلعة حدد له يوم الجمعة أول مارس سنة 1811م للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة، ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم، وكان الترتيب أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة، ثم ينزل من القلعة في أبهته وموكبه مخترقاً أهم شوارع المدينة ليصل إلى معسكر الحملة في قبة العزب الواقع شمال العاصمة[196]، فحضر إلى القلعة أربعمائة وسبعون رجلاً[197] هم جملة المماليك الذين كانوا فى القاهرة فى ذلك الوقت، مرتدين أبهى أزيائهم متدثرين بأردية الفراء الثقيل ومتقلدين السيوف الذهبية اللامعة فانتظموا فى ساحة

= تخلصاً منهم وجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم، كان طبيعياً أن تثَبّط هذه الظروف من عزم هؤلاء الولاة على القضاء على هؤلاء القوم الذين ينازعونهم السلطة والحكم، فانصرفوا إلى الاستمتاع بالحياة الرغدة فى مصر وأضحى جل همهم الثراء الشخصي، ناهيك عن جمع الأموال والهدايا وإرسالها إلى رجال الباب العالي بغية إرضاءه واتقاء شر تقلباته، فيضمنون بقائهم ما أمكن هانئين بما طالت أيديهم من عز وثراء، من هنا ينبع الاختلاف الجوهري فى طبيعة الصراع بين المماليك من جهة وبين محمد على ومن سبقه من الولاة من جهة أخرى. لم يتجاوز هدف أولئك الولاة الإطار التكتيكي، أي زيادة رقعة السيطرة وانتزاع أكبر قدر ممكن من السلطة من يد الخصم خلال فترة حكمهم وذلك دون توسيع دائرة الصراع بشكل يؤدى إلى قلاقل من شأنها أن تزعج الآستانة وتدفعها إلى تغيير الوالي الذى يسبب قلاقل وعدم استقرار فى ممالك الإمبراطورية، أما محمد على فقد انتقل بالصراع إلى إطار استراتيجي بغيته القضاء الجذري على تلك الفئة التي دأبت على مشاطرة الوالي السطوة والنفوذ إن لم تفقه، ليظفر منفرداً بحكم البلاد التي خطط لجعلها نواة لمملكته القادمة، ومن ثم فالرأي عندنا أن تصاعد الصراع بين محمد على والمماليك بأكثر ممن سبقوه من الولاة لا يعود إلى طبيعة شخوصهم أو رغبة هذا فى المسالمة وجنوح ذاك إلى العنف، بل هي مسألة سياسية محضة حكمتها الأهداف التي اتخذها كل لنفسه والغايات التي طفق يسعى إلى بلوغها. **ينظر**: أندرياس كاميرون، المصدر السابق، ص ص 93- 95.

[195] – المصدر نفسه، ص 67.

[196] – الرافعي، المرجع السابق، ص 108. جيلبرت سينويه، المصدر السابق، ص 138– محمد صبري السوربوني، المصدر السابق، ص 69.

[197]– اختلف المؤرخون في عدد الحضور من الممالك

القلعة كلٌ على صهوة أكرم جياده. وقد اصطف الناس على جانبى الطريق لمشاهدة موكبهم المبهر[198].

أذن الوالي لضيوفه فدخلوا عليه فى الردهة الكبرى من القلعة فاستقبلهم بكل حفاوة وترحاب وقدمت إليهم القهوة تبعاً للعادات السائدة، ولبث الباشا يلاطف ضيوفه ويجاذبهم أطراف الحديث الودود فسحة من الوقت[199]، ولنا أن نتصور كيف استطاع محمد على أن يسيطر على شعوره وهو يعلم ما أعد لهؤلاء القوم[200] بعد أقل من ساعة، وأخيراً نهض الوالي إيذاناً بانقضاء المراسم، فنهضوا لقيامه وسلَّموا عليه مستأذنين فى الانصراف[201].

أمتطى الضيوف خيولهم الرشيقة والمزينة لينزلوا إلى المدينة مشاركين فى موكب الاحتفال الضخم، وكان المخطط خروجهم فى هذا الموكب الفخم وسيرهم فى شوارع المدينة بين الجماهير المصطفة لرؤيتهم حتى يبلغوا المعسكر المعد لسفر الحملة. وللنزول من ساحة القلعة إلى ميدان الرميلة[202] كان يتحتم على المرء أن يدلف ممراً منحدراً متعرجاً بالغ الضيق، منحوت فى أصل صخرة ويحدوه من الجانبين بيوت وحصون، يسمى مضيق النقر ينتهى من ناحية ميدان الرميلة بباب ضخم اسمه باب العَزَب، وكان الممر من الضيق والتعرج بمكان بحيث يتعذر مرور جوادين متجاورين به[203].

198– نفس المرجع، ص 109.

199 – حسين كافي، محمد علي رؤية لحادثة القلعة، (د.ط)، دار الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992، ص 162.

200 – حيكت هذه الخطة والمؤامرة في سرية تامة فلم يعلم بها سوى 4 من رجال محمد علي المقربين وهم حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط، والكتخدا بك محمد لاظ أوغلي نائب محمد علي باشا، وابراهيم أغا حارس الباب العزب، وصالح قوش منفذ المذبحة.

201 – الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص 207– الرافعي، المرجع السابق، ص 109– حسين كافي، المرجع السابق، ص 162.

202 – ميدان صلاح الدين الآن.

203 – الجبرتي، المصدر السابق، ص ص 207 –208– شيوه كار: إحياء مصر بلادي (محمد علي باشا)، تح: سحر حسن أحمد، تق: حمادة محمود إسماعيل، (د. ط)، دار الكتب القومية والوثائق القومية، القاهرة، 2015، ص 58.

كان هذا هو مكان الحدث، أو مسرح الجريمة بلغة أهل القانون، وقد اختلف المؤرخون فى ترتيب الموكب الذى سار إلى مضيق النقر، فبينما يجمعون على أن الفرسان الدلاة[204] كانوا فى مقدمة الموكب، يختلفون فى الباقي، فالجبرتي[205] والرافعي[206] يرويان أن الجنود الأرناؤوط – الألبانيين – الذين نفذوا القتل كانوا خلف المماليك، وهو ما لا يمكن أن يكون دقيقاً؛ وإلا استحال عليهم إغلاق باب العزب الموجود فى آخر المضيق دون أن يشعر المماليك، بينما يذكر تشارلز مرى أنهم كانوا أمامهم بقيادة صالح قوج، وهو واحد من الأربعة الذين ائتمنهم الباشا على سره، وهو ما لا يمكن قبوله كذلك، إذ أن ضيق الممر بالصورة التي وصفها الرواة يؤكد استحالة تسلق الألبان الجدران أمام أعين المماليك خلسة دون أن يشعر ضحاياهم بذلك، كما يتعذر عليهم الاستدارة تجاه المماليك لبدء الضرب بعد إغلاق الباب[207].

ويؤكد الجبرتي مجريات الواقعة في قوله:" فلما انجر الموكب وفرغ طائفة الدلاة من خلفهم من الوجاقلية والألداشات المصرية، فانفصلوا من باب العزب، فعند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب، فعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضاربين بالمصرية، وقد انحصروا بأجمعهم في المضيق المنحدر الحجر المقطوع في أعلى باب العزب مسافة ما بين الباب الأعلى الذي يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى باب الأسفل، وقد أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على علاوة النفر الحجر والحيطان التي به، فلما حصل الضرب من التحتانيين أرد الأمراء الرجوع، فلم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول في مضيق النفر، واخذهم ضرب البنادق

---

[204] – طائفة من الخيالة أنشئت فى القرن الخامس عشر لتعمل فى مقدمة الجيوش العثمانية

[205] – يذكر الجبرتي ذلك في قوله: " ... فلما انجر الموكب وفرغ طائفة الدلاة من خلفهم من الوجاقلية والألداشات المصرية ...". ينظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص 207.

[206] – يذكر الرافعي في قوله: " ... لم يمد المماليك يجتازون باب العزب حتى أرجع الباب واقفل من الخارج على حين فجأة إقفالا محكماً في وجه المماليك، ومن ورائهم الجنود الارناؤوط..." ينظر: الرفاعي، المرجع السابق، ص ص 109-110.

[207] – ولذا تنتهى بنا محاولة تصور الحادثة إلى أن الألبان انقسموا إلى قسمين، الأول، والأغلب أن عددهم كان قليلاً بقيادة صالح قوج كان أمام المماليك، وكانت مهمتهم الخروج من باب العزب وإغلاقه خلفهم فى الوقت المناسب، أما القسم الثاني الذى ضم أغلبهم فكان خلف المماليك لتنفيذ العملية.

والقرابين من خلفهم أيضاً، وعلم العسكر الواقفون بالأعلى المراد فضربوا أيضاً، فلما نظروا ما حل بهم سقط ما في ايديهم، وارتبكوا في انفسهم وتحيروا في امرهم، ووقع منهم اشخاص كثيرة، فنزلوا عن الخيول واقتحم شاهين بك وسليمان بك البوابة واخرون من مماليكهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية، ونزعوا ما كان عليهم من الفراوي والثياب الثقيلة، ولم يزالوا سائرين وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم، واصيب شاهين بك وسقط على الرض فقطعوا رأسه، وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا البقشيش، وأما سليمان بك فهرب وصعد إلى حائط البرج الكبير فتابعوه بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه ايضاً، وهرب الكثير إلى بيت طوسون باشا يظن الالتجاء به والاحتماء فيه، فقتلوهم، واسرف العسكر في قتل المصريين وسلب ما عليهم من الثياب، ولم يرحموا أحد واظهروا كامن حقدهم ..."[208].

ويذكر كاميرون حول المجزرة – أن أسمها مجزرة في حق مسلمين وعزل قتلوا عن غدر – في قوله: " ... كان المماليك يجري الإمساك بهم الواحد بعد الآخر وتقطع رؤوسهم، وفي الوقت الذي راحوا يطوفون بجثمان شاهين علامة على الانتصار ، كانت القلعة قد تحولت إلى مجزرة ومسلخ لك يكن أحد من البكوات أو مساعديهم الذين دخلوا القلعة فرحين ومبتهجين قد بقي على قيد الحياة"[209].

أما عن محمد علي يروي كاميرون قائلاً: " أصيب الباشا بالرعب والفزع جراء النجاح الذي أصابته الخطة، حيث تملكه هذا الاحساس فقط عندما توقف إطلاق النار وراحت الرؤوس تعرض عليه وهو في الشرفة، وبذلك كان محمد علي قد بدأ يستعيد توازنه، وهنا السيد ديليسبس يؤكد أن محمد علي كان شكاكا في النتيجة إلى حد أنّه كان يحتفظ بخيول كان بعضها عند الباب االخلفي، لامتطاء صهوة واحدة منها ويلوذ بالفرار حفاظاً عن حياته، ويقول منجن: " إن طبيب الباشا الخاص دخل على الباشا وقال وهو رح منشرح الصدر: "

[208]– الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص ص 207– 208 – الرفاعي، المرجع السابق، ص 110.

[209] – أندرياس كاميرون، المصدر السابق، ص 97.

انتهى كل شيء ، هذا عيد لسموك" وهنا طلب محمد علي كأساً من الماء"[210]. وبعدها أرسل محمد علي باشا مكاتبة للسلطان العثماني مضمونها "أنه تمكن من جمع الأمراء المصرية بحيل إلى داخل القلعة وإعدامهم جميعاً، وتخلص من غوائلهم ومصاريفهم.[211]

ب- نظرة المؤرخين لمذبحة القلعة

اختلفت آراء المؤرخين حول مذبحة القلعة مثلها مثل باقي الحوادث التاريخية فمنهم من يرها بنظرة موضوعية ومنهم من يرها بنظرة ذاتية، فمنهم من رأى أنها نقطة سيئة في تاريخ مصر ووصمة عار في تاريخ محمد علي باشا السياسي، وقد تعرض محمد علي للعديد من الانتقادات من المؤرخين الغربيين بسبب غدره بالمماليك في تلك المذبحة، فما هو الحكم على هذه المذبحة؟ هل كان محمد علي مجرما؟

فقد أيدت الأميرة شيوة كار [212] ما قام بها الباشا ونفت بأن يكون مجرماً في قولها: "... لا، إذا عرفنا أن مصلحة مصر كانت رائدة فيه، قد وضع محمد عل نصب عينيه في تلك اللحظة استقلال مصر واتساع الوطن وتقدمه، فإن هؤلاء الأمراء الشراكسة كانوا ينهبون مصر ويجردونها من خيرات ويسفكون دماء أبنائها، فكان يتحتم القضاء عليهم لصالح الجميع... "[213]

أما **عبد الرحمن الرافعي** فيرى أنه لا يوجد ما يُسوغ فعلت محمد علي في الغدر بالمماليك فيقول: "ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تاباه، ولو

---

[210] – نفس المصدر، ص 97.

[211]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 36، تاريخ 9 صفر 1226هـ، ص 6.

[212] – **الاميرة شيوه كار**: هي ابنة إبراهيم ابن الأمير رفعت عم الملك فؤاد، ولدت في استنبول في 25 أكتوبر 1876، والدتها الأميرة نجوان هانم التي تنتمي لأحد البيوت العثمانية بإستنبول ، تلقت تعليمها في السراي مثلها مثل غيرها من بنات الأسرة الحاكمة، وتشير المصادر أنها كانت شغوفة بالفن والأدب. ينظر: شيوه كار، المصدر السابق، ص ص 9-10.

[213] شيوه كار، المرجع السابق، ص 61.

أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجها لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته"[214]، ويرى الرافعي أن الحادثة كان لها ضرر غير مباشر على الشعب المصري؛ فيقول: "إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية؛ لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس [215]."ويوضح المؤرخ عبد العزيز جمال الدين تأثير الحادثة في بث الخوف في نفوس المصريين فيقول: " كانت مذبحة القلعة من الناحية القومية ذات أضرار بالغة، لأنها ألقت الرعب والفزع في قلوب المصريين، حتى أن أحدًا من أفراد الشعب ما عاد يتصدى لمعارضة محمد على طوال المدة التي قضاها في الحكم"[216]، ويقول آدم فرانسوا جومار [217] Edme Francois Jomard :" ... لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفًا لأحكام التاريخ القاسية"[218].

بينما حاول بعض المؤرخين[219] تبريرها، وأنه اضطر إليها دفاعًا عن نفسه من خطر المماليك، ورأى البعض أن التخلص من المماليك كان خيرًا لمصر؛ فيقول المسيو مانجان أحد أصدقاء محمد علي: "إنني أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك، على أنني أعده من

---

[214] – عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص 114.

[215] – المرجع نفسه، ص 115.

[216] – ساويرس بن المقفع، تاريخ مصر من بداية القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، حق: عبد العزيز جمال الدين، ط1، مكتبة 2006،ج2، ص 1286 .

[217] – رسام الخرائط الفرنسي، و مهندس الآثار و كان محررا لكتاب وصف مصر وكان عضوا في معهد كوت ايجيبت الذى أنشأه نابليون. أشرف على البعثة التربوية والثقافية التي أرسلت من فرنسا إلى مصر من قبل محمد علي والى مصر.

[218] – عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص 115.

[219] – ربط العديد من المؤرخين والمحللين بين مذبحة القلعة وحادثة إبادة الانكشارية سنة 1826 م المعروفة باسم" الواقعة الخيرية"، حينها تخلص السلطان محمود الثاني من الانكشارية كما تخلص محمد علي من المماليك، حيث قصف في ليلة واحدة نحو أكثر من ستة آلاف من قادة جيش الانكشارية، وأجهز على الجيش القديم، وأسس جيشًا جديدًا، ثم القبض على الناجين وإعدامهم بعد ذلك بوقت قصير، وكما كان سبب محمد علي هو خشيته من تمرد المماليك الدائم على الولاة وسلطتهم وتحكمهم في تعيينهم من عدمه؛ وكان ذلك سبب رغبة السلطان محمود الثاني أيضًا في تأديب الانكشاريين، فلقد أصبح الانكشاريون كثيري التمرد والتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد، كما كانوا يعزلون السلاطين في مناسبات، أو يحاصرونهم حتى يغيروا القيادات السياسية، كان آخرها ثورة الانكشارية بإسطنبول في 15-14 جوان 1826م.

بعض النواحي خيرًا لمصر، فإن بقاءهم يقضي إلى حرب هي أضر على البلاد من الإيقاع بهم، كما أن إرادة الباب العالي كانت تؤدي إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التي ضربها محمد علي تنفيذًا لأوامر الباب العالي السرية قد قضت على نظام كانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجيًا، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضي أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطًا بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطرًا إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر في إضعاف خصومه الذين يزدادون في هذه الحالة قوة ونفوذًا، فقد بلغه ما قيل أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس، ولما علم أن السياح من الإفرنج يلومونه في رحلاتهم وكتبهم على اغتيال المماليك ويعدونه عملًا منافيًا للإنسانية صرح بأنه يبغي أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة

المماليك بجانب حادثة اغتيال الدوق دانجان[220] ليحكم الناس على الحادثتين"[221]، بينما عدها محمد فريد إحدى أفعال محمد علي الحسنة التي خلّص بها مصر من شر المماليك [222].وصفها أحمد المسلماني بأنها "معركة القلعة" حيث قال: "فهي معركة بين محمد علي والمماليك، ولكنه اختار فيها أن تكون معركة "نصف بيضاء"؛ أي أن تسيل دماء العدو وحده في مكان أنيق ووقت محدود" [223]."، وفي تقدير المسلماني للمذبحة يقول: " غير أنني أقف تماماً على النقيض من ذلك الحس الإنساني هذه المرة، لأكون واحد من الذين يحترمون ويقدرون المذبحة القلعة"[224]، ويظهر تأييده للمذبحة في قوله:" لم يكن الحوار ولا جدال ولا موائد المفاوضات لتحدي مع عصابات ذات مصالح كبرى ومزايا عملاقة، من مال وأطيان ونفوذ ورجال، لم يكن الحوار ممكناً مع أناس يمتلكون الأرض ومن عليها، ولا

[220] – حسين الشريف، المآسي التاريخية الكبرى، (د.ط)، دار الكتب المصرية، الجيزة – مصر، 2020، ص ص 211– 230.

[221] – علي عفيفي علي غازي، الجزيرة العربية والعراق في استراتيجية محمد علي، دار الرافدين، 2016، ص 50.

[222] – طارق عبد الجليل، العسكر والدستور في تركيا من القبضة الحديدة إلى دستور بلا عسكر، دار نهضة مصر، قاهرة، 2012، ص ص 9– 10.

[223] – أحمد المسلماني، مصرى الكبرى، (د.ط)، دار ليلى، القاهرة، 2012، ص 170.

[224] – المرجع نفسه، ص 169.

يعرفون غير القتل وسفك الدماء ومؤامرات القصور والقوى من أجل زيادة ما يملكون، كان قرار محمد علي القضاء على الممالك واحد من أعظم القرارات إن لم يكن أعظمها جميعاً"[225]، لكن في راي إن كانت المماليك عصابات تسعى للسلطة فمحمد علي لا يختلف عنهم فكان له نفس الهدف، وازهاق الأرواح فرسولنا الكريم محمد صلي الله عليه وسلم كان يحث في غزواته على عدم قتل عزلة السلاح، وما فعله محمد علي كان فيه خداع وخبث، فلا مبررات للقتل خاصة وإن كانوا مسلمين. لهذا تعتبر مذبحة القلعة بصمت عار في تاريخ مصر عامة وتاريخ محمد علي خاصة فهي من أحداث التي لم يختلف المؤرخون في وقائعها ومجرياتها.

وهكذا وصل محمد علي إلى مصر وبدأ يشق طريقه بقوة على مسرح الأحداث مزوداً بطموحاته وامكانياته ومستنيراً بذكائه ومستندا على نجاحاته السابقة، كل ذلك في اطار سياسي واقتصادي واجتماعي مشحون بشتى أنواع العراقيل والمشاكل التي من شأنها أن تهدم دعائم أي نظام حاكم؛ **فما هو بفاعل ؟ وكيف يتسنى له ان يثبت نفسه في حكم مصر ويجسد مشارعه وطموحاته التي طالما حلم بها ؟**

[225] – المرجع نفسه، ص 170.

خلاصة الفصل:

وفي أخر الفصل نستنتج إن فهمنا لشخصية محمد علي لن يكتمل إلا إذا وضعناها فى محيطها العثماني الذي أملى على الباشا سياساته وشكل معظم توجهاته .على أن التأكيد على أهمية هذا الإطار العثماني ليس مرده أن محمد علي نفسه انحدرت جذوره من قوله إحدى مدن البلقان التي كانت تابعة كمصر للدولة العثمانية، أو أنه كان يتحدث التركية وأن إلمامه بالعربية كان محدودا وتعامله بها منعدما .وليس مرده أيضا أنه كان يرى نفسه كوال عثماني أكثر من كونه سيدا مصريا أيا كان معنى تلك العبارة. ولكن التركيز على هذا البعد العثماني عائد بالأحرى إلى أن مصر كانت عندما وفد إليها محمد علي عام 1801م ولاية من ولايات الدولة العثمانية، وأنه كان قد مضى عليها قرابة أربعة قرون وهى منخرطة داخل الدولة العثمانية وأن تلك القرون الأربعة قد تركت آثارا على حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية

وبعد أن استتبت الأمور المالية لمحمد على باشا، وبعد أن عضد حكمه لمصر ووضع يده على مقاليد أمورها، وحصل على مكانة عالية لدى الباب العالي، فقد قضى ما تبقى من عمره فى تحديث مصر ورسم شخصية متمايزة لها عن الأقطار المغايرة. ويلاحظ هنا أن محمد على قد سبق الدولة العثمانية فى الفطون إلى أهمية التحديث والتنمية اقتضاء بالنمط الغربي، ولاسيما الفرنسي الذى تأثر به فى صباه وشبابه، فأصبحت مصر فى عهده واحدة من أكثر الأقطار تقدما فى المنطقة، وذاع صيت محمد على وابنه ابراهيم لدى الدول الأوروبية وفى شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام؛ لأنه كان شديد الذكاء من خلال استغلال أحوال مصر الداخلية لمصلحته؛ فالنفوذ الفرنسي عام 1798م كانت له تأثيرات كبيرة، فضلاً عن حالة الانقسام بين الأتراك والمماليك والمصريين أنفسهم، ولا ننسى دور الغزو البريطاني عام 1807م الذي كان من العوامل الذي أسهم بشكل أو بآخر في أن يعمل محمد علي على النهوض بالبلاد، وفي الفصل الثاني سنرى كيف استغل محمد كل هذه العوامل في بناء دولة مصر الحديثة ونهوض بها والمواقف الدولية منه؟ وهل حقق ما كان يطمح إليه أم لا؟

الفصل الثّاني

سياسة محمد علي باشا الدّاخلية في بناء دولة مصر الحديثة

أولا: دعائم حكم محمد علي باشا ونشأة الأهداف الطّموحة

ثانيًا: تأثير الجاليات الأجنبية على المجتمع المصري

ثالثًا: انجازات محمد علي باشا الداخلية في بناء دولة مصر الحديثة

يعتبر محمد علي باشا شخصية سياسة وعسكرية أدت دوراً كبيرا ليس في تاريخ مصر وحدها، بل في تاريخ العرب الحديث، فقد نجح محمد علي باشا في بناء دولة كان لها مؤسساتها السّياسية فيما بعد وخططها للمستقبل، وركز جل اهتمامه بالمؤسسة العسكرية حتى استطاع طوال عهده الذي يقترب من نصف قرن من خلق توازن استراتيجي بين مركزية الادارة العثمانية والاستقلال الذاتي – المصري بحيث حقق وفق منظور تكتيكي استقرار سياسي أتاح خلاله تنفيذ البرامج والخطط التّنموية في مجال الإقتصاد والإجتماع معتمدا بذلك أساساً ومحوراً على تطوير آلياته وعناصره العسكرية الّتي خدمته ليس في الدّفاع عن كيانه السّياسي، وإنّما في التّوسع المستقبلي على أطراف عديدة.

كما تعد معرفة تجربة محمد علي ضرورية لكل من أراد أن يؤرخ للعلاقات الإسلامية الغربية في العصر الحديث، لخصوبتها وثرائها من جهة، ولتداعياتها وتأثيراتها على الحياة الإسلامية المعاصرة من جهة أخرى، وقد اختلف المؤرخون والمفكرون والمثقفون في تقييم هذه التّجربة مثلها مثل سائر التّجارب الإنسانية والحضارية والسياسية في تاريخ الأفكار؛ فهل كان حقًا محمد علي يبحث عن رفاهية البلاد وشعبها؟ أم كان فقط يبني ملكًا له ولأسرته من بعده حتى لو على حساب شعب مصر؟ وكيف كان موقف الدّولة العثمانية وباقي الدول الأوروبية من ذلك؟

أولا: دعائم حكم محمد علي باشا ونشأت الأهداف الطموحة

بعد تسلم محمد علي السّلطة في مصر، وتخلصه من المناوئين والمعارضين، حاول جاهداً أن يعيد بناء مصر من الدّاخل لتكون لبنته الأساسية في تحقيق طموحاته في إقامة الدّولة القوية الموحدة، وكانت هناك عدّة ظروف دولية وإقليمية ساعدته في أن تكون ذات تأثيرات كبيرة لنهضة مصر؛ فالضّعف الذي كانت تعاني منه الدّولة العثمانية، وتناحر القوى الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، ولا سيما روسيا وفرنسا وبريطانيا هي الّتي أتاحت لمحمد علي السيطرة على مصر، فضلاً عن نقله كل وسائل التّطور والتّقدم إلى مصر، فأرسل البعثات للتّزود منها، كما أنه أرسى قواعد البنيان الصّناعي والزّراعي والتّجاري والثّقافي، كما اعتمد محمد علي في حكمه على خليط من الأجناس من أتراك وممالك وشراكسة وألبان وأكراد وأرمن ويهود وطائفة من الشوام والأقباط وغيرهم من الأجانب الأوروبيين، وقليلا من أولاد العرب – الأهالي الأصلين – جاعلاً من هذا الخليط " الصّفوة الفعالة " موالية له ولأسرته تستمد مكانتها من ارتباط مصالحها بحكومته لا من جذورها في المجتمع، وحرص على أن تبقى هذه الأجناس متميزة عن بعضها البعض لا غلبة لأحدها على الأخر إلا من خلال الحكم، ولم يهيئ لها من جانب أخر الاندماج بالشّعب، بعد قضائه على الزّعمات الشّعبية، **فما هي العناصر الذي حلت محلها؟**

شهد عهد محمد علي نزوح الأجانب بكثرة إلى مصر فلم يكن عدد الأجانب في مصر عام 1800م يتجاوز مئة نسمة، غير أن العدد ارتفع في عام 1833م إلى 4886 نسمة؛ لأن محمد علي ألغى ما كان متبعاً من إجراءات إزاء الأجانب[1].

[1]– عبد العظيم محمد رمضان، تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 97.

ويقسم كادالفين Cadaivéne في كتابه عن مصر أهالي هذه البلاد تبعاً لجنسياتهم بما فيهم السكان المحالين حسب الدول التالي[2]:

السكان	عددهم
الأتراك والممالك	19000
العرب المقيمون	1800000
أقباط	145000
برابرة	7000
عربان البدو	206000
يونانيون وسوريون	8000
أرمن	1500
يهود	3500
زنوج	18000
أوروبيون	5000
المجموع	2213000

نلاحظ من خلال الجدول أن مرحلة محمد علي باشا تميزت بالانفتاح على مختلف التيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي سادت القرن التاسع عشر، خاصة الأوروبية

[2]– نقلا عن محمد فؤاد شكري وأخرون، بناء دولة مصر محمد علي، المرجع السابق، ص 306.

منها وذلك بحكم الترابط الوثيق مع فرنسا، ومع بريطانيا ودول الأوروبية أخرى، فتدفقت أعداد المهاجرين الأجانب إلى مصر بكثرة، كما شهدت المدن المصرية أيضاً هجرة كثيفة من مشرق العرب ومغربها، وشملت شرائح مختلفة من التجار والمهندسين والعلماء والأطباء وأصحاب المهن الحرة والموظفين والمزارعين وغيرهم، وقدمت الحكومة المصرية ضمانات كبيرة للمهاجرين الأجانب وسمحت لهم بتملك، واستصلاح أراضي شاسعة، و ممارسة التجارة من خلال فتح محلات كبيرة، وتقلد مناصب عالية في سلك الدولة والتقرب من الاسرة الحاكمة، بحيث إن تلك الضمانات والامتيازات ستصبح عقبة كبيرة أمام تطور المجتمع المصري دفع ثمنها أبناء مصر أنذاك.

في حين نجد بعض الدراسات الحديثة مثل دراسة أكاديمية غير منشورة للدكتور حلمي محروس إسماعيل تحت عنوان الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر يشير إلى عدد المهاجرين الى مصر في قوله:" حوالي خمسة آلاف من السورين الشوام، وألفين من الأرمن وثلاثة آلاف من اليونانيين، وتسعة آلاف يهودي أما مجموع عدد السكان المقدر لمصر خلال هذه المرحلة فيبلغ 2893500 نسمة، ويتوزع مهاجرو الشوام البالغ عددهم خمسة آلاف على الشكل التالي: ثلاثة آلاف مسيحي في القاهرة، وما بين خمسمائة إلى ستمائة في دمياط، وما بين مئتين إلى ثلاثمائة في الاسكندرية وغيرها، وقد جاءوا إلى مصر بدوافع مختلفة ومن أعراق وطوائف مختلفة فبينهم المسيحي والدرزي والسني ومنهم أكراد وشركس وكلدان وأرمن وغيرهم"[3].

ونلاحظ من خلال مقارنة عدد الشوام وارمن واليونانيين بين الدراستين متقاربة لكن هناك اختلاف كبير في تقدير عدد اليهود المهاجرين الى مصر فقد اشار كادالفين Cadaivéne الى ان عددهم 3500 يهودي في حين قدرهم الدكتور حلمي محروس إسماعيل بـ 9000 يهودي، يمكن اختلاف في الاحصائيات يرجع إلى طبيعة العلاقة بين

[3]– حلمي محروس اسماعيل، دراسات في الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الأدب، قسم التاريخ، 1977، ص ص 6-5.

المسلمين واليهود العدائية فكان بعض اليهود يخفون هويتهم الحقيقة من اجل الحفاظ على ممتلكاتهم وصالحهم.

1- أفراد الأسرة والأتباع

يأتي أفراد الأسرة والأتباع على رأس هذه العناصر، ذكر جبرتي أن محمد علي بدأ بتوزيع القرى على أولاده عام 1808م عندما كتب **الروزنامجي**[4] إليه من صعوبة تحصيل ضريبة " كلفة الذخيرة" لكثرة ما أصاب البلاد من الخراب، فأمر بتوزيع البلاد العاجزة عن سداد الضريبة وعددها 120 قرية على أولاده وأتباعه وكتابة تقسيطها بأسمائهم، وفي نفس العام انتزع من ملتزمي البحيرة[5] حصص التزامهم لعجزهم عن الدفع ووزعها على رجاله، وعندما هرب بعض الفلاحين ومن وجه ضريبة استثنائية فرضت عام 1810م فتظلم الملتزمون طلب الباشا تقسيط التزامهم، وبعد فحصها حرم الكثرين من حصصهم وأعطى بعضهم تعويضا ولم يعطي الاخرين أي تعويض، وهكذا لم يأتي عام 1814م حتى كان جميع الالتزام ضبط لطرف الباشا، ورفع أيدي الملتزمين من التصرف بإلغاء الالتزام على هذا النحو تم له من ناحية القضاء على سلطة الملتزمين الذين كانوا يشاركون الحكومة سلطتها في الريف، وارضاء اعوانهم وضمان ولائهم من ناحية اخرى.

2- الأتراك:

تعتبر جالية الأتراك في قمة الهرم الاجتماعي، وهي الطبقة الحاكمة على رأسها الباشا[6]، فألفوا الطبقة الأرستقراطية في البلاد[7]، وهي الطبقة التي تلي أسرة محمد علي

---

[4]- الروزنامجي تنقسم إلى "**روزنامة**" وهي كلمة فارسية بمعنى الكتاب أو كتابة اليومية و"**جي**" للنسب إلى الديوان الروزنامة الذي يختص بجباية الضرائب والإنفاق على مهام البر.

[5]- من محافظات مصر وعاصمتها مدينة دمنهور، تقع في غرب الدلتا، ويحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط، وشرقا فرع رشيد، وغربا محافظتي الإسكندرية ومطروح، وجنوبا محافظة الجيزة. ينظر: يسرى الجوهري، الخرائط الجغرافية، ط1، مكتبة الاشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 1997، ص 176.

[6] – إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، 269.

[7] – محمد فؤاد شكري وأخرون، بناء دولة مصر محمد علي، المرجع السابق، ص 305.

وحاشيتها في تكوين فئة كبار الملاك المزارعين[8]، وكبار الموظفين العثمانيين، فقد تربع الأتراك في عهد محمد علي على قمة الجهاز الإداري، حتى أصبح لهم مقام ملحوظ ونفوذ عظيم فأصبحوا مصدر السلطة في جميع أنحاء البلاد[9]، وذلك من منطلق رغبة محمد علي في صبغ الإدارة بالصبغة التركية[10]، فبعد تصفية زعماء المماليك في القلعة 1811م، وفي الصعيد 1812م وزع محمد علي مائة ألف فدان على الممالك حتى لا يحرمهم من الإيراد، ثم بدأ يمنح أطيان الإيعاديات والمسير " الأطيان الخراجية "، رزقة بلا مال بشرط زرعتها أشجاراً، وعلق تقسيطها على هذا الشرط وتلاحقت إنعاماته وكانت تتراوح ما بين مائة فدان وثلاثة ألاف فدان للموظف الواحد، كما منح ضباط الجيش مساحات تتراوح ما بين مائة فدان، ووفقاً لرتبتهم العسكرية[11]، وهكذا تكونت فئة الأتراك طبقة أرستقراطية من كبار الموظفين، وسيطرت على الإدارة وعزلت نفسها تماماً عن المصريين[12]، وكان من أبرز العثمانية العالمين في خدمة الوالي محمد لاظ أوغلي نائبه، ومحمد الخازندار الذي كان رئيساً للخزينة، وباقي بك أمين الخزينة الخديوية وسامي بك وأحمد باشا المنكلي وعثمان بك وسليم بك وحبيب أفندي والقائمة طويلة[13]، وقد اضطر محمد علي إلى استخدام الأتراك كعاملين في الإدارة المالية بالرغم من عيوبهم في بداية حكمه، لكن الباشا قد وجه لهم في الكثير من المواقف إنذار بالفصل[14]، وتعامل معه بالقسوة، حتى أنه أمر مدير الفيوم بخصوص موظفي الأتراك الذين يعترضون على التعاون مع أبناء العرب بأن يستخدموا

---

[8]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 135.

[9]– محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 697.

[10] – حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989، ص 31.

[11]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 135.

[12]– حلمي أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 32.

[13] – عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص 126.

[14] –دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 38، محفظة 41، وثيقة 10، تاريخ: 25 ذي الحجة 1245هـ/ 17 ديسمبر 1245، ص 41.

تحت ضربات النبوت[15]، وأيضا نجد محمد علي وبخ الأتراك العاملين في مديرية الغربية على ترفعهم مع النظار العرب، إذ أنهم لا يخدمون المشايخ بل يخدمون المصلحة العامة[16].

ومن المؤكد أن الباشا لم ينسلخ تماما عن هويته التركية، فهو كان تركيا في الأساس وأصبح واليا على مصر في السن السابعة والثلاثيين وارتبط بمصر وتوحده مصالحه بمصالحها، لكن مشاعره لم تكن مصرية وبالحسابات كان يخشى من ثورة المصرين عليه، ومن ثم احاط نفسه دائما بالأتراك، ينعم عليهم بالوظائف العليا في الحكم والادارة لكي يربطهم به ويضمن اخلاصهم له، ثم أنه كان يريد تحديث الامبراطورية العثمانية، واستطاع تكوين حزب موالي له في الاستانة ذلك الحزب الذي كان يعتبر أن محمد علي هو الوحيد القادر على استعادة الهمة القديمة للإمبراطورية العثمانية، وهكذا تشكلت الملكيات الكبيرة لهؤلاء الموظفين، وتكونت منهم فئات ذوات مصر.

3- أهل الذمة (المورنة والأقباط واليهود):

أ- المـــــــورنة:

يرجع نزوح الأسرة " المارونية" إلى مصر إلى أيام الممالك، حتى أنه بلغ عددهم قبل حكم محمد علي 400 أسرة، غير التي لم تذكرها السجلات أو تآكلت أسمائهم فلم تمكن قراءتها، وعهد محمد الممالك إلى أبناء هذه الأسر بإدارة الجمارك ومالية البلاد[17]، وكان موارنة الشام وأقباط مصر العنصر الغالب في مناصب المالية والخارجية لحذقهم للغات الأجنبية، وكان أهم أولئك الذين تسلموا تجارة مصر الداخلية والخارجية، وخبراء في تربية دودة القز، ثم عملوا منذ تداعي نظام الاحتكار كوكلاء لبيوت تجارية أوروبية، وزاد نشاطهم، وتراكمت في أيديهم رؤوس الأموال، وشجعهم ما طرأ على حقوف الملكية الفردية من تطور،

[15] – دار الوثائق القومية، دفتر شورى المعاونة، دفتر 286، محفظة 22، تاريخ: 19 رجب 1258هـ/ 26 أوت 1842، ص 403.

[16] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 58، محفظة 63، وثيقة 91، تاريخ: 11 جمادى الثانية 1249هـ/ 26 أكتوبر 1233، ص 91.

[17]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 136.

ورواج المحاصيل نتيجة تطور الزراعة فاقتنوا الضياع الواسعة وأضفوا على أنفسهم مظاهر الثراء العريض وغالوا باتخاذ الألقاب، كما غالوا في مطامعهم وتطلعاتهم[18]، وكان أشهرهم من السوريين سليم بك شديد الذي ملك 33 ألف فدان، وحبيب باشا لطف الله الذي اتخذ سيرة الملوك والأمراء، ومن الأقباط الذين شغلوا الوظائف القنصلية لبعض الدول الأجنبية، واستفادوا من الامتيازات الأجنبية، ومن المؤسسات التي كانت تراعي مصالح الأجانب كالمحاكم المختلطة، كأندراوس بشارة الذي اشتغل مع الشرق الأقصى، وعمل قنصلا لإيطاليا وبلجيكا حتى أصبح يملك أكثر من عشرة آلاف فدان، كويصا بقطر الذي عمل قنصلا للولايات المتحدة ولهولندا بأسيوط[19]، وبلغ أطيانه نحوا من 28 ألف فدان فضلاً عن مصنع للسكر، ومعظم أسهم شركة سكك حديد الفيوم[20]، حتى أن تقرير القنصل الفرنسي البارون دي بو الكمنت في عام 1833م أشار إلى كفاءتهم في علم الحساب مما جعل محمد علي يختصهم بإدارة الشؤون المالية العامة كما كان ذلك شأنهم منذ زمن طويل[21].

لقد بدأت هذه الفئة ظهورها بربط مصيرها بالسلطة أياً كانت هذه السلطة؛ فرنسية كانت أم علوية – نسبة لأسرة محمد علي – أم انجليزية، وكان ارتباطها بمصالحها المادية في الحكم أو في خارج البلاد أقوى من ارتباطها التاريخي والعشائري في داخل البلاد اذا كان ثمة مثل هذه الارتباطات لبعضها، وعندما أصبح الانتماء إلى جنسية أجنبية في ظل الامتيازات، أجلب للربح، وأعرض طريقاً للنهب لم يتورع زعماء هذه الفئة، كما لم يتورع بعض الذوات عن التجنس بجنسيات أجنبية، فقد حصل سليم بك شديد على الجنسية الألمانية وسكاكينى باشا وحبيب باشا ولطف الله حصلوا على الجنسية الفرنسية، وتتمتع هذه الامتيازات من

---

[18]– حتى طمع أحدهم يدعى الأمير لطف الله بن حبيب باشا لطف الله بأن يكون ملكاً على سوريا، وحدثت بعض الأقباط الصعيد أنفسهم بالاستقلال.

[19]– **أسيوط:** هى من المدن القديمة من محافظات صعيد مصر تقع شمال سوهاج وجنوب المنيا. عاصمتها مدينة أسيوط، تتوسط محافظات الصعيد، واسمها مشتق من الكلمة الفرعونية "سيوت" أي الحارس، تقع بين مرتفعين جبليين ولذلك فمناخها قاري متطرف وهي تعد العاصمة التجارية للصعيد. ينظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945، القسم الثاني، ج4، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص 26.

[20] – ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 136.

[21] – رياض سوريال بشارة، المجتمع القطبي في مصر في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (د. ت)، ص 44.

اختارتهم دول الأجنبية قناصل لها بمختلف انحاء مصر كويصا بقطر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا بأسيوط، وحنا مخائيل قنصل روسيا واندراوس بشار قنصل ايطاليا وبلجيكا بالأقصر[22].

ب- الشّـــــــوام

شهدت بلاد الشّام في بداية القرن التّاسع عشر حركة هجرة متزايدة على نطاق واسع إلى مصر وبنسب متفاوتة، وبأشكال مختلفة ومتباينة، وعلى مدد متقطعة فمنهم من هاجر إليها طلباً للحرية كالأدباء والشّعراء، ومنهم من هاجر إليها بدافع الظّروف والأزمات التي طرأت على الأوضاع السّياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشّام خلال العهد العثماني، وقبل الخوض والتّدقيق في الدّوافع التي أدت إلى هجرة الشّوام إلى مصر لا بد من التّطرق لبعض المفاهيم التي ارتكزت عليها في هذه الدراسة، وهي ماذا نقصد بالشوام؟ وما الفرق بين سورية والشّام؟

يصعب الاتفاق في تعريف واحد لمصطلح الشّام ومصطلح سورية، فثمة استخدامات شتى لهما تحمل مضامين جغرافية وإدارية تختلف باختلاف المراحل التّاريخية حيث يخضع التعريف لإشكالات عديدة منها التّقسيم الاداري المعتمد من قبل السّلطة المركزية، وكذلك مجموعة المصالح التي تحرك قوى بشرية معينة، وتدفعها إلى صياغة تحديد جغرافي يتلاءم مع اتساع هذه المصالح[23]، فنجد تعبير سورية[24] تحديداً استخدم للدلالة على أكثر من معنى

[22] – سعيد إسماعيل السيد، الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوي، رسالة دكتوراه، جامعة عين الشمس، 1969، ص 37.

[23]– كوثراني وجيه، بلاد الشّام– السّكان الاقتصاد والسّياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، ط1، معهد الانماء العربي، بيروت، 1978، ص 9.

[24]– إلى جانب "سورية الطّبيعية" يوجد مصطلح 'سورية الكبرى"، وكذلك اختلفت حدود سورية التي كانت احدى الولايات العثمانية عن حدود سورية التي أخضعت للانتداب الفرنسي، وكذلك حدود سورية الحالية. ينظر: وجيه الكوثراني، المرجع نفسه، ص ص 17– 18

في فترات تاريخية متفاوتة، فان استخدام مصطلح بلاد الشام الذي يبقى أكثر وضوحاً للدلالة على المنطقة الجغرافية[25].

ومنه نستنتج أن مصطلح الشّوام ودلالته قد استخدم اللفظ تاريخيا للإشارة إلى سكان بلاد الشام، ويستخدم ضمن هذا السياق كتعبير اصطلاحي للإشارة إلى من هاجر من هذه المنطقة حيث عرفوا بهذه التسمية أيضاً لدى المصريين الذين كانوا يطلقون أسماء عديدة لتحديد الوافدين[26] إلى أرضهم، ومن هنا فإن المقصود بـ" المهاجرين الشوام" كل من هاجر إلى مصر من المناطق التابعة للولايات العثمانية في بلاد الشام والتي تشمل حاليا سوريا وفلسطين ولبنان والأردن[27].

وفي تحديد الاطار الجغرافي لبلاد الشّام محمد كرد علي في كتابه خطط الشّام يصفه لنا في قوله: " ...حدّ الشام ينتهي بسفوح جبال طوروس ... إلى ما وراء خليج الإسكندرية لجهة الروم... وما كان من جهة الشّام على ضفة الفرات فهو الشّام، وما كان على الضّفة الأخرى من الشّرق فهو عراق كما أيلة[28] هي أخر الحجاز وأول الشّام والعريش أو رفح هي حد الشّام الجنوبي الغربي... "[29].

لم يكن من السهل تتبع أعداد المهاجرين الشّوام إلى مصر في القرن التّاسع عشر خاصة في النّصف الأول منه بسبب صعوبة الاحصائيات وعدم دقتها، لكن نجد بعض الدراسات العلمية التي استندنا إليها تقدم صورة واضحة حول تطور الاقتصاد المصري،

---

[25]– ماهر محمد سعيد درويش، هجرة الشّوام إلى مصر خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين، مذكرة ماجستير، جامعة النجّاح الوطنية، كلية التربية، فلسطين، 2003، ص 9.

[26]– إلى جانب الشّوام كان في مصر مهاجرين من بلاد المغرب العربي أطلقوا عليهم اسم "المغاربة"، وكذلك الأوروبيون سموهم " الأجانب"، وبقايا الأتراك والشّراكسة وهم الممالك، والأوروبيون من شرق أوروبا اصطلحوا على تسميتهم بـ"يونانيين".

[27]– ماهر محمد سعيد درويش، المرجع السابق، ص 10.

[28]– **أيلة:** مدينة قديمة على البحر الأحمر، وهي على مقربة من العقبة حاليا.

[29]– محمد كردي علي، خطط الشام، ط2، دار الملايين، بيروت، 1890، ص 8.

وموقع الأجانب في مختلف القطاعات الانتاج فيه، ولابد الاشارة إلى أن هذه الاحصائيات التّقريبية كافية لدراسة الاتجاهات العامة لمصادر الهجرة إلى مصر خلال هذه المرحلة[30].

كما لا يمكن حصر أسباب ودوافع هجرة الشوام إلى مصر بعامل واحد ولا مصادرها الجغرافية والمناطق الّتي يتجه إليها المهاجرون، فهناك الكثير من الأسباب الّتي تبرز الاتجاهات الأساسية لهجرة الشّوام إلى مصر والتّنوع الكبير في مناطق الانطلاق ومناطق الجذب والاستقرار ، فالتّاريخ السّوري – اللبناني – الفلسطيني يؤكد ارتباطه الوثيق بالسّاحل المصري منذ القدم، وهناك دراسات تاريخية كثيرة تناولت ذلك الترابط منذ عهود الفراعنة دون انقطاع حتى الزمن الحاضر[31].

وإلى العامل الجغرافي تضاف عوامل أخرى لا تقل أهمية عنها كسهولة الانتقال البري والبحري بين المنطقتين، واللغة المشتركة والتّراث الروحي الموحد، والنّظرة الاستراتيجية للأمن المشترك للمنطقتين وغيرها[32]، وهناك من هاجر إليها طلباً للحرية كالأدباء والشعراء، ومنهم من هاجر إليها بدافع الظروف والأزمات التي طرأت على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام خلال العهد العثماني. ويذكر **سليمان البستاني**[33] في هذا

---

[30]– مسعود ضاهر، هجرة الشوام – الهجرة اللبنانية إلى مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2009، ص 139.

[31] – المرجع نفسه، ص 111

[32]– المرجع نفسه، ص 111.

[33] – سليمان البستاني (1856م– 1925م): الأديب والسياسي اللبناني، صاحب ترجمة «الإلياذة»؛ الملحمة اليونانية للشاعر الإغريقي "هوميروس" وُلد سليمان خطار البستاني عام 1856م بقرية «بكشتين» من ربوع لبنان، تلقى تعليمه الأولي على يد مُعلمه «عبدالله البستاني»، ثم ارتاد المدرسة الوطنية ببيروت عام 1836م، فدرس بها عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية، كما أتقن العربية. وخلال مراحل تعليمه المختلفة استطاع أن يتقن عدة لغات ويُلمَّ بأخرى، فقد أتقن التركية والفارسية والإسبانية، ودرس الألمانية والروسية والعبرية، كما أتم حفظ ألفية ابن مالك في النحو. كما انتخب البستاني عضوًا في مجلس المبعوثان عقب إعلان الدستور العثماني، وانتخب بعد ذلك رئيسًا له عام 1910م، وضمه السلطان «محمد رشاد» عضوًا بمجلس الأعيان، كما تولى وزارة التجارة ووزارة الزراعة، وأنشأ البنك الزراعي، ومدرسة الغابات، كذلك أسس النقابات الزراعية والصناعية في تركيا، ووقف ضد الهجمة الصهيونية على أراضي «بيسان». اهتم بالسفر والترحال فسافر لليمن ونجد والعراق ونيويورك ومصر، مرض في آخر أيامه فذهب للولايات المتحدة للعلاج، فوافته المنية في نيويورك في الأول من يونيو عام1925م، ودُفِن في مسقط راسه. ينظر: لطيفة حميد الجميلي، موسوعة أعلام العرب في القرنين التّاسع عشر والعشرين، ط1، بيت الحكمة، بغداد، 2000، ج1، ص 218.

السّياق:"... إن المهاجرة من بلاد الشّام فئتان: فئة فرت من البطش، والاغتيال، وفئة جلت في طلب الرزق، ومرجع هجرة كلا الفريقين إلى الاستبداد والاضطهاد العثماني"[34]

فكان أكثر المهاجرين الشّوام إلى مصر من طائفة الروم الكاثوليك، إذ أتوا إليها للتّجارة من فلسطين وسوريا، وازدادت أعدادهم بعد الانقسام الذي دبَّ في الكنيسة في دمشق عام 1724م حيث ادعى كل من كيرلس وسلفستروس تبوء سدة البطريكية، ومارس هذا الأخير الاضطهاد على انصار خصمه بفضل تأييد الباب العالي له وبإيعاز من البطريكية الأروام في القسطنطنية[35].

وكان معظم المهاجرين من أصحاب التّجارة الواسعة وأهل الصّناعات العالية، وكتاباً في الدواوين، وتوطن أكثرهم في أول الأمر مدينة دمياط، وبعدما تمكنوا هناك أخذوا يباشرون أعمالهم بشيء من الرحة والنجاح ....

عرف المهاجرون الشّوام نجاحاً باهراً في الميدان التّجاري في مختلف المدن المصرية، وعملوا في قنصليات والإدارة وغيرها؛ ذلك المنحى الذي اتخذته هجرة الشّوام إلى دمياط في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التّاسع عشر[36] سيصبح القاعدة الأساسية التي بنيت عليها ركائز النجاح الذي حظى به المهاجرون السوريون واللبنانيون في وادي النيل فلم تبق الشّهرة محصورة في مدينة واحدة ولم تستقر هناك لفترة طويلة، إذ تنقل المهاجرون داخل مصر، ومنها إلى الخارج عندما تضررت مصالحهم التّجارية، وانعدمت أفاق الربح السريع أمامهم

---

[34] – سليمان البستاني، الدولة العثمانية قبل الدستور، حق: خالد زياد، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص 167.

[35]– ماهر محمد سعيد درويش، المرجع السابق، ص ص 10– 11.

[36]– وينسب المؤرخون بأنه كان للموجة الأولى من هجرة الشوام الى مصر ثلاثة أطراف ودوافع ، الأول دور محمد علي باشا ، والثاني دور الأمير بشير الشهابي، وهو زعيم لبناني اعلن العصيان على السلطة المركزية العثمانية، واسس دويلة انفصالية، كان مضطراً للتعاون مع محمد علي باشا. أما الدور الثالث الذي كان له تأثيراً كبيراً على هجرة الشوام إلى مصر ، فهي مدينة دمياط فقد استقبلت هذه المدينة غالبية المهاجرين الشاميين كونها واقعة على رأس إحدى فروع النيل الذي يصب في البحر المتوسط ، اعتبرت هذه المدينة ثغراً مائياً هاماً قبل افتتاح قناة السويس. لقد توطدت العلاقات بين محمد علي باشا والأمير بشير الشهابي، كان من نتائج هذه الصداقة فتح ابواب مصر، أمام المهاجرين من الشام، والسبب أن محمد علي باشا كان يعرف قدراتهم، وقد قدم لهم المجتمع المصري فرصة الاندماج وجمع ما أمكن من الثروات الطائلة وممارسة التجارة ومختلف أنواع الأعمال

بعد التدابير الجذرية التي اتخذها النظام المصري لحماية مصالح شعبه من الأخطبوط الأجنبي الذي كان التّجار الشوام أحد أذرعه الكبيرة لامتصاص الثروة المصرية[37].

شجع محمد علي باشا هجرة الشّوام إلى مصر للاستفادة من قدراتهم، خاصة اتقانهم للغات الأجنبية، مثلاً كان أساتذة مدرسة الطّب التي أنشأت عام 1827م من الفرنسيين والايطاليين، وقد أدى هذا الى الصّعوبة في العمل، لأن كل فريق كان يجهل لغة الآخر، لهذا السّبب لجأ محمد علي باشا إلى الشّوام ليكونوا همزة وصل بين الفريقين، وللعمل معهم أيضاً في مهنة الطب إلى جانب الاستعانة بهم باللغات الأجنبية، ثم الاعتماد عليهم في مجالات أخرى، مثل أعمال الجمارك والترجمة وزراعة التوت، وصناعة الحرير والتجارة [38].

لكن الفرق بين المهاجرين المصريين والمغاربة الذين هاجروا الى بلاد الشّام، بأن المستوى والوعي الاجتماعي لدى الشّوام أفضل بكثير من المستوى ذاته لدى المغاربة والمصريين، كما أكد المؤرخون بأن غالبية المواطنون القادمون من بلاد الشّام، يتميزون بالنّشاط والذّكاء، ويعتمدون على الخدمات والنّشاطات المصرفية ويشير المؤرخون بأن الشّوام لعبوا دوراً مزدوجاً، فقد كان الأجانب بحاجة إليهم كصلة وصل مع المجتمع المصري، فقد كان هناك دوراً موكولاً إليهم في المشاريع التي وضعتها الحكومات المتعاقبة .

ج- الأقبـــاط

كان الأقباط قبل ارتقاء محمد علي الأريكة المصرية عرضة لكثير من المتاعب والقيود، مثال ذلك أنهم كانوا ملزمين بتمييز أنفسهم عن بقية السّكان المسلمين بلون ثيابهم، وكان محظورًا عليهم ركوب الخيل، وكانوا ممنوعين بتاتًا في أثناء شهر رمضان أن يأكلوا أو

[37]- مسعود ضاهر، هجرة الشوام (الهجرة اللبنانية إلى مصر)، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2007، ص ص 128-129.

[38]- المرجع نفسه، ص 130.

يشربوا أو يدخنوا في النهار علنًا في الطرق العامة؛ وذلك لكي لا يذكروا المؤمنين بهذا الصّوم الإجباري[39]

كما احتفظ محمد علي بالأقباط[40] الذين يمثلون النّموذج الأقرب إلى القدماء المصريين في ملامحهم وصفاتهم الجسمية منتشرين في جميع أنحاء البلاد مع تفاوت في الكثافة السّكانية بين منطقة وأخرى، وبين محافظة وأخرى، فتزداد في الصّعيد عما هي في الدّلتا، ويوجد الأقباط بكثافة ملحوظة في مصر الجديدة والمصر القديمة وشبرا والأزبكية، يتبع الأقباط ثلاث معتقدات رئيسية تمثلها الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية على أن سوادها الأعظم يتبع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي تعرف باسم كنسية الاسكندرية والكنيسة المصرية وهي أقدم كنيسة في مصر[41]، وهم العاملين في إدارات ومصالح الدولة في الأعمال الكتابية والحسابية التي يباشرونها من قبل[42]، وأكد إدوارد وليم لين Edward William Lane [43] عندما ذهب إلى أن الباشا استخدم كثير من الأقباط من كَاتبين

---

[39]– هنري دودويل، المرجع السابق، ص 230.

[40] – وللاطلاع أكثر عن أقباط مصر من وجهة نظر المسيحين وكيف يسردون تفاصيل حياتهم في مصر ينظر: ايريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، ط1 ، مكتبة المحبة (مكتبة مسيحية)، القاهرة، 1969، ج1 2 3 4 5

ينظر أيضا: موسى موسى نصر، صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية، (د. ط) الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، (د. ن)، ص ص 95– 111.

[41] – سامي صالح محمد صياد الدوري ودلال عبد الحسن جولان السعداوي، الأوضاع الاجتماعية في مصر في عهد الخديو عباس حلمي الثاني 1892م – 1914، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 21، ع 1، جانفي 2014، ص ص 222– 223.

[42] – محمد عفيفي عبد الخالق، الأقباط في مصر في العصر العثماني، (د.ط)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992، ص ص 113– 118.

[43]– **إدورد لين:** هو مستشرق إنجليزي، ابن الدكتور ثيوفيلوس لين، كاهن هيرفورد، وولد في 17 سبتمبر 1801م، وتعلم في باث ومدارس هيرفورد الثانوية، حيث أظهر موهبة في الرياضيات، وعزم على الانطلاق نحو جامعة كامبريدج والكنيسة، لكنه هجر هذا المسعى، ودرس فن النقش لفترة من الوقت، ولكن تدهور صحته أرغمه على ترك فن النقش جانبا، وفي عام 1825 انطلق إلى مصر حيث أمضى ثلاث سنوات، وجاب مجرى النيل مرتين، واستمر حتى الشلال الثاني، ونظم وصفا كاملا لمصر، مع حقيبة من أكثر مائة رسم، لم ينشر هذا العمل، لكن سجلات المصريين الحديثين التي شكلت جزءا من هذا العمل، نشرت كمنشور منفصل في جمعية نشر المعرفة المفيدة، ولإكمال هذا العمل قام لاين بزيارة ثانية لمصر بين عامي في 1833–1835، واستقر بشكل رئيسي في القاهرة، لكنه ذهب إلى الأقصر خلال طاعون العام 1835م، استقر لين في حي المسلمين، وعاش كعالم مصري تحت اسم منصور أفندي، وكان محظوظا في=

ومحاسبين، حتى أنه في كل قرية متوسطة الحجم كتن يوجد بها معلم قطبي[44]، وهناك أسماء عديدة لعبت دوراً هاماً في الإدارة المالية منها حنا الطويل مباشر الجهادية[45]، والمعلم واصف مباشر التجارة[46]، والمعلم طوبيا مفتش الحسابات بالإسكندرية[47]، ويوسف حنا باشا كاتب ديوان التفتيش[48] وتادرس أفندي رئيس قلم الموازين بديوان المالية، والمعلم دوس مأمور ترتيب حسابات الخزينة[49] والأمثلة كثيرة لا يسعنا ذكرها كلها.

فقد كان الأقباط حريصون على التّعقيد والرّمزية في الكتابة لأنهم كانوا يسعون إلى عدم التّخلي عنهم وعن خدماتهم، كما أنّ التّعقيد هذا يستر أخطائهم بحيث يتعذر إظهارها، ومع ذلك فقد كان لهم دور ملموس في الإدارة المالية، ومن أصحاب هذه الأدوار المعلم غالي وأولاده باسيليوس وطوبيا ودوس والمعلم غبريال وحنا بحري ومخائيل توما وغيرهم[50].

لم يرفض محمد على طلباً قدم إليه لبناء أو إصلاح الكنائس ومما يذكر أن هناك مخطوطات فى قصر عابدين تحوى عدداً من الأوامر الخاصة بالكنائس، بل عاملهم عكس جميع الحكام المسلمين حيث ألغى محمد على إجبار الأقباط على ارتداء أزياء معينة التي

= اختياره للوقت الذي كتب فيه عمله، إذ لم تكن القاهرة قد أصبحت مدينة حديثة بعد، وبهذا كان قادرا على وصف سمات الحياة العربية التي لم تعد موجودة هناك. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقيين، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1986، ج2، ص 176.

[44] – إدوارد وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، تر: عدلي طاهر نور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998، ج1، ص 286.

[45] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، ملخصات دفاتر ، دفتر 29، محفظة 34، وثيقة 6، تاريخ شعبان 1242هـ/ 8مارس 1827م، ص 200.

[46] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، ملخصات دفاتر ، دفتر 41، محفظة 44، وثيقة 387، تاريخ 7 رجب 1247هـ/ 12 ديسمبر 1831م، ص 119.

[47] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، ملخصات دفاتر ، دفتر 64، محفظة 71، وثيقة 6، دون تاريخ، ص 91.

[48] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، دفتر 70، محفظة 79، وثيقة 595، تاريخ 4 ربيع الآخر 1252هـ/ 19 جويلية 1836م، ص 133.

[49] – دار الوثائق القومية، معية سنية تركي، دفتر 63، محفظة 57، وثيقة 335، تاريخ 11 رجب 1249/ 24 نوفمبر 1833م، ص 100.

[50] – محمد مبروك محمد، الإدارة المالية في عهد محمد علي 1805 – 1848، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2009، ص ص 56– 57.

كانت مفروضة على الأقباط من قبل السّلطنة العثمانية التي كانت ملتزمة بالشريعة الإسلامية والوثيقة العمرية، وخلع الأقباط الزى الزرق والأسود الذى كان مفروضاً عليهم بعد أن كانوا ممنوعين من ذلك وأصبحوا يلبسوا الكشمير الملون، وخلعوا الجلاجل الحديدية التي تسببت فى إزرِقاق عظام، وأصبح "العضمة الزرقاء" لقباً ككناية عن الإضطهادات الإسلامية لهم ، كما سمح محمد علي لهم بركوب البغال والخيول، ولا شك أن هذا كان ممتعاً لهم بأن يتمتعوا بالحرية، وأن يركبوا ما شاءوا من البغال، كان محمد على أول حاكم مسلم يمنح موظفي الدولة من الأقباط رتبة الباكوية عرفانا بخدماتهم لمصر كما أتخذ له مستشارين من الأقباط، يعني أن محمد علي باشا عامل الأقباط عكس ما كانت الخلافة الاسلامية تعاملهم تماماً بل وأدهي أنه قدم لهم تسهيلات واملاك لم يكونوا ليحلموا بها من قبل، ويعتبر الباشا أول حاكم مسلم عدل القوانين التي سُنت منذ أجيال لتحديد حالة الذّميين الاجتماعية في العالم الإسلامي[51]، لكن سؤال الذي يطرح نفسه لماذا قام محمد علي بهذا التغير؟ وما هي أهدافه من ذلك؟

تعد العلاقة بين الدولة وأي جماعة دينية إحدى معضلات العلاقة بين الدين والسياسة في أي مجتمع، لأن لجوء الدّولة إلى استخدام الدّين لتحقيق أهدافها السياسية يدفعها حتما إلى التّصادم مع الجماعات التي تدين بهذا الدين، ويزيد الآمر تعقيدا إن كان الدّين يحتل موقعا في المجتمع لا يمكن الاستهانة به أو التّقليل من شأنه، وقد فهم محمد علي باشا هذا الأمر فأراد أن يتخلص من كل المشاكل السّياسية التي تعيقه.

د- اليـهـــــود

كانت أعداد كبيرة من يهود مصر عملت منذ النّصف الثاني من القرن الخامس عشر في مجال التّجارة والالتزام، ومن ثم فلا غرابة في أن غالبية يهود مصر اقامت بالقرب من المراكز التّجارية المهمة وخاصة في المدن السّاحلية وفي المدن المطلة على النّيل، وقد كتب الحاخام ابن زمارة بخصوص هذا الشّأن وفي إطار حديثه عن مدينة دمياط المطلة على

[51] – إدوارد وليم لين، المرجع السابق، ص 287– 288.

ساحل البحر الأبيض المتوسط: " تقطن أعداد كبيرة من اليهود في دمياط نظراً لوقوعها على ساحل البحر، أما المدن التي لا تطل على البحر فإن اليهود لا يقطنون بها "، ويتضح من كافة المصادر المتعلقة بمراكز التّجمعات السّكنية في مصر أن أعداد كبيرة من يهود مصر أقامت في كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد، ومه هذا فقد كانت لليهود طوائف أخرى في مدن أخرى في الدّلتا[52].

فقد ركز اليهود اقامتهم في مدن مصر الهامة مثل القاهرة والاسكندرية، وقد قدم سونيني وصفا عاماً عنهم في قوله:" إنهم يتحدثون بصوت منخفض على عكس المسلمين، فاليهود يهمسون وعلل ذلك خوفهم من سكان البلاد ولذلك تجد اليهودي يسير منحني الرأس وبخطوات سريعة وهو بخلاء وغشاشون"[53].

لعب اليهود دوراً في الإدارة المالية في العصر العثماني حتى أنهم شغلوا وظائف صيارفة وكتابة الديّوان العالي[54]، وسيطروا على دواوين الجمارك، وظل هذا الوضع حتى النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر[55]، حيث تراجع دورهم مع سيطرة الأقباط على الشّؤون المالية؛ ولهذا لم يكن التّواجد اليهودي في الإدارة المالية في عصر محمد علي باشا على درجة من الأهمية مقارنة بالأقباط، حيث اشتغلوا صرافين وموردين للضّربخانة، ولم يجد محمد علي بأساً من استخدامهم كصرافين ما داموا وطنين في جميع الدواوين والمصالح، ومن أهم الأسماء اليهودية التي عملت في الإدارة المالية نجد أرسلان اليهودي صراف الخزينة الخديوية ويعقوب الأشقر وعويس الصغير، والمعلم ياسف اليهودي صراف خزينة

---

[52] – يعقوب لاندوا، تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1815– 1914، تر: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، تق، محمد خليفة حسن، (د. ط)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص ص 31– 32.

[53]– نقلا عن إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق، ص 282.

[54]– محسن علي شومان، اليهود في مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000،ج2، ص 356.

[55]– يعقوب لاندوا، المصدر السابق، ص ص 135– 136.

الجناب العالي، والمعلم هارون الصراف العمومي بدمياط، والمعلم مجبات صراف خزينة قسم في بلاد الشّام[56].

وقد عرف عن اليهود العاملين بالإدارة المالية في عصر محمد علي عدم الأمانة وخداع الحكومة باستخدام اللّغة العبرية، بالإضافة إلى ذلك عدم قدرتهم على عملية الخصم والاضافة ورغبتهم في تحقيق الكسب المالي، وفي مجال الالتزام كان هناك تواجد يهودي فقد أسند للمعلم شالوم التزام ساحة الاسكندرية لمدة ثلاث سنوات في مقابل يدفع 1355 كيساً، كما اسندت وظيفة مورد الضّربخانة إلى عهدة المعلم يوسف طحان، فكان محمد علي دائما ينظر لليهود بعين الشك في مسالكهم، وفي ادارتهم المالية[57].

وفي خلاصة هذا المبحث نستنتج أن المصريين أنذاك لم يكونوا مشمولين بنظام الامتيازات والحماية الأوروبية، لهذا بدأت تنحصر الأعمال التجارية بأيدي النصارى واليهود، وقد نجم عنها انشقاق عامودي في المجتمع المصري بين غالبية عددية من طائفة معينة، وقوة اقتصادية تتمثل في طوائف أخرى، تختلف أنماط العيش ودرجات الرقي بشكل كبير بينهما، ومرتبطة بمصالحها المستقبلية بمدى تصور المشاريع الغربية في المنطقة.

4- الأجانب (المسلمون):

شهد عهد محمد علي نزوح الأجانب بكثرة إلى مصر فلم يكن عدد الأجانب في مصر عام 1800م يتجاوز مئة نسمة ، غير أن العدد ارتفع في عام 1833م إلى 4886 نسمة لأن محمد علي ألغى ما كان متبعاً من إجراءات إزاء الأجانب[58] الأرمن واليونانيون والأوروبيون.

---

[56]- محمد مبروك محمد، المرجع السابق، ص 57.

[57]- المرجع نفسه، ص 58.

[58]- عبد العظيم محمد رمضان، تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 97.

أ- الأرمـــــن

عرفت كل من بلاد أرمينيا ومصر عبر التّاريخ حكم دولة واحدة كبرى مثل الدولة الفارسية، والإمبراطورية الرومانية، وحكم الدولة الإسلامية، والدّولة العثمانية مما سهل حركة الانتقال بين الدولتين، و لما كانت بيئة أرمينيا بيئة قاسية، ومضطربة دوما سياسيا، جعل الأرمن يهجرون موطنهم باستمرار إلى منطقة الشرق الأدنى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة إذ تعد هذه المنطقة تقليدياً منطقة جذب بشري على مدار تاريخها[59]، كما أن هجرة واستقرار الأرمن في بلاد مصر كان منذ الفتح الإسلامي[60] وحققوا مستوى معيشي معتبر وكان أغلب الأرمن يتقنون الزراعة والتجارة والصياغة وصناعة الساعات والحياكة وأثروا في الحياة الاقتصادية لكن برز اثرهم بقوة في الجانب العسكري والسّياسي خاصة إبان الحكم الفاطمي اذ يعد عصرا ذهبيا لأرمن في مصر، حيث ارتقوا الى أعلى المناصب واستأثروا بها وتمتعوا بكل الحريات وكان بيدهم الحل والعقد[61]..

شهدت هجرة الأرمن إلى مصر نوع من التّراجع منذ نهاية القرن الرّابع عشر ميلادي إلى أن حلّ القرن التّاسع عشر ميلادي بالخصوص فى عهد محمد؛ إذ عرف عهده وفودا واسع النّطاق للأرمن إلى مصر حيث استعان بهم الباشا فى وظائف حكومية لبراعتهم فى الشّؤون السّياسية والتّنظيمية، كما تمكن الأرمن من اعتلاء مناصب حساسة فى حكومة محمد علي باشا ليس فقط فيما يخص الاهتمامات الداخلية بل أيضاً فى العلاقات الدولي[62]،

---

[59]- فاطمة بوعمامة، "نفوذ الأرمن في مصر من الفتح الإسلامي حتى القرن الثالث عشر هجري"، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، المجلد 5، ع 09، الجزائر، 2015، ص 147- محمد رفعت الإمام، الأرمن فى مصر القرن التاسع عشر، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1995، ص 45.

[60]- و يذهب بعض المؤرخين الى أن هجرة الارمن الى مصر تعود الى عصر الأسرات المصرية القديمة، ثم تزايد الى حد ما خلال الحكم البيزنطي (527م- 640م) ولمعرفة التفاصيل أكثر **ينظر**:

- J.Laurent ,L'Arménie entre Byzance et l'Islam, Paris, 1919, pp 1-2.

[61]- فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص 147.

[62] - المرجع نفسه، ص ص 153 154.

إذ يقول اللّورد كرومر[63]:" ... تقلد الأرمن منذ حكم محمد على وبصفة دائمة مناصب عالية بحكومة مصر". ويزيد على ذلك بخصوص الأوروبين بصفة عامة حين قال:" لقد استفادت مصر فائدة كبيرة من وجود الأوروبين، لم يقدم الأوروبين مجرد خدمات مباشرة عن طريق المعرفة التي أوصلوها للمصريين، ولكن ملابسات ارتباطهم الوثيق بكل التحسينات التي أُدخِلت أَضْفت اِحتراماً كبيراً على مكتسباتهم الكبيرة، والتّسامح الكبير مع أرائهم الّتي انتشر تأثيرها على نطاق واسع بين النّاس..."[64]

وكان لثقة محمد علي في الأرمن وإدراكه لمهارتهم في الأعمال المصرفية أثره الواضح في تغلغلهم بالإدارة المالية، حتى أنهم استأثروا بوظيفة كبير صَيَارفة[65] الخزينة الخديوية، ومن أشهر من تقلد هذه الوظيفة يغيازاد في 1825م، ثم يعقوب الأرمني بين عامي 1826م– 1830م، وبعد وفاته تولاها ابنه يوسف الذي عزل في عام 1832م، وحل محله كاسبار الأرمني، وقد كان للصراف باشا امتيازات متعددة تخوله سلطة اختيار الصيارفة ومراقبتهم ومراجعة حساباتهم الواردة للخزينة الخديوية، وقد كان من الطبيعي أن يقوم الصّراف باشا وهو الأرمني باختيار عدد كبير من بني جلدته لوظيفة الصيارفة، ولهذا تتردد كثيراً أسماء أرمنية في وظيفة الصراف خلال النصف الأول من القرن التّاسع عشر مثل استيفان الأرمني عام 1819م، والخواجة خوفانيس صراف الفيوم 1826م، والخواجة بادروس صراف القصير، والخواجة أرتين صراف دمنهور، 1828م، ونظراً لكثرة مخالفات الأرمن المالية، فقد أصدر محمد علي في 25 جوان 1829م قرارا بطرد جميع الصيارفة الأرمن المستخدمين بالأقاليم والمديريات وسائر الدّواوين، واستخدم صرافين اليهود ومسلمين

---

[63] – لورد كرومر إقلين بارنج إيرل كرومر الأول Evelyn Baring 1st Earl of Cromer (26 فيفري 1841– 29 جانفي 1917) كان رجل دولة ودبلوماسي وإداري مستعمرات بريطاني. كان من كبار دعاة التغّريب والاستعماريين في العالم الإسلامي وواحد من الذين وضعوا مخطط السّياسة التي جرى عليها الاستعمار ولا يزال، في محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامي والأمة العربية. **ينظر**: لورد كرومر، المصدر السابق، ص 19– 25.

[64] – نفس المصدر، ص 74.

[65]– **الصّراف:** وهو الشخص المكلف من قبل وكيل الملتزم بجباية الضرائب من القرى والأرياف **ينظر**: جمال كمال محمود محمد, نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، القاهرة، 2000، ص72.

بدلاً منهم، بواسطة شيخ الصرافين، وتطبيقاً لذلك تم طرد الصّراف الأرمني المعين في سنار، وتعين آخر من أهل البلد بنفس مرتب الصّراف الأرمني[66].

كذلك كان للأرمن دور في الإدارة المالية وأشهرهم باغوص بك[67] السّاعد الأيمن لمحمد علي ومدير التّجارة المصرية والأمور الإفرنجية، كما كان لطلبة الأرمن نصيب في بعثات محمد علي إلى فرنسا فعلى سبيل المثال سافر الخواجة خسرو سنة 1825م لدراسة القوانين الإدارية، وقد منحه محمد علي رتبة أميرالي[68]، فأدار البلاد سنوات عديدة لم يعرف له اعداء ولا حساد، كما عين مسؤولا للديوان التّجاري عام 1819 إلى جانب[69].

أما على الصّعيد التّربوي فيلاحظ أن أولى مدراء معهد المتعدد التّقنيات ومدرسة الفنون والتّمهين الّتي أسسهما محمد علي كانوا من أصل أرميني كما شهد عصر محمد علي بناء كنيستين للأرمن واحدة للأرمن الأرثوذكس والاخرى للأرمن الكاثوليك إدارة أعمال تجارية أخرى لمحمد علي، ورغم ذلك توفي فقيراً [70].

هذا وقد تزايد عدد الأرمن اللاجئين الى مصر خاصة بعد المذابح العرقية التي تعرض لها الأرمن من قبل الأتراك العثمانيين فزادت أعدادهم في مصر وتركز أغلبهم بالقاهرة والإسكندرية، وتمكن الأرمن من التّوافق مع حياتهم الجديدة في مصر[71].

---

[66]– محمد مبروك، المرجع السابق، ص ص 62– 63.

[67] – ولد يوسفيان في إزمير عام 1768م، وتعلّم في منزل خاله أركيل الذي كان يعمل مترجمًا في القنصلية البريطانية في أزمير على يد معلمين خصوصيين، حيث تعلّم الكثير من اللغات، ووصل إلى مصر عام 1791م حيث عمل بالتجارة واستأجر جمرك رشيد، ليترك مصر ويعود إلى أزمير عام 1798م، لكي يعمل مترجمًا بالقنصلية البريطانية بها، فأقام في مدينة رشيد بعد وفاة والده، ولكنه رحل إلي أزمير التركية عقب دخول الفرنسيين مصر، وقد عاد بعد مغادرتهم البلاد إلى الإسكندرية عام 1800 م، وعمل كمترجم، وقد كان له نفوذ كبير وكان رأيه هو المرجح دائما, ولما توفي سنة 1844م أمر محمد علي بدفنه في موكب رسمي. **ينظر:** إلهام محمد ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995. **ينظر أيضاً:** محمد رفعت الإمام، المرجع السابق، ص 176– 181.

[68] – محمد مبروك، المرجع السابق، ص 63.

[69]– فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص ص 45– 46.

[70]– Aimé Vingtrinier,Soliman Pacha(colonel Seve),Paris,1886, TII, pp 446– 447 .

[71]– فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص 154.

يلاحظ مما سبق ذكره أن هجرة واستقرار الأرمن في مصر كان له نتائج مختلفة حيث حققوا مستوى معيشي معتبر وكان أغلب الأرمن يتقنون الزّراعة والتّجارة والصّباغة وصناعة السّاعات والحياكة وأثروا في الحياة الاقتصادية، كما تمكن بعضهم من تولي مناصب حساسة عند تأسيس محمد علي لدولة مصر الحديثة.

ب- اليونانيـــــون

استقبلت مصر العديد من المهاجرين من مختلف الدّول الأوروبية في بداية القرن التّاسع عشر وحتى منتصف القرّن العشرين حيث تدفقوا عليها من كل بقاع أوروبا بأعداد هائلة، بحثا عن الرزق خاصة في ظل تجربة محمد علي وحاجته لمتخصصين في مختلف المجالات إذ لم يتوفر ذلك بين المصريين آنذاك؛ لذا اعتمد على غير أبناء البلد في بناء دولته الحديثة على النّمط الأوروبي وجاء اليونانيون في المقام الأول كأكبر وأكثر الجاليات الأجنبية في مصر حيث انتشروا في كل انحاء مصر.

هناك العديد من الدّراسات الحديثة التي تناولت تاريخ الجالية اليونانية وكيف أثرت على المجتمع المصري نجد منها رسالة دكتوراه تاريخ الجالية اليونانية فى مصر فى القرن التّاسع عشر لزين العابدين شمس الدين نجم حيث تناول في هذه الدراسة هجرة اليونانيين إلى مصر فى عهد محمد على وتوزيعهم في القرن التّاسع عشر، كما تعرضت لتأثر الحروب العثمانية عليهم ثم هجرتهم الى مصر فى عهد محمد على وإعدادهم، ثم تكونت أحوالهم الاجتماعية والدّينية والنّشاط الزّراعي والصّناعي والتّجاري والمالي[72].

فقد كانت هذه الجالية هي الأكثر عددا في مصر عن باقي الجاليات، ويرجع السبب في تعاظم الوجود اليوناني إلى أن اليونان كانت في أوائل القرن التّاسع عشر جزءاً من الدولة العثمانية، وكان أبناؤها رعايا الدولة العثمانية، فكان تشجيع محمد علي قدوم الأوروبيين بقصد السياحة والتجارة هو مبدأ تكوين الجاليات الأجنبية التي لعبت دوراً مهماً

[72]- لزين العابدين شمس الدين نجم، تاريخ الجالية اليونانية فى مصر فى القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 2007، ص 5.

في شؤون التجارة والمالية في مصر، أما اليونانيون فقد وفدوا إلى مصر منذ زمن بعيد[73]، غير أنه زاد عدد المهاجرين منهم إلى حد الأقصى بعد الثوّرة اليونانية عام 1821م، ومنذ ذلك التّاريخ أصبح من الضّروري ايجاد تنظيم للجاليات اليونانية في مصر من ناحية والمحافظة علي ثقافتهم ولغتهم من جهة أخرى، وكان جراء ذلك أن بدأ يونانيو الإسكندرية يفكرون في انشاء أول تنظيم لهم خاصة وأن الباشا محمد علي كان يعطف عليهم، وبذلك انشأ أول تنظيم يوناني بالإسكندرية في ماي 1843م، وبالرغم من أول جالية لم تنشأ إلا في هذا التّاريخ إلا أنه كانت هناك فئة من اليونانيين التي اهتمت بتعليمهم فقد كان لهم مدارس منذ سنة 1645م واستمر الحال على ذلك حتى سنة 1800م حين شرع البطريك في تنظيم المدارس اليونانية ومحاولة رفع مستواها غير أن فئة التي عنيت بإصلاح التعليم قد لقيت معارضة من فئة رجال الدين أنفسهم " رجال الكنيسة "؛ ذلك أن الاعتقاد السائد بينهم كان أنه كلما زاد تعلم المرء قل اعتقاده في الله لكن الظّروف التي واتت اليونانيين في عصر محمد علي وعطفه عليهم بإنشاء جاليتهم بالإسكندرية كل ذلك مهد لنهضته تعليمية ذلك أنهم فتحوا مدرسة لهم في سنة 1843م كانت تسمى مدرسة اليونان[74].

كما منح أطياناً من الإبعادية لكثير من التّجار اليونانيين الذين كانت لديهم رؤوس أموال استثمروها فى استصلاح الأراضي، وكان الباشا يساعد من لا تتوافر لديهم رؤوس الأموال فيقدم لهم القروض والماشية والبذور[75]

غير أن رجال الجالية اليونانية لم يكن كل فئاتها ممن يعملون في مناصب ذات شان فقد ضمنت هذه الجالية عددا من الخدم والحراس الذين كانوا يعملون مع الأسر التركية، وقد بلغ عدد هؤلاء 300 يوناني الذين أسلموا كما كان هناك عدد من الجواري اليونانيات الأصل

---

[73] ـ سلوى العطار، المرجع السابق، ص ص 364- 365.

[74] – المرجع نفسه، ص 365.

[75] – رؤوف عباس و عاصم الدسوقي، كبار الملاك والفلاحين في مصر 1837- 1952، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص ص 93- 94 – أحمد الحتة،" الأجانب فى مصر والسودان 1862 – 1849 "، مجلة الاقتصاد والتجارة، مج 6، ع 2، جويلية ديسمبر1958، ص198 .

وصل إلى 600 جارية، بينما بلغ عدد الجالية اليونانية بما فيهم القادمين من سورية ثمانية آلاف[76].

وقد لعبت الجالية اليونانية دورا بارزا في شتى نواحي الحياة المصرية من اقتصادية واجتماعية بل وسياسية إذ أن الجالية كانت أكثر الجاليات التي حاولت اختراق الحاجز الاجتماعي بينهم وبين المصريين حيث تشير وقائع تاريخية كثيرة الى التّداخل والامتزاج الحضاري بين اليونانيين وبين المصريين والذي يتأكد دورهم سلبا وايجابا في التّعامل مع المصريين.

5- الأجانب غير مسلمين (الأوروبين)

لم يكن دخول الأجانب إلى مصر حدثاً طارئاً اقتصر على عصر محمد علي وبدأ ببدايته، إنما كان هناك وجود لهؤلاء الأجانب عقب خروج الفرنسيين ففي سنة 1803م/ 1218هـ تم تعليق أعلام ملوك الإفرنجية في مصر، وكان هذا أمراً حديثاً في هذه المملكة، وذاق المسلمون من ذلك وتبلبلت أفكارهم وسرعان ما لجأ الكثير من الإفرنج والشوام إلى الإفرنج للدخول في حمايتهم، وسعى القادرون منهم إلى شراء فرمانات سلطانية للاحتماء تحت لواء هؤلاء الأجانب مما أثار سخط الأهالي والمشايخ والعلماء[77] ، ويؤكد ذلك قول نقولا الترك :" ... فاجتمعوا في بعضهم ودبروا أمرهم، وانهم يلتجوا إلى الإنكليز، فقبلهم السر عسكر سميث وأمنهم بميثاق شديد، واعرض أمرهم إلى باب الدولة العثمانية، واستخرج لهم الخطوط الشريفة من الدولة المنيفة بالأمانات الوثيقة والعهود الحقيقية، فاطمئنوا..."[78]

سكن الأوروبيون مصر قبل عصر محمد علي لأغراض محدودة وفي ظل نظم معينة، وكانت بيوتهم التجارية قبل ذلك العصر مهمتها الأصلية الوكالة عن الشركات والهيئات الأوروبية المختلفة المرخَّص لها وحدها من جانب الدول الكبرى بالتصدير إلى مصر والاستيراد منها، وقد خضعت إقامة هؤلاء الأوروبيين لمجموعتين من النظم، أما المجموعة

[76]- سلوى العطار، المرجع السابق، ص 367.

[77] - المرجع نفسه، ص 344.

[78] - نقولا الترك، المصدر السابق، ص 146.

الأولى : فتشتمل على اللوائح المختلفة التي أصدرتْها الشركات والهيئات المحتكرة للتجارة الشرقية، وتتناول هذه اللوائح تنظيم شئون المعيشة والعمل لمن رخصت لهم من الأوربيين بسكنى مصر وتمثيلها فيها تنظيمًا مفصلًا، وعهد إلى القناصل- وهم لسنواتٍ عديدة من حكم محمد علي تجارٌ تحت إشراف الشركات والهيئات المحتكرة – تنفيذُ تلك اللوائح. أما المجموعة الثانية :فتتكون من منطوق العهود الصادرة من السلطان، المتخِذة شكل معاهدات بين حكومة الدولة والدول الأوروبية الخاصة بالامتيازات التي منحها السلطان لرعايا تلك الدول عندما ينزلون أرضه ويتاجرون مع رعاياه، ومما طرأ عليها فعلًا في اتجاهَي التعطيل الكلي أو الجزئي أو التنفيذ في الأيام السابقة لعهد محمد علي وكان التعطيل هو الأغلب[79]/[80].

لكن عصر محمد علي شاهد وفود عديد من الجاليات الأجنبية الغير مسلمة، وكان هؤلاء بالطبع ينتمون إلى قوميات مختلفة فمنهم الإيطاليون والفرنسيون والإنجليز وغيرهم[81]، ولم يكن هؤلاء ينتمون بالضرورة إلى طبقة اجتماعية واحدة بل تفاوتت أصولهم الاجتماعية، فقد وفد على البلاد أصحاب رؤوس الأموال كما وفد عليها العاملون والمغامرون والفنيون، فساهم بعض هؤلاء الأجانب بحق بدور لا يمكن تجاهله أو نكرانه في بناء دولة مصر الحديثة، ويمكن أن تقسيمهم تقسيما فئوياً حسب النشاطات التي مارسوها، ودرجة أهميتها فمنهم من عملوا في النشاط التجاري، ومنهم في النشاط التعليمي ومنهم أيضاً الرحالة الأوروبيون[82]، إلى جانب هؤلاء كان هناك فريق آخر يدخل ضمن هذه التقسيمات الفئوية

[79] – محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص 52.

[80] – وكلتا المجموعتين أصابهما تعديلٌ جوهري في أيام محمد علي، فالمجموعة الأولى هَدَمَتْها الثورة الفرنسية والانقلاب الاقتصادي الكبير؛ فقد ترتب على الانقلابين إلغاء الشركات والهيئات المحتكرة للتجارة الشرقية وأهمها شركة الليفانت الإنجليزية وغرفة مرسيليا التجارية وجعل تلك التجارة حرة للأفراد يشتغلون بها ويسكنون مصر وغيرها من أقطار الدولة العثمانية بلا قيود سوى ما تُصدره الحكوماتُ من جانبها أو بالاتفاق مع السلطات العثمانية لأغراض الأمن العام في أوُروبا وفي مصر.

[81] – يختلف الأرمن واليونانيون عن الجاليات الأوروبية الأخرى في أن معظمهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية.

[82] – سلوى العطار، المرجع السابق، ص 343.

كموظفي الحكومة الأجانب الذي استعان بهم محمد علي فقد وجد هؤلاء في دولة محمد علي الحرية إذا ما قارنا ذلك بالدولة العثمانية وولاياتها الأخرى[83].

كان محظوراً على الأجانب الأوروبيين وأهل الذمة أن يمتلكوا في سائر أجزاء الدولة العثمانية[84]، ولم يرفع هذا الحظر إلا بقانون 1867م أما في مصر فقد سمح لهم محمد علي بالتملك منذ أوائل حكمه[85]، في حين كان محمد علي يسعى لاستقدام الأجانب إلى مصر لتنفيذ ما يوكل إليهم، ولتدريب عدد من المصريين على أسس علمية حديثة[86]؛ لأن محمد علي يتطلع إلى تحديث إدارته المالية على النمط الأوروبي، ولهذا اعتمد على الأجانب لتنفيذ خُططِه الإصلاحية، بعد أن أصبح يرى أن الأوروبيين رجال دبروا أشغالهم ووجدوا الطريقة السهلة لكل مصلحة[87]، لكن الباشا كان مدركا أن الإكثار منهم قد يؤدي إلى نتائج غير مرغوبة حيث يظهر معظمهم عدم الاهتمام بأهداف الحكومة، وربما عرقلتها، بالإضافة إلى صعوبة اندماجهم في المجتمع المصري لجهلهم بلغته وعادات أهله[88]، غير أنه وزع عليهم أراضي **الرزقة**[89] وتبلغ 6000 فدان معفية من الضرائب وتابع خلفائه هذه السياسة، إلا أن

---

[83] – نفس المرجع، ص 343.

[84]– فرضت على أجانب وأهل الذمة خاصة قيود في عهد حكم الدولة العثمانية في مصر وفي باقي ولاياتها في جميع مجالات الحياة حتى اللباس والمركب والحمامات ما بالك من الملكية ولمعرفة تفاصيل ذلك ينظر: أحمد شلبي، اوضح الاشارات فيمن تولى مصر، تر وحق: عبد الرحيم عبد الرحمان، ط1، مكتبة الخانجي طباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1978، ص ص 546– 567.

[85] – أ. ن. بولياك، الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان، ط1، منشورات دار الكشوف، بيروت، 1948، ص 178– 188.

[86]– عبد الفاضل الصافي، العلاقات الاقتصادية المصرية الفرنسية في عهد محمد علي حتى سنة 1840، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ص 56– 57.

[87]– محمد مبروك محمد، المرجع السابق، ص 57.

[88] –سمير عمر ابراهيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992، ص 71.

[89]– كان بعض السلاطين يقومون بالإنعام على بعض الناس بأراضي تكون لهم ملكيتها التامة ويتصرفون فيها بحرية، وفى نفس الوقت معفاة من الضرائب وهى التي سميت بأرضي " الرزقة "، وفى عهد محمد على باشا ترك هـذه الأراضي لأصحابها وألزمهم بدفع الضـرائب عنها وحرمهم من حق وقفها ورتب لهم مرتبا يسمى فائض مقابل فرض الضريبة – الخراج – عليها وهذه الضريبة هي التي أطلق عليها "الميرى ". **ينظر:** حسين خلاف، التجدد الاقتصادي المصري الحديث، (د. ط)، دار الإحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962، ص ص 77– 78.

التشجيع على التملك لم يبق محصوراً على الموظفين، بل شجع محمد علي التجار الأوروبيين على الزراعة والاستيطان فمنح من أطيان الإبعادية[90] كثيرا من التجار اليونان الذين كان لديهم رؤوس أموال فاستثمروها في الزراعة وفي استصلاح الأراضي، وحصل عدد من التجار الإنجليز على هبات من الأطيان فلم يأت عام 1840م حتى كانوا يملكون 25 ألف فدان من أطيان الإبعادية، بل كان محمد علي يساعد من لم تتوفر لديهم الأموال من الأوروبيين فيقدم إليهم القروض والماشية والبذور، وبالقرار الصادر في فيفري 1842م أصبحت الأراضي التي حصل عليها هؤلاء الأجانب ملكاً لهم[91].

وبطبيعة الحال فإن محمد علي كما كان يمنح حق الانتفاع بالأرض كان يملك في نفس الوقت أن يسحبه ممن يشاء، ووقت ما يشاء.

كما أن مديري كل الصناعات التي أنشأها محمد علي كانوا جميعاً من الأجانب حتي بلغ عدد الأجانب الاوروبيين في عهد محمد علي عشرة آلاف، وكان الأوروبيون يعينون في مختلف مؤسسات الدولة بعقود مع الحكومة المصرية كانت تنص على مرتباتهم ومدة بقائهم وكافة المزايا الأخرى، والإجراءات الواجب اتباعها في حالة إنهاء التعاقد، بالإضافة إلى شروط أخرى مثل الإقامة والعلاج ... الخ، وقد أحسن محمد علي معاملة الأجانب، وحرص على تنفيذ بنود عقودهم[92].

---

[90] – هي الأراضي البور أو غير مزروعة التي منحها محم علي باشا أعيان البلاد لإصلاحها بزراعتها، ولم يكن يجوز لها التصرف فيها بأي وجه، وإنّما يجوز التوارث فيها، وقد أُستحدثت فى عهد محمد على باشا وسميت بهذا الاسم لأنها كانت مستبعدة من عملية المساحة التي عُملت للأرض الزراعية سنتي 1813 و 1814م، والتي سميت دفاترها باسم دفاتر التاريع – أرض بور ـ وقد أنعم بها محمد على باشا بمساحات كبيرة على بعض القواد والموظفين المقربين منه ـ ومنحهم ملكيتها التامة وأعفاهم من ضرائبها ليشجعهم على استصلاحها. **ينظر**: حسين خلاف، المرجع السابق، ص ص 83– 85. وللمزيد من التفاصيل حول ملكيات الاجانب في مصر **ينظر**: محمد كمال مرسي، الملكية العقارية في مصر وتطورها التاريخي من عهد الفراعنة حتى الأن، مطبعة نوري، القاهرة، 1936، ص 119– **ينظر أيضاً**: صالح رمضان محمد، دور الجاليات الأجنبية في مصر في القرن التاسع عشر (1801م– 1882م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، 1970، ص ص 11– 15

[91]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، 138– **ينظرا ايضاً**: حسين خلاف، المرجع السابق، ص312.

[92] – محمد مبروك، المرجع السابق، ص 58.

ولقد كانت هذه المعاملة الحسنة من قبل والي مصر مع الأجانب تثير سخط الشعب المصري، إلا أن رفاعة الطهطاوي دافع عنه وبرر موقف الوالي في قوله: " ... إن العامة بمصر يلمونه غاية اللوم بسبب قبوله الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم جهلاً منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل دلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى... "[93].

ولتوضيح أكثر سنتطرق إلى ثلاث جاليات ((الايطالية – الفرنسية – الانجليزية)) على سبيل المثال والتي كان لها تأثير أكبر في اصلاحات محمد عليها في بناء دولة مصر الحديثة وهي كالآتي:

أ- الجالية الإيطاليـــــــة:

كان للإيطاليين سواء المنتمين إلى رجال الدين أم المنتمين إلى فئة التجار تأثير على بعض فئات المجتمع المصري؛ **لكن سؤال المطروح من ذلك لماذا اتجه محمد علي إلى الدويلات الإيطالية بينما كان كل من فرنسا وإنجلترا أقوى من الناحية السياسية وحتى الاقتصادية والفكرية؟**

كان عدد الجالية الإنجليزية في مصر قليل بالإضافة إلى أطماع الإنجليز في مصر عقب خروج الفرنسيين، أما بالنسبة لفرنسا فقد اشترك محمد علي في اخراج الفرنسيين من مصر، وبعد انسحابهم كان يشعر بما تركوه من آثار ولكنه كان لا يزال متخوفا منهم خاصة منهم أثناء وجود نابليون في السلطة لأن تفكيره في بناء امبراطورية شرقية لم يتوقف ثم أن عدد الجالية الفرنسية قد نقصا تدرجياً بعد خروج الحملة فلم يكن من الطبيعي أن يتجه محمد على أول ما يتجه إلى فرنسا، وإن كان سيتجه إليها بعد قليل لعوامل أخرى[94] سنتعرض لها عندما نتطرق إلى الجالية الفرنسية.

[93] – علي الجريتلي، السكان والموارد الاقتصادية في مصر، مطبعة مصر، القاهرة، 1962، ص ص 10-11.

[94]– سلوى العطار، المرجع السابق، ص ص 345- 346.

ولا شك أن الدور الذي لعبه الإيطاليون في تحديد العمل الإصلاحي للباشا المصري منذ اللحظات الأولي لتعزيز سلطة محمد علي يعتبر دوراً بارزاً، ونذكر شخصية مهمة **وهي جوفاني باتيستا بيلتسوني**[95] من بادوفا[96] فقد وصل إلى القاهرة في عام 1815م وتعاون مع ألمع وأشهر علماء الأثار الموجودين آنذاك في وادي النيل، وبعد العودة إلى أوروبا عام 1819م نشط للتعريف بروائع مصر القديمة، لكنه كان يشهد على بعض الأوروبيين الموجودين في مصر بسوء تصرفاتهم في قوله:" ... بعض الأوروبين الموجودين في مصر، الذي يمثل مسلكهم وعقليتهم عاراً على الجنس البشري..."[97].

95- جوفاني باتيستا بلزوني (Giovanni Battista Belzoni) : مستكشف ومغامر إيطالي .وُلد جوفاني في بادوفا ابناً لحلاق، كانت عائلته من روما ؛ حيث ذهب إليها حينما بلغ السادسة عشرة للعمل، مدعياً أنه درس علم الهايدروليكا – هو علم من علوم الهندسة التي تدرس الخواص الميكانيكية للسوائل – اعتزم الدخول إلى النظام الرهبنة، ولكن احتلال القوات الفرنسية للمدينة في سنة 1798 اضطره للخروج من روما ليتفادى التجنيد الإجباري في جيش نابوليون، وغير رأيه بشأن مستقبله. انتقل في عام 1800 إلى هولندا، و في عام 1803 سافر إلى إنكلترا حيث تزوج من الإنجليزية سارة بين، ترك إنكلترا في عام 1812م، وبعد سفره إلى إسبانيا والبرتغال وصل مصر عام 1815 في الوقت الذي كان فيه هنري سولت القنصل العام البريطاني في مصر. أراد بلزوني أن يُرِيَ محمد علي باشا آلة هيدروليكية من اختراعه لرفع مياه النيل .ورغم نجاح تجربة هذا المحرك، إلا أن التصميم لم يُثِر اهتمام محمد علي، فعزم بلزوني على مواصلة ترحاله، وبناءً على توصية المستشرق يوهان لودفيش بوركهارت، بعثه هنري سولت إلى معبد الرمسيوم في طيبة، حيث نقل بمهارة فائقة – مستخدماً أسلوب قدماء المصريين – التمثال النصفي لرمسيس الثاني، الذي كان يسمى» ممنون الصغير «وشحنه إلى انكلترا، ولا يزال التمثال من أبرز معروضات المتحف البريطاني .ولم يكن محمد علي واعياً لقيمة تلك الأثار التي هُرِّبَت خارج مصر، في سنة 1823 رحل إلى غرب أفريقيا، عازماً السفر إلى تمبكتو .وبعد رفض السماح له بالمرور عبر المغرب اختار طريق ساحل غينيا .ووصل إلى مملكة بنين، إلا أنه أصيب بالزحار في قرية تسمى غواتو، وتوفي هناك. ووفقا للرحالة الشهير ريتشارد فرانسيس بيرتون فإنه قُتل وسُرق. **ينظر**:

-Belzoni Giovanni Battista ،Plates illustrative of the researches and operations of G. Belzoni in Egypt and Nubia، 1vol ، London : John Murray, 1821

وللتفاصيل أكثر عن موضوع محمد علي والأثار المصرية **ينظر**: رزق حسن نوري، قوانين ولوائح الأثار المصرية (من عصر محمد علي حتى ثورة يوليو 1952م)، تق: فاروق جميل جاوش، تص: أحمد الشوكي، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2018، ص ص 11- 70.

96 – تقع في الجزء الشمالي الشرقي من إيطاليا .

97 – أنطونيو بليتيري، الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا مذكرة تمهيدية، مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين، تر: عماد البغدادي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 15.

ومن الأطباء نجد لودوفيكو كولوتشي Ludovico Colucci الذي أصبح طبيبا لنائب الملك، بينما وصل أبناءه أنطونيو Antonio وكارلو Carlo وباولو Paulo نشاط والدهم واكتسبوا هم ايضا شهرة عن جدارة[98]. وأنو فريو أباتي Ano Frio Abate الذي ذهب مع القوات المصرية إلى القرم والسودان، وشغل فيما بعد مناصب مهمة في النظام الطبي المصري، وألساندرو ريتشي الذي أنقذ إبراهيم باشا من الموت عام 1821م، حيث شفاه من مرض أصيب به

ونجد أيضا جيرولامو سيجاتو Girolamo Segato القادم من مدينة بلونو[99] بعد أن وصل إلى مصر في عام 1818م في دائرة المتخصصين الأوروبيين الذي استدعاهم محمد علي لبناء قناة ملاحية لتجنب القناطر الثانية، وقد كانت الإقامة في مصر بعد ذلك مهمة جدا لجوفاني باتيستا بروكي Giovanni Battista Brocchi، وهو عالم في التاريخ الطبيعي ولد في باسانو [100] في عام 1772م، ويحتوي عمله الضخم أخبار مهمة عن حقبة محمد علي، ومن ناحية أخرى يذكرنا الشيال نفسه بمدى أهمية دور الإيطاليين، فمنذ السنوات الأولى من حكم محمد علي، وتأكيداً لما يقوله يذكر الشيال الدور الذي قام به عثمان المساعد الوثيق للباشا المصري في الدعم المقدم لتعلم الإيطالية في القاهرة والعلاقات مع إيطاليا، وقد رأس عثمان نور الدين[101] الوفد المصري المبعوث إلى إيطاليا من قبل محمد

98– برونو أليبتي، لمحات عن أصول القضية المصرية، المرجع السابق، ص 106.

99– **بلونو بالإيطالية (Provincia di Belluno)** :مقاطعة إيطالية تقع شمال شرق البلاد بإقليم فينيتو، عاصمتها هي مدينة بلونو.

100 – **باسانو دل غرابا:** مدينة في شمال إيطاليا في مقاطعة فيتشنزا ضمن منطقة إقليم فينيتو.

101 – **الأميرال عثمان نور الدين باشا:** هو من أول من أرسلهم محمد علي باشا إلى أوروبا لتلقي العلوم، أصله من جزيرة مدللي ولحق بمصر واتخذها وطنه وخدمها خدمات جليلة، ودخل في مدارسها الحربية، ثم ألحق بالبعثة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا وأتقن فيها العلوم الحربية والبحرية. ولما عاد صار له شأن كبير في المهمات التي أسندت إليه وفي تنظيم البعثات الكبرى التي تدفقت نحو فرنسا. فقد كان عضواً عاملاً من أعضاء اللجنة التي ألفت سنة 1822 لوضع برنامج التعليم العسكري بالمدارس الحربية المصرية على النظام الحديث، فكان ثالث الثلاثة الذين تألفت منهم تلك اللجنة، وزميلاه فيها هما الكولونيل سيف "سليمان باشا الفرنساوي" وأحمد افندي المهندس، وهو الذي أسس المدرسة الاعدادية الحربية بقصر العيني ومدرسة أركان حرب بالخانكة((مركز إداري مصري يقع في محافظة القليوبية ضمن إقليم =

علي في عام 1809م للقيام بمهمة إعادة بناء المطبعة التي كانت قد أغلقت، وقد حدث هذا بعد أن ترك الفرنسيون مصر، وقد أشرف نور الدين علاوة عن ذلك تأسيس مدارس كانت تدرس فيها اللغة الإيطالية واجتهد لتشجيع ترجمة[102] نصوص إيطالية إلى العربية والتركية، وكانت الإيطالية تدرس في مدارس بولاق وقصر العين، وبعد ذلك في مدرسة المهندس خانة في بولاق وفي بعض المدارس العسكرية[103].

كما اعتمد محمد علي أيضاً على بعض المدربين الإيطاليين لإعداد الجيش فقد عهد إلى مهندس قديم من نابولي يدعى شياند shiandi ويعرف بتدريب المجندين الذين تم حشدهم في بني عدى[104]/[105].

غير أن الأمر لم يقتصر على الإيطاليين إذا كانت الحملة الفرنسية قد شدت انتباه الدول للاهتمام بمصر فأخذت تتسابق ليكون لها مركزها، ومن هنا وفد الأجانب إلى مصر على هيئة تجار أو بعثات دينية وبدأ النفوذ الأجنبي والثقافي والديني يتجمع ليكون لهذه

= القاهرة الكبرى)) ، وقد أثنى عليه كلوت بك في كتابه وجعله في مقدمة من أشاد بذكرهم من خريجي البعثات، وقد نال منزلة كبيرة لدى محمد على باشا لما آنسه فيه من الاخلاص والكفاءة ووصل إلى رتبة "سر عسكر" وجعل رئيساً للأسطول المصري سنة 1827م بدلاً من محرم بك، وأنعم عليه برتبة الباشوية وبنى له محمد علي باشا منزلاً على ساحل الميناء غربي سراي رأس التين ليكون قريباً من السراي الخديوية ومن سفن الأسطول بالميناء، وجعله رئيس الجهادية في البر والبحر، ووصل من المنزلة والمكانة إلى أن صار ثالث رجل في الدولة بعد محمد علي وابراهيم، كما تعاون مع الموظفين الأجانب الذين استحسنوا معاملته لهم، وكانت آخر وظيفة شغلها في مصر هي قيادته للأسطول البحري ولكنه لم يتمكن في أثناء الحملة السورية الأولي من محاصرة الأسطول العثماني بجوار رودس وإبادته وتركه يولي الأدبار إلي الآستانة فغضب محمد علي عليه. وربما خشي نور الدين باشا عواقب هذه الفتنة فانتهز فرصة أيام الثورة في جزيرة كريت وتشديد محمد علي في قمع هذه الثورة وقدم استقالته، ثم سافر إلي الاستانة حيث شغل منصبا كبيرا، وتوفي بعد عام واحد عقب إصابته بالطاعون سنة 1834م. ينظر: عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص ص 386- 388.

[102]- استحدثت وظيفة الترجمة في مصر ويرجع السبب إلى أن المدرسون الأجانب الفرنسيون والإيطاليون والإسبان لم يكونوا يعرفون سوى لغتهم عكس التلاميذ الذين لم يكونوا يعرفون سوى اللغة العربية، فاستحدثت وظيفة المترجم حتى يكون وسيط بين المدرسين والتلاميذ.

[103]- أنطونيو بليتيري، المرجع السابق ، ص 16- سلوى العطار، المرجع السابق، ص 346.

[104]- **بني عدي:** هي إحدى القرى التابعة لمركز منفلوط في محافظة أسيوط بمصر.

[105]- سلوى العطار، المرجع السابق، ص 348.

الدول نفوذ سياسي بمصر، وساعد ذلك نشاط الإرساليات الأجنبية ففتح الباب على مصراعيه للوفود إلى مصر.

ب- الجالية الفرنسية

كانت الجالية الفرنسية تعد من أهم الجاليات الأوروبية التي استقرت على أرض مصر في عصرها الحديث نتيجة لعقد اتفاق عام 1535م بين السلطان العثماني سليمان القانوني وبين ملك فرنسا فرنسوا الأول، والذي بموجبه حصل الفرنسيون المقيمون في الولايات العثمانية، ومنها مصر على امتيازات اقتصادية كبيرة من حيث البيع والشراء وأيضا الإعفاءات الضريبية، بالإضافة حرية الإقامة وممارسة الشعائر الدينية[106]، وازدادت أعدادهم مع تولي محمد علي باشا حكم مصر عام 1805م، فتعلق عقل محمد علي بفرنسا ونابليون وانتصاراته التي وصلت إلى عنان السّماء، وقد ساعدت الدسائس التي كانت تحيكها انجلترا مع الممالك للتخلص من هذا الوالي الجديد إلى ميل محمد علي إلى فرنسا والفرنسيين، فنهج الباشا النّهج الفرنسي في تنظيم والتّحديث مصر، ومع انسجام العلاقة بين محمد علي والفرنسيين على مختلف الأصعدة ازدادت أعداء الفرنسيين في مصر ودخلوا سلك الوظيفة في الحكومة المصرية فعلى عاتقهم تم بناء الجيش والبحرية المصرية، وذلك على أيدي سليمان باشا الفرنساوي والمسيو سيريزي، هذا بالإضافة إلى العمال الفرنسيين الذين كانوا يعملون في المدابغ التي تزود دار الصناعة أو الترسانة[107]، ونستطيع أن نلمس مدى تزايد أعداد الجالية الفرنسية في مصر في عهد محمد علي، ويعود ذلك إلى عاملين هما:

العامل الأول هو بقاء الكثير من الجنود الفرنسيين في مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية وهؤلاء عرفوا ولقبوا بالممالك الفرنسيين.

---

[106] – روبير سوليه، مصر ولع فرنسي، تر: لطيف فرج، (د. ط)، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص ص 15- 16.

[107]– نوريس محمد سيف الدين، الجالية الفرنسية في مصر 1882- 1956، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2012، ص ص 21- 24.

أما العامل الثاني فقد توافد أعداد من الفرنسيين المعارضين لنظام الحكم في فرنسا في الفترة التالية لانتهاء حكم نابليون حيث غادر كثير من المعارضين لنظام الحكم الجديد، واتخذوا مصر قِبلة لهم، ودخل كثير منهم في خدمة محمد علي والحكومة المصرية، فاستقروا في البلاد وكونوا الثروات وامتلكوا العبيد والجواري الحبشيات[108] عكس ما كانوا عليها من قبل في عهد الحكومة العثمانية والممالك فقد أجبر الفرنسين على ارتداء ملابس معينة، وقد انتقد الرحالة الفرنسي دانتريج Conte Dantrig [109] الفرنسيين الذين يقيدون المسلمون في ارتداء الملابس الشرقية، وعاب عليها، بينما ذكر سونيني أنه في الاسكندرية كان يسمح للفرنسين باتداء الملابس العادية، أما في القاهرة فلا بد من ارتداء الملابس الشرقية، كما ذكر بانهم لا يستطيعون ارتداء الملابس الخضراء؛ لأنها مخصصة للأشراف، كما منعت السلطات المحلية الفرنسيين من ركوب الخيل معاد القنصل الذي صرح له، كما تعرضوا إلى المضايقات من قبل السكان المحليين والمسؤولين بسبب تصرفاتهم[110].

أما في عهد محمد علي فقد بدأ الفرنسيون يفرضون لغتهم على المجتمع المصري لتحتل شيئاً فشيئاً محل اللغة الإيطالية وبتشجيع من حاكم البلاد الذي أصدر عام 1820م أمر إلى نجيب أفندي " قبو كتخدا "[111] بالإستانة يكلفه فيه باختيار أساتذة يُجيدون اللغتين التركية والفرنسية للتدريس في المدارس المصرية الحديثة، كما رحب محمد علي بمجيء الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية إلى مصر، والّتي كانت تهدف إلى نشر المذهب الكاثوليكي، وإدخال أكبر عدد من الأقباط فيه، فأينما

---

[108]– المرجع نفسه، ص ص 24.

[109]– الكونت دانتريج هو ابن شقيق بريبه السفير الفرنسي في استنبول، سافر إلى مصر بصحبة المترجم الفرنسي أدنسون ومؤلفه عن مصر ما زال مخطوطاً في مكتبة ديجون الفرنسية، ينظر: إلهام محمد ذهني، المرجع السابق، ص ص 70–71.

[110]– إلهام محمد ذهني، المرجع السابق، ص ص 303– 307.

[111] – مصطلح تركي مكون من كلمتين " قبو" ومعناها البابا وكلمة " كتخدا " ومعناها الوكيل ويقصد بالكلمتين مع مندوب محمد علي لدى البابا اعالي، **ينظر**: زين العابدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ط1، دار الفكر العربي، مصر، 2006، ص 319.

حـلت إرسالية كانت مهمتـــها الأولى هو بـــناء كنيـــسة وإلى جـــانبها مدرســـة، وكانت من أهـــم هـــذه الإرساليات وأبـــــرزها الفرنسيسكان[112]، الفريـــر[113]، الجزويت[114]، الراعي

[112]– يعود تأسيس الرهبنة الفرنسيسكانية التابعة إلى الكنيسة الكاثوليكية إلى القديس فرنسيس الأسيزي، وانتشرت بشمال إيطاليا في القرن الثالث عشر و قام بوضع قواعد و قوانين يطبقها كل من يتبع الرهبنة الفرنسيسكانية ثم قام الأب إينوسنت الثالث عام 1209م بتثبيت هذه القواعد و تقنينها من أجل العمل بها و تتألف الرهبنة من ثلاث فروعك رهبنة رجالية، ورهبنة نسائية، وما يعرف بالرهبنة الثالثة التي ينضم إليها المدنيون، الذين يبقون في العالم لا في الدير، ويحق لهم الزواج وإنما يلتزمون بفروض وصلوات الرهبنة وتأملاتها و تتكون هذه القواعد من مساعدة الفقراء والعمل على تنمية المجتمع و الاهتمام بالبيئة ، "فالأسيزي" الذي كان من عائلة إقطاعية ثرية وهب أملاكه للفقراء، متخليًا عن الثراء الشخصي، ليعيش فقيرًا بالإضافة إلى حرصه على الاهتمام بشؤن البيئة والحركات الإصلاح الدائمة في الكنيسة، لذلك تعتبر هذه هي أبرز، ووصلت الرهبنة الفرنسيسكانية في مصر عام 1697م حين بعث مجمع نشر الايمان بروماالتى تعتبر مركز الطائفة الكاثوليكية مجموعات من الآباء الفرنسيسكان إلى صعيد مصر لمساعدة الكنيسة القبطية الكاثوليكية. **ينظر**: خالد محمد نعيم، الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر (1756– 1986) دراسة وثائقية، ط1، دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، 1988، ص ص 12– 36.

[113]– "رهبانية المدارس المسيحية The Brothers of the Christian Schools) "، كما يُعرفوا أيضاً باسم" الإخوان المسيحيون"و" الإخوان اللاساليون"،" الإخوان المسيحيون الفرنسيون"، أو" إخوان دلا سال"، وبالفرنسية " Frères des écoles chrétiennes"، وهو ما يسمى في العالم العربي، فمدارس الفرير هو تجمع تعليمي ديني كاثوليكي، أسسه في فرنسا جان– باتيست دلا سال(1719–1651) ، ومقره الآن في روما إيطاليا. الإخوان (الرهبان) يستخدمون الاختصار الاسمي".F.S.C" للإشارة لعضويتهم في التنظيم الديني، ويستخدمون اللقب التفخيمي أخ "Frère" وأحياناً يُختصر إلى" Fr."

[114]–**الجزويت أو اليسوعيون:** باللاتينية Societas Iesu ، هي واحدة من أهم الرهبانيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها. تأسست على يد القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر أيام البابا بولس الثالث في إسبانيا، كجزء من الإصلاح المضاد، وأخذت على عاتقها مهمة التبشير ونشر الديانة في العالم الجديد، مكثت الرهبنة اليسوعية من أقوى منظمات الكنيسة الكاثوليكية المؤثرة، واصطدمت أواخر القرن الثامن عشر ببعض السلطات الأوروبية ما دفع إلى حلّها عام 1773م، وهو القرار الذي ألغي عام 1814م على يد البابا بيوس السابع، عند تأسيسها اعتبرت الرهبنة اليسوعية "الأكثر حداثة ودلالة، لقد جسدت الكفاءة والفاعلية اللتين ستصبحان سمتين مميزتين للحضارة الحديثة"، ولقد رفع مؤسسها إغناطيوس إلى مرتبة قديس عام 1622م تتواجد الرهبنة اليسوعية في 112 منطقة جغرافية موزعين على قارات العالم الست، ومركزها الرئيسي يقع في روما، وتتبع نمط الإدارة اللامركزية، وتدير أعدادًا كبيرة من المدارس، والجامعات، والمشافي، ودور العجزة، والمكتبات، وتهتم بالحوار المسكوني، والتطوير اللاهوتي، والعدالة الاجتماعية، يعرف المنخرطون في هذه الرهبنة باسم «جنود الله»، نظرًا لخلفية مؤسسها العسكرية، والطاعة التي توليها قواعد الرهبنة أهمية بالغة، ففي 13 مارس 2013م انتخب أحد أعضاء هذه الرهبنة بابا باسم البابا فرنسيس.**ينظر**: كارين آرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر: محمد الجورا، ط1، دار الكلمة، دمشق 2005، ص21.

الصالـــح، القلب المقدس[115]، وكانت القنصلية الفرنسية لها نفوذها عند السلطة المحلية من أجل تذليل أية عقبات قد تواجه الإرساليات الفرنسية[116]، والسؤال هنا: إلى أي مدى استجاب المصريين لإدخال أولادهم في تلك المدارس؟ في الحقيقة إنه من الصعب الجزم بمعلومة مؤكدة حول تلك النقطة حيث لا يوجد دليل يؤكد إقبال المصريين على تلك المدارس في تلك الفترة وأغلب الظن أن إقبالهم كان فقط على المستوصفات الطبية التي قدمتها الراهبات، أما بالنسبة للتعليم، فلم يقبلوا عليه إلا في مرحل لاحقة.

نستنتج من التسامح والحرية لتي تمتع بها المسيحين في مصر في عهد الباشا، وعكس ما كانوا عليه في عهد سابقه في خلافات الاسلامية– الاموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والعثمانية – التي سبقته أن محمد علي لم يكن له أي هدف بالإصلاح الديني الاسلامي قدر ما كان له اشباع رغبته في تملك والحكم وانفراد بمصر، وفصلها عن الخلافة الإسلامية لما لها من مكانة استراتيجية وحضارية، كما أن محمد علي اعتمد على غير المسلمين من الأقباط والأرمن واليهود في اصلاحاته، كما تنكر لنقيب الأشراف الشيخ عمر مَكْرَم بن حسين السيوطي الذي نفاه إلى دمياط ثم طنطا التي توفى فيها، وهذا دليل على حقده الباطني على علماء المسلمين الصالحين والوطنيين.

115– تأسست جمعية القلب المقدس في فرنسا من قبل سانت مادلين صوفي بارات في 1800م.

116– إن توافق أهداف الكنيسة التي كانت ترمي إلى مد نفوذها خارج أوروبا مع أهداف الدولة الحديثة في هذا الاطار، إضافة إلى اعتزاز الدولة الوطنية بقوميتها واعتدادها بصلاحية حضارتها، وأخذها على عاتقها نشر أصول هذه الحضارة إلى جانب مذهبها دفع إلى التعاون الكنيسة في هذا الاتجاه تعاوناً وثيقاً، واصبحت سياسة الدول الأوروبية الكبرى سياسة صليبية متعصبة، ولذلك كانت المناطق التي وطأتها الدول الكاثوليكية مثل اسبانيا وفرنسا والبرتغال أصبح فيها للكنيسة فروعاً فيها، ولقد كانت الكنيسة تعمل على توطيد مصالح الدول الأوروبية الاستعمارية عن طريق الإرساليات التبشيرية التي كانت جنباً إلى جنب مع الحمالات الاستعمارية التي تجوب البحار، وكانت طبيعة التكافؤ بين الدولة الحديثة والكنيسة يتمثل في طبيعة الأهداف المزدوجة التي كانت تسعى إليها كل من الدولة والكنيسة. ولمعرفة التفاصيل أكثر **ينظر**: جرانت هارود تمبرلي، أوروبا في القرنيين التاسع والعشرين، تر: بهاء فهمي و أحمد عزت عبد الكريم، ط6، دار الكتاب العربي، (د. ت)، ص 232.

أما في المجال الإداري والمالي فنجد محمد علي باشا فقد أكثر اعتماده على فرنسا، وقد اعترف بفضلها في تطوير دولته[117] كما أمر باقتباس 72 بنداً من القانون الفرنسي[118] وقد أكثر من تقديم المنح والأراضي للفرنسيين المتواجدين في مصر مثلما منح ابن أخ القنصل الفرنسي دورتي 300 فدان معفاة من الضرائب[119]، وسعى الباشا دائما إلى بناء دولته على النمط الغربي وبما فيها فرنسا وهذا ما أكده شاتو بريان SHATAU BRIAND الرحالة الفرنسي في قوله لما زار مصر:" ... إن مصر اليوم تبدلت، هي الأن بملابس وهيئة تركية، لكن تنظر إلينا بعطف ومحبة، تطالب فرنسا العون لإعادة ترتيب البيت – الدولة – "[120].

كما عهد الباشا إلى المسيو جومار بالإشراف على أول بعثة مصرية إلى فرنسا كان نواتها أربعين شاباً من الأتراك والمصريين في عام 1826م، غير أن جهود الفرنسيين لم تقتصر على المجالات البشرية والتعلمية بل امتدت لتشمل ميادين أخرى فهم الذين أشرفوا على تدريب الجيش مصر الحديث[121].

ويمكن أن نفسر سبب استجابة الفرنسيين لدعوة محمد علي في مساهمتهم في بناء دولته الحديث يرجع إلى عامل شخصي بالنسبة لهم، وهو حنينهم إلى فكرة تجسيد امبراطورية الشرق، فجاء أغلبهم بشكل شخصي وعملوا في خدمة الباشا الذي رأوا فيه تجسيداً لأفكار نابليون بونابرت في الشرق، فأصبحوا موظفيه في شتى المجالات والتخصصات حيث استفاد الباشا بخبراتهم وعلمهم، ويمكن جدا أنهم جاءوا كجواسيس لخدمة حكومتهم حتى يتسنى لها احتلال مصر في يوم من الأيام وتجسيد فكرة نابليون.

---

[117]– رينيه القطاوي، المرجع السابق، ص 98.

[118]– دار الوثائق القومية، معية سنية التركية، ملخصات دفاتر، دفتر 17، محفظة 21، وثيقة 125، تاريخ 15 جمادى الأولى 1239هـ/ 16 فيفري 1824، ص 54.

[119]– دار الوثائق القومية، معية سنية التركية، ملخصات دفاتر، دفتر 37، محفظة 40، وثيقة 262، تاريخ 7 رمضان 1244هـ/ 15 مارس 1829م، ص 208.

[120]– إلهام محمد ذهني مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 23.

[121]– عفاف لطفي، المرجع السابق، ص 351.

ج- الجالية الإنجليزية

أينما وجدنا الفرنسيين سنجد الانجليز بحكم المناسفة القوية بين هاتين الدّولتان خاصة عند بداية القرن التّاسع عشر الميلادي، وهذا ما حدث بالفعل في مصر، فبحكم موقعها استراتيجي والحضاري كانت المنافسة قوية بين فرنسا وانجلترا.

وقد ظلَّ كثيرون من رعايا الإنجليز يقطنون القاهرة والإسكندرية دون أن يصيبهم مكروه في أثناء الحوادث المشهورة التي وقعت في سنتَيْ 1839 م و 1840 م[122]؛ وهنا يجب التساؤل عن تكوين الجالية البريطانية وأوجه نشاطهم في مصر؟

تكونت الجالية البريطانية من الارساليات الانجليزية والتجار والقناصل الذين كانوا يتعهدون بحماية رعاياهم والفصل في قضاياهم، ومن أهم الارساليات التي حضرت إلى مصر جمعية ارسالية الكنيسة الأنجليكانية التي وفدت في سنة 1815م غير أن عمل الارسالية لم يبدأ إلا في سنة 1826م، وكان هدفها تعليم أقباط لها وأقفلت المدرسة في سنة 1848م، ويمكن جدا أن هدفها نشر التعليم الأجنبي والديني بين أبناء البلاد، وربما تحويل بعض الأقباط إلى المذهب البروتستانتي[123].

وبالإضافة إلى فئات رجال الدين الذين كانوا ينتمون إلى الجالية البريطانية كان هناك فئات أخرى تنتمي إليها كالقناصل العمومين والتجار الذين كانوا لا يبرحون الاسكندرية، وقبل أن يتم لمحمد علي تدعيم دولته الحديثة كان يتلقى قناصل عدد من الدول الأجنبية أمر تعيينهم في مصر من سفرائهم لدى الباب العالي وكان يسمح لهم وقت ذاك بجباية رسوم قدرها 2% [124] عن جميع ما تحمله سفن بلادهم من صادرات وواردات، وكان نصف هذه الرسوم يُدفع للسفير لكن بعد أن تولت الحكومة تعين قناصلها في مصر انتهى العمل بهذا النظام، وقد حظي القناصل العموميين في الاسكندرية بمكانة خاصة مما كان عليه زملائهم في بلاد الشرق الأدنى، وأصبحوا ارفع شأناً فهم يؤدون وظيفة السفراء بما تستدعيه من

[122]– سلوى العطار، المرجع السابق، ص 356.

[123] – عفاف لطفي، المرجع السابق، ص 351.

[124]– محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ص 371– 375.

وسائل الحماية والدعاية كما يتصلون بالوالي اتصالا مستمراً ليرفعوا إليه بلاغات حكوماتهم، ويعالجون معه المسائل السياسية، لهذا نادى كلوت بك بضرورة أن تحذوا فرنسا حذو انجلترا وروسيا بأن يكون لها وكيل خاص يعهد إليه بالشؤون السياسية خاصة بعد أن أصبحت فرنسا تهتم بشؤون مصر وتؤيد محمد علي، كذلك طلب فرنسا بالاقتداء بإنجلترا للفصل بين الاختصاصات السياسية والتجارية في منصب القنصل العام[125].

ويأتي كبار التجار في المرتبة الثانية بعد القناصل وهم يقيمون غالباً في الاسكندرية، وينبغي أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون، فبينما لم يكن بالإسكندرية سنة 1821م سوى انجليزي واحد لتجارة القطن بلغ عدد البيوتات التجارية تسع بيوت تجارية كبرى في سنة 1837م، وفي سنة 1839م كانت التجارة الانجليزية تحتل المركز الأول، ولقد لمس القناصل من إذا كان لفرنسا قصب السبق في تنظيم الإدارة المالية في مصر كما ذكرنا عندما تعرضنا إلى الجالية الفرنسية، فإن إنجلترا لم تلعب نفس الدور، حيث بخلت بخبرتها على مصر، فوجه الاستفادة الوحيد منها المناقشة التي دارت بين محمد علي باشا وبورنج[126] عندما زار القطر المصري في سنة 1838 م واستطلع الباشا رأيه في مسألة الحسابات وعن اقتراحاته تنظيم المالية، وجيء إليه بمختلف الحسابات العامة لإلقاء نظرة عليها، فأشار بعدة توصيات لإصلاح الحسابات، وكان في طليعة هذه التوصيات وضع ميزانية في ابتداء كل سنة لبيان الإيرادات والمصروفات[127]، ثم إرسال كافة الإيرادات إلى الخزانة الرئيسية، والفصل بين السلطة التي تستسلم الإيرادات عن السلطة التي تتصرف في الأموال، وتخويل وزير المالية السلطة الكافية لإقرار ما يقترح عليه من المصروفات أو رفضها، وأخيراً وضع قاعدة لدفع الحسابات العامة فوراً، وموازنتها وفحصها[128].

فقد تكونت الجالية لبريطانية في مصر من فئات مختلفة وعديدة منها الدينية والسياسية و التجارية وأرباب الصناعات والحرف وموظفو الحكومة وأخيراً فئة الملاك سواء أكانوا ملاكاً

[125] – سلوى العطار، المرجع السابق، ص ص 358– 359.

[126]– محمد مبروك، المرجع السابق، ص 61.

[127]– هنري دودويل، المرجع السابق، ص 200.

[128]– محمد مبروك، المرجع السابق، ص 61– هنري دودويل، المرجع السابق، ص 200.

للأراضي أم للعقارات، واذا كان عدد الأجانب عموما قد ازداد زيادة كبيرة بسبب تشجيع محمد علي لهم للاستفادة من خبراتهم عموماً في مجالات مختلفة فهذا لم يستتبع بالضرورة أن يكون كل هؤلاء جديرون بالاحترام، فقد كان من بين الأجانب جماعة من المغامرين الذين أتوا سعياً وراء المال والثراء السريع، وأيضا من وجهة العدالة في بلادهم.

وفي الأخير منحت الامتيازات الأجنبية البيئة المناسبة للأجانب في الاستقرار في مصر عندما أصبحت الهجرة اليها غير مفيدة وطبيعة الحال فإن تلك الأعداد الكبيرة من الأجانب قد احتوت ايضا على العناصر السيئة، اذ نقل الأجانب إلي المجتمع المصري المدنية الأوروبية مساوئها أكثر من محاسنها.

ثانيا: تأثير الجاليات الأوروبية على المجتمع المصري:

كان تأثير الجاليات الأجنبية وبالأخص الأوروبية منها واضح على المجتمع المصري، وذلك راجع لكثرت أعدادهم وتغلغل مصالحهم بين طوائف المصرين، وتنوعت أماكن اقامتهم بين القرى والمدن، وقد عمل الأجانب جنباً في ميادين العمل والإنتاج، إذ كانت هذه الجاليات مكونة أساساً من صناع وحرفين وعمال ومهنين وموظفين وتجار كانوا على احتكاك يومي ومباشر بالشعب المصري وعلى اطلاع بمشاكلهم؛ والسؤال المطروح كيف كان هذا التأثير؟ فهل كان يشمل الجانب الإيجابي أم الجانب السلبي أم الجانبين معاً.

كانت الهجرة إلى مصر غير مقيدة بقيد ما، ولم يوضع لضبطها ورقابتها تشريع معين، فقد عانت مصر من جراء تدفق الأجانب إليها إذ كان بينهم العناصر الطيبة والعناصر السيئة الذين عاثوا في البلاد فساداً في ل حماية الامتيازات الأجنبية لهم، هذا في الوقت الذي كان فيه المجتمع المصري قد استولى عليه الفتور والتبلد، بعد أن توالى على النّاس الاستبداد والذّل واهوان فماتت فيهم الآمال، وتركوا أنفسهم للتيارات المختلفة تقذف بهم حيثما تقذف وهم في سكون الجما لا يحسون شيئًا[129].

[129] – محمود محمد سليمان، الأجانب في مصر – دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1996، ص 317.

ولقد ترتب على ذلك الدور الذي أصبح يؤديه الغرب في الحياة العامة المصرية سواء في المركز الذي يشغله الأجانب في جميع الميادين، أو في سيرة ولاة وطبقة الحكم الذين كانوا يمثلون في الظاهر القوة السياسية المصرية الوحيدة[130].

فقد تعددت أشكال التأثير الأوروبي فمنه من كان فكريا أو ثقافياً أو اقتصاديا أو اجتماعياً، فمحمد علي باشا والمجتمع المصري ككل تأثر ببعض الأوروبيين وأتباع الفيلسوف الفرنسي سان سيمون[131] الذين رحلوا إلى مصر في أواخر عهده، وأعطاهم سلطة واسعة في الاشراف على المشروعات الانشائية والعمرانية والتنظيمية وعلى الرغم من أن الشكل التنظيمي العام لدولة محمد علي يتضمن تأثراً باتجاهات سان سيمون إلا أنه لم يوافق على جوهر فكرهم، وهو ما دعاهم إلى العودة إلى بلادهم إلا أنهم بالتأكيد تركوا أثر ما في فكر المجتمع، وتركوا تلاميذ، ثم تعرضت أكثر عناصر المجتمع المصري إلى المتغيرات تأثيراً ونشاطاً لعملية التفاعل مع الفكر الأوروبي عندما اتبع الوالي سياسة إرسال البعثات، وذلك حينما اعتمد في بادئ الأمر على الجانب لتثقيف الشعب وأمر رعاياه باحترامهم والاذعان لنصائحهم فأوجد ذلك نوع من الاختلاط بين الأوروبيين والأهالي لا بالإتجار الواسع فحسب بل بالاحتكاك اليومي في العادات والأخلاق العقلية، من ذلك على سبيل المثال أن أخذ كثير من الأغنياء في استعمال السكين والشوكة وسرعان ما تعودوا شرب النبيذ جهاراً، فشاعت

[130]– مليكة عريان، مركز مصر الاقتصادي، ط1، مطبعة رمسيس، القاهرة، 1923، ص 112.

[131]– **سيمون الكونت دو(1760. 1825م):** اسمه الأصلي كلود هنري دي روفروي، مؤسس الاشتراكية الفرنسية، كان من طموحاته الأولى الارتقاء بوضع الإنسان، حيث سعى إلى إيجاد مجتمع جديد يؤدي كل إنسان فيه عمله ويتقاضى أجراً مساويًا لعمله ليس لأحد أن يرث الثروّة، بل يبدأ كل فرد حياته على أسس متساوية، عمل سان سيمون على ترسيخ نظريته على أساس=

هذه العادة بين الكثير من كبار موظفي الحكومة[132]

لقد أدت تلك الهجرات إلى اضفاء صفة التنوع في التركيبة المجتمع المصري، وقد اختلفت دوافعها من بلد إلى آخر، فكان دافع الحج من الأسباب البارزة لاستقرار بعض الجاليات عن طريق مرور القوافل الحجيج بمصر بوصفها محط لقوافل الحج؛ إذ برزت العديد من المدن المصرية التي امتازت بطابع التنوع في التركيبة السكانية ومنها مدينة القاهرة، ومن الأسباب الأخرى لتلك هي طلب العلم من خلال الوفود إلى جامع الأزهر ، ويذكر فيذلك أن لهذا الصرح الحضاري امكانياته ودوره المميز في عملية استقرار من وفد إلى مصر نظراً لتوفيره وسائل الراحة والتنظيم، والإقامة بحسب أصول من وفد إليه مثل

= من الأدلة العلمية، غير أن نتائجه كانت في الحقيقة غير متماسكة، فقد لعب سان سيمون دورا بارزا مع بداية القرن التاسع عشر في تشكيل الفكر الاشتراكي والتاريخ والاقتصاد السياسي وقد نظر للكثير من الأفكار التي تبناها بعده أوغست كونت ونسبها لنفسه مثل علم الاجتماع الذي أطلق عليه الفيزياء الاجتماعية، وهو أول من قال المعرفة العلمية تطورت على ثلاث مراحل اللاهوتية، الميتافزيقية، الوضعية، كما نادى بتأسيس علم لدراسة المجتمع للامتداد به في إعادة بناء المجتمع وترميمه سماه الفسيولوجيا الاجتماعية ويقصد به تحليل ودراسة الظواهر الاجتماعية، كما طور المجتمع المستقبلي على أنه مجتمع إنتاجي وسوف يتم القضاء على الفقر، والحروب بفضل البرامج الصناعية الطموحة والتخطيط العلمي الدقيق، فهو مجتمع لا يعترف بالامتيازات الطبقية ويوفر العمل للمجتمع، يميل **سان سيمون** إلى مبدأ تداخل الدولة في الحياة الاقتصادية فكانت دعوته موجهة إلى الاهتمام بالصناعة ونوه إلى أهمية الحياة البرلمانية في الاقتصاد ودعي إلى أن يكون البرلمان مكونا من ثلاث مجالس هي: مجلس الاختراع، مجلس الفحص، مجلس التنفيذ، وبذلك تشكلت الحكومة من هيئات هي قطاعات الصناعة، التجارة، الزراعة، المهندسين... ومن آرائه أيضا أنه دعا إلى تكافؤ الفرص لا إلى التجانس الكامل، كما كان **سان سيمون** من كبار الفلاسفة الذين أرادوا أن يضعوا لأوروبا قواعد تسير على أساسها العلاقات الأوروبية الجديدة من أمثال كارل **كراوس** K.Krouse فقد دعيا إلى تضامن أوروبي أو ما يشبه الاتحاد الفدرالي بين الدول الأوروبية، وأكد **سان سيمون** على أن تعمل مثل هذه المنظمة الأوروبية على ضمان السلام وحل المشكلات بين الدول، وكذلك ستعمل على تنمية الاستعمار الأوروبي، وقد ساعدت المآسي التي صاحبت الحروب النابليونية وتلك الأفكار الفلسفية لسان سيمون على ظهور عدة مؤتمرات أوروبية التي هدفت إلى حل المشكلات الأوروبية على مائدة ممثلي الدول الكبرى. **ينظر:** أنسار بيار، سان سيمون، أعلام الفكر العالمي، ترجمة إبراهيم العريس،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، 1979م، ص08. **ينظر أيضا:** سان سيمون ، أفكار صغيرة لحياة كبيرة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ص 15. **ينظر ايضا:** فلييب رينييه، السان سيمونيون في مصر 1833- 1851، تر: أمل الصبان وأخرون، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص ص 31- 39.

[132]- سلوى العطار، المرجع السابق، ص 370.

رواق الحرمين، ورواق المغاربة ورواق اليمنية، ورواق البغدادية، ورواق الأكراد ورواق البرابرة، وكذلك نهضت التجار بدور بارز لعملية الهجرة الأوروبية إلى هذا البلد[133].

ومن مظاهر التأثير الأوروبي أيضاً تغير الملابس وبناء المنازل على الطراز الغربي وافتتاح النوادي والحانات، بل والامتزاج الأجانب بالمصريين المسلمين امتزاجاً يكاد يكون اندماجاً، ويضيف إبراهيم زكي في قوله: " وبدأ تيار العادات الأوروبية ينتشر في البلاد المصرية ما إنّ تولّى محمد علي الحكم، وكذلك أخذت الأحياء الأوروبية في مصر تزداد انتشاراً وعمراناً، أما الهندسة البناء فكان محمد على أو لمن أدخل المباني الرومية فحذا حذوه بَنُوه، وبعض الأمراء في إنشاء العمائر على هذا النمط واقتدى الأهالي بالأمراء فكثرت المباني داخل القاهرة وضواحيها كما تم ادخال التقويم الافرنجي بالتدريج نتيجة للنفوذ الأجنبي، وكان التقويم هجرياً في عصر محمد علي، وكان دائماً يقارن بالتقويم الهجري والتقويم في المعاهدات التي كانت تعقد بينه وبينهم" [134]؛ بمعنى اخر أن الأجانب جلبوا معهم عالمهم الخاص فاحتك بهم السكان المحالين وقلدوهم خاصة في بعض العادات المنافية للعادات المحلية.

في حين أن بعض الجاليات احتفظت بموروثها وعاداتها وتقاليدها، ولم تتأثر كثيراً بالحضارة المصرية كالجالية البريطانية على سبيل المثل، إذ ارتدوا البناطير القصيرة ولبسوا القبعات على رؤوسهم، ولم يفضلوا الاختلاط إلا مع أبناء جنسهم أما المرأة البريطانية فقد حظيت بتأثير اجتماعي مميزة خاصة عند النساء المصريات.

وعلى الرغم من حرص المجتمع المصري على عاداته وتقاليده إلا أن بعض المصريين الذين ارسلهم محمد علي باشا إلى دول الأجنبية تأثروا بالمظاهر الأوروبية ونقلوا من الأفكار الغربية إذ ارتدوا الملابس ذات الطابع الغربي؛ إلا أن الباشا أصدر أمراً منع فيه المصريين من تقليد الأوروبين، وظلوا متمسكين بزيهم حتى نهاية حكم محمد علي باشا عندما ادخلت

---

[133]– حازم مجيد أحمد الدوري ومحمد أمجد صالح الدهان، " الجاليات الأجنبية ودورها الاجتماعي في مصر(1805م – 1848م)"، **مجلة الملوية للدراسات الأثارية والتاريخية**، المجلد 7، ع 31، العراق، أوت 2020، ص 172.

[134]– إبراهيم زكي، المرجع السابق، ص 190– 191.

التغيرات التي كان المجتمع المصري قد انفتح عليها في ظل التطورات التي شهدتها مصر خلال تلك المدة[135].

كما أن التّعليم الأجنبي الذي ادخل إلى مصر قد كشفت أوراقه في الآونة الأخيرة من حكم محمد علي باشا عندما تبين بأنه أحد الوسائل المهمة للمستعمرين من منصرين ومستشرقين فلم يكن الهدف ينصب في خدمة الأجيال اللاحقة وإنما لنشر الثقافة الأوروبية وتشويه الشخصية الاسلامية، كما أن الهدف الأساسي التي كانت تصبوا إليه المدارس الفرنسية في مصر هو الدعاية للمذهب الكاثوليكي[136].

كما أن توجه التّجارة المصرية صوب الغرب إلى اعتماد البلاد على الأسواق الأوروبية وتعرضها للتّأثير بتقلبات الاقتصاد الأوروبي أدى تدفق التجار الأوروبيين إلى جعل مصر أكثر تعرضاً للتدخل الأوروبي في شؤون البلاد الداخلية بحجة حماية تجارها ومصالحها التجارية، وهكذا أخذ الأوروبيون يستثمرون أموالهم في مصر حتى سيطروا على معظم تجارتها، وكافة أنواع النشاط المالي خاصة بعد انهيار نظام محمد علي الاحتكاري، ففتحت السوق المصرية واسعة أمام الرأسمالية الأجنبية بعد أن قضى محمد علي على الطبقة الوسطى البرجوازية المصرية الوليدة[137].

كما أن عملية الاستعانة بالخبرات الأجنبية قد أرهقت ميزانية الدولة المصرية نتيجة الأموال الضخمة والحوافز الكبيرة التي كان يقدمها محمد علي باشا لتلك الخبرات، ومن جانب أخر عالج الباشا هذا الأمر بفرض الضرائب القاهرة على معظم شرائح المجتمع ومنهم الفلاحين، فخلق ذلك نوع من الاضطراب والحاجة داخل المجتمع المصري[138].

---

[135]– هند نجم الدين عباس، الحياة الاجتماعية في مصر (1798– 1848)، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، 2017، ص 177.

[136]– حازم مجيد أحمد الدوري ومحمد أمجد صالح الدهان، المرجع السابق، ص 178.

[137] – سلوى العطار، المرجع السابق، ص ص 370– 371.

[138]– حازم مجيد أحمد الدوري ومحمد أمجد صالح الدهان، المرجع السابق، ص 179.

رافق هذا التغير المفاجئ والتطورات التي طرأت على جميع الميادين في مصر على مختلف الشرائح الاجتماعية سلباً كان أم ايجاباً من خلال نوعية العمل والنظام الاقتصادي الجديد الذي أوجده محمد علي باشا إذ أثر على بعض الطبقات الاجتماعية، ولا سيما المزارعين والحرفيين الذين بدأوا يعيشون ظروفاً صعبة في ظل التغيير[139] الذي شهدته مصر في مختلف جوانب الحياة خاصة في مسألة التجنيد الاجباري الذي فرضه الباشا على شرائح متعددة من المجتمع المصري، ومنهم الفلاحون وفي نفس الوقت تم إعفاء الأقباط المسيحين منه، فخلق ذلك نوع من الحساسية بين الجانبين بحيث أقدم البعض من الفلاحين على احداث عاهات جسمية بأبنائهم حتى لا يجندوا في الجيش، ومنها اتلاف عينين أبنائهم باستخدام سم الفئران كذلك أقدم بعض الشباب على وشم الصليب على معصم أيديهم، والبعض الأخر كانوا يخلعون أسنان أبنائهم؛ لأنهم كانوا يعرفون أن الجندي يحتاج أن تكون له أسنان سليمة لنزع فتيل القنابل وغيرها من الأعمال التي يتهرب بها المجتمع عن الخدمة العسكرية[140].

ونلاحظ مما سبق ذكره أن تأثيرات الجاليات الأجنبية لم تكن في الجوانب الاجتماعية موازنا لتأثيراتها في النواحي الأخرى، ومنها الجانب الاقتصادي لكون أن الهدف الأساس لتلك الجاليات هو استغلال الاقتصادي لمصر في ظل الثورة الصناعية التي شهدتها المجتمعات الأوروبية خلال تلك المدة، كما أن التأثير الخارجي على المصريين سلبياً كان أم ايجابياً فتغير شكلهم ولم تتغير أرواحهم، بمعنى أخر لبس المصري ملابس الغرب والأجانب بصفة عامة لكن جذوره وعاداته وتقاليده وموروثه الحضاري ظل كما هو وحافظ عليه إلى يومنا هذا، وهذا ملاحظته أثناء زيارتي لمصر .

[139]– سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط1، دار الشروق، الأردن، 1997، ص 350.

[140]– ريمون فلاور، مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، تر: سيد أحمد علي الناصري، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2000، ص 108– 109.

ثالثاً: نظرة الغرب إلى المساعدة المقدمة لمحمد علي باشا

منذ أواخر القرن الثامن عشر تكونت علاقة القوى في الحلبة العالمية بطريقة تحتم على منطقة آسيا وبما فيها مصر اللحاق بأوروبا توخيا للصمود في صراعها معها، وكان الغرب وبالأخص فرنسا وايطاليا يسعى إلى تقديم مساعدات في مختلف المجالات؛ فماذا كانت نيتهم من ذلك؟

كان الحكام الذين تحسسوا بشكل أدق من غيرهم متطلبات عصرهم يحاولون التّكيف مع مجرى التطور الرأسمالي العالمي بتطبيق إصلاحات فوقية، وفي سعيهم تعزيز مواقعهم السياسية والعسكرية والإقتصادية وجدوا أنفسهم مرغمين على الاستعانة بمنجزات العلم والتقنية الأوروبية وبخبرة الاختصاص الأوروبين ومع أن هناك علاقات حيوية بدرجة كافية بين أوروبا الغربية والشرقية الاسلامية في العصور الوسطى؛ إلا أن هذا الأخير لم يكن حينذاك أدنى رغبة في اقتباس الثقافة وأسباب الحياة الأوروبية[141].

أما في القرن التّاسع عشر فقد تبدل الوضع تبدلاً جذرياً، فقد تحدد التأثير الذي يمارسه تفاعل التجمعات البشرية ذات الهياكل الاجتماعية والاقتصادية السياسية المختلفة وكذلك وضحت الأساليب الحياة والقيم الروحية المتباينة تبيناً شديداً هي الأمور ترتيب على العملية تشكل بها الاقتصاد العالمي، وتكشف عن اتجاه عام إلى تسوية النظم الاجتماعية والاقتصادية، وإلى اثراء حياة النّاس الروحية وفي هذه الأجواء ظهر محمد علي باشا بوصفه رجل النهضة والفكر العربي فقد فهم حسب تفكيره أن سبب انهيار الحضارة العربية الاسلامية كان عندما انفصلت بالضبط على أعظم تقاليد الفكر الاسلامي وهي الانفتاح على الحضارات الأخرى القديمة والجديدة، والتفاعل مع تراث الأخرين بما يُلهم التقدم البشري على الاستمرار واحتضان العقل الانساني كيفما كانت اجتهاداته في التحليل ومغامراته في التفسير

[141]– عبد الوهاب بوشليخة، " تجربة الحوار في الفكر النهضوي (حملة نابيليون، محمد علي باشا، رفاعة الطهطاوي)"، مجلة الأداب والحضارة الإسلامية، الملجد 1، ع 2، جامعة قسنطينة، 01 مارس 2003، ص 159.

والخلق والابداع[142]، حينها اكتشف محمد علي باشا أن التّخلف ليس في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحدها، بل في طريقة تصور للعالم وفي قوالب ذهنية ومكونات النفسية وانا المسلمون ما زلوا لم يؤسسوا العالم الجديد بعقلية قديمة، في حين أن الثورة لا تحدث إلا في الذهن أولاً، ولما كان التنوير يعني قدرة الانسان بعقله على التصدي للقديم وتمسكه بحريته في الفكر والسلوك ومطالبته بنظام يقوم على الحرية، شعر محمد علي أن تحديد صلته بالتنوير وجعل مهمته منه بالأمان بالأخر[143]، لكن السؤال المطروح؛ هل استعان محمد علي باشا بالدول الأوروبية من أجل تحقيق نهضة مصر والنهوض بالخلافة الاسلامية أم لتحقيق طموحاته الوحدوية؟ وإذا كان ذلك صحيحا هل تقدم الدول الاستعمارية جميع أشكال الدعم المادي لدولة قد تشكل خطراً على نفوذها ومصالحها المستقبلية في المنطقة؟ وهل وتبنى وحدة العالم الإسلامي بمساعدة أوروبية استعمارية مضادة؟ وما هي مصلحة الدول الاوروبية وفي مقدمتها فرنسا في إقامة مثل تلك الوحدة؛ فهل كانة تجربة محمد علي مجرد أداة تمكنت من خلالها الدول الاوروبية من تشجيعها ودعمها ثم استغلالها في ضرب الدولة العثمانية الاسلامية ؟

اهتمت أوروبا بالإسلام والمسلمين عمومًا وبالعالم العثماني خصوصًا بداعي اشتباك المصالح الحسية والمعنوية التي أملت أحيانًا سياسة الاستحواذ وأحيانًا سياسة الابتعاد، وليست مظاهر الاهتمام الأوروبي مما يُمكن إجمالُه في الصيغة الواحدة، وإنما هي مما يزداد وضوحًا عند دراستها مقترنةً بالوقائع في موضع التفصيل، ولكن يصح أن نقف في موضعنا الحاضر عند مسألة مهمة من مسائلها، وهي الآتية: هل اتسع الفكر الأوروبي في ذلك العصر للبحث عن أسس يصح أن يقوم عليها تعاون حقيقي جدير بهذا الاسم بين دار الإسلام وأوروبا؟ إن من المسلمين إذ ذاك من خطا هذه الخطوة ورآه أمراً ممكناً لازماً، فهل خطاها أحد في أوروبا إذ ذاك؟ إنا لا نُدخل في عناصر المسألة سعيَ بعض العلماء وغير

---

[142]– ينظر: غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1983، ص ص 13- 14.

[143]– عبد الوهاب بوشليخة، المرجع السابق، ص 160. ينظر أيضاً: حسن حنفي، نحن والتنوير ضمن كتاب قضايا عربية (الحرية والديمقراطية وعروبة مصر)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ص ص 17- 18.

العلماء من الأوروبيين لفهم الإسلام والمسلمين؛ من أجل تيسير مهمة الحاكم الأوروبي في القُطر الإسلامي، أو إمداد وزارات الخارجية بالحقائق النزيهة وما إلى ذلك، ولا ندخل فيها سعي أصحاب الدعوات إلى مذاهب اجتماعية تستند إلى التطوُّر الاجتماعي الأوروبي وتروم أن تجد في دار الإسلام ميدانًا لانتشارها؛ بل ولا ندخل فيها ما تلوح عليه مسحةُ عدم الاتصال بمنفعة أوروبية أو فكرة أوروبية بحتة؛ كاشتغال بعض الأوروبيين بمسائل الخلافة، أو إنشاء وحدات داخل نطاق دار الإسلام تقوم على قواعد من وحدة اللغة أو الجوار أو الثقافة، أو ما شابه، أو إحياء فنون أو عادات إسلامية تقليدية[144].

إننا نُخرج هذه الحركات من تحديدنا المسألة؛ لا لأننا لا نرى ما فيها من حسن النية، ولا لأننا لا نعتدُّ بأهميتها، ولا لأننا لا نعتقد أن في بعضها ما يُوجِد وجهًا للتعاوُن بين المسلمين وغير المسلمين؛ إنما نخرجها لسبب واحد :لأنها جميعًا تندرج تحت باب المنفعة الأوروبية بمعناها الشامل، ومسألتُنا تقوم على الاعتراف بالإسلام لذاته، وكما هو وقبوله كما هو في تنظيم عالمي، وجوابنا على ذلك: أن أوروبا في عصر محمد علي لم تكن مستعدة لذلك، وإن نظرتها وخططها نحو الإسلام والمسلمين كلها مما يقوم على قاعدة المصالح الأوروبية المختلفة، ويرجع ذلك لسببين :يرجع أولًا؛ لاعتقاد الأوروبيين إذ ذاك أن رسالة الإسلام قد قضيت، وألا رجاء للمسلمين إلا بأنْ يأخذوا عن المجتمع الأوروبي فكرة والتّخلّي عن فكرة المحافظة والسكون، كما يرجع ثانيًا؛ لأن فكرة التّنظيم العالمي كانت إذ ذاك لم تنتقل إلى حيز المباحث السّياسية العلمية[145].

[144]– محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص 38

[145] – المرجع السابق، ص 38– 39.

رابعاً: انجازات محمد علي باشا الداخلية في بناء دولة مصر الحديثة

أدرك محمد علي أن بقاءه في مصر ونجاحه في تدعيم حكمه فيها لن يتوقف فقط على رضا الأهالي أو عطف السلطان، أو سكوت المماليك، وإنّما يعتمد قبل كل شيء على نجاحه في بعث القوى الكامنة في هذه البلاد وذلك بتنظيم اداراتها وتنمية مواردها، وتعليم أبنائها، وتكوين قوة عسكرة نظامية كافية لإرهاب خصومه، وتوطيد حكمه وصد الغزو الأجنبي واقرار على مصر بالدولة، وبهذا يكون استكمال المقومات اللازمة لبناء دولة حديثة؛ **فهل نحج محمد علي باشا حقا في تحقيق ذلك؟**

بعد أن استتبت الأمور المالية لمحمد على باشا، وبعد أن عضد حكمه لمصر، ووضع يده على مقاليد أمورها، وحصل على مكانة عالية لدى الباب العالي، تعلقت همته بفكرة تحديث مصر وإلحاقها بركب الحضارة وجعلها دولة عصرية تواكب الدول الأوروبية والتقدم الذي تخلفت عنه لفترة طويلة، مما تطلب وضع نظم جديدة متطورة للنهوض بمصر في مختلف المجالات، كما كان له طموح في بناء دولة عربية كبرى تحت إمرته تكون مصر مركزها.

فكان محمد علي أول حاكم مسلم في العصر الحديث يتجه مباشرة إلى أوروبا[146] ليستعين بعلومها ومؤسساتها لتنظيم دولته وتطوير مجتمعه تطويراً جذرياً وكان طموحه أن تصبح مصر في عشر سنوات الأمة الخامسة في العالم اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً بعد روسيا وانكلترا وفرنسا والنمسا[147]، وكان طموحه تنفيذ مشروع سياسي ضخم، وهو إنشاء إمبراطورية عربية منفصلة عن الإمبراطورية العثمانية وتكون مصر مركزها الأساسي بما فيها من

[146] – والسبب في ذلك أن محمد علي كان مفتوناً بالأوربيين وكان يقلدهم تقليداً شديداً، حتى إنه كان كلما وضع قانوناً ذكر في مقدمته أنه إنما يتشبه بممالك أوروبا لوضع النظامات الجديدة في مصر، وكان يكرر هذه العبارة في مقدمات جميع القوانين واللوائح التي يصدرها.

[147]– Hajjar , l Europe et les destinees du procne orient (1815 – 1848) blonded cay . belfifue , 1970 , p.81 –82.

خصائص لغوية وتاريخية وثقافية واحدة، ثم توحيد جميع الناطقين باللغة العربية تحت سلطة سياسية واحدة[148].

فسعى محمد علي على نجاح تنظيماته ومشروعاته الجديدة على المصريين أن يقتنع بها أفراد الشعب، وأن يطلع هو على سير العمل فيها ويتابعه، فاتجه إلى استعمال الكلمة المطبوعة في الإعلام والدعاية لنظام حكمه[149]، وقد تطلع محمد علي إلى ما يجري في أوربا من منجزات العلم والتقنية، فأراد تحويل مصر إلى دولة من الطراز المميز في المنطقة العربية مما جعله يهتم بالبناء التعليمي والاجتماعي لمصر الأمر الذي تطلب منه تغيراً جذرياً لمجمل حياة البلاد الاقتصادية، وقد فتح ذلك منفذاً لمصر إلى الثقافة والأفكار الجديدة[150].

1- الإدراة:

نجح محمد علي في أن يجعل من مصر دولة قوية وحديثة في شتى المجالات، وعمل على وضع النظم الادارية التي تحقق له بسط سيطرته عليها والانفراد بحكمها بمعزل عن الدولة العثمانية، حيث أنشأ العديد من الدواوين، وقسمت الأقاليم بشكل يسهل معه إدارتها، فأطلق على المدن الكبرى والثغور اسم محافظات، واستمر هذه التسمية إلى الآن دون تغيير، فقد قسمت الأقاليم إلى سبع ولايات، وكان هذا التقسيم وفقاً للأسلوب الكمي المتبع في فرنسا، حيث تضم كل ولاية تبعاً لحجمها ومساحة أراضيها وكثافتها السكانية عدداً من الأقسام، ويضم كل قسم عدداً من الأخطاط، ويشمل كل خط عدداً من القرى[151]، وقد قامت فرنسا بتعديل هذا التقسيم عام 1870م بتقسيم المديريات أو المحافظات إلى كميونات تنقسيم بدورها إلى مراكز. ولم يتبع محمد على الأسلوب الوظيفي في التقسيم الذي يقوم على إدارة

---

[148]- جورج انطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد، ط6، دارا لعلم للملايين، بيروت، 1980، ص 91-92.

[149]- إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية 1828 – 1942، ط2، القاهرة، 1942، ص 6 – 7 .

[150] – ز. ل . ليفين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا و مصر، تر: بشير السباعي، ط1، بيروت، 1978، ص 21 – 22.

[151]- زين العابدين شمس الدين نجم، إدارة الأقاليم في مصر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2018، ص 7

الخدمات المحلية في النطاق الملائم لها، الذي طبقته انجلترا بدءا من عام 1832م حتى 1888م، حيث أنشيء إلى جانب الوحدات المحلية التقليدية وحدات للخدمات، الذي أخذت به الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه لم يتبع الأسلوب الطبيعي في التقسيم الذي يقوم على المجتمعات القائمة في الريف والحضر كوحدات أساسية للإدارة المحلية من خلال قيام وحدات اجتماعية حقيقية وتنمية الولاء والانتماء المحلي الذي يؤخذ به في جميع نظم الادارة المحلية تقريباً. ولتحقيق المزيد من السيطرة على إدارة الأقاليم فقد تم إلغاء الولايات لقلة عددها، وتقسيم الأقاليم إلى 24 مأمورية عام 1826م مع تعديل الأقسام والأخطاط. وكان التقسيم الأخير هو إنشاء المديريات عام 1833م الذي استمرت عليه البلاد لفترة طويلة، مع تغيير اسمها فيها بعد إلى محافظات وتحويل الأقسام إلى مراكز[152].

ولقب " مدير" على رئيس المديرية ورئيس المركز كما لقب "حكمدار" ولقب" بك"، كما قسم مصر إداريا إلى سبعة مديريات، جعل على رأس كل منها مديرا، أربعة منها بالوجه البحري وثلاثة بالوجه القبلي، كما قسم هذه المديريات إلى مراكز، وكل مركز إلى أقسام، وكل قسم إلى قرى، ويرأس كل مركز مأمور، أما الأقسام فكان كل منها تحت رئاسة ناظر والقرية يرأسها شيخ يساعده في مهامه الصراف، أما القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فكان لكل منها حاكم وضابط، وقد استعان بالديوان في تسيير شؤون مصر[153].

أراد محمد علي باشا عندما طبق المركزية في حكم الأقاليم انشاء دواوين التفتيش بالإشراف على إدارتها ومراقبة أعمال حكامها الذين منع اتصالهم بأحد غيره، وكان يعتبر عدم إطاعتهم لأوامره أو عدم تنفيذهم للقوانين والنظم استقلالاً عن إرادة وسلطة الحاكم، وكان حازماً في مواجهة أي إهمال أو تعطيل للأعمال رغم الأعباء الكثيرة الملقاة على عاتقهم، وهددهم بأشد العقاب، وفي الوقت نفسه حافظ على هيبة الحكومة ممثلة في شخص هؤلاء الحكام في نظر الأهالي[154].

---

[152]– زين العابدين شمس الدين نجم، المرجع السابق، ص 8.

[153]– المرجع نفسه، ص ص 8– 9

[154] المرجع نفسه، ص 9.

أ- الديوان العالي

كان يساعد الباشا في إدارة البلاد مجلس خاص عرف باسم "الديوان"، وتم تأسيسه عام 1824م، وكان مقره بالقلعة وأطلق عليه اسم " الديوان العالي"[155]، كما أطلق على هذا المجلس عدة أسماء كمجلس القلعة وديوان الخديوي، وفي عام 1825م كون المجلس العالي الذي أختص بجميع الشؤون الداخلية عدا الشؤون المالية[156]، كان هذا المجلس يتألف من نظار الدواوين رؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الأزهر واثنين من التجار يختارهما كبير التجار وكاتبين وشيخا عن كل مديرية، ويتم استبدال هؤلاء كل سنة[157]، أما رئيس الديوان فكان يلقب بـ "كتخدا"، وهو بمثابة وكيل الباشا كما كانت له سلطة واسعة في كافة شؤون الحكومة ويشمل هذا الديوان على عدة دواوين وهي :ديوان الجهادية ديوان التجارة، ديوان المدارس، وديوان المباني والأشغال[158] وغيرهم من الدواوين، فكان يجتمع بانتظام وتعرض عليه أمور الحكومة كافة ويقوم بدراستها ثم بعد ذلك يعرضها على الباشا[159].

ب -مجلس الشورى

تأسس عام 1829م كان يتألف من موظفي الحكومة وبعض نواب الأمة من الأعيان والعلماء، وينعقد مرة واحدة كل سنة حيث تعرض مشاريع وترفع توصياته إلى الديوان العالي[160]؛ كما كان يهتم بمسائل الإدارة والتعليم والأشغال العامة، وكان يرأسه إبراهيم باشا ومعه 156 عضو منهم ثلاثة وثلاثين من كبار الموظفين والعلماء، وأربعة وعشرون من

155- نمير طه، المكان نفسه

156- جاد طه، المرجع السابق، ص 47.

157- بيضون جميل و آخرون، المرجع السابق، ص84 .

158- حلمي سهير، المرجع السابق، ص78 .

159- رفعت محمد، المرجع السابق، ص 119.

160- برج عبد الرحمن وآخرون، المرجع السابق، ص 23

مأموري الأقاليم وتسعة وتسعون من أعيان مصر ومن بين أعضائه نذكر نجد عباس باشا، وأحمد باشا، وخليل بك وسليمان أغا[161] وغيرهم.

ج-الدواوين(الوزارات السبع)

قام الباشا بإصدار اللائحة الإدارية الشهيرة المعروفة بالسياستنامة[162] أو قانونامة في عام 1837م[163]، وقد ضمت هذه اللائحة ثلاثة فصول، فالفصل الأول أختص ببيان الترتيبات الأساسية أما الثاني فأختص بالإجراءات العلمية والفصل الثالث أختص في قانون العقوبات[164]، كما أن هذه السياسة أعادت تنظيم الإدارة والحكومة، وبقي هذا القانون قائما وظل أساس التنظيم الحكومي في مصر طوال عهد محمد علي، وبموجبه انحصرت السلطة في سبعة دواوين وهي تشبه الوزارة بعصرنا الحالي وهذه الدواوين هي:

- **ديوان الخديوي (وزارة الداخلية):** كان يختص بالشرطة القضائية التي لا تدخل في اختصاص المحاكم الدينية أو التجارية، و كان يشرف على 19 إدارة منفصلة[165].
- **ديوان الإيرادات (وزارة المالية):** وهو قسمان الأول اختص بحسابات كافة المديريات وجزيرة كريت والحجاز والسودان، أما الثاني فأختص بإيرادات مصر والإسكندرية وغيرهما، وكان لهما مفتشون يعرفون بمفتشي الأقاليم للتنقيب على المصالح[166].
- **ديوان الجهادية (وزارة الحرب):** وكان يختص بالتجنيد والتدريب، ونظام القوات وكل ما يخص الجيش من خدمات طبية وغيرها [167].

---

[161]- هريدي صلاح احمد، دراسات في تاريخ مصر الحديث و المعاصر، ج 2، ص 76.

[162]- سياسستنامة :هي سياسة خاصة بالسلاطين بشكل عام وتشمل الصفات الواجب على السلاطين التحلي بها وشروط وقواعد السلطنة، كما أنها توضح كيف تكون منظومة الدولة كما تكشف أيضا عن النتائج السلبية للإدارة السيئة وتستند في الأساس على الأعراف والأسس الدينية.

[163]- حلمي سهير، المرجع السابق، ص79 .

[164]- جاد طه، المرجع السابق، ص48 .

[165] - عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ مصر الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص237

[166] - هريدي صلاح احمد، دراسات في تاريخ مصر الحديث و المعاصر، ج2 ، ص 32.

[167]- الرافعي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 523.

- **ديوان البحر(وزارة البحرية)** : وكان يختص في أمور الأسطول والبحرية كما وكلت لهذا الديوان إدارة جميع إدارات الإسكندرية التي تتولى دفع جميع النفقات التي لا يتولها ديوان الخديوي[168].
- **ديوان المدارس (وزارة التعليم والأشغال العمومية)** : تتولى أمر المدارس الابتدائية والثانوية والفنية ومطبعة بولاق والجريدة الرسمية "الوقائع المصرية" وغيرها من المهام **[169]**.
- **ديوان التجارة المصرية والأمور الافرنكية (وزارة التجارة والشؤون الخارجية):** وكان يتولى النظر في العلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب ومبيعات متاجر الحكومة ومشترياتها[170].
- **ديوان الصناعة (وزارة الصناعة):** وكان يتولى أمور مختلف المصانع في القاهرة كمصنع الطرابيش، وكذلك صناعات كافة الأقاليم كانت من اختصاص هذا الديوان**[171]**.

طلب الباشا من رئيس كل ديوان أن يقدم تقرير أسبوعي عن أحوال ديوانه وميزانيته السنوية**[172]**، بالرغم من وجود كما أن هذه السياسة أعادت تنظيم هذه الدواوين إلا أن الباشا ظل هو محل السلطة العليا في مصر، فكان بمثابة الوالد والحاكم المصلح لرجال دولته، يتوعد المذنبين بالعقوبة ويكافئ المصلحين المخلصين في أعمالهم**[173]**.

د –المجالس الثلاث :في جانفي 1847 أسس ثلاث مجالس جديدة وهي[174]:

- **المجلس الخصوصي** : اختص بالنظر في شؤون الحكومة وسن اللوائح وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه إبراهيم باشا.

---

[168]– هريدي صلاح احمد، دراسات في تاريخ مصر الحديث و المعاصر، ج 2، المرجع السابق، ص 33.

[169]– المرجع نفسه، ص ص 33– 34.

[170] –الرافعي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 524.

[171] – عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ مصر الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 239.

[172] – بيضون جميل و آخرون، المرجع السابق، ص 84.

[173] – جاد طه، المرجع السابق، ص48

[174]– الرافعي عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 525.

- **المجلس العمومي:** وهو مؤلف من مدير المالية ووكيل ديوان الخديوي ومدير المدارس ومدير الحسابات ومفتش الصناعات، وكان ينعقد هذا المجلس مرتين في الأسبوع، كان ينظر في شؤون الحكومة العمومية ويرسل قراره إلى المجلس الخصوصي، وإذا تمت الموافقة عليه يرسل إلى الباشا ليتم تنفيذه.
- **مجلس عمومي بالإسكندرية:** من اختصاصه النظر في شؤون الإسكندرية، يرأسه ناظر ديوان الإسكندرية ومن أعضائه ناظر ديوان التجارة وأمين الجمارك وغيرهم[175] .

ومن هنا يتضح لنا الفرق بين الديوان والمجلس، فالديوان هو بمثابة الوزارة حالياً، أما المجلس فيجتمع رؤساء الدواوين حيث يعرض رئيس كل ديوان أمور ديوانه الذي يشرف عليه لمناقشتها.

وفي الأخير يمكن القول أن محمد علي باشا نجح في جعل مصر دولة حديثة تحاكي النظم الأوروبية في الادارة، وذلك بتغير النظام القديم للإدارة في مصر وإحلال نظام جديد تمتد فيه يد الدولة إلى كافة الأنشطة والمصالح، وتتنوع الادارات التي تتولى شؤون الادارة وتعمل وفق إرادة الحاكم لتحقيق نهضة البلاد وتعميرها .

2- التعليـــــم

اهتم الباشا بالنظام التعليمي[176] حيث أصبح التعليم واجبا من اسمى الواجبات التي تنهض بها الحكومة ووجّه البلاد نحو الحضارة الأوروبية، حيث كانت مصر في مقدمة الأمم الشرقية التي عنيت بالتعليم، اذ كانت سباق إلى التعليم الديني بإنشاء الأزهر، وكذلك انشاء المدارس الحديثة والتي تعتبر من أهم العوامل في بعث الروح القومية في مصر، فلأول مرة

---

[175] –جاد طه، المرجع السابق، ص35.

[176]– تعد العلاقة بين التعليم والمتغيرات المجتمعة علاقة جداية متشابكة وأبعد ما تكون على عن علاقة أحادية الاتجاه، فالتعليم يلعب دوره في تغير المجتمع والنهوض به عبر توفير أحد أركان هذه النهضة، وكلما ارتقى المجتمع وتأثر بفعل عوامل النهضة انعكس هذا على التعليم أيضاً، فيضبح أكثر تجاوباً وتفاعلا مع متطلبات التغيير الاجتماعي وطموحات المجتمع للنهوض في إيطار هذا الفهم يمكن رؤية الدور الذي لعبه توجه محمد علي لتحديث مؤسسات التعليم في مصر كأحد آليات بناء مشروع دولته ومشروعه الاستقلالي واعتماد على التعليم بوصفه أهم آلية من آليات النهضة التي تقوم على تحقيق التعامل الواسع والعميق مع الثقافة العلمية المرتبطة بجميع العلوم.

في تاريخ مصر الحديث ولّي المصريون المتعلمون كثيراً من شؤون بلادهم، فأصبح منهم الضباط في الجيش والأسطول البحري والأطباء والمهندسون والمعلمون ورجال الادارة[177].

ووفقا لكتاب "محمد على باشا بدايات قاسية ومجد عظيم" لنشأت الديهى، فإن طموحات محمد على باشا كانت تهدف إلى بناء إمبراطورية مصرية وهى البوصلة التي كان يهتدى بها الرجل فى جميع توجهاته ومساراته، وأيقن حينها أن البداية لابد أن تكون من التعليم والبحث العلمي، فالطموحات العملاقة لا يقوى على حملها إلا العملاقة المتعلمون، ولقد كان الجهل والتخلف والمرض ثالوثا خطيرا يقبض على روح الأمة ويحطم آمالها وأحلامها[178].

كان التعليم في مصر قبل محمد علي تعليما دينيا، يقوم على تدريس مبادئ اللغة من صرف ونحو وتحفيظ القرآن الكريم، وكان الجامع الأزهر بفروعه في المدن والقرى يمثّل المعهد العلمي العالي الوحيد الذي كانت تستسقي منه مصر ما تمد به أبناءها والكتاتيب أداة التعليم الأولي الوحيدة في الرّيف، والمدارس الأهلية التي يؤسسها الأغنياء في المدن الوسيلة المثلى لتدريس أبنائهم قبل الالتحاق بالأزهر ورغم الأهمية التي كانت تتمتع بها هذه المراكز العلمية الإسلامية، إلاّ أنّها عجزت على أن تكون مصدرا فعالا من مصادر التثقيف في البلاد المصرية، ومن توفير تعليم منظم ودقيق لعامة الناس يمكنّهم بعد التخرج من مزاولة نشاطاتهم اليومية من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها[179].

وكان للتّعليم أهمية واسعة في اصلاحات محمد علي حيث افتتح العديد من المدارس الابتدائية التي كانت تدّرس للطلاب ليس فقط علوم القرآن والعلوم الدينية، وإنما أدخل في مناهجها العلوم العصرية مثل اللغات الأجنبية، والعلوم، وكانت هناك مدارس ثانوية تدّرس التاريخ والجغرافية فضلاً عن العلوم الأخرى[180]، وكان يحق للطالب بعد أن ينتهي من

---

[177]– بيضون جميل و آخرون، المرجع السابق، ص ص 84– 85.

[178] – نشأت الديهى، محمد على باشا بدايات قاسية ومجد عظيم، (د.ط)، دار الجمهورية للصحافة، القاهرة، أوت 2009، ص 105.

[179]– المرجع نفسه، ص 106.

[180]– محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، ط1، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1971، ص 63 .

دراسته الثانوية، أن يلتحق بإحدى المدارس الحربية أو المهنية، وقد استحدث مدارس للطب والبيطرة والميكانيك والزراعة واللغات، وكان المنخرطون في هذه المدارس يتقاضون رواتب ويقيمون في أقسام داخلية، وكان يهدف من تعليم هؤلاء أن يكّونوا مَلاكات تدير المصانع والمؤسسات في البلاد ويعتمد عليهم في تنفيذ مشاريعه [181] .

ومع عودة رفاعة الطهطاوي من بعثة التعليمية في فرنسا أسند إليه محمد علي تأسيس مدرسة "الألسن" عام 1836م بالأزبكية حيث تولى نظارتها، ثم تولى تأسيس المدارس العليا مثل مدرسة الصيدلة عام 1829م بالقلعة، ومدرسة المعادن عام 1834م بمصر القديمة، ومدرسة الزراعة عام 1836م بنبروه وهي المدرسة التي نقلت فيما بعد إلى شُبرا، ومدرسة المحاسبة عام 1837م بالسيدة زينب، ومدرسة الفنون والصنائع عام 1839م، ومدرسة الطب البيطري برشيد التي نقلت فيما بعد إلى أبي زعبل، ثم إلى شبرا، ومدرستان تجهيزيتان (ثانوية) واحدة بأبي زعبل والأخرى بالإسكندرية[182].

والجدير بالذكر أنه ظهرت في عهد محمد علي المدارس التعليمية والطبية والحربية على الطراز الأوربي، وفتح داراً للطباعة، ونشطت حركة الترجمة نشاطاً كبيراً[183]، وفي سبيل تحقيق نهضة علمية اهتم الباشا بالترجمة، وبدأ بتكليف أجانب ومن أهمهم كلوت بك الذي ضمن إنجازاته الكبيرة ترجمة 152 كتاباً من لغات عديدة للعربية، ثم تطور الأمر لتأسيس مدرسة مختصة للترجمة أرسها الشيخ رفاعة الطهطاوي[184]، وقد طبعت في مطبعة بولاق الشهيرة التي أنشاها محمد علي عام 1821م ما يقارب ألفين كتاب ومصنف، ثم أسست مدرسة الترجمة عام 1835، صدرت أول صحيفة رسمية في عهده الوقائع المصرية عام

---

[181]- لوتسكي، المصدر السابق، ص 17 .

[182]- يونان لبيب رزق زمحسن يوسف، المرجع السابق، ص 80.

[183]- لوتسكي , تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص 73 .

[184]- رفاعة رافع الطهطاوي (1216 هـ/1801 - 1290 هـ/1873): هو رفاعة بك بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع، ويُلحقون نسبهم بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحُسين بن فاطمة الزهراء، من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا. ينظر: جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012، ج2، ص 31.

1828م[185]، ومن جانب أخر كان للمدارس الأجنبية التي أنشاها محمد علي وخلفاؤه لتعليم أبناء الجاليات الأجنبية في مصر تأثير كبير على الحركة الفكرية، ولاسيما أن هذه المدارس كانت تعمل في تثقيف تلاميذها تثقيفاً قومياً، وبعضها تغلب عليه الصفة الدينية، وهي المدارس التي أنشأتها الجمعيات التبشيرية، وأغراض هذه المدارس واضحة تتلخص في تعليم الأجانب المقيمين في مصر طبقاً لمذهبها الديني، ونظراً لأن التعليم في هذه المدارس كان وسيلة من وسائل– الدعوة إلى المسيحية(التبشير) – فقد أحجم المسلمون في مصر عن دخول تلك المدارس في بداية الأمر[186]، ويتضح من ذلك أن لرجال الدين دوراً بارزاً في امتناع أبناء عامة المصريين عن الدخول في المدارس الأجنبية وذلك عن طريق تحريض أباءهم وإصدار فتوى تحرم دخول أبناء المسلمين إلى مثل هذه المؤسسات على اعتبارها تهدف الى فساد أخلاق المصرين وتبث فيهم عقائد وأفكار تتناقض مع تعالم الدين الإسلامي[187]. ولكن الباشا تخوف فيما بعد من آثار تعميم التعليم من تنوير الشعب الذي قد يدفعه للثورة على حكامه فسعى لإنقاص عدد تلاميذ المدارس، وحاول ربط التعليم بحاجة الدولة.

نلاحظ مما سبق ذكره أن مصر شهدت تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية منذ أواخر القرن الثامن عشر لا يمكن إغفالها في إطار تاريخ الحركة الفكرية، إذ أسهمت في تكوين بدايات الحركة الفكرية، حيث شكلت الحملة الفرنسية حافزاً قويا لهذه الحركة عن طريق اللقاء الفكري مع الغرب ودخول الكثير من علومه إلى المجتمع المصري عن طريق التبشير وإرسال محمد علي باشا بعثات طلابية إلى الخارج كما ذكرنا سالفاً، إذ أسهم طلاب البعثات في نقل علوم ومعارف الغرب، من خلال ترجمة الكتب، مما أحدث تطورات جديدة في النهضة الفكرية المصرية، كذلك التغيرات التي أحدثها محمد علي في جميع مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما كان له تأثير على واقع الحياة الفكرية المصرية،

---

[185]– إبراهيم عبده، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية، القاهرة، 1950، ص 30 – 32.

[186]– صالح رمضان محمود، "الأجانب والتعليم بمصر 1849 – 1879"، **مجلة المؤرخ العربي**، ع 17، بغداد، 1981، ص ص 278 – 279.

[187] –جبار الرفاعي ، "محمد عبده و محمد إقبال"، **مجلة دراسات الأديان** ، ع15 ، مج 6، بغداد، 2008، ص 109 .

حيث تنبهت أذهان المصريين وتيقظت أفكارهم، وكان تفكير المصريين على وجهين الأول متأثر بأفكار المجتمع الغربي كالطهطاوي، والثاني تبنى مشروع مواجهة الغزو الفكري أمثال محمد عبده[188] ومحمد رشيد رضا[189]، وقد وضعت هذه التطورات أسس الحركة الفكرية التي تبلورت في النصف الثاني من القرن التاسع ومطلع القرن العشرين.

3- الزراعة والصناعة والتجارة

أ- الـــــزراعـة

تعد الزراعة هي الأساس الذي تبلورت حوله الحضارة المصرية، وهي بذلك تعد أهم مصادر الثروة في مصر منذ أقدم عهود التاريخ، ومن هنا كانت السيطرة على ملكية الأراضي الزراعية تعني عمليات السيطرة شبه التامة على ثروات البلاد، ففضلاً عن أن النسبة الكبرى من الإيرادات تركزت في الانتاج الزراعي بصورة مباشرة، فقد كانت تعتمد الأنشطة الرئيسية الأخرى على الإنتاج الزراعي أيضاً، فكان منشأ رئيسيا لتلك الأنشطة حيث قامت الملاحة والنقل الداخلي على نقل المحاصيل الزراعية، كما اعتمد كثير من الصناعات الرئيسية على الحاصلات الزراعية كمواد خام.

وبعد أن تم للسلطان سليم الأول فتح مصر قام بمسح شامل للأراضي الزراعية، واعتبر نفسه الحاكم الوحيد للأراضي كلها، وقام بتقدير الضرائب على الأرض على هذا الأساس، حتى أنه ألغى الرُزَقْ والأوقاف؛ ولكن معارضة العلماء اضطرته إلى الاعتراف

---

[188]- الإمام محمد عبده(1849م – 1905م): هو رجل إصلاح، وداعية وإمام إسلامي، عرف بفكره الإصلاحي ودعوته للتحرر من كافة أشكال الاستعمار الأجنبي ومحاولاته المستمرة من أجل الارتقاء بالمؤسسات الإسلامية والتعليمية، وسعيه الدائم للإصلاح والتطوير في الأزهر والأوقاف. ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2008، ص ص 26- 31.

[189]- محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني 1865 - 1935 م). **ينظر**:

بالرُزَقْ والأوقاف من الأراضي الزراعية، والاعتراف بالأغراض التي أوقفت الأرض عليها[190].

وقد أدار العثمانيون أرض مصر إدارة مباشرة عن طريق بيت المال الذي قسم البلاد إلى "أمانات" أو "مقاطعات" نضم كل منها عدة قرى متجاورة تشكل وحدة مالية معلومة يتقاضاه من بيت المال، ويعد مسؤولا عن زراعة أرض المقاطعة الموكل إليه أمرها، فلا تترك أي مساحة صالحة للزراعة دون أن تزرع ويتولى تحديد ما يخص الأرض من خراج على أن يدون ذلك بسجل معين من بيت المال حتى لا يفرض الأمين الضرائب على الفلاحين وفق هواه[191]، وكان هؤلاء الأمناء يأخذون مرتبات ثابتة من الحكومة غير مرتبطة بكمية الإيرادات التي يقدمونها لها، وكانت أهم واجبات الأمين التأكد من صلاحية كل قنوات الري والسدود في مقاطعته لتحمل فيضان النيل، كما كانت عليه ضمان توفير العدد الكافي من الفلاحيين المستعدين لزراعة الأرض وجمع محاصيلها وقت الحصاد وتوفير الحماية للفلاحين من هجمات الأغراب، وأن يكون قادراً على جمع الضرائب في موعدها وتسليمها للحكومة[192].

ويشير الكثير من الكتاب والمؤرخين إلى أن ملكية الأرض كان معترفا بها دائماً للحاكم في مصر كانت الأراضي الزراعية موزعة بين "إقطاع السلطان" وكان يتكون من مساحات واسعة من أراضي الدولة، واقطاع الأمراء وهي مساحات من الأراضي أعطيت لأمراء الجند كرواتب نظير خدماته للسلطان زمن الحرب، وتفاوتت مساحة كل منها بتفاوت حجم الأعباء الملقاة على عاتق الأمير صاحب الإقطاع، ثم " الأطيان الخارجية" وتمثل ما خلا ذلك من الأراضي الزراعية الموزعة بين القرى المختلفة التي يكلف أهل القرية جميعاً بفلاحتها وأداء

= أنور الجندي – أعلام وأصحاب أقلام – دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت).

[190]– كمال لحامد مغيث، مصر في العصر العثماني 1517– 1798 المجتمع والتعليم، ط1، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة، ص 27.

[191]– رؤوف عباس حامد، مصر في القرن التاسع عشر، (د.ت)، دار النهضة العربية، (د. ت)، ص 13.

[192]– كمال لحامد بلغيث، المرجع السابق، ص ص 27– 28.

ما عليها من أموال، دون أن يكون لها حق ملكيتها، وأخيراً كانت هناك "أطيان الرُزَقْ" الموقوفة على أعمال البر ودور العبادة[193].

فقد كانت مصر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تكاد تكون بلدا زراعيا خالصا، وكان مصدر دخلها الرئيسي هو الميري أو ضريبة الأرضي الزراعية .وكانت جبابة هذه الضرائب يعهد بها الى طائفة من جباة الضرائب يطلق عليهم اسم الملتزمين كانوا يمنحون في مقابل خدماتهم اقطاعيات كبيرة من الأراضي معفاة من الضرائب مع حق تسخير الفلاحين في زراعتها لهم .كما مارس محمد علي سياسة الاحتكار.

وقد كان الهدف الرئيسي من نظام الاحتكار هو تزويد محمد علي بالأموال التي تحتاجها للتمويل نفقاته العسكرية والبحرية، إلا أن محمد علي لم يحقق شيء من ذلك ، بسبب كراهية الفلاحين لنظام الاحتكار حيث أن الجهد المبذل من قبلهم في زراعة المحاصيل لا يجنون من ورائه سوى ربح ضئيل بالإضافة إلى الخدمة العسكرية الالزمية والاشغال العامة التي كانت تجرد القرى من الرجال القادرين، وقد ارهقهم بتكاليف حروبه ومشروعاته العامة دون رحمة . فقد كان الدخل في مصر في عام 1800 م يقدر بحوالي 75,810 من الجنيات المصرية والذي كان نسبة كبيرة منه تصرف على الجيش[194] .

وكان الشيخ أو رئيس القرية مسؤولا عن جبابة الميري المفروض على القرية كلها وقد جرد محمد علي باشا الملتزمين من اقطاعياتهم، والغى نظام الالتزام فقد زرعها محمد علي بمعرفته او منحها لأعضاء أسرته أو لكبار الموظفين، وقد أمر بعمل مسح عام للأرضي الزراعية حصر به مساحات الأراضي التي اعطى المزارعين حق الانتفاع بها . ثم ادخل نظاما جديدا يتعلق بمحاصيل التصدير التي تدر أكبر قدر من الربح ، يقضي بيع هذه المحاصيل للحكومة بأسعار تحددها الحكومة ذاتها . وكانت الحكومة بعد ذلك تبيعها بثمن

[193]– المرجع السابق، ص 28.

[194]– جون مارلو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر، تر: عبد العظيم رمضان، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1976، ص ص 118– 119.

أعلى للتجار الأجانب لتصديرها للخارج، وكذا للتجار المحلين لتسوقها في السوق المحلية. وقد طبق نظام الاحتكار هذا أيضا على الكثير من السلع الواردة[195].

كما أنه أنشأ ديواناً للزراعة يعمل على تنظيمها ويخطط لحفر السواقي وزرع الأشجار وزرع محاصيل تدّرُ عليه نقداً أجنبياً مثل القطن، وشق العديد من الترع أهمها ترعة المحمودية[196]. كما رُممت قنوات الري وبنى أول سد في مصر لحجز مياه النيل وهو القناطر الخيرية[197]، ولذلك ازدادت مساحة الأراضي المزروعة إلى مليوني فدان عام 1821م والتي كانت أقل من نصف مليون فدان[198]، كما ألغى نظام الالتزام في جباية الضرائب ،وعدّ ذلك انقلاباً في النظام الاقتصادي المصري آنذاك[199]، وبموجب هذا الإلغاء أصبحت الدولة تأخذ من الفلاح الحاصل الزراعي وتقتطع جزء منه للضريبة وتشتري الباقي منه بثمن تقدره هي لكي تبيعه في الأسواق الأوربية ، ولا سيما وإن الدولة قد قسّمت المحاصيل الزراعية إلى أنواع حسب المناطق وهذا مما أسهم في النهوض بالزراعة والمستوى الزراعي كله[200].

---

[195]– نفس المرجع ، ص 116– 117.

[196]– – **ترعة المحمودية:** هي ممر مائي فرعي من نهر النيل يخترق مدينة الإسكندرية، وينتهي في البحر الأبيض المتوسط.

ينظر: محمد صبري، صفحات من تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م. ص 51.

[197]– تقع القناطر الخيرية على بعد 22 كم من القاهرة، وهي أهم متنزهات مصر حتى الآن، ولها شهرة خاصة عند السائحين للاستمتاع بجوها النقى ومناظرها الخلابة. فهي واحدة من أعظم أعمال الري، والحجر الأساسي فى نظام الري الحديث بمصر، يبلغ طولها حوالى 8400 ميل، وتبلغ مساحتها المائية 100.000 ميل مربع ويرجع السبب الرئيسي لأهمية هذا المكان وشهرته الى موقعها على فرعى دمياط ورشيد عند تفرعهما من المجرى الرئيسي لنهر النيل شمال مدينة القاهرة. وقد استغرق بناؤها حوالى 20 عام.. وقد استدعى محمد على المهندس الفرنسي لينان دى بلفون بك من فرنسا لتنفيذ هذا المشروع الضخم. ينظر: جاد طه، المرجع السابق، ص 117– 128.

[198]– لوتسكي ، المرجع السابق ، ص 70 .

[199]– الجبرتي ، المصدر السابق، ج4، ص 204؛ وللمزيد عن نظام الالتزام ، أنظر: أمين مصطفى عفيفي عبد الله، تاريخ مصر الإقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1954، ص 50.

[200] أحمد ، تاريخ الوطن العربي ، ص 145 .

فقد أحدث محمد علي انقلابًا جذريًّا في السياسة الزراعية بعدما قضى على الجماعات الوسيطة المؤثِّرة في مصر (المماليك – المشايخ والعلماء – الأوقاف – طوائف الحرف)، ويبدو أن حادثة مذبحة القلعة في سنة 1811م التي قتل فيها ما يقرب من ألف قيادة مملوكيَّة قد شجَّعته للمضيِّ قدمًا في إعلان سياسته الزراعية الجديدة، حيث استولى على جميع ما كان في حوزة المماليك من أطيان الالتزام؛ وبذلك لم يبق من أراضي الالتزام بالوجه القبلي إلا النزر اليسير. وفى فيفري 1814م أعلن الباشا رسميًّا إلغاء نظام الالتزام ورفع أيدي الملتزمين عن التصرُّف فيما تحت أيديهم من أراض وتحويلها إلى الباشا فيما عُرف بنظام الاحتكار الذي دفع إلى سلسلة من التحولات الأخرى على كافة مستويات علاقات الدولة بالمجتمع، والدولة بالفلاح، والدولة بالتاجر، والدولة بالصانع، والدولة بالخارج.

زالت كل سلطة وسيطة بين الحكومة والشعب نتيجة إلغاء نظام الالتزام والقضاء على المماليك، وأُعيد توزيع قطاع من الأراضي المستولَى عليها على الفلاحين، وبذلك صار محمد علي متَّصلًا بشكل مباشر بالفلاحين، فاستبشروا خيرًا بخلاصهم من مظالم الالتزام وزوال سلطة الوسطاء وبدء التواصل المباشر مع الحكومة، وقد حكى الجبرتي طرفًا من هذا الارتياح عندما كان ملتزمي الأمس يمرُّون على فلاحيهم السابقين، كان الأخرون يغيظونهم بالقول " أنتم إيش بقالكم في البلاد، قد انقضت أيامكم، إحنا صرنا فلاحين الباشا"[201]. ويبدو أن هذه العبارة كانت لافتةً للتعبير عن التحوُّل الحاصل على مستوى علاقات الزراعة في مصر إلى الدرجة التي دفعت الباحثة الإنجليزية كينيث كونو Kenneth Kono إلى اقتباسها لتكون عنوانًا لدراستها الاقتصادية عن فترة محمد علي تحت عنوان "فلاحو الباشا، الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحرى 1740-1858"[202].

لكن سرعان ما تحوَّلت هذه الحالة إلى ضدِّها، إثر اعلان محمد علي احتكار شراء بعض المحاصيل الزراعية وإلزام الفلاحين بزراعتها مثل القطن وتحديد مساحتها بل وإلزام الفلاحين باتِّباع أساليب فنيَّة جديدة لزراعة أراضيهم تحت رقابة صارمة من عمَّاله وعقوبات

[201]– الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص 326.

[202]– كينيث كونو، فلاحو الباشا... الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحرى 1740-1858، تر: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2000، ص 165- 158.

قاسية جمعها في لائحة من 67 صفحة أصدرها عام 1928 سُمِّيَتْ " لائحة الفلاح وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح"[203].

قرَّر محمد علي أن تحتكر الحكومة أغلب الحاصلات الزراعية الرئيسية بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمانٍ تقرِّرها هي، فصارت الحكومة محتكرة لتجارة حاصلات القطر المصري بأكملها. وقد ذكر الجبرتي احتكار الحكومة للغلال والسكر في حوادث سنة 1227هـ/1812م، وسنة 1230هـ/1815م، كما ذكر في حوادث ذي القعدة سنة 1231هـ/1816م احتكارها حاصلات الكتَّان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز. وهكذا تسلسل نظام الاحتكار، فبعد أن تملَّكت الحكومة معظم الأراضي الزراعية واحتكرتها بإلغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك الملتزمين وإلغاء معظم الأوقاف، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعية، أي إن الحكومة صارت المالكة للأراضي الزراعية، ثم المحتكرة للحاصلات جميعًا، فلم يكن للفلاح ملكية لا على الأرض ولا على ما يُزرع فيها ولا ما ينتج عنها، وقد ذكر الجبرتي أن الباشا أصدر قرارًا بمنع الفلاحين من أخذ شيء من البقول المزروعة حتى أمر بتكميم أفواه المواشي التي تسرح للمرعى حوالي الجسور والغيطان[204]. كما صار الفلاحون إذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون إلى شرائها من الحكومة ثانية، وكثيرًا ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن البيع، فتشتدُّ الضائقة بالناس وترتفع أسعار الغلال في الوقت الذي تفيض بها مخازنها، وقد ذكر الجبرتي في حوادث جمادى الأولى سنة 1222هـ / مارس 1814م اشتداد أزمة الأقوات بسبب الاحتكار[205].

ويعلِّق المؤرِّخ عبد الرحمن الرافعي على آثار نظام الاحتكار قائلًا: "يبدو هذا النظام ناجعًا في توفير المكاسب الآنية للحكومة إلا أنه من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية يؤدِّي إلى شَلِّ حركة العمران، لأن إجبار الفلاحين على بيع حاصلات أراضيهم للحكومة وتحديدها

---

[203] – صقر النور، "الباشا والقادر والعيان، قراءة في لائحة الفلاح"، مجلة مرايا، العدد الأول، سبتمبر 2017، ص ص 116-127.

[204] – الجبرتي، مرجع سابق، ج4، ص 392.

[205]– عبد الرحمن الرافعي، المرجع السابق، ص 536.

على سعر البيع، عمل ينطوي على الظلم والإرهاق، وفيه مصادرة لحق الملكية وحرمان المالك من الاستمتاع بحقِّه، ومن الانتفاع من تزاحم التجار على الشراء، ذلك التزاحم الذي ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع، كما أن العمل بمثل هذا النظام يقتل كل همة فردية ويقبض أيدي الناس عن العمل، ومن ثم يحول دون تقدم البلاد أدبيًا وماديًا، ويضرب على الشعب حجابًا من الفقر والجمود. وينقل الرافعي طرفًا من الانتقادات التي تعرض لها هذا النظام من قبل الأجانب الموالين لمحمد علي، من بينهم المسيو موريه الذي قال: " إن هذا الاحتكار هو الجانب السيء في تاريخ محمد علي"، وأنه " لا حاجة بنا إلى الإطالة في عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد علي، لقد ربح الباشا منه أرباحًا طائلة، لكنه أفضى إلى فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوي بهم إلى المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشظف العيش"[206].

وقد نتج عن هذه السياسة نفور الفلاحين من محمد علي وأعوانه، وهروبهم من الأراضي الزراعية وترك قراهم فرارًا من السياسات الظالمة التي يتعرَّضون لها وفقًا لما عرف بظاهرة تسحب الفلاحين من الأراضي الزراعية، كما أعرضوا عن الاشتراك في جيشه وتفنَّنوا في ابتكار أساليب التهرُّب من التجنيد، الأمر الذي دفع محمد علي إلى التفنُّن في ابتكار وسائل أخرى لأداء المنكسر من الخراج منها ما قرَّره سنة 1839 من تضمين القرى الميسورة خراج القرى المتعسِّرة؛ فأدَّى ذلك إلى إفقار القرى الموسرة وإجبارها على دفع الضرائب أضعافًا مضاعفة، ففكَّر محمد علي في طريقة أخرى عُرفت بنظام "العهد" الذي يشبه نظام الالتزام من بعض الوجوه، وفيه أن يعهد إلى بعض الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية أن يكون في عهدتهم جباية ضرائب بلاد بأكملها على أن يكونوا مسؤولين عن الدفع من مالهم الخاص إذ لم يجبوها، ويختلف هذا عن نظام الالتزام في كون المتعهد لا يستطيع أن يجبى من أصحاب الأراضي إلا الضريبة المحدَّدة على عكس الملتزم الذي كان له سلطة شبه مطلقة على الفلاحين[207].

[206]– المرجع نفسه، ص 536.

[207]– المرجع نفسه، ص 533.

وتشير الباحثة كينيث كونو Kenneth Kono إلى واقع أحوال الريف والزراعة في قولها:"... إن صورة الريف في عصر محمد علي لم تكن تعبر عن تقدم مطرد ولا عن قسوة طاغية كما رسمها المعجبون به أو المناقضون له، بشكل عام تحسنت أحوال الريف وتوسعت الزراعة في النصف الأول من حكمه نتيجة لسيادة الأمن وكذلك السياسات التي تهدف إلى تشجيع الزراعة، ولكن بعد منتصف عشرينيات القرن التاسع عشر دفعت المطالب المتتالية للبشا الفلاحيين للوقوع في المزيد من الديون؛ أي متأخرات الضرائب أو مديونية الدولة، وهجر البعض أراضيهم وانسحبوا منها هرباً من ديونهم، وتم حصر ا الأرض المتروكة أو المَدِينة بمتأخرات الضريبية وأعطيت لأخرين افترضت عليهم المقدرة على زراعتها ودفع ضرائبها وكان هذا تبعاً للقانون العثماني. وهكذا تم توزيع الكثير من الأراضي على العناصر الأكثر ثراءً، وكان معظمهم من أعيان الريف من قبل، وكان هذا قبل أن يبدأ الباشا في منح مساحات شاسعة من الأراضي لأفراد عائلته والمقربين منه"[208].

وفي الأخير نستنتج أن إصلاحات محمد علي باشا في مجال الزراعية مهدت الطريق إلى ظهور وتوغل النظام الرأسمالي في مصر بطريقة غير مباشرة من خال تأثيرها على الفلاحين حيث كانت أهم إصلاحات الباشا تتمثل في فرض التحكم المباشر للدولة على معظم الأراضي، وبالتالي إنقاص استقلالية المزارع والفلاح.

ب- الصـناعــة

أيقن محمد علي أن في اعتماد على الزراعة وحدها خطورة عليها إذ أن هذا النوع من الثروة لا يخضع كثيرا لقوة الإنسان بقدر ما يخضع لأحوال الطبيعة السائدة، ودخل الأمم الزراعية دائم التقلب؛ لأنه يعتمد إلى حد كبير على وفرة المحاصيل أو قلتها وعلى ارتفاع وهبوط أسعارها، وعدم استقرار الدخل الأهلي ودوام تقلبه يعرض البلاد لأزمات خطيرة، لذلك فلم تقف جهوده عند حد النهوض بالزراعة بأساليبه الخاصة بل نراه يعمل على إدخال الصناعة الحديثة في مصر، والدوافع التي حملته على انتهاج هذه السياسة كثيرة مختلفة

[208]– كينيث كونو، المرجع السابق، ص 27.

النواحي، منها إنتاج الأسلحة والعتاد للجيش والأسطول، وعدم تسرب الأموال إلى الخارج مع ضرورة التصنيع بجانب التقدم الزراعي، وجعل الصناعة من مصادر دخل الحكومة[209].

عانت الصناعة في العصر المملوكي العثماني من تدهور واضح. فبعد احتلال جاء محمد علي بسياسته القائمة علي احتكار الدولة المتمثل في ملكية وسائل الإنتاج وقوة العمل وناتج العمل ، حيث قام بتصفية فئة التجار وأصحاب الحرف التي كان من الممكن أن تتطور بشكل طبيعي، وأن تحدث تراكماً أولياً يساعد علي تمويل صناعات وطنية، ولكن محمد علي لم يوقف تطورها فحسب بل وجه إليها ضربة قاصمة بنظام الاحتكار الذي انتهجه، وبذلك دمر إمكانية قيام صناعات أهلية كبيرة بواسطة رأسمالي محلي ورأسماليين محليين[210].

كانت الصناعة في مصر أنذاك بدائية ومتأخرة أصبح من الضروري قيام الحكومة بالتوجيه والإنشاء لخلق صناعة حديثة قوية يمكن الاعتماد عليها في تسليح الجيش والأسطول، وسد حاجة الاستهلاك المحلي من المنتجات الصناعية، ولذلك قامت الحكومة بإنشاء المصانع وادارتها[211]، واستوردت لها كثيرا من العتاد والآلات الحديثة ومن الدول الأوروبية التي عرفت الانقلاب الصناعي أنذاك، كما استورد لها ايضا المواد الخام كالفحم والحديد والأخشاب، إلى جانب جلب الصناع والمهندسين والخبراء من الخارج لتدريب العمال المصريين[212].

ويمكن تقسيم أهم الصناعات في عصر محمد علي إلى قسمين: أولا صناعات حربية البحرية، نذكر منها مصانع القلعة، ومعمل البنادق ومعمل البارود ومصانع سبك الحديد...

---

[209]– زوات عرفان المغربي، العلاقات المصرية اليمنية النصف الأول من القرن التاسع عشر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص 176.– أحمد أحمد الحتة، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص ص 176– 177.

[210]–زوات عرفان المغربي، المرجع السابق، ص 176.

[211]– أمين مصطفى عفيفي عبد الله تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1951، ص ص 89– 90.

[212]– زوات عرفان المغربي، المرجع السابق، ص 177.

وغيرها، وثانيها الصناعات المدنية كحلج القطن وكبسه، وصناعة الغزل والنسيج، وصناعة الحرير، وصناعة السكر، وصناعة الشمع وغيرها من الصناعات الأخرى[213].

كانت المراكز الصناعية منتشرة في أنحاء عديدة من مصر ، ففي القاهرة والفيوم فكانت هناك صناعة الصوف ، وإنتاج الحرير كان منتشراً في الدلتا ، وكان في الصعيد العديد من مراكز صناعة الأواني الفخارية والحصر وعصر الزيوت ، وبه أيضاً تركزت صناعة السكر ، وحول الفيوم كانت هناك صناعة النبيذ وماء الورد ، أما صناعة الغزل والنسيج فكانت من الصناعات الواسعة الانتشار[214].

وبلغ عدد الطوائف الحرفية في ذلك الوقت 64 طائفة، وكانت أساليب الإنتاج الرأسمالي قد بدأت تشق طريقها إلي هذه الصناعات. حيث كان كبار التجار في المدن يمولون الصناع في الريف ويشغلونهم للمواصفات التي يحددونها، كما كانت هناك مصانع كبيرة إلي حد ما تنتج السلع الكمالية للسوق المحلية والأسواق الخارجية ، وكان ينتظم فيها العمال تحت إشراف رب العمل الذي كان أحياناً يعمل هو الآخر جنباً إلي جنب مع عماله، وأحياناً يتفرغ للإشراف والتوجيه ومراقبة الصنف وتصريف الإنتاج[215].

أصدر محمد علي في عام 1821م أمراً ينص علي " منع كافة الأهالي من تشغيل أنوال الغزل والدوبارة " وهدد بمعاقبة الذين يتجاسرون علي تشغيل تلك الأنواع ، ومنع الفلاحين من صناعة الحسر لحاسبهم الخاص ، وأغلق مصانع السكر الأهلية عندما بدأت المصانع الحكومية التي أنشأها هو لإنتاج السكر ، واستولى علي جميع مصانع الزيوت عام

---

[213]– صلاح أحمد هريدي، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، تق: عمر عبد العزيز عمر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003، ص ص 205– 213.

[214] – مين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1966، ص 32.

[215]– علي الجيرتي " تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر " ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، 1952 ، ص2.

1833م[216]، وجمع كل عمال الدخان والتبغ من جميع أنحاء مصر وأجبرهم علي العمل لحسابه في خان واحد تحت إشراف والٍ من ولاته . وأصدر عقوبات وغرامات علي أي شخص يصنع أو يبيع دخاناً أو نشوقاً خارج هذا الخان حتي ولو كان لاستهلاكه الشخصي ، ووصل الأمر إلي مصادرة ما تصنعه النساء في بيوتهن والقري . وبيع ذلك كله بخمسة أضعاف ما كان الناس يدفعون فيه في السابق[217] وكان الشنق الفوري هو عقوبة من يخالف سياسة الاحتكار التي أخذ بها محمد علي[218].

وحشد محمد علي الحرفيين في وكالات متخصصة، ودس عليهم جواسيس للتأكد من أنهم يعملون لحساب الحكومة فقط. وكانت الحكومة تماطل في دفع ثمن ما ينتجه هؤلاء الحرفيون، وبالإضافة إلي أن تلك الأسعار كانت هزيلة للغاية فإن الصناع كانوا يخسرون الكثير بسبب الإتاوات التي يفرضها عليهم المخبرون، وسبب تلاعب الكتبة ورجال الإدارة في المكاييل والمقاييس مما أدي إلي ترك الكثيرون منهم للعمل، مما ترتب عليه اضمحلال هذه الصناعات [219]. وأدت تلك السياسات إلي ارتفاع أسعار جميع المبيعات من ملبوسات ومأكولات وغلال[220].

وحينما انهارت صناعات محمد علي بعد ذلك بسبب القيود التي فرضتها الدول الأوروبية علي الجيش والأسطول التابعين له ، وفرضت عليه الالتزام بمعاهدة 1840م

---

[216]– علي بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر 1813– 1814، ط1، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة، 1977، ص 53.

[217]– رؤوف عباس، الحركة العمالية في مصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة، 2016 ، ص9.

[218] – الجبرتي ، المصدر السابق، ج4، ص 68.

[219]– الجبرتي ، المصدر السابق، ص 410.

[220]– محمود متولي ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية ،ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1974، ص 486.

المعقودة مع الباب العالي بشأن منع الاحتكار[221]، فإن الحرف والصناعات المصرية لم تستطع أن تسترد حيويتها لأن السلع الأوروبية كانت قد بدأت تغزو السوق المصرية[222].

وحينما انهارت صناعات محمد علي – التي كانت مرتبطة في الأساس بالجيش والأسطول ، وبالتالي فهي لم تكن ذات طابع تنموي – كان السوق المحلي قد أصبح مفتوحاً أمام المنتجات الأوروبية، وكأن هناك رأسمال أوروبي أقام صناعات أخري داخل مصر، وبشكل عام فإنه لم يمر ربع قرن بعد انتهاء حكم محمد علي حتي كان النشاط المالي والتجاري والصناعي كله في مصر في يد الرأسمالية الأجنبية. مما أغلق الباب على نمو طبقة وسطي صناعية وتجارية وطنية[223].

وملاحظ أن هذه السياسة التي انتهجها محمد علي بباشا في مجال الصناعة استطاع أن يمهد لانقلاب صناعي حديث في البلاد لم تعرفه منذ قرون طويلة؛ ليكمل اقتصاديات البلاد لتكسب حرفة جديدة بجوار حرفة الزراعة، فتصبح الصناعة زاوية من الزوايا المهمة التي يشاد البناء الاقتصادي القومي، غير أن نظام الاحتكار الذي اتبعه الباشا أدى إلى تقييد حرية الصناع، كما تعرض الصناع لظلم رجال الإدارة وتعسفهم في استعمال السلطة، وحرم الصناع من أرباحهم الكاملة ومن حق التصرف في انتاجهم، مما أضعف رغبتهم في الإنتاج، فلقد كان محمد على يهدف من إدخال الصناعات المختلفة الحديثة إلى اجتناء ربح عاجل، وشيئًا فشيئًا بدأت الصناعة تفقد قيمتها مما أدى إلى تدهورها.

جـ-التجـــــارة

نشطت التجارة الداخلية والخارجية لمصر في عهد محمد علي إلى حد كبير بالقياس إلى ما كانت عليه من قبل، ويرجع ذلك إلى عوامل مختلفة، فالإصلاحات التي قام بها

---

[221] – الجبرتي ، المصدر السابق، ص

[222] –Bear , Gabriel : Social change in Egypt (1800 – 1914) in P.M. Holted Political and social change in Moder, Egypt . Oxford, University press, London, Torento . New– York , Pp 143– 144.

[223]– محمد أنيس، مصر في الإقطاع إلي الرأسمالية، ط1، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص 20.

محمد علي في الري والزراعة أدت إلى زيادة الانتاج الزراعي تبعا لذلك، كما أن الاكثار من زراعة المحاصيل الصيفية وخاصة القطن بث النشاط في حركة الصادرات نظرا إلى حاجة الدول الأوروبية وفي مقدمتها انجلترا إلى هذه السلع، أضف إلى هذا أن مصانع محمد علي وجيوشه وأساطيله ومشاريعه العمرانية والأعمال العامة المختلفة سببت ازديادا واضحا فيما تستورده مصر من الدول الأجنبية[224].

ومن المؤكد أن هذا التوسع التجاري ما كان ليصبح في حيز الإمكان بدون التحسين الذي أدخله محمد علي في طرق المواصلات بالبلاد حتى يتيسر له نقل الغلات الزراعية من داخل القطر إلى الموانئ، وحتى يسهل ارتباط أجزاء البلاد بعضها ببعض، كما كان يرمي الباشا إلى هدف بعيد وهو إعادة التجارة الشرقية إلى طريق مصر بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح. فاهتم بتقوية الجسور على جانبي النيل وتمهيدها حتى تصبح صالحة لسير العجلات والدواب، وأنشأ عدداً من الطرق للغرض نفسه، أطلق عليها اسم "الطرق السلطانية"، واهتم بتطهير الترع[225] الكثيرة في الدّلتا[226] وذلك حتى تظل مفتوحة للملاحة[227].

---

[224]– زوات عرفان المغربي، المرجع السابق، 180.

[225]– هي عبارة عن مجموعة من القنوات المائية التي تشق في الارض الزراعية بهدف نقل المياه من النهر الي الحقول، وهذا النقل لا يتم بطريقة مباشرة، وانما يأخذ شكل التدرج الهرمي، بحيث تتخذ نمطاً شجرياً متشابكاً يتشابه مع الشبكات النهرية ولكن بشكل عكسي، حيث نجد ان المياه تنتقل من الترع الرئيسية الكبرى الي الترع الفرعية الصغيرة حتي تصل في النهاية الي النباتات في الحقول. ينظر: نصر السيد نصر، جغرافية مصر الزراعية (دراسة كمية كارتوجرافية)، ط1، مكتبة السعيد رأفت، القاهرة، 1988، ص ص 40– 45.

[226]– دلتا النيل هي دلتا تكونت في شمال مصر (الوجه البحري) حيث يتفرع النيل إلى فرعين يصبان في البحر المتوسط . فرع دمياط في الشرق وينتهي بمدينة دمياط وفرع رشيد في الغرب وينتهي عند مدينة رشيد. وهي واحدة من أكبر الدلتا في العالم – تمتد من بورسعيد في الشرق حتى الإسكندرية في الغرب وسميت بالدلتا لأنها تشبه المثلث. وهي تشغل مسافة مساحة 240 كيلومتر على ساحل البحر المتوسط. وتتميز الدلتا بالأراضي الزراعية الخصبة الصالحة للزراعة في أي وقت. يبلغ طول الدلتا من الشمال للجنوب حوالي 160 كم. وتبدأ الدلتا من الجنوب بالقرب من مدينة القاهرة عند القناطر الخيرية. ينظر: علي عبد الوهاب شاهين، "بعض الظاهرات الجيوموفولوجية فى دلتا النيل"، المجلة الجغرافية، ع11، القاهرة ،1987، ص 10.

[227]– زوات عرفان المغربي، المرجع السابق، 181.

أما عن مشروع الطريق البري فقد بذل في ذلك جهودا موفقة، حيث استغل الأسطول الذي أنشأه قبل الحرب مع السلفيين في تأمين الملاحة في البحر الأحمر بالقضاء على القراصنة الذين اتخذوا من الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة العربية وكراً لهم، ولعل رغبته في هذا الصدد من العوامل التي شجعته على القيام بحملته في شبه الجزيرة العربية حتى تتم له السيطرة على جانبي البحر الأحمر، وبعد هذا عمل على تعبيد طريقي القصير[228] – قنا السويس، والقاهرة، وضرب على أيدي القبائل العربان وعصابات قطاع الطرق في الصحراء الشرقية حتى أصبح السفر آمنا، وكان السفر من القاهرة إلى الاسكندرية بطريق الصحراء في غربي فرع رشيد، ولكنه عمل على ربط عاصمة البلاد السياسية بعاصمتها التجارية بطريق مائي مباشر فحفر ترعة المحمودية عام 1819م، وبذلك أوصل الاسكندرية بالنيل[229].

كانت التجارة مورداً ثابتاً من الموارد الأساسية التي يعتمد عليها دخل حكومة الباشا، وقد اتجه محمد علي منذ البداية نحو تطبيق مبدأ الاحتكار، وكان الاحتكار على نوعين: احتكار داخلي و يقصد به "الاحتكار الزراعي" الذي اسماه الجبرتي "التحجير"، وبمقتضاه كما يقول بوالكمت **Polycomet** أن الباشا يقتسم مع الفلاحين جميع ما تنتجه الأرض من المحصولات الزراعية، وله النصيب الأكبر في هذه القسمة، واحتكار الخارجي يقصد به" الاحتكار التجاري"، وكان من شأن ذلك كله أن أصبح الباشا يسيطر على محصول البلاد بأجمعه ويهيمن على توزيع هذا المحصول في الداخل والخارج[230].

فكانت سياسة الباشا التجارية مدفوعة في منشأها وفي مراحلها الأولى بحاجته إلى العثور على المال، وبما في الاحتكار من مزايا ظاهرة كثيرًا ما خلبت أنظار الحكام الشرقيين بعدما خلبت أنظار التُّجَّار في الغرب، وكثيرًا ما رفع صولت عقيرته بالشكوى في سنة 1820 م، ثم في سنة 1827 م من المساوئ التجارية الناشئة عن مركز محمد علي بصفته التاجر الرئيسي في البلاد التي يحكمها؛ فإنه لم يكتفِ بإرغام الفلاح على الزراعة، بل كثيرًا

---

[228]– القُصير هي مدينة مصرية وميناء في محافظة البحر لأحمر، يُقال أنّ إطلاق اسم "القصير" على المدينة يرجع إلى أنها أقصر مسافة تربط بين صعيد مصر والبحر الأحمر، وفي الماضي كانت الطريق الوحيد الرابطة بينهما.

[229]– نفس المرجع، ص 181.

[230]– محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 47.

ما حدَّد نوع المحاصيل التي ينبغي زراعتها في بعض الجهات وأمر بتسليم المحاصيل إلى شؤون الحكومة في مقابل سعر معين، وبديهي أن مساوئ ذلك النظام أظهر من أن تحتاج إلى بيان، ولكن كان للمسألة وجه آخر؛ ذلك أن موارد البلاد كان يجري استغلالها بشكل لا عهد لها به من قبل[231]، وبهذه المناسبة كتب صولت ولا ينبغي أن يفوتنا أن الباشا إلى حدٍّ معين قد أنشأ كافة مواد الإنتاج الطيبة : " يقول التي أصبحت الآن أهم مواد التصدير كالقطن والنيلة والسكر، وباستعمال الحكمة في تخصيص مبالغ كثيرة لإصلاح كثير من نواحي الصناعة، وهي تلك النواحي التي كان الفلاحون لا يجدون الوسائل الكافية ولا الرغبة اللازمة لإصلاحها"[232].

أما الطوائف الحرف والصغار العمال فمن المؤكد أن أوضاعهم قد تأثرت بالصناعة الحديثة التي أقامها الباشا، سواء من ناحية الإنتاج الصناعي ذاته أو التحاق عدد كبير منهم بمصانع الباشا، إلا أنه من الثابت أن هذه الطوائف لم تختف تماماً بدليل وجود بقايا هذا النظام في أواخر القرن التاسع عشر ، وعموماً نستطيع القول بأن اصلاحات محمد علي وإجراءاته قد شملت كل أوجه الحياة العامة في مصر سواء في القرية أو المدينة التي اتسعت وأعيد بناء تركيبها الاجتماعي وصيغت علاقاتها الاجتماعية من جديد حُكاما ومحكومين أجانب وشراكسة ومصريين[233]، كما شملت تلك التغيرات نشأة وبروز مراكز حضرية جديدة لم يكن لمصر عهد بها كما شهدت مصر نوعاً من الحراك الاجتماعي لم تعرفه من قبل، من حيث انتقال المواطن من فئة اجتماعية إلى أخرى بل إن التغيرات شملت البدو وسكان الصحراء المصرية الشرقية والغربية عندما نجح محمد علي في توطين القبائل المرتجلة وربطها بالرض وإنشاء القرى الجديدة لها، وهكذا وصلت قبضة الدولة – قبضة محمد علي – إلى كل أرجاء البلاد في المدن والريف والصحراء وخضعت لسلطة مركزية، فترابطت بذلك

[231]– دودويل، المرجع السابق، ص 210.

[232]– نقلا عن دودويل، المرجع نفسه، ص 210.

[233] – أحمد زكرياء الشّلِق، المرجع السابق، ص ص 166– 167.

أنحاء مصر المختلفة، الأمر الذي زاد من نمو إحساس المصريين بكيان خاص متميز، وتعاظم هذا الشعور ونما بفعل عوامل كثيرة كان أهمها النظام التعليمي الجديد[234] .

ومن عوامل إضعاف واضمحلال التجار المصريين أيضاً أن محمد علي كان يتولى بنفسه شراء السلع الواردة من أوروبا ويتولى بيعها بالأسعار التي يحددها هو ، كما أنه كان يفضل قيام البيوت التجارية الأوروبية علي قيام بيوت تجارية مصرية لتزويد صناعته الجديد بما كانت تحتاجه من معدات ومواد أولية[235]. وقد أدت سياسة محمد علي الاحتكارية إلي الحيلولة دون بروز طبقة وسطي تجاري وصناعية محلية مرة أخري بعد ان بدأت العناصر الرأسمالية تنشط في الاقتصاد المصري.

فقد فتح محمد علي الباب لتسلل رأس المال الأجنبي لمصر عن طريق السماح بقيام بيوت التجارة الأوروبية التي وصل عددها في القاهرة والإسكندرية إلي 62 بيتاً وكانت التجارة مع أوروبا تتم بالكامل من خلال وكلاء أوروبيين، كما سمح للتجار الأجانب وخاصة التجار الإنجليز بشراء القطن من الفلاحين مباشرة مما ألقي بذرة التدخل البريطاني والفرنسي في مصر فيما بعد . كما أن مديري كل الصناعات التي أنشأها محمد علي كانوا جميعاً من الأجانب حتي بلغ عدد الأجانب الاوروبيين في عهد محمد علي عشرة آلاف[236].

4- الجيش

تعتبر المؤسسة العسكرية أحد المكونات الأساسية لأي نظام سياسي، وقد أثارت العلاقة بين المؤسسة العسكرية والسلطة التنفيذية اهتمام الباحثين والمتخصصين ، وقد ا زد الاهتمام بالعلاقة بين المؤسستين بعد التدخلات العسكرية المتكررة في الحياة السياسية وزيادة دور المؤسسة العسكرية في صناعة القرار السياسي.

---

[234] – المرجع نفسه، ص 167.

[235] – المرجع نفسه، ص 168.

[236] – أحمد زكرياء الشّلِق، المرجع السابق، ص ص 166- 167.

أ/ الجيش البري

لقد مر الجيش المصري الحديث منذ نشأته بشكل نظامي في عهد الوالي محمد على 1805-1849 بعدة مراحل، حيث تم تأسيس هذا الجيش ما بين الفترتين السابقتين، وكان معظم الضباط الملتحقين من المهاجرين الأجانب والشراكسة والأتراك، ومن أبناء الطبقة الأرستقراطية وقد خلا الجيش في هذه الفترة من الضباط المصريين والذين سنحت لهم الفرصة في الدخول في عهد الخديوي إسماعيل ما بين الفترة 1879م- 1863م[237].

أدرك محمد علي باشا بمجرد ما تسلم زمام حكومة مصر أنه لا بد من ادخال النظام الحديث في القوة العسكرية البرية والبحرية لكل حكومة تريد أن تكون مقاليد البلاد في قبضة يدها حتى تتمكن من ادارة شؤونها على محور النظام وتعمل على حفظ أراضيها من الغارات الخارجية، ولعل الذي لفت نظر الباشا إلى في النظام العسكري الحديث من التفوق ما شهده بنفسه من انكسار الجيوش العثمانية التي كانت تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا في واقعة ابي قير أمام الجيش الفرنسي بقيادة بونابرت؛ لذلك لم يلبث أن طلب من فرنسا معلما عسكرياَ ينشئه على النظم الحديثة، فانتخبت له الكولونيل سيف الذي أعلم وعرف فيما بعد باسم سليمان الباشا، وكان وصوله إلى مصر سنة 1819م[238]، كما أنه طلب المساعدة من مسيو دورفيني Droveitti القنصل العام الفرنسي العامل بمصر، الذي اقترح عليه اسم الجنرال بوابيه Boyer ، وهو ضابط فرنسي كان أحد ضباط حملة نابليون على مصر، ووصل إلى مصر على أ رس بعثة عسكرية للتنظيم والإدارة[239].

وفي السنة التالية وجهه محمد علي باشا مع خمسمائة من مماليك إلى أسوان ليدربهم هناك على الطريقة الحديثة في استعمال الأسلحة والنظام العسكري، وجعلت أسوان المركز

---

[237]- محمد سمير الجبور، الدور السياسي للمؤسسة العسكرية المصرية في ظل التحولات السياسية، ماجستير، جامعة الأزهر، كلية الاقتصاد والعلوم الادارية، 2014، ص 14.

[238]- عمر طوسون، الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي باشا، ط2، مطبعة صلاح الدين الكبرى، الاسكندرية، 1931، ص 5.

[239]- .خالد فهمي، المرجع السابق، ص913

العام للتعليم الجديد، واختيرت لهذه المهمة لخلوها من الملاهي التي تشغل الشباب وبعدها عن الأنظار المتجهة إلى عمل الوالي، فيتفرغ هؤلاء الذين وُضِع المستقبل بين أيديهم للمهمة التي وجهوا إليها ونكون هذه التجربة السرية بمنجاة من شماتة الأعداء ذا أخفقت[240].

أدخل محمد علي السودانيين لجيشه بعد ضم السودان وكان عددهم حوالي ثلاثين ألف من أهالي كردفان وسنار[241] وبذلك تألفت عام 1823م الفرقة الأولى للجيش المصري يؤطرها الضباط الذين تدربوا في أسوان 1820م على يد سليمان باشا، وقد شاركت إحدى هذه الفرق تحت إمرة "إبراهيم باشا" في إخضاع شبه جزيرة المورة 1824م – 1925م، ضمت هذه الفرقة سبعة عشر ألف جندي[242]، لكن كثرة الوفيات بين الجنود السودانيين لعدم قدر التأقلم مع المناخ البارد جعل محمد علي يتخلى عن تجنيدهم، ويعيد النظر في خطته السابقة بشكل جذري فتوصل إلى فكرة تجنيد أبناء الفلاحين المصريين لفترة معينة مدتها ثلاث سنوات، وطلب من مشايخ القرى أن يجهزوا له الشباب القادرين على حمل المدفعية[243].

ولقد أدرك محمد علي أنه إذا أراد أن يكون له جيش على النظام الحديث مؤلفًا من المشاة والفرسان ورجال المدفعية، فإن هذا الجيش يحتاج إلى مدارس تقوم بمهمة تخريج الضباط اللازمين لمختلف هذه الأسلحة، وإلى مستشفيات ترافق لأفراد الجيش إذا مرضوا، ولابد فضلاً عن ذلك أن تكون له إدارة حربية تشرف على جميع هذا العمل، إذ بدونها لا يتأتى تكوين جيش منظم[244]، فأسس مدرسة العساكر المشاة في" الخانقاه "وأما الفرسان فأتخذ لهم قصر مراد بك على الضفة اليسرى من النيل وعهد بتعليمهم إلى المسيو فرات، وأنشأ دار

---

[240]– المرجع نفسه، ص 6.

[241]– للاطلاع أكثر عن طريقة تجنيد السودانيين ينظر: تمام همام، الرقيق والجندية في نظر محمد علي، الملجة التاريخية المصرية، مج 27، ع 27، مصر ، 1981، ص ص 119– 158.

[242]– صبري محمد، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 192، ص 30.

[243]– نوار سليمان عبد العزيز، تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة،(د.س)، ص 02.

[244]– المرجع نفسه، ص 3.

صناعة يشتغل فيها المئات من المصريين في صب المدافع وصنع معدات الجيش وما يلزم من الذخيرة[245].

قام الباشا بفتح المدارس الحربية لإعداد القياديين المصريين، كمدرسة مشاة في دمياط ومدرسة الخيالة في الجيزة. ومدرسة المدفعية في طرة بالقرب من القاهرة، وعام 1826م أنشأت أكاديمية الأركان العامة، وترجمة الأنظمة العسكرية الفرنسية إلى العربية وكانت كافة تنظيمات الجيش على شكل جيش نابليون حيث أنها مجهزة بمدفعية، وكانت تشتري الأسلحة من أوروبا ويصنع قسم منها في مصر، وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر اتسع حجم الجيش المصري النظامي بحيث عام 1833م كان يضم 36 فوج من المشاة، وكل فوج يحتوي على ثلاثة آلاف جندي وأربعة عشر فوج من الحرس يبلغ تعددها 150 ألف جندي وخمسة عشر فوج من الخيالة تتكون من 500 خيالة، وخمسة أفواج من المدفعية تعدادها ألف جندي وبهذا يكون المجموع العام 180 الف جندي. بالإضافة إلى وحدات غير نظامية تبلغ أربعين ألف شخص[246].

لم تكن عملية بناء الجيش والأسطول في عهد محمد علي باشا مجرد عملية هدفها مجرد بناء مؤسسة عسكرية من الجنود النظامين المحترفين، بل كان الجيش والأسطول هما الدعامة التي شاد عليها محمد علي كيان مصر المستقلة، فكل مشروعات دولة محمد علي تمحورت وارتبطت بعملية بناء الجيش والأسطول وبالمثل، فإن قيام محمد علي باشا بإنشاء العديد من المؤسسات التعلمية العليا ارتبطت ببناء المؤسسة العسكرية للحصول على الضباط المؤهلين، ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد علي من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليساعدوه على تنظيم الجيش، كما أرسل مجموعة من الشباب إلى أوروبا لإتمام دروسهم الحربية، فعادوا إلى مصر بعد أن تشبعوا بالعلوم والفنون العسكرية وحلوا في المدرس التي أنشأها محمد علي محل الأوروبين.

---

[245]– الشيال جمال الدين، تاريخ الترجمة و الحركة الفكرية في عهد محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1951 ، ص 29.

[246]– لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ط1، دار التقدم، موسكو، 1971، ص 60.

ولم يكن لمحمد علي باشا أن ينجح في تأسيس جيش نظامي لمصر دون إنشاء مدارس حربية لتدريب التلاميذ على أحدث وسائل القتال، وكيفية إدارة المعارك بما يتلائم مع مستجدات العصر آنذاك، وهي كالآتي:

أ .مدرسة أسوان: هي أول مدرسة حربية أنشأها محمد علي عام 1820م التي أعدت أول طائفة من الضباط لتكوين الجيش المصري النظامي، ثم انتقلت إلى إسنا[247] فأخميم[248] ثم أسيوط، وعرفت باسم مدرسة الجهادية، وكذلك مدرسة أركان حرب، وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات يتخرج منها ضباط أركان الحرب الذين يعينون في الوحدات الهندسية أو المدفعية أو الإدارة الحربية أو المدنية[249].

ب .مدرسة القصر العيني: تأسست عام 1825م، وهي مدرسة إعدادية للتعليم الحربي والبحري، ثم نقلت إلى أبي زعبل بعد أن خصص قصر العيني لمدرسة الطب[250].

ت .مدرسة البيادة (المشاة) عام 1832م بالخانكة (ثم بدمياط / أبي زعبل) لإعداد ضباط فرق المشاة وتدريبهم.

ث .مدرسة السواري(الفرسان) عام 1831م في الجيزة لتخريج ضباط سلاح الفرسان، التي نظمت على نمط مدرسة سومور الحربية بفرنسا.

ج .مدرسة الطوبجية (المدفعية) تأسست عام 1831م في طرة لتخريج الضباط المدفعية، فشكلت المدفعية النظامية في الوقت الذي نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرسنين ساعدهم في العمل ضباط من المصريين وفي مقدمتهم

---

[247]– إسنا هي مدينة ومركز بمحافظة الأقصر بمصر، تبعد 55 كم جنوب الأقصر على الضفة الغربية لنهر النيل. ينظر: -Kaper Olaf E, The Egyptian God Tutu: A Study Of Sphinx- God And Master Of Demons With A Corpus Of Monments, Uttgeveij Peeters And Department Oosterse Studies Leuven, Paris, 2003, P 192.

[248]– هي مدينة مصرية تقع على الشاطئ الشرقي النيل تابعة لمحافظة سوهاج. ينظر: محمد رمزي، موسوعة القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ط1، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، القاهرة، 1994، القسم الثاني: ج3، ص 155.

249– الأصمعي محمد عبد الجواد، قلعة محمد علي لا قلعة نابليون، دار الكتب، القاهرة، 1924 ، ص 7

[250]– عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص 386.

الضابط ادهم بك باشا الذي أسس ترسانة القلعة ،وتولى إدارة المهمات الحربية ثم رأسه ديوان المدارس وزارة المعارف العمومية[251].

ح . **المدرسة المصرية التي أنشأتها الحكومة المصرية بباريس** تحت إشراف وزارة الحربية الفرنسية لاستقبال أبناء البعثات من المصريين وكان ناظرها أحد علماء الحملة الفرنسية.

خ .**المدرسة البحرية بالإسكندرية** لتعليم بناء السفن والعلوم المتصلة به[252].

د .**مدارس الأسطول على ظهر السفن،** ويتعلم فيها التلاميذ فن قيادة السفن والعلوم الملاحية[253].

ذ .**مدرسة الموسيقى العسكرية بالخانكة،** لتخريج الموسيقيين الذين يحتاجهم الجيش. قرر محمد علي تنظيم الجيش المصري على مثال الجيوش الأوروبية من كل وجه فأمر بأعداد طائفة من الموسيقيين لكل الآلات. احضر المدرسين الأوربيين لتعليم المصريين الموسيقى الإفرنجية الحربية[254].

ر . **مدرسة الطب:** ارتبط إنشاؤها بتهريج الأطباء الذين يحتاجهم الجيش، وكذلك مدرسة المهندسخانة[255].

إضافة إلى هذه المدارس قام محمد علي باشا بتشييد العديد من المصانع الحربية لأجل صناعة الأسلحة لتزويد جيش من بين هذه المصانع نذكر الآتي:

مصانع القلعة: تم بناؤها عام 1820م لصناعة الأسلحة وسبك المدافع، كانت تحت إشراف جونون Gonon بلغ عدد عمالها ستمائة عامل[256]، ومن أهم هذه المعامل معمل صب

---

[251]– المرجع نفسه، ص ص 286– 287 .

[252]– بونان لبيب رزق ومحسن يوسف، تحديث مصر في عصر محمد علي، ط1 ، مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، 2007، ص 35.

[253]– عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص 386. – بوناب لبيبي زرزق ومحسن يوسف، المرجع السابق، ص 35.

[254]– بوناب لبيبي زرزق ومحسن يوسف، المرجع السابق، ص 35.

[255] – مرجع نفسه، ص 35.

[256]– الأصمعي محمد عبد الجواد، المرجع السابق، ص 76.

المدافع[257]، واستعان الباشا في صناعة بخبراء فرنسيين من بينهم كاديه Cadet، وكانت ريك Cantreke، و ري Rey [258].

فتح الباشا محمد علي عدة معامل لصناعة الأسلحة وهي كالنحو التالي:

أ- **معمل البنادق في الحوض المرصود** :أنشأ 1831م، وأشرف على إدارته مارنجو، كان عدد عماله ألف ومائتي عامل، وقد أرتفع عدد عماله عام 1833م إلى ألف وخمسمائة عامل وقد بلغ إنتاجه تسعمائة بندقية[259].

ب- **معامل سبك الحديد:** تم انشاءه في بولاق، وقد كلف إنشاؤه 1500000 فرنك ووضع تصميمه مهندس إنجليزي يدعى جالويه Galway، أما رئيسه المباشر فهو "أدهم بك"، كان يصب في هذا المسبك يوميا خمسون قنطاراً من الحديد[260].

ت- **مصنع النحاس:** أنشأ هذا المصنع لصناعة ألواح النحاس التي تبطن السفن، ووضع تحت إدارة جالويه Galway كان يشغل فيه عشرون عاملا، وقد بلغت عملية السبك 350 قنطار من النحاس وينتج كل يوم مائة لوح من النحاس. واجه محمد علي في هذا المصنع العديد من العقبات كحداثة العمال وتدبير الوقود اللازم والمواد الخام وغيرها من العقبات[261].

كانت هناك عدة مصانع أخرى إضافة إلى تلك المصانع التي تزود الجيش والأسطول ببعض الحاجيات الأخرى غير السلاح مثل مصنع الطرابيش ومصنع الجوخ ومصنع دباغة الجلود ومصانع الحبال وغيرها، وكان بعض العمال يدربون في مصانع القلعة ثم يوزعون على باقي المصانع الأخرى[262].

---

[257]- هريدي صلاح احمد، دراسات في تاريخ مصر الحديث والعاصر، ج2 ، المرجع السابق، ص 122.

[258]- بوناب لبيبي زرزق ومحسن يوسف، المرجع السابق، ص ص 35- 36.

[259] -هريدي صلاح أحمد، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، تق :عمر عبد العزيز عمر، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص149.

[260]- الأصمعي محمد عبد الجواد، المرجع السابق، ص 78.

[261]- هريدي صلاح أحمد، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ج2 ، المرجع السابق، ص12 .

[262]- هريدي صلاح أحمد، الحرف والصناعات في عهد محمد علي، المرجع السابق، ص 150.

ب/الأسطول البحــري

اهتم محمد علي إلى جانب الجيش البري ببناء أسطول بحري مقاتل حيث اتخذ سفن جديدة اخرى لتعزيز قوته البحرية فوجه عنايته أولا لتشيد دار صناعة مهمة مع ما تحتاجه من المعامل والمصانع لإنشاء وترميم السفن. وكان ذلك المشروع في سنه 1831م من مدينة طولون مهندسا ماهرا يدعى سريزي جعله مهندسا وكان يدير الصناعة المذكورة خمسة قزاقات أي مزلقات (أحواض البناء)، ورتب والها الصناع من كل نوع، وكانوا تحت ملاحظة الحاج عمر، وكان لهذا الرجل استعداد ومعرفة طبيعة غريبة في بناء السفن وقد تمكن في السنة الأولى من انشاء سفينة من نوع القباق (بارجة مسلحة بالمدافع الثقيلة)، وجلب كثيرا من الشبان المصريين من جميع المديريات لتعليمهم صناعة السفن وما يلزم لها من الآلات ووزعهم على المعامل، فاختصا كل جماعة منهم بفرع من فروع انشاء السفن. ونبغ الكثير منهم في هذه الأعمال حتى بلغوا درجة عظيمة. وحصلت مصر به في وقت قليل على عدة سفن حربية عوضت بها أساطيلها التي فقدت في واقعة نوارين(نافرين)، بل وازدادت قوتها الحربية أضعاف ما كان لها[263].

احتل الجيش المصري والأسطول البحري مكانة متميزة في مشروع محمد علي باشا، فقد كانا الركيزة الأساسية التي اعتمد عليهما الباشا في تحقيق طموحه في مصر، وقد ساهم الجيش أكثر من المؤسسات الأخرى في تغير طبيعة المجتمع المصري بشكل جوهري، فلقد غير نظام التجنيد الذي اعتمد عليه هذا الجيش من علاقة الأهالي بالدولة تغييرًا أساسيا، كما أثر في طبيعة الدّولة بأجهزتها الإدارية المختلفة، بل إنّه استحدث الكثير من أجهزة الدولة، فضلا عن أن هذا الجيش كان السبب الرئيسي في إقامة العديد من المؤسسات التي ارتبطت به ارتباطا وثيقا من مدارس ومصانع ومستشفيات ومطابع وغيرها، وقد ساهمت هذه المؤسسات بدورها في تغيير طبيعة المجتمع المصري، وليس من المبالغة أن نقول إن الجيش كان من أهم الأدوات التي استخدمها محمد علي للتأثير على الوضع مصر الإقليمي والدولي الذي نجح من خلاله في تحويل مصر من مجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية

[263]– محمد صبيح، المرجع السابق، ص 305.

إلى ولاية متميزة يحكمها هو وأولاده من بعده. والذي حاول بعد ذلك إلى توسيع رقتها وتحقيق طموحه في انشاء امبراطورية عربية من خلال توسعه على حساب الدولة العربية التي كانت خاضعة للخلافة العثمانية؛ **فهل نجح في ذلك فعلا؟** هذا ما سنجيب عليه في الفصل التالّي

خلاصة الفصل:

وفي الأخير تبين لنا أنه أُطلق على محمد علي باشا لقب "مؤسس مصر الحديثة" بسب التّغيرات التي أحدثها في مختلف المجالات، والتي مهدت الطريق من أوجه عديدة لنشوء أمة ودولة حديثة، ولكن ومهما كان هذا اللقب مناسباً له بدرجة أو بأخرى إلّا أنّه أخفى في طياته بعض نواحي نظامه المستمد من الماضي من حيث السير على نهج سياسات سابقيه، ويميل الأخرون المحدثون إلى التغاضي عن حقيقة أن محمد علي في بعض طرقه الأساسية كان يتبع الأهداف التقليدية لحكام مصر، ويستخدم بعض استراتيجياتهم التقليدية التي كان لها فيما يتعلق بالاقتصاديات والسياسات الجديدة للقرن التّاسع عشر فحدث تحول في الإقتصاد والمجتمع من خلال انجازات محمد علي العلمية والاجتماعية والاقتصادية والتي دخلت إلى مصر على يد رجال من أوروبا، مما فسح ذلك المجال لتسلط النفوذ الأجنبي، كما أن النهضة الأوروبية التي ادخلها محمد علي إلى مصر هي نتاج خاص بأوروبا وبمجتمع أوروبي لا مجتمع إسلامي عربي.

تعتبر مقولة محمد علي هو مؤسس دولة مصر الحديثة مقولة تاريخية، أي أن لها أصولا تاريخية محددة، وأنها محكومة منذ البداية بمصالح ومطامح محددة، على رأسها مصالح ومطامح محمد علي نفسه، الذي كان على دراية بالغة بدوره في تاريخ مصر، بل في تاريخ الدولة العثمانية ككل. وبالتّالي يجب أن نأخذ باعتبارنا عندما نتناول هذه المقولة أن محمد علي نفسه كان أول من روج لها.

شكل وصول محمد علي باشا للحكم الحلّ الأمثل للتّنافس السّلمي على مصر في النّواحي الاقتصادية والسياسية والثّقافية بين فرنسا وبريطانيا والذي عكس الأجواء التي سادت أوروبا بعد انتهاء الحروب النّابليونية عام 1815م ، حيث مثّل الاستقرار الذي فرضه محمد علي على الحالة المصرية ومراعاته للتّوازنات الدّولية عاملاً مهماً في درء خطر الغزو الأوروبي المباشر لبلاده، فحاول الباشا الاستفادة من هذه الأوضاع الجديدة ليعمل على بناء دولته الحديثة على النمط الأوروبي ويعزز من قوته بخوضه حروباً إقليمية توافقت في بعض جوانبها مع مصالح الدولة العثمانية وبريطانيا وحتى فرنسا، معتمداً على تمويل مشاريعه تلك

من زيادة دخل خزينته من التّجارة مع أوروبا وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا التي نجح بتسويق منتجاته الزراعية وعلى رأسها القطن والحبوب في أسواقها، بالإضافة لتدفق الخبراء الأجانب من الدّولتين إلى إداراته الحكومية وإرسال الطّلاب المصريين في بعثات علمية إليهما، إلّا أنّ تزايد قوته و نزعته الاستقلالية و سياسته الاحتكارية على الصّعيد الاقتصادي ألّبت عليه عداء القوى الرّأسمالية الأوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا.

اتفق أغلب المؤرخين المعاصرين على أن اصلاحات محمد علي باشا بدأت بالجيش؛ لأن رغبته كانت في انشاء جيش قوي قد أدت إلى خلق نظام اداري واقتصادي و تعليمي جديد على النمط الغربي، فكانت معظم اصلاحاته تدور حول الجيش، ويتضح صدق هذا الرأي أنّه حالما انهارت مشروعاته الحربية وتقلصت دولته وجيشه على اثر معاهدة لندن عام 1841م انهارت معظم مشروعاته الاقتصادية، وتوقف التوسع الصناعي والثقافي.

الفصل الثّالث

عمليات الضّم والالحاق في دولة محمد علي باشا وانعكاساتها على العلاقات الدّولية

أولا: تغيرات سياسة محمد علي باشا الخارجية.

ثانيا: دوافع وأهداف توسعات محمد علي باشا.

ثالثاً: عمليات الضم والالحاق (ملك وتوسع) في سياسة محمد علي.

وصل محمد علي باشا إلى مقاعد الحكم وأصبح حاكم مصر الفعلي دون منازع، فحرص خلال فترة حكمه 1805م- 1837م على الخضوع بإرادته لإرادة السّلطان العثماني، ولهذا وضع امكانياته طوع مشيئة الباب العالي حرصا منه على الدّفاع عن وحدة السّلطة العثمانية، وقمع حركات التّمرد في الجزيرة العربية وكريت واليونان بهدف الحفاظ على وحدة الدّولة العثمانية، لكن لم تلبث فترة من حكم محمد علي باشا حتى تغيرت سياسته إزاء الدّولة العثمانية، فقد أصابها نوع من الفتور وتطورت إلى عداء سافر أذكت نيرانه الدّول الأوروبية منذ 1828م – 1840م، فقد حرص محمد علي باشا إبان تلك الفترة على أن يتوسع في مختلف المناطق التابعة للدولة العثمانية وتحقيق طموحه في الاستقلال عن الدولة العثمانية؛ **فهل كانت طموحات محمد علي التوسعية لدوافع وأهداف شخصية؟ أم لدوافع اسلامية عثمانية(اصلاحية)؟ أو لأسباب ودوافع وحدوية عربية؟ وكيف كانت المواقف الدولية منها؟ وهل نجحت بالفعل مشاريعه التي كان يطمح لها هو ابنه؟**

أولا: تغيرات سياسة محمد علي باشا الخارجية:

ومن خلال الإنجازات والاصلاحات الداخلية استطاع محمد علي بناء مصر عسكرياً واقتصاديا وعلميا ليواجه الأخطار الخارجية، وكانت سياسته الداخلية توازي سياسته الخارجية حتى يكتمل بناء دولة قوية موحدة قادرة على صدى أي غزو خارجي من قبل الغرب بالخصوص.

يشير تسلسل الأحداث إلى أنه بعد سيطرة محمد علي على الحكم وتحقيقه لإنجازاته الكبيرة في كافة نواحي الحياة للشعب المصري، وتطويره البلاد أصبح جاهزاً لمواجهة الدول الأوروبية والتي كانت تتحكم بالسياسة الدولية، كما ساعده على ذلك ما تتمتع به مصر من موقع استراتيجي جغرافي متميز فهي تطل على البحرين الأحمر والمتوسط، كما أنها تعدّ طريقاً تجارياً تستطيع القوافل والسفن استخدامه لوقوعها واتصالها بثلاث قارات كل تلك الأمور أسهمت وبأي شكل من الأشكال في بلورة السياسة الخارجية لمحمد علي، كما أن تفكيره في بناء دولة قوية قاده إلى أن يهتم بدراسة وملاحظة الجوانب الاستراتيجية في العلاقات بين مصر والأطراف المحيطة بها، وهي بجملتها عربية أبرزها ارتباط مصر الاستراتيجي بالسودان من خلال النيل[1]، واحتمال سيطرة دولة أخرى عليها وإطلالة مصر على البحر الأحمر، والخوف من امتداد النفوذ البريطاني إليه وأهمية الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط – بلاد الشام– باعتباره جبهة مصر الشمالية وهي تحت الحكم العثماني المطلق، فكان يرى أن بريطانيا هي الخطر الذي يهدده من جبهتي السودان والبحر الأحمر والجزيرة العربية، والدولة العثمانية هي الخطر الذي يهدده في جبهة بلاد الشام، لذلك نشط في مواجهتهم[2].

ورأى محمد على باشا لزوم كسب ود السّلطان العثماني ومحاولة في تغيير مواقف الدّولة العثمانية حياله ، وتوصل إلي أنه ومن غير المقبول أن يكرر الاعتذارات ، في الوقت

[1]– نزار عبد اللطيف، " نظرة على التوجه القومي في السياسة المصرية 1805 . 1952 "، جريدة الثورة، أكتوبر 1978، ص 6 .

[2]– المرجع نفسه، ص 6 .

الذي بدأ راغباً في تحقيق فكرته الرّامية إلى تكوين[3] دولة حديثة بعد أن أدرك حقيقة الوضع السّياسي لمصر عقب الحملة الفرنسية ومدى تأثرها بتيارات السّياسة الأوروبية، وانعكاس الصراع الأوروبي ليس على مصر وحدها بل على كل الولايات العربية وتيقن[4] باشا مصر وهو الرجل السياسي والمحنك أن حالة الدّولة العثمانية من الضّعف بحيث لا يمكنها الاحتفاظ بأملاكها طويلا، إذا لم تفعل شيئا يجدد من حيويتها ويعيد لها قوتها، فقد تغيرت الظّروف الدّولية، ولم يعد القرن التّاسع عشر على غرار القرن السّادس عشر، الذي كانت الدّول الأوروبية تعمل وقته ألف حساب للدّولة العثمانية وتأكد لمحمد علي باشا أن تلك الدول بما فيها روسيا القيصرية ، لابد أن تعمل على تمزيق أملاك الدولة العثمانية دولة الخلافة التي كان من ضمنها معظم الولايات العربية، فعمل محمد علي باشا للاستفادة من هذه المتغيرات الدّولية لتطوير مصر تحديدا لثقلها الحضاري وبعدها التّاريخي وكثافتها السّكانية ومواردها الاقتصادية، يطمح بذلك في تكوين دولة حديثه قوية عسكرياً واقتصادياً ليتمكن بها من مقاومه أي غزو من الخارج وحماية أو فتح أقاليم جديدة سواء في آسيا أو أفريقيا ، وحتى يستطيع بعد تقويه مصر أن يقف في وجه الضّغوط الاستعمارية الأوروبية التي باتت مطلع القرن التّاسع عشر تزحف على العالم الإسلامي[5].

وتجدر الإشارة هنا أن محمد علي باشا في بداية سياسته الخارجية لم يكن راغباً في القضاء على الدّولة العثمانية وسلب الولايات العربية التابعة لها[6]، ويتولى هو السّلطة ولم يكن يتعارض هذا التّوجه عند باشا مصر في الحصول على نوع من الاستقلالية داخل حدود

---

[3]-. بكر إسماعيل الكوسوفي ، سياسة محمد علي باشا الدولية"رؤية نقدية في سياسة الخارجية "، مؤسسة آلبا برس ، القاهرة ، 2006 م، ص 49- 50.

[4]- برونو أليبتي ، لمحات عن أصول القضية المصرية ، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا "،(مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين) ،تر عماد البغدادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 م، ص ص89 - 90.

[5]- علام عبد السلام عيسى الفلاح، سياسة محمد علي باشا في الخليج العربي1818- 1840، رسالة ماجستير، كلية الأدب، قسم التاريخ، جامعة بن غازي، 2011-2012، ص 30.

[6]- نفس المرجع، ص 30.

الدّولة العثمانية وضع شبيه بالذي تتمتع به ولايات شمال أفريقيا، وعلى ضوء ذلك نستطيع القول إن سياسة محمد علي باشا الخارجية مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى

تمتد من عام 1805 م حتى موقعه نوارين– نافرين– خلال حرب المورة في عام 1827م وفيها انصرفت جهود محمد علي باشا لاستمالة السّلاطين العثمانيين أصحاب السّيادة الشّرعية على مصر، وظل يظهر لهم كل أنواع الخضوع ويستجيب لكل مطالبهم من أموال وغلال وإخضاع الأقاليم الثّائرة على الحكم العثماني ، والقريبة من مصر وإرجاعها لحظيرة السّلطان[7]، وكان محمد علي باشا يهدف في هذه المرحلة إلى أن يثبت مركزه في مصر والمحافظة على استقراره ، حتى يتمكن من اعادة بناء مصر على أسس حديثة ويزيد ممتلكات مصر على حساب أملاك الدّولة العثمانية نفسها ولكن داخل حدوده[8]. بمعنى آخر كانت مرحلة تدعيم محمد علي لسلطته الدّاخلية وبداية تنفيذ برامجه الإصلاحية، واتسمت بالتّعاون المشوب بالتّرقب والحذر بين مصر والدّولة العثمانية.

المرحلة الثانية

وتمتد من عام 1827م إلى معاهدة لندن في 1840م، حيث بدأ محمد علي باشا يعبر عن نيته في بسط نفوذه على ولايات مجاورة لمصر خاضعة للدّولة العثمانية محولاً تأسيس دولة عربية بجهوده، على حساب الدولة العثمانية، فأسفرت تلك الجهود إلى مرحلة أخذت طابع الصّدام العسكري والحروب المباشرة بين الدّولة العثمانية ومحمد علي باشا، خاصة الحروب التي دارت رحابها في بلاد الشام، بعد أن اشتط غضبه من سياسة السلاطين العثمانيين تجاهه، وضاقت به الحال من جانب حكومة اسطنبول، فقد سدت الأبواب في وجهه لإيجاد نوع من الاستقلال وتطلعاته في الحكم المباشر، بعيداً عن الدّولة

[7] – رأفت الشيخ ، العرب في التاريخ المعاصر،ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة، 2008، ص368

[8] – علام عبد السلام عيسى الفلاح، المرجع السابق، ص 30.

العثمانية وتأسيس دولة حديثه موحدة في مصر، تضم إليها الولايات في المشرق العربي التي خضعت للسّيادة المصرية بالإضافة إلى السّودان، والتّخطيط للامتداد صوب شمال أفريقيا ومشروع احتلال الجزائر[9]، الأمر الذي أزعج السلاطين العثمانيين وأقلقهم إلى حد كبير ومن ثم كانوا يتمسكون بسيادهم على مصر ويعملون على تأكيدها، ويتضح ذلك بعد انفصال الولايات الأوروبية عن الدّولة العثمانية ومنها اليونان، مما جعلها أكثر تشبثاً بما بقى لها من الولايات العربية[10]، خاصة مصر فكان السّلاطين العثمانيون يدركون جيداً أن ضياع مصر

---

[9]– جلبير سينويه، المرجع السابق، 483.

[10]– تعد مسألة الحكم الدولة العثمانية لأغلب الدول العربية، محل جدل ومسار خلاف بين المؤرخين، عما إذا كان الوجود العثماني في الولايات العربية فتحاً أم غزواً واحتلالاً؟.

ج: عملت الكتابات الغربية الإستشراقية على تشويه صورة العثمانيين، منذ توغلهم في أوروبا، وخاصة حقبة سليمان القانوني، ومِن ثَم انعكست نظرة الكراهية الغربية للعثمانيين على القلم العربي، الذي تأثر بنزعة قومية تعاظمت بداية القرن العشرين. ففي رأي الدسوقي، فإن "العثمانيين ليسوا سوى غزاة ومستعمرين احتلوا بلاد العرب لمدة أربعة قرون، مثلهم مثل الاستعمار الفرنسي والبريطاني، واستنزفوا ثروات العرب وأورثوهم الضعف والتخلف". نافياً عنهم صفة "الفاتحين"، إذ يقول "لا يمكن اعتبار دخول شعب مسلم لأرض شعب مسلم آخر فتحاً، هذا مناف للعلم والتاريخ. ومن يتحدث عن الفتح العثماني فإن حديثه قائم على العاطفة والحماسة الدينية بحجة أن الدولة العثمانية حمت الدول العربية من التغلغل الشيعي، عبر تصديها للدولة الصفوية في إيران". ويتابع القول أن "السلطان العثماني كان إمبراطوراً استعمارياً، والبلاد العربية في عهده عانت التبعية لمركز استعماري، ولم تشهد أي معالم نهضة أو حضارة". مضيفاً "الخلافة الإسلامية بالأساس مركزها مكة المكرمة في قبيلة قريش، وبالأخص في بني هاشم وهي خلافة عربية، ولهذا كان الخلفاء الراشدون من قريش والأمويين والعباسيين، وكمثال على إبعاد صفة الخلافة فإن صلاح الدين عندما قضى على الخلافة الفاطمية لم يسم نفسه الخليفة، وإنما سُمي بالسلطان لأنه كان كُردياً". وفي الاتجاه ذاته، يؤكد محمد صبري، المؤرخ وأستاذ التّاريخ المصري في جامعة حلوان، أن "احتلال العثمانيين للمنطقة العربية وغزوهم دولها ليس محل وجهات نظر، بل هو حقيقة، وفكرة الخلافة لم تكن تطرح في الإمبراطورية العثمانية إلا في أوقات محددة ومتأخرة من عمرها". كما يضيف محمد صبري القول: "عندما اصطدم العثمانيون مع الفرس والروس وغيرهما، لم تكن تُطرح أبداً فكرة الخلافة، وبعض أتباعهم طرحها فقط مع غزوهم للدول العربية لإضافة بعدٍ ديني إلى الأمر، بالمخالفة للحقيقة جملة وتفصيلاً". مُلَخِصاً الأمر في قوله "المسألة صراع سياسي بالأساس على بسط السيطرة والنفوذ، وباختصار هي دولة احتلت دولة أخرى كانت قائمة". في المقابل، يقول المؤرخ محمد حرب، في كتابه "العثمانيون في التاريخ والحضارة"، الذي ترجم مذكرات "السلطان عبد الحميد الثاني"، "تبدت الكثير من الشواهد التي عكست أن العرب لم يكونوا ينظرون إلى العثمانيين على أنهم محتلون، مثل تلك الاستغاثات والنداءات التي أطلقها علماء وأعيان الشام ومصر لإنقاذهم من الحكم المملوكي". مستندا على رسالة بعثها علماء ووجهاء وأعيان وأشراف أهل حلب إلى السلطان سليم الأول، يناشدونه تخليصهم من الحكم الشّركسي، ويشكون إليه الظلم وتعطيل الشريعة". وهو ما نقله أيضاً المؤرخ العثماني عبد الله رضوان في كتابه "تاريخ مصر"، حين ذكر أن علماء مصر كانوا =

النّاهضة القوية يجعلها تعمل على أن تتطلع إلى الولايات العربية القريبة منها وتشرع في ضمهنّ إليها[11]، في الوقت الذي ضعفت فيه الدّولة العثمانية واتجهت الأطماع الأوروبية إلى أملاكها الأمر الذي ترتب عليه أن تكتلت أوروبا وعلى رأسها بريطانيا للقضاء على قوة مصر الصّاعدة[12]. فقد اتسمت مرحلة التوسع المصري في الشام بالصّدام المباشر بالدّولة العثمانية إن صح القول.

أصبحت المسألة المصرية مثاراً لمطامع الدّول الأوربية منذ أن أسس محمد علي باشا الدّولة المصرية الحديثة فلما اشتبكت مصر والدّولة العثمانية في الحرب، فاقترنت حينها المسألة المصرية بالمسألة الشّرقية فاشتدت المنازعات الدّولية بشأنها وانبعثت المطامع

=يلتقون سراً كل سفير عثماني يأتي إلى بلادهم ويقصون شكاواهم ويستنهضون السلطان لتخليصهم. يقول محمد الخير عبد القادر، في كتابه "نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية": "كلمة عثمانيين لم تكن تحمل معنى قوميًا، وإنما كانت في مدلولها شبيهة بكلمة عباسيين أو أمويين أو سلاجقة، أما الأتراك فكان تعريفهم لأنفسهم أنهم مسلمون ولاؤهم للإسلام ولبيت آل عثمان، وأما من نسميهم اليوم "العرب" لم يكونوا يصفون أنفسهم بأنهم عرب إزاء الأتراك." فلم تكن الولايات العربية ترى في الحكم العثماني احتلالا أو ترى العثمانيين غزاة جائرين كما يروج اليوم. ويقول المؤرخ البريطاني مالكولم بيتر هولت: "إن القصة التي تصف حكم الأتراك في العالم العربي بأنه كان عهد شقاء واضطهاد للعرب المغلوبين على أمرهم، لا تعدو أن تكون أسطورة". ويشير المؤرخ المصري عبد العزيز الشناوي، في كتابه "الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر"، أن العرب لم يكونوا ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية، ولم ينظروا إلى الحكم العثماني على أنه استعمار، وظلت هذه الفكرة السياسية الدينية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من الشعب العربي إلى أوائل القرن العشرين. وأضاف أن الدولة لم تتدخل في شؤون الحكم إلا في نطاق ضئيل وبقدر يسير، فاعتبرت نفسها مسؤولة عن حماية الولايات العربية، وتوفير الأمن فيها، وإقامة الشعائر الدينية والحفاظ على المبادئ الإسلامية، وتنظيم وحماية قوافل الحج، والإشراف على القضاء، وجمع الضرائب بواسطة شيوخ الطوائف في الولايات العربية، وتركت سكانها يعيشون على النحو الذي كانوا يألفون. ولما خضعت الولايات العربية لحكم العثمانيين، نظروا إليهم لا باعتبارهم قوة أجنبية، وإنما كانوا يرون فيه حكم "بني عثمان"، كما حكم "بني أمية" وحكم " بني العباس"، ولو كانوا ينظرون إلى الحكم العثماني على أنه احتلال أجنبي لاندلعت الثورات واشتعلت المقاومة العربية، إلا أن هذا لم يحدث إلا في نهاية أمر الدولة العثمانية بعد أن دب فيها الضعف ونخرت في جسمانها مؤامرات الغرب، الذي خدع العرب بفكرة خلافة عربية تقوم على أنقاض الخلافة العثمانية. فهذا هو الغرب الذي فسر الاستعمار الأوروبي على انه حركة هدفها نشر الحضارة والانسانية وسط الشعوب الافريقية الأسيوية، أم الخلافة العثمانية فهي استعمار وغزو للشعوب العربية.

[11]– رأفت الشيخ ، العرب في التاريخ المعاصر ، مرجع سابق ، ص378

[12]– علام عبد السلام عيسى الفلاح، المرجع السابق، ص 30– 31– **ينظر ايضا:** نادية مصطفى، المرجع السابق، ص ص 251– 252.

القديمة التي كانت تسعى لها كل الدّول حيال الدّولة العثمانية[13]، فروسيا نظرت بعين الخوف لتقدم الجيش المصري، واقترابه من عاصمة الدولة العثمانية أن ذلك يمثل خطورة عظيمة بالنسبة لها أن تقيم إلى جوارها قوة جديدة فتية لا قبل لروسيا بمشاكلها وهي التي ألفت أن تنال بالتّهديد العديد من الامتيازات من الدول العثمانية المتخوفة دائماً منه[14]، كانت سياسة بريطانيا حيال محمد علي باشا تقوم على أساس التّظاهر بالمحافظة على أملاك الدّولة العثمانية أمام أطماعه وتوسعاته وأخذت تعمل على رده إلى حدود مصر حتى لا يكون له من القوة ما يهدد مصالحها التي أخذت تتضح في تلك المنطقة من مناطق الشرق وترى في الحد من سلطانه حداً لامتداد النفوذ الفرنسي الى هذه المنطقة الحساسة[15].

ولدعم التّفرقة والتجزئة بين الدولة العثمانية والولايات العربية الإسلامية وعدد من حكامها، نجد خلال هذه المرحلة عدد من السياسيين والفلاسفة الأوروبيين يدعمون محمد علي باشا في تمرده على الدولة العثمانية، وخططه التوسعية الخارجية على حساب السّلطنة، ويقترحون عليه كيفية المحافظة على إصلاحاته ، وتشجيعه على إعلان استقلاله عن الدولة العثمانية ، وتشير أحدا الرسائل التي بعث بها الفيلسوف البريطاني" **جيريمي بنتهام** [16]" إلى محمد علي باشا بشكل صريح عن تلك التوجهات حيث يقول " **عرفك الناس منذ زمن أكثر الحكام المسلمين تنورا وأشدهم رغبة في الإصلاح ولم يبق إلا أن تعمل على أبقاء هذه الإصلاحات وهذه الشهرة الذائعة كانت في الحقيقة أحد النّجوم السّواطع التي ظهرت في هذا القرن وما عليك إلا أن تزين بجلال اسمك صفحات القرون المقبلة ... ومن غير الاستقلال لا يمكن أن تولد دولة ... ومتى شيدتم استقلال بلادكم ... فمِما يدعو إلى**

---

[13]– الرفاعي، المرجع السابق، ص 252.

[14]– حيث أرسل القيصر نقولاً الجنرال موارفيف في مهمة الى إسطنبول لمحاولة الوصول الى تسوية للمشكلة القائمة بين السلطان محمد الثاني ومحمد علي باشا إلا أن جهوده باءت بالفشل.

[15]– حسين فوزي النجار، السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط، ج 1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953 ، ص 190.

[16] – **جيريمي بنثام Jeremy Bentham** (15 فيفري 1748 – 6 جوان 1832): هو عالم قانون وفيلسوف إنجليزي ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المنظر الرائد في فلسفة القانون الأنجلو – أمريكي. ويشتهر بدعواته إلى النفعية وحقوق الحيوان، وفكرة سجن بانوبتيكون (مراقبة السّجناء جون علم بأنّهم مراقبين).

استغرابي واستغراب العالم أجمع هو استمرار تبعيتك للسلطان الفعلية أو الظاهرة[17] "، يتضح من خلال هذه الرسالة كم كان هذا الفيلسوف البريطاني مهتماً بتحريض محمد علي باشا على الاستقلال عن الدولة العثمانية بشتى الطرق، حتى لو أدى ذلك إلى الدخول في حروب مستعرة بينهم .

وهكذا اعتبرت الأزمة المصرية من الأحداث التي شكّلت تاريخ الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، حيث هدّدت الكيان العثماني الذي أجمعت القوى الأوروبية على ضرورة الحفاظ عليه في مؤتمر فيينا 1815م ، حيث مرت العلاقة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا بمرحلتين: مرحلة الخضوع التي حارب فيها الباشا تحت اللواء العثماني، ومرحلة التوسع التي مثّل فيها محمد علي تهديداً للكيان العثماني، مما أجبر الدول الاوروبية على التدخل.

ثانيا: دوافع وأهداف توسعات محمد علي باشا

لحظنا من خلال اطلاعنا السّابق حول تاريخ العالم العربي الحديث أن هناك أراء تتردد وتختلف حول توسعات محمد علي باشا والي مصر في أملاك الدولة العثمانية، التي كانت لها السيادة الشرعية وقت ذاك على مصر وعلى معظم مناطق العالم العربي، وقد تضاربت تلك الآراء فيما بينها حول الأسباب التي أدت إلى تلك التوسعات وعن أهدافها، الأمر الذي شكل علامة استفهام وبالتالي أخذ المؤرخون الذين تناولوا هذه المسألة أو أشاروا إليها بصورة أو بأخرى ينظر كل واحد منهم إلى المسألة بمنظاره وبمفهوم قد يتفق أو يختلف مع غيره، حيث أعاد بعضهم إلى أسباب شخصية، والبعض الآخر الى أسباب دينية، والبعض إلى أسباب قومية:

[17]– مصدر هذه الوثيقة المتحف البريطاني بلندن، قام بترجمتها ونشرها، محمد رفعت ، مجلة المقتطف المصري ، جوان 1922، ذكرى(محمد على الكبير) ، ص ص 64– 66 نقلا عن : علام عبد السلام عيسى الفلاح، المرجع السابق، ص 33.

1- الاتجاه الشخصي(ملك وتوسع):

كان يرى أصحاب هذا الاتجاه من المؤرخين أن محمد علي باشا لم يكن سوى مغامرا عسكريا لا ينطلق من أي رؤى ايديولوجية، ولكن يسعى نحو القوة والسيطرة والسلطة الشخصية ومن ثم فإن سياسة الإصلاحية في مصر ليست إلا نتاج مطامحه الشخصية لاستخدامها كقاعدة لتوسعاته[18] وتحقيق طموحاته في تكوين إمبراطورية على حساب الدول العربية الأخرى تكون مستقلة عن الخلافة العثمانية، حيث يقول المؤرخ **دودويل**[19] :" أن محمد علي ربما تبنى دائما فكرة حكم مصر، ليس ممثلا لغيره، ولكن كحاكم مستقل، وذلك منذ اليوم الاول الذي سيطر فيه على مصر "[20]، أما **ادريس أفندي** الذي عاصر محمد علي باشا فيقول :" ... لم يعرف محمد علي في حياته أي تربية أولية، فورطه في الخطأ اتخاذه من نفسه مثلاً واتباعه غريزة السيطرة... وأن الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليُرى والياً متلهفاً إلى المجد لا مشرعاً يضع أساس الرخاء الذي ينبغي أن يسود من بعده، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحيين لأعمال السلم من ناحية... ولا وطنيا يبث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم، هو يعمل دون أن يكون مستقل الشعب هدفاً له، وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه"[21].

كما تحدث المؤرخ **دريو**[22] عن هذه المسألة فقال:" أن محمد علي باشا قام بحربه ضد الدّولة العثمانية لأنه كان يملك الحلم والرغبة في أن يكون عظيما"، وأضاف دريو في

---

[18]- نادي مصطفى، المرجع السابق، ص 245.

[19]- هنري دودويل: باحث ومؤرخ انجليزي، ولد عام 1879م وتلقّى تعليمه في مدرسة التّايمز النحوية، ثم في كلية سانت جونز في أكسفورد. بين عامي في 13 من جوان 1946م.

[20]- Dodwell, Henry,The Founder Of Modern Egypt, A Study Of Muhammad Ali, Cambridge: At The University Press ,1931, P. 39.

[21]- ادريس افندي، المصدر السابق، ص ص 25- 26.

[22]- دريو هو مؤرخ فرنسي اهتم في دراساته بتاريخ المشرق العربي الحديث من بين اثاره المسألة الشرقية منذ نشاتها حتى عام 1926، ومحمد علي في سودان ، وحملة الفرنسية على مصر .

موضع آخر فقال:" أن محمد علي بعد أن نجح في إقامة جيش حديث ومتطور وأسطول مرهوب الجانب... وبعد أن رفع انتاجية مصر بشكل ملحوظ، أراد أن يخرج مصر من حالة التبعية إلى دولة خارجية- الدولة العثمانية- "[23]، لذلك فقد طلب محمد علي باشا من الدولة العثمانية أن يكافئ رسميا على جهوده التي قام بها من أجل الدولة العثمانية، من خلاله اعطائه ولاية الشّام إلى جانب ولاية مصر له ولأبنائه من بعده[24] لكن دولة العثمانية رفضت ذلك، رغم قبولها مبدأ اعطائه ولاية مصر له ولأبنائه من بعده، ذلك قرر محمد علي أن يحصل على ذلك بالقوة العسكرية، حيث طلب من ابنه ابراهيم باشا إعلان الحرب على الدولة العثمانية في نوفمبر 1831م، التي كانت تعاني من حالة من الضعف العام على جميع الأصعدة، لذلك استطاع الاستيلاء على بلاد الشام وهزيمة الدّولة العثمانية أكثر من مرة، وفي ديسمبر 1832م أرسل السلطان محمود الثاني اخر جيوشه لوقف تقدم ابراهيم باشا، لكن هذه القوات هزمت ودحرت في منطقة قونية وبات السلطان بذلك تحت رحمة هذا التابع الثائر[25].

وبالمقارنة بين الرؤى القومية فإن اتجاه التفسير المصلحي أو الواقعي السياسي يرى أنه من الخطأ إلصاق المشاعر القومية المصرية أو العربية بحركة محمد علي لأنه مجرد حاكم مسلم له مفاهيمه من السلطة وتحركه رغبة قوية في السيطرة والقيادة، فمحمد علي وفق هذا الاتجاه لم ير إلا دولة عثمانية ضعيفة وامكانية انتزاع تنازلات أكبر من سلطانه أو توسيع وتقوية نطاق سلطته كحاكم اقليمي عثماني لأن تاريخ الشّرق الأوسط الإسلامي يبين اتجاه الحكام المحليين دائما نحو اكتساب درجة القوة وذلك في اللحظات المناسبة من ضعف السّلطة المركزية، ومن أهم أسانيد هذا الاتجاه هو أن ضم الشّام إلى مصر كان من شأنه أن

---

[23] -Driault, Edouard. L Egyte Et L'europe .La Crise De 1839-1841، La Caire: Société Royale De Géographie - d'Egypte, 1930).Vol. 1، P Xx.

[24]- Kelly. J. B، Britain And The Persian Gulf 1795-1880 ،Oxford، At The Clarendon Press، 1968، P. 129, 271.

[25]- Grant, J. A - Temperley, Harold. Europe In The Nineteenth And Twentieth Centuries 1789-1939 (London: Longmans, Green And Co., 1948, P. 261.

يدعم عناصر القوة والسلطة الاستقلالية لمصر ومن ثم فإن المصالح السياسية والاستراتيجية والاقتصادية هي التي تفسر حركة محمد علي وليس القضية القومية، فهذه الأخيرة اطنب المؤرخون القوميون والمدافعون عن القومية العربية في ابرازها حيث كانوا يعرفون المعارضة البريطانية القوية لمطامح محمد علي في مواجهة السلطان العثماني، كذلك يرى هذا الاتجاه أن محمد علي لم يكن معنيا بمدى خطأ أو الصواب في عملية التحديث فهي لم تكن في نظره أكثر من سلطته ومن قدرته على إقامة دولة قوية، ولذا فإن دأب محمد علي في السعي نحو القوة والسيطرة كان من أهم أسس تطور عملية التحديث في مصر على مستوى الدولة والمجتمع[26].

كانت الكثير من العقبات المعوقة تعترض طريق محمد علي وابنه في سعيهما في ايجاد حركة عربية، فقد كان غير عربيين، بل لم يكونا يحسنان اللغة العربية[27]، وإن كان ابراهيم باشا قد تعود التحدث بها في شيء من الطلاقة، وكان لهذين العاملين: انتقاء الحافز العنصري، والعجز عن تعبير باللغة الفصيحة غنية، اثرهما في انتقاص من قوة اصالة دعوتهما إلى نهضة عربية قومية ولذلك كان الدافع الذي يحركهما هو الطموح الشخصي، وكانت رغبتهما في اعادت الامبراطورية العربية تتبع في أصولها، من رغبتهما ان يكسبا لنفسيهما امبراطورية ما، ومهما تكن الاسباب الأخرى في اخفقهما فقد كان هذا الضعف الأصيل أحد الاسباب الأساسية... ، ولم يكن الأب وابنه متفقين كل الاتفاق في أراءهما عن الامبراطورية المستقبل، لقد كانا متفقين على ادماج البلاد العربية التي افتتحها في مملكة واحدة يتوليان حكمها ويرثها من بعدها أبنائهما، كما كان متفقين على انتحال لقب الخلافة، ولكنهما بعد ذلك كانا مختلفين في تقديرهما لقوة العرب وفي مقدار اعتمدهما على تعاونهم ومؤازرتهم ، فقط كانت أهداف محمد علي كلها ترمي إلى اكتساب المغانم، وكان قد عقد العزم على أن يصبح خليفة، وان يتولى حكم مملكة مستقلة، فأدرك أنه لا بد له لتحقيق هذه الغايات من أن يضمن رضاء العرب وأن ينال اذا استطاع مؤازرتهم الفعالة، ولكنه لم يكن

[26]– نادي مصطفى، المرجع السابق، ص 248.

[27] – المرجع نفسه، ص ص 248– 249.

في الحقيقة صادقا في عطيفته نحوهم، ولم يكن يتحدث لغتهم كما أنه كان يستهين بمواهبهم وخصائصهم، وكان يرمي إلى أن يكون صحبه من الأتراك والالبانيين، هم عماد السلطة وصرح الحكم في إمبراطورتيه المقبلة، وأن يكون العرب هم الرعية الذين يقدمون الطاعة ويحملون الأعباء..."[28].

كما كان يرى البعض الاخر من المؤرخين ومن عاصره أن الإصلاحات محمد علي تصب جميعها في بوتقة واحدة هي الجيش، وأن قدرات الشعب المصري سخرت جميعها لخدمة غرض واحد وهو صنع مجد شخصي لمحمد علي وتكوين امبراطورية مترامية الأطراف يحكمها هو وأبناؤه من بعده.

2/ الاتجاه الديني

فكان يرى أصحاب هذا الاتجاه رفض مقولة الاتجاهات القومية عن سعي محمد علي باشا لإسقاط العثمانيين والوصول إلى استنبول ليقبض على زمام الخلافة والسلطة العثمانية والحلول بدل آل عثمان، ولقد وجدت هذه الاتجاهات التعبير عنها في مصادر تاريخية حديثة أخرى معاصرة وكان حجة المؤرخين الحدثين أن محمد علي كان يعرف صعوبة إسقاط العثمانيين، وأنه كان يريد حكم الشام مع حكم مصر تدعيما لقوة واستقلالية مصر الذاتية خدمة في نفس الوقت للباب العالي وحماية المصالح العثمانية، وأن سبب المصائب في العلاقات بين الطرفين كان دور بعض المفسدين الذين سعوا لإحياء الضغائن في صدور رجال الدولتين وبث الدسائس بينهم، ومن أهم الوثائق التي يستند إليها هذا الاتجاه خطاب محمد علي لملك فرنسا لويس فيلب الذي يبرز فيه كيف أن نواياه في مصر ووجوده السياسي ضروري للموازنة الأوروبي، وهو يبرز أيضا أمرين آخرين هما: رغبته في حماية الامبراطورية من ناحية والأثر السلبي للتدخلات الأجنبية على العلاقات المصرية العثمانية فقد قال:" قصاري ومرامي أنظاري موجهة نحو مساعدتها(الدولة العثمانية) على أعدائها أولا والمحافظة على كل ما ملكته يدي المجهدات العظيمة في سبيل الدفاع عنها ثانيا... أرى أن

[28]– المرجع نفسه، ص 249.

الشام تصير إذا بقيت في يدي عنصر قوة استطيع به وقتئذ مساندة مولاي السلطان ودولتي العلية مساندة حقيقية فعلية"[29]، فقد صرح لقناصل الدول في جوان 1832م وهو في أوج قوته عندما غزى بلاد الشام " بأنه يعتبر نفسه خادماً للإمبراطورية التركية، وأنه إنما يعمل فقط لصالح ولمجد الباب العالي فإنه ليست لديه أي نظريات استقلالية، إنما يعمل على تقوية تركيا "[30]، هذا ولقد عبرت مصادر اسلامية معاصرة على نفس التوجه حيث أكدت رفضها للنوايا والاتجاهات الانفصالية الاستقلالية لدى محمد علي[31]، أما البعض الاخرى فرأوا أنه كان رجلا طامحا لبعث امبراطورية اسلامية تقوم على أنقاض الامبراطورية العثمانية التي كانت تعاني آلام التفكك والاحتضار أو طامحاً لتأسيس امبراطورية عربية متحررة من نير العثمانيين وسلطانهم، فكان طموحه هذا سببا من أسباب انقضاض الدول الأوروبية المتحالفة عليه ومحاربتهم له وطرده من بلاد الشام إلى مصر.

لنفترض أن رأي أصحاب هذا الاتجاه صحيح هل تبنى خلافة عربية إسلامية في ظل خلافة إسلامية؟ ولماذا عمل محمد علي على القضاء على الحركة الوهابية عندما ظهرت وقمعها رغم أنها كانت تنادي بالعمل بتعاليم الدين الاسلامي والسنة النبوية الشريفة؟

3/ الاتجاه القومي

كان التساؤل القائم عند أغلب الباحثين والمؤرخين فيما كان محمد علي يهدف إلى تأسيس امبراطورية عربية من وراء توسعاته على حساب الدول العربية؟ أم لا؟ فكان هناك راي بعض المؤرخين ان دوافعه من منطلق قومي عربي. فكانت الاتجاهات القومية هي الأكثر انتشارا بين الساسة البريطانيين المعاصرين للتجربة وخاصة الرئيس الوزراء بالمرستون[32] الذين رأى أن هدف محمد علي هو تكوين مملكة عربية وبعث الوعي القومي

---

[29] – نادي مصطفى، المرجع السابق، ص ص 246– 247.

[30] – مصطفى كمال، المسألة الشرقية، ط1، مطبعة الآداب، القاهرة، 1898، ص ص 102– 104.

[31]– نادي مصطفى، المرجع السابق، ص ص 246– 247.

[32]– هنري جون تيمبل Henry John Temple يعرف أيضاً بلقب فيسكونت بالميرستون الثالث Viscount Palmerston (20 أكتوبر 1784م/ 18 أكتوبر 1865) بدأ حياته كمصمم أزياء ورجل فكاهي في مقاهي لندن رجل=

العربي واحياء أمة عربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب، هذا وكان بعض المعاصرين للتجربة من مسيحي الشام قد أشار أيضا إلى أن بريطانيا قد لاحظت أن محمد علي باشا يطمع بعد ضم الشام إلى احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة إسلامية كبرى[33]، كذلك كان هذا الاتجاه القومي هو الأكثر انتشارا بين العرب من القوميين المعاصرين لمرحلة الحماسة القومية بعد الاستقلال عن الاستعمار الأوروبي، وتجدر الاشارة إلى أن هذه الاتجاهات القومية لم تكن منعزلة تماما عن الاتجاهات الإسلامية أو المصلحية، فلقد رأى البعض أن تجربة محمد علي تعبيرا عن الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي، وأول محاولة في العهد العثماني تعمل على جمع العرب في وحدة متميزة عن الدولة العثمانية لكنها لم تنجح لعدم توفر الوعي القومي العربي، كما رأى فيها مصدر آخر تعبيراً عن أول مشروع للوحدة العربية في لعصر الحديث والذي كان ماثلا في أذهان المفكرين والساسة العرب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وفي المقابل فإن البعض الأخر قد رأى فيها تعبيرا عن انبعاث عربي اسلاميي وحدوي ضد الهجمة الغربية الجديدة على الاسلام، أما الفريق الثالث فقد رأى فيها عملا توحيديا عربيا وليس استعمارا او احتلالا يحميل مضمون برجوازيا مشويا بطابع الحكم الفردي ويحمل أحلاما امبراطورية ويرفع شعارات العروبة ضد شعار العثمنة أو التتريك لأن شعارات العروبة كانت تعبيرا عن أن القيم العربية والنزوع القومي الذي كانت تطرب به أحشاء المجتمع يومئذ، وثم كانت الشعارات التي يستطيع بها النام الجديد في مصر وقيادته ان تحارب تحت اعلان شعار العثمنة، كذلك تميزت حركة محمد علي في نر باحث أخر بأنها كان يخالطها بعض الظلال القومية لان تأثر محمد علي غير العربي باتجاهات القومية هو الذي أعطى لتوسعه وحكمه لبلاد الشام طابعا عربيا قوميا خاصة وانه كان يريد الاستقلال بالمنطقة العربية وفصلها عن

= دولة بريطاني خدم مرتين كرئيس للوزراء في منتصف القرن التاسع عشر، سيطرت بالمرستون على السياسة الخارجية البريطانية خلال الفترة من 1830م إلى 1865 م، عندما كانت بريطانيا في أوج قوتها الإمبراطورية، شغل منصبًا مستمرًا تقريبًا من عام 1807 حتى وفاته في عام 1865م، بدأ مسيرته البرلمانية كعضو حزب المحافظين، وانشق عن حزب العمال في عام 1830، وأصبح أول رئيس وزراء للحزب الليبرالي المنشأ حديثًا في عام 1859.

[33] – نادية مصطفى، المرجع السابق ص 245.

الدولة العثمانية، واذا كانت هذه التفسيرات قد حملت في مجملها ومن منظور قومي عربي تقويما ايجابيا لحركة محمد علي الا أن تعبيرات اخرى اقترنت بنظرة قومية مصرية قد حملت تقويما متحيزا ليس ضد العثمانيين فقط ولكن ضد محمد علي ايضا اعتباره غير عربي غير مصري لم يحقق انتصاراته إلا بمساندة جيش وشعب مصر[34].

ومن أهم المؤرخين العرب الذين اعتبروا مشاريع توسعات محمد علي باشا تصب في نطاق قومي عربي[35] وأن فكرة مشروع الدولة العربية الكبرى كانت تسيطر على ذهنه منذ أنّ تولى حكم مصر عام 1805م وبالتالي كان يعقد العزم على الإنفصال بولاية مصر وتوابعها من الناطقين بالعربية عن الدولة العثمانية[36]، ومن ثم وصل طموحه أيضا إلى استهداف بلاد الشام وكأنه من ذلك يواصل سياسة مماليك مصر في القرن الثامن عشر مثل علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب اللذين قادا في سبعينيات القرن الثامن عشر حملات في اتجاه عكا ودمشق لإخضاعهما لنفوذهما، كما كان يتطلع لتنفيذ مشروع نابليون بونابرت في الشرق الذي لم يتحقق إذ كان نابليون مثالاً للقاعدة التي تقول بأن كل سلطة قوية في مصر إنما تطلع بالطبع لمد نفوذها خارج الحدود المصرية وخاصة في اتجاه بلاد الشام[37] نجد **عبد الرحمن الرافعي**[38] حيث قال في هذا الشأن:" إن مفخرة الجيل الذي عاش في عصر محمد علي أنه حقق لمصر استقلالها، وألّف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حضيرة

---

[34]– المرجع نفسه، ص ص 245– 246.

[35]– لم يكن هناك من" مصريين "بالمعنى القومي وقتها فرغبة النخبة المصرية وقتها في التمايز عن سائر الولايات العثمانية، وتطلعهم للحكم الرشيد، ومشاركتهم الفاعلة في إدارة البلاد لم يلازمها حس قومي، بل ظل العامل الديني هو = الغالب بالإضافة إلى عدم الجرأة على التطلع للانفصال التام عن الدولة العثمانية، التي ظلت حتى سقوطها رمزا للإسلام، فكان لازمًا أن يحكم مصر مواطن عثماني.

[36] – نفس المرجع، ص 246.

[37] – نفس المرجع، ص ص 246– 247.

[38]– عبد الرحمن الرافعي: (8 فبراير 1889 / 3 ديسمبر 1966 م): هو مؤرخ مصري اهتم بدراسة أدوار الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث من أشهر أعماله هو 15 مجلد يؤرخ فيها منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر حتى خمسينياته، تخرج من مدرسة الحقوق الخديوية سنة 1908 م، في أواخر عمره دهمه المرض، وظل يعاني منه نحو عامين حتى لقي ربه في **3** من ديسمبر **1966**م.

الوطن، فله فضل تحقيق تلك الوحدة التي كانت وبقيت على مدى السنيين من أقدس مطالب القومية المصرية، ولئن اعترض ذلك الاستقلال قيود حالت دون جَعله استقلالا تاما، فلم يكن ذلك عن تقصير في الجهاد، بل لأن الدول الأوروبية قد تألبت على مصر بتحريض السياسة الانجليزية، فحرمتها ثمرة انتصاراتها، وهذا الاستقلال مع ما اعترضه من قيود لا يزال مفخرة عصر محمد علي، لأن الجيل الذي حققه واستخلصه وبذل في سبيله مع بذل من جهود وتضحيات قد دافع عنه وتركه للأجيال المتعاقبة..."[39].

أما جوزيف حجار المعروف بكتابتها على المشرق العربي خلال الفترة الحديثة فقال :" ... لقد اندمج هذا الالباني الأصيل بصورة كاملة وثابتة في حياة البلد الذي تبناه، وكان منذ سنة 1815م قد فرض نفسه على مصر من خلال صراعه ضد الفوضى والفساد الداخليين اللذين اشاعهما المماليك الاقطاعيون، ومنذ ذلك الحين جسد بعث أمة قديمة ازاء انحطاط السلطان المزري الذي كان سيده اسميا..."[40].

نستنتج أن دوافع محمد علي باشا في مشاريعه التوسعية اشتملت على الاتجاهات الثلاثة مصلحية واصلاحية وقومية لكنها مرت بثلاث مراحل كل مرحلة اشتملت على اتجاه معين حيث عبرت عن وطنية إسلامية تهدف إلى أحياء قوة الدولة الإسلامية انطلاقا من احياء قوة مصر ، ثم مصر والشام، ثم استنبول، وذلك حسب الأوضاع والظروف المحيطة هي التي دفعت محمد علي للانتقال من مرحلة إلى أخرى من مراحل مشروعه، وقد تعرض الاتجاه القومي إلى انتقادات متعددة تستند إلى أن محمد علي لم يكن عربيا ولكن تركيا مسلما، كما أن مفهوم القومية كان مجهولا عند محمد علي باشا حتى نقول أنه كان يقود الحركة القومية العربية ضد العثمانيين، بل كانت مجهولة في تلك الفترة بالنسبة لعرب الشام أيضا، كما أن المشاعر القومية لم تلعب أي دور في الحركة السياسية المصرية خلال

[39]– عبد الرحمان الرفاعي، عصر محمد علي، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1898، ص 13.

[40]– جوزيف حجّار، أوروبا وصير الشرق العربي(حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية)، تر:بطرس الحلّاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972، ص 11.

المرحلة الأخيرة من تصفية الحملة الفرنسية والتي شهدت وصول محمد علي باشا إلى السلطة.

ثالثاً: عمليات الضم والالحاق (ملك وتوسع) في سياسة محمد علي باشا

بعد تمكن محمد علي باشا من احكام سيطرته على مصر، ونجاحه في القضاء على معارضيه في الحكم من الممالك، عمل الباشا على محاولة النهوض بأوضاع مصر واصلاحها لإقامة دولة قوية فيها، وعلى هذا الاساس اتبدأ مشروعه النهضوي بإقدامه على اجراء اصلاحات عسكرية واجتماعية واقتصادية داخل البلاد كما ذكرنا فيما سبق غرضها توفير المستلزمات الأساسية بغية الوصول إلى حلمه الكبير بقيام مصر الحديثة المرتكزة على التطور العلمي في شتى المجالات الحياة، ولتكون النواة المنشودة لضم باقي أجزاء الوطن العربي وفق رؤية محمد علي؛ ولأجل تحقيق هذا الغرض كانت حملاته العسكرية التي انطلقت من مصر متوجهة نحو شبه الجزيرة العربية والشام والسودان وسواحل الخليج العربي والتي استغرقت معم النصف الأول من القرن التاسع عشر.

1- تكليف محمد علي بالقضاء على الحركة الوهابية:

قام محمد علي باشا بتجهيز حملة عسكرية برية وبحرية بقيادة ابنه طوسون بهدف القضاء على الحركة الوهابية في عام 1811م بناءاً على أوامر السلطان العثماني[41]، وقد وضع محمد علي امكانياته لتنفيذ أوامر السلطان العثماني، فقد أثار ذلك كأي موضوع تاريخي جدلاً في وسط المؤرخين والباحثين حول أسباب الحملة، وهي الحملة التي أوصلته إلى شواطئ الخليج العربي، لهذا سنتعرض إلى عوامل قيام الباشا بهذه الحملة وصراعه مع الوهابيين ومن ثم انسحاب محمد علي من شبه الجزيرة العربية، والنتائج المترتبة عن ذلك.

[41]- دار الوثائق القومية: طلبات محمد علي من الدولة العثمانية اللازمة لتجهيز الحملة"، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 8، ، تاريخ: 11 محرم 1223هـ/ 9 مارس 1808، ص 12- 13.

ولدت الدول السعودية عام 1735م[42] اثر عقد بين محمد ابن سعود[43] أمير الدرعية[44] ومحمد ابن عبد الوهاب[45] مؤسسة الحركة الوهابية[46]، وخاضت الدولة الوليدة سلسلة من

[42]– تأسست الدولة السعودية الأولى في الدرعية بجهود الإمام محمد بن سعود لتكون دولة تمتد في نفوذها وتؤيد الدعوة الصحيحة وتؤسس لاقتصاد ومجتمع مزدهر، ونتيجة لقيام الدولة السعودية الأولى ظهر الكثير من العلماء، وازدهرت المعارف والنواحي العلمية والاقتصادية، وأنشئ العديد من المؤسسات والنظم الإدارية ، وكان انتهاء الدولة السعودية الأولى عام (1233هـ /1818م) نتيجة للحملات التي أرسلتها الدولة العثمانية عن طريق واليها في مصر، كان آخرها حملة إبراهيم باشا التي تمكنت من هدم الدرعية وتدمير العديد من البلدان في مناطق الدولة السعودية الأولى في أنحاء الجزيرة العربية.

[43] – محمد بن سعود (1109– 1179هـ،/ 1697 – 1765م): محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان ابن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي ... وينتهي نسبهم إلى بكر بن وائل من بني أسد ابن ربيعة، تولى محمد بن سعود حكم إمارة الدرعية بنجد (الرياض) عام 1139هـ/1726م في أعقاب مقتل أميرها زيد بن مرخان ابن وطبان الذي كان قد تولى إمارة الدرعية بعد وفاة أميرها سعود بن محمد بن مقرن، والد محمد بن سعود. ينظر: الزركلي خير الدين، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ط 13 ، دار العلم للملايين، بيروت ، 1998، ص ص 198– 201.

44– تقع الدرعية السعودية على الأطراف الشمالية الغربية العاصمة الرياض، وتشترك بحدود داخلية مع كلّ من محافظة حريملاء من الجهة الشمالية، ومع ضرما من الجهتين الجنوبية والغربية. ينظر: عبد الله صالح العثيمين، الدرعية نشأةً وتطوراً في عهد الدولة السعودية الأولى، (د.ط)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2014، ص ص 13– 25.

45 – بن عبدالوهاب(1206 – 1115هـ/ 1703 – 1792م): داعية إسلاميّ من زعماء الإصلاح في العصر الحديث، وُلِدَ الشيخ محمد بن عبدالوهاب بقرية العُيَيْنة بنجد بالمملكة العربية السعودية حيث تعلّم على يد والده القرآن والحديث ثم سافر في رحلاته العلمية إلى كل من العراق والمدينة ومكة، ألمّ خلالها بكثير من العلوم الشرعية واستطاع لقاء كثير من الفقهاء، ومناقشتهم ومناظرتهم، ثم عاد إلى مسقط رأسه إلا أنه لم يستطع التأثير في بيئته مما دفعه إلى الانتقال إلى قرية الدرعيّة المجاورة، فقام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوة أمير الدرعيّة محمد بن سعود، وتحالف معه منذ عام 1157هـ، 1744م، كما نادى الشيخ محمد بن عبدالوهاب بإقامة السنّة الصحيحة وتعاليم الإسلام في صفاتها الأولى، وناهض كل ما وجده مخالفًا للسنة، وأعلن من أجل تطبيق المبادئ التي ينادي بها جهادًا دينيًا لحمل مخالفيه على اتباع تعاليم الدين الصحيح.. ينظر: ابن غنام حسين بن أبي بكر، تاريخ نجد المسمى " روضة الأفكار والإفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام "، حق: ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني، القاهرة، 1961، ص ص 176– 188. ينظر أيضاً: حسن جمال بن أحمد الريكي، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005، ص ص 45– 48– عبد الله بن عبد المحسن التركي، الإمام محمد بن سعود دولة الدعوة والدعاة، ط1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، 1997، ص ص 16– 28.

[46]– دعوة إصلاحية حمل لواءها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ودافع عنها أمير الدرعية محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بموجب تحالف عقد بينهما في بلدة الدرعية عام 1157هـ/1744 م، انتشر الشرك في نجد وغيرها خلال القرن الثاني عشر الهجري، وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والتبرك بها والنذر لها، والاستعانة بالجن والذبح لهم، وكثر الحلف

الحروب بهدف الضم التوسع توجت بضم الحجاز عام 1803م[47]، حينها لم تهتم الدولة العثمانية بهذا الأمر اهتماماً بالغاً؛ لأنّها كانت مشغولة في تلك الفترة بمشاكلها وحروبها في أوروبا، ولكن عندما بدأ الخطر السعودي يظهر على أطراف العراق والحجاز والشام، حاول الباب العالي القضاء على هذا الخطر الداهم[48]، فقد اعتبر قيام الدولة السعودية الأولى بمثابة تهديد خطيرِ لهيبة الدّولة، ففي عام 1806م تمكن السعوديون من ضم الحجاز بصورة نهائيةِ، وطرد الحامية العسكرية والموظفين العثّمانيّين، وقطعت الخطبة للسلطان العثماني في الحرمين الشرفيين، فتجرد السلطان العثماني من أهم ألقابه، وهو لقب خادم الحرمين الشرفيين الّذي طالما تفاخر به آل عثمان دائماً[49]، ولذلك يمكن القول أن قيام الدولة السعودية الأولى لم يكن مجرد حركة انفصالية عادية، بل نازع سلاطين الدولة العثمانية في صفتهم الروحية كخلفاء لسائر المسلمين، لذلك كان على السلطان العثماني أن يتخذ

= بغير الله، فجاءت الدعوة السلفية لتدعو إلى العودة بالعقيدة الإسلامية إلى أصولها النقية. ينظر: ابن غانم حسين بن أبي بكر، تاريخ ابن غنام المسمى(روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد الغزوات ذوي الإسلام)، اعتنى به سليمان بن صالح الخراشي، ط1، دار الثالوثية، الرياض، 2010، ج1، ص ص 44- 176. - ابن غنام، الشيخ الإمام حسن، تاريخ نجد، حق: ناصر الدين الأسد، قابله على الأصل عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الشيخ، دار الشروق، بيروت 1915، ص ص11 - 243.- ينظر أيضاً: بريدجز السير بارفرد جونز، موجز التاريخ الوهابي، تر: عويضة بن متيريك الجيني،ط1، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005 م- ينظر ايضاً: أحلام بن عمي بن أحمد أبو قايد، الدولة السعودية الأولى من خلال كتابات الرحالة والمستشرفين البريطانيين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2009/ 2010م

[47] - ناصر محمد ناصر، دور العامل الخارجي في إجهاض تجارب النهضة العربية (دراسة تطبيقية في تجربة محمد علي 1805- 1849)، رسالة ماجستير، اشراف حسن نافعة، قسم العلوم السياسية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1993، ص 148.

[48]- فقد ازداد الخطر المترتب على هذه الدعوة، فلم تعد مجرد حركة فكرية بل صارت قوة سياسية ترمي إلى قيام دولة إسلامية، وأكيد سوف تهدد السيادة العثمانية في تلك المنطقة ومناطق أخرى مستقبلاً، فقد رأى فيها السلطان خروجاً على الخلافة الإسلامية، وعلى سلطة السلطان العثماني الذي هو بمنزلة خليفة المسلمين، كما خشيت الدولة العثمانية أن يمتد نفوذ الوهابيين إلى لعراق والشام، وخصوصاً أن آل سعود وصلوا إلى أبواب مشارف نهر الفرات، وصاروا يهددون البصرة نفسها.

[49] - محمد عبد العال محمد علي، العلاقات بين الحجاز والدولة السعودية الأولى (1739م - 1818م)، رسالة ماجستير، اشراف محمد عمر عبد العزيز عمر، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2015، ص 211.

الاجراءات الضرورية لكي يعيد لإمبراطورتيه هيبتها وسيطرتها على الأراضي المقدسة، ويستعيد لقب خادم الحرمين الشريفين، والفوز بزعامة العالم الإسلامي.

وتجدر الاشارة إلى أنه عقب سقوط الحجاز في أيدي السّعوديين اجتمع مجلس الشورى العثماني لإيجاد مخرجاً من هذا المشكل الذي يواجه الدولة، ولما كان الباب العالي مشغولا بقضايا وأحداث محلية ودولية فقد عهد بهذا الأمر إلى بعض الولاة المقربين من الحجاز مثل والي الشّام إلاّ أن الأمر لم يوضع موضع التّنفيذ، فبعد ذلك اتجهت أنظار الباب العالي إلى مصر [50]؛ **لكن لماذا محمد علي بذات؟ ولماذا لم يطلب الباب العالي من محمد علي ذلك منذ البداية؟**

من المؤكد أن موقع مصر الجغرافي على البحر الأحمر بالقرب من ينبع وجدة كان يؤهلها أكثر من أي ولاية أخرى لاستعادة إقليم الحجاز، واسترجاع سلطة الباب العالي على الحرمين الشرفين من جديد، فكان السفر من الشام للحجاز يستغرق من 30 إلى 40 يومياً عبر الصحراء[51].

فيرى فريق من المؤرخين أن الدولة العثمانية أمرت محمد علي بإرسال حملة إلى شبه الجزيرة العربية في محاولة منها لإضعاف هذا الوالي، واستنزاف موارده حتى يخضع لها خضوعاً تاماً، ولا يشكل خطراً عليها مستقبلاً[52]، ويرى أصحاب هذا الرأي أن السلطان سليم الثالث أراد بذلك أن يتخلص من محمد علي والوهابيين[53] في وقت واحد، فيستخدم محمد علي ضد الوهابيين فيصاب هو بخسائر جسيمة بعد أن يكون قد كسر شوكة الوهابيين، ويرى الفريق الأخر أن سبب رغبة الدولة العثمانية في إضعاف[54] محمد علي هو أن تعيين

50- المرجع نفسه، ص 212.

51- محمد صبري السربوني، المرجع السابق، ص 78.

52- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ط5، دار الكتاب الجامعي، ، 1870، ج1، ص 306.

53- كرابتيس بيير، إبراهيم باشا، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ، 1973، ص 19.

54- لم يكن محمد علي باشا قويا في ذلك الوقت حتى يُرهب الدولة العثمانية، أو تفكر هي الأخر في تحطيمه؛ بل كانت تخشى الوهابيين من أي قوة أخرى، كما نرى العكس الصحيح محمد علي كان ضعيف يسعى الى بناء جيشه، كما ان موارده كانت لا تكفي بدلي طلب الموارد من الدولة العثمانية من خلال رسالته التي بعثها للباب العالي يطلب فيها =

والياً على مصر عام 1805م جاء مخالفاً للقواعد المرعية في الدولة العثمانية[55] كما ذكرنا في الفصل الثاني، ومما يعزز وجهة نظر القائليين أن الدولة العثمانية قد زجت به في الصراع مع الوهابيين لإضعافه تمهيداً لعزله بعد ذلك.

ويرجع سبب ذلك إلى الأحوال السياسية في مصر التي كانت غير مستقرة نظراً للصراع بين الممالك، ثم وقوعها في قبضة الغزو الفرنسي، وبعد انسحاب الفرنسيين لم تستقر الأوضاع في مصر بل اِزدادت سوءاً، وفشل الولاة الذين سبقوا محمد علي بسب الفوضى والمشاكل التي كانت تعم مصر، لكن بعد سقوط الطائف عام 1803م في قبضة السعوديين، ثم سقوط مكة المكرمة عام 1803م، ثم محاصرتهم للمدينة المنورة أدرك الباب العالي عدم جدوى خروج حملة من العراق والشام، فأوعز إلى والي مصر محمد علي باشا بعدما نجح في صد حملة فريزر الانجليزية عام 1807م القضاء على الوهابيين[56].

لكن ضعف السلطة الناشئة – مصر– ونقص العتاد العسكري وقلة الأموال، والاضطرابات الداخلية[57] دفعت محمد علي إلى المراوغة في تنفيذ الأمر، محاذراً أن يجازف

= الامدادات بشأن الحملة على الوهابيين سنتعرض إلها لاحقا، كما أنه استفاد من ذلك دون أن يكون له دافع من الحملة، فقد استطاع مد نفوذه إلى هذه المناطق وراء قناع السيادة العثمانية، كما له التدخل في شؤون الوهابيين فرصة في بناء قواته العسكرية، وبناء أسطوله في البحر الحمر.

[55]– محمد صبري السربوني، المصدر السابق، ص 62.

[56]– كان السلطان العثماني يرى في تولية محمد علي مهمة القضاء على الوهابيين واسترداد الحجاز اذا نحج فسوف يكون ذلك مكسباً للإمبراطورية العثمانية وانتصارا لها وفي الوقت نفسه سوف يصاب جيشه بخسائر مادية وبشرية لا يستطيع معها أن يرفع صوته مطالبا بالاستقلال، وإذا هزم و فشلت الحملة فقد هيبته وضاعت ميزته، ولن يستطيع أن يواجه السلطان الذي تعود أن يثأر من ولاته. **للمزيد ينظر:** عبد الحميد البطريق، ابراهيم باشا في بلاد العرب (ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا 1848م– 1948م)، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948، ص 5.

[57]– وظل الباب العالي لمدة تربوا على عقد من الزمن يقف موقف الضعيف في وجه الخطر السعودي، وكانت هنالك عوامل كثرة ومتشابكة ساهمت في ذلك الوضع، منها الانتفاضات داخل الدولة العثمانية، ثم خسارة الأرضي والاستنزاف البطيء لإمكانيات الدولة االعثمانية لمواجهة التصدع الذي أصاب البنية السياسية للباب العالي؛ لوجود المرتزقة الانكشارية، والعجز المزمن في الإمكانيات المالي، فضلا عن مشاكل السلاطين مع روسيا القيصرية.

بالارتماء في أمر بمثل تلك الخطورة[58]،لأن محمد كان ماهراً في الرد على رسائل الباب العالي، وهي الرسائل التي كانت تحثه على الإسراع في السير نحو الحجاز، إذا كان يرد عليها برسائل يملأها بألفاظ وكلمات الخضوع والعبودية، ويظهر ذلك في رسالة اعتذار محمد علي عن عدم قيامه بحرب السعودية وشرحه للظروف التي أدت إلى اعتذاره الذي رد فيها على رسالة موسى باشا قائم المقام الذي طالب من محمد علي فيها باستعداد للحرب ضد الوهابيين في الحجاز، والذي قال موسى باشا فيها :" ... وتقدموا إقداماً تاماً على قطع دابر الوهابيين هؤلاء، وإزالةً تامةً... "[59]، ولكن الباشا رفع إلى الباب العالي اعتذاره عن القيام بتنفيذ هذا الأمر بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية، وخشية أطماع الدول الأوروبية في مصر في رسالته ويظهر ذلك في مكتبه في رسالته إلى سلطان **مصطفى الرابع**[60] قال فيها : "... **أحيل إلى عهدة عبدكم بموجب الهمايونية التي هي بالشوكة مقرونة، فسمعا وطاعة، وليس لي جواب غير مؤدي، ومن الجلي أني عبدكم عبد الدولة العلية ومملوكها، تصدر الحكم في حق هذا العبد كيفما تختار وتريد، بيد أن وقعة الحرمين هذه ليست نت المواد التي تخرج إلى حيز الوجود بمثل هذه الأدنى وحده بل هي مادة جسيمة تحتاج إلى إمداد السلطان ملجأ العالم بإرسال مبلغ عشرة آلاف كيسة نقدية، والمهمات الوافية، حيث أصبحت مثقل الكاهل بديون كثيرة سواء كانت جهة أن بعض الأراضي مصر بقيت شراقي غير مواتية من قلة الفيض في ماء النيل الذي هو الحياة للأقاليم المصرية في هذه السنة**

---

[58]– جيلبرت سينويه، المرجع السابق، ص 146.

[59]– دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر 01، رقم 05، 8 شوال 1222 هـ/ 9 سبتمبر 1807م، المصدر السابق.

[60]– مصطفى الرابع (1807م– 1808م): جلس على العرش عام 1807، وحال جلوسه وجه عنايته إلى تنظيم الجندية، وتأديب الانكشارية، وما صنعت الأيام طويلا حتى نشط المفسدون، وألقوا الفتن بين رجال الدولة وكبار المملكة، واجتهد مصطفى باشا البيرقدار(البيرقدار وهو لقب لرتبة عسكريه في الجيش العثماني ومعناه حامل العلم)حاكم روستجق في إقناع بعض الرجال على خلع السلطان مصطفى، وارجاع السلطان سليم إلى كرسي الخلافة، فجمع عسكراً وجاء با إلى الاستانة، ولما وصل إلى السراي، وأُعتلم السلكان بنواياه أشار بقتل السلطان سليم، فقتل في الحبس شهيداً، وحينها هاج القوم في القسطنطنية وتنكروا لوت السلطان سليم، وخلعوا مصطفى الرابع ثم حجروا عليه في الحبس الذي كان فيه أخوه، وبع ثلاثة أشهر قُتل في الحبس شهيداً، ودفن في تربة أخيه السلطان عبد الحميد خان. ينظر: عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الأن، تق: محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص ص 114– 115.

المباركة، أو من جهة فتح الاسكندرية أو من جهة مبالغ كثيرة تعهدت بها من باقي ديون سلفي خورشيد باشا، ومن عدم وصول بارة واحدة إلى يدي من حاصلات الصعيد، لأن أقاليم الصعيد بيد الممالك، وأن الدولة الهمايونية بناء على انشغالها بالحرب، الحالة هذه أصبحت الأقاليم مطامح أنظار جميع دول النصارى، فأقرب الاحتمال وأجدره بالملاحظة، احتمال أن يتسلط أعداء الدين على السواحل المصرية فيما إذا أرسلت العساكر الموجودين بمعية عبدكم إلى الحجاز لم يمكن زحفي وسفري في هذه السنة إلى ذلك الصوب المبارك، بسبب هذه الموانع، فإلى السنة الأتية أتخلص بإذن الله تعالى من ديوني، وتفرغ مادة الحرب الهمايونية في قالب فعقب اندفاع هذين المانعين القويين، لا جرم أتوجه نحو الجانب المذكور بالنفس بترتيبات قوية، وتداركات وافية جهد طاقة هذا العاجز، متوكلا على الله مع الاستعداد بإمداد السلطان وقوته، وتحت رعاية حضرة السلطان وظله الظليل ... "[61]، كما جاء في عريضة أرسالها للباب العالي بتاريخ 19 رجب 1226هـ "[62] **يسترحم بها عدم تغيير خاطر الشاهانية ويقول فيها " أن جميع ما يقال في حقه من ذوي الأغراض عن تأخيره في مادة الحجاز هو لأغراض خصوصية، وسيظهر ذلك في المستقبل، وإنه محض افتراء، وإن التأخير الواقع منه لأسباب الانجليز على القطر وغوائل الأمراء المصريين، والآن تهيأ لسفرية الحجاز، وسيتم المأمورية حسب المرغوب، وبها يقسم أنه غير خائن ضد الحضرة الشاهانية، ويتعهد قطعيا بإنجاز هذه المأمورية"[63]** وطريقته في كلام تدل على أن محمد علي ليس بالرجل السهل الذي يضحي من أجل الواجب والدولة العلية، فمصلحته الشخصية قبل كل شيء، وسوف يقبل بتطبيق أمر الباب

---

[61]– دار الوثائق القومية، " رسالة اعتذار محمد علي عن عدم قيامه بحرب الدولة السعودية وشرحه للظروف التي أدت إلى اعتذاره"، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 4، ، تاريخ: أواخر ذي الحجة 1222هـ/ فيفري 1808، ص 6.

[62]– دار الوثائق القومية: " محمد علي يظهر عجزه عن القيام بحرب الدولة السعودية بمفرده، وتخوفه ومن استغلال القوى الخارجية لفترة غيابه عن مصر والاستلاء عليها"، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 7، ، تاريخ: 11 محرم 1223هـ/ 9 مارس 1808، ص 9.

[63]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، أمر رقم 41، تاريخ 19 رجب 1226هـ، ص 19.

العالي فيما بعد كما سنوضح ذلك لاحقاً وذلك لما سيجنيه من فوائد ومن خلال ذلك وخاصة بما يتعلق بحلمه بالاستقلال عن الخلافة العثمانية؛ لأنه كان يعلم ومتيقنا أنه إذا أراد الاستقلال سيحتاج إلا قوة عسكرية أكبر، وإلى المزيد من المال والنفقات، وتوسيع التجارة المصرية سيكون أحد الوسائل للجمع بين هاتين الحاجتين.

وعندما تولى السّلطان محمود الثاني (1808م- 1839م) كرر أوامره لمحمد علي باشا وكان ذلك سنة 1808م للتحرك على وجه السرعة لإنهاء مشكلة الحجاز[64]، ولكن الباشا تحجج هذه المرة بالأخطار الخارجية التي تحيط بمصر، ومشاكل الممالك في الصعيد، حيث لم يكن قد أخضع اليه خضوعا كليا، وراح يضخم أمر التواجد السعودي في الحجاز، وأنه يحتاج جيوش من العراق وعكا، ودمشق والى جانب جيش مصر لإزالة ذلك الخطر، وذلك من خلال رسالة[65] قال فيها :**" ... حصل أيضا الاطلاع على ما تضمنته الإرادة العلية السلطانية، فسمعنا وأطعنا والله يعلم وسادتنا أولياء النعم لا يخفى عليهم أيضا أن عندكم عبد طائع ومملوك خاضع لسلطاني ومولاي صاحب القدرة والمهابة، فعلى تقرير الكتخدا الموصي إليه، يؤمل أن تقترن كافة المصالح السلطانية بالنظام، والانتظام، وها هو قد دخل تحت الطاعة نصف طائفة الممالك، وأما النصف الآخر فعلى وشك المتابعة والمطاوعة في هذه الأيام، وأصبح اندفاع غوائلهم جميعاً بالقوة القريبة من الفعل، وأتخلص من ديوني إن شاء الله تعالى بفتح إقليم الصعيد تحت ظلال ورعاية السلطان وكلاءته، لكن مثل هذا العدو القوي الذي استولى إقليم الحجاز من عشرين سنة، وازداد تمكناً واستقراراً سنة فسنة، ودام على ضبط ولاية باستمرار لا تندفع أضراره بزحف عبدكم بجيشه من طرف مصر فقط إلى مكة والمدينة اندفاعا كليا، بل يلزم لذلك أن يجرد جيش من طرف الشام وعكا وبغداد، فإذا وقع زحفنا هكذا إلى مكة والمدينة، وقمنا بحملة واحدة بمخابرة بعضنا البعض، يصبح تنظيم المصلحة وإنتاجها أسهل** ... وقد أعقب محمد علي

[64]- جيلبرت سينويه، المرجع السابق، ص 146.

[65]- دار الوثائق القومية: طلبات محمد علي من الدولة العثمانية اللازمة لتجهيز الحملة"، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 8، ، تاريخ: 11 محرم 1223هـ/ 9 مارس 1808، ص 12- 13.

ذلك بتوضيح احتياجاته من جنود وسلاح وأموال للقيام بالحملة المزعمة على الحجاز يأتي تفصيلها في قوله[66]: " ... **أما ما أحتاجه إلى تجهيزه من مصروفات من هنا، فما يوجد بمعية خادمكم المطيع من العساكر البالغ عددهم عشرة آلاف جندي لأجل الحركة، حيث أن ما ينوف على النصف منهم فرسان خيالة يزيد عدد المستخدمين السواس والجمالين وعكا الجيش، وسقاتهم على ثلاثين ألف شخص، وأجرة مصروفات ستة آلاف جمل لنقل ما يحتاج إليه من المؤن لطعامهم اليومي لكل يوم، وثمن مأتي أردب من الغلال لسنة بالمحل المذكور، وأجرة مهاري لنقلها براً إلى مرفأي القصر والسويس، ومصروفات السفن أيضاً إرسالها إلى الينبع وجدة، والعطايا الضخمة لأغوات الدخل والخارج، وسائر الرجال الأميرية، وعلوف عساكرنا، ومعيناتهم على حساب مائة وخمسين ألف خرج[67]، ومصروفات عمارة خمسة قلاع لوضع الذخائر فيها، إلى أن تصل من مصر إلى الحجاز، والصرر والعطايا على العتاد القديم لطائفة العربان الواقعة في الطريق، ولأهل مكة والمدينة، ولحضرة شريف مكة، والصرر فوق العتاد لجلب قلوب العربان بإعطائها على حسب الاقتضاء أحياناً، والحاصل أن إعطاء هذه المصروفات يحتاج إلى خمسة وثلاثين ألف كيسة نقدية، أو إلى أربعين ألف كيسة نقدية، وتصرف هذه المبالغ خدمة لديننا ودولتنا** ... "، ونلاحظ من خلال رسالة أن محمد علي قد بالغ في حجم الجيش الذي لا بد أن يحشده ومصاريف الحملة، يمكن أنه كان يريد أن يثير حظية الباب العالي في استرجاع مكانته من خلال استرجاع الأماكن المقدسة، أم أنه كان يريد استغلال هذا المصاريف في بناء جيشه وبناء دولته عندما يرجع.

---

[66]– نفس المصدر.

[67]– مصطلح كان من قبل يربط العساكر بالرواتب.

ففي عام 1809م تلقى الباشا من قبل السلطان سيفا وقفطاناً، ومع هاذين التشريفين اللذين أكد له وضعه كوالٍ لمصر، صدر إليه الأمر بالتعجيل للمضي إلى محاربة السعوديين واسترداد الحرمين الشرفين[68].

من خلال هذه الرسالة توضح لنا أن علي باشا لم يعارض من حيث المبدأ فكرة القيام بالحملة استجابة لرغبات الباب العالي، لكنه تأخر في تنفيذها ريثما يتغلب على مشاكله الداخلية من جهة، ويساوم في الحصول على مكاسب شخصية من جهة أخرى، ويعد الحملة اعداداً جيدا، فلم تكن المشاكل الداخلية هو كل ما يجعل محمد علي باشا يتردد في قبول هذه المهمة، لان الحملة ذاتها كانت تتطلب جهودا جبارة، لا تسمح بها حالة مصر وقتئذ، فقد كان ضروريا أن تعد حملة كبيرة مسلحة بأحدث الأسلحة ومجهزة بالمؤن والمعدات التي تكفل لها قطع مساحات الشاسعة، وتغلب على وعورة الطريق وندرة المياه حتى تصل في حالة جيدة، فتبدأ في مواجهة خصم قوي باسل يستعد للدفاع عن أرضه التي لا يقدس شيء قدره، ولا يعرف دافعاً للقتال أشد منه في سبيل الوطن والحرية والكرامة والعقيدة، ويمكن أن نلاحظ الدهاء والذكاء الذي تضمنه اقتراح محمد علي بشأن خروج الحملة من مصر وسورية وبغداد، لأنه كان يأمل في الحصول على موارد البلدان الثلاث إضافة إلى قواها العسكرية دفعة واحدة، غير أن الباب العالي شك في ذلك فصم أذنه عن هذا المقترح، لكن محمد علي يلح على ذلك، فشمت الدولة العثمانية رائحة الفخ، وبعد عدة رسائل متبادلة بين الطرفين يقرر محمد علي أخيرا أن يجهز حملته كما جاء في رسالته للباب العالي سابقة الذكر .

أ- دوافع محمد علي باشا للخوض الحملة

لقد أدرك محمد علي باشا في النهاية أن الأمر يتحقق منه بذل جهد لكسب رضا السلطان وليحتفظ بمركزه إلى الأبد، اذا تمكن من تحقيق أهداف تلك الحملة ولا ريب أن

[68]- إدوار دريو، محمد علي باشا ونابليون، (1806م – 1814م) مراسلات قناصل فرنسا في مصر، تر: ناصر أحمد إبراهيم، مر: رءوف عباس أحمد، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص 134.

الباشا كانت لديه دوافع شخصية أراد تحقيقها من جراء تلك الحملة ويمكن تقسيم الدوافع كالآتي:

- **دوافع شخصية (استقلالية- توسعية):** أراد محمد علي الذي وصل إلى الحكم في مصر بإرادة شعبية عام 1805م أن يحتفظ بمكانته في مصر، وذلك من خلال اثبات جدارته بهذا المنصب، وأن يظهر بمظهر الوالي الذي يضع جيشه في خدمة السلطان العثماني، وأن يقوم في حماية أراضي المسلمين ومقدساتهم، والدفاع عن السلطنة العثمانية وولاياتها، وكان محمد علي يدرك تماماً أن الشعب المصري سيظل ملتفاً حوله ما دام على علاقة وطيدة بالدولة العثمانية، فإن استطاع محمد علي إثبات جدارته في ما فشل فيه الأخرون وهو القضاء على الحركة الوهابية، واسترجاع الأراضي المقدسة لمصلحة الدولة العثمانية[69]، ويجني سمعة كونه القائد العسكري الأقوى في الدولة[70]، فهو أولاً سيدعم مكانته لدى السلطان العثماني[71]، وثانياً سيكسب عطف المسلمين، وسيكتب شهرة في العالم الإسلامي لحمايته الأماكن المقدسة بالحجاز[72].

وقد أراد محمد أن يغتنم الفرصة قبل أن يقوم بإرسال حملته إلى بلاد العرب، فقد اقترح على الباب العالي بواسطة وكيله المقيم في الآستانة بأن تكون مصر ولاية مستقلة في اطار التبعية للدولة العثمانية[73]، وطبقاً لما أورده القنصل الفرنسي دروفيتي كان الاستقلال واحداً من المشروعات لدى محمد علي باشا، ففي عام 1810م عرض الباشا أن يعقد حلفاً مع

---

[69]- مهنا محمد ناصر، الخليج العربي (التطور الحديث والمعاصر)، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1996، ص 232.

[70]- عفاف لطفي السيد مارسو، مصر في عهد محمد علي باشا، تر: عبد السميع عمر زين الدين، مر: السيد أمين شلبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 299.

[71]- مهنا محمد ناصر، المرجع السابق، ص 232.

[72]-قاسم جمال زكريا، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي، الأول (1507- 1830)، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ج4، ص 59.

[73]-Gabriel Baer, Landownershop In Modern Egypt – A History Of Landownership In Modern Egypt (1800–1950), Oxford University, Press, London, 1962, P153.

الفرنسيين إذ ما أيدوه في الحصول على الاستقلال، وكشف عن رغبته في امتلاك سفن تجارية تتمتع بالحياد في حال نشوب حرب بين الباب العالي وإنجلترا[74]، وفي نفس الوقت اتجه محمد علي باشا إلى وكيله المقيم بالإستانة نجيب أفندي[75] لإقناع الباب العالي بأن تكون مصر ولاية ممتازة شأنها شأن ولاية الجزائر[76]، وأوضح أن هذه الاجراء ضروري حتى تنتهي حرب الحجاز، وتذرع في طلبه هذا باضطراب الأحوال السياسية في أوروبا، واحتمال تدخل الدولة العثمانية في بعض الحروب هي في غنى عنها، فإذا لم يكن لمصر مركزها المستقل عن الدولة فقد تقع فريسة حصار إحدى الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية، بينما تكون الجيوش المصرية منشغلة في الجزيرة العربية في محاربة الوهابيين، وضرب مثال باحتمال محاصرة إنجلترا للموانئ المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر والحرميين التجارية للخطر، وفي حالة انتهاء الأزمة يمكن للدولة العثمانية أن تعيد مصر إلى مرتبتها التي كانت عليها من قبل[77] ،وهذا وفقاً ما جاء في الرسالة حين قال:" قد تحركت الروسية ضد الدولة، والمتبادر له عدم إمكان الدولة المدافعة عن ممالكها، بالنسبة لعدم اتفاق الجنود الاسلامية، لا محال بأن تضطر الدولة للاستعانة من فرنسا، واللايح بفكرة والأنسب هو حصول المباينة في هذا الأمر مع الانجليز، وحرصا لمنع تسلط وهجوم الدول اللإفرنكية على مصر إعطاء

---

[74]–جيلبير سينويه، المرجع السابق، ص 147– إدوارد دريو، المرجع السابق، ص 256.

[75] – لا تتوفر معلومات كثيرة حول شخصية نجيب أفندي ، ربما يرجع ذلك للدور الذي لعبه والمهام التي أوكلت إليه من قبل محمد علي؛ ولعل ذلك يرجع إلى إقامته الدائمة في الآستانة وإلى نهاية خدمته للباشا في ظروف غامضة دون تكريم من الباشا أو حتى وداع وكل ما هنالك أن اسمه يختفي في مراسلات الباشا بشكل كامل ربما مع تصدع العلاقات المصرية العثمانية في نهاية عصر محمد علي باشا، وهو ما يعني نهاية الدور نجيب أفندي مع نهاية العلاقات المصرية العثمانية، فوصفه الباشا أنه " من أجلة رجال الدولة العلية"، ويعني هذا أنه كان عثمانياً في الأصل وإقامته بالإستانة، وقد وصف محمد علي أيضا وظيفته " أنها من الوظائف ذات المهام الجسيمة، وأنه يؤدي واجباته أحسن قيام"، فقد عمل نجيب أفندي ممثلا للباشا في الآستانة وكان يشغل منصب قبو كتخدان الباشا بمعنى وكيل الباشا. للمزيد عن مهام نجيب أفندي ينظر: يحي محمد محمود، الدبلوماسية في الآستانة زمن محمد علي باشا" دراسة لدور نجيب أفندي" 1813– 1831، مجلة الوقائع التاريخية، ع، جويلية 2004، مصر، ص ص 253– 275.

[76]– كانت تحتل مكانة خاصة في دولة الخلافة كما كانت تتمتع باستقلال كامل مكنها من ربط علاقات سياسية وتجارية مع أغلب دول العالم.

[77]– دار الوثائق القومية: " طلب محمد علي باستقلال عن الدولة العثمانية"، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 54، ، تاريخ: 27 شوال 1225هـ/ 25 نوفمبر 1810.

امتياز مثل امتياز الجزائر، ثم تخصيص راية الخصوصية لها أيضاً، حتى بذلك تندفع مطمع أنظار الدول"[78]. ونستنتج من هذا الطلب أن محمد علي كان في غاية من ذكاء ودهاء فأراد أن يستغل الظروف الدولة العثمانية السياسية وحربها مع الوهابيين في الاستقلال بولاية مصر ، لكن السلطان العثماني كان شك في ذلك، وصم أذنه عن الاصغاء اليه[79].

دوافع سياسية: لقد ايقن محمد علي باشا أنه إذا تمكن من استعادة هيبة العثمانيين المترنحة بالانتصار على السعوديين فلن يملك السلطان إلا أن يشعر بأنه مدين له بالعرفان، ويمكن وراء هذا الدين أدراك بأنه في حين كان الجميع الولاة العثمانيين العاجزين عن تولي مثل هذه المهمة أنه سوف ينجح [80] في ذلك.

<u>دوافع اقتصادية عسكرية</u>: من الناحية المالية رأى محمد عليّ أن الحملة ضد الوهابيين فرصة للتخلص من الأزمة المالية التي يعانيها في مصر، فإذا قام بإعداد الحملة ربما يكون ذلك مبرراً لإطلاق يد الحكومة في فرض ما تشاء من الضرائب، ويمكن تبرير ذلك للشعب المصري بأنه للإنفاق على حرب مقدسة الهدف من ورائها تأمين الحج واسترداد الحرمين الشرفين[81]، ويظهر ذلك في قوله:" ... لرفع المذلة والمهانة عن زُوار الكعبة والقبلة الشريفة معقد آمال المسلمين ومتعبّدهم، وإنقاذ الأرض المقدسة... "[82].

حرص الباشا على توفير الأموال اللازمة للتسليح والتموين والتجهيز خاصة وأنه يعلم أن البلاد المكلف بها هي بلاد فقيرة ولا تجني شيئاً، بل تعيش على إعانات الدولة العثمانية،

---

[78]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه إلى نجيب أفندي، الأمر رقم 30، تاريخ: 27 شوال 1225هـ، ص 5.

[79]– ينظر جيلبير سينويه، المرجع السابق، ص 147.

[80] –محمد عبد العال محمد علي، المرجع السابق، ص ص 223.

[81]– بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط2، ذات السلاسل، الكويت، 1984، ص 132.

[82]– جيلبير سيويه، المرجع السابق، ص

والأوقاف الخيرية المخصصة لها، لذلك سعى للحصول على أكبر قدر من الإعانات من الباب العالي كما ذكرنا سابقاً[83].

كما كان للباشا رغبة في استرجاع التجارة المصرية المتوقفة منذ سنوات في البحر الأحمر، فقد حثه بعض التجار مثل المحروقي على الذهاب إلى الحجاز لكي يساعدهم ويساعد نفسه على استعادة التجارة المصرية، وأقرضوه الأموال لبدء الحملة، وبالسيطرة على الحجاز ، كان يمكن للمصريين أن يحولوا جزءاً كبيراً من أرباح التجارة إلى مصر بدلاً من اقتسامها مع كل العناصر التجارية الأخرى التي كانت تتاجر هناك، مثلما كانت عليه من القبل، كذلك تسببت هجمات السعوديين على اليمن واستيلاؤهم على الموانئ المهمة هناك في توجيه ضربة قاضية للعلاقات التجارية بينها وبين مصر[84].

ونتيجة لهذا وفر محمد علي باشا الكثير من المال، وجمع ثروة كبيرة، نتيجة سياسة مصادرة من الشعب ومن خلال إلغاء الجزية السنوية التي كان يرسلها إلى اسطنبول كل سنة، وحصوله على الدعم الكامل من البابا العالي في حروبه ضد الوهابيين.

أما عسكريا: فقد كانت الحملة ضد الوهابيين فرصة من ذهب للقضاء على الممالك في مصر ، وهم الذين كانوا يمثلون شوكة في حلق محمد علي باشا[85] باعتبارهم كانوا أصحاب السلطة قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، وكانوا ينافسونه على السلطة في البلاد، ولذلك كان محمد علي يبرر اعتذاره للسلطان عن إرسال الحملة إلى بلاد العرب؛ لأن إرسالها مع بقاء الممالك في مصر هو أمر يؤدي إلى إضعاف مركزه[86]؛ لذلك كان الباشا يبرر اعتذاره للسلطان عن إرسال الحملة إلى بلاد العربي بأن إرسالها مع بقاء الممالك في مصر هو أمر يؤدي إلى إضعافه، وأكد للسلطان أنه لم يكن في وسعه أن يجازف ببقاء

---

[83]– صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصر الحديث حتى أزمة 1990– 1991، (د.ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص 108.

[84] – محمد عبد العال محمد علي، المرجع السابق، ص ص 224– 225

[85]– Kelly. J. b, Eastern Arabian frontiers, Edité par Faber, London, 1964, p 119.

[86] – الخصوصي، المرجع السابق، ص 123. – كوكب عبد الله أحمد أبو ادريس، المرجع السابق، ص 32.

الممالك في مصر، بينما يقوم جيشه بالحرب خارج البلاد، فسيكون في مقدور الممالك في هذه الحالة اغتصاب السلطة، لذلك تخلص محمد علي من الممالك وأجهز عليهم في المذبحة القلعة الشهيرة سابقة الذكر.

كما أن محمد علي وجد في الحملة وسيلة لشغل جنده من الأرنؤوط الذين يثيرون الشغب من وقت لأخر إن هو تأخر في دفع رواتهم[87].

وفي الأخير نرى أن المؤرخون اختلفوا في دوافع محمد علي ضد الوهابيين كأي موضوع أخر يثر الجدل، غير أني أرى أنه لا يستحق كل ذلك الجدل، فقد كان باشا مثله مثل الولاة الأخرون يسيرون وفقاً لقواعد مرعية سارت عليها العلاقة بين الدولة العلية مع الايالات الخاضعة لها، وهو مجبر على تنفيذ أوامر السلطان في أي وقت.

ب- سير الحملة الأولى ووقائعها:

بعد أن حصل محمد علي من الباب العالي على تكليف بقمع الثورة الوهابية في الجزيرة العربية نظم محمد علي على حملة[88]، من خلال فرض رسوم في مصر، وتلقي الإعانات من الدولة العثمانية باعتبار الحملة مكلفة من حيث بناء السفن[89] ووسائل النقل[90]، فأنشأ سفينة ضخمة في الإسكندرية[91]، كما صادر بعض السفن من البحر الأحمر [92]حيث بلغ

---

87 – كوكب عبد الله أحمد أبو ادريس، المرجع السابق، ص 32.

88– كارلو جيليو، المرجع السابق، ص 169.

89– لان الباشا عزم على إنشاء أسطول بحري لنقل الجنود والاسلحة ومتطلبات الحملة بصفة عامة، وقد عمل على جلب المواد الازمة لبناء السفن وما كان ينقصه فجلب من أشجار مصر واستكمالها من الخارج خاصة من الأناضول، وبادر إلى إنشاء السفن في ترسانة بولاق. للمزيد ينظر: عبد الرحمان الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص 168– محمود السرجي، البحرية المصرية في العصر الحديث، ص 612.

90– كوكب عبد الله أحمد أبو ادريس، المرجع السابق، ص 34– الرافعي، المرجع السابق، ص 131.

91– دار الوثائق القومية، دفتر المعية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 28، تاريخ: 11 ربيع الأول 1225هـ/ 16 أفريل 1810م.

92– دار الوثائق القومية، دفتر المعية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 57، تاريخ: 11 محرم 1226هـ/ 28 جانفي 1811م

عدد السفن عند خروج الحملة 63 سفينة[93] التي استخدمها في الحملة وعهد بقيادتها لطسون باشا، أما في عدد الجنود فقد اختلف المؤرخين في تقدير أعداد المشاركة في حملة، فالبعض يذكر أنها كانت عبارة عن 14 ألف من الأتراك والمغاربة، ولم يشارك الجنود المصريين، وإن كانت تقديرات الباب العالي تؤكد أن الحملة تتألف من سبعة ألاف وخمسمائة من المشاة والفرسان بجانب فرسان القبائل الذين انضموا إلى الحملة[94].

وحتى تنجح الحملة أعطى محمد علي باشا لها صيفة دينية؛ لأنه كان يدرك أن قواته التي أرسلها إلى الحجاز تحارب قوات تعتبر قتالها جهاداً في سبيل الله ونشر مبادئ عقائدية، لذا فإنه زود حملته بمفتي المذاهب الأربعة وهم: **أحمد الطهطاوي الحنفي[95]، والشيخ محمد المهدي الشافعي[96]، والشيخ الخانكي المالكي، والشيخ المقديسي الحنبلي،** وهذا وفقا ما جاء في مكاتبة له للصدارة العظمى حين قال:" **بقيام أحمد باشا طوسون وبمعيته ثلاثة آلاف مقاتل إلى الأقطار الحجازية، مع حضرات مفاتي المذاهب الأربعة، لجب قلوب العشائر والقبائل**"[97].

---

[93]– دار الوثائق القومية، دفتر المعية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 70، تاريخ: 09 شعبان 1226–هـ/ 29 أوت 1811م

[94]– الرافعي، عصر محمد علي، المرجع السابق، ص 131.

[95]–أحمد الطهطاوي الحنفي: هو الشيخ العلامة السيد أحمد بن محمد بن إسماعيل، والده كان تركياً عثمانياً، جاء إلى مصر متقلداً قضاء مدينة طنطا، وتزوج سيدة شريفة، وبعد وفاة والده انتقل إلى القاهرة، وتعلم في الأزهر الشريف، وقد عين في منصب مفتي الحنفية، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته 11 جوان 1816م. ينظر: عبد الرحمان الجبرتي، المصدر السابق، ج4، ص ص 366–372.

[96]– محمد المهدي الشافعي: هو الإمام والعلامة الشيخ محمد المهدي الحنفي، كان والده من الأقباط، وأسلم وهو في سن صغير على يد الشيخ الحنفي، وفارق أهله، وطلب العلم في الأزهر الشريف، ثم درس فيه، وقد وقف بجانب محمد علي باشا ضد عمر مكرم، وتولى مشيخة الأزهر ثلاثة أيام. ينظر عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص ص 339–342.

[97]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه للصدارة العظمى، الأمر رقم 42، بتاريخ 9 شعبان 1226هـ، ص 8.

وكان يساعد طوسون في القيادة اثنان هما صالح قوج، ومحمد المحروقي وناظر الجيش، ولا يستطيع طوسون أن يبرم أمراً إلا بموافقتهما[98].

ويتضح من اختيار محمد علي باشا هؤلاء رجال الدين حتى يعطي للحملة أمام جنوده الصبغة الدينية، ولا تكون هناك معارضة في صفوف جيشه وحتى يتحاشى أي تمرد لأن المسلم لا يحارب ضد أخه المسلم خاصة إذا كان الطرف الأخر يحارب من أجل نشر تعاليم الدين الصحيح، ويظهر لنا هنا أن الباشا كان ذكي جدا في تكتيكاته.

فكانت الحملة التي جهزها الباشا والموجهة إلى الحجاز سوف تسلك طريقين، الأول طريق البحر ، حيث تبحر السفن من السويس بالعساكر المشاة إلى ينبع، لأن الباشا كان على علم بمدى الصعوبة التي كانت ستواجه المشاة إذا قطعوا تلك المسافات الطويلة في الصحراء سيراً على الأقدام، فتصل منهكة إلى الحجاز، الأمر الذي سيؤثر على قدراتها القتالية، أما الأخرى فطريق البرّ، حيث يتحرك الفرسان برّاً مروراً بسيناء، ثم العقبة، ثم إلى الينبع حيث يلتقون بالمشاة، وهناك يزحف الجيش إلى وجهته[99]، الذي احتل ينبع، وميناء المدينة في سبتمبر 1811م[100] كما جاء الذكر عن ذلك في مخطوط التركي حجاز سيا حتنامه سي:" فأرسل محمد علي باشا ابنه طوسون عن طريق البر وكاتب الديون المصري طاهر أفندي إلى الينبع"[101]، ولكنه تعرض لهزيمة منكرة في ممرات بدر الضيقة في كمين وهروب بعض القادة[102]، ويرجع السبب كما جاء في المخطوط سابق الذكر:"... كما تقدم طوسون باشا إلى جديدة بخليج العقبة ودمر ما صدف من الوحدات الوهابية، ولكنه يفكر في تطيب القلوب القبائل وجلبهم إلى جانبه ضد الوهابيين أو على الأقل استعمالهم في اخذ المعلومات عن أحوال الجيش الوهابي وحركاتهم وذلك بسبب حداثة عهده وعدم تجربته،

---

[98]– محمود نافعي، "محمد علي في تقدير المؤرخين الأتراك"، مجلة الأهرام، العدد نوفمبر، 1949، القاهرة، ص ص 4-5.

[99]– محمد عبد العال محمد علي، المرجع السابق، ص 226.

[100]– Naval Intelligence Division, Westernv Arabia And Read Sea, Oxford, 1946, P 267.

[101]– عبد الفتاح حسن أبو علية، مخطوط التركي حجاز سيا حتنامه سي، دار المريخ، الرياض، 1983، ص 56

[102]–Naval Intelligence Division,op cit ., p 276.

وتقدم إلى جديدة بدون خطة منظمة، فإذا هو يواجه بهجوم عبد الله بن سعود الذي كان يترقب حركاته، فانهزم وأصابه خذلان فخلص نفسه بعدة أفراد، بخمس أو عشرة أشخاص لاجئاً إلى الينبع..."[103]، بالإضافة إلى سبب أخر ألا وهو انتشار الأمراض في وسط الجيش المصري[104]، وقد تصرف محمد علي أنذاك بمنتهى القوة[105]، فاستدعى إلى القاهرة مختلف القادة حتى يستعد لحملة ثانية ، وأرسل مبالغ كبية لابنة من أجل توزيعها على شيوخ القبائل لكسبهم إلى جانبه ضد خصومه السعوديين، ونجحت الخطة في استمالة قبيلة حرب، وهكذا استطاعت الحملة الثانية من النزول في الينبع بعد قرابة السنة من تمزيق الحملة الأولى وذلك من خلال مكاتبة ارسلها محمد علي إلى الصدر الأعظمى حين قال:" وأخيراً حصل الاستيلاء على مدينة ينبع، واقامة الخطب باسم الحضرة الشاهينية"[106]، وفي مكاتبة أخرى منه إلى قبو كتخدا بالأستانة يذكر بها حصول واقعة ما بين الجيش الحجاز والوهابي بقلعة ينبع البحر، وبعد حصول تلفيات من الطرفين، صار الاستيلاء عليها، وإن استئصال قوة العصاة وكسرهم متوقف على ضبط وإعدام رؤساء العربان، وهما ابن جبارا وسعود بن مضيان[107]، وكانت حينها الحملة تتألف من خمسة آلاف جندي ثم زحفت مع فلول الحملة القديمة نحو المدينة المنورة، والتي دخلتها القوات المصرية في نوفمبر عام 1812م بعد مقاومة بسيطة أبدتها الحامية السعودية. وفي ذلك الوقت أخذ الشريف غالب بن مساعد (1787م – 1813م) أمير مكة يراسل أحمد طوسون باشا ويحسن له التقدم إلى مكة ويخبره بضعف قوة الوهابيين المرابطة فيها، وهو ما أثار القلق لدى عبد الله بن سعود وأجبره على

---

[103]– عبد الفتاح حسن أبو علية، المصدر السابق، ص ص 56– 57.

[104]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ص 509– 510.

[105]– Naval Intelligence Division, op cit, p 276.

[106]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 42، تاريخ 5 ذو القعدة 1226هـ، ص 9.

[107]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه إلى قبو كتخدان بالأستانة، الأمر رقم 43، تاريخ غرة رمضان 1226هـ، ص 9.

سحب قواته من مكة والطلب من قائده عثمان المضيافي[108] أن يسرع للدفاع عن الطائف والتي دخلها بالفعل؛ إلا أن الأحداث اللاحقة المتمثلة بسقوط مكة بأيدي المصريين في جانفي 1813م قد أجبرت المضيافي على الانسحاب من الطائف التي دخلها القائد المصري واللحاق بالقوات السعودية المتمركزة في الدرعية، وقد اشار إلى ذلك المؤرخ النجدي الذكير بالقول:" ولما ورد سعود إلى نجد تقدم الجيش المصري من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وذلك بطلب من الشريف غالب، فلما بلغ عبد الله بن سعود خبر الشريف واستدعائه العساكر المصرية وخيانته لم يأمن على الجند الذي في مكة فسحبه منها ورحل عبد الله من موضعه ونزل البيلا ثم أمر عثمان أن يتجهز إلى الطائف وضبطها، فسار إليها وقد دخل الطائف، ولما رحل عنها وبعض خيله، ثم دخل الجيش المصري مكة بدون أن يلقى أية مقاومة، ثم أرسلوا قوة الطائف وضبطوها.."[109].

ولأجل ضمان نجاح الحملة المصرية في تحقيق أهدافها المتمثلة في السيطرة عل الجزيرة العربية وانهاء النفوذ السعودي فيها، فقد توجه محمد علي باشا بناءاً على أوامر مشددة من الباب العالي على رأس جيش كبير قدر عدد أفراده بعشرين ألف جندي لتولى بنفسه الاشراف على العمليات العسكرية حتى وصل جدة في 31 أوت عام 1813م، وكان في استقباله ولده أحمد طوسون باشا والشريف غالب بن مساعد، بعده توجه إلى المدينة

---

[108]– هو الأمير عثمان بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جمهور المضايفي العدواني ينتمي إلى فخذ الجماهره من قبيلة عدوان، أما والدته من العصمة من عتيبة، حيث كان أمير قبيلة عدوان في الحجاز، وأحد أهم قادة الدولة السعودية الأولى الذين برزوا في القرن الثالث عشر الهجري في غرب شبه الجزيرة العربية. كان عثمان وزيرا لأمير مكة الشريف غالب بن مساعد الحسني العلوي(وسمي بالمضايفي لأنه كان وزير الشؤون الخاصة لغالب).وتزوج أخته فكان صفيه وحاميه وأثيره قبل أن ينقلب عليه. انتدبه الشريف غالب لقتال الدولة السعودية الأولى التي أخذت تتوسع في الحجاز. **وللمزيد أكثر عنه ينظر:** إبراهيم بن محمد الزيد، عثمان بن عبد الرحمن المضايفي أمير الطائف والحجاز في الدولة السعودية الأولى، ط1، مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، 1994، ص ص 15– 29.

[109]– بن عبد العزيز الذكير، العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز، مخطوط في دائرة المخطوطات بغداد، رقم 40354، الورقة 74.

نقلا عن المحمدي صبري فالح، البحرين في مخططات محمد علي باشا 1819– 1840، مجلة العرب والمستقبل، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي بجامعة المستنصرية، العراق، ع 11، افريل، 2005، ص 55.

المنورة، وزار قبر النبي محمد صل الله عليه وسلم، ثم دخل مكة[110] إلا أنه لم يمكث هناك لكي يتابع النصر الذي أحرزه في المرحلة الأولى من الحملة، فبعد نجاحه في توثيق صلاته مع بعض القبائل المنطقة واتخاذه لإجراءات من شأنها تقوية قبضته هناك، عاد إلى القاهرة في 23 جوان عام 1815م لوُرود أخبار عن اضطراب أحوالها وتمرد المماليك فيها[111]، وبسبب تطور الأحداث في أوروبا واندلاع الحرب مرة أخرى بين الإمبراطور نابليون الأول والدول الأوروبية بزعامة إنجلترا، فخشي محمد علي أن تتطور هذه الأحداث فتتعرض مصر لحمة أوروبية جديدة على غرار الحملة الفرنسية[112] تاركاً لولده أحمد طوسون باشا قيادة العمليات الحربية والذي لم يلبث حتى اتفق مع السعوديين على عقد هدنة في ذات الشهر[113]، كما جاء في ذكر صاحب كتاب لمع الشهاب:" ... ثم أن محمد علي باشا بعد الحج وترتيب بعض الأمور التي أراد ضبطها مع القبائل خرج من أرض الحجاز يريد مصر بعجلة، حيث أنه سمع بخروج الممالك في مصر وتقلبهم عليها، وأن مصر مضطربة سار من ساعته ع ثمانية آلاف عسكري، ولما وصل مصر دبر أمراً هلك به كثيراً من المخالفين..."[114].

استغل الوهابيون تلك الأوضاع المضطربة في مصر وانشغال محمد علي فرحوا يحشدون قواتهم من أجل استرجاع المدن التي بسط الجيش المصري نفوذه عليها، في حين أدرك محمد علي عدم قدرت ابنه أحمد طوسون باشا على الحاق الهزيمة بعدوه، فطلب منه العودة إلى مصر، ولكن لما أرسل الأمير عبد الله وفداً إلى القاهرة يعرض الصلح على محمد علي باشا أظهر هذا الأخير تشدداً إزاء الشروط السابقة التي لم تلق قبولاً من وفد

---

[110]–A. Abir, The Arabe Rebcllion Of Amir Chalib Mecca (1788– 1813), Middle Eastern Studies, Vol 2, 1916, P 189.

[111]– المحمدي صبري فالح، المرجع السابق، ص 57.

[112]– John Lewis Burckhardt, Notes on the Bedouins and Wahabys, London, H. Colburn and R. Bentley, 1831, vol 2, p 42.

[113]– المحمدي صبري فالح، المرجع السابق، ص 57.

[114]– مؤلف مجهول، كتاب لمع الشهاب في سيرة بن عبد الوهاب، حق: أحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص 118.

المفاوضات السعودية، وهو الأمر الذي كان يتوقعه محمد علي ولا سيما الشرط الخاص بسفر الأمير عبد الله إلى الآستانة، فأرسل محمد علي يهدده بالحرب، وبذلك فشلت مفاوضات الصلح وتأهب الجانبان للقتال.

لم يلبث طوسون أن مات في 29 سبتمبر عام 1816م[115]، فشرع محمد علي بتجهيز حملة جديدة عام 1815م عهد بقيادتها إلى نجله ابراهيم باشا لفتح درعية برفقة أربعة آلاف من المشاة من الجنود الجيش المصري النظامي وألف ومائتين من الخيالة مع المدافع عند اللزوم، فاستأنفت الحرب في مرحلتها الثانية، فوصلت الحملة إلى قوزير[116] بساحل مصر مقابل الينبع من الشاطئ الأخر ليعبروا البحر الأحمر من هناك متوجهين إلى منطقة الحجاز سنة 1815م[117].

وصل ابراهيم باشا وقواته إلى المدينة المنورة وامضى هناك عدة أسابيع استعداد للمعركة القادمة منتهجاً سياسة من أنها استمالة بعض رؤساء القبائل إلى جانبه حينا، وفي الكثير من الأحيان لجأ إلى استخدام القوة لغرض اخضاع عدد من القبائل الساكنة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة الأمر الذي مكنه من الدخول في أكثر من مناوشة عسكرية مع القوات السعودية وخاصة في موقعة الخابور[118] قرب القصيم[119] مُلحقاً بها هزيمة ونجاحه بالتالي في دخول مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، وتدميرها بعد استسلام عبد الله بن سعود في 9 سبتمبر 1818م[120]. الأمر الذي مهد السبل في تسريع تنفيذ الخطط المصرية باتجاه مشيخات الخليج العربي[121].

---

[115]– طارق عبد العاطي، المرجع السابق، ص ص 84– 85.

[116]– وهو ميناء مصري على البحر الأحمر.

[117]– عبد الفتاح حسن أبو علية، المصدر السابق، ص 57.

[118]– أحد نواحي نجد وتقع شمال الرياض.

[119]– **القصيم** هي منطقة تقع في وسط المملكة العربية السعودية ضمن هضبة الرياض وحائل.

[120]– أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية بمصر، مصر،1900، ص 237.

[121]– المحمدي صبري فالح، المرجع السابق، ص 56.

لقد كان سقوط الدرعية بعد انتصار الحملة المصرية دليل على سقوط الدولة السعودية الأولى لحساب الدولة العثمانية، فأدى ذلك إلى توقف توسعات محمد علي بعد أن حققت الأهداف المرسومة للحملة، وصدرت الأوامر إلى ابراهيم باشا بالانسحاب من شرقي الجزيرة العربية والعودة إلى مصر بعد أن تم تعين ابن أخته أحمد يكن باشا محافظاً على مكة وحاكماً على الحجاز، ويعد محمد علي هو المرجع الذي يعود إليه الأخرون في شؤونهم.

لكن السؤال المطروح لماذا انسحبت الجيوش المصرية من منطقة شرق الجزيرة العربية بالرغمة أنها كانت منتصرة؟

لقد كان محمد علي مشغولاً في تلك الفترة بأمور هي أكثر أهمية، والمتمثلة في إرساء أسس الدولة المصرية الحديثة والقضاء على المتمردين من الممالك ورجال الأرناؤوط وتدعيم ركائز حكمه قبل الانطلاق نحو خارج البلاد، أما الدولة العثمانية فكانت ترى أن والي مصر قد أدى مهمته على أكمل وجه، وأن الأماكن المقدسة قد صارت تحت السيطرة العثمانية، فلا ينبغي لمحمد علي أن يتجاوز هذا الاطار، ويتخطى هذا الحد، في حين عين السلطان العثماني ابراهيم باشا على جدة في جويلية عام 1819م مكافأة له على الخدمات التي أدها للدولة العثمانية. بالإضافة إلى الجانب العسكري وهي عدم قدرة محمد علي على توفير الجنود اللازمين لحماية نفوذه في منطقة شبه الجزيرة العربية لشاسعتها، فقد استطاع بشق الأنفس إعداد الحملة ضد الوهابيين لاسترداد الأماكن المقدسة بأمر من الباب العالي، بالإضافة إلى طبيعة الوجود البريطاني في المنطقة، كما أن بعض القوى المحلية كانت رافضة كل الرفض عن الوجود المصري في شرق الجزيرة العربية، ولذلك فإن محمد علي لم تكن نضجت في ذهنه فكرة توسيع دولته الحديثة بعد على حساب الدولة العثمانية.

2- حملة محمد علي باشا على الشام:

تعد بلاد الشام من المناطق الحيوية والمهمة جغرافيا واقتصاديا في العالم مما دفع الوالي العثماني لمصر محمد علي باشا إلى الاهتمام بتلك البقعة والتخطيط لجعلها تحت سيطرته المباشرة، فقد ظهر اهتمامه بها في فترة مبكرة، فقد طلب من الباب العالي أن تحال إليه

ولاية الشام قبل أن تتحرك جيوشه إلى بلاد العرب لكي يسوق حملتين إحداهما تخرج من مصر والأخرى تخرج من الشام[122]، وبذلك يضمن نجاح مهمته الشاقة التي كلفه بها السلطان[123] كما ذكرنا سابقا عندما تعرضنا إلى حملة الباشا ضد الحركة الوهابية، غير أن نشاط أعدائه في الآستانة جعله يغض الطرف مؤقتاً عن تمسكه بولاية الشام، ويكتفي بإرضاء السلطان عن طريق القضاء على الحركة الوهابية، ورغم ذلك لم تغب عنه فكرة بلاد الشام إذ اتيحت له الفرصة للتدخل في شؤونها، ففي عام 1810م استفادة من العداوة التي نشبت بين سليمان والي صيدا ويوسف كنج والي دمشق، وإلى تلك العداوة أشار ابن بشر في قوله:" ... حين قفل سعود من الشام جاء العزل ليوسف باشا الشام وسار إليه سليمان صاحب عكا فأجلاه واحتوى على جميع أمواله وتولى في إمارة الشام"[124]، حيث تفاهم سليمان باشا مع بشير الشهابي[125] على الاستيلاء على دمشق منتهزين فرصة خروج يوسف باشا كنج في حملة لضرب الوهابيين، فقرر محمد علي أن يساند هذا الأخير بعد فراره إلى مصر لاجئاً، وكانت لتلك الحادثة أثرها القوي على محمد علي الذي كان يثق في معونة يوسف كنج باشا للقوات التي كان يزعم إرسالها إلى الحجاز، اضافة إلى عدائه لسليمان باشا لأنه من الممالك ويحمي الممالك الفارين من المذبحة، وخشي من أن يكون أداة لضرب قواته في الحجاز من الخلف[126]، فكتب خطابات متعددة إلى الباب العالي ونجيب أفندي فبو كتخداه الآستانة موضحا ضرورة عودة يوسف باشا كنج لمنصبه للقيام بيد واحدة لتطهير

---

[122] – دار الوثائق القومية ، دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 7، ، تاريخ: 11 محرم 1223هـ/ 9 مارس 1808، ص 9، المصدر السابق.

[123] – عبد الحميد بطريق وآخرون، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا 1848– 1948، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ص ص 6–7.

[124]– عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، حق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، (د.ط)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1983، ج 1، ص310.

[125][125]– الامير بشير بن قاسم الشهابي (1760م– 1850م) ينتمي بالأسرة الشاهبية وهي أسرة اسلامية سنية تنتمي إلى قبيلة قريش قدموا مع الجيوش الاسلامية واستقروا في حوران، ولكنهم نتيجة لتقربهم من نصارى خاصة الموارنة دنوا بالمسيحية الواحد تلو الأخر ، وحكموا لبنان عام 1697م. للاطلاع أكثر ينظر، عمر عبد العزيز عمر، "العلاقات المصرية العثمانية 1820– 1840"، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد 26، 1972، ص 107.

[126]– علي عفيف علي غازي، المرجع السابق، ص 163.

الأقطار الحجازية، وأنه حصل له مزيد الممنونية من تقديم معروضاته للأعتاب الشاهانية، وصدور الأوامر السلطانية بقبول التماسه وصدور أمر عالي بتقديم التماسه بواسطة المشار إليه في مهام أموره بدون توسط الوكلاء، كما يخفى عليه من حضور الضغائن بينه وبينهم[127] وعزل سليمان باشا كونه يستعمل جملة حركات ضده بقصد تأخير مأمورية الحجاز، غير أن الآستانة ردت عليه مؤكدة أن السلطان غاضب منه ولا يقبل شفاعة[128] ولم يكن ذلك الغضب السلطاني إلا نتيجة لاعتقاد السلطان أنه تخلى عن الحرب في شبه الجزيرة العربية، وفي نهاية نجح في الحصول على العفو لصديقه من قبل الباب العالي[129]

لم يتوقف محمد علي باشا عن التفكير في بلاد الشام ولا للحظة، ففي سنة 1813م حين كانت قواته تحارب الوهابيين في شبه الجزيرة العربية أكد للباب العالي أنه لن يستطيع أن يعوض خسائر جيشه في الحجاز إلا إذا منح إيالة الشام بالإضافة إلى مصر حتى يتمكن من القيام بواجبه في الأراضي المقدسة، مؤكداً على أن هدفه من ذلك ليس اتباع حظوظ النفس وأنه لو توجه منصب الشام لعبدكم من غير طلب في هذه السنين لكان من مقتضى الحال أن اعتذر عنه وأن أرجو المعاملة بعفوي من ذلك المنصب[130]، ويضف في مراسلة أخرى حين قال:" كيف يقال أن هذا الطلب هو جملة مقاصدي السيئة ضد الدولة وأنا غارق

---

[127]– دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، أمر رقم 39، تاريخ غرة ربيع الأول 1226هـ /–أفريل 1810م، ص 10. ، أمر رقم 46، تاريخ 27 ذي الحجة، ص 10.

الأمر رقم 37، مكاتبة من محمد علي باشا إلى الصدارة العظمى تاريخ 29 صفر 1226هـ، ص 8. الأمر 38، مكاتبة منه إلى نجيب قبو كتخدا بالأستانة بتاريخ غرة ربيع أول 1226هـ. ص 8.

ينظر أيضا رسالة من محمد علي باشا إلى بابا العالي ، دار الوثائق القومية دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر 1، وثيقة 48، 5 شوال 1225هـ/ 3 نوفمبر 1810م.

[128] – دار الوثائق القومية، محافظ ديوان بحر برا، محفظة 2، وثيقة 2، من محمد عارف إلى الجناب العالي، 3محرم 1226هـ / 28جانفي 1811م

[129] – دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، أمر رقم 38، تاريخ 29 صفر 1226هـ/25مارس 1811م، ص 19.

[130] – دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة 95، صورة الورقة محررة إلى طرف سلحدار حضرة السلطان، تاريخ 15 شوال 1288هـ/ 10 أكتوبر 1813م.

في بحار نعمائها"[131]، ويفسر قوله في عريضة أخرى لما قال:" بل ان القصد الوحيد هو تجهيز قوة منها وتوجيهها ضد قوات سعود المذكورة لقرب المسافة ووجود المرعى والمياه في الطريق بسهولة"[132]. فقد كان محمد علي باشا ذكيا من خلال تبريراته ومحاولة اظهار صدقه والاستقامة من اجل اقناع الدولة العثمانية بضم الشام لكنه كل محاولاته باءت بالفشل نظر لتفطن السلطان لنواياه الحقيقة. غير أن محمد علي لم ييأس فسارع يكتب إلى نجيب أفندي في استنبول طالباً منه أن يحاول مرة أخرى إقناع كبار الموظفين في العاصمة بمنحه إيالة دمشق[133] لأهميتها في نجاحه في إخضاع الوهابيين في الحجاز

فبعد تلكّؤ السلطان وتردده في قبول طلبه، بدأ بمقاطعة السلطان، وظهر ذلك بوضوح عند عزوفه عن المشاركة في حروب السلطان مع روسيا 1828م، وتفرغه لتقوية جيشه وأسطوله[134]، وبعد يأسه من قبول الباب العالي لمطلبه هذا باشر بالتقدم نحو بلاد الشام للسيطرة عليها بالقوة[135]، منتهزاً فرصة ضعف[136] جيش السلطان العثماني، نتيجة صراعه مع الانكشارية عام 1826م، وحروب السلطان مع روسيا بين عامي 1827م و1829م [137]، فهاجمت قواته بقيادة ابنه ابراهيم باشا عكا بحجة معاقبة واليها عبدالله باشا عام

---

[131] – دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 61، تاريخ 5 شوال 1228هـ/30 سبتمبر 1813م، ص 24.

ينظر ايضا الأمر: 47، مكاتبة منه إلى خضرة أغا دار السعادة بتاريخ غرة محرم 1227هـ، ص 10.

[132] – دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 60، تاريخ 27 شعبان 1228هـ/24 أوت 1813م، ص 23.

[133]– دار الوثائق القومية، محافظ ديوان بحر برا، محفظة 4، وثيقة 137، من الجناب العالي إلى نجيب أفندي، تاريخ 15 صفر 1230هأ/ 26 جانفي 1815م.

[134]– مانتران، روبير، المصدر السابق، ج2، ص ص 44– 45.

[135]– أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز 1840– 1841، المرجع السابق، ص 50.

[136]– كان محمد علي باشا مدركاً تماماً أن الدولة العثمانية بعد حروب اليونان وحروب البلقان تمر بأزمة عسكرية في الجيش الجديد الذي لم يتم بعد التدريب والتسليح في الوقت الذي أصبح جيشه هو يتفوق على جيش الدولة عدداً وعدة واستمر في ذلك دون الاقتراض من الخارج وعندئذ عول على تحقيق أهدافه عن طريق الحرب بعد أن اتسعت هوة الخلاف بينه وبين السلطان العثماني محمود الثاني.

[137]– محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية،(د. ط)، دار الثقافة، القاهرة، 1976 ، ص 1.

1831م لخلافات إدارية، وبعضها شخصية بينهما[138] ثم تجاوز ابراهيم باشا عكا، بعد أن ترك بعض القوات لمحاصرتها، إلى يافا وغزة وبيت المقدس، وأكمل السيطرة عليها جميعاً في 27 ماي 1832م[139] ثم بدأ بالسيطرة على سواحل بلاد الشام، بعد أن انضم إليه بشير الثاني الشهابي[140] و رؤساء جبل نابلس، فسيطر على دمشق في 25 جوان 1832م ، ولم تفلح قوات السلطان بإيقافه في حمص، فأكمل ابراهيم باشا طريقه إلى حلب ودخلها يوم 26 جويلية 1832م، ثم انتصر على جيش السلطان في ممر بيلان[141] في 29 جويلية 1832م، فأصبح الطريق مفتوحاً أمامه نحو آسيا الصغرى [142].

كان الباب العالي قد اضطرب عند سماعه زحف الجيش المصري نحو الشام[143]، وطلب من محمد علي باشا التوقف عن هذه الحرب وتقديم طلباته للسلطان ليحكم فيما بينه وبين والي عكا بالطرق السلمية ولكنه لم يستجب لذلك إلا بعد أن احتل القسم الجنوبي وطالب إقطاعه ولايتي عكا ودمشق[144] عندها غضب السلطان وأصدر فرماناً بعصيان محمد علي باشا وابنه بناءاً على فتوى من شيخ الإسلام وجرد محمد علي باشا وابنه من جميع الرتب والمناصب الديوانى ثم أصدر السلطان أمراً إلى والي حلب عثمان باشا بتجهيز

---

[138]– نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام، مصدر سابق، ص 277.– أسد رستم، المرجع السابق، ص ص 56– 57.

[139]– دار الوثائق التاريخية بدمشق، أوامر السلطانية، مجلد 4، الوثيقة رقم 174، تاريخ 21 ذو القعدة 1247هـ

[140]– بشير الثاني الشهابي(1767م– 1850م) ابن قاسم ابن عمر حيدر الشهابي ولد في غزير، تولى الحكم لبنان على يد الجزار عام 1789م . **ينظر**: جحا شفيق عثمان بهيج البعلبكي منير، المصور في تاريخ لبنان، (د.ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 1950، ج7، ص ص 127– 139.

[141]– ممر بيلان : من أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول.

[142]– محمد كمال الدسوقي، مرجع سابق، ص ص 165– 166.

[143] – كانت الحملة المصرية على سورية مؤلفة في بدايتها من6 آليات من المشاة وأربعة من الفرسان وعدتهم3000 مقاتل بقيادة ابراهيم باشا مجهزة بأربعين مدفع من مدافع الميدان وعدة من مدافع الحصار أما البحرية فكانت مؤلفة من16 سفينة حربية و17 سفينة نقل .وجعل على قيادة الجيش البري إبراهيم باشا يكن ابراهيم باشا الصغير وهو أبن أخت محمد علي باشا تفريقاً له عند إبراهيم باشا ابن محمد علي الرافعي ، المرجع السابق، ص 223.

[144]–هدى بلال، الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه 1830– 1841، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مجلد 10، ع 4، جامعة الموصل ، العراق، ص 346.

الجيوش وإيقاف ابراهيم باشا عند حده قبل سقوط عكا فإنبرى له الأمير خليل بن الأمير بشير الشهابي وباغته قبل أن يصل الى عكا المحاصرة ورده على أعقابه[145]. غير أنه انهزم ولم يستطيع وقف زحف ابراهيم باشا وذلك راجع للأوضاع والظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية الداخلية والخارجية.

حيث وصف القنصل البريطاني باركر مشروع إبراهيم باشا في تقرير له بتاريخ 8 جانفي 1831م :" إن غرضه المباشر هو توطيد سلطته في ولايات عكا ودمشق، مدها فيما بعد إلى حلب وبغداد، عبر كل الولايات التي تتكلم العربية وهي القسم العربي من السلطنة... وقيل له وفقاً لحساباته: أن ثلاث سنوات تكفيه لتوطيد فتوحاته"[146].

هذا بالإضافة إلى أن السلطان العثماني حض العلماء علي إدانة محمد علي واتهامه بأنه خرج على السلطان وخليفة المسلمين، وأصدر علماء عكا فتوى شرعية تقضي بأن من يموت من المدافعين عن عكا يدخل الجنة ومن يموت من قوات محمد علي يدخل النار[147]، وفى الوقت نفسه أعلن الباب العالي في مرسوم سلطاني خيانة محمد علي للدولة العثمانية، مما دفع بالعلماء في المساجد السّلطانية إلى إعلان أن محمد علي وابنه خائنان وعاصيان، ومن ثم يصبح من مصادر الشرف لكل مسلم في أنحاء العالم الإسلامي أن يحاربهما بالسلاح[148].

اضطرت الدولة العثمانية[149] وخاصة بعد هزيمة قواتها ولمرات متتالية في بلاد الشام، وخشي السلطان العثماني من تقدم إبراهيم باشا وقواته في اتجاه عاصمة دولته استانبول إلى

---

[145]– المرجع نفسه، ص 346.

[146] – محمد كمال الدسوقي، مرجع سابق، ص ص 165– 166.

[147] – دار الوثائق المصرية، وثائق الشام، محافظ عابدين ، محفظة رقم 235 ، وثيقة رقم 140 ، بتاريخ 1 ربيع الأول 1248 هـ/ 29 جويلية 1832 م.

[148] – لورانس، المملكة المستحيلة، فرنسا وتكوين العالم العربى الحديث، تر: بشير السباعي، ط1 ،دار سينا للنشر، القاهرة، 1997 م ، ص 134–135.

[149] – بالرغم من قناعته بأن لهذه القوى أطماع في دولته ، ولكن كان دافعه من وراء طلب هذه المساعدة من تلك الدول هو البحث عن من ينقذه من الوقوع في هزيمة مرة في عمق أراضيه علي يد واحداً من ولاته وهو محمد علي

طلب المساعدة من الدول الأوروبية الكبرى[150]، غير أن هذه الأخيرة أبدت عدم اهتمامها بما يعانيه؛ لأنها كانت مشغولة ببعض أوضاعها الداخلية لاسيما بعد ثورات أوروبا عام 1830م[151]، فمثلاً رأت بريطانيا[152] بعد تردد، ومع تعرض مصالحها للخطر بعد التدخل الروسي في الأزمة، أن تبتعد عن المشاكل في الأناضول وبلاد الشام؛ لأنها مناطق حساسة جداً وستجلب لها المشاكل مع كل من فرنسا وروسيا، إلى جانب انشغالها بالثّورة الإيرلندية، والثّورة البلجيكية المطالبة بالانفصال عن هولندا[153]، أما فرنسا فكانت تجمعها علاقات مودة مع محمد علي باشا، وكانت تقدم الخبرات الفرنسية لمصر في العديد من المجالات، كما أنه من المفترض تشجعيها التقدم المصري في الأناضول فهي تعده امتدادا لمشاريع نابليون بونابرت، ومع ذلك فقد عرضت وساطتها لتسوية الخلافات من منطلق علاقتها الطيبة بمحمد علي وحرصها على صداقته ومصالحها في البلاد التي يحكمها، أما النمسا وبروسيا فآثرتا التريث وانتظار ما ستسفر عنه الوساطة الفرنسية[154]. وفي الحقيقة فتح السلطان العثماني محمود الثاني بهذه الخطوة الباب على مصراعيه أمام الدول الأوروبية للتدخل في مسألة الصراع بينه وبين محمد علي، ومن ثم العبث بشؤونها الداخلية والخارجية.

أخذ السلطان العثماني يتجه بأنظاره في البداية نحو بريطانيا، باعتبارها قوة ضاربة في العالم آنذاك، لكن وزير خارجيتها في المراحل الأولى لهذا الصراع بالميرستون

---

[150] – فريد بك، البهجة التوفيقية، ص 144.

[151] – محمد كمال الدسوقي، مرجع سابق، ص ص 166– 167.

[152] – كان محمد علي و ابنه إبراهيم باشا حريصين على كسب تعاطف الحكومة البريطانية خلال الحملة على بلاد الشام لإزالة كافة مخاوفها اتجاه تفكك الدولة العثمانية ، ففي رسالة مؤرخة في 4 جوان عام 1832م أرسلها محمد علي باشا إلى صاموئيل بريغز وكيله التجاري في بريطانيا يطمئنه فيها أنه لا يريد من حربه ضد السلطان العثماني إلا الحصول على ولايات بلاد الشام وأنه لا يفكر بأي عمل يزيد عن هدفه هذا، و يطلب محمد علي إلى بريغز ضرورة إبلاغ الحكومة البريطانية موقفه هذا. ينظر إلى: أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية:بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، ج2، American Press ، بيروت :1941 ، ص: 7، الوثيقة :1084، عابدين دفتر3، رقم، 519 ، محرم 1248 هـ.

[153] – أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز 1840– 1841، المرجع السابق، ص ص 29– 30.

[154] – جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989، ص ص 29– 30.

palmerston كان في غاية الحذر ورفض أن يرتبط بأية تعهدات مع الدولة العثمانية، مكتفياً بتعاطفه معها؛ لذلك أرسلت بريطانيا الكولونيل كامبل الذي وصل الإسكندرية في 26 مارس 1833م، وكان اهتمامه في الأساس ينصب على إقناع محمد علي باشا بضرورة الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية وأن بريطانيا العظمى تتمسك بهذه السياسة[155] وعلى الجانب الآخر أرسل السلطان العثماني نامق باشا[156] إلى لندن للاتفاق معها في مسألة تكوين حلف لمواجهة محمد علي ، لكن بريطانيا رفضت فكرة الحلف، نظراً لما كانت تعانيه في ذلك الوقت من مشكلات داخلية، وعاد مبعوث السلطان إلى استانبول دون أن تحقق مهمته الهدف المرجو منها[157]، وهكذا كان رفضت الحكومة البريطانية في هذه المرحلة إجمالاً فكرة تكوين حلف دفاعي مع الباب العالي، واكتفت بإظهار تعاطفها معه، وإن ظل هذا التعاطف مغلفاً بكثر من الحذر.

أما روسيا فقد وجدت في الأزمة التي يعاني منها السلطان فرصة لتعزيز نفوذها في الدولة العثمانية فعرض سفيرها بوتنيف Boutenieff في الأستانة على الباب العالي في 21 ديسمبر عام 1832م تقديم الدعم العسكري ضد محمد علي[158]، و في 27 ديسمبر من نفس السنة استقبل السلطان محمود و تلقّى منه عرض القيصر الثاني مبعوث القيصر الروسي الخاص الجنرال" مورافييف Muraviev وضع الأسطول الروسي تحت تصرّفه لحماية الأستانة[159]، جاءت هذه العروض الروسية وسط تململ أصاب الإدارة العثمانية من اللامبالاة التي أبدتها الحكومة البريطانية تجاه طلبات المساعدة التي بعث السلطان إلى

---

[155] – أرشيف رئاسة الوزراء استانبول ، إرادات خارجية ، مجموعة رقم 78 ، وثيقة رقم 1237، 21 ، 1248هـ/ 1832 م. نقلا عن غالب عبد احمد العربيات وآخرون، بلاد الشام بين محمد علي باشا والدولة العثمانية "قراءة في إدارة الصراع" ، المرجع السابق ، ص 15.

[156] – **نامق باشا** هو أحد قادة الجيش العثماني، رقي إلى رتبة فريق، و كانت لديه دراية واسعة في الشؤون العسكرية.

[157]

[158] – عبد الرؤوف سنو، العلاقات الروسية العثمانية 1687م– 1878م – سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة – الحلقة الأولى، مجلة تاريخ العرب و العالم، 1984، العدد 73–74، بيروت، ص 55.

[159]– بيير كربتيس، إبراهيم باشا، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937، ص ص 181–182.

رجال الدولة البريطانيين، كما أن سياسة الصمت التي اتبعتها بريطانيا آنذاك وسط الأنباء بقرب اندلاع الحرب في الأناضول بين الجيش المصري و العثماني سببت القلق لمحمد علي باشا أيضاً فأرسل في أوائل ديسمبر عام 1832م إلى بريغز وكيله التجاري في بريطانيا يسأله عن موقف الحكومة البريطانية من زحف الجيش المصري باتجاه الأستانة[160]، و يبدي استعداده لإيقاف الزحف إذا ما تعارض ذلك مع المصالح البريطانية[161]، فعبر بالمرستون عن رأيه بالتطورات الأخيرة في رسالة أرسلها إلى سفيره في باريس في 29 جانفي عام 1833 جاء فيها: " يجب أن نطلب في الحال من محمد علي أن ينسحب إلى مصر...فامتلاك سوريا سيجر معه بالضرورة امتلاك بغداد، و تكفي نظرة واحدة إلى الخريطة لبيان ذلك... ولكن من المشكوك فيه للغاية أن يكون في مصلحة إنجلترا إضعاف السلطان إلى هذا الحد وأن تنشأ دولة جديدة في مصر وسوريا وبغداد، فمن الواضح أن استقطاع هذا القدر الكبير من أراضي وموارد السلطان سوف تجعله أعجز مما هو عليه بالفعل عن مقاومة روسيا، وسيصبح فعلياً تابعاً لها... و ليس هذا بالقطع ما نتمناه..."[162].

أسرعت روسيا وفقاً لمخاوف بالمرستون باستغلال حاجة السلطان للمساعدة فعمدت إلى لعب دور الوصاية على السلطان، فسافر الجنرال الروسي مورافييف إلى الإسكندرية في جانفي عام 1833م لإبلاغ محمد علي باشا قرار حكومته بالتحرك ضده إذا استمر زحف إبراهيم باشا باتجاه الاستانة، لكن ابراهيم باشا رد عليه بعدم قدرته على إيقاف زحفه إلا بأوامر مباشرة من والده محمد علي[163]، وكرد فعل روسيا على هذا أرسلت أسطولها إلى

---

[160] كانت العلاقة بين محمد علي وباركر قنصل بريطانيا العام في مصر تسودها حالة من الجفاء وسوء التفاهم، وتبدت هذه الحالة في عدم قيام باركر وفقاً للعرف الدبلوماسي بتهنئة الباشا بالنصر الذي حققه ابنه إبراهيم في مدينة عكا، وتدل المراسلات المستمرة بين محمد علي وبريغز وكيله التجاري في بريطانيا واعتماده عليه بدلاً من باركر في توضيح مواقفه وسياساته في بلاد الشام للحكومة البريطانية على حالة القطيعة بين الباشا والقنصل البريطاني في مصر.

[161] أسد رستم، مرجع السابق، ج2، ص ص191- 192.

[162]- محمد صبري، مرجع سابق، ص68

[163] - بيير كربتيس، المرجع السابق، ص ص 184- 185.

البوسفور وأنزلت ستة آلاف جندي على الشاطئ الآسيوي من هذا المضيق[164]، وأغلقت قنصليتها في الإسكندرية وأحالت أعمالها إلى قنصل توسكانا[165]، في وسط جو من عدم الرضا الفرنسي– الإنكليزي من هذا التدخل المنفرد، ولم يفلح احتجاجهما في إقناع السلطان برفض المساعدة الروسية[166]، حينها دخل محمد علي باشا في مباحثات الصلح –بعد ضغط فرنسا وبريطانيا عليه[167] ؛ ولأنه أدرك ايضا خطورة وجود الجيش الروسي في الأناضول، فتوصل الأطراف إلى عقد صلح وتسوية مؤقتة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا، وهو ما عُرف بصلح كوتاهية[168] في 14 ماي 1833م، تنازل بموجبه السلطان عن سائر بلاد الشام وأضنة[169] لمحمد علي باشا، واعترف بحكمه لمصر والجزيرة العربية وكريت[170].

تجدر الاشارة إلى أن السلطان العثماني قد رفض في بادئ الأمر إعطاء إقليم أدنه الى محمد علي باشا وأرسل له مكتوباً مع الصدر الأعظم وتعمد السلطان عدم ذكر أقليم ادنه وبطبيعة الحال فقد رفض محمد علي باشا هذا المكتوب الأخير وثبت فيه تراجع السلطان

---

[164] – صالح، محمد حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، دارسات تاريخية، جامعة دمشق، ع : 67– 68، جانفي – جوان، 1999، ص 219.

[165] – رستم، بشير بين السلطان والعزيز، المرجع السابق، ص 90.

[166]– Tibawi, A. L, A Modern History of Syria–Including Libanon and Palestine, Macmillan, London, 1969, p 69.

[167] –Marriott. J. A. R, The Eastern Question an Historical Study in European Diplomacy, Amen house, London, Fourth Edition, 1956., p. 235.

[168]– تختلف معاهدة كوتاهية عن باقي المعاهدات والاتفاقيات كونها كانت شفهية ولم يكن صلح كوتاهية في 14 ماي 1833م إلا هدنة مؤقتة في الصراع العثماني – المصري، لأنه لم يحسم نتيجة هذا الصراع، بل على العكس من ذلك، فهو مع أنه منح محمد علي باشا السيادة على مناطق عدة إلا أنه ترك الاحتمالات مفتوحة، ولاسيما أن السلطان العثماني محمود الثاني إلى استرجاع سلطته على بلاد الشام التي أخذها منه واليه محمد علي باشا بالقوة.

[169]– هي مدينة تركية كانت تُسمّى عند العرب "أدنة"، ثم غيّرَ الترك الاسم إلى "أطنة" بعد أن صدر أمر الباب العالي بهذا التعديل تجنباً للالتباس بمدينة أدرنة.

[169]– مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، حق: أسد رستم، ط2، منشو رات المكتبة البوليسية، بيروت، 1986، ص ص 30– 31

عن اتفاق كوتاهية واستمر إبراهيم باشا في زحفه واحتلال الأراضي العثمانية وأخيرا وافق السلطان على التنازل عن أقليم أدنه وأصدر فرماناً في 6 ماي 1833م أعلن فيه تثبيت محمد علي باشا على حكم مصر وكريت واسند اليه ولاية سورية و الحجاز وتخويله إدارة اقلم أدنه .وصارت حدود مصر الشمالية تنتهي عن مضيق كولك بجبال طوروس وانتهت بذلك الحرب السورية بتوسيع أرجاء الدول المصرية حتى مضيق[171] كولك[172].

استاء السلطان العثماني عندما رأى أن الدول الأوربية خذلته ولم تساعده ضد محمد علي باشا ولذلك رغب في الاتفاق مع الروس خصوصاً وأن روسيا أرسلت قواتها وأنزلت خمسة عشر ألف جندي على الضفة الأسيوية للبوسفور عندئذ توقفت قوات ابراهيم باشا عن التقدم. ومع أن القوات الروسية انسحبت بعد جلاء ابراهيم باشا عن الدول العثمانية بعد توقيع اتفاقية كوتاهيه فإن الدولة العثمانية وروسيا وقعتا معاهدة هنكا را سكلة سي في 8 جويلية 1833م بمساعدة سفير روسيا الكونت أورلوف التزمت بموجبها الدولتان أن تساعد كل منهما الأخرى اذا تعرضت لخطر خارجي أو داخلي[173].

ولقلقه من الوضع الغامض لصلح كوتاهية الهش أصلا ، ولرغبته في دعم انتصاراته، ومنح مكتسباته منها الشرعية الدولية[174]، وفي محاولة للاستفادة من التناقضات القائمة بين سياسات الدول الأوروبية العظمى[175]، تقدم محمد علي عام 1834م باقتراح جريء إلى كل من النمسا وبريطانيا وفرنسا، ذهب فيه إلى أن ضمان وأمن وسلامة الإمبراطورية العثمانية يكمن في فصل المناطق العربية عنها في دولة مستقلة تحت حكمه أولا، ثم بإعلان الحرب على روسيا ثانيا[176]، وبين عامي 1836م و 1837م تقدم بالاقتراح نفسه إلى الباب العالي

---

[171]– يسمى بالتركية بوغاز كولك وهو يقع بجبل طوروس جنوب شرق منطقة الأناضول التركية.

[172]– محمد عبد الفتاح أبو الفضل، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، القاهرة، 1998، ص 188.

[173]– هدى بلال، المرجع السابق، ص 347.

[174]– لوتسكي فلاديمير بوريسوفيتش، ، مرجع سابق، ص132.

[175]– المرجع نفسه، ص 131.

[176]– بازيلي قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، تر: طارق معصراني، (د.ط)، دار التقدم، موسكو، 1989 ص ص 149– 151.

مباشرة، غير أنه انصطدم برفض السلطان أيضاً[177]، ولاسيما أن السلطان أصبح يحظى، بفضل معاهدتي هنكار اسكلة سي 1833م، بدعم ومساندة الحكومات الثلاث– روسيا والنمسا وبروسيا– من الفريق ذي المبادئ الاستبدادية، والحكم الفردي المطلق التي لا تزال تسير على خطا الحلف المقدس المعقود في فيينا عام 1815م، فقد أكدت هذه الدول في اجتماع أباطرتها في ميونخ في سبتمبر 1833م في معاهدة مونخن غراتز على فكرة" الحلف المقدس"، وبضم الامبراطورية العثمانية إلى الحلف كدولة صديقة يجب الدفاع عنها عند الخطر[178]، وبعد أن أدرك محمد علي صعوبة تحقيق هذا الأمر، راح يطالب بحقوق وراثية لأسرته في المناطق التي تحت حكمه على الأقل[179].

انهت حرب الشام الأولى بعدما كانت بلاد الشام مستعصية أمام كل محاولات التدخل الأوروبي منذ الحروب الصليبية، وكانت حملة نابليون أولى المحاولات الفاشلة في التاريخ الحديث والمعاصر للوصول إليها، وأما الآن وبعد انسحاب محمد علي فقد أدركت القوى الأوروبية أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً، وأن الدولة العثمانية أصبحت غير جديرة بالحفاظ عليها، بسبب الضعف الذي د ب في أوصالها، ومع ذلك لم تسارع تلك القوى إلى اقتسام ممتلكاتها بسبب عدم إمكانية اتفاقهم على القسمة فيما بينهم، واتّباع بريطانيا بالذات لاستراتيجية الحفاظ على وحدة وسلامة الدولة العثمانية حتى أواسط العقد الثامن من القرن التاسع عشر، ففضّ لت تلك القوى اتباع سياسة النخر في جسد هذه الدولة حتى تجعلها جثة هامدة، فقد كان سقوط الأستانة وشيكاً في حربي الشّام الأولى والثانية لولا تدخل القوى العظمى الأوروبية، ففي هذا النزاع الأخير تبنت الدول الأوروبية قضية حماية الدولة العثمانية ومنعت عملية سقوطها بشكل رسمي بتوقيع القوى العظمى على مذكرة 27 جويلية عام 1839م التي دخلت الأطراف الأوروبية بعدها في مفاوضات سياسية شكلت الأسس التي اعتمدتها كل دولة أوروبية في توجهها نحو بلاد الشام؛ فقد عكست هذه المفاوضات

---

[177]– لوتسكي فلاديمير بوريسوفيتش، ، مرجع سابق، ص 133.

[178]– جوزيف حجار، المرجع السابق، ص 85.

[179]– بازيلي قسطنطين، المرجع السابق، ص 17.

أهمية بلاد الشام للأطراف جميعاً، ورسمت مشهداً بالغ التعقيد في وسط تضارب مصالح الدول الأوروبية العظمى؛ كمشهد التقارب الروسي – البريطاني، مع الرابط النمساوي، ضد الرهان الفرنسي على مشروع محمد علي، كما أن دعم فرنسا لمحمد علي كان يقف عند حد سيطرته على بلاد الشام فقط، بل والبقاء تحت سيادة الدولة العثمانية، أما بريطانيا فاستطاعت إدارة الأزمة بهمة وزير خارجيتها بالمرستون، وخرجت من الأزمة بأفضل ما يمكن من نتائج، أما روسيا فقد فشلت في الحصول على مكاسب تعوّضها عن مكاسب معاهدة هنكار أسكلة سي عام 1833م، ولاسيما في قضية المضايق التي شكلت روح مفاوضات الجولة الثانية، بعد خروج محمد علي من بلاد الشام، واكتفت النمسا بالالتزام بمبادئ الحلف المقدس، ومبادئ مترنيخ.

3- حملة محمد علي باشا على السودان:

منذ بداية التّاريخ الحديث لم يكن في بلاد السّودان[180] إلا مجموعة من السّلطنات الإسلامية التي استمرت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر[181]، وكانت سلطنة الفونج[182] في الوسط والشرق عاصمتها ســـنار، وسلطنة الفور[183] في الغرب وعاصمتها الفاتر وبين هاتـــين القوتين كانت تقع سلـــطنة تـــقلي[184] وهي دويـــلة صغيرة تحتل المساحة

---

[180] – اسم السودان هو اسم أطلق على المنطقة الجغرافية جنوب الصحراء الكبرى، والتي تمتد من غرب أفريقيا إلى شرق وسط أفريقيا، والاسم مستمد من العربية، بلاد السودان، والذي يعني " أرض السود"، وقديماً كان يطلق على السودان اسم "إثيوبيا" كما عرفت عند الإغريق، وتعني "الوجوه التي حرقتها الشمس". وأيضا أطلق عليها اسم" "كوش"، وأخيرًا" بلاد النوبة."، وقد قسم السودان إلى السودان الغربي والسودان الأوسط والسودان الشرقي. للاطلاع أكثر ينظر:
Goeges Balalandier, Jacques Maquet.Dictionnaire Des Civilizatio Africaines, Ferrand Hazan Editteur, .Paris France, 1968, P 393.

[181]– أحمد زكرياء الشّلق، المرجع السابق، ص 183.

[182]– أسست **مملكة الفونج** في عام 1504 وكانت تعرف ايضا بمملكة السنار والسلطنة الزرقاء وكان لقب السنانير يطلق علي رعاياها. و تعتبر مملكة سنار أول دولة عربية اسلامية قامت بالسودان بعد انتشار الاسلام و اللغة العربية نتيجة لتزايد الوجود العربي و التصاهر بين العرب و النوبة. للاطلاع أكثر عن مملكة الفونج ينظر: محمد بن السيد عمر التونسي ابن سليمان، السودان كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965، ص 30. **وينظر أيضاً:** آ.ج. أركل، أصل الفونج. تر: عثمان أحمد عبد الرحيم، دار الأشقاء للنشر والتوزيع المحدودة، 2003، ص 9. ينظر أيضاً: يوسف فضل حسن، "سلطنة الفونج الإسلامية(دورها في تاريخ سودان وادي النيل)"، مجلة دراسات إفريقية، ع 22، ديسمبر 1999، ص 57. **ينظر أيضاً:** بابكر فضل املولى حسين أحمد، مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية، الخرطوم، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية، 2004م، ص 05.

[183]– نشأت **سلطنة الفور** الإسلامية فى القرن الخامس عشر الميلادي عام 1440م تحت قيادة مؤسسها الأول سليمان صولونج بن أحمد المعقور. حيث تمازجت العناصر العرقية المختلفة مما أبرز سمة بارزة لعلاقات وروابط جديدة متينة مبدأها القبول والتعايش. للمزيد ينظر: محمد بن السيد عمر التونسي ابن سليمان، السودان كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان، المصدر السابق. وينظر أيضا: غوستاف فاكتيجال، رحلة إلى وداي ودار فور، تع: سيد ديدان المحامي، 2008م،ج4، ص ص 145- 156.

[184]– **مملكة تقلي** هي أحد الممالك القديمة جداً في السودان وافريقيا ,نشأت حوالي القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي، الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي لولاية جنوب كردفان، اشتهرت مملكة تقلي بالمواقف الحاسمة في تاريخ السودان، فضلاً عن أنّها أولى الممالك التي ساندت الامام المهدي اثناء المواجهات مع الحكم التركي – المصري. وأصبحت أولى الممالك التي ساهمت في صد/دحر العدوان على الممالك السودانية، تحديداً مملكتي سنار والمسبعات ذات الحدود المشتركة مع مملكة تقلي وإخفاء الامام المهدي في منطقة "بطن أمك"، التابعة إلى محلية العباسية تقلي=

الـــواقعة غرب النيل الأبيض وجنوب كرتان[185]، وكانت موضع صراع بين كل من سلطنة الفونج وسلطنة الفور[186]، وكانت سلطنة الفونج أقواها جميعاً لذلك حاولت خلق إدارة موحدة في السودان لكنها عجزت عن ذلك، كما تفجرت الصراعات بينها وبين قبيلة الفور مما أضعفهما معاً، ولم يأت القرن التاسع عشر إلا وكانت سلطنة الفونج قد بلغت درجة كبيرة من الإعياء بعد أن تحولت إلى مسرح الحروب قبلية مزقتها وانعكست هذه الأوضاع على مجمل بلاد السودان فعمتها الفوضى والاضطرابات في ظل دويلات منقسمة ومتحاربة وغافلة عن الأطماع الأوروبية محدقة بها، وكانت الدولة العثمانية بدورها عندما بسطت سيادتها على الحجاز والساحل الشرقي للبحر الأحمر تطمع في بسط سلطتها على الساحل السوداني للبحر المقابل للحجاز، خاصة بعد أن ضمت سواكن[187]، وأبقت قوة عسكرية لها في

= وتعد بطن أمك هي الأشهر في السياق التاريخي والمعاصر لقاطني ولاية جنوب كردفان. ينظر: الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، مصر: القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1972م.

[185]– عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى مرحلة البعثة المصرية، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ص 76.

[186]– ناصر محمد ناصر، دور العامل الخارجي في اجهاض تجارب النهضة العربية – دراسة تطبيقية في تجربة محمد علي 1805– 1839، رسالة ماجستير، جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات، قسم العلوم السياسية، القاهرة، مارس 1993، ص 153.

[187]– سَواكِنْ مدينة تقع في شمال شرق السودان، على الساحل الغربي للبحر الأحمر. ينظر:

– G.W.B. Huntingford, The historical geography of Ethiopia from the first century AD to 1704, Oxford University Press, Oxford shire, 1989, p. 76

– ينظر أيضا: مكي شبيكة، تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص 542.

النوبة[188] منذ عام 1520م، كما هربت إلى السودان فلول الممالك إثر حملة ابادنهم محاولين إقامة سلطنة في دنقلة[189/190].

فبعد أن استولى محمد علي باشا على مصر وثبت سلطانه فيه (1807م- 1811م) أخذ يعمل جاهداً لتوسيع رقعة البلاد التي يحكمها لأنّه لم يكن قانعاً بما لديه[191]، ومن الواضح أنّه كان يحلم بدولة كبرى قاعدتها مصر، ولذلك بدأ يستطلع أحوال السودان بعد أن تجمعت لديه أسباب ضمه[192]، فما هي هذه أسباب؟

أ- العوامل التي دفعت محمد علي باشا لضم السودان تحت لواء الدولة العثمانية 1821م:

كانت الحملة المصرية على السودان تختلف عن الحملة على الجزيرة العربية والحجاز، فالأخيرة فُرِضت على مصر؛ لأسباب سياسية وأخلاقية، أما السودان فقد دخلتها مصر

---

188 – بلاد النوبة هو الاسم الذي أطلق على السودان قديماً، وكانت تشمل المنطقة التاريخية التي كانت تقع بين مدينة أسوان إلى جنوب الخرطوم (تشمل معظم أراضي السودان الحديث). أما حالياً فيقتصر اسم النوبة على المنطقة التي تشمل شمال السودان وجنوب مصر على طول نهر النيل. وكانت بلاد النوبة التاريخية موطنا لإحدى أقدم الحضارات في أفريقيا، ومنها حضارة كرمة،

= ومملكة كوش التي حكمت مصر وامتد حكمها إلى فلسطين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، إلى أن سقطت المملكة على يد الأحباش بقيادة عيزانا ملك مملكة أكسوم في القرن الرابع الميلادي. وقد شهدت البلاد بعدها صعود ثلاث ممالك نوبية مسيحية كبيرة في المنطقة، إلى أن سقطت آخرها في عام 1504م، وقامت مكانها سلطنة سنار الإسلامية.

189– دُنْقُلا (دنقلة): مدينة تقع في شمال السودان على الضفة الغربية من نهر النيل. جنوب جندل النيل الثالث مباشرة، تقع على بعد 140 كم إلى جنوب منها، وكانت دنقلة القديمة عاصمة المملكة المسيحية أو مملكة المقرة، استولت عليها مصر عام 1275م، واعتلى العرش الحكم الأول حاكم مسلم تابع للممالك في عام 1316م، فاستقل الذي خلفه عام 1325م، فأعادت مصر السيطرة عليها عام 1366م، وبعدها حكم الممالك الفارون دنقلة عام 1811م- 1820م، وبعدها سكناها نوبيون الذين تأثروا بالعرب الذين يحيطون بهم من كل جهة. ينظر: مجوهة مؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة، ج3، المكتبة العصرية، بيروت، 2009، ص 1523.

190– أحمد زكرياء الشّلق، المرجع السابق، ص 183.

191– ناصر محمد ناصر، المرجع السابق، 153.

192– أحمد زكرياء الشّلق، المرجع السابق، ص 183.

باختيارها وتفعيلاً لخططها التنموية ولرؤاها الاستراتيجية، وتماشيا مع نظريات الأمن القومي التي صاغها محمد علي باشا أنذاك، لكن تبقى العديد من الأهداف الأخرى وراء تجريد حملة ضخمة إلى السودان[193]، لأن هذه الأخيرة لم تكن تملك في السودان الشمالي قوة أو سلطة تستطيع أن تقف في وجه جيش محمد علي الزاحف من الشمال بسب انقسام الدول الإسلامية في السودان التي كانت تمثل في وقت سابق مركز قوة إلى دويلات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض، لكن كان عليه أن يضع احتمال توحد هذه الدويلات مع بعضها لمواجهة هذا الجيش الزاحف، وبالتالي إعاقته لإتمام هدفه من هذه الحملة[194]، والتي كانت دوافعها وأسبابها كثيرة نذكرها على النحو التالي:

أولاً: تعقب فلول المماليك الذين فروا إلى السودان بعد مذبحة القلعة، الذين نجو من المكيدة التي دبرها لهم محمد علي باشا، وكان أولئك المماليك قاد اتخذوا من شمال السودان موطنا لهم وعسكروا بالقرب من مملكة الشايقية[195] وقطع دابرهم[196] قبل أن يتمكنوا من تكوين قوة عسكرية جديدة تصبح مصدر قلق وتهديد لولاية مصر من النواحي الجنوبية، أو عودتهم مره أخرى إلى مصر ومنازعته في السلطة .

ثانياً: رغبة محمد علي باشا في التخلص من الفرق الباقية من العسكر الأرناؤوط وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبوزق)[197] الذين لم تهلكهم حروب الحجاز فعادوا إلى مصر وظلوا على ما جبلوا عليه من النزوع إلى العصيان والتمرد، بالإضافة إلى عدم تقبلهم للنظام

---

[193]– نشأت الديهى، المرجع السابق، ص 193.

[194]– بوقراف جلول أطماع محمد علي باشا التوسعية في السودان 1821– 1881(دراسة في الأسباب والدوافع)، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، ع 5، ماي 2018، ص 89.

[195]– مملكة الشايقية قامت على أنقاض ملمكة نبتة القديمة، امتدت من الشلال الرابع إلى أبيدوم قشابي ومركزها مروة وهي مملكة عربية محصنة اشتهر أفرادها بالشجاعة وحب الغزو. انظر: نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان ، ط1 ، دار الثقافة، بيروت،1967، ص 427.

[196]– Hubert Deschamps , **L'afrique Noire Précoloniale**, Presses Univesitaires De France, Paris, France, 1962, P 82

[197]– باشبوزق أو باشي بوزوق: هم نوع من العساكر الغير نظاميين في الجيش العثماني، وأغلبهم من الألبان والأكراد والشركس، بالإضافة إلى جميع الأعراق الأخرى. وكان الباشي بوزوق معروفين بشجاعتهم، ولكنهم كانوا أيضًا غير

العسكري الأوربي الحديث الذي يسعى محمد علي باشا لتطبيقه[198]، فوجد الفرصة للتخلص منهم بإرسالهم في هذه الحملة إلى السودان، فإن هلكوا استراح منهم، وإن انتصروا تحققت مقاصده في إكمال قبضته على وادي النيل .

ثالثاً: السيطرة على النيل ومنابعه وجميع روافده، وذلك لان مقومات الحياة بمصر تعتمد اعتمادا كُلياً على مياه النيل، لذلك أراد محمد علي باشا أن يكون كل وادي النيل تحت سيطرته، حتى لا يقع تحت رحمة أي دولة من الدول الأخرى، حيث كانت الدول الأوربية في سباق للسيطرة على نهر النيل ومنابعه والاستفادة من خيراته[199]. ويذكر سيدني بيل أحد الإنجليز في كتابه " ضبط النيل والسودان الحديث حيث قال:" كانت العوامل التي حملت محمد علي أن يفتح السودان كثيرة، ولكنه من المعتقدين في فوائد النيل الأعلى أحد أغراضه"[200]

رابعاً: توسيع نطاق التجارة المصرية من خلال الطمع في منتجات بلاد السودان التجارية من العاج والأبنوس[201] وريش النعام والجلود والمواشي والرقيق، واحتكار محاصيلها، والسيطرة على طرق التجارة المحلية والدولية بتلك الأقاليم[202].

خامساً: الثروة المعدنية التي اشتهرت بها بلاد السودان خصوصاً معدن الذهب الذي ذاع صيته بمصر، وانتشرت مناجمه بمناطق وادي العلاقي وجبال بني شنقول وفازغلي وغيرها

منضبطين وسيئي السُمعة بسبب نهبهم وتعدّيهم على المدنيين نتيجة لغياب اللوائح المنظمة لهم. ينظر: صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط1، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص 56.

[198]– نعوم شقير، المرجع السابق، ص 194.

[199]– عصام عبد الفتاح، حكاية مؤسسة مصر الحديثة والتجربة ورجل سبق عصره أيام محمد علي عبقرية الإرادة وصناعة التاريخ، الريف ماس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ص 107.

[200]– نقلاً عن: نشأت الديهي، المرجع السابق، ص 195.

[201]– خشب صلب أسود مكثف وينتج في الغالب عن العديد من الأنواع المختلفة في جنس الخرمال، ويمكن صقله لدرجة اللمعان المعدني، وتوجد أشجار الأبنوس في اليابان والفلبين وجزر الهند الشرقية، وأمريكا الشمالية والجنوبية وافريقيا ومدغشقر والهند وسريلانكا.

[202]– ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، منشورات دار الحياة، مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 24.

الأقاليم السودانية، حيث كان محمد علي باشا في أمس الحاجه للمال لتدريب جيشة وتحسين المستوى الزراعي والصناعي بدولته الحديثة في مصر[203].

وهكذا كان للعامل الاقتصادي دوره في الغزو المصري للسودان، واللافت والمثير أن هناك آراءً أخرى رأت في التدخل المصري في السودان خدمة للقضية الإسلامية ووحدة الأمة في إطار الدولة العثمانية، يقول محمد شفيق غربال: " الحكم المحمدي العلوي في السودان خلق من إمارات وقبائل متفرقة وطنًا إسلاميًا جديدًا، وهيأ لهذا الوطن مستقبلاً ووجودًا بين مناطق الأحباش والقبائل البدائية ومناطق الزحف الأوروبي الذي كان قد أخذ في الاقتراب نحو الأطراف الساحلية، ثم ربط هذا الوطن الجديد بالعالم العثماني الأكبر وحياة الإنسانية الحاضرة[204]".

سادساً: الحصول على أعداد كبيرة من الرقيق، لتدعيم جيشة بالجنود السودانيين الذين اشتهروا منذ عهد الفراعنة بإخلاصهم وفلاحهم في الجندية وشدة بأسهم في الحروب[205]. كما أكد مركزية جلب العبيد باعتبارها دافعاً للفتح محمد علي للسودان ما أورده حسن أحمد ابراهيم الذي ذكر أن المؤرخين الأوروبين أمثال دودويل Dodwell وديهيرن deherain أكدا " أن الحصول على العبيد والتنقيب عن الذهب والمعادن الأخرى كانا أهم سببين للفتح"[206] ويدعمهما محمد صبري السوربوني في قوله:"... في واقع الممر فقد كان لديه دافعان لغزو النوبة والسودان: تعطشيه للحصول على الذهب لأنه كان يؤمن بأن الذهب والقوة يؤثران على مجريات الأمور في هذا العالم، وحاجته لتجنيد السودانيين لإنشاء جيش

---

[203]– أمل عجيل، المرجع السابق، ص 23.

[204]– محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص 84.

[205]– أمل عجيل، قصة وتاريخ الحضارات العربية، موسوعة تاريخية جغرافية حضارية أدبية ليبيا والسودان والمغرب، بيروت، 1999 م، ج19، ص 69. ينظر أيضا: عمر طوسون، الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي باشا، ط3، مطبعة المستقبل، الاسكندرية، 1935، ص 6.

[206] – نقلا عن حسن أحمد ابراهيم، محمد علي في السودان– دراسة لأهداف الفتح المصري التركي، (د. ط)، دار التأليف والترجمة والنشر، خرطوم، (د.ت)، ص 24.

نظامي يكون بمثابة أداة للتوسع والعظمة"[207]، ويؤكد أيضا ما كتبه روبرت أو. كولينز في كتابه تاريخ السودان الحديث حين قال: " مع قدوم العام 1820م كان محمد علي نائب السلطان العثماني في اسطنبول قد أرسى في مصر الشخصية المستقلة وغير المتنازع عليها، ومن ثم أصبح قادراً على فتح السودان للحصول على الجنود الأرقاء لجيشه وعلى الذهب لخزينته"[208]، ويضيف ابراهيم أن الوثائق تؤكد أن الحصول على العبيد كان أهم بكثير من التنقيب عن الذهب والمعادن الأخرى، وكتب محمد علي باشا إلى ابنه اسماعيل باشا قائد حملة السودان يقول له فيها:" المقصود الأصلي من هذه التكليفات الكثيرة، والمتاعب الشاقة ليس المال كما كتبنا إليكم ذلك المرة بعد أخرى، بل الحصول على عدد كبير من العبيد[209] الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا"[210]، وفي رسالة أخرى إلى ابنه ابراهيم باشا كتب محمد علي باشا يقول فيها:" جلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصودة مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من أوطانهم"[211]. لكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا لجأ محمد علي إلى تجنيد السودانيين؟ ولم يجند أبناء مصر؟ هناك احتمالين للإجابة عن هذا السؤال الاحتمال الأول لم يفكر محمد علي في بادئ الأمر في تجنيد المصريين لأنه كان يرى أنهم يتحملون العمل في الزراعة ولم يرد أن يقلل من القدرة الإنتاجية، لكن عندما فشل في تجنيد السودانيين، صار يجند المصريين، أما الاحتمال الثاني في كونه لا يرغب في تجنيد أبناء البلاد وتدريبهم حتى لا يثروا وينقلبون عليه وينزعون السلطة منه ويحكم البلاد أحد أبنائها.

---

[207] – محمد صبري الصربوني، المصدر السابق، ص 116.

[208]– روبرت أو. كولينز في كتابه تاريخ السودان الحديث، تر: مصطفى مجدي الجمال، المشروع القومي للترجمة: 1598، دار العين للنشر، القاهرة، 2010، ص 11.

[209]– غير أنَّ ذلك المشروع فشل بسبب طول مسافة نقل العبيد من الرجال والنساء والأطفال من السودان ثم لأسوان ثم للقاهرة، والذي بدأ بسير العبيد على الأقدام، ثم جاءت فكرة القوارب النيلية، لكن ذلك لم يكن ليجدي، لأنَّ سيئي الحظ ممن استُعبدوا عانوا الإرهاق من طول السير وتفشي الأمراض، التي جعلتهم يموتون كما تموت الخراف من وباء العفن.

[210] – حسن أحمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 24.

[211] – المرجع نفسه، ص 25.

سابعاً: تأكد محمد علي باشا من ضعف مملكة الفونج واضطراب الأحوال الإدارية والسياسية ببلاد السودان عموم، بعد استنجاد بعض الملوك السودانيين بمحمد علي، ونذكر منهم استنجاد أحد ملوك سلطنة الفونج بعد الفوضى التي صارت إليها مملكة سنار بظهور الشقاق بين ملوكهم، واستفحال سطوة وزراء الهمج الاذين استأثروا بالسلطة وعاثوا فيها فسادا، و قد بلغ ذلك محمد علي باشا عن طريق التجار المصريين المترددين على بلاد السودان[212] كما أكد له صحة الأخبار نصرالدين ملك الميرفاب ببربر ((الذي طرد من الحكم)) الذي هون عليه أمر الفتح، كما وفد إليه رجل من عائلة الزبير المالكة في أرقو، وأخبره بسوء الأحوال بدنقلا وتجمع فلول المماليك بها[213]. ويؤكد ما ذكرته ما أورده حسن أحمد ابراهيم عندما قال:" ...ان بعض الزعماء السودانيين ذهبوا بالفعل إلى مصر مطالبين من محمد علي أعداد جيش لفتح السودان..."، وحينها ذكر أيضا حسن أحمد ابراهيم أن هؤلاء لم يستنجدوا بمحمد علي من أجل مصالح البلاد والعباد والقضاء على الفوضى التي عمت السودان، وإنما لتحقيق مطامع ومصالحهم الشخصية[214]. كما أن من غرائب التبريرات في احتلال السودان ما أورده رأفت غنيمي حين قال:" كانت أحوال السودان في أوائل القرن التاسع عشر تستدعي الأخذ بيد أهله وتخليصهم من الفوضى واضطراب الأمن التي عمت أرجاءه، والتقاتل بين القبائل التي لا تتيح للسكان جواً من الأمن والاستقرار والعمل".

كل هذه الأسباب والدوافع يمكن جدا أن تكون وراء اندفاع محمد علي باشا لضم السودان؛ ولكننا نضيف سببا أخر ويتمثل في رغبة الباشا إلى تحقيق حلمه وطموحه في انشاء امبراطورية عربية تكون مصر والسودان مركزها، الشاهد أنّ كل مُطلع على الكتابات الغربية الاستعمارية التي بررت احتلال أراضي الغير والاستيلاء على ثرواتها وممتلكاتها أكيد سيلاحظ تطابق واسع للكتابات المصرية مع الكتابات الكولونيالية التي طورتها القوى الغربية

---

[212]– كرم الصاوي باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل 1250 – 1517، المكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 2006 ، ص 261.

[213] – عبد الفتاح عبد الصمد منصور، العلاقات المصرية السودانية في ظل الاتفاقية الثنائية 1899– 1924، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 11.

[214] – حسن أحمد ابراهيم، المرجع السابق ص 35.

منذ الصعود الامبراطورية البرتغالية والاسبانية في القرنيين الخامس عشر والسادس عشر، وإلى الهجمة الاستعمارية الأوروبية على القارتين الأسيوية والافريقية في القرن التاسع عشر.

ب- مجريات الحملة:

وبعد أن استكمل محمد علي باشا استعداداته العسكرية اللازمة لتسير الجيش، استأذن من الباب العالي السلطان محمود الثاني، فسمح له بضم السودان شرط أن يكون الفتح باسم الخلافة العثمانية. فعقد لواء الحملة الأولى لابنه الأمير إسماعيل، وصحب الجيش أيضاً ثلاثة من العلماء هم القاضي محمد الأسيوطي الحنفي والسيد أحمد البقلي الشافعي، والشيخ السلاوي المغربي المالكي أوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة أنهم مسلمون وأن الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين واجب ديني[215].

لم أتم محمد علي استعداداته جهز جيشاً مؤلفاً من أربعة ألاف وثمانمائة مقاتل[216]، واجتمعت الحملة في أسوان سارت باتجاه النوبة وهناك أراد حاكمها حسين الكاشف أن يدافع عنها، لكن أخاه رفض القتال لم تلق الحملة أي مقاومة، بل هرب حاكمها إلى كردفال، فعين أخاه حسناً حاكماً عليها، وأكمل اسماعيل طريقه إلى دنقلة، وفي طريقه إلى جنوب دنقلة امتثل له حكام البلاد ومشايخها سلمياً[217]، ثم واصل طريقه إلى جنوب دنقلة في بلاد الشايقية وبالقرب من كورتي الموجودة على الشاطئ الغربي للنيل اجتمع المقاتلين بجنود الحملة المصرية لكن استطاع اسماعيل باشا الانتصار عليهم بعد معركة طاحنة وبعد احراقه لمدينة كورتي في نوفمبر 1820م [218]، ثم اتجه إلى بربر، واخضاع حاكمها لسلطة المصرية، ولم يكتف بذلك بل أكمل طريقه إلى شندي بعد الحصول عليها استمر بمسيرة مع

[215]– نعوم شقير، المرجع السابق، ص 494.

[216] – مكي شبيكة، مقاومة السودان للغزو والتسلط، معهد البحوث والدراسات، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1972، ص 19.

[217] – نعوم شقير، المرجع السابق، ص ص 196– 197.

[218] – ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص ص 28– 29.

جيشه إلى حلفاية بالقرب من مدينة خرطوم، واحتل أم درمان ووادي مدني وسنار عام 1821م[219].

بينما تقدمت قوات المصرية بقيادة محمد بك الدفتر دار صهر محمد علي باشا نحو الجنوب دنقلة إلى بلدة بار شمالي الأُبْيض[220] وفيها حصلت معركة عام 1821م، لكن الحملة انتهت بخسائر جسيمة نتيجة لتعرضها إلى الأمراض والأوبئة وقلة المؤن فأدى ذلك إلى موت الكثير من الجنود، فلجأ اسماعيل باشا إلى والده محمد علي طالباً الدعم له، فأرسل الباشا ابنه ابراهيم باشا لإنقاذ الوضع[221].

نتج عن هذه الأحداث قرار تقسيم الجيش بين الأخوين القسم الأول بقيادة اسماعيل باشا أخذ معه 1500 جندي واتجه نحو النيل الأزرق، والقسم الثاني بقيادة ابراهيم باشا أخذ معه هو الأخر 1200 جندي باتجاه الدانكا والنيل الأبيض وأعاليه[222].

سار ابراهيم باشا إلى نصف الطريق ولكنه عاد إلى مصر بسبب مرض أصابه، بينما أخوه تابع طريقه إلى بلاد غاروغلي وأخضعها بعد أن فرض عليها جزية ثم اتجه إلى بني شنقول للحصول على مناجم الذهب، حيث حصلت عمليات بحث دقيقة[223].

ولما سمع اسماعيل باشا بتمردات أهالي سنار نتيجة فرض الضرائب الباهظة عليهم التي استخدمها الجنود ضدهم اضطر الى التوجه اليها من اجل اخماد الثورات ولا سيما بعد تمرد أهالي شندي وحلفا[224].

---

[219] – السيد فرج، حروب محمد علي، مطبعة التوكل، مصر، 1999، ص 77.

[220] – الأبيض: مدينة تجارية وزراعية تقع في وسط السودان وشمالي كردفان.

[221] – نفس المرجع، ص 78.

[222] – عبد الله بن حسين، المرجع السابق، ص 88.

[223] – محمد فؤاد شكري، الحكم المصري في السودان 1821– 1885، دار الفكر العربي، 1937، ص 24.

[224] – المرجع نفسه، ص ص 24– 25.

استدع اسماعيل باشا على أثر ذلك ملك شندي، وفرض عليه الجزية بإرسال كمية من الرقيق والذهب، فتظاهر ملك شندي بالانصياع لإسماعيل باشا، واستدعاه لحضور حفلة في قصره، ثم قتله حرقا[225]، وعندما سمع صهره محمد الدفتر دار بما آلت له الأمور انتقم لإسماعيل ودمر مدينة شندي وأعاد النظام فيها، ووطدّ أركان الدولة في السودان[226]، وأنشأت مدينة الخرطوم وجعلها قاعدة الحكم[227].

في الأخير لاحظنا من خلال تعرضنا الى الدوافع والأسباب القيام محمد علي باشا بالحملة على السودان كلها تصب في بوتقة واحدة وهي الرغبة في تحقيق مطامعه في تكوين امبراطورية عربية يحكمها هو واسرته من بعده، وبالرغم من خضوع السودان له إلّا أنه لم يقم بأي مشاريع تنموية واقتصر وجودها على شكل وجود حامية عسكرية وإدارة مدينة، وبالنسبة إلى مجهودات الباشا في تجنيد العبيد من السودانيين فإنها باءت بالفشل ويمكن حصر الأسباب إلى عدم جلب العدد الكافي من الرقيق اللازم لتكوين الجيش، وتغيرات البيئية والمناخية واصابتهم بالأمراض التي لم تفلح معها العقاقير والأدوية وقتذاك، الأمر الذي أدى إلى موت العديد منهم، ولذلك غير محمد علي رأيه واتجه إلى تجنيد المصريين، وليس معنى ما ذكرناه أن الجيش المصري كان خالياً من الجنود السودانيين فقد ظل الجيش يحتوي على فرق من العبيد. كما سارعت الدول الأوروبية فيما بعد لصد نفوذ محمد علي، كونها اعتبرت نفوذ محمد علي هو نفوذ فرنسا، وادراكها الخطر الذي قد يحققه هذا الوالي الطموح على طريق الهند في ظل ضعف الخلافة العثمانية.

---

[225] – ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص 36– 37.

[226] – باستثناء سلطنة دارفور نتيجة المقاومة العنيفة التي أبدها أمراءها واهلها. **ينظر**: "خليفة بن عبد الرحمن المسعود، سلطنة دارفور بين الرغبة الاستقلالية والسياسة التوسعية في غهد محمد علي باشا والخدوي اسماعيل باشا 1820م 1874م"، **مجلة كلية الآداب** – جامعة أسيوط، مصر، ع 32، أكتوبر 2009، ص ص 300– 314.

[227] – محمد فؤاد شكري، الحكم المصري في السودان، المرجع السابق، ص ص 25– 27.

4- حملة محمد علي باشا على اليونان

أ- وقائع الحرب اليونانية

لما رأى السلطان محمود الثاني ما ألم بالمسلمين وبجيوشه في هذه الحروب المستمرة، والمناوشات الغير منقطعة، وثبات اليونانيين أمام الجيوش العثمانية، واعتصامهم بالجبال، وعدم قدرة الجنود على اللحاق بهم في الجبال الوعرة، فأحال مهمة محاربتهم إلى محمد علي باشا والي مصر، نظراً لما أبداه هو وولده إبراهيم باشا في محاربة الوهابيين من جهة[228]، ومن جهة أخرى كان يمتلك جيشاً وأسطولاً حديثين على الطراز الأوروبي[229]، وقد استجاب محمد علي لهذا الطلب، وذلك بشرط الاعتراف به والياً على مدينة الكريت[230]والمورة[231]، فأصدر علي باشا أوامره باستعداد سبعة ألف جندي كلهم مصريون من المشاة وعدد من الفرسان والمدفعية، وعين بكر أولاده **ابراهيم باشا**[232]، وأرفقه بسليمان بيك، فانطلقت هذه الإرسالية من ثغر الاسكندرية في 16 جويلية1824م، فسارت السفن باسم الله مجرها إلى جزيرة رودس للاجتماع بالأسطول العثماني، ثم ترك ابراهيم باشا فيها سليمان بيك الفرنساوية مع حامية كافية لقمع الثائرين فيها، ولم يلبث ابراهيم باشا أن أمد مدينة **كورن** التي

---

[228]- محمد فريد بك، المصدر السابق، ص 414.

- أنظر أيضاً: المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 08.

[229]- أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص94.

[230]- **كريت:** هي جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، وتقع الجزيرة على مسافة 97كم جنوبي بيليبونيسوس، شبه الجزيرة الجنوبية لليونان، تبلغ مساحتها 8336كم²، وهي أكبر جزر اليونان، وعاصمتها خانيا.

[231]- أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، صأكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص 42.

[232]- **إبراهيم باشا: هو** إبراهيم بن محمد علي باشا قائد بعيد المطامح، وُلد في نصرتلي بتركيا، وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة 1805م،فتعلم بها، وأرسله أبوه سنة 1815م في حملة إلى الحجاز ونجد، ثم جعله قائدا للحملة المصرية في حرب المورة، وتنازل له أبوه محمد علي عن إمارة الديار المصرية عام 1848م، ووافقت الدولة العثمانية على هذا الإجراء، فزار الآستانة ومرض بعد إيابه، وتوفي بمصر، قبل وفاة أبيه.ولمعرفة أكثر أنظر: محمد صبرى، المرجع السابق، ص ص114-118. وعن حملة ابراهيم باشا على سوريا أنظر: مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حماة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق وتقديم: (أحمد غسان سبانو)، د.ط، د.م، د.ت.

يحاصرونها اليونانيين بالرجال والذخائر في 23 مارس 1825م، ثم فتح مدينة **نافرين**[233] الشهيرة بعد حصار شديد، ودخلها منتصراً في 16 ماي 1825م، وبعد مدّة قصيرة فتح مدينة **كلاماتا**[234]، وفي 23 ماي احتل مدينة **تريبولتسا**[235]، ثم استدعاه رشيد باشا الذي كان محاصراً في مدينة **ميسولونجي**[236] لمساعدته على فتحها، وكانت قد أعيته في ذلك الحيل لوقوعها على البحر ووصول المدد إليها تباعاً من جهة البَّر، فقام إبراهيم باشا ملبياً دعوته[237]،

فاستولى عليها، وجعلها أساساً لحركاته الحربية[238] في 13 أفريل 1826م[239]، وفي 05 جوان فتح العثمانيون مدينة **أثينا**[240] وقلعتها الشهيرة أكروبول رغم الدفاع اليوناني المستميت بقيادة القائد البحري الإنجليزي **كوشران**[241]، وتم تعين ابراهيم باشا والياً على مدينة الكريت، لكن الثورة اليونانية لم تنته عند هذه النقطة، وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعثها علي خوجة زادة وكيل الجزائر في خانية بجزيرة كريت إلى حسين باشا في 30 جانفي 1827م[242].

---

[233]– مدينة بحرية يونانية تقع في شبة جزيرة مورا، قليلة السكان، اشتهرت بتدمير الدول الأوروبية المتحالفة للأساطيل المصرية والعثمانية والجزائرية سنة 1827م.

[234]– تقع في نهاية الخليج الغربي شمال شبه جزيرة مورا.

[235]– تقع وسط جزيرة مورا.

[236]– تقع في رأس الخليج شمال جزيرة مورا.

[237]– محمد فريد بك، المصدر السابق، ص415.

[238]– حقي العظم، المصدر السابق، ص 14.

[239]– يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ج1 ،ص 675.

[240]– **أثينا** عاصمة اليونان ومن أشهر المدن التاريخية في العالم، تقع أثينا على سهل قرب النهاية الجنوبية لشبه جزيرة أتيكا التي تمتد من الجنوب الشرقي لليونان إلى بحر إيجة، ويحد أثينا هلال من الجبال التي يبلغ ارتفاعها 1400ممن جهة الغرب والشمال والشرق، وتبعد نحو ثمانية كيلومترات عن بيرايوس (بيريه) أكبر موانئ اليونان.

[241]– محمد فريد بك، المصدر السابق، ص 416.

[242]– المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة24.

بينما استعد ابراهيم باشا لفتح ما تبقى من بلاد اليونان في أيدي الثائرين، إذ تدخلت الدول الأوروبية بحجة حماية اليونانيين المسيحين في الظاهر، ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم أراضي الدولة العثمانية بينهم، ومن مظاهر هذا التدخل لّوْم روسيا أكثر من مرة مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجئ منهم إلى بلادها، لكنها لم تصغي لهذا اللوم بل استمرت في مساعدة اليونانيين وهي احتلال الآستانة وجعلها مركزاً للديانة الأرثوذكسية، مثل مدينة روما التي تعتبر كمركز للكاثوليكية، كما اهتم **نقولا الأول**[243] بمسألة اليونان بعد وفاة الاسكندر لأول متبع في ذلك خطة سلفه السياسية، وباتحاده مع انجلترا التي كان قصدها منع الحرب بين الدولتين اضطر الباب العالي إلى تصديق على معاهدة **آق كرمان Akkerman** [244] في 07 أكتوبر 1827م، جاءت هذه المعاهدة لتوضيح معاهدة بوخارست سنة 1812م، وبموجب هذه المعاهدة تم توسيع الاستقلال الداخلي لإمارات رومانيا وصربيا، كما تقرر عدم وجود أي مسلم محلي في قلاع صربيا ماعدا جنود الجيش التركي، ينتخب الباب العالي بكوات الأفلاق والبغدان من بين أشراف الرومان، ويعين الباب العالي هؤلاء الأمراء لمدة 07 سنوات، وليس له الحق تغيرهم مالم تكن هناك أسباب جدية[245]، أن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود، بدون أن يكون للدولة العثمانية حق في تفتيش سفنها[246]، وقد توعد السلطان العثماني من خلال هذه المعاهدة باختصار شديد على مايلي[247]:

- بمنع قراصنة المغرب من تعطيل التجارة الملاحة بأي حجة كانت، فإذا حصل منهم تعدي بدون علم الباب العالي فإنه يقوم بإعادة جميع المأخوذات التي استولى عليها أولئك القراصنة، وبدون تأخير، وأن يعوض الرعايا الروسين ما لحقهم من خسائر، وأن يحرر بهذا الصدد فرماناً صارماً إلى بلاد المغرب بحيث لا يتكرر ذلك مرة ثانية، وفي حالة لم ينفذ

---

[243]– **نقولا الأول** (1796–1855) : كان قيصرًا لروسيا من عام 1825م حتى وفاته، وقد عُرف بحكمه القاسي رغم أن عددًا من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المهمة قد تمت في عهده.

[244]– المصدر نفسه، ص 417.

[245]– يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ج2 ،ص 09.

[246]– مجمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 165.

[247]– محمد فريد بك، المصدر السابق، صص420– 421.

مفعول هذا الفرمان فيدفع مقدار التعويض من الخزينة الملوكية في مدة شهرين[248]، وهو نفس الشرط الذي نصت عليه معاهدة باش حيث أصدر السلطان سليم الثالث إلى مصطفى باشا في 02 أكتوبر 1807م[249].

- وأن لا يتسبب في إحداث العراقيل في طريق ملاحة السفن التجارية الحاملة للعلم الروسي في كُل بحار ومياه المملكة العثمانية وبدون استثناء، مع احترام ركاب هذه السفن.

وبعد توقيع الدولة العثمانية على هذه المعاهدة بشروط مجحفة، والتي لا يمكن قبولها إلا بعد هزيمة عسكرية فادحة، فعلى الرغم من ذلك فلم يكن ممكناً إرضاء روسيا إلا بحصولها على مكاسب كثيرة، غير أن العمليات التي قامت بها القوات المصرية، والتي كادت أن تستولي على أخر معقل للثوار اليونانيين، وتقضي نهائياً على الثورة فشلت هي الأخر بسبب تدخل الدول الأوروبية، وكانت السبب في إجهاضها من خلال اتفاقها على رأي واحد[250].

ب- موقف الدول الأوروبية من الثورة اليونانية:

كانت حركة الاستقلال اليونانية تمثل مسألة مبدأ بالنسبة للدول الأوروبية، خاصة تلك التي رغبة في الاحتفاظ بمبادئ التحالف المقدس كالنمسا، والتي كانت تعارض كل مجهود ثوري ضد السلطة الشرعية، بدت هذه الحركة كمظهر جديد للغليان والذي امتد إلى أجزاء من أوروبا، وكانت على هذا الأساس وفي أعين الأنصار الاحتفاظ بالوضع القائم الغير مشروع[251].

ومع ذلك ما دام الشعب اليوناني مسيحي ويعلن الثورة على حكم إسلامي، فإنها كانت تلقى الكثير من العطف الذي لم تحصل عليه الحركات الثورية الأخرى، وحتى لدى ذلك الجزء من الرأي العام الذي كان أكثر من غيره إصراراً على (المحافظة على النظام) في

[248]- أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص 94.

[249]- المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 04.

[250]- أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص 94.

[251]- بيير رنوفان، المرجع السابق، ص110.

قرارات الحكومات وكان رد فعل الدول العظمى خاضعاً لتأثير مصالح كل منها، فنجاح حركة استقلال اليونان ستتبع بإضعاف جديداً للامبراطورية العثمانية وربما تفككها[252].

كانت روسيا ترغب في نجاح الثورة اليونانية، ولم يكن للدوافع الاقتصادية إلا دوراً ثانوياً للغاية بتوجيه هذه السياسة، حقيقة إن التجار والبحارة اليونانيين كانوا قبل سنة 1821م الوكلاء الرئيسيين للتجارة الروسية في البحر الأسود، وكانوا قد أوقفوا نشاطهم منذ بداية الثورة، فتسبب ذلك في شل العلاقات التجارية الروسية في هذه المنطقة، وكان هذا سبباً يدفع حكومة القيصر إلى الرغبة في الوصول إلى حل سريع لهذا الاصطدام، ولكنه كان من الضروري من ناحية أخرى أن يكون هذا الحل مطابقا للمصالح الأساسية للإمبراطورية الروسية، وكان انتصار اليونانيين يخدم هذه المصالح مدامة روسيا ستصبح المستفيد الرئيسي من التفكك الامبراطورية العثمانية، وكانت الامكانيات خطيرة بالنسبة للنمسا التي لم تكن تقدر على التخلي عن البلقان للنفوذ الروسي، وكانت مقلقة كذلك بالنسبة لبريطانيا العظمي التي خشيت من أن يتزعزع سريعا تفوقها في البحر المتوسط، والتي كانت تخشى من تغلغل روسي في مناطق الشرق الأوسط وبالتالي من تهديد أمن الهند، ومع ذلك فقد كان في وسع بريطانيا العظمى أن تتعود على إضعاف الامبراطورية العثمانية إذا ما تمكنت من أن تضمن نفوذاً مسيطراً على اليونان المستقلة، ولذلك فإن المصالح الانجليزية لم تكن تتفق في كل نقط مع مصالح النمسا[253].

وكانت هذه الامكانيات أقل خطراً بالنسبة لفرنسا، مدام الوضعية الإقليمية لأوروبا قد تقررت سواء بدونها أو ضدها، ومادام تفكك الامبراطورية العثمانية قد يفتح الطريق لإجراء تعديلات إقليمية، ولنظام من التعويضات بين الدول العظمى يمكن للمنهزمين في سنة 1815م من الحصول على فرصة مواتية تسمح بإعادة النظر جزئياً في المعاهدات، ولذلك فإن المسألة اليونانية لم تكن هي بذاتها ومن طبيعتها أن تؤدي إلى صعوبات دولية خطيرة بل كان ذلك مرتبطا بنتائجها الممكنة والمتوقعة.

---

[252]– المرجع نفسه، ص ص110– 111.

[253]– المرجع السابق، ص 111.

ج- معركة نافرين 1827 وانعكاساتها:

قوبل إخماد الثورة اليونانية بالاستياء في أوروبا، حيث وقعت الدول الكبرى: روسيا وفرنسا وإنجلترا على اتفاقية لندن في 06 جويلية 1827م، وقرروا الضغط على الباب العالي لصالح اليونان لأنهم كانوا يريدون تأسيس إمارة يونانية مستقلة ذاتياً مرتبطة بالدولة العلّية، تدفع الضريبة مثل صربيا وأفلاق والبغدان، فاشتركت انكلترا في الاتفاقية دون رغبة منها، فقد كانت الطبقة المثقفة في انجلترا تريد مشاهدة دولة يونانية مستقلة، إضافة إلى أن انجلترا كانت تخشى استفادت روسيا من ضعف الدولة العثمانية، وفي نفس الوقت لم تشأ أن تترك منافستيها فرنسا وروسيا كحاميتين لليونان تنفردان بتسيير القضية اليونانية[254]، فعرضت انجلترا رسمياً في 05 فيفري 1827م على الدولة العلية توسط جميع الدول بينها وبين متبوعيها، فلم تقبل ذلك، بل أجابت السفير الإنجليزي بتاريخ 10 جوان 1827م بعد تفكير عميق، وتروي في عاقبة هذا التدخل أنّها لم تسمح ولن تسمح به مطلقاً، فاغتاظت الدول الأوروبية من هذا الجواب، واتفقت كل من فرنسا وإنجلترا وروسيا بمقتضى معاهدة لندن سابقة الذكرى على إلزام الباب العالي بالقوة بمنح اليونان استقلالها الإداري بشرط أن يدفع اليونانيين جزية معينة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود الفريقين، وأمهل الوفاق الأوروبي الباب العالي شهراً لإيقاف الحركات العدوانية، وإلا تضطر الدول الأوروبية لاتخاذ طرق أخرى لتحقيق ذلك، لكن السلطان العثماني رفض، وأصّر على رأيه، وبعد انقضاء الشهر المحدد أصدرت الدول الثلاث أوامرها إلى قواد أساطيلها التوجه لسواحل اليونانية، وطلبت بعد ذلك من إبراهيم باشا الكف فوراً عن القتال، فأجابهم أنه لا يتلقى أوامراً إلا من سلطانه أو أبيه، ومع ذلك فإنه قبل إيقاف الحرب مدة عشرين يوماً ريثما تأتيه تعليمات جديدة، فاجتمعت سفن دول الثلاث في ميناء نافرين لمنع السفن العثمانية

[254]- يلمازأوزتونا، المصدر السابق، ج2 ،ص 10.

والمصرية من الخروج[255]. والسؤال المطروح ماهي **عومل التي دفعت بالدول الأوروبية المتحالفة إلى اختيار ميناء نافرين ميداناً للحرب؟**

كانت عوامل اختيار هذا الميناء لتحصيناته العسكرية وأهميته الاستراتيجية، فكان هذا الميناء دوماً محط أنظار القادة العسكرين الغربيين في مواجهتهم للدولة العثمانية، إذ بادر الجيش الروسي في حرب العثمانية الروسية الأولى بالاستيلاء عليه يوم 10 أفريل 1770م، واتخاذه مركزاً لعملياته الحربية في المورة قبل أن يضطر إلى التخلي عنه وتهديد تحصيناته في 01 جوان 1770م بعدها اتخذ الجيش العثماني نافرين أيضاً قاعدة حربية أصبحت فيما بعد هدفاً للثوار الذين استولوا عليها في 07 أوت 1821م، وأبادوا جميع المسلمين بها، ثم استرجعها مجدداً إبراهيم باشا في ربيع سنة 1825م بعد مقاومة عنيفة من طرف اليونانيين، إضافة إلى عوامل طبيعية التي تؤكد أهمية موقع هذه القاعدة البحرية الاستراتيجية المتحكمة في السواحل الجنوبية الغربية لبلاد اليونان، والمتصل مباشرة بالسواحل الأوروبية مع كونه يتميز بحماية طبيعية مما جعل ميناء نافرين أكثر المراسي ملائمة للملاحة بسواحل اليونان، وذلك لكونه محمياً بجزر سفاكليري sphacléries التي تنتصب في مدخله وترد عليه الرياح الغربية التي تتسبب غالباً في هيجان البحر، ونفس العوامل الاستراتيجية هي أملت على سفن الدول الأوروبية المتعاطفة مع الثورة اليونانية (روسيا وفرنسا وإنجلترا) أن تحشد سفنها أمام ميناء نافرين[256].

- أحداث المعركة

تنفيذاً لإتفاق لندن الموقع في 06 جويلية 1827م، والذي أسفر عن تشكيل ما يعرف بالحلف الثلاثي بين الدول الثلاث التي أصبحت أطرافاً معنية بالقضية اليونانية بعد أن تعهدت بالعمل على إرغام السلطان العثماني على وقف الحرب، وتحقيق الاستقلال الذاتي لبلاد اليونان كما نص على ذلك بروتوكول 07 أكتوبر 1827م، وقد أعطيت القيادة في هذه

[255]– M. De Pradt, Question De L'orient Sous Ses Rapports Généraux Particuliers, A La Libraire De Roret, Paris, 1836, P 179.

[256]– عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص 175.

العملية المشتركة للقائد الأميرال الإنجليزي كوردانغتون[257]Cordrington، وكانت المجموعة الفرنسية بقيادة الأميرال **ريني**، الروسية تحت إمرة **هيدن**، وتم اختيار القائد الإنجليزي سابق الذكر قائداً عاماً لأقدميته في الوظيفة[258].

ففي ميناء نافرين الحصين وأمام دفاعات قاعدته العسكرية تجمعت السفن الإسلامية، واتخذت أماكنها على شكل خط دفاعي اصطفت فيه على هيئة حدوة حصان أيام 8و 9و 10 أكتوبر 1827م، واكتملت تنظيماتها النهائية يومي 14و15 من نفس الشهر حسب ما ورد في مذكرات الضابط الفرنسي بومبارد Bombard ، وقد بلغ عدد هذه السفن 62 سفينة مسلحة بـ 2102 مدفع، وتحمل ما بين 17500 و 21960 جندياً وبحارً بالإضافة إلى بطاريات المدافع المنتصبة فوق حصون ميناء نافرين، والتي كانت موجهة للسفن الأوروبية

ومما يلاحظ أن هذ العدد الكبير من السفن الإسلامية، كان أغلبه من مصر بينما شاركت الجزائر بمجموعة سفن قدرت المصادر المتوفرة عددها بستة سفن كما سبقت الإشارة في بيان المساهمة الجزائرية في معركة نافرين، وفي المقابل كانت القطع الحربية للحلف الأوروبي تأخذ مواقعها غير بعيدة من السفن العثمانية تحت قيادة الأميرال الإنجليزي كوردانعتون كل هذا الحشد من السفن الإسلامية والأوروبية اجتمعت عشية 20 أكتوبر 1827م بمياه نافرين، لمنع وصول المؤن إلى مورة[259] حيث ظهرت السفن البحرية عند مدخل الميناء وتجاوزت مرمى بطاريات المدافع في الساعة الواحدة بعد الظهر من نفس اليوم، وتقدمت في صفيين متراصين أحدهما مكون من السفن الإنجليزية الفرنسية، والآخر من السفن الروسية، وفي الوقت الذي فيه السفن الإنجليزية والفرنسية ميناء نافرين ، كانت السفن الروسية تقترب من مدخل الميناء، وعندها أطلقت النيران من إحدى السفن الإسلامية فأصيب الملازم الأول الإنجليزي **فتزروي** Fitz-Roy بعيار ناري قاتل ثم تلتها طلقة أخرى

---

[257]– ناصر الدين سعيدوني ، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ص359- 360.

[258]– محمد فريد بك، المصدر السابق، ص327.

[259]– المكتبة الوطنية الجزائرية،مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 39.

من سفينة مصرية أصابت إحدى الفرقاطات الفرنسية حسبما أوردته شهادة الجنرال الروسي بوجيانوفيتش بعدها بدأ تبادل إطلاق النار من الجانبين، واحتدمت المعركة ثلاث ساعات أو أربع، دمرت أثناءها أغلب السفن الإسلامية، ولم ينجو منها سوى فرقاطة واحدة وحوالي خمسة عشرة سفينة صغيرة تضرر بعضها بفعل طلقات المدفعية بينما قدر عدد القتلى بحوالي ألف من الأوروبيين، وبأكثر من ستة آلاف من المسلمين، وقد مكثت السفن الأوروبية حوالي أسبوع بعد انتهاء المعركة، دمرت فيها أغلب السفن الإسلامية، بما فيها السفن المصرية والجزائرية ولم تنج من السفن هذه الأخيرة سوى سفينة مفتاح الجهاد والتي لحقت بها عدة أشرار فتوجهت إلى الاسكندرية وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعثها القائد السفينة مصطفى رايس إلى حسين باشا[260]، وأما السفن التونسية فلم تنجوا منها أي سفينة، كما تؤكد رسالة بعثها محمد قبطان قائد سفينة التونسية في الحرب اليونانية إلى حسين باشا وإلى تونس في نوفمبر 1827م، والتي احتوت على تفاصيل معركة نافرين، كما تضمنت معاناة الجنود التونسيين بعد تحطم سفنهم في المعركة، وطلب فيها إرسال سفن أخرى لإعادتهم إلى تونس[261]، فلم ينجُ من السفن الاسلامية سوى فرقاطة واحدة وحوالي خمسة عشر سفينة صغيرة تضرر بعضها بفعل طلقات المدفعية، بينما قدر عدد القتلى بحوالي ألف من الأوروبيين، وبأكثر من ستة آلاف من المسلمين[262].

ولما رأى إبراهيم باشا تألب الدول الأوروبية ضد الدولة العلّية، وأن فرنسا أمرت بإرسال جيش عظيم لمحاربته قام في 03 أوت 1828م بناءً على أوامر والده مع الدول المتحدة على إخلاء مورة، والرجوع إلى مصر مع ما تبقى من السفن المصرية[263]، وقد مكثت السفن الأوروبية بميناء نافرين حوالي أسبوع بعد انتهاء المعركة لتنسحب يوم 26 أكتوبر 1827م، بعدها عقد ابراهيم باشا هدنة مع الأميرال الانجليزي مكنته من سحب قواته من نافرين في

---

[260]– المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 30.

[261]– المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 29.

[262]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 364.

[263]– محمد فريد بك، المصدر السابق، ص 428

ربيع عام 1828م، وتسليم تحصينات الميناء إلى الجنرال الفرنسي ميزون الذي أوكل له حكم قاعدة نافرين مؤقتاً، فلم يتوان في تقديم الدعم والمساعدة للثوار اليونان، مما مكنهم من تحرير كامل المورة في ظرف شهرين قبل أن يتم الفرنسيون انسحابهم من المنطقة في شهر أوت من سنة 1829م[264].

وتعود أسباب انهزام القوات الإسلامية إلى نقص عتاد وتجهيزات السفن الإسلامية، وافتقار المهارة والتدريب للجنود المشاركين في المعركة مقارنة بتجهيزات السفن الأوروبية ونوعية التدريب الذي كانوا يتوفرون عليه، كما يعود سبب الهزيمة إلى المكان الغير الملائم الذي جرت فيه المعركة، فوجود السفن الاسلامية متراصة بميناء نافرين وعدم تمكنها من المناورة أو الحركة سهل على القطع الأوروبية أكبر عدد منها في وقت قصير، ومما زاد في خسائر المسلمين وجود تعليمان صارمة لقادة السفن الأوروبية بالدخول مباشرة في المعركة دون تردد، في حالة إطلاق النار عليهم، بينما السفن الإسلامية لم تعطي لها أيّة تعليمات في هذا الشأن من طرف قادتها (طاهر باشا وقبطان باي ومختار باي) رغم تحمس بعض جنودها ومبادرتهم بتوجيه طلقات إنفرادية للسفن الأوروبية، تلك الطلقات التي كانت بمثابة الحجة لقادة السفن الأوروبية لتنفيذ خطتهم في القضاء على القوة الإسلامية البحرية المتواجدة أمامهم كما أن وجود ضباط فرنسيين متعاونين على متن السفن المصرية زاد الحال سوء لترددهم في الدخول في اشتباك مع سفن بلادهم المواجهة لهم لا سيما بعد أن وجه قائد السفن الفرنسية الأميرال دوريني **De** Rigny إلى هؤلاء المتعاونين من الفرنسيين في سفن محمد علي رسالة جاء فيها:" **إلى سيادة لوتوليه Letellier ،و بومبار Bombarad والضباط الفرنسيين العاملين بإستنبول التركي... إن الوضعية التي هي عليها الآن القوات البحرية العثمانية المحاصرة في ميناء نافرين، وعدم احترام ابراهيم باشا لتعهده بالكف مؤقتاً عن الأعمال الحربية كل هذا يظهر لكم بأنكم في وضعية تجعلكم في مجابهة علمكم الوطني، وأنتم تعرفون مدى المجازفة في مثل هذه الحالة ، ولهذا ندعوكم أن تتركوا**

[264]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص364.

الخدمة عند الأتراك في حالة إذ أقدم الأسطول العثماني على أعمال حربية معادية ..."[265]. توضح هذه الرسالة أن جيش محمد علي لم يكن يشمل الجنود العرب والمصرين فقط بل كان غالبيته من المرتزقة والأوروبيين، وقد أدى ذلك إلى انهزامه أمام الدول المتحالفة

لما وصل خبر هذه الحادثة التي حصلت بدون إعلان حرب كما هي العادة بين الدولة المتمدنة إلى الباب العالي أرسل بلاغاً إلى سفراء هذه الدول الثلاثة[266]يتضمن احتجاجه على الهجوم الذي قامت به أساطيل دولهم رغم عدم وجود حرب أو توتر، واعتبر هذا العمل مخالفاً للقوانين الدولية[267]، ويطلب فيه أن تمتنع الدول كليةً عن التدخل في شؤون المماليك المحروسة، وأن تدفع له تعويضاً عن الخسائر التي نجمت عن تدمير المراكب العثمانية، فلم يرد هؤلاء السفراء على هذا البلاغ، بل قطعوا علاقاتهم مع الباب العالي، ونزلوا إلى مراكبهم مسرعين في 08 ديسمبر 1827م، وفي 18 من نفس الشهر نشر السلطان في جميع الولايات منشوراً عاماً يبين مقاصد الدول عموماً، وروسيا خصوصاً نحو الدولة العثمانية، مثبتاً للأهالي على أن الباعث على هذا العدوان الدين لا السياسة، وختمه يحض المسلمين على القتال دفاعاً عن الدين والملة والوطن، فاغتاظت روسيا على ذلك، وأعلنت الحرب على الدولة في 26 أفريل 1828م، ولما عقدت الدول الثلاث مؤتمراً في مدينة لندن لتقرير مصير اليونانيون، ودعت إليه الدولة العثمانية، فأبت هذه الأخيرة عن إرسال مندوب من طرفها حتى لا يُعد ذلك إقراراً منها على ما يُتفق عليه في هذا المؤتمر، وتقديم يد العون لليونانيين من أجل حصولهم على الاستقلال، وتحطيم القوات الإسلامية في نافرين[268].

- انعكاسات معركة نافرين على العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط:

أسفرت معركة نافرين على نتائج بالغة الأهمية بتطور الأحداث في منطقة البحر الأبيض المتوسط وهي كالآتي:

---

[265]- المرجع نفسه، ص 365.

[266]- **محمد فريد بك**، المرجع السابق، ص 428.

[267]- أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص 95.

[268]- محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ص428- 429..

- لقد أفرزت وأوجدت وضعاً دولياً سمح للدولة القيصرية بإطلاق يدها في الدولة العثمانية لجني ثمار مشروعها التوسعي على حساب ممتلكات العثمانية[269]، إذ بادر نقولا الأول إلى نقض معاهدة أكرمان بحجة مهاجمة السفن العثمانية للقطع الروسية في معركة نافرين[270]، واستغلت روسيا قيام السلطان العثماني بقطع علاقاته مع فرنسا وبريطانيا، وإعلانه الجهاد كاحتجاج على معركة نافرين، بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في أفريل 1828م[271]، فاجتازت قواتها نهر بروث الذي يفصل روسيا عن الدولة العثمانية، واحتلت على الأفلاق والبغدان، كما احتلت قلاع قارص في آسيا، وقد أثبتت رسالة الحاج حسين باشا داي الجزائر في أزمير إلى حسين باشا تدهور العلاقات بين الدولة العثمانية ودول أوروبا بتاريخ 03 أفريل 1827م، كما حملت في طياتها أخبار نشوب حرب بين الدولة العثمانية وروسيا[272] التي حاولت أن تسيطر على الأمر وتكون صاحبة حصة الأسد، ولكي تمنع بريطانيا روسيا من السيطرة على القضية اليونانية دعت إلى عقد اجتماع في لندن في مارس 1829م حضرته فرنسا وبريطانيا، وأسفر عن توقيع معاهدة لندن الثانية، والتي نصت بأن تصبح اليونان دولة تتمتع بالحكم الذاتي تحت السيادة العثمانية، ولم رفض السلطان هذه المعاهدة تقدمت القوات الروسية إلى أدرنة العثمانية، فوقفت على أبواب القسطنطينية، فوافق محمود الثاني على الدخول في مفاوضات مع روسيا أسفرت عن توقيع اتفاقية أدرنة[273] في 14 سبتمبر 1829م، والتي نصت على مايلي[274]:

---

[269]– عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص 178.

[270]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 365.

[271]– المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 37.

[272]– نفس المصدر.

[273]– **أدرنة:** مدينة تركية قديمة، تعرف رسميًا بأدريانوبل، وكانت العاصمة الأوروبية للدولة العثمانية منذ عام 1361م، حتى فتح الأتراك القسطنطينية(إسطنبول) عام 1453م،وتقعفي الركن الشمالي الغربي من تركيا، قرب الحدود البلغارية حيث تلتقي أنهار مارتيسا، أَرْدَا، وتنكا، وقد أسس الإمبراطور الروماني هادريان المدينة على أنقاض مدينة زرادشتية قديمة، وسماها هادريانوبولس، نسبة لاسمه.

[274]– السيد محمد سليم، المرجع السابق، ص 77.

1. تمنح اليونان الاستقلال بموجب اتفاقية لندن الأولى سنة 1827م، وتحدد حدود الدولة الجديدة بموجب اتفاق لاحق مع الدول الثلاث الموافقة على الاتفاقية، كما تعترف الدولة العثمانية باتفاقية لندن الثانية الموقعة في 22 مارس سنة 1829م.

2. يصبح لروسيا والدول التي لا تكون الدولة العثمانية في حالة حرب معها حق الملاحة في البحر الأسود، وحتى البر المتوسط عبر البسفور والدردنيل دون تفتيش الدولة العثمانية لسفنها.

3. تصبح إمارة الأفلاق والبغدان تحت السيادة، ويعين أمرائها مدى الحياة، ولا يعزلون إلا بموافقة روسيا، والدولة العثمانية، كما تتمتعان بالحكم الذاتي.

4. تمنح صربيا الاستقلال الذاتي المنصوص عليه في اتفاقية أكرمان.

5. تدفع الدولة العثمانية تعويضات لروسيا، وتنسحب القوات الروسية من الأفلاق والبغدان تدرجياً بالتوازن مع دفع التعويض.

6. يتمتع رعايا روسيا بحق التجارة في سائر أنحاء الدولة العثمانية دون قيد أو شرط، ويخضع التجار الروس لسلطة قناصل دولتهم فقط.

وفي 03 فيفري 1830م ثم توقيع اتفاق ثلاثي جديد في لندن نص على استقلال اليونان عن الدولة العثمانية استقلال تاماً مع تخطيط الحدود اليونانية، واعترف السلطان العثماني بهذا الاستقلال في 30 ماي 1830م، وتم إعلان اليونان كدولة مستقلة بزعامة الأمير **أوتو**[275] ملك بفاريا[276].

---

[275]– **والملقب بأوتو الأول** (1815–1867):ولدفي سالزبيرج في النمسا، أمير بافاري أصبح أول ملك على اليونان بعد أن آلت لليونان من الأتراك في عام 1830م، أمير بافاري أصبح أول ملك على اليونان بعد أن آلت لليونان من الأتراك في عام 1830م، عمل بكل همة وإخلاص من أجل شعبه فأعاد بناء مدينة أثينا وأسس أول جامعة يونانية وأعاد إنشاء إسبرطة، كان أوتو والشعب اليوناني مستعدين للتحالف مع الروس لمحاربة الأتراك خلال حرب القرْم ما بين عامي 1853و1856م، ولكن بريطانيا وفرنسا أرسلتا قوات إلى اليونان ومنعتا قيام مثل هذا التحالف ضد الأتراك، واعتبر اليونانيون أوتو المسؤول عن فشل هذه الخطة، وعزلوه عن العرش في عام 1862م.

[276]–المرجع السابق، ص78.

- ساعدت معركة نافرين على استفحال المد القومي بدول البلقان، وامتداده إلى القوميات الأخرى مثل الصرب التي تأثرت بالماضي التاريخي ومساندة روسيا لها، بالإضافة إلى دور الكنيسة الأرثوذكسية في التوجيه والنصح بالانفصال النهائي عن الإمبراطورية العثمانية، كما أوضحت معركة نافرين الدور العملي والسياسي لمحمد علي باشا في تسير شؤون الدولة العثمانية، ومدى قدرته على التأثير في مسار ومعطيات الأحداث الدولية بمنطقة الشرق[277].
- أدت معركة نافرين إلى انحلال وتفكك الحلف المقدس بين الدول الأوروبية الذي أقره مؤتمر فيينا 1815م[278]، وأصبح أساس السياسة الأوروبية في العلاقات الدولية، وعلى هذا الأساس لم يصبح للشرعية الدولية مكانة تذكر على الآمال والأماني القومية، وفي نفس الوقت طموحات ومطالب الشعوب قبل مصالح الدول، وهو ما أمكن على إحداث التغير بالنسبة للأوضاع السياسية بين الدول الأوروبية، ونتيجة التطورات التي حدثت في مواقف الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية أدت إلى إحداث تضارب في المصالح، فمعارضة فرنسا وبريطانيا للسياسة الروسية إزاء الدولة العثمانية التي ركزت على التوسع العسكري هدفة الوصول إلى المضائق والبحار الدافئة، سوف تكون خطر على المبادلات التجارية، وتهدد المواصلات الدولية التي تربط الدول الأوروبية بالهند والبلدان الشرق الأقصى، وبالتالي يصبح شرق أوروبا وشبه جزيرة البلقان منطقة حماية ووصاية روسية في إطار جامعة الشعوب السلافية، فنتج عن ذلك اختلال في التوازن الدولي[279].
- إن معركة نافرين كان لها تأثير سلبي على الولايات العثمانية العربية وخاصة الجزائر، لأن هذه الأخيرة كانت معرضة للخطر الأوروبي باعتبارها تشكل قوة إسلامية في غرب البحر المتوسط، وأنها كانت تهدد مصالح هذه الدول، فكانت في أشد حاجة إلى قواتها البحرية لتتصدى للاعتداءات، وتقف في وجه التحرشات الأوروبية عامة وبالأخص الفرنسية منها، في الوقت الذي كان فيه حوالي ربع قواتها البحرية بالمياه اليونانية بجانب الأسطول العثماني

---

[277]– عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص 178– 179.

[278]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 367.

[279]– عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص 179.

والمصري، كما أن تحطم أغلب السفن العثمانية في المعركة حال دون تقديم الباب العالي أي مساعدة في تصديها للحصار البحري ومواجهتها للغزو الفرنسي، سنة 1830م، والذي كان بداية مخطط استعماري كانت معركة نافرين إحدى مراحله الأولى[280]، نتيجة الضعف والانحلال والانهزام الذي حل بالدولة العثمانية المركزية والولايات العربية التابعة لها، ونتيجة تزايد سيطرة ونفوذ الحكام المسؤولين عن شؤون الرعية بالمنطقة أو الأقاليم ومحاولتهم الرامية إلى الانفصال والاستقلال عن السلطة المركزية، كل ذلك وغيره من التطورات والأحداث التي عاشتها هذه الدولة أدى إلى تنامي أطماع وتكالب الدول الأوروبية في أقاليمها وولاياتها في الشرق.

أوضحت الثورة اليونانية الدور الذي كانت الدول الأوروبية الكبرى – بريطانيا وفرنسا وروسيا – تلعبه على الساحة الدولية من أجل اضعاف الدولة العثمانية وزيادة مشاكلها العسكرية وتكريس تفكيكها من خلال مناصرة الثورات والحركات الانفصالية التي كانت تستخدمها ضد الدولة العثمانية للحصول على مزيد من الامتيازات سواء لحماية الطوائف النصرانية أو لمزيد من المصالح الاقتصادية.

5- مشروع محمد علي باشا لاحتلال الجزائر:

كانت الجزائر في عند بداية القرن التاسع عشر تعاني من بوادر الضعف والانهيار بسبب المؤامرات والتحالفات العسكرية التي كانت تقوم بها الدول الأوروبية حيث أنهكت البحرية الجزائرية، وكانت سبباً أيضا في تراجع القرصنة الذي نتج عنه انخفاض دخل الخزينة، كما تعتبر معركة نفارين سنة 1827م من العوامل المساهمة في نهاية الايالة الجزائرية، إذ أدت إلى تناقص عدد سفن الأسطول الجزائري إلى النصف[281]، وبالتالي عدم قدرتها على الدفاع عن الوطن، وقد ترتب عن ذلك أن صارت الجزائر محل أطماع الدول

[280]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 368- 369.

[281]– Claude Martin, Histoire De L'Algérie Française 1830 – 1962, Editions Des 4 Fils Aymon, Rue Mazarine, Paris, P 51.

الأوروبية خاصة إسبانيا وفرنسا وبريطانيا، إلا أن الظروف الدولية ساعدت فرنسا على بسط نفوذها وسيطرتها على الجزائر سنة 1830م؛ لكن السؤال المطروح **هل كانت لفرنسا نية مسبقة لاحتلال الجزائر؟ وما هي الأسباب الحقيقية وراء ذلك؟ وهل نجحت خطة فرنسا في استغلال محمد علي باشا والي مصر في تحقيق مبتغاها؟**

أ- العلاقات الحزائرية الفرنسية قبل حملة 1830م:

قد عرفت العلاقات الجزائرية الأوروبية في مستهل القرن التاسع عشر ميلادي خاصة الفترة ما بين 1800م و1814م توتر وعداء شديد خاصة فرنسا رغم أنها كانت تعرف نوع من التقارب، وعلاقة جيدة عموماً، وذلك ابتداء من الثورة الفرنسية 1789م، إذ عمد قادتها إلى توطيد علاقاتهم مع حكام الجزائر، وفي مقابل ذلك قدمت لها الجزائر مساعدات اقتصادية نتيجة الجفاف والحصار الذي فرضته عليها الدول الأوروبية المتحالفة وعلى رأسها انجلترا[282]، وخلال تلك الفترة تحصلت فرنسا على احتكار المرجان في ولاية قسنطينة مقابل مبلغ زهيد، كما احتفظت بحامية في القالة، وأسست شركة تحمل اسم" الشركة الافريقية"[283]، غير أن علاقة فرنسا بالجزائر لم تكن ودية دائماً فقد كانت أكثر استجابة لمصالحها من العلاقات الجزائرية بأي دولة أخرى[284].

---

[282]- أرزقي(شويتام)، "التنافس الدولي في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنيين 18- 19 وموقف الجزائر منه"، حولية المؤرخ، العدد 3- 4، الجزائر، 2005، ص 176.

[283]- **الشركة الافريقية:** أنشئت سنة 1471 بأمر ملكي صدر يوم 1741/08/25م، وتوقفت عندما خلفتها الوكالة الافريقية يوم 1794/02/07 واستغلت فرنسا هذه الوكالة من سنة 1799م إلى سنة 1799م عندما وقعت الحملة على مصر وأعلنت ايالات المغرب الحرب ضدها، وبعد وقوع السلم اتخذ قناصلة الجمهورية قراراً يقضي بحل الوكالة، فوقعت التجارة في فوضى إلى أن أعطيت الامتيازات لإنجلترا سنة 1807م، وفي سنة 1817م استرجعت فرنسا الامتيازات وأنشأت وكالة مؤقتة دامت من سنة 1818م إلى سنة 1822م.

[284]- وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824، تر: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982،ص131.

وبقي الوضع على حاله إلى أن قام نابليون بونابرت بحملته على مصر سنة 1798، ووصول رسالة من مصطفى باشا تحمل خبر الحملة الفرنسية على مصر[285]، ونتيجة لهذا وُضعت الحكومة الجزائرية في موقف لا تحسد عليه لأنه كان هناك ضغط لا يطاق من طرف الرأي العام الذي استنكر هذا العدوان استنكاراً شديداً، بالإضافة للمساعي الضاغطة والملحة من طرف الباب العالي لدفع الجزائر إلى القطيعة مع فرنسا[286]، وإعلان الحرب ضدها وكان ذلك من خلال إصدار سليم الثالث[287]

فرماناً لمصطفى باشا[288] يأمره فيه بإعلان الحرب ضد فرنسا[289]، لكن الداي ومستشاريه قرأوا دروس السنوات الماضية بطريقة مختلفة فهم لا ينوون إثارة نابليون ولا حكومة الإدارة الفرنسية290، فعارضوا ذلك في البداية، إلا أن الباب العالي أصر على ذلك من خلال رسالة بعثها حسين باشا قبودان دريا إلى مصطفى باشا بتاريخ 10 شعبان 1215هـ الموافق لـ 26 ديسمبر 1800م، تضمنت استياء الباب العالي من الجزائر بسبب عدم الاستجابة لأمر الحرب ضد هذه الأخيرة، كما أنه رفض استقبال الوفد الذي حمل هدية

285– المكتبة الوطنية الجزائرية، مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 49.

286– **جمال قنان**، "نظرة حول العلاقات الجزائرية الأوروبية في العصر الحديث 1500– 1830"، مجلة المصادر، العدد 18، السداسي الثاني 2008، باب الواد الجزائر، ص 28.

287– **سليم الثالث** (1761 – 1808م): ابن السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد الثالث، وترتيبه الثامن والعشرون من سلسلة سلاطين آل عثمان، ارتقى العرش خلفًا لعمه السلطان عبدالحميد الأول عام 1789م، فكانت البلاد في حالة متدهورة عندما جاء إلى السلطة، فقد شهدت فترت حكمه تحالف الروس مع النمسا كل من سنتي 1798م و1791م نتج عنه انهزام الدولة العثمانية ،وفقدنها للعديد من الأقاليم من بينها القرم، كما أسهم في إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر عام 1801 م أما داخليا فقام بعدت إصلاحات التي كانت سبب في عزله سنة 1808م، وقتل إثر فتنة داخلية في نفس السنة، وللمزيد **أنظر**: حضرة عرتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الأن، تقديم محمد زينه محمّد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهر، مصر، 1995، ص 112–113.

288– De Grammont (H–D), «Histoire D'Alger Sous La Domination Turque 1515– 1830», Ernest Leroux. Paris, 1887, 356

289– وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تر: (عبد القادر زبادية)، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 217.

290– جون ولف، الجزائر و أوروبا 1500– 1830، تر: (أبو القاسم سعد الله)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 441.

مصطفى باشا إلى السلطان ووزرائه، وهدد الباب العالي بطرد وكلاء الجزائر من أزمير، ومنع وصول المجندين إليها في حالة عدم الاستجابة[291]، ولكن مبعوث ثاني من السلطان العثماني حمل إنذار من أن عدم الطاعة في هذا الشأن سيعتبر خيانة وسيلتحق حينئذ الأسطول العثماني بوحدة الأميرال كيت الانجليزي في المجيء إلى الجزائر ومضايقتها[292]، فاضطر الداي إلى إتخاذ موقفاً حول هذه القضية تحت ضغط الرأي العام في الداخل وإلحاح السلطان العثماني إلى إعلان الحرب ضد فرنسا في 21 ديسمبر من نفس السنة، لكن السلطات الجزائرية لم تكن تنوي الذهاب بعيداً في الأعمال العدائية أكثر من مجرد تجميد العلاقات الدبلوماسية ريثما تهدأ الخواطر، وتتبين النوايا الفرنسية بخصوص مشروعها في مصر[293]، فاعتقلت القنصل الفرنسي، وموظفي القنصلية، وأودعتهم السجن، وأمرت باي قسنطينة بمهاجمة المؤسسات الفرنسية بالقالة وعنابة، فردت فرنسا على ذلك باعتقال يعقوب كوهين بكري وسيمون أبو قاية بباريس إلى أن تم إطلاق سراح القنصل الفرنسي ورفاقه بالجزائر يوم 02 فيفري 1799م[294]

وخلال هذه الفترة الحرجة عين نابليون القنصل ديبوا تانفيل[295] خلفاً للقنصل مولتدو[296] في منتصف سنة 1798 إلاّ أنه لم يلتحق بمنصبه حتى تم إرسال تعليمات له بالالتحاق في ربيع 1800م حاملاً رسالة[297] نابليون للداي مصطفى باشا[298]، أوضح فيها أن حالة الحرب

---

[291]– م. ك. و، مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 65.

[292]– وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 217.

[293]– جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619– 1830، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 22.

[294]– يحي بوعزيز، علاقات الجزائرية الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500– 1830، ديوان المطبوعات الجامعية، ين عكنون، الجزائر، ص 112.

[295]– **فرنسوا ديبوا تانفيل:** عين قنصلاً عاما وقائما بأعمال الجمهورية الفرنسية بالجزائر في يوم 05 أفريل 1800 ،واستمر في هذا المنصب إلى غاية 1814، و كان سبباً في تدهور العلاقات الجزائرية الفرنسية، كما طلب السلطات الفرنسية بإرسال حملة تأديبية للجزائر إلا أن نابليون رفض نتيجة الظروف التي تعيشها فرنسا.

[296]– **ماري مولتدو:** عملا قنصلا عاما لفرنسا بالجزائر ما بين 1798– 1800.

أنظر : – De Grammont (H–D), OP .CIT, Pp 355 – 357.

[297]–Ibid, 356.

القائمة بين البلدين لا تستمد جذورها من العلاقات الخاصة بين الجزائر وفرنسا، ولذلك فإن استمرار القطيعة بينهما ليس لها مبررها الآن[299]، ولم يصل ديبوا تانفيل إلا بصعوبة نظراً للحصار الذي فرضته الأساطيل الانجليزية على الشواطئ الفرنسية.

وقد عمد هذا الأخير إلى إقناع الداي بالتأكيد على أن حكومته لم تكن لها أية نية عدوانية ضد أي بلد إسلامي، وأن فرنسا لم تكن تستهدف من وراء هذه الحملة سوى النيل من مصالح الانجليزية وتهديدها، وردا عن تساؤل الداي حول سبب عدم خروج الفرنسيين من مصر؛ أجاب تانفيل بأن الانجليز هم الذين عرقلوا هذا الجلاء بدفع الأتراك إلى نقض اتفاق العريش، وبعد هذه التوضيحات نجح تانفيل في عقد هدنة غير محدودة الأجل يوم 18 جويلية1800، وتحت ضغط الدولة العثمانية اضطرت الجزائر إلى إعلان الحرب على فرنسا[300] بعدما استدعى الداي مصطفى القنصل الفرنسي في الجزائر وطلب منه مغادرة الجزائر مع الرعايا الفرنسيين، كما وجه رسالة لنابليون في 13أفريل 1801 شرح له فيها الأسباب التي أجبرته على إعلان الحرب على بلاده، وطلب منه أن يعد أسطوله لمواجهة الأسطول العثماني الانجليزي الذي قرر السلطان إرساله إلى الجزائر[301]، إلا أن هذا القرار الذي اتخذه الداي مصطفى لقي معارضة شديدة، وكاد أن يكلفه حياته بتحريض الأميرال كيت والقنصل الانجليزي فالكون لبعض أفراد الجيش لاغتياله يوم 18 سبتمبر1801م[302]، وبعد أشهر قليلة عادت العلاقات الجزائرية الفرنسية إلى طبيعتها، وتم إبرام معاهدة سلم في

---

[298]– **مصطفى باشا:** عهد إليه عمه حسن باشا منصب الخزناجي، كما أن بوشناق توسط له للحصول على منصب الداي لأنه باستلام مصطفى باشا هذا المنصب يزداد نفوذه، لكن مصطفى باشا لم يرغب باستلام هذا المنصب لأنه حساس ومهلك لذلك أوصى بانتخاب أغا السبايحية إلا أن توصيته رفضت وعين دايا للبلاد ما بين، كان مصطفى باشا رجلاً طماعاً حيث استولى

[299]– حمال قنان، المرجع السابق، ص 230.

[300]– يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 349.

[301]–(E) Plante، Correspondances Des Deys D'Alger Avec La Cour De France ،2t .éD.Bouslama،Tunis ،1981، p 463 .

[302] – De Grammont (H-D), Op, Cit, P 357 .

يوم 17 سبتمبر 1801، وبعدها قام الداي مصطفى بطرد القنصل الانجليزي فالكون من الجزائر[303].

لكن سرعان ما شهدت العلاقات الجزائرية الفرنسية نوعاً من التوتر أدى إلى القطيعة بينهما بسبب الاعتداءات التي قام بها بعض الجزائريين ضد السفن الفرنسية[304]، فأرسل مذكرة شديدة اللهجة إلى الداي يطلب فيها باسم القنصل الأول بونابرت معاقبة المسؤولين عن هاته الأعمال، كما أرسل بونابرت رسالة إلى الداي مملوءة بالتهديد والوعيد، كما حذره من بعض وزراءه الذين يحرضونه ضد فرنسا[305]، ثم عمد يهدد بغزو الجزائر وتخريبها إذا رفض الداي مطالب فرنسا المتمثلة في تقديم التعويضات عن الخسائر[306]، إلا أن الداي وافق على مطالب فرنسا من خلال رسالة بعثها إلى نابليون في 12 أوت 1802م[307] بسبب الأوضاع التي كانت تشهدها الجزائر، ومهما كانت الأسباب فإن نابليون عقد العزم على شن حملة عسكرية ضد الجزائر، ولكنه تراجع عن قراره بسبب التطورات الخطيرة التي طرأت على الساحة الأوروبية[308]، إذ تم في عام 1803م فسخ صلح أميان[309]، فتجددت الحروب بين الدول الأوروبية وإستطاع الأسطول الانجليزي أن يهزم الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر Trafalgar في عام 1805م فاستولى الداي أحمد على المؤسسات التي كانت بحوزة

---

[303]– أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد شريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ويليه محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766– 1791، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر، ص 78.

[304]– أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 238.

[305] – Plantet, Op. Cit, P, 500 .

[306]– Ibid, P 502.

[307] –Ibid, P 504 .

[308]– De Grammont (H–D), Op, Ci 354– 360.

[309]– تم توقيع صلح أميان في ماي **1802**، وقد نصت هذه المعاهدة على عودة العلاقات السلمية بين البلدين و إقرار وتثبيت المعاهدات السابقة المبرمة بينهما، كما تعهدت الجزائر بالسماح للوكالة الإفريقية باستئناف استغلالها لامتياز الباستيون، ورفع الحراسة على ممتلكاتها، وأموالها بعد استخلاص مستحق الخزينة من العوائد المتأخرة التي لم تدفع حتى تاريخ الحرب، وتعهدت فرنسا من جهتها بتسديد ديون الرعايا الجزائريين، كما نص الاتفاق على ارسال مبعوث إلى فرنسا بصفته سفيرا. **للمزيد أنظر:** جمال قنان، المرجع السابق، ص 237.

فرنسا في السواحل الجزائرية وأجرّها للإنجليز عام 1807م[310]، ولماّ وصلت الأمور إلى هذا الحد من التدهور، عزم نابليون على استعمال المزيد من التلاعب، ومنطق القوة[311]، فقام بإرسال الضابط بوتان[312] في مهمة تجسسية إلى الجزائر، وجمع معلومات عسكرية واقتصادية وسياسية على درجة كبيرة في الخطورة والأهمية، وقد ساعده القنصل تانفيل في إنجاز هذه المهمة[313]، حيث استغل معرفته بالبلاد والناس لتمكينه من زيارة الحصون ومرابض المدافع إلى درجة أنه أثار الشبهة وهُدد بالقتل، وقد تمكن بوتان من إنجاز مهمته بكل جدارة واستحقاق، وفي طريق عودته إلى فرنسا اعتقله الانجليز، إلا أنه تمكن من الفرار والعودة إلى فرنسا حيث عمل على وضع تقرير مفصل عن الجزائر، وألحقه بمجموعة من الخرائط توضح فيها السواحل والتحصينات وعدد القوات الفرنسية الضرورية لاحتلال الجزائر[314]، إلا أن هذا التقرير[315] لم يُعمل به إلا في حملة 1830م، وعلى أية حال فإن

---

[310]– المرجع السابق، ص 141.

[311]– يحي بوعزيز، علاقات الجزائرية الخارجية مع دول ومماليك أوروبا 1500– 1830، المرجع السابق ، ص **112**.

[312]– **بوتان VINCENT – IVES BOUTIN**: ولد في الفاتح جانفي 1772م، ينتمي إلى عائلة برجوازية صغيرة ومثقفة، تلقى تربية دينية مسيحية، وتحصل على شهادة معلم في الفنون الجميلة في جويلية 1791م، كما أنهى دراسته الكلاسيكية وهو في السن التاسع عشر، كما نجح في امتحان القبول في المدرسة العسكرية للهندسة، وتم قبوله وضمه إلى الجيش في 17 سبتمبر 1793م برتبة ملازم، وهناك تعلم الاستحكام والتحصين وكيفية الهجوم وطريقة الدفاع والطبوغرافية النظرية والتطبيقية، **أنظر**: بنور فريد، المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782 – 1830، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 355– 359.

– هناك رسالة من أغا العرب بالجزائر إلى وكيل سيد مصطفى وكيل الجزائر في الإسكندرية تؤكد على الجزائر كانت تعلم بخبر الجاسوس الفرنسي الذي دخل الجزائر ثم غادرها إلى طولون، أنظر: المكتبة الوطنية الجزائرية: مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 115. وفي رسالة أخرى من مصطفى رايس قائد سفينة مفتاح الجهاد بالإسكندرية إلى حسين باشا في 27 فيفري 1830م قال فيها إن ذلك القائد (الجاسوس) الفرنسي دخل الجزائر بزي رجل عربي، وأقام بها ثلاث وعشرون يوماً، ثم انتقل إلى طولون، ثم إلى الإسكندرية.

أنظر: لمكتبة الوطنية الجزائرية: مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 350.

[313] – أرزقي شيوتيام، المرجع السابق، ص 239.

[314] –Boutin, Reconnaissance Des Villes, Fortes Et Batteries D'Alger Le Chef De Bataillon Boutin (1808), Publie Par Esquer Gabriel, Champion, Paris, 1927, **P** 89

[315]– أكد التقرير الذي أعده بوتان أن هناك نقطتين أساسيتين سوف تساهمان في إنجاح الحملة، وهما اختيار المكان المناسب لإنزال القوات، والمتمثل في ساحل سيدي فرج محذراً من العيوب والمخاطر الإنزال في شرق العاصمة، =

نابليون لم يتمكن من تنفيذ مشاريعه وتحقيق أطماعه الرامية لاحتلال البلدان المغاربية[316] بسبب الظروف التي لم تسمح له بأن يجرب حظه في هاته المحاولة، والمتمثلة في تدهور الأوضاع أمامه في إسبانيا، وما أعقب ذلك من ظهور مقاومة وطنية في العديد من البلدان الأوروبية ضد الهيمنة، وسرعان ما أدى ذلك إلى اندلاع حرب قارية جديدة، والتي لم تنتهي بالرغم من المعاهدات المبرمة والتحالفات التي عقدت إلا بسقوط نابليون في شهر أفريل 1814م، ومن جهة أخرى فإن السلطات الجزائرية لم تكن تخشى نابليون، ولم ترتعد من احتمالات قيامه بمجرد حملة ضد الجزائر.

تميزت العلاقات الجزائرية الفرنسية بين عامي 1808م و1814م بنوع من المد والجزر، والتأرجح ما بين الهدوء والتوتر، وذلك حسب المصالح الخاصة لكل دولة، وبعد عودة الهدوء إلى أوروبا على إثر سقوط نابليون وعودة البوربون[317] إلى عرش فرنسا بادر

= وتحديد الوقت المناسب لإنزال الذي كان بين شهر ماي حتى شهر أكتوبر، ولكن أفضل فترة هي التي تقع ما بين 10 ماي و10 جوان، قد تضمن هذا التقرير إلى جانب المعلومات العسكرية معلومات ذات أهمية كبيرة تخص الوضع السياسي والاقتصادي والعسكري والمالي والاجتماعي، **وللمزيد أنظر** « Mémoire De Boutin 1808 »

316– أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 177.

317– **البوربون:** اسم أسرة مالكة فرنسية حكم بعض أفرادها فرنسا وإسبانيا ونابولي، يرجع اسم الأسرة إلى بلدة صغيرة بوسط فرنسا تعرف باسم بوربون لار شامبو، في فرنسا، حكم ملوك بوربون بين عامي 1589 و1792م وهي الفترة التي كان لفرنسا فيها الأثر الأكبر على سياسة أوروبا وثقافتها، وفي عام 1814م وبعد سقوط نابليون استعادت أسرة بوربون عرش فرنسا، ولكنها فقدته أثناء ثورة 1848م، أما في اسبانيا بدأ ملوك بوربون في حكم إسبانيا في القرن الثامن عشر الميلادي، عندما نصب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر حفيده الذي يحمل اسم فيليب الخامس ملكًا، وبهذا بدأ تحالف بين المملكتين، الأمر الذي كان له، أكبر الأثر على سياسات القوى الأوروبية، وكذلك على انتقال الممارسات الإدارية الفرنسية إلى إسبانيا، وفي نابولي كان شارلز الثالث ابن فيليب الخامس ملك إسبانيا أول ملك من أسرة بوربون، وقد حكم بين عامي 1735 و1759م، عندما أصبح ملكًا لإسبانيا، وتميز عهده بالإصلاح السياسي والتقدم الثقافي، وقد اعتلى فرديناند الرابع الابن الثالث لتشارلز الثالث" عرش نابولي عام 1759م في سن التاسعة، وحكم في بداية الأمر بمعونة مستشارين، إلا أنه وقع في نهاية الأمر تحت سيطرة زوجته الطموحة ماري كارولين، وقد أبعده نابليون بالقوة عن العرش عام 1806م، ولكنه عاد عام 1815م، كفرديناند الأول ملك الصقليين، وحكم حتى عام1825 م.

الملك لويس الثامن عشر[318] بإرسال رسالة إلى الداي في 20 ماي 1814م يبين فيها رغبته في السير على خطى أسلافه من أجل السلام والمحبة بين فرنسا والأمم الأجنبية[319].

ب- مخططات ومشاريع فرنسا لاحتلال الجزائر:

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن بسبب خلاف حاد بين الدولتين أو حادثة معينة، بل كان مبنيا منذ أمد بعيد، كما كان نِتاجاً وثمرةً لسياسة استعمارية تبلورت في أذهان ملوك وأباطرة فرنسا طيلة ثلاث قرون أو أكثر[320]، فقد كانت مخططاتها ترجع إلى عهد لويس التاسع(1226م ـ 1270م)[321]، وهكذا فإن الاحتلال يندرج في إطار استراتيجية، ونظرة سياسية بعيدة المدى تعكسها الخطط العسكرية الفرنسية التي جاءت في شكل مذكرات ومشاريع وتقارير ورسائل رسمية، نذكر منها مشروع **دوكيرسي** DEKERCY في عام 1782م و 1792م ويعتبر من أهم المشاريع الفرنسية في القرن الثامن عشر[322]، إلا أن الحكومة الفرنسية لم تتمكن من تنفيذه بسبب انشغالها بأمورها الداخلية، وزيادة على ذلك علاقاتها مع الجزائر التي شهدت نوع من التحسن في ذلك الوقت[323]، وكان إلى جانب دوكيرسي شخص آخر له نفس التفكير وهو **فونتور دي بارادي** حيث عمل مع دوكيرسي كمترجم في الجزائر لأنه كان يجيد اللغة العربية واللهجات البربرية، وهو الآخر كتب عام 1789م مذكرات كاملة عن مدينة الجزائر، وعن سكانها وإدارتها ومواردها وتجارتها وقواتها البرية والبحرية، وقد تعرض في آخر مذكراته إلى مشروع احتلال الجزائر من خلال قوله:"

---

[318]- لويس الثامن عشر(1824 - 1755) : هو أخو لويس السادس عشر ويُعد تسلّمه للمُلك إعادة للملكية في فرنسا بعد نشوب الثورة الفرنسي .

[319]- جمال قنان، المرجع السابق، ص 139.

[320] بنور فريد، ، المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782 – 1830، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 582.

[321]-Charles Roux, France Afrique Du Nord Avant 1830, Les Précurseurs De La Conquête , Felix Alcan, Paris, 1932, P 9.

[322]- بنور فريد، المرجع السابق، ص 126.

[323]- أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830، المرجع السابق، ص 173.

لكن الأحسن من ذلك النزول في الشاطئ الموجود بين رأس كاكسين وسيدي فرج، فمن هناك يمكن الاستيلاء على الجزائر من المؤخرة التي ليست محصنة على الاطلاق"[324]، وفي 03 جويلية 1797م قرأ تليران أمام معهد فرنسا دراسته التي تحمل عنوان:**" محاولة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من انشاء مستعمرات جديدة في الظروف الراهنة"**، وقد تعرض في دراسته إلى أهمية شواطئ المغرب العربي، وبعد أيام قليلة أصبح تليران وزيراً للخارجية الفرنسية وبالتالي سوف يعمل على توجيه السياسة الخارجية الفرنسية نحو هذه الأفكار، وكان ذلك فعلاً خاصة بعد احتلال نابليون لجزيرة مالطا التي تعتبر منطلقاً جيدا وقريبا من السواحل المغاربية من أجل احتلالها، إلا أن الظروف حالت دون ذلك، إلا أن فكرة احتلال دول المغرب العربي قد ترسخت في ذهن نابليون بعد احتلاله لمصر، ورغبته في جعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية، لكن الباب العالي حال دون ذلك من خلال إجبار الدول المغاربية على قطع علاقاتها مع فرنسا بسبب حملتها على مصر وتدخل بريطانيا أيضا التي كانت المنافس العنيد لفرنسا، وبعد عودة نابليون إلى فرنسا، والذي لم يتوقف عن التفكير في غزو الجزائر وباقي الدول المغاربية فطلب من الفرنسيين المقيمين في الجزائر والأسرى والقناصل والمبعوثين الدبلوماسيين تزويده بمعلومات عن الجزائر، كما أرسل بعثات لاستكشاف أحوال البلاد ورسم خرائط جغرافية، وكنتيجة لهذا أعد القنصل الفرنسي في

---

[324]– مبارك الميلي، ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، د.ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص 276– 277.

الجزائر **جون بون سان أندري**[325] مشروعا لاحتلالها[326] عام 1799م ـ 1802م من خلال توجيه ضربة قوية وسريعة للجزائر في مدة ثمانية أيام[327].

كما قدم **تيدانا**[328] THEDENAT عام 1802م مشروعا اقترح فيه إنزال القوات الفرنسية بضواحي مدينة تنس لتزحف بعد ذلك نحو مدينة الجزائر عبر سهل ومرتفعات مليانة[329] من خلال مذكرة قدمها إلى الوزارة الخارجية تحمل عنوان **" نظرة على نيابة الجزائر"** ، رغم أهمية هذه المخططات إلا أنها لم تنفّذ لأن أنظار نابليون بونابرت كانت موجهة نحو سان دومنغو بأمريكا والهند بأسيا[330]، إلاّ أن هذه المذكرات والرسائل قد عززت لدى نابليون فكرة احتلال الشمال الإفريقي عامة والجزائر خاصة، ويظهر ذلك من خلال رسالة وجهها إلى دوكيرسي يقول فيها:**" فكروا في حملة ضد الجزائر سواء من ناحية البحر**

---

[325]– **جون بون سان أندري JEAN BON SAINT ANDRE:** ولد يوم 25 فيفري 1749م بمدينة مونتوبون جنوب فرنسا، تلقى تربية دينية في صغره فأصبح راهبا بروتستانتيا بتلك المدينة، وكان من مؤيدي مبادئ الثورة الفرنسية، فقد عين نائبا في مدينة لوت **Lot**، وفي 31جوان 1794م عين عضوا في لجنة الخلاص العام، ومارس أيضا النشاط العسكري، وفي جوان 1796م عين قنصلا عاما في الجزائر، **للمزيد أنظر:** بنور فريد المرجع السابق، ص 249 ـ 252.

[326]– Charles Roux, France Afrique Du Nord Avant 1830, Les Précurseurs De La Conquête, Felix Aican, Paris, 1932, p 476.

[327]– والملاحظ من خلال هذا المشروع أن صاحبه استخف بالقدرات الجزائرية وقواتها، وفطنة حكامها وبسالة جنودها المستميتة في الدفاع عن الوطن، وأنها قادرة على مواجهة تحالف يضم أكثر من دولة والتاريخ يثبت ذلك، وأن احتلال الجزائر في ثمانية أيام لا يستوعبه العقل ومن الجيد أن الحكومة الفرنسية لم تعمل على تنفيذه، لأن الجيش الفرنسي الذي كان يقوده الجنرال دبرمون احتاج إلى ثلاث أسابيع وأزيد من ذلك لاحتلال مدينة الجزائر بغض النظر عن فترة الحصار التي دامت ثلاث سنوات.

أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800– 1830، المرجع السابق، ص 174.

[328]– **تيدانا:** ولد سنة 1757م بمدينة أوزيس بفرنسا كان تاجر، وقع في لأسر من قبل الجزائريين يوم 02 أفريل 1779م، ووظف في قصر محمد باي معسكر الذي كان يثق به، وتربطه علاقة جيدة حيث قلده منصب خازندار ، وتم تحريره في 22 أكتوبر 1782م، وبعد عودته إلى فرنسا تقلد عدة مناصب أهمها مندوبا للعلاقات التجارية، للمزيد أنظر: « Mémoire De Thedenat »

أنظر أيضا بنور فريد، المرجع السابق، ص 292– 252.

[329]– أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800– 1830، المرجع السابق، ص 174.

[330]– بنور فريد، المرجع السابق، ص 292.

أو من ناحية البر... لن أطلب منكم الجواب إلا في ظرف شهر، حتى لا تكون هناك " لكن أو لو أو لأنه"... ابعثوا أحد مهندسكم سراً إلي السيد تنافيل ويجب أن يكون هذا المهندس قد اشتغل ضابطاً بحرياً ومهندساً برياً، ويجب أن يتجول بنفسه داخل الأسوار وخارجها، وعندما يدخل منزله يدونها، حتى لا يقدم لنا أحلام..."، وقد وقع الاختيار كما ذكرت سابقا على بوتان[331]، حيث تنكر هذا الأخير في الزي المدني وتوجه إلى الجزائر، وبعد أن ضبط بوتان تقريره، أضاف القنصل ديبوا تنافيل مذكرة أخرى تتعلق بالجانب السياسي نص فيها على أهمية شيوخ الزوايا، وما لهم من دور مهم ونفوذ لدى الأهالي[332]، وكل هذه المشاريع لم تنفذ بسبب الظروف التي عرفتها فرنسا خلال تلك الفترة، وانهزام نابليون أما التحالف الأوروبي عام 1815م، وعودة أسرة البوربون إلى الحكم، إلا أن فرنسا لم تتخلى عن فكرة احتلال الجزائر من خلال جملة من المشاريع عرفت بمخططات شارل العاشر التي لو تحدثنا عليها لطال بنا الحديث لهذا سوف نتعرض لها بذكر أصحابها والوقت الذي أنجزت فيه على النحو التالي[333]:

1- مشروع 08 جوان 1827م.
2- مشروع ليني دوفيليفيك Lainé Villevéque 10 جويلية 1827م.
3- مخططي بيار دوفال Pierre Deval 28 ديسمبر 1819م و07 أوت 1827م.
4- مشروع جوزيف كولي Joseph Collet 10 أوت 1827م.
5- مشروع باربيي دوبوكاج Barbi Du Bocage 30 أوت 1827م.
6- مشروع دوبوتي توار Depetit Thouars 20 سبتمبر 1827م.
7- مشروع شابرول 22 أوت 1827م.
8- مشروع كايرمون تونير Clermment Tonnerre 14 أكتوبر 1827م.
9- مشروع دي لافروني De La Ferronays 19 جانفي 1828م.

331- Meulay Belhamissi, Alger l'Europe Et La Guerre Secrète (1815- 1830), Editions Dahlab, Alger, 1988, Pp 204- 205.

332- مبارك الميلي، المصدر السابق، ص 281- 283.

333- بنور فريد، المرجع السابق، ص 709- 710.

10-مشروع اللجنة العسكرية 10 أكتوبر 1828م.

11-مشروع دولابرو تونيير De La Bretonniére 1829م.

12-مشروع محمد علي 1829م لاحتلال الجزائر: والذي يهمنا في درستنا والذي سنتعرض اليه بالتفصيل هو مشروع محمد علي باشا لاحتلال الجزائر

رغم هذه المشاريع والمخططات الفرنسية سابقة الذكرى من أجل احتلال الجزائر إلا أنّها كانت متخوفة من الإقدام على هذه المحاولة نظرا لشجاعة وإستبسال الجزائريين في الدفاع عن وطنهم[334]، لذلك طرح القنصل الفرنسي في مصر **دروفيتي Drovetti** على الحكومة الفرنسية سنة 1826م أن محمد علي بإمكانه القيام بمشروع احتلال الإيالة بدلاً من فرنسا[335]، بينما تقتصر مهمة فرنسا على مساعدته ماديا ودبلوماسيا، وأن هذه الحملة سوف تشغل محمد علي عن سوريا من جهة وتعكير صفو علاقاته مع الدول المغاربية من جهة أخرى، لكن محمد علي رفض في البداية هذه الفكرة لكنه اقتنع في الأخير بها بعد شرح مطول من قبل دروفيتي، وفي المقابل تخوفت الحكومة الفرنسية من نتائج ذلك، لكن دروفيتي لم ييأس فقد عاود طرح فكرته من جديد عام 1829م في شكل مشروع مفصل، فرحب **بولينياك** رئيس وزراء فرنسا بهذا المشروع لتطابقه مع مشروعه الذي أعده سنة 1814م، والذي كان يهدف إلى ربط مسألة البلدان المغاربية بالمسألة المصرية[336] لثلاث أسباب وهي: أولا فتح طريق مصر من جديد لفرنسا، ثانيا تحميل تكاليف الاحتلال لمحمد علي، وثالثا التخوف من تعبئة الجزائريين في المعركة ضد المسيحيين أما محمد علي فهو مسلم ولن يتجند ضده الجزائريين مقارنة مع فرنسا[337].

يذكر القومندان جورج داون فى كتابه "مشروع حملة محمد على باشا على الجزائر" تفاصيل المشروع، فيقول إنّه فى الوقت الذى كان محمد على عازمًا على غزو بلاد الشام،

---

[334]- مبارك الميلي، المصدر السابق، ص 287.

[335]- Charles Féraud, Op. Cit, P **617**.

[336]- أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830، المرجع السابق، ص 178-179.

[337]- مبارك الميلي، المصدر السابق، ص 287.

فخرج القنصل دروفيتي صاحب الثقة العمياء لدى محمد على ليثنيه عن هذه الخطة ويصرف أنظاره إلى غزو بلاد البربر، مقترحًا عليه المشروع الذى كان قد اتفق من خلاله مع الحكومة الفرنسية، على أساس أنّه يوطد علاقة محمد على مع أوروبا مع تحاشى إثارة حفيظة الباب العالي فى الوقت نفسه، على أن تحتفظ فرنسا بامتيازاتها الاقتصادية والعسكرية بالجزائر[338].

أما بالنسبة للموقف المصري من المشروع الفرنسي، فإن محمد علي كان قد رحّب في بادئ الأمر بهذا المشروع، ووافق على ضم الجزائر[339]، وقد راقت له فكرة القنصل الفرنسي دروفيتي، لأنه كان يرى بأن توسعه نحو أفريقيا سوف يجلب له مكاسب كبيرة [340]، كما فكّر محمد علي باستشارة بريطانيا في هذا الأمر لضمان عدم معارضتها، وفي تلك الأثناء أخبر دروفيتي الحكومة الفرنسية بأن الوالي على أهبة الاستعداد للقيام بتنفيذ المشروع[341]، وبالفعل دارت المفاوضات بين الجانبين الفرنسي والمصري وتم الاتفاق مبدئياً على عدة بنود أهمها:

1-يقوم محمد علي بالحملة بمفرده معتمداً على الجيوش التي سيقودها ابنهُ إبراهيم باشا، أما عن مهمة القوات الفرنسية فإنها تكتفي بفرض الحصار على الشواطئ الإفريقية على أن تنهي هذا الحصار وتسحب قواتها البحرية متى ما رأى إبراهيم باشا أنه بات في غنى عنها[342].

---

[338] – القومندان جورج دوان، مشروع محمد علي على الجزائر 1829-1830، تر: عثمان مصطفى وعبد الرءوف أحمد عمرو، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص ص 15- 27.

[339]– محمد علي الغتيت، المصدر السابق، ص194.

[340]– ياسين سويد، المصدر السابق، ص3.

[341]– رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص92.

[342]– كانت رغبة محمد علي في هذا الاتفاق تتمثل بقيادة الحملة على الجزائر بمفردهِ دون اشتراك فرنسا فيها، وذلك حتى لا يتعرض للسخط والمعارضة من قبل العالمين العربي والإسلامي بسبب تحالفه مع قوة اوربية ضد بلد عربي ومسلم مثل الجزائر، مما قد يؤدي إلى ضعف نفوذه والقضاء على مشاريعه السياسية، في الوقت الذي يسعى فيه لتجنب هذا السخط حتى يتسنى له تحقيق أغراضه السياسية. للتفاصيل ينظر: سليمان بن محمد الغنام، المصدر السابق، ص83؛ محمد علي الغتيت، المرجع السابق، ص195.

2- تقدم فرنسا مساعدات عسكرية لمصر تتمثل بأربع سفن حربية كبيرة[343] وثمانون مدفعاً من الطراز الحديث[344]، وان تقرضه مبلغا قدره 21 مليون فرنك يسددها في غضون أربع سنوات[345]. كما تتعهد فرنسا بأن تقدم لمصر إذا دعت الضرورة ضباطاً وخبراء في مجالي سلاح المدفعية والهندسة العسكرية.

3- كما تضمن هذا الاتفاق بأن تتعهد فرنسا بحماية مصر من أي اعتداء قد يقع عليها، وبالمقابل يتعهد محمد علي بأن يقيم في أفريقيا الشمالية حكومة على غرار الحكومة المصرية، وتحصل فرنسا على امتيازات كبيرة فيها[346].

كانت هذه أهم البنود التي عرضها محمد علي في مفاوضاته مع فرنسا بصدد الحملة على الجزائر، غير أن بولينياك رئيس الحكومة الفرنسية أعلن موافقة حكومته واستعدادها لمنح مصر المساعدات المالية والعسكرية التي طلبها محمد علي مقابل اشتراك فرنسا إلى جانب مصر في حملتها على الجزائر، وعدّت ذلك شرطاً أساسيا لا مناص منه بالنسبة لفرنسا، وقد أصبح هذا الشرط فيما بعد نقطة الخلاف الرئيسية بين الطرفين[347] .

لكن هذا المشروع فشل قبل البدء فيه، لأن محمد علي اشترط على فرنسا أن يملكونه السفن التي كان من المقرر أن تسلف له، من أجل حمل الجنود والعتاد والمؤن بحجة أنه لا يستطيع أن يتقدم أمام المسلمين تحت راية مسيحية، وكذلك طلب الباب العالي من محمد علي التخلي عن المشروع تحت تأثير الانجليز[348]، إضافة إلى إعتبار بعض السّاسة الفرنسين الشروط التي قدمها محمد علي هي بمثابة إهانة لشرف فرنسا، وبعد فشل هذا

---

[343]- سليمان بن محمد الغنام، المرجع السابق، ص83.

[344]- رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص92.

[345]- هنالك من يشير إلى إن مبلغ القرض الذي طلبه محمد علي في البداية كان مقدارهُ ثمانية وعشرون مليون فرنك، ومن ثم ارتفع إلى مائة مليون فرنك. للتفاصيل ينظر: سليمان بن محمد الغنام، المصدر السابق، ص83.

[346]- سليمان بن محمد الغنام، المرجع السابق، ص84.

[347]- محمد علي الغتيت، المرجع السابق، ص195.

[348]- المصدر نفسه، ص 287- 288.

المشروع شرح محمد علي للفرنسيين سبب رفضه الذي يعود لأسباب أخلاقية ودينية في قوله:**" ولكني أضيع ثمرة أعمالي كلها إذا قبلت حلفا كالذي تعرضونه علي، فأفقد شرفي أمام أبناء جلدتي وديني فيحتقروني، ولا تظنوا أنني أسلك هذا المسلك عن تعصب ديني، فإنني معروف بسموي على كل تعصب..."**[349]،وبعد فشل مشروع محمد علي[350] قررت فرنسا ضرورة القيام بالحملة ضد الجزائر في 31 نوفمبر 1830م[351].

وإذا كانت فرنسا لم تكسب إقحام قوة محمد علي في المغرب العربي الإسلامي، فيكفيها منه أنها عزلت المغرب العربي الإسلامي عن الإمبراطورية العثمانية، وضمنت حياد قوة مصر عند تدخلها ضد دول المغرب.

لاحظنا من هذا المبحث دليل واضح على المؤامرة التي كانت تحيكها الدول الغربية من أجل القضاء على وحدة الدول العربية الاسلامية من خلال استغلال الولاة وطموحهم في ضرب بعضهم البعض دون أن تخسر شيء، وحتى تنفرد هي بالقمة والسيادة مع العمل المستمر على اضعاف القوى والشعوب الاسلامية.

وفي نهاية هذا المبحث توصلنا إلى أن السياسة التوسعية التي انتهجها محمد علي والتي كانت علي حساب الإمبراطورية العثمانية وورثتها الاحتماليين- من القوي الاستعمارية- أثارت مخاوف القوي الأوروبية وعلى الأخص القوة التي كان لها الهيمة في تلك الآونة، أي بريطانيا فوقعت مع تركيا في 1838م معاهدة بمقتضاه؛ تعامل السلع البريطانية معاملة تفضيلية في أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد رفض محمد علي تنفيذ أحكام هذه الاتفاقية واستمر في إتباع السياسة الحمائية للمنتجات المصرية ليس فقط داخل حدود مصر وإنّما كذلك داخل حدود البلدان التي كان يسيطر عليها. مما لجأت إلى التدخل

---

[349]- أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830، المرجع السابق، ص 181.

[350]- (G)Douin, Mohamed Ali Et L'Expédition D'Alger 1829- 1830, Inst. Français D'arch. Orientale, Le Caire, 1930, **p 56- 78**.

[351]- (H-D). De Grammont, op cit, p393.

السريع واقناع الدول الكبرى الأخرى بضرورة الوقوف ضد محمد علي وتوسعاته، وهذا ما سنتطرق اليه في الفصل الموالي والأخير.

خلاصة الفصل:

من خلال هذا الفصل توصلت دراستنا إلى الإجابة عن بعض التساؤلات التي أثارت الجدل حول سياسة محمد علي باشا الخارجية والتوسعية على حساب بلاد الشام والسودان والخليج العربي وأهداف الباشا في محاولة اقامة امبراطورية عربية، وكانت الاجابة كالآتي:

1.إن فكرة انشاء دولة عربية أو وحدة عربية تجمع بين أركانها مناطق متعددة هي كفكرة لم تكن مطروحة في ذلك الوقت، فالعلاقات المصرية العثمانية كانت جيدة والولاء محمد علي باشا كان ينفي تلك الأفكار ويعارضها، فإنشاء مثل هذه الدولة العربية سيكون حتما على حساب هذا الولاء، بالإضافة إلى أن الأفكار السائدة في مصر في ذلك الوقت نتيجة طبيعة المكونات الثقافية بها كانت تجعل الفكرة الإسلامية هي الفكرة المتفوقة على ما عادها من أفكار وحدوية عربية بدليل أن الجامع الأزهر كان هو الجامعة الفكرية الوحيدة في مصر، والذي يعمل على تخريج مثقفين التي تصبغ على أفكارهم الصيغة الاسلامية أكثر من الأفكار الأخرى حيث كان محمد علي يدرك ذلك كل الادراك، فمشروعاته التوسعية التي قام بها كان تدور كلها في الفلك الإسلامي وتحت زعم النهوض بالدولة العثمانية وإصلاحها لا انقلاب عليها أو الخروج عن اطارها.

2.إن أفكار الوحدة العربية لم تظهر في ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر بل كانت مرتبطة أكثر بظهور الاستعمار الأوروبية، كما كانت وثيقة الصلة بالولايات العربية الآسيوية مثل مصر والشام التي تأثرت بالثقافات الأجنبية الوافدة كما ذكرنا سابقا، فلم تكن مصر بعيدة عن التيارات العربية ومرتبطة أكثر بالأفكار الإسلامية في ذلك الوقت.

3.كما يرى بعض المؤرخين أن أهداف محمد علي باشا تنطوي على أهداف استعمارية بدليل أن محمد علي باشا اعتمد في سياسته على احتكار في مصر وخارج مصر مثل الشام، واستخدم القوة في قمع الثورات، لكن الاستعمار بشكله الحالي أو بالشكل الأوروبي لم يظهر في ذلك الوقت نظراً لارتباط فكرة الاستعمار بالثورة الصناعية التي أدت الحاجة إلى أسواق خارجية واسعة لتصريف منتوجاتها وحاجة إلى مواد الخام.

4. شكل وصول محمد علي باشا للحكم الحلّ الأمثل للتّنافس السلمي على مصر في النّواحي الاقتصادية والسياسية والثّقافية بين فرنسا وبريطانيا والذي عكس الأجواء التي سادت أوروبا بعد انتهاء الحروب النابليونية عام 1815م ، حيث مثّل الاستقرار الذي فرضه محمد علي على الحالة المصرية ومراعاته للتوازنات الدولية عاملاً مهماً في درء خطر الغزو الأوروبي المباشر لبلاده، فحاول الباشا الاستفادة من هذه الأوضاع الجديدة ليعمل على بناء دولته الحديثة على النمط الأوروبي ويعزز من قوته بخوضه حروباً إقليمية توافقت في بعض جوانبها مع مصالح الدولة العثمانية وبريطانيا وحتى فرنسا، معتمداً على تمويل مشاريعه تلك من زيادة دخل خزينته من التجارة مع أوروبا وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا التي نجح بتسويق منتجاته الزراعية وعلى رأسها القطن والحبوب في أسواقها، بالإضافة لتدفق الخبراء الأجانب من الدّولتين إلى إداراته الحكومية وإرسال الطلاب المصريين في بعثات علمية إليهما، إلّا أن تزايد قوته و نزعته الاستقلالية و سياسته الاحتكارية على الصّعيد الاقتصادي ألّبت عليه عداء القوى الرأسمالية الأوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا.

5. ألحق التّوافق السياسي بين فرنسا وبريطانيا في بعض القضايا أشد الضرر بمصالح محمد علي كما حدث في معركة نفارين البحرية والموقف من ضمه ولايات بلاد الشام إلى دولته وقضية استقلاله عن الدّولة العثمانية، كما أثر التنافس الشديد بين الدولتين على إعاقة بعض مشاريع التحديث التي أراد محمد علي تنفيذها في بلاده لاسيما مشاريع المواصلات الدولية العابرة للبحار والأراضي المصرية كفتح قناة برزخ السويس وخط سكة حديد الإسكندرية – القاهرة – السويس.

6. أثرت سياسة محمد علي باشا الخارجية على العلاقات الدولية وخلقت المسألة المصرية، كما كان لها انعكاسات على الدّولة العثمانية والمناطق الخاضعة لها، وتسببت في التدخل الأوروبي في الولايات العربية وتحويلها إلى مستعمرات وهذا ما سنتعرض له في الفصل الاحق.

الفصل الرّابع

نظام مصر النهائي وانعكاسات طموحات محمد علي باشا على العلاقات الدّولية في النصف الأولى من القرن التّاسع الميلادي

أولًا– معاهدة لندن 1840م ونظام مصر النهائي

ثالثًا: عوامل وأسباب فشل محمد علي باشا في تحقيق طموحاته

ثالثاً: انعكاسات طمشا فوحات محمد علي الوحدوية على العلاقات الدّولية

رابعًا: تقييم المؤرخون تجربة محمد علي باي مصر

كتب الكثير من المؤرخين عن تجربة محمد علي في إقامة وحدة عربية بمساعدة الدّول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، فكانت الرؤية المنهجية في هذا المجال تنطلق من محاولات الدّول الأوروبية في إضعاف الدّولة العثمانية من الدّاخل تمهيداً لتجزئتها وتقسيم ولاياتها، وتندرج تجربة محمد علي ضمن هذا السّياق العام، فوالي مصر استمد القوة والخبرة من النّماذج الأوروبية المتوفرة لديه، ولاسيما النّموذج الفرنسي الأكثر تأثيراً على الساحة المصرية نظراً للإرث الذي تركته الحملة الفرنسية على مصر في مطلع القرن التّاسع عشر، فهذه التّجربة تتميز بجانب كبير من الدقة، فضرب السلطنة العثمانية بواسطة ولاتها بعد مدهم بكافة الوسائل الحديثة التي تظهر تفوقهم على السّلطنة وتهديدها في عقر دارها شكلت استراتيجية واضحة لجأت إليها الدّول الأوروبية لتفكيك بنى السّلطنة العثمانية وانتزاع ولاياتها واحدة تلوا الأخرى.

تعتبر شخصية محمد علي في تاريخ مصر الحديث أكثر أسماء إثارة للجدل والاختلاف بين ما يرفعون شأنه ويصفونه بباني الدّولة المصرية الحديثة وبين من يقولون أنه كان مساعد على هدم الكيان الإسلامي وأن الدول الاوروبية الاستعمارية استخدمته كآداة حادة للقضاء على الحركة الدّينية الوهابية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية و الإجهاز على الخلافة الاسلامية العثمانية والقضاء عليه، غير أن سياسة محمد علي باشا أثرت على الواقع الدولي أنذاك، وكان لها انعكاسات كثيرة سوف نتعرض لها من خلال هذا الفصل.

أولا- معاهدة لندن 1840م ونظام مصر النهائي

تشكل الموقف الأوروبي منذ فترة طويلة، ولم يكن وليد لحظة الصدام المصري، وبالتتبع لموقف إنجلترا وروسيا وفرنسا، نستطيع أن نرسم سياقات القوى الفعالة في الشأن المصري، فجاءت الحروب الروسية العثمانية في القرن الثامن عشر لتمثل تهديداً لمصالح إنجلترا التجارية الهندية، فعملت على ضرورة الحفاظ على الهند بعيداً عن تهديدات الروس، وبنت سياستها على ضرورة حماية الكيان العثماني المسيطر على الطريق البري لمصالحها.

كان انهيار الدولة العثمانية على هذا النحو السريع سبباً جوهرياً لتدخل الدول الكبرى المعنية بالأمر لفرض ما تراه من حلول على الجانبين المتحاربين، وكان مفتاح الموقف يتوقف على حد الكبير على تصرف كلتا الدولتين الانجليزية والروسية أكثر من غيرهما من الدول، فروسيا بحكم معاهدة هنكارا سكله سي قد فرضت حمايتها على الدولة العثمانية لتحول دون انهيارها[1]. أما انجلترا فكانت غاضبة من محمد علي لأنه بإثارته المسألة الشرقية قد أتاح لروسيا فرصة التدخل وبسط سيطرتها على الدولة العثمانية[2]، كما أن سيطرت محمد علي على بلاد الشّام أصبح نتيجة ذلك يشرف فعلياً على الطريقين الرئيسيين المؤديين إلى الهند وهما: طريق الخليج العربي والفرات ومنه إلى موانئ الشام، والأخر طريق البحر الأحمر والسويس، وما كانت انجلترا لترتاح لتلك السيطرة، ولا لما يمتلكه محمد علي من قوة بحرية ناشئة[3]. أما فرنسا فكانت ترغب في أن يحتفظ محمد علي بثمرة انتصاراته، ولكنها لم تكن على درجة من القوة بحيث تقف أمام رغبات انجلترا، وحتى تُقيم فرنسا العراقيل انجلترا فقد رغبت محمد علي في احتلال الجزائر، ولكن الباشا لم يستجيب لطلبها لأنه صمم على

1 عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد علي إلى السّادات (1800م- 1973م)، ط4، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2019، ص 89.

2- غالب عريبات وخالد طاهر، موقف الروسي من التدخل اللمصر في بلاد الشام 1831-1841، مجلة دراسات التاريخية، ع 117- 118، جانفي – جوان، 2012، الأردن، ص ص 389- 390.

3- عبده مباشر، المرجع السابق، ص 89.

احتلال بلاد الشام التي رأى فيها اقتصاداً مزدهراً يتيح له انجاز مشارعه[4]، في حين كان موقف النمسا نجد أن سياسة مترنيح كانت تعمل دائماً على مقاومة الثورات الخارجية على صاحب الحق الشرعي، والعمل على تدعيم نفوذه، ولذا وقفت لى جانب السلطان ضد محمد علي[5]، غير أن بريطانيا وفرنسا حاولت إقناع النمسا بالوقوف لجانبهما، لكن الأخيرة فضلت أن تدعم موقف روسية المؤيد للدولة العثمانية[6].

1- معاهدة لندن 1840م

أخذت الدول الأوروبية تنظر إلى تحركات محمد علي وسياسته التوسعية نظرة ملأها ريبة والتخوف، وكانت بريطانيا من أشد تلك الدول قلقاً من هذه التحركات التي بدأت تبرز بشكل واضح منذ حرب الشام الأولى، وأعقبها من إبرام اتفاقية كوتاهية، والتي كانت بمثابة هدنة مسلحة زاول خلالها محمد علي كثراً من أعمال التوسع وتدعيم النفوذ لقواته في المنطقة، حتى صار مصدر تهديد مباشر لطريق المواصلات البحري والبري الهام إلى الهند عبر سوريا، والعراق والخليج العربي، لاسما أنه صار في مقدوره تهديد الطريق البحري عبر البحر الأحمر[7].

وقد رأى بعض الرجال السياسة البريطانيون أنه ليس من مصلحة دولتهم في الهند قيام دولة إسلامية قوية على أرض الفرات، لأنهم يرون أنه من المحتمل إتحاد تلك الدولة مع روسيا لاقتسام بلاد فارس، إضافة إلى نفوذ هذه الدولة سوف يمتد إلى شبه الجزيرة العربية دون أدنى شك ليشمل جميع أقطارها وبالتالي تصبح هذه الدولة دولة بحرية هامة، تستطيع غزو الهند البريطانية وقطع طريق المواصلات التي يربطها بالدولة الأم في لندن، ويذهب للساسة الانجليز من أبعد ذلك حين يرونا أن قيام دولة إسلامية قوية في تلك المنطقة،

4- علي وسف البلخي، الموقف الدّولي من احتلال ممد علي باشا لبلاد الشّام 1831- 1840"، مجلة دراسات التاريخية، ع 19- 20، سوريا، 1985، ص 206.

5- المرجع نفسه، ص 89.

6- أمال السبكي، المرجع السابق، ص 69.

7 - عايض بن خزام الروقي، حروب محمد علي باشا وأثرها في شبه الجزيرة العربية 1831م- 1839م، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1986، ص 414.

وبزعامة حاكم طموح، إنما يهدف إلى طرد الدولة المسيحية، لأن إنتماء الفرس للمذهب الشيعي، وانتماء بقيت سكان المنطقة للمذهب السني لا يشكل أي حاجز مانع فيما بينهم، لوجود إحساس ديني مشترك بينهم يدفعهم لنصرة الدين الاسلامي، والاتحاد فيما بينهم لأداء هذه المهمة المقدسة[8].

ولهذا كانت مدينة لندن البريطانية هي المدينة التي شهدت اجتماع ممثلي الدول الأوروبية الكبرى لبحث سبل القضاء على طموح محمد علي، حيث اجتمع السفراء والوزراء الأجانب بدون حضور ممثل لمحمد علي، واتفقوا على بنود ما عرف بمعاهدة لندن، فهل حققت معاهدة لندن رغبات محمد علي، أم رغبات الباب العالي؟ أم رغبات الدول الأوروبية في حد ذاتها؟ وهل استطاعت الدولة العثمانية في نهاية الصراع أن تجمع الدول الأوروبية إلى جانبها وتُخرج محمد علي من بلاد الشام ؟ وهل كان فرمان 1841 م هزيمة لهذا التابع؟

قامت الدول الأوربية الخمس – فرنسا والنمسا وروسيا وبريطانيا وبروسيا– بالتدخل لدى الدولة العثمانية، ومنعوها من عقد أي اتفاق مع محمد علي عملاً على زيادة الخلاف بين الدولة العثمانية ومصر ليتحقق من خلال ذلك هدفيين رئيسيين الأول الإبقاء على اضمحلال الدولة العثمانية وتفككها، والثاني محاولة التخلص من محمد علي ودولته القوية بعدما أصبح يشكل خطراً على النفوذ الأوربي بالمنطقة[9]، ولقد حملت عدة شروط أبرزها :

أولاً : أن يخول لمحمد علي وخلفائه حكم مصر الوراثي ويكون له مدى حياته حكم المنطقة الجنوبية من سورية (ولاية عكا فلسطين)[10]. لكن سؤال لماذا عكا وفلسطين بذات؟ فالإجابة واضحة ووقتنا الراهن قد أجاب عنها، وذلك أنا الدولة العثمانية كانت رافضة كل الرفض في اقتطاع أي ولاية منها ومنحها لليهود رغم محاولاتهم المتكررة فلجأوا إلى الدول الأوروبية للحصول على فلسطين.

---

[8] – المرجع نفسه، ص 414– 215.

[9]– هدى علي بلال، "الصراع العثماني المصري على بلاد الشام والموقف الدولي منه"، مجلة أبحاث كلية التربية، المجلد 10، ع 4، العراق، ص 353.

[10]– المرجع نفسه ، ص 335 .

ثانياً: إذا لم يقبل هذا القرار في مدة عشرة أيام يحرم من ولاية عكا ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر فحسب، ويسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وإرجاع الأسطول العثماني، فإذا انقضت هذه المهلة دون قبول الشروط كان لسلطان الحق في حرمانه ولاية مصر[11].

ثالثاً: يدفع محمد علي جزية سنوياً للباب العالي تتبع في نسبتها على البلاد التي تعهد إليه إدارتها[12].

رابعاً: تسري في مصر وفي عكا المعاهدة التي أبرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها الأساسية[13].

خامساً: تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءاً من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها متى احتاجت لها[14].

سادساً: يتكفل الحلفاء في حالة رفض محمد علي لتلك الشروط أن يلجأوا إلى وسائل القوة لتنفيذها[15]. والجدير بالذكر فقد فتحت حالة الصراع العثماني المصري طريقاً واسعا أمام الدول الأوروبية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، التي برزت بشكل واضح وجلي بمساعيها للسيطرة على بعض أجزاء الدولة العثمانية فيما عرف تاريخيًا بالمسألة الشرقية.

سابعاً: إذا لم يذعن محمد علي للشروط المتقدمة وجرد – أي سحب– قواته البرية والبحرية على استانبول ، فيتعهد الحلفاء بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان العثماني كل الوسائل لحماية عرشه[16].

ثامنا: وهو أهم بند حيث يضع مصر تحت الوصاية ينص على أن يكون خلف محمد علي أحداً من أبنائه بحيث لا تميزه صفة باشا مصر عن زملائه في الامبراطورية في شيء، وأن يكون اختياره من حق الباب العالي وحده، وبما أنه ملزم باتباع جميع قوانيين الباب العالي،

---

[11]– عمر، تاريخ المشرق العربي، ص 320 .

[12]– أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسالة المصرية، ط1 دار المعارف، مصر، 1965، ص 9 .

[13]– عبد الرحمان الرافعي، المرجع السابق، ص334.

[14]– أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 9 .

[15]– جوزيف حجار، المرجع السابق، ص 212.

[16]– لوتسكي ، المرجع السابق، ص 141.

قلصت موارده إلى ربع قيمتها، وقلص جيشه إلى 20 ألفاً يعين الباب العالي مباشرة كبار ضباطه[17].

واستناداً لما سبق تضمنت هذه المعاهدة بنوداً تحد كثيراً من سلطة محمد علي باشا، وتستهين بكرامته، فلم تكن الدول الأوروبية تبحث عن تحقيق المصلحة الخاصة لأي من طرفي الصراع، بل كانت تبحث عن تحقيق مصالحها هي بالدرجة الأولى. كما أدركت الدول الأوروبية عقب تجدد المواجهات بين طرفي الصراع في مرحلته الثانية، وهزيمة الجيش العثماني في معركة نصيبين، والنتائج السلبية التي قد يؤدي إليها هذا الأمر، وما يترتب عليه من الإخلال بموازين القوى العالمية، فأدركت بالضرورة الملّحة لحل المشكلة من جذورها، بتوجيه إنذار إلى محمد علي باشا بالانسحاب من بلاد الشام وإلزامه بتنفيذ مضمونه، امتثالا لبنود قرارات وملحق معاهدة لندن 1840م.

لقد أصبح هناك تباين وتنوع في مواقف الدول الأوروبية تجاه الصراع العثماني– المصري أو ما عرف بالمسألة الشرقية فكانت روسيا تنتهز الفرص لبسط حمايتها على الدولة العثمانية أما النمسا فكان اشتراكها في التدخل بغرض ألا تجعل لروسيا ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية في حين أن بروسيا لم يكن لها أطماع في هذه الأزمة وكانت فقط ترمي إلى التمسك بالمحافظة على السلم إتقاءا لاندلاع أي حرب أوروبية[18]. في حين كانت فرنسا تؤيد محمد علي وتسانده وتتطلع إلى أن تفرض على مصر ضرباً من الحماية ابتغاء التمكين لنفسها في بلاد الجزائر الخاضعة لاستعمارها[19]. وفيما يخص بريطانيا فقد كان لها أطماعها في أملاك الدولة العثمانية وحاولت الحفاظ عليها بالقضاء على محمد علي باشا ودولته القوية التي كانت قد تشكل خطرً على مصالحها في البحر الأحمر وطريق الهند[20].

---

[17]– جوزيف حجار، المرجع السابق، ص 211.

[18]– محمد عبد الفتاح أبو الفضل، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص ص 202– 203.

[19]– كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 63.

[20]– سليمان أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية، بيروت، 1929، ص 306.

تشير أغلب المصادر إلى أن معاهدة لندن كانت محصلة تدخل الدول الأوروبية منذ وقت طويل فى شؤون الخلافة العثمانية فقد كانت تهدف إلى تحجيم دور محمد على وتقليص قوته والتى استطاع تحقيقها تحت مظلة الخلافة العثمانية وبمساعدة الدول الأوربية وخاصة الإستعمارية الحديثة منها بالإضافة لروسيا وقد كان هدف تلك الدول هى إضعاف الخلافة العثمانية أكثر دون خلق وريث لها والذى كان من الممكن أن يمثله محمد على كما هدفت إلى حفظ التوازن الدولي بين الدول الأوروبية أنفسها بما فيها الدول القائمة على الاتفاقية. أو بمعنى آخر لم تكن التدخلات الأوروبية هدفها الحفاظ على مصالح الدولة العثمانية أو مصالح مصر، بل كان لتحقيق أطماعها للسيطرة وبسط النفوذ في المناطق المهمة والاستراتيجية من أراضي الدولة العثمانية وخاصة بلاد الشاك ومصر وسواحل البحر الأحمر والخليج العربي بما يحقق مصالحها الاقتصادية – السيطرة على طرق التجارة العالمية– من جهة والسياسية على صعيد القارة الأوروبية من جهة أخرى.

2- التدخل الأوروبي عسكرياً تنفيذاً لمعاهدة لندن 1840م:

ورداً على رفض محمد علي باشا لشروط معاهدة لندن والتي هي في الأساس كانت قد صيغت لكي يرفضها، وكان هذا مقصوداً لكي تشن عليه الحرب، وفعلاً بدأت كل من بريطانيا والنمسا مع الدولة العثمانية بعمليات حربية ضده[21]

زادت حدة العلاقة بين محمد علي والدول الأوربية لاسيما بعد رفض هذا الأخير لبنود معاهدة لندن بتاريخ 14 أوت 1840م حيث اعتبرها مجحفة في حقه وهو المنتصر على الجيش العثماني، دون نسيان فرنسا التي شجعته على الرفض في البداية ونتيجة لذلك أصدر السلطان العثماني فرمان عزله في 22 سبتمبر 1840م ليغادر السفراء الأوربيين مصر في

[21] - Napier Sir Charles , The War in Syria, Harrison and Co, Printers, St. Martin's Lane, London, 1842, pp 34-35.

3 أكتوبر ليعلن الحرب على مصر وتدخل العلاقة المصرية العثمانية الأوربية مرحلة جديدة في التأزم[22].

بعد عقد معاهدة لندن في 11 جويلية 1840م اختار الباب العالي رفعت بك مندوباً عن السلطان ليعرض على محمد علي بنود اتفاقية لندن، فالتقى المندوب العثماني محمد علي في 16 أوت 1840م، إلا أنّ الباشا رفض كل تلك المطالب والعروض جملة وتفصيلا مع محاولة القناصل على حَثّهِ لقبول شروط المعاهدة، لكن الباشا أبى وأعلن بأنّه لن يتنازل عن شبر واحدٍ من ممتلكاته[23]، وقد ذكر سعيد أفندي أحد مفوضين العثمانيين أسباب هذا الرفض فذكر أن محمد علي لن يعترف بغير ابنه ابراهيم وريثاً شرعيا له، وإنّ تخويل الباب العالي حقّ اِختيار كبار ضباطه يعتبر ذروة الإهانة، وأنّ تقليص موارد جيشه وحجمه اِنكار لوجوده كباشا مسؤول عن مصر. كما لابنه إبراهيم حقوق طبيعية تؤكدها استحقاقاته وانتصاراته، فإذا ما حرم منها قاد جيشا قويا وطالب بها بقوة السلاح[24]، أما فيما يخص حقّ اِنتقاء ضباط قال محمد علي: الباب العالي لا يريد أنّ يجردني منه إلا رغبة منه في اِذلالي... فإذا خضعت لشروطه حقرت نفسي في أعين ذوي..."، وعن بند تحديد الجيش يقول الباشا: عشرون ألف رجل... يعتقد أن هذا العدد كاف للدفاع عن البلاد لا بأس ! لكن هذا البلد مفتاح افريقيا وربما مفتاح القسطنطينية"[25]، وعن موارد مصر قال: " ... إن تقليص موارد مصر إلى الربع وتجريدها من وسائل إعالة نفسها، والقيام بأمر ادارتها المدنية والعسكرية ففي ذلك نفي لوجودها[26]. وباشر بعدها باستعداداته الحربية، واستدعى تشكيلات

---

[22]– جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسما عليل، تع: أحمد علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، ط3، مصر، 1996، ص 146.

[23]– رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج4، الوثيقة رقم 6444 ، ص 43.

[24]– جوزيف حجار، المرجع السابق، ص 212.

[25]– المرجع نفسه، ص 212.

[26]– المرجع نفسه، ص 212.

إضافية من اليمن والحجاز[27]، وطلب من إبراهيم باشا الاستعداد وجمع السلاح الذي كان قد وزعه بواسطة الأمير بشير الشهابي على مسيحيي جبل لبنان أثناء الثورة الدرزية[28].

فإن الوقائع تشير إلى أن محمد علي استطاع تجاوز الخطأ الذي وقع فيه بتحديه للدول الأوروبية الكبرى ونجح في الوقت ذاته في استغلال ما لديه من أوراق ومزايا لتعزيز وضعه والحد من خسائره. فلقد كان مستقبل وضع محمد علي مصدر الخلاف مع السلطان الذي يبدو أن النّجاح الذي حققه بفضل دور القوى الأوروبية أغراه بإمكانية إقصاء الباشا.

وفي ذلك الصدد كان محمد علي يسعى إلى مراجعة الشّروط الخاصة ببقاء سوريا في يده بعد أن ضمن شرط الحكم الوراثي في مصر، وقد رفض الباشا على هذا الصعيد مطلب القناصل الأوروبيين الأعضاء في التحالف من خلال مذكرة تقدموا بها يحثونه فيها على قبول شروط المعاهدة كما هي، غير أنّه ظل ثابتا على موقفه رافضا التنازل عن سوريا ما دفع السلطان إلى عزل محمد علي عن حكم مصر وعززته القوى الأوروبية بسحب قناصلها بحجة أن الوالي محمد علي لم يعد الوالي الشرعي للبلاد[29].

وانسجاما مع الجهود السياسية التي بذلتها الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة لندن، وتحسبا لفشل جهودها السّلميّة لإنّهاء الصراع المصري العثماني، وإظهار مدى جديتها لتحقيق أهدافها بإنهاء الوجود المصري في بلاد الشام، فقد قامت هذه الدول بتشكيل قّوة عسكرية مشتركة، لإلزام محمد علي باشا بتنفيذ بنود معاهدة لندن وملحقها، إذا رفض قبولهما.

كانت القوة الدول الأوروبية المتحالفة مؤلفة من قسمين: قوات برية بقيادة الجنرال سميث General Smith Charles، وقوات بحرية مؤلفة من عشرين سفينة انجليزية وثلاث سفن نمساوية بقيادة الأميرال بنديرا Bandeera Admiral، وثلاث سفن عثمانية

---

[27]– النواصرة، مرجع سابق، ص 246.

[28]– المرجع نفسه، ص 249.

29– جوزيف حجار، المرجع السابق، ص ص 212– 213

بقيادة القبطان البريطاني ووكر Walker Caftian، وفي 19 سبتمبر 1840م وصل الأدميرال البريطاني استوبفورد القائد العام لقوات الحلفاء إلى مدينة بيروت وانضم إلى قوات الكومودور البريطاني نابير Sir Napier Charles الذي كان قد أعلن عن مجيء القوات الحليفة وتوزيعها السّلاح على الأهالي والثّائرين ضد إبراهيم باشا[30].

فبعد أن رفض محمد علي بنود هذه المعاهدة، وانتهت المهلة الأولى ولم يبقَ من المهلة الثّانية لقبول حكم مصر إلا عدة أيام، شاور أركان دولته واستدعى ممثل السلطان، وقناصل الدول الأوروبية في أول سبتمبر وأبلغهم أنّه قرر قبول الحكم الوراثي على مصر بشرط أن يحاول للمرة الأخيرة أن يطلب من السّلطان حكم بلاد الشّام مدى الحياة، فبدت للحظة وكأن الأزمة أوشكت أن تنتهي، إلّا أنّ المندوب العثماني والقناصل طلبوا تنفيذ بندين أساسيين من معاهدة لندن؛ أولا لأن نصوصها واضحة وصريحة ولا تقبل التأويل[31]، والتّي ألزمت محمد علي بالتّخلي عن بلاد الشام ماعدا الجزء الجنوبي منها، وإرجاع الجزيرة العربية للدولة العثمانية[32]، والاكتفاء بمصر يحكمها بالوراثة، وولايتي صيدا وعكا ليحكمها مدى حياته، مقابل أن يتخلى عن بلاد الشام والجزيرة العربية وكريت خلال عشرة أيام، فإن رفض ذلك بعد انتهاء المّدة يحرم من حقه في عكا وصيدا، وإن استمر رفضه عشرة أيام أخرى يحق للسلطان العثماني سحب ما منحه لمحمد علي، مع تقديم الدول الأوروبية المساعدة العسكرية للدولة العثمانية ضده[33] كما ذكرنا سابقاً، وفي 13 أوت 1840م أبلغت تلك المعاهدة رسمياً إلى محمد علي لكنه رفضها معتمداً على تأييد الفرنسي، وأسرع بإرسال الإمدادات لإبراهيم باشا، وكتب لحفيده عباس باشا ليقوم باتخاذ الاحتياطات اللازمة في سائر النّقط الحربية الكائنة على السواحل مصر، وبّر الشام، والقيام للدفاع حرباً وضرباً عند

30- خالد أحمد عربيات وآخرون، المرجع السابق، ص ص 27- 28.

31 - خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج 2، ص 261.

32-Kelly. J.B, Op Cit, P 282 .

33- Christiane Desroches Noblecourt, Le dernier pharaon : Méhémet-Ali (1770-1849), Pygmalion-Gérard Watelet, Editions Denoel, Paris, 1996, Pp 381- 384.

ينظر أيضاً: عبده مباشر، المرجع السابق، ص 90.

حشد عساكر الدول، فاستدعى تيير Thiers في 17 سبتمبر سفراء الدول الأوروبية الكبرى وأبلغهم استنكار الحكومة الفرنسية للطريقة التي تعاملت بها دول المعاهدة مع محمد علي، وكان تيير Thiers قد لمس جدية الدول الأربعة، وفي النهاية صرّح بأن فرنسا مستعدة للتعاون في حال تأكدها من ضمان سّلامة الإمبراطورية ومحمد علي[34]، ولكن وتحت ضغط الصحافة والرأي العام الفرنسي الذي كان يرى محمد علي مثلاً يحتذي به، فهو الذي بنى دولة ذات طابع سياسي مختلف وحكمها ونظمها مدة أربعين سنة، فجعل منها دولة قوية، وتم الإعلان عن أنّه إذا أصّر السّلطان على عزل محمد علي ووافقت الدول الأربعة على ذلك فسيعد ذلك سببا للحرب بينها وبين الدول الأربعة، فأدرك بالمرستون Palmerston جدية فرنسا هذه المرة، لأنّ السياسة البريطانية تمادت في إهانة فرنسا[35]، فلجأ إلى التهدئة، وأشار إلى عدم علمه بعزل السلطان لمحمد علي فاستحسن الملك الفرنسي – لويس فليب (1830م –1848م)– منه ذلك، إلا أن تيير Thiers لم يقتنع وطلب بالمرستون Palmerston بالدّخول في مفاوضات جديدة لتسوية الوضع، لكنه لم يجد رداً منه، فأراد توجيه خطاباً شديد اللهجة يفتتح به الملك الدورة الاستثنائية لمجلس البرلمان، لكن الملك رفض تتبني هذا الخطاب[36]، فأعلن تيير thiers استقالته في 29 أكتوبر 1840م[37].

---

[34]– حجار، مرجع سابق، ص ص 205– 206.

35– هددت فرنسا انجلترا بالحرب ولكنها لن تنفذ تهديداتها، فلقد كانت القوات الفرنسية غارقة في مشكلاتها في الجزائر، ومواجهة ثورة الأمير عبد القادر، وفضلاً عن وجود اضطرابات في شمال إيطاليا، وبالتالي فإن التقدير المنطقي كان عدم إقدام فرنسا على خطوة الحرب مع الدول الأوروبية. وتقبلها لقرارات الدول الاخرى.

36– خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ج2 ، ص ص 264– 265.

37– وكان ذلك نصراً سياسياً آخر لبالمرستون Palmerston، فقد مهد هذا الانتصار للهيمنة البريطانية على الشرق مقابل انكماش امبراطورية محمد علي، ومن ورائه النفوذ الفرنسي في المنطقة

وتداعت سلطة محمد علي في بلاد الشام، وفقد الأمل في الدعم الفرنسي الذي كان يبني عليها الكثير من قراراته[38]، وكان لِاستقالة تيير Thiers ووصول المارشال سولت Sault إلى رئاسة الوزراء، واتباعه سياسة التّفاهم مع التّكتل الأوروبي[39].

غير أن بـريطانيا[40] استطـاعت في نهاية الأمـــر بأن تقنع فرنـسا بنصـح محـمد علي بالاعتـدال، وفي الـوقت نفسه نجحت في تأجيـج نار الثـــورة في لبنـــان ضـد محمـــد عـــلي[41] بعد أن استعرت نار الثورة اللّبنانية، وبعد توجيه رسائل الإنذار، ومحاولات الرشوة إلى الحكام والقادة الميدانيين في جيش محمد علي[42]، قامت السفن الحربية البريطانية في 9 سبتمبر بقصف مدينة بيروت، وفي 11 سبتمبر تمّ إنزال قوات التحالف وقوات الدولة العثمانية على. الساحل اللبناني وانضم إليهم الثوار اللّبنانيون بعد أن اِتسع نطاق الثّورة[43]، وانقضت عشرة الأيام الأولى وذهب إليه قناصل الدول الأوروبية يعلموه بأنه لن تسمح له الدول إلا بولاية مصر فقط فغضب عليهم، وطردهم قائلاً لهم:" كيف يجوز

38- مكاريوس، شاهين مذبحة الجبل- حسر اللثام عن نكبات الشام – تاريخ الحرب الأهلية الدامية في لبنان سنة 1860، دار لأجل المعرفة، ديار عقل – لبنان، 1987 ، ص 70.

39- لوتسكي، مرجع سابق، ص 142..

40- كانت بريطانيا بزعامة وزير خارجيتها بالمرستون تسعى جاهدة لكبح جماع محمد علي باشا، ذلك أن ازدياد نفوذه في مصر وامتداده إلى شبه جزيرة العرب والبحر الأحمر، جعاله في مركز يتيح له أن يتحكم في منطقة تعد من أهم الطرق التجارية العالمية، التي تعتبرها ذات قيمة خاصة لتجارتها مع الشرق. ولما كان احتلال محمد علي لبلاد الشام وتهديده لعاصمة الدولة العثمانية، وأيضا عزمه على توحيد البلاد التي ضمها وتوسع على حسابها لجعلها دولة متماسكة، وهذا يهيئ له التحكم بالتجارة الأوروبية، فال يسمح إلا بما يشاء هو من تسيير أسباب مرورها، بعد أن كان يتطلب ذلك فقط، موافقة السلطان العثماني الضعيف .

41- محمد فريد بك، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تح: أحمد زكريا الشلق، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1980، ص 201.- رستم، بشير بين السلطان والعزيز 1804-1841، المرجع السابق، ص ص 205- 207.

42 – سمحات السيد محمد، مرجع سابق، ص 27.

43- جوزيف حجار، مرجع سابق، ص 20.

أن أسمح لكم بالمقام في بلادي وأنتم وكلاء في هذه الديار"[44]، وفي الوقت نفسه تلقى خطاباً من ابنه إبراهيم باشا يؤكد له فيه تحرك القوات العثمانية لضرب موانئ الشام[45].

وخلال العشرة الأيام الثانية اِستدع محمد علي مندوب السّلطان محمد رفعت بك، وأبلغه رغبته في إنهاء الخلاف بينه وبين السلطان دون تدخل الدول الأجنبية، وأبلغه استعداده لترك بلاد العرب وكريت والاِكتفاء بمصر وراثية، وعكا طوال حياته، وسلمه رسالة بهذا المعنى إلى السلطان العثماني، غير أن قناصل الدول الأوروبية تحايلوا على محمد على بعد انتهاء المدة واعتبروا اِمتناعه عن مقابلتهم رفضاً للمعاهدة، وأراد حاكم مصر مواجهة الموقف فاستدعى قوات من اليمن والحجاز وأرسل الإمدادات إلى عكا، وقوى الاستحكامات على السواحل المصرية، وفي الآستانة تشاور الصدر الأعظم من سفراء الدول الأوروبية واِستقرار رأيهم على خلع محمد علي، فأصدر السّلطان العثماني فرماناً في 22 سبتمبر 1840م يأمر بذلك، فغادر بعد ذلك قناصل الدول الأوروبية الأراضي المصرية، وبدأ التحرك الفعلي من قبلهم لإجبار محمد علي على الانسحاب من بّر الشام، وشرعت السّفن الحربية العثمانية في إطلاق مدافعها على رأس بيروت، وبادر بإخراج عساكر في نقطة بين نهر الكلب[46] وميناء جونية التي تقع على مسافة ثلاث ساعات من بيروت[47].

وهنا قرر البريطانيون التدخل العسكري، تنفيذاً لمعاهدة لندن التي أطلقت عليها "اتفاقية إعادة السلم إلى الشرق"[48] خشية من قيام روسيا بالتدخل العسكري تنفيذاً لاتفاقية **أونكيا**

44- محمد فريد بك، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تح: أحمد زكريا الشلق، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1980، ص 201.

45- عبده مباشر، المرجع السابق، ص 91.

46- نهر الكلب :هو نهر لبناني يتميز نهر الكلب بغزارة مياهه طوال أشهر السنة تقريبا، ما عدا أشهر الصيف الحارة. يبلغ طول هذا النهر حوالي 19 ميلا (31 كلم).

47- دار الوثائق القومية، محافظ الشام، محفظة 84، وثيقة 113، من ابراهيم باشا إلى الجناب العالي، 15 رجب 1256هـ / 12 سبتمبر 1840.

48- عبد العزيز سليمان نوار، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث، ط1، جامعة الدول العربية، بيروت، 1987، ص ص 327- 332.

إسكله سي، فأرسلوا أسطولهم بقيادة ستوب فورد stop ford إلى ساحل لبنان، وقام بقصف بيروت بالمدافع في 09 سبتمبر 1840م، وأصدر منشورات مضرة إلى أهالي برّ الشام[49]، يؤكد فيها أنه ما حضر إلى هنا إلا لأجل رفع ظلم الحكومة المصرية، فطالبهم بأن ينهضوا ويلقوا عنهم تقليد الحكومة المصرية الذي أزعجهم[50]، الأمر الذي شجع الثائرين، وفي الوقت نفسه ضرب الحصار على اللاذقية وطرابلس وصيدا وصور[51]، وأرسل إلى سليمان باشا في بيروت ينذره من أنّه صدرت له الأوامر بتوقيف ومصادرة السفن الحربية والسفن النقلية المشحونة ذخائر، ومهمات التي تسافر بين الموانئ المصرية وموانئ بر الشام؛ إلاّ أن سليمان باشا عندما عرض الأمر على محمد علي باشا كان أمره بأن يتوكلوا على المولى وقابلوا قوتهم بالقوة وحاربوهم بكل ما في استطاعتكم دفاعاً عن حكومة بلادنا بدون تردد، وإهمال لذلك، فأعلن سليمان باشا حالة الطوارئ في المدينة خوفاً من قيام سكان جبل لبنان بالثورة، وأرسل لإبراهيم باشا للحضور إلى بيروت، غير أن الأسطول البريطاني قد نجح في اقتحام عكا عنوة في 03 نوفمبر 1840م بعد أربع ساعات من إطلاق النار، بعدما أصابت قنابل المدافع مستودعة الذخيرة المصرية ونسفته، وهو الحصن الذي ثبت ببسالة في وجه نابليون 1800م، وفي وجه حملة الباب العالي التأديبية 1822م، وفي وجه إبراهيم باشا 1832م، واِضطر محمد علي تحت ضغط مرض كثير من جنوده وفتور حماستهم، وأمام لهيب الثورة التي اشتعلت في جبل لبنان خاصة بعد علمهم بفرمان السلطان بعزل **الأمير بشير الشهابي**[52]، وإغارة فلاحية على معسكر المصريين " لخطف السلاح" إلى إخلاء

---

[49]– دار الوثائق القومية، محافظ الشام، محفظة 84، وثيقة 108، من شريف باشا إلى الباشمعون 13 رجب 1256هـ/ 10 سبتمبر 1840م

[50]– دار الوثائق القومية، محافظ الشام، محفظة 84، وثيقة بدون رقم، إعلام إلى أهالي بر الشام من قوماندار لانجلترا، 29 جادى الآخرة 1256هـ/ 28 أوت 1840م.

[51]– دار الوثائق القومية، محافظ الشام، محفظة 84، وثيقة 76 حمراء، من محمود بك محافظ بيروت إلى الباشمعون، 20 رجب 1256هـ/ 17 سبتمبر 1840م.

[52]– الأمير بشير الشهابي الثاني (1767م– 1850م): المعروف بالكبير أو المالطي، وهو أعظم أمراء بني شهاب حكام جبل لبنان في الأجيال الأخيرة، وهم عرب يتصل نسبهم إلى قريش، قدموا بلاد الشام في صدر الإسلام، وما زالوا يتناوبون الأحكام في لبنان ووادي التيم مع الأسر الأخرى من الأمراء وغيرهم تحت رعاية الباب العالي إلى أواسط القرن التاسع عشر.

بيروت بدون حرب، وعلل له سليم باشا رئيس الجهادية سبب هذا الانسحاب أنه لو اشتبك مع الأعداء في بيروت فلا شك أن الذي أصابنا في صيدا سيصيبنا في بيروت أيضاً[53]، ونزلت العساكر البرية للحلفاء المكونة من ألف وخمسمائة من البيادة البريطانية وثمانية آلاف من الأتراك والأرناؤوط إلى بر بيروت في 11 سبتمبر[54].

وفي الوقت نفسه ظهر الأسطول البريطاني أمام الاسكندرية بقيادة نابير napier لدعم موقف الدول المناوئة لمحمد علي الذي رضخ للأمر الواقع[56/55]، ووقع اتفاق الإسكندرية في 28 نوفمبر 1840م الذي قضى بسحب قواته من بلاد الشام البالغ عددها 70 ألف ليسدل السّتار على إمبراطورية محمد علي[57]، وأرسل الحلفاء إلى الباب العالي مذكرة في 30 جانفي 1840م يطلبون من السلطان تخويل محمد علي حكم مصر وراثي، فاستجاب السلطان لطلباتهم، ودخل في مفاوضات سلمية مع محمد علي تحت رعاية الدول الأوروبية انتهت بصدور فرمان 13 فيفري 1841م، الذي قضى بإخراج القوات المصرية من الجزيرة العربية وكريت وبلاد الشام ومنح محمد علي حكم مصر وراثياً، وبذلك انتهى الصراع بين الدولة العثمانية ومحمد علي[59/58].

---

[53]– دار الوثائق القومية، محافظ الشام، محفظة 84، وثيقة 200 حمراء، من سليمان باشا رئيس رجال الجهادية إلى الجناب العالي، 14 شعبان 1256هـ/ 11 أكتوبر 1840م.

[54]– محمد فريد بك، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، المصدر السابق، ص 203.

[55]–عبده مباشر، المرجع السابق، ص 92.

[56]– كان حل المسألة المصرية بالنسبة لإنجلترا هام لسياسيتها كما هو هام للدولة العثمانية، ففي مقابل مساعدة انجلترا للدولة العثمانية منحت الدولة العثمانية المزيد من الامتيازات التجارية وذلك بمقتضى معاهدة (بلطة ليمان في 16 سبتمبر 1838م). ينظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 101.

[57]– عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516– 1916، دمشق، 1974، ص ص 410– 411

[58]– ملك محمد رشوان، سياسة محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بأسيوط، 1984، ص ص 363– 364.

[59]– يتضحى لنا أن محمد علي باشا قد حقق ما كان يطمح له ولو حتى نسبيا في تأسيس حكماً وراثياً لأسرته في مصر، وهو أمر غير مسبوق في تاريخ الدولة العثمانية، فلم يستطيع أي والي اخر في ولايات الأخرى الخاضعة للدولة العلية أن يورث ولايته لأبنائه مثلما حدث مع علي باشا.

تجدر الإشارة إلى أن هذه التّسوية كانت ضعيفة فالدّول التي أرادت بها خدمة مآربها في المحافظة على كيان الدولة العثمانية هرباً من مشكلة ملء الفراغ، ثم حرصاً على التوازن الدولي لم تدخل في اعتبارها ضرورة تنظيم العلاقة بين مصر والدولة العثمانية قواعد ثابتة، فكانت محور كل ما طرأ بعد ذلك من اضطراب في العلاقات العثمانية المصرية.

لكن محمد علي اعتبر شروط الفرمان مجحفة في حقه فطلب من الدول الأوروبية اعادة النظر فيها وتخفيفها، فأرسلت الدول لائحة بتاريخ 13 مارس تقضي بالنظر في طلبات محمد علي حسب ما هو مدون بملحق معاهدة لندن[60]، فأصدر السلطان في 19 أفريل 1841م فرمات تضمن تعديل فرمان 13 فيفري، ولما أقرت الدول هذا الفرمان صدر فرمان جدد في 01 جويلية 1841م تضمن مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العثمانية في كل سنة 80 كيس[61]، وبذلك انتهت المسألة المصرية، ونال الباب العالي مرغوبه من إرجاع مصر إلى حدودها، ورجوع بلاد الشام إلى السلطة العثمانية.

وفي الأخير اتضح لنا أن تسوية لندن 1840م وضعت حدود وأبعاد أملاك محمد على وباشويته المصرية وتضمنت العلاقة بين الباب العالي ومصر، وقد فتحت هذه المعاهدة فيما بعد التدفق للنفوذ الاستعماري الأوروبي ولاسيما البريطاني والفرنسي على العالم العربي والإسلامي في الشرق، وأن الدول الغربية لم تكن تهمها تسوية النزاع بين الدولة العلية ووالليها محمد علي باشا بقدر ما كان يهمها اضعافهما وتفكيك الامبراطورية العثمانية من خلال منح الحكم الوراثي لمصر، وأيضا الحفاظ على مصالحها الشخصية في منطقة المشرق العربي تمهيداً لاستعماره مستقبلاً. وهكذا نجحت الدولة العثمانية بمساعدة حلفاءها الأوروبيين من إنهاء الصراع بينها وبين محمد علي باشا، كما استطاعوا أيضا أن يحطموا كل آمال محمد علي، وتحجيم دوره وبذلك هزم التابع المتمرد وتحطمت أماله في تكوين الدولة العربية الكبرى

---

[60]– تمكنت الدولة العثمانية بمساعدة الدول الأوروبية، من القضاء على طموحات محمد علي باشا، بتأسيس دولة مستقلة عن جسم الدولة العثمانية، وانحسار نفوذه فقط في حدود ولاية مصر كتابع للسلطان العثماني.

[61]– أمين شامي باشا، تقويم النيل (عصر محمد علي)، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003، ص 514.

التي طالما حلم بتحقيقها، وأصبحت مصر ولاية كأي ولاية عثمانية، وعادت بلاد الشام إلى حظيرة السلطان العثماني، بلاد الشام التي كانت السبب الرئيس في هذا الصراع.

3- مواقف الدول الأوروبية من معاهدة لندن

تعددت المواقف الدول الأوروبية الكبرى من معاهدة لندن 1840م ضد محمد علي باشا من مؤيد ومعارض، الكل حسب مصالحه وعلاقاته مع الباشا ومع الدول العثمانية.

ادعى بعض الدبلوماسيين الأوروبيين مثل بالمرستون Palmerston[62] ومترنيخ Metternich أن الغاية من معاهدة لندن معالجة الأخطار المحتملة الناجمة عن الأزمة الشرقية التي قد تؤثر في السلم الأوروبي، وبأنهم يتأسفون لعدم اشتراك فرنسا في الحل النهائي، مع أن المعاهدة تستند إلى المقترح الذي تقدم به سيباستياني Sebastiyany السّفير الفرنسي لحكومة فرنسا في لندن أيام حكومة المارشال سولت Sault[63] [64].

---

[62]- هنري جون تيمبل(Henry John Temple): يعرف أيضا بلقب فيسكونت بالميرستون الثالث، سياسي بريطاني (20 أكتوبر 1784م/ 18 أكتوبر 1865م)، بدأ حياته كمصمم أزياء ورجل فكاهي في مقاهي لندن ثم تمكن لا حقا من تولي منصب وزير الخارجية البريطاني في ثلاث مناسبات وخدم مرتين كرئيس وزراء كان له شأن كبير في توسيع دائرة بريطانيا الدبلوماسية الخارجية، مات في مكتبه وعمره يناهز 81 سنة. ينظر:

- G M Trevelyan, British History in the 19th Century, Longmans, Green, and Company, London, 1922, p. 232.

[63]- جان دو ديو سول(Jean-de-Dieu Soult): (1769 . 1851) : عسكري وسياسي فرنسي، وهو أول دوق لدالماسيا (29 مارس 1769 – 26 نوفمبر 1851)، سُمي مارشال الإمبراطورية في عام 1804 وغالبًا ما كان يُدعى مارشال سولت. فكان واحدًا من ستة ضباط في التاريخ الفرنسي تسلموا لقب المشير العام لفرنسا .خدم أيضًا ثلاث مرات بصفة رئيس مجلس الوزراء أو رئيس وزراء فرنسا .حصل على لقب «الملك نيكولاس» بفضل مؤامراته أثناء احتلال البرتغال، وبينما كان سولت حاكم نابوليون العسكري في الأندلس، نهب أشياء فنية بقيمة 1.5 مليون فرنك. سماه أحد المؤرخين " الناهب على المستوى العالمي". ينظر:

- R. Hayman, Soult - Napoleon's Maligned Marshal, Sterling Pub Co Inc; 1st edition, London, December 1, 1990, p 96.

[64]- عبد الإله أحمد المصطفى، السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام 1840- 1878، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، ص 126.

خوري وإسماعيل، مرجع سابق، 242- 243.

تلقت الحكومة الفرنسية نبأ التوقيع على معاهدة لندن بسخط شديد، فقد أثارت تلك المعاهدة استياء رئيس الحكومة الفرنسية تيير لأنها عقدت من دون علمه، ولأنها كانت موجهة ضد الأهداف الفرنسية[65]، فضلاً عن ذلك فقد اعتبرها تيير تحدياً لفرنسا[66]. وعلى أثرها هاج الرأي العام الفرنسي وتوترت العلاقات بين فرنسا وبريطانيا وكادت أن تقع الحرب بينهما[67]، كما أصدرت الحكومة الفرنسية بيانات عنيفة نددت فيها بالسياسة البريطانية التي وصفتها بالمهينة ، وفي نفس الوقت فقد أعلنت تأييدها التام لمصر[68]، وأخذت تحرض محمد علي على رفض بنود المعاهدة[69] وفي 29 جويلية عام 1840 أصدر تيير تعليماته إلى القنصل كوشيليه قائلاً :" **إنَّ الغرض الذي يجب أن يرمي إليه كل من الوالي والحكومة الفرنسية، هو العمل على إحباط الآثار التي تتوقعها الدول الأربعة من الاتفاق المبرم بينها، والوسيلة المثلى لتحقيق هذا الغرض هي إخضاع بلاد الشام، فالثورة التي اندلعت في لبنان هي السبب الرئيس لقرار الدول الأربعة، وما دامت مستمرة تلك الثورة ستصر تلك الدول على موقفها**"[70].

هذا ولم يقتصر تيير على إعلان وجهة نظر حكومته إزاء المعاهدة فحسب، بل أوفد إلى مصر في أوائل شهر أوت عام 1840م الكونت فالفسكي Valvisky [71]، ليقف إلى جانب محمد علي، وليبين له موقف حكومته من المعاهدة ومن الأزمة الحاصلة[72]. وقد أشار فالفسكي في تقرير له رفعه إلى تيير بأنه (لمَّح للوالي بالأمل في تأييده من قبل فرنسا،

---

[65]– عمر الاسكندري وسليم حسن ، المصدر السابق، ص189؛ هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق، ص147 .

[66]– إلهام محمد علي ذهني ، المرجع السابق، ص29 .

[67]– عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، المرجع السابق، ص292؛ هاشم صالح التكريتي، المرجع السابق، ص147.

[68]– عفاف لطفي ، المصدر السابق، ص367؛ محمد صبري، المصدر السابق، ص76؛ احمد زكريا الشلق، المصدر السابق، ص73.

[69]– عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، المرجع السابق، ص292 .

[70]– رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المرجع السابق، ص168 .

[71] – فلوريان جوزيف كولونا كونت فالفسكي، ولد عام 1810 وتجنس بالجنسية الفرنسية وأصبح بعد ذلك وزيراً مفوضاً في فلورنسا عام 1849م، ثم سفيراً في لندن عام 1851م وعضواً بمجلس الشيوخ، ثم وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء عام 1856م، توفي في عام 1868. للتفاصيل ينظر: رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المصدر السابق، ص171.

[72]– عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص299؛ رينيه قطاوي وجورج قطاوي، المرجع السابق، ص171 .

وبالرغم من أن محمد علي كان متباهياً بقوته الدفاعية، وأياً كانت الظروف والأحوال فإن الواجب على فرنسا مؤازرة الباشا بشتى وسائل المعونة الحربية وبضباط البحرية إذ إنَّ الحالة السيئة التي آلت إليها بلاد الشام، لن تمكنه من مقاومة الدول الأوربية المتحالفة)[73]. وفي الواقع أن فرنسا عندما أرسلت الكونت فالفسكي إلى مصر لم يكن هدفها الرئيس إنقاذ محمد علي فحسب وإنما أرادت أن تتدارك تدخلاً سافراً من قبل الحلفاء في بلاد الشام، وفي الوقت نفسه وجهت الحكومة الفرنسية تعليمات دقيقة إلى قنصلها في مصر كوشيليه للعمل على حثّ محمّد علي لبذل قصارى جهده من أجل ضمان ملكية بلاد الشام مهما كلف الثمن، ومن أجل إبطال مفعول معاهدة لندن[74] .

أما نيسل Nislroode فقد أبدى اِرتياحه لقرارات لندن، ولإِنهيار العلاقات البريطانية – الفرنسية[75]، في حين أن مترنيخ Metternich لم يخف مخاوفه من التحرك الفرنسي الذي قد يؤذي مصالح النمسا وممتلكاتها في شمال إيطاليا[76]، فعمل مترنيخ على تعديل خطّته بشأن المسألة المصرية، وعرض في 20 نوفمبر عام 1839م مشروعاً جديداً للدول الكبرى اقترح فيه سماح الدول بإبرام اتفاق مصري – عثماني مباشر على أن تمنع إبراهيم باشا من ممارسة الضغط العسكري على السلطان بزحفه إلى الآستانة[77]، و سبق هذا المشروع النمساوي الجديد موقف محمد علي المعتدل الذي أبداه في الأول من أكتوبر عام 1839م بتراجعه عن مطلبه عزل الصدر الأعظم خسرو باشا[78]، إلا أن تيّاراً جديداً في الدولة العثمانية بدأ يفرض وجوده في صنع القرار في الآستانة بدعم من فرنسا و بريطانيا ، فبوفاة

---

[73]– رينيه قطاوي وجورج قطاوي ، المصدر السابق ، ص171– 172 .

[74]– جوزف حجار، المرجع السابق، ص199 .

[75]– المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان 1840– 1910، ط 2، دار الرائد اللبناني الحازمية – لبنان، 1983، ج1، ص 20. عبد الإله أحمد المصطفى، المرجع السابق، ص 127.

[76]– قاسم محمد أحمد النواصرة، الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام (1831– 1841)، ط1، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2007، ص 2.

[77]– بيير كربتيس، إبراهيم باشا، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1938، ص 261– 262.

[78] – مسعود ضاهر، النهضة العربية و النهضة اليابانية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1999، ص 114

السلطان محمود الثاني أجرى رشيد باشا مبعوث السلطان إلى لندن و باريس مباحثات مع الحكومتين الفرنسية و البريطانية و ما لبث أن عاد إلى الآستانة أواخر عام 1839م ليصرّح للسلطان الجديد عبد المجيد الأول بضرورة إجراء الإصلاحات إرضاءً للدول الأوروبية و دعماً لموقفه في مواجهة محمد علي باشا ، فأصدر السلطان في 2 نوفمبر عام 1839م فرمان" كلخانة خط همايوني "و الذي ضمّ بنوداً ق لّصت من صلاحيات السلطان المطلقة[79]، الأمر الذي شكّل ضربةً للتيار الرجعي في الدولة العثمانية وعلى رأسه خسرو باشا و من ورائه النّمسا وروسيا رعاة الحكم الملكي المطلق في أوروبا.

كما حافظت بروسيا على تضامنها مع أوروبا بشرط بقائها على الحياد في حالة الحرب، إلى جانب مراقبتها لتهديدات تيير Thiers[80] بجدية، وحرصت على تأكيد الصداقة والسلم مع فرنسا على مبدأ " الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية "، أما بالمرستون Palmerston، ومثله نيسلرود Nislroode لم يأبها لِتهديدات فرنسا بشن الحرب[81].

وكان محمد علي قد أذهل القناصل والسّياسيين الأجانب بهدوئه وثقته، أما القنصل هودجز Hodges البريطاني فقد أدرك خطورة الموقف والخطأ الجسيم في سياسة محمد علي بعد أن أشار إلى عزيمته على بناء كل هذا المجد في نصف قرن بِاعتماده الحكمة والواقع، وها هو الآن يقف وحيد اً بوجه أوروبا مجتمعة[82]. وفي الحقيقة فإن محمد علي كان يعتقد أن القوى الكبرى لن تتفق على صيغة واحدة ضده، فهو توقّع أن لا تجازف روسيا

---

[79] – يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص :32– 36

[80]– ولد أدولف تيير (Adolphe Thiers) في مدينة مرسيليا عام 1797، عمل عضواً في مجلس النواب الفرنسي عام 1831، واصبح وزيراً للداخلية ثم للتجارة والأشغال العامة منذ عام 1832، ومن ثم أصبح رئيساً لمجلس الوزراء في مارس عام 1840 وانتخب رئيساً للجمهورية عام 1871، توفي عام 1877 . للتفاصيل ينظر : رينيه قطاوي وجورج قطاوي ، المصدر السابق، ص 163– محمد صبري، المصدر السابق، ص 75 .

[81]– خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ص 253.

[82]– نفس المرجع، ص 255.

بالامتيازات والمكاسب التي حققتها على الأرض في معاهدة هنكار أسكلة سي، وترسخ هذا الإعتقاد بالدعم المتواضع الذي قدمته فرنسا له في هذه الأزمة[83].

وكانت لمعاهدة لندن وقع سيء على المستويين الرّسمي والشعبي في فرنسا[84]، وكان مجلس النواب الفرنسي يرى كل تضارب في المصالح بين بريطانيا وفرنسا بمثابة عدم إمكانية المقاربة بين" الرجعية البريطانية"، وأهداف السياسة الفرنسية" التقدمية المتحررة"، وكان هذا يشكل دافعاً قوياً لتوحيد الرأي العام للضغط على تيير Thiers لتعبئة عسكرية[85]. ومن جهة أخرى كان لمواقف الجاليات الأجنبية التجارية المستاءة من السياسة البريطانية[86]، إضافة إلى أن بالمرستون Palmerston لم يكن يحظى بالدعم الكامل من مجلس العموم، وأيضاً من رئيس الحكومة البريطانية اللورد ملبورن Melbourn ما دفع بتيير Thiers إلى تشجيع محمد علي لمجابهة التحالف الأوروبي[87] وللبقاء على موقفه، مع تجنب الهجوم على الأناضول كي لا تكون ذريعة للتدخل الروسي، وبأن يحافظ محمد علي على بلاد الشام مهما كلفه ذلك من ثمن، كما أرسل تيير مبعوثاً خاصاً لهذه المهمة، وهو السّيد فاليوسكي Valewski، إلى جانب كوشيليه Kochelet القنصل الفرنسي في الإسكندرية، وكل هذا دون أن يعطي محمد علي أي وعد بتقديم أي مساعدة عسكرية وإذا عدنا إلى بلاد الشام، نجد أن قوات محمد علي أحكمت سيطرتها على الموقف هناك، وأخمدت الثورة اللبنانية الأولى التي أسهمت دول المعاهدة في التحريض عليها وتمويلها بواسطة عملاء جنّدتهم لهذه المهمة[88]، كما أن الطرق السلمية المتاحة في المعاهدة لحل الأزمة قد فشلت، كل هذا

---

[83]–Tibawi, A. L, A Modern History of Syria–Including Libanon and Palestine, Macmillan, London, 1969, p91.

[84]– أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز 1840– 1841، ط2، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، 1995، ص 195.

[85] – خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ص 247.

[86]– جوزيف حجار، مرجع سابق، ص 192.

[87] – خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ص248.

[88] – حجار، مرجع سابق، ص 199 – خوري وإسماعيل، مرجع سابق، ص 251– 252.

استدعى من دول المعاهدة اللجوء إلى استعمال القوة[89]، مع العلم أن مواقف الجاليات التجارية وبعض الفئات المعارضة من مجلس العموم البريطاني، لم تؤثر أبداً في القرار السياسي الأوروبي، ولم تجد لها صدى في الأوساط الدبلوماسية.

كان لسيطرة قوات الحلفاء على ساحل بلاد الشام، ونقص الأموال في مصر وحالة التعب التي أنهكت الجيوش المصرية، وتوقيعه لِاتفاق 27 نوفمبر مع الأدميرال نابيير بالغ الأثر في دفع محمد علي باشا لإصدار أوامره إلى اِبنه إبراهيم باشا في 41 نوفمبر 1840م، بالانسحاب من بلاد الشام والعودة بكامل قواته العسكرية وسائر رجاله والمستخدمين إلى مصر[90]، تنفيذا لقرارات الدول المتحالفة، وإحالة ولاية مصر له وللذكور من أبنائه بعده. وجاء في الأمر قوله:" وبناءاً على قرار الدول المتفقة الفخيمة بإحالة حكومة مصر إليّ، وجب أن نتخلى عن بر الشام، ولزم لذلك أن تبادروا إلى المجيء إلى مصر براً جامعين القوات العسكرية التي في معيتكم كافة وسائر الرجال والمستخدمين المصريين"[91].

فبدأ المصريون انسحابهم من بلاد الشام في ديسمبر عام 1840م، وفي 19 جويلية عام 1841م انسحب آخر الجنود المصريين من مدينة غزة باتجاه الأراضي المصرية[92]، وعمل بونسونبي لدى السلطان عبد المجيد على تشديد القيود في فرمان تولية محمد علي ولاية مصر الذي صدر في 13 فيفري عام 1841م، فنصح نابير للباشا برفض هذه القيود، الأمر الذي دفع ببالمرستون Palmerston ومترنيخ للضغط على السلطان لتعديل الفرمان وتخفيف الشروط فأصدر السلطان فرماناً جديداً في 01 جوان عام 1841م اقتضى في جوهره على منح محمد علي وذريته من الذكور من بعده حكم ولاية مصر، مشروطة بألا

---

[89] – نوفل نعمة الله، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، حق: ميشال أبي فاضل وجان نخول، جروس برس، طرابلس – لبنان، د.ط ، 1990 ، ص 307 – الخازن فليب وفريد، المرجع السابق، ص ص 10–11.

[90]– عبد الحميد محمد أبو صيني، "حالة الصراع العسكري بني الدولة العثمانية وولاية مصر ومواقف الدول الأوروبية منه 1831م– 1840م"، مجلة جامعة طيبة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة 6، العدد 12، 1438هـ، ص 1006.

[91]– نقلا عن: عبد الحميد محمد أبو صيني، المرجع السابق، ص 1006.

[92] – عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص 203.

يزيد عدد الجيش المصري عن 18 ألف جندي وأخذ إذن السلطان في إنشاء السفن الحربية[93]، ويبدو أن حلّ المسألة المصرية وفق ما ترتضيه بريطانيا وعزل تيير عن رئاسة الوزراء في فرنسا منحا الفرصة لفرنسا بالعودة للمسرح الدولي وفكّ عزلتها لاسيما وأن بريطانيا بدأت بتطبيق سياستها الجديدة لإبقاء روسيا حبيسة البحر الأسود والتي احتاجت لتنفيذها إلى مساعدة فرنسا، فوقّعت كل من الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا معاهدة المضائق في 13 جويلية عام 1841م، والتي منحت الدولة العثمانية وروسيا حق الإبقاء على سفنهم الحربية في البحر الأسود إلا أنها منعت مرور السفن الحربية لكافة الدول من مضيقي البوسفور والدردنيل[94] من تلك اللحظة في وجه جميع السفن الحربية الأجنبية ماعدا السفن الخفيفة غير مقاتلة التي تستخدم عادة في خدمة وفود الدول الصديقة مادام الباب العالي في حالة سلم، أما في حالة حرب يحق له أن يسترجع حق استدعاء أساطيل خلفائه إلى مياهه[95]، وهكذا فقد السلطان حقوقه الطبيعية فأصبح بواب أوروبا في بلاده نفسها، لكنه تلقى لقاء ذلك ضمانة للحفاظ على سلامة أراضيه، غير أن نتائج هذا القرار الدولي تجاوز كثيرا من مصالح الباب العالي العثماني المباشرة، فقد وجد فيه الطرفان المتنافسان الانجليزي والروسي تعويضات وضمانات متبادلة في أي صراع قد ينشأ سواء في المتوسط أم في البحر الأسود، وعبر هذه البحار فقدت المرامي التوسعية في آسيا الوسطى وفي الممر المؤدي إليها مباشرة حدتها بصورة مؤقتة.

فجاء الإنسحاب المصري من شبه الجزيرة العربية كرسالة عمليّة من قبل محمد علي للبريطانيين تعبّر عن قبوله لتنفيذ اتفاقية لندن في محاولة لتفادي أي مواجهة عسكرية مع البريطانيين في بحار وسواحل شبه الجزيرة العربية التي تمتلك فيها بريطانيا أفضلية المناورة

---

[93]– بيير كربتيس، إبراهيم باشا، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937، ص278 .

[94]– عبد العزيز محمد شناوي وجلال يحيي، وثائق و نصوص التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، الإسكندرية، 1969، ص ص 562– 565.

[95]–جوزف حجّار، المرجع السابق، ص 216

والإمداد نظراً لتفوق أسطولها البحري على نظيره المصري وهيمنته على بحار تلك المنطقة انطلاقاً من قواعدها في الهند[96].

وفي أخر هذا المبحث تبين لنا أن سياسة محمد علي باشا إزاء الدولة العثمانية تطورت من الخضوع وتنفيذ الأوامر إلى التمرد والعداء خاصة بعد عام 1827م حيث حرص خلالها الباشا على أن يتوسع في مختلف المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية في المغرب والمشرق العربيين، فقد أغرته فرنسا بالقيام بالحملة على الجزائر تصبح بعدها الدولة الأخيرة تابعة له، كما أغرته إنجلترا بالتدخل في بلاد الشام لتكون عوضا عن بلاد اليونان الأوروبية، وقد ساعد أيضا انجلترا على أن تكون سورية من نصيب محمد علي في صلح كوتاهية عام 1833م، فلم يدرك محمد علي أن هناك فخاً أوروبياً سواءاً كان انجليزياً أم فرنسياً قد نصب له لإثارة العداء مع الدولة العثمانية بغية اضعافهما في نهاية الأمر لصالح الدول الأوروبية من أجل تقسيم تلك المناطق بين فرنسا وانجلترا على وجه الخصوص.

4- مرض محمد علي باشا ووفاته

إن مدة حكم الوالي محمد علي باشا في مصر (1805- 1848) كانت مرحلة مزدهرة بكل المقاييس فقد كانت نهضة عامة لكنها لم تكن تخلوا من الأثار السلبية على المجتمع المصري وحتى على الدولة العثمانية، وعلى الرغم مما صاحب ذلك من أحداث جسام على قدر كبير من الأهمية إلا أنه أدخل مصر إلى العصور الحديثة، من خلال اصلاحاته وإنجازاته الكبيرة التي جعلت مصر تنافس الدول الأوربية. لكن كثيرة هيا البدايات وكثيرة هيا النهايات، ولكل بداية نهاية، وكل نهاية هيا بداية جديدة وربما لنهاية جديدة، وهذا ما حدث مع شخصية محمد علي باشا؛ فكيف كانت نهايته؟

[96]- عاصم عبد الحفيظ الأحمر، التنافس الفرنسي البريطاني في عهد محمد علي باشا بين عامي 1805م- 1849م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، ص 297.

عادت مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية وارتبطت بها، وحرم التدخل الأجنبي محمد علي باشا من ثمار الانتصارات التي حققها، ووضعت مصر تحت الإشراف أو الوصاية الأوروبية[97]، وأصبحت سلطته بعد فرماني 13 فيفري و 19 أفريل 1841 م قاصرة على مصر والسودان، فأدى هذا إلى أن يتنازل عن عشرة ألاف جندي من جنود سوريا تطبيقًا لنص الاتفاق الذي حصر عدد الجيش بثمانية عشر ألف جندي[98]، وقد اضطره هذا الأمر إلى إعادة تحصين مدينة الإسكندرية على يد مهندسين فرنسيين، وأرسل حفيده عباس باشا إلى الباب العالي يلتمس منه أن يمنحه تقليدًا أوسع نطاقًا من الأخير، فأرضاه الباب العالي بأن منحه لقب الصدارة العظمى من غير أن يجيبه إلى طلبه.

كانت أزمة سنتَيْ 1839 م –1840 م خاتمة النشاط في حياة محمد علي باشا، وإن كان قد سلخ بعد ذلك حقبة زمنية بأكملها وهو يحكم مصر فإن العبء كان ثقيلًا وخيبة الأمل من الفداحة بحيث لم يستطع أن يضمن ذلك الشيخ الهرم الذي جاوز السبعين، فعلى عاتقه وحده كان عبء المسؤولية وبذل الجهود واتخاذ القرارات الحاسمة وتدبير الرأي، كما أن أعصابه قد أصبحت متعبة إلى حد أنه كان كثيرًا ما كانت تنتابه نوبة الغضب الشديد، على أنه حتى بعد أن مرَّت الأزمة وضعفت مرارة خيبة الأمل؛ فإن أعصابه[99] قد ظلَّتْ

---

97 – .زين العبدين شمس الدين نجم، **المرجع السابق**، ص 100

98 – جورج يانج، علي احمد شكري، **المرجع السابق**، ص 154.

99– ففي إحدى الليالي وهو في الإسكندرية بعد أن فرغ محمد علي من المجلس الذي دارت فيه مناقشات حادَّة بينه وبين كبار رجال دولته آوى إلى مخدعه، ولكن الأرق قد تملَّكه ولم تذق عيناه النوم مطلقًا، وفي الصباح الباكر غادر فراشه وولى وجهه شطر قاعة الاستقبال وكانت خالية طبعًا؛ لأن أحدًا من الوزراء لم يكن موجودًا في مثل تلك الساعة المبكرة، وإذ ذاك استلقى محمد علي على "الكنبة " وأجهش في البكاء والعويل بحالة عصبية مسموعة وبعد برهة قصيرة أرسل في إحضار طعام الإفطار، ولكنه لم يتناول منه شيئًا عندما أُحضِر إليه، وقد رفض تناول قدح القهوة كما رفض تدخين الساعة طلب الباشا المركبة وبدأ ينزل درج السلم، وكان الوزراء قد حضروا جميعًا على عجل وقد ظلوا واقفين أمام مولاهم دون أن يجرأ أحد على الدنو منه، فما كاد بصره يقع عليهم حتى صاح فيهم بأنهم قد خانوه جميعًا، وأنه قد عقد النية على أن يغسل يديه من كل شيء وأن يغادر الديار لحج بيت الله الحرام. ينظر: هنري دودويل، المرجع السابق، ص ص 247– 248.

متعبة برغم ما كان يبدو عليه من علامات الصحة الجسمانية، وفي منتصف عام 1844 م ثقل عبء السنين على عاتقه، وكان من نتيجته هذا الحادث المرعب[100].

فكر محمد علي أن يتخلى عن الملك ويذهب إلى مكة ليقضي بقية أيامه، إلا أن سفراء الدول الأوروبية أزالوا ما في نفسه نحو ابنه[101] الذي توعكت صحته في سنة 1845م، وقد استقر رأي الأطباء على أن يسافر إلى أوروبا طلبًا للراحة، وما كاد يصل هناك حتى تسابقت الدول الأوروبية إلى استقباله وبخاصة فرنسا وانجلترا، وبعد أن استعاد صحته عاد في صيف 1846م، ليجد والده قد سافر إلى الآستانة بدعوة رسمية لتقديم فرائض التبعية بمناسبة صدور فرمان الوراثة لأسرته لسنة 1846م المقبلة، مشتملاً امتياز حكم القطر المصري بمصادقة الدول الأوروبية[102].

وصل محمد علي باشا إلى إستانبول في 19 جويلية 1846م، وبقي في إستانبول تسعة وعشرين يومًا، وحتى وهو في هذا العمر اجري اتصالاته ليكون صد اً ر أعظم، وتدل محاولاته هذه على طبيعته الانتقامية فقد كان يريد الصدارة لينتقم من أكبر عدو له في الحياة وهو رشيد باشا، زيارة محمد علي هذه إلى إستانبول ستكون هي الأولى والأخيرة طيلة حياته، أما ابنه الكبير إبراهيم باشا فقد زار إستانبول وبقي فيها مدة سنة واحدة في شبابه، وقد زار محمد علي بعد عودته من إستانبول مدينة كافلا التي غادرها قبل سبعة وأربعين عامًا من مغادرتها وأكرمه حاكمها عند مجيئه[103].

وخلال السنوات الثماني الأخيرة من حياة محمد علي باشا1841م- 1849م أخذت قواه البدنية والعقلية تتدهور باستمرار، وأصبح يفقد تمالكه لنفسه شيئًا فشيئًا ودب النفور بينه وبين ابنه الأكبر إبراهيم، الذي لم يسمح له بأن يلعب في إدارة البلاد الدور الذي كانت تؤهله

---

[100]- هنري دودويل، المرجع السابق، ص 247.

[101]- عمر الاسكندري، سليم حسن، المرجع السابق، ص 197.

[102]- .جورج يانجو علي احمد شكري، المرجع السابق، ص 155.

[103]- ياماز أوزتونا، المرجع السابق، ص41

له مواهبه، حيث نجد أنه وحتى وهو في عام 1846م عندما أصيب بمرض عقلي مازال يحتفظ بمقاليد كل الأمور بين يديه بدرجة كبيرة الأمر الذي أصابها بالخلل الكبير[104]

فمثلت اتفاقية لندن بداية غروب شمس محمد علي، الذي عاش بعدها ثماني سنوات[105] وبسبب مرضه أصدر محمد علي باشا في أفريل 1848م أمراً بتعيين ابنه إبراهيم باشا والياً على مصر الذي كان هو الآخر مريضاً وبعد تنصيب إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والياً على مصر وبعد صدور فرمان من السلطان العثماني بتقليد إبراهيم باشا ولاية مصر لم يستمر في الحكم أكثر من سبعة أشهر فقط حتى أدركته المنية في 10 نوفمبر 1848م، ولم يتجاوز عمره الستين عاماً، فخلفه على كرسي الولاية ابن اخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد علي باشا ، وفي هذه المدة اشتد المرض على محمد علي باشا واصبح في اواخر حياته التي شارفت على الثمانين (1769م – 1849م) يعاني من قسوة المرض، واعتلت صحته كثيراً، واصيب بضعف في قواه العقلية وضعف ذاكرته (أصيب بالخرف)، فلم يعد في استطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم، ولم ينجح الأطباء في علاج هذا المرض، فتفاقم مرضه كثيراً حتى وافته المنية في قصر التين في الاسكندرية في 02 أوت 1849م، وطلب بإصرار أن يدفن في مسجد القلعة، ونقل جثمانه إلى القاهرة، إلا أن مراسيم الجنازة كانت متواضعة والحضور كان ضعيفاً بسبب عدم اهتمام الوالي عباس باشا، فقد قال جون موراي القنصل البريطاني في مصر وهو من الاشخاص الذين حضروا مراسيم تشييع جنازة الوالي محمد علي باشا إلى مثواه الأخير:"كان الحضور في الجنازة حضوراً هزيلاً عثاً كثيراً من القناصل والسفراء لم يدعوا للمشاركة، ولم تغلق الحوانيت ولا الدوائر الحكومية ...إن انطباع عام يسود مفاده أن عباس باشا هو الجدير باللوم فقاد قلّل من شأن جده ..."[106].

---

[104]– جون مارلو، **تاريخ النهب الاستعماري لمصر**، تر: عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1976 ، ص62.

[105] – محمد إلهامي، العلاقات المصرية التركية الجذور والثمار، (د.ط)، المعهد المصري للدراسات، مصر، 2017، ص 19.

106– سامي صالح الدوري، عظماء صنعوا تاريخاً، المرجع السابق، ص ص 153– 154.

وبعد وفاة محمد علي دخلت مصر مرحلة تاريخية جديدة في حياتها السياسية والثقافية والفكرية، فلم يكن أتباعه من بعده بنفس الذكاء والتفكير والخبرة السياسية.

ثالثًا: عوامل وأسباب فشل محمد علي باشا في تحقيق طموحاته

تعددت أسباب فشل تجربة محمد علي ما بين أسباب متعلقة بمحمد علي نفسه وبطبيعة المجتمع المصري وامكانياته، وماهي مرتبطة بطموح محمد علي المتنافي مع مصالح الدول الأوروبية، فكيف ذلك؟

1- أسباب وعوامل متعلقة بشخص محمد علي باشا وبالمجتمع المصري

أفضت جهود محمد علي في تأسيسه لدولته إلى إقامة نظام إداري مركزي، وانطوت هذه الجهود على سلسلة من القرارات المرحلية استجابة للظروف، ولقد صنعت هذه الاستجابات والقرارات في التحليل النهائي الزخاريف الخاصة بدولة حديثة، كان التقدم فيها يتم خطوة خطوة في سلسلة من التجارب والأخطاء التي أسست سلطة مركزية وحققت سيطرة على التجارة الداخلية والخارجية، وإصلاحًا شاملًا للزراعة وإقامة للصناعة، وحققت أخيرًا التوسع فيما وراء الحدود، كذلك كان القانون والنظام هما حجر الزاوية في سياسة محمد علي الداخلية في مصر.

كان مصدر شرعية محمد علي الوحيد تلك الورقة الآتية من الآستانة والحاملة لطغراء[107] السلطان العثماني. ذلك أن محمد علي لم يكن فاتحا يمكن أن يبني شرعيته على السيف، كما أنّه لم يكن من الأشراف حتى يستطيع أن يبني شرعيته على نسل رفيع، وهو أيضا لم يكن من الأمراء المحلين ذوى السطوة والجاه وبالتالي يمكن أن يُنعم ويغدق على أتباعه الهبات حتى يؤسس لشرعية جديدة. أما الزعامة الشعبية الممثلة فى المشايخ وكبار التجار الذين بايعوه واليا عليهم بشروطهم[108]، وهي الفئات التي بز دورها إبان فترة أواخر

[107]- الطغراء: هي العلامة المرسومة على الرسالة، وتطلق على الشارة تحمل اسم سلطان عثماني أو ما ينعت به.

[108]- هنري لورانس، اللعبة الكبرى: المشرق العربي والأطماع الدولية، تر: عبد الحكيم الأربد، مر: رجب بودبوس، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، بنغازي – ليبيا، 1993، ص 12.

القرن الثامن عشر وخلال مقاومة الحملة الفرنسية، ثم خلال فترة ما تسمى بالفوضى السياسية(1801– 1805)، ثم أثناء ثورة القاهرة والتي جاءت بمحمد علي إلى السلطة[109]، فقد عمل حالما وصله الفرمان السلطاني على التخلص منهم، فنفى عمر مكرم قائد تلك الزعامة الشعبية، إلى دمياط ولم يسمح له بعودة شرعيته النابعة من الآستانة فقد كان يقيم احتفالا مهيبا فى القلعة عندما يصل التّتر من عاصمة السلطنة مبشرا بتجديد الولاية له سنويا، وكان الفرمان يقرأ فى مواجهة حشد غافر من الأعيان والمشايخ والتجار مذكرا إياهم أنه صاحب الحق الأوحد فى الولاية والحكم. وقد وصله هذا الفرمان للقاهرة إلا بعد مرور سنوات طويلة، وأما بخصوص سائر المشايخ والتجار فقد صادر أملاكهم واستولى على أوقافهم ولم يأخذ برأيهم ولا استعان بهم فى حكم البلاد[110].

نسج محمد علي على منوال قدماء السلاطين العثمانيين مؤسسي الامبراطوريات، فاقتحم مشروع تأسيس دولة قوية مركزية تشرف عن طريق الاحتكارات على أهم الأنشطة الاقتصادية كالصناعات التقليدية والتجارة والزراعة. ونظراً على لتزايد أثر حضور أوروبا المصنعة استعمل خبراء أوروبيين وظهر بمظهر المعصّر[111]. وكانت نتيجة ذلك عندما حدث الغزو الاقتصادي للسوق المصرية عقب انهيار نظام الاحتكار لم تكن هناك طبقة تجارية مصرية قوية تقاوم ذلك الغزو الاقتصادي الخارجي، كذلك ضاقت القوى المنتجة الرئيسية في المجتمع– الفلاحون والعمال– ذرعًا بالتجربة، فقد عاش الفلاحون في إطار مشروع محمد علي من سياسة الاحتكار التي اتبعها، والتي بدأت في التصاعد منذ عام 1812م باحتكار محاصيل الحبوب في الصعيد بما في ذلك الكمية التي كان الفلاحون يستبقونها لاستهلاكهم الخاص، وكذا بالحيلولة المزارعين وبين بيعهم لحبوبهم للتجار مباشرة، وهي العملية التي تصاعدت وشملت كل المحاصيل، ولقد أدت هذه السياسة في النهاية إلى

---

[109]– رزق بونان لبيب ويوسف محسن، تحديث مصر في عصر محمد علي، ط1، مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، 2007، ص 125.

[110]– هنري لورانس، اللعبة الكبرى: المشرق العربي ولأطماع الدولية، تر: عبد الحكيم الأربد، مر: رجب بودبوس، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، بنغازي – ليبيا، 1993، ص 12.

[111]– المرجع نفسه، ص 12.

سلسلة من الأزمات الغذائية وعجز في الاستهلاك المحلي للحبوب[112]، وقد أسفرت سياسة الاحتكار هذه عن أضرار غير محدودة بمصالح الفلاحين المصريين الذين كانوا مجبرين على تسليم محاصيلهم للباشا بسعر منخفض، وبالتالي لم يجنوا أي ربح من السعار المرتفعة التي كان يتقاضاها محمد علي من التجار الأجانب، كما أنهم كانوا يتسلمون مجرد إشعارات ضرائب بدلًا من ثمن محاصيلهم. كما عانوا أيضًا بشكل دوري من تزايد الضرائب التي شكلت ضغوطًا كبيرة عانى منها الفلاح المصري، وهو المنتج الأساسي في البلاد[113]

كان التغير الذى شهدته مصر فى ظل المشروع السياسي لمحمد على والذى حاول الخديو إسماعيل أن يتابعه فى ظروف تاريخية غير مواتية، بما أسفر عنه من تحولات أرست قواعد الدولة الحديثة فى مصر، كان ذلك التغير مشروعاً لحاكم فرد حاول الاستفادة من ظرف تاريخي معين، ولم يأت نتاجاً للتطور الطبيعي للمجتمع المصري، ولم تكن الجماهير طرفاً فيه، ولم يهتم النّظام بتعبئتهم لدور محدد يلعبونه فى التجربة رغم إدخال نظام التجنيد العسكري ورغم إقامة نظام التعليم الحديث[114]، ولكن تلك التّطورات كانت تلبى حاجة معينة عند الحكام ولا تهدف إلى صهر الجماهير فى بوتقة المواطنة، أو دعم الشعور بالانتماء الوطني.

ورغم ما حققته الصحافة من انتشار منذ عهد الخديو إسماعيل، وما عرفته مصر من نهضة ثقافية عندئذ إلا أنّ التّطور جاء سطحياً، مقصوراً على نخبة محدودة من المصريين والمتمصرين، ولم يضرب بجذوره فى أعماق المجتمع، مما أوجد نوعاً من الازدواجية الثقافية، احتلت الثقافة التقليدية الموروثة مساحة واسعة بفضل تغلغلها بين الجماهير وامتداد

112– رزق بونان لبيب ويوسف محسن، المرجع السابق، ص 125.

113– المرجع نفسه، ص 125.

114– رؤوف عباس حامد، التنوير بين مصر واليابان: دراسة مقارنة في فكر رفاعة الطهطاوي وفوكوزاوا يوكيتشي، ط1، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2001، ص 20.

جذورها فى أعماق التاريخ، وظلت الثقافة الحديثة طافية على السطح حيث نخبة المثقفين.[115]

ومع ازدياد أعداد الأجانب في مصر في أواخر عهد محمد علي وعهود أبنائه، بدأت الثقافة الأوروبية في الانتشار، فبدأ كبار الموظفين يأخذون عاداتهم في الطعام والأكل بالشوكة والسكين وشرب النبيذ وشاعت الملابس الأوروبية وافتتحت النوادي والبارات وأدخل التقويم الإفرنجي بالتدريج، وهذا ما ظهر أثره لاحقا في تغيير النخبة الأرستقراطية المصرية وعاداتها عن سائر الشعب[116].

كما أدخل محمد علي باشا إلى مصر التكنولوجيا الحديثة، ولكن الملاحة الدقيقة توضح أنه لجأ إلى تطبيق أشكال من التنظيم الاجتماعي بهدف تمهيد الطريق للتحديث التكنولوجي، لكن هذه الأشكال من التنظيم الاجتماعي كانت هي بذاتها مخالفة ومضادة لأشكال التنظيم الاجتماعي التي دعمت التقدم التكنولوجي، لكن هذه الأشكال كانت هي بذاتها مخالفة ومضادة لأشكال التّنظيم الاجتماعي التي دعمت التقدم التّكنولوجي لانطلاق أوروبا في عصر صعود الرأسمالية، ومشروع الحّر والملكية الفردية، والتوسع الرأسمالي، وقد حاول محمد علي باشا أن يحل مشكلة التراكم الرأسمالي من خلال تنصيب نفسه المالك الوحيد للأرض الزراعية، وأقام صناعات جديدة مملوكة للدولة على أسس احتكارية، فلقد احتكرت الدولة التجارة في معظم الحاصلات الزراعية، وكذلك الحال بالنسبة للتجار الخارجية، وهو ما أدى إلى خلق نمط من نظم رأسمالية الدولة التّي دمرت الطبقة المتوسطة المصرية، التّي كان عليها أن تأخذ على عاتقها نتيجة سعيها وراء المكاسب والرباح عبء خوض المبادرة بالتّحديد والتّطور وتحميل تكلفتها، كذلك لم يحدث أي تقدم حقيقي في مجال تنظيم العمل، حيث اعتمد الباشا على نظام السّخرة كعمل مجاني مفروض على السكان واعتبره أمراً طبيعيًا واقتصاديًا[117]. وأدى سوء حال العمال وإجبارهم على العمل إلى سخطهم،

---

[115]– المرجع نفسه، ص ص 20– 21.

[116]– فتحي سليمان أحمد، المرجع السابق، ص 69.

[117]– رزق بونان لبيب ويوسف محسن، المرجع السابق، ص 123.

فرواتبهم الضّئيلة كان يخصم منها تكلفة وجباتهم، وكثيرًا ما يأخذون بدلا منها منتوجات يضطرون لبيعها بخصم يصل إلى% 25 ، بالإضافة للقسوة في معاملتهم حتى تعمد بعضهم تعطيل الآلات وحرق المصانع عمدًا كما حدث في أحد مصانع أسيوط[118].

على حين كانت حركة الجيش المصري خارج حدوده إما خدمة للدولة العثمانية أو محاولة لتحقيق طموح سياسي لحاكم مصر، ومن ثم كان حصاد التحرك المصري خارج الحدود سلبياً على التجربة المصرية.

2- أسباب وعوامل خارجية (طموح محمد علي المتنافي مع الغرب)

كان التدخل الأوروبي خاصة فرنسا وانجلترا من الأسباب الأساسية التي أدت إلى فشل تجربة محمد علي باشا في عدم تحقيق طموحه وحلمه في إقامة امبراطورية له ولأحفاده من بعده على حساب الولايات الخاضعة للدولة العثمانية؛ فكيف ذلك؟

كانت الدول الأوربية تطمح بالاستيلاء على بلد معين من بلدان الشّرق لكي تسارع بافتتاح المدارس التبشيرية بمرسليها الدينيين – الإرساليات التبشيرية – ليعدوا لها طريق الاستعمار، والدليل ما قاله المبشر زويمر رئيس مؤتمر المبشرين الذي عقد في القدس عام 1935 عندما خاطب زملاءه :" لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى توفيق، إن مهمة التبشير – التظليل – التي ندبتكم إليها دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، والفضل أليكم وحدكم في هذه الحقبة – من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا – على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية، إنكم أعددتم في ديار المسلمين جيلاً لا يعرف

[118]– فتحي سليمان أحمد، المرجع السابق، ص 66.

الصلة بالله، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية"[119]، ويمكن القول أن الضعف الداخلي للعرب آنذاك كان يقابله التآمر الخارجي الذي استهدف الكيد للشريعة الإسلامية وتشويه معالمها الفكرية .

كما أن توسع محمد علي في بلاد الشام انسجم مع مخططات فرنسا في المنطقة وتنافسها مع بريطانيا. حينها كانت فرنسا تريد أنّ تستخدم محمد علي من أجل تقوية نفوذها الذي وهن بعد حروب نابوليون في أوروبا، وكان هذا يتعارض مع مصالح كلّ من بريطانيا وروسيا، كما أنّ إقامة دولة مصرية تمتد من مصر إلى حدود الأناضول، أو حتى حصول هذه المنطقة على استقلالها عن العثمانيين كان يخلّ بالتّوازن الدولي في الشرق الأدنى، حين تصبح مقدرات المنطقة بأيدي قوى محلية فتية مستقلة القرار في التصدّي للنفوذ الأجنبي سياسيا واقتصاديا على عكس الدولة العثمانية الغارقة في الضعف؛ لأن تمتّع المشرق العربي بقدرات بشرية وثروات طبيعية وموقع استراتيجي، وإمساكه بقراره، كلّ ذلك كان سيشكل كارثة على مصالح الغرب[120].

كما أن توسع محمد علي باشا في الجزيرة العربية في اتجاه الحجاز، وجنوبا إلى عدن، وإلى سواحل الخليج العربي في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، ومحاولته فرض هيبته على المشيخات العربية من جهة، ووقوع المنطقة في قلب مواصلات بريطانيا مع الهند والشرق الأقصى، جعل بريطانيا تقف بقوّة طوال القرن المذكور حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى ضد أي مشروع استقلالي للمنطقة عن الدولة العثمانية. كانت المسألة المصرية أولاً وأخيراً مسألة بريطانية تتعلق بمواصلات بريطانيا الاستراتيجية مع الهند عبر مصر[121]، فيما كانت" المسألة الشرقية "بالنسبة إلى روسيا ألا تقع العاصمة العثمانية وممراتها في يد قوّة

---

[119]– نقلاً عن: عبد الستار فتح الله سعيد، المرجع السابق، ص 49 .

[120]– عبد الرؤوف سنو، أسد رستم والاحتلال المصري لبلاد الشام والسياسات الأوروبية في ضوء كتابه: بشير بين السلطان والعزيز، أعمال ندوة" المؤرخ أسد رستم"، الجامعة الأمريكية، بيروت، 20 أذار، 2010، ص 04.

[121]– رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج2 ، ص15

قوية تتصدّى لطموحاتها في السلطنة[122] بناءً عليه عملت بريطانيا بين الأعوام 1798م و 1820م على فرض هيمنتها أولاً على ساحل عُمان، وبعد ذلك حتى العام 1916م على تثبيت هيمنتها على الإمارات العربية في الخليج وتثبيت الأسر الحاكمة هناك تحت مسمّى "السلم البريطاني[123]Pax Britannica) .

وتذهب الرواية الشائعة إلى أن بريطانيا كانت مصممة على إجهاض جهود محمد على الطموحة بعد أن أدركت أن سياسة الاحتكار التي كان يطبقها فى الأراضي التي مد نفوذه عليها مكنته من إغلاق أسواق واسعة أمام المنتجات البريطانية. وأخذ عداء بريطانيا لمحمد على بُعدا شخصيا متمثلا في اللورد بالمرستون وزير خارجية الملكة فيكتوريا، الذى كان يحتقر محمد علي مشبها إياه بصبى القهوة. وتؤكد تلك الرواية الشائعة على أن عداء بالمرستون الشخصي لمحمد علي كان نابعا من إدراكه أن سياسة التصنيع التي انتهجها الباشا في مصر كانت تضر بالمصالح البريطانية أكثر من سياسة الاحتكار[124].

إضافة إلى ذلك كانت بريطانيا تريد خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ربط سورية وبلاد ما بين النهرين بخطّ حديدي مع الهند، وتطوير مشاريع ملاحة في أنهار العراق. لكن وجود محمد علي باشا في المنطقة منعها من تنفيذ مخطّطاتها[125].

رفض محمد علي أيضا منح فرنسا امتيازاً لشقّ قناة السويس، خوفا من أنْ يستجلب المشروع تنافسا أوروبيا على بلاده، وقال في هذا الشأن كلمته الشهيرة: " لا أريد أن تكون

---

[122]– عبد الرؤوف سنّو، "العلاقات الروسية – العثمانية (1687م– 1878م)، سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة"، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع 73 و 74، 1984، ص ص 56– 60.

[123]– عبد الرؤوف سنّو، اتفاقات بريطانيا ومعاهداتها مع إمارات الخليج العربية: فصول من سياسة الهيمنة والتفتيت"، مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان 176 و177، 1998، ص ص 45– 48.

[124]– خالد فهمي، المرجع السابق، ص 3.

[125]– رستم، المرجع السابق، ج2 ، ص ص 153– 157.

قناة السويس بوسفوراً آخر"[126]، في إشارة إلى التنافس بين الدول الأوروبية للاستحواذ على مضيق البوسفور ذي الأهمية الاستراتيجية.

وفي الأخير نجد أغلب المؤرخين يرون أن القوى الغربية مسؤولية عن فشل الجهود الحثيثة التي بذلتها مصر من أجل اللحاق بركب الحداثة، وبالتالي يبدو أن محمد علي باشا كبطل كانا يواجه قوى أكبر منه، فقد كان موقع مصر المتميز ذلك الموقع الذى وصفه الجغرافي الشهير جمال حمدان بالعبقرية بمثابة لعنة حيث جذب أنظار الأجانب لأهميته وزاد من قدرتهم على التدخل فى أمور مصر الداخلية وعلى إجهاض المشاريع النهضوية الوطنية.

ومما لا شك فيه أن للتدخل الأوروبي كان سبب من أسباب فشل مشروع محمد علي الذي انتهى بتوقيع معاهدة لندن 1840م، والتي أعطت مصر نوعاً من الاستقلال الذاتي أدى إلى أن تكون لمصر شخصية منفصلة عن البلاد العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني المباشر، إذ أدى ذلك إلى أن تتوارث أسرة محمد علي الحكم على مصر. والأخطر من ذلك أن فشل مشروع محمد علي فتح المجال أمام الدول الأوربية للتدخل في شؤون البلاد العربية من خلال الإرساليات والامتيازات الأجنبية.

ثالثاً: انعكاسات طموحات محمد علي الوحدوية على العلاقات الدولية

1/ سقوط الدولة السعودية الأولى

تعد الحملة المصرية التي قادها محمد علي في شبه الجزيرة العربية في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي من أخطر الحملات العسكرية في تاريخ الجزيرة العربية بصفة خاصة، وتاريخ العرب الحديث بصفة عامة، نظراً لما تمخض عن هذه الحملة من تشكيل هذه المنطقة لحوالي نصف قرن من الزمان، فقد استطاعت قوات هذه الحملة القضاء على

[126]– المرجع نفسه، ج1 ، ص 89.

الدولة السعودية الأولى، ذلك الكيان الذي شمل الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية، وكان لانهيار هذه الدولة أثر كبير غي تواجد المصري في الحجاز وعسير واليمن ونجد والخليج العربي. فكيف ذلك؟

ازداد التدخل البريطاني في الخليج العربي، وتهديدهم لمحمد علي باشا بالابتعاد عن الخليج وعدم التدخل في شؤونه[127]، ومن المعروف أنّ بريطانيا بدأت تتطلع إلى الخليج منذ القرن السابع عشر الميلادي، ولكن بظهور آل سعود في الخليج بدأ نفوذها يتقلص تدريجيا، فلم ترد الدخول في صراع مباشر مع آل سعود في تلك الفترة، وبسقوط الدولة السعودية على يد محمد علي بشا بدأ النفوذ السافر لبريطانيا في الخليج [128].

وبالرغم من الضربات التي وجهت للحركة الوهابية عسكرياً وسياسياً لكن لم يقض عليها كعقيدة وتعاليم في نفوس العرب المسلمين، فقد فسحت المجال لقيام حركات مشابهة في البلاد العربية كالحركة المهدية في السودان والحركة السنوسية في ليبيا، وكان لصراع محمد علي مع الوهابية تأثير كبير على مصالح العرب، إذ أتاح ذلك للبريطانيين الفرصة لإحكام القبضة على الخليج العربي وإعداد حملة قوية ضد القواسم[129].

تلقت الدولة السعودية الأولى ضربة قوية عام 1818م من طرف محمد علي باشا، وعلى اثر ذلك بدأت القبائل تتنازع فيما بينها للحصول على سيادة[130]، كما بدأ الارتياب والخوف لدى انجلترا من محمد علي الذي أصبح على مشاريف البحر الأحمر والخليج العربي حيث عُدّ من أهم الطرق المؤدية إلى الهند وأصبحت انجلترا تتدخل في شؤون دول

---

[127]– محمد عبد العال محمد علي، المرجع السابق، ص 211.

[128] – جاكلين اسماعيل، " سياسة بريطانيا في الخليج والكويت في القرن التاسع عشر"، مجلة الدراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 06، أكتوبر 1978، الكويت، ص ص 11– 12.

[129]– محمد رفعت، المصدر السابق، ص 32.

[130]–محمد بن سليمان بن عبد العزيز الخضري، الدور السياسي والحضاري في عهد الدولة السعودية الثانية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، ع 30، ربيع الأخر 1422هـ ، ص 3، 403.

الخليج العربي، وكانت تلك الدول محميات انجليزية كما صرحت انجلترا بأن الخليج العربي ملك لها، بحكم تفوقها البحري، وقواعدها التي أنشأتها في الخلج العربي[131].

وملاحظ أن الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا كانت تراقب أوضاع المشرق ككل وتتدخل متى سمحت لها الفرصة وتستعمل كل الوسائل حتى تمنع قيام أي دولة اسلامية أو وحدة عربية اسلامية لأنها تهدد مصالحها في المنطقة وتجارتها إلى في الهند. ولهذا نجدها كانت تقدم كل الدعم لمحمد علي باشا ولدولة العثمانية في القضاء على الحركة الوهابية ومنعت قيام الدولة السعودية الولى والثانية.

2/ دور محمد علي باشا في عودة اليهود الى فلسطين

أ- القدس في العهد العثماني

ظلّت فلسطين تحت سيطرة دولة المماليك إلى أن قامت الدولة العثمانية بالسيطرة عليها 1516م- 1517م. وكان لدولة الخلافة العثمانية من القوة ما مكنها من السيطرة على معظم شرق أوروبا(بلغاريا، يوغسلافيا، رومانيا، اليونان...) بالإضافة إلى العراق وبلاد الشام والحجاز ومصر والسودان ومعظم المغرب العربي باستثناء المغرب الأقصى، وكانت إحدى أهم وأقوى دول العالم في العصر الحديث، غير أن عوامل الضعف أخذت تدب في أوصالها منذ القرن 18م، وبالرغم من ذلك فقد حافظت الدولة العثمانية على الهوية الإسلامية لأرض فلسطين، ورسختها لأربعة قرون متواصلة، كما أن فلسطين يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم، ويحسون بالولاء لها، وكانوا ومعهم غير مسلمين يتمتعون بكافة الحقوق السياسية وغيرها التي يتمتع بها الأتراك[132].

131- زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث شبه الجزيرة العربية، كياناتها السياسية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 32.

132- محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس (دراسة تاريخية في رصيد التجربة الاسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين)، ط5، مركز الزيتونة للدراسات الاستشارية، بيروت، 2012 ص 137.

كما كانت فلسطين في العصر العثماني جزءاً من بلاد الشام التي كانت تكون جزئها الجنوبي ولم تكن غير تعبير جغرافي ابقى عليه الجغرافيون الغربيون ولم تكن حدودها دقيقة، وكما هو الشأن بالنسبة للفظ سوريا ظهر لفظ فلسطين من جديد في اللغة العربية في القرن التاسع عشر تحت تأثير الغرب، ثم بسبب الظروف السياسية بدأت تبرز كيانا فلسطينيا حقيقياً فكانت دائرة دمشق الادارية الممتدة حتى البحر الأحمر على طول حدود الأردن ترسم حداً شرقياً لها. كما كان اقليم جبل لبنان مستقلا ذاتياً ومقاطعة بيروت الساحلية ترسم حدها الشمالي[133].

شهدت مدينة القدس في الفترة السابقة للحكم المصري مرحلة اضطرابات سياسية، تمثلت في الصراع على النفوذ بين ولاة الشام وولاة صيدا حول بسط السيطرة عليها، مما أثر على الحياة السياسية لمدينة القدس، لتشهد حالة من عدم الاستقرار السياسي. ومما لا شك فيه أن تمتع مدينة القدس بأهمية من الناحية الدينية والتاريخية جعلها محط أطماع الولاة والحكام، ليتنافسوا فيما بينهم على مد توسعهم السياسي إليها، ونتيجة لذلك دخل والي الشام ووالي صيدا مرحلة تنافس صراع طويل انتهى لصالح ولاة صيدا، بفضل تدخل محمد علي باشا الذي استغل هذا الصراع ليبسط نفوذه على المنطقة[134].

لم يكد الصراع بين ولاة الشام وصيدا على منطقة القدس وغيرها من مناطق وسط فلسطين أن ينتهي، حتى شهدت هذه المدينة المقدسة تنافساً جديداً وأشد خطورة مما سبق بين واليها عبد الله باشا وحاكم مصر محمد علي باشا. وقد انتهى هذا التنافس بدخول الإدارة المصرية لمنطقة بلاد الشام بما فيها القدس ونتج عن ذلك انتقال القدس إلى مرحلة إدارية جديدة تختلف عن المرحلة السابقة، الأمر الذي عكس أثره على مجمل الأوضاع في مدينة القدس ونواحيها[135].

133- هنري لورنس، اللّعبة الكبرى...، المرجع السابق، ص 69.

134- صابرين صلاح الدين، القدس بين ثورتين: د راسة في الأوضاع الأمنية 1825م- 1835م، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت - فلسطين، 2015، ص 02.

135- المرجع نفسه، ص ص 02- 03.

بعد وفاة الجزار شهدت القدس وضواحيها منذ عام 1804م وحتى سقوطها، تحت سيطرة الجيوش المصرية عليها عام 1831م حالة أمنية غير مستقرة، تمثلت في ظهور بعض التمردات على السيادة العثمانية. ففي عام 1808م شهدت القدس صراعاً بين الطوائف الدينية على أثر إحراق الجزء الغربي من كنيسة القيامة، واتهام الأرمن بذلك[136]، وما أعقب هذه الحادثة من تمرد الانكشارية على والي القدس العثماني[137].

إضافة إلى ذلك اندلعت ثورة في مدينة القدس ونواحيها عام 1824م؛ كان سببها قيام الوالي الجديد لدمشق مصطفى باشا بفرض ضرائب مرتفعة على سكان القدس، بلغت عشرة أضعاف الضرائب المعتاد دفعها[138]. رفض الفلاحون دفع الضرائب التي فرضها مصطفى باشا، وثاروا على المتسلم الجديد الذي عُين لجمع هذه الضرائب؛ الأمر الذي دفع مصطفى باشا إلى الخروج لجمع هذه الأموال بنفسه من ألوية القدس وجنين، ونابلس، وقمع تمرد الفلاحين، وبعد أن جمعها عاد مرة ثانية إلى دمشق[139]، وبعد عودة مصطفى باشا إلى دمشق استأنف سكان القدس الثورة مجدداً عام 1825م[140].

في ظل هذه الظروف التي كانت تعصف بفلسطين عامة، والقدس خاصة، وعدم وجود استقراراً أمني، وحدوث ثورات وتمردات متتالية، برز محمد علي باشا ليستغل هذه الظروف في تحقيق مشروعه التوسعي في بلاد الشام بالقوة خاصة بعد رفض السلطان طلب محمد علي باشا في الحصول على بلاد الشام سلمياً، كتعويض عن تدمير أسطوله في معركة نفارين عام 1827م أثناء إخماده ثورة اليونان. فاستغل محمد علي حالات التمرد التي كان يقوم بها السكان المحليون خصوصاً الأعيان على عبد الله باشا (1819م- 1831م)، وتارةً

---

[136]- العسلي كمال جميل، القدس تحت حكم العثماني 1516م- 1831م (القدس في التاريخ)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1992، ص 259.

[137]- مناع عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1800- 1918 قراءة جديدة، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطنية، بيروت، 2003، ص ص 113- 114.

[138]- العسلي كمال جميل، المرجع السابق، ص ص 260.

[139]- مناع عادل. تاريخ فلسطين...، المرجع السابق، ص 162

[140]- العسلي كمال جميل، المرجع السابق، ص ص 260- 261.

أخرى على والي دمشق، وأخذ يجهز لحملة عسكرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا الذي استطاع السيطرة على بلاد الشام بما فيها مدينة القدس[141]، ورغم حالة الاستقرار الأمني الذي شهدته المنطقة في بداية حكم ابراهيم باشا إلا أن هذا الاستقرار الأمني والانسجام ما بين ابراهيم باشا وسكان وسط فلسطين لم يستمر طويلاً حيث توالت الثورات على الحكم المصري في المدن الفلسطينية وقراها بما فيها مدينة القدس عام 1834م[142].

ساهمت أوضاع سكان القدس من المسلمين وأهل الذمة بشكل أو بآخر في سهولة سقوط مدينة القدس تحت السيطرة المصرية أثناء حملتها على بلاد الشام، فالمسلمون وخصوصاً العلماء قد ساءتهم سياسة السلطان العثماني وولاة الشام وصيدا في رغبتهم من تقليل نفوذهم وحكمهم الذاتي الذي تمتع به لفترة طويلة، كما ساءهم السياسة القاسية التي مارستها ضدهم الدولة العثمانية في فترة الثورة عام 1825م ، عندما أعلنت القدس وأريافها الثورة على الوالي بسبب فرضه ضرائب باهظة تزيد على عشرة أضعاف الضرائب التي كان سكان القدس ونواحيها معتادين على دفعها. أما أهل الذّمة من نصارى ويهود كانوا راغبين في تغيير ظروفهم السيئة التي عاشوها في فترة الدولة العثمانية، والتّخلص من المعاملة السيئة التي عاملتهم بها الدولة العثمانية، مما جعل سكان القدس والنّواحي يرحبون بالحكم المصري الجديد، معتقدين بأنه سيجلب لهم الأمن والاستقرار وستتحسن أوضاعهم عن الفترة السابقة[143].

بعد أن وقعت مدينة القدس ونواحيها تحت الحكم المصري، بدأ إبراهيم باشا بسياسة مرضية للسكان، فخفف عنهم الضرائب الثقيلة التي كانت ترهقهم، ونتج عن تلك السياسة نشاطا في الزراعة والتجارة، واستقراراً أمنيا وحدث نوع من الارتياح للسكان، إلا أن هذا

---

[141]– شوفاني، الياس .تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى عام 1948 م، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1996 ، ص ص 259– 260.

[142]– المرجع نفسه، ص 262.

[143]– صابرين صلاح الدين، القدس بين ثورتيين: دراسة في الأوضاع الأمنية 1815– 1835، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة بيرزيت، فلسطين، ص 22.

الانسجام والتناغم ما بين السكان والحكم المصري لم يستمر طويلاً، حيث ظهرت الأطماع الحقيقية لمحمد علي باشا من وراء قيامه بحكم بلاد الشام، فلم تكن رغبته الحقيقية بحكم المنطقة هو مصلحة الأهالي، وإنّما كان هناك مصالح شخصية تمثلت برغبته باستغلال البلاد من حيث القوة البشرية والمالية. حيث قام بتطبيق نفس السياسة المتبعة في مصر من استغلال للسكان وللثروات، وفرض ضرائب جديدة وتطبيق سياسات جديدة أضرت بمصالح الفئات المجتمعية المختلفة خاصة تلك المتنفذة. فبدأت المدن الشامية تعاني من تلك السياسة الجديدة، الأمر الذي أدى إلى انتشار الثورات بما فيها ثورة عام 1834م[144].

كانت بلاد الشام بصفة عامة وفلسطين بصفة خاصة مستعصية أمام كل محاولات التدخل الأوروبي منذ الحروب الصليبية، وكانت حملة نابليون أولى المحاولات الفاشلة في التاريخ الحديث والمعاصر للوصول إليها، وبعد انسحاب محمد علي فقد أدركت القوى الأوروبية أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً، وأن الدولة العثمانية أصبحت غير جديرة بالحفاظ عليها، بسبب الضعف الذي دّب في أوصالها.

ب- بوادر ظهور المسألة الصهيونية كجزء من السياسة الأوروبية في بلاد الشام

نتج عن انسحاب الجيوش المصرية من سوريا عامة وفلسطين والقدس خاصة وعودت هذه الأقاليم إلى الحظيرة العثمانية فوضى كبيرة تمثلت في انتفاضات السكان، وعلى إثر ذلك فإن مطامع جديدة بدأت تظهر في أوساط الحكومات الأوروبية عامة وبريطانيا خاصة و التي وحدت تعبيرها في السعي لاقتطاع مناطق نفوذ معينة، ومنح فلسطين كوطن قومي لليهود؛ فكيف تم ذلك؟

إن تنوع المطامع الأوروبية في فلسطين جعل من" الأرض المقدسة "موضع اهتمام دولي، كما جعلها حالة خاصة في الشرق، وهذا ما دفع إلى عدم إمكانية استئثار أي دولة

144- ابو عز الدين، سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، ط2، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، 1929، ص 1

أوروبية بمفردها بالسيطرة عليها، وإنما كانت تتطلب إشرافاً دولياً في أواسط القرن التاسع عشر[145].

ارتبطت المصالح الأوروبية بمستويين أوروبيين: الأول هو سياسة الحكومات الأوروبية، وفكرة الحروب الصليبية السلمية التي انتشرت بشكل رئيسي في القارة الأوروبية، والثاني هو مستوى مطامح التيارات والحركات الاجتماعية، مثل فكرة إعادة اليهود المرتبطة بفكرة الألفية الأنجليكانية (وهذا المستوى هو الذي سيكون موضوع اهتمامنا في هذا المبحث)، ومع ارتباط السياسة الأوروبية في" الشرق الأدنى"، وبلاد الشام بالمصالح الاقتصادية، إلا أن التغلغل الديني والثقافي بعد عام 1856م ظل يحتفظ بتقدمه على التغلغل الاقتصادي[146].

يعود تاريخ الأطماع الأوروبية في فلسطين خلال العصور الحديثة إلى منتصف القرن السابع عشر، ففي تلك الفترة كان هناك صراع مرير بين الدول الأوروبية حول السيطرة على التجارة العالمية والتحكم في طرق مواصلاتها، وكان البيوريتانيون puritans (المطهرون Purifiers)[147] آنذاك لا يشكلون الطبقة الحكمة في انجلترا والأراضي المنخفضة فحسب، وإنّما كانوا هم أيضاً القوة الاقتصادية المنقذة فمنهم كان كبار التجار ورجال الأعمال. ونظراً للصلة الوثيقة التي كانت تربط البيوريتانية باليهودية فقد تهيأ لليهود مجال واسع للمساهمة في النشاط التجاري دون خوف من البيوريتاني آنذاك، ولم يكن عسيراً على الرئيس إنجلترا

---

[145]– نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840– 1914، ط1، دار الشروق، عمان، 2007، ص 59.

[146] – عبد الإله أحمد المصطفى، المرجع السابق، ص 201.

[147]–البيوريتانية: هي حركة انكليزية ذات مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية، السياسية، اللاهوتية، والأخلاقية. ظهر هذا المذهب لتطهير الكنيسة في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية. انتشرت البيوريتانية بشكل رئيسي في الأوساط الإنكليزية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وكثر أتباعها في إنكلترة على تعرضهم لاضطهاد الملوك من آل ستيوارت، وصارت لهم كنيسة مستقلة عن أسقفية

البيوريتاني أوليفر كرومويل[148] أنّ يدرك مدى الفائدة المادية التي كان بمقدور اليهود تقديمها لاقتصاديات بلده، وخاصة في المجال التجاري؛ ولذلك فإنه أبدى اهتماما كبيراً بشؤون اليهود وأخذ يقدم الكثير من التسهيلات لهم[149].

وقد نظم عدد من البيورويتانين الإنجليز حركة بهدف مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين وقاموا عام 1649م بتقديم عريضة إلى الحكومة الإنجليزية جاء فيها:"... إن الأمة الإنجليزية مع سكان الأراضي المنخفضة سيكونون أول الناس وأكثرهم استعدادا لنقل أبناء إسرائيل وبناتها على سفنهم إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب كي تصبح إرثا دائما لهم... "[150].

بدأ تنافس الدول المهتمة بهذه المنطقة في الظهور منذ شهر جويلية 1840م، وخاصة في المجال الديني حيث كانت فرنسا تطالب منذ أجيال طويلة بالاعتراف لها بحق حماية الكثلكة – الكاثوليك – في الشرق، وكانت بريطانيا تحاول أن تجذب إليها طوائف ترتبط بحمايتها السياسية، أما بقية الشركاء الأوروبين فقد كانوا يكتشفون لأنفسهم رسالة إنسانية ودينية لصالح " المسيحية السورية " أو لصالح " اليهود المضطهدين " الذين كانوا يريدون

= كانتربري. وكان لهم في المدن الصغيرة والمتوسطة من إنكلترة نفوذ واسع، وما يشبه الحكومات (كومّونات)، وأدى ذلك إلى صراع عنيف مع العرش الإنكليزي الذي كان يتخذ من قساوسة الأنغليكانية أدواتٍ لتحقيق أغراضه. وبمرور الزمن صار للمتطهرين قوةٌ سياسية في البرلمان الإنكليزي. كذلك انتشرت التطهيرية في أمريكا الشمالية ولاسيما في شمال شرقي للولايات المتحدة الحالية التي كانت تعرف بإنكلترة الجديدة (نيوإنغلند). ينظر: سهيل زكار، المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق– القاهرة، 1997، ج1، ص 217. وينظر أيضاً ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية في انجلترا والصهيونية العنصرية، تر: عبد الله عبد العزيز ، ، بيروت، 1977، ج1، ص 50– 54.

[148]– أوليفر كرومويل Oliver Cromwell: هو قائد عسكري وسياسي انجليزي، ولد في 25 أفريل وسط أسرة نبيلة وغنية، عرف بانتصاره في الحرب الأهلية الانجليزية ضد المالكين وجعل حينها انجلترا جمهورية، وقاد كومنولث انجلترا، توفي في 03 سبتمبر 1658م. ينظر: أحمد عبوش، انجلترا على عهد اوليفر كرومويل 1649–1658، دراسة تاريخية، ط1، المكتب العربي للمعارف، ، 2015، ص 08– 16.

[149]– أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 12.

[150]– ريجينا الشريف، المرجع السابق، ص 55.

تجميعهم في فلسطين، لذلك فقد أخذت المشاريع الكثيرة تخرج إلى حيز الوجود لافتة أنظار المسؤولين السياسيين إليها[151].

كانت الحكومات الأوروبية التي حاربت الوجود المصري في سوريا تشك في فعالية الباب العالي السياسية، فكانت كل حكومة تقدم أو تؤيد مشاريع تميل إلى إعطاء القدس وضعاً من الاستقلال السياسي والديني الذاتي تحت المراقبة أو النفوذ المباشر لأوروبا المسيحية كتمهيد لمنحها لليهود في المستقبل. وقد برز في ذلك الحين مشروعان كبيران يشكل ظاهرة تحدثت عنهما مصادر معاصرة عديدة، ويبدو أن مؤرخي الأزمة الشرقية الكبرى في سنة 1840م- 1841م قد تجاهلوا هذين المشروعين المتعلقين بإعادة إسكان اليهود الأوروبيين في فلسطين وبتدويل القدس وضواحيها، وإن عدم دراسة هذين المشروعين سيكون جهلا بواحد من الأبعاد التاريخية الأساسية التي تساهم في تسليط الأضواء الكاشفة على مصائر الشرق الأدنى منذ تلك الحقبة الى يومنا هذا.

فقد كانت حماية الأقليات الدينية ركيزة أساسية لتحرك الدول الأوروبية، ولاسيما فرنسا، ولم يبدأ هذا التوجه بالتراجع إلا في نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر؛ إذ تحولت الأنظار الفرنسية إلى الحركة التجارية، فعملت على توظيف الرأسمال الفرنسي في فلسطين بعد أن وُلِدتْ فكرة " الطرق السلمية " لتوطيد مركز فرنسا في منطقة البحر المتوسط من الناحيتين التجارية والاستراتيجية كما ركزت فرنسا على هجرة اليهود وقدمت لهم التسهيلات اللازمة إلى جانب تسهيل عملية شراء الأراضي بعد أن توزعت قنصلياتهم في معظم المدن الفلسطينية، وفي الحقيقة انتهجت كل الدول الأوروبية مبدأ الاحتلال السلمي لتثبيت أقدامها في فلسطين[152] فكيف ذلك؟

[151]-جوزيف نعوم حجار، المرجع السابق، ص 227.

[152]- عبد الإله أحمد المصطفى، المرجع السابق، ص 203.

كانت فرنسا أول دولة أوروبية تمنح يهودها الحقوق المدنية سنة 1791م، وذلك بعد أن ألغت نظام الاقطاع، ومنعت التميز بين المواطنين بسبب عقيدتهم الدينية[153]، لكن فرنسا لم تكتف بهذا الدور الذي لعبته بالنسبة ليهودها وإنّما عملت على نقله إلى الدول الأوروبية الأخرى التي وقعت تحت حكمها بعد ظهور نابليون الذي كان في الوقت نفسه قد اتخذ بعض الاجراءات " لإصلاح " اليهود واليهودية في فرنسا نفسها من جهة، بينما حاول كسب وِدهم بالعمل على تشكيل مجلس السنهادرين وتحويل أنظارهم نحو فلسطين خدمة لمطامعه في الشرق[154] ونتيجة لما سبق ذكره تعتبر فرنسا الدول الأوروبية الأول التي أسهمت جدياً في خلق فكرة تجميع يهود العالم في فلسطين، وجاء ذلك في اجتماع سري عُقد في فرنسا بين حكومة الإدارة الفرنسية وبين شخصيات سياسية يهودية وفرنسية عام 1798م.

فكان نابليون بونابرت هو أول من اجتذبته فكرة استعمار فلسطين على يد اليهود، والذي كان قد خطط لتحقيق حلمه بإنشاء إمبراطورية فرنسية في الشرق عندما غزا مصر عام 1798م، فقد أعدت حكومة الإدارة الفرنسية عام 1798م خطة سرية لإقامة " كومنولث يهودي في فلسطيني " حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والشرق العربي بما فيه فلسطين وذلك مقابل تقديم الممولين اليهود قروضا مالية للحكومة الفرنسية التي كانت آنذاك في ضائقة اقتصادية خانقة، والمساهمة في الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة نابليون بونابرت، وأن يتعهد اليهود ببث الفوضى وإشعال الفتن. وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها ودعا أحد زعماء اليهود الفرنسين إلى تكوين مجلس يضم جميع الطوائف والفئات اليهودية ويتخذ من باريس مقرا له ليعمل بالتنسيق مع حكومة الإدارة الفرنسية من أجل إعادة بناء وطن يجمع شمل اليهود

[153]– صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ط2، مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ج1، ص 25.

[154]– المرجع نفسه، ص 25.

وينظم حياتهم[155]، ومضى هذا الزعيم اليهودي في دعوته التي تضمنها منشور أصدره غفلا من التوقيع قائلا فيه:

" إن عددنا يبلغ ستة ملايين في أقطار العالم وفي حوزتنا ثروات طائلة... فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من وسائل لإنشاء وطن لنا... وهذا الوطن الذي ننوي قبوله بالاتفاق مع فرنسا يشتمل على مصر السفلى (الوجه البحري) ويمتد شرقا منتهيا بخط يبدأ من بلدة عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر، وموقع هذا الوطن من أنفع المواقع في العالم، ويمكننا من السيطرة على ملاحة البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الجنوبية والشمالية وأثيوبية والحبشة، ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا، وموقع بلادنا على البحر المتوسط مكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وإسبانيا"[156].

وبعد احتلال مصر قام بغزو الشام، وعندها وجه نداء إلى جميع اليهود العالم يستحثهم فيه على الإِنضمام إليه، والإِنطواء تحت رايته في إعادة بناء مجد (إسرائيل) الضائع في القدس، ورد فيه: «... إن العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت العدل رائدي، وكفلتني بالظفر، وجعلت من القدس مقرها العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها لبلد داود» وتابع نابليون نداءه مخاطبا اليهود بقوله:« ... يا ورثة فلسطين الشرعيين فدعاهم لمؤازرته طالبا منهم العمل على إعادة احتلال وطنهم ودعم أمتهم والمحافظة عليها بعيدا عن أطماع الطامعين لكي يصبحوا أسياد بلادهم الحقيقي[157]».

ويعزو المؤرخ بارون S. W. Baron أسباب إصدار نابليون هذا النداء إلى رغبته في استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق، وجمعها تحت لوائه لتحارب معه، وتكون عونا له في

---

[155]– خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908– 1918، منظمة الأبحاث مركز التحرير الفلسطينية، بيروت، 1973، ص 12.

[156]– إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، (د.ط)، دار الفضيلة، القاهرة، 1934، ص ص 99 – 101.

[157]– صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقي، (د.ط)، دار العودة، بيروت 1975، ص 57.

دعم نفوذه وتثبيت سلطانه، وبالإضافة إلى ذلك فإن نابليون كان يهمه من وراء هذه الدعوة كسب ثقة يهود فرنسا ودعمهم المادي في صراعه الذي بات وشيك الوقوع مع حكومة الإدارة الفرنسية .ويضيف بعض المؤرخين إلى نداء نابليون هدفا آخر وهو تشجيع اليهود على الاستيطان في فلسطين بغية إيجاد حاجز مادي بشري يفصل ما بين مصر وسوريا. واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكل منهما. كما كان نابليون يهدف إلى تهديد مصالح بريطانيا من خلال إغلاق طريق مواصلاتها المؤدى إلى الهند. وهناك إشارات أخرى في بعض المصادر إلى أن نابليون[158] كان يهمه كسب رضا وتأييد **حاييم فارحي**[159] **اليهودي** الذي كان يتمتع بنفوذ مالي في عكا ويتولى مسؤولية تزويدها بالمؤن الغذائية[160].

ولكن دعوة نابليون هذه سرعان ما فقدت قيمتها بمجرد أن لحقت الهزيمة بالحملة الفرنسية أمام أسوار عكا. ومما يلفت الانتباه في هذا الصدد أن الجاليات اليهودية الشرقية والأوروبية بشكل عام لم تبد اهتماما جديا بدعوة نابليون المتضمنة وعدا بإقامة وطن لليهود في فلسطين وهذا يؤكد أن التفكير اليهودي باستيطان فلسطين لم يكن قد تبلور بعد، وأن جل اِهتمام اليهود في هذه الفترة كان يرتكز على تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كان كان نابليون يدرك بفطنته ودهائه ما يجول في أذهان الزعماء اليهود، ولذلك

---

[158]– كان نابليون يدرك بفطنته ودهائه ما يجول في أذهان الزعماء اليهود، ولذلك فإننا نجده يتبع أسلوبا آخر لاسترضاء اليهود والحصول على مساعدتهم حينما دعت الحاجة لذلك ثانية. فنابليون كان واثقا أن الصدام بينه وبين روسيا القيصرية أمر لا مفر منه، فأخذ يهيئ جيشه للزحف على روسيا عبر المسافة الطويلة التي تفصلها عن فرنسا. وترتب على ذلك أن الحاجة قد برزت من

= جديد للمساهمة اليهودية في تمويل حملته العسكرية المتجهة إلى روسيا. والأهم من ذلك كله أنه كان حريصا على كسب تأييد وولاء اليهود الروس واستغلالهم خلال الحرب. حيث كان القسم الأكبر من اليهود الروس يعودون إلى أصل بولندي.

[159]– يعرف بالعبرية بـ "خيم فرخي"، باللغة عربية بـ "حاييم فرحي"، ويلقب بـ "حاييم المعلم"، ولد سنة 1760م، كان المستشار للمحافظ في منطقة الجليل في العهد الامبراطورية العثمانية، وعند اليهود كان معروف بلقب حاييم الحكيم بسبب تعليمه للتلمود. لقد كان وزير الاقتصاد أنذاك مفهومنا الحالي والحاكم الفعلي على عكا وبعد اغتياله سنة1820م قام عبد الله باشا برمي جثمانه بالبحر ومصادرة ممتلكاته، بعد ذلك قام اخوة حاييم الذين يقيمون بدمشق بمحاصرة عبد الله باشا والانتقام منه. ينظر: عبد القادر المغربي، يهود الشام عند مائة عام، مجلة المجتمع العلمي العربي، دمشق 1928.

[160]– محمود أمين عبدالله، "مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 74، فيفري 1984، ص ص 12–13.

فإننا نجده يتبع أسلوبا آخر لاسترضاء اليهود والحصول على مساعدتهم حينما دعت الحاجة لذلك ثانية. فنابليون كان واثقا أن الصدام بينه وبين روسيا القيصرية أمر لا مفر منه، ولذا فإنه أخذ يهيئ جيشه للزحف على روسيا عبر المسافة الطويلة التي تفصلها عن فرنسا. وترتب على ذلك أن الحاجة قد برزت من جديد للمساهمة اليهودية في تمويل حملته العسكرية المتجهة إلى روسيا. والأهم من ذلك كله أنه كان حريصا على كسب تأييد وولاء اليهود الروس واستغلالهم كطابور خامس خلال الحرب[161]، ويعيشون فيها دون الانسياق وراء مغامرات قد تعرض وجودهم للخطر.

وكان هدف نابليون استغلال نفوذ اليهود في تحقيق أهدافه التوسعية، ولكن حملة نابليون فشلت وفشلت مخططاته في مصر والشام[162]، ومن خلال الوعد الذي أطلقه نابليون لليهود في أفريل 1799م بعد إدراكه صعوبة تحقيق مخططاته[163]، إلا أن هذا المشروع لم يلق تجاوباً من اليهود في آسيا وأوروبا[164].

كما أعلن نابليون أن اليهود أصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، وأن الديانة اليهودية أصبحت إحدى الديانات الرسمية في فرنسا، ومن حق المؤسسات الدينية اليهودية فيها أن تحظى برعاية وحماية الدولة .وتعهد نابليون بإجبار حكام الدول الأوروبية التي يحتلها على منح اليهود من سكانها الحقوق التي منحتهم إياها فرنسا كما حدث في هولندا وسويسرا .غير أن هذه الوعود والتعهدات سرعان ما تلاشت بهزيمة نابليون في واقعة واترلو عام 1815م[165].

---

[161]– المرجع نفسه، ص 14.

[162]– وبالرغم من تلاشى مشروع نابليون إلا أنه أظهر بوضوح أن محاولات التوسع الإمبريالي الغربي في الشرق العربي بعد نابليون ستتخذ من مشاريع توطين اليهود في فلسطين ذريعة للتدخل في مصير هذا الجزء من العالم، وستعمل جاهدة على تحقيق هدفها الكبير بإيجاد كيان يهودي حليف يتم تسخيره لخدمة مصالح الإمبريالية الغربية نفسها.

[163]– التونسي موسى الكاظم، وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة وثائق سياسية (1)، (د.ط)، دار البعث، دمشق،(د.ت)، ص 40.

[164]– محمود أمين عبدالله، المرجع السابق ص 13.

[165]– المرجع نفسه، ص 15.

وهذا يدل على أن الجاليات اليهودية الشرقية والأوروبية بشكل عام لم تبد اهتماما جديا بدعوة نابليون المتضمنة وعدا بإقامة وطن لليهود في فلسطين وهذا يؤكد أن التفكير اليهودي باستيطان فلسطين لم يكن قد تبلور بعد، وأن جل اهتمام اليهود في هذه الفترة كان يرتكز على تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كانوا يعيشون فيها دون الانسياق وراء مغامرات قد تعرض وجودهم للخطر.

ونتيجة لما سبق ذكره تبينا لنا أن تبني فرنسا لفكرة توطين اليهود في فلسطين قد بدأت حدتها تتراجع بعد سقوط نابليون بونابرت وتراجع إمبراطوريته بسبب التحالف الدولي ضده سنة 1815م، وكذلك أيضاً لانشغال فرنسا عن الشرق في حل مشاكلها الداخلية واتجاه توسعها نحو مناطق أخرى في المغرب العربي وبالخصوص الجزائر.

أما بروسيا فقد رأت أن إنقاذ القوى العظمى للدولة العثمانية يجب أن يقترن بمكاسب سياسية ودينية، وعلى هذه الأسس صاغت الحكومة البروسية مذكّرات لحكومات الدول الأوروبية ما بين عامي 1840م و 1841م، وطرحت فيها مشروع تدويل القدس، ووضعها تحت الحماية المشتركة للدول الخمس الأوروبية، ومذكّرات أخرى دعت فيها إلى تأمين حماية اليهود في فلسطين، إلا أن الدول الأوروبية رفضت هذه المشاريع بشكلٍ قاطع[166]؛ لأنه يخل بمبدأ توازن القوى الذي عملت هذه الدول على تحقيقه في المنطقة لعشرات السنين، ناهيك عن الممانعة الأرثوذكسية والكاثوليكية للامتداد البروتستانتي، وكل ما من شأنه أن يجعلها على قدم المساواة معها، إلا أن بروسيا استمرت في طلبها للبحث عن موطئ قدم، واستقرت في النهاية على أن بريطانيا الأنجليكانية هي الحليف الطبيعي لبروسيا البروتستانتية، فتم الاتفاق بين الطرفين على إنشاء مطرانية بروسية – إنكليزية عام 1841م، وكان توطين اليهود أحد أبرز مهامها، حسب ما سبق من دوافع استراتيجية وعقائدية. إلا أن جوانباً أخرى اقتصادية واجتماعية كانت تدفع بهذا الاتجاه أيضاً[167]. وكان

---

[166]– محافظة، العلاقات الألمانية –الفلسطينية من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية 1945، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية 1841، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، بيروت، ط1، ص 99.

[167]– عبد الاله أحمد المصطفى، المرجع السابق، ص 159.

توطين اليهود أحد أبرز مهامها، حسب ما سبق من دوافع استراتيجية وعقائدية. إلا أن جوانباً أخرى اقتصادية واجتماعية كانت تدفع بهذا الاتجاه أيضاً، فالجانب الاجتماعي وكي تتم حماية الألمان منهم يجب أن تفتح لهم (أرض الميعاد ونرسلهم جميعاً إلى هناك)، بينما يتمثل الجانب الاقتصادي بما تمتعت به الرأسمالية اليهودية في الممالك الألمانية من امتيازات ولاسيما في حقول النشاطات المالية والصناعية واستثمار الأراضي، وفي مجال النشاطات المصرفية، وفي التجارة الزراعة والأعمال الحرفية، كل هذا هدد الأسس الاقتصادية للكثير من الألمان، وسرعان ما تحولت القضية إلى سخط ألماني عام أخذ طابعاً معادياً لليهود، ولم تؤد عملية صهر اليهود في المجتمع الألماني، بمنحهم المواطنة الألمانية إلى جانب عملية التنصير، أي حل ممكن للمسألة اليهودية في ألمانيا؛ لأن الحواجز النفسية والعنصرية والدينية والاقتصادية لليهود تحول دون ذلك، وتفصل بينهم وبين الألمان، فبدأت رحلة البحث عن حل، واعتقد بعض المفكرين أن (أرض الميعاد) قد يكون الحل المناسب[168].

أما بريطانيا فقد أصبحت فكرة توطين اليهود في فلسطين بدأت تجد اهتماما واسعا لدى دوائرها الحاكمة آنذاك. ولعل أهم أسباب الاهتمام البريطاني بالاستيطان اليهودي هو ظهور محمد علي في مصر ومحاولاته التوسعية الرامية آنذاك إلى إقامة إمبراطورية عربية قوية تحل محل السلطنة العثمانية المتهالكة. وكان هذا بالطبع يتعارض مع السياسة البريطانية الرامية إلى عدم المساس بممتلكات الدولة العثمانية سواء أكان ذلك عن طريق غزو خارجي أم ثورة داخلية[169].

وقد أدركت بريطانيا أن وجود طائفة تعتمد عليها في بلاد الشام يعتبر أمرا في غاية الأهمية بالنسبة لمصالحها في تلك البلاد خاصة وأن فرنسا كانت تتمتع منذ عام 1535م بحق حماية الكاثوليك، وروسيا منذ عام 1774م بحق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية .

---

[168]– المرجع نفسه، ص ص 159– 160– عبد الرؤوف سنو، مرجع سابق، ص 41.

[169]– محمود أمين عبدالله، المرجع السابق ص ص 15.

أما بريطانيا فلم تكن لها طائفة أو جماعة تتحيز لها أو تعتمد عليها في أي مكان من تلك الدولة. ولذا فقد رأت في اليهود أقلية ممكن أن تعتمد عليها في فلسطين[170].

كان بالمرسترون Palmerston يشجع هذا التوجه؛ لأنه نظر إليه من زاوية المصالح الاستراتيجية والاقتصادية البريطانية، فقد رأى أن هذه الخطوة ستفيد الدولة العثمانية نفسها، وستؤدي إلى تدعيم النفوذ البريطاني في بلاد الشام مكان ازدهار التجارة البريطانية، وكان لإنشاء القنصلية البريطانية في القدس في جويلية 1838م وهي أول قنصلية لها في القدس[171]، انعكاساً لأهمية هذا التوجه لدى بالمرسترون Palmerston[172]، كما أيده القنصل البريطاني في القدس وليم يونغ W. Yoyng فقد اقترح في رسالة وجهها إلى بالمرستون في 14 مارس 1839م أن تكون بريطانيا الحارس الطبيعي لليهود والبروتستانت[173] فأصدر بالمرستون تعليماته للقنصل يونغ بمنح اليهود في فلسطين الحماية البريطانية لضمان سلامتهم وضمانة ممتلكاتهم وأموالهم[174] غير أنه ولعدم وجود أي قاعدة بروتستانتية في" الأرض المقدسة "، تم تأسيس أسقفية إنكليزية – بروسية في القدس عام 1841م، وبناء كاتدرائية بروتستانتية عام 1849م، بهدف تنصير اليهود وجلبهم إلى فلسطين لخلق نواة هذه القاعدة البروتستانتية فلسطين[175] لتشكل إحدى معالم الوجود البروسي في شراكة مع بريطانيا لم تدم طويلاً لقوة النفوذ البريطاني، فعمدت بروسيا إلى دعم وجودها في فلسطين. وكانت لهذه الشراكة البريطانية الروسية من خلال إقامة أول قنصلية لها في

---

[170]– المرجع نفسه، ص 16.

[171]– أقيمت القنصلية البريطانية في القدس من أجل الاهتمام بمصالحها، ومن ضمنها تقديم الحماية لليهود، وهو ما أصبح عملاً رئيسيا للقنصلية خلال وقت طويل، وقد اتخذت بريطانيا حمية اليهود كذريعة يستطيع بموجبها ايجاد من تحميه في فلسطين لتتمكن من التدخل في شؤون البلد الداخلية، وتقوي مركزها مثل مثيلتها فرنسا حامية الكاثوليك.

[172]– عبد الرؤوف سنو، مرجع سابق، ص 42 – عادل مناع، مرجع سابق، ص 186.

[173]– المرجع نفسه، ص 43.

[174] – Abdul Latif Tibawi, British Interests in Palestine 1800-1901, Oxford University Press, London,1961, P43.

[175]– عبد الإله أحمد المصطفى، المرجع الساق، ص 159– شولش الكزندار، تحولات جذرية في فلسطين 1856-1882، تر: كامل جميل العسلي، (د.ط)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1988، ص 64.

القدس البروسية أدواراً مهمة في تشجيع الخطط الاستعمارية اليهودية التي الهمت المشاريع المستقبلية للصهيونية[176]. غير أن هذا المشروع لم ينجح، ولم يستطع استمالة أي مستوطن يهودي، وأخفق مشروع الاستيطان الانجليزي – البروسي ويضاف إلى ذلك أن دعوة اليهود الأوروبيين إلى" أرض الميعاد " كانت أقل جاذبية مما توقعها السياسيون الألمان والبريطانيون، ولاسيما بعد ربطها بالتنصير كشرط مسبق.

وبذلك فقد أسهم كل من نظام الامتيازات والإرساليات التبشيرية – تحت إشراف النظام القنصلي – في ضبط التوجهات العامة للدول الأوروبية في الدولة العثمانية، ولاسيما في بلاد الشام. وكانت بريطانيا الأكثرَ نشاطاً، فقد سعت إلى دعم مواقعها في الهند وجنوب إفريقيا، وهو ما يتوافق – حسب سياساتها – مع الحفاظ على الدولة العثمانية من جهة، وحماية اليهود كمرتكز لنفوذهم في بلاد الشام من جهة أخرى[177]، كما أبدت حرصها على التبشيري بشكل واضح بعد تردد طويل، لذلك أسهموا في إنشاء الكنيسة البروتستانتية ودعم أنشطتها في بلاد الشام، ولاسيما المدن الفلسطينية (نابلس، ويافا، وحيفا وغيرها) [178]، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تشكل نفوذاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً حتى فاقت مثيلاتها من الدول الأوروبية، وكان حق حماية اليهود من أكثر العوامل تأثيراً في النشاط القنصلي البريطاني بعد أن فشلوا في نشر المسيحية بينهم.

ومن جهتها راقبت القنصليات الفرنسية أنشطة الأسقفية البروتستانتية، والقنصليات البريطانية في بلاد الشام، لأن فرنسا حرصت على إحياء البطريركية اللاتينية التي أُوقفت أعمالها في القدس بعد الحروب الصليبية، واهتم القناصل الفرنسيون بإقامة المدارس التابعة للإرساليات التبشيرية الفرنسية[179]، وتم تعيين أول بطريرك لاتيني لها عام 1848م ، وكانت

---

[176]– نائلة الوعري، المرجع السابق، ص 162.

[177]– المرجع نفسه، ص ص 101– 102.

[178]– المرجع نفسه، ص 144.

[179]– المرجع نفسه، ص 151.

تحظى بمساعدات كبيرة من الخارج مما جعلها تنتشر بشكل سريع، فعملت بقية الكنائس للحد من اِنتشارها[180].

وكانت بلاد الشام المجال الأساسي الذي مارست فيه القوى الأوروبية فرنسا، وبريطانيا، وروسيا وبقية الدول (امتيازاتها الدينية والتجارية في الدولة العثمانية بحكم موقعها الاستراتيجي المميز، وتكوينها المتعدد، إضافة إلى وجود الأماكن المقدسة فيها بما فيها مدينة القدس.

لم تُجْدِ محاولات محمد علي الهادفة إلى إرضاء الدول الأوروبية بفتح المجال أمام أنشطة البعثات التبشيرية، والقنصليات الأوروبية في القدس ودمشق وبيروت؛ إذ وقفت هذه الدول في صف السلطان العثماني، وأسهمت بشكل فعال في إخراجه من بلاد الشام؛ لتعزيز أنشطتها الاستعمارية التي سيقف محمد علي باشا حجر عثرة أمامها[181].

وخلاصة لما سبق ذكره بدأت فكرة إقامة وطن قومي لليهود على الأرضي الإسلامية الفلسطينية تتجسد في اواخر حكم محمد علي باشا، وكل هذا حصل بالتنسيق بين الدول الأوروبية – فرنسا بريطانيا روسيا وبروسيا والنمسا – على مبدأ سياسة حماية الأقليات، بعد أن أثبتت فلسطين فعاليتها لسياسة الحماية الأوروبية للأقلية المسيحية. كما التقت المصالح الاستعمارية الأوروبية في انتزاع فلسطين من الوطن العربي مع المصالح الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود، بل إن قادة أوروبا هم الذين عرضوا على اليهود إقامة وطن لهم في فلسطين، قبل أن تطرح الحركة الصهيونية الفكرة بسنوات طويلة، وعلى الأخص من جانب فرنسا وبريطانيا في محاولة للتخلص من المشكلة اليهودية في أوروبا بغرس الكيان الصهيوني في قلب الوطن العرب حتى يمنعوا أي تجربة وحدوية من جهة ومن جهة اخرى تحقيق مكاسب استعمارية من الدولة اليهودية .

---

[180]– الحصري، مرجع سابق، ص 191

[181]– ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798– 1939، تر: كريم عزقول، (د.ط)، دار النهار، بيروت، (د.ت)، ص ص 81– 82.

ج- مساهمة محمد علي باشا في عودة اليهود إلى القدس وتحقيق حلمهم.

عندما سقطت الأندلس في أيدي الإسبان عام 1492م لجأ الكثير من اليهود إلى مدينة القدس هرباً من الاضطهاد الذي مارسته ضدهم الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، وأقاموا في منطقة جبل صهيون في المحلة التي عرفت فيما بعد باسمهم[182] – محلة اليهود – ويقسم اليهود الذين جاؤوا إلى القدس من أوروبا قسمين هما:

السفرديم: وهم الذين هاجروا إلى القدس من اسبانيا والمغرب أثر سقوط الأندلس وكان هؤلاء الذين شكلوا أغلبية اليهود في القدس يتكلمون لغة هي مزيج من الاسبانية والعبرية[183].

الاشكنازيم: قدموا إلى القدس من شرقي أوروبا ووسطها – ألمانيا وروسيا ورومانيا وبولندا – عام 1700م لدوافع دينية، وقد ذكرتهم سجلات المحكمة الشرعية باسم "السكناج"، ولم يكن هؤلاء مرغوبين من أبناء جلدتهم السفرديم، فلم يسمحوا لهم بأداء الصلاة في كنيستهم، أو دفن موتاهم في مقبرتهم، مما دفعهم إلى الهجرة باتجاه صفد والجليل[184].

حرصت الدولة المصرية منذ قدومها على اتخاذ سياسة جديدة مع أهل الذمة من يهود ومسيحيين وهي تثبيت المساواة بينهم وبين المسلمين[185]، فقد تغير وضع أهل الذمة واليهود وتحسن في العهد المصري مقارنة بحالهم السابق في الفترة العثمانية، فمنذ سقوط بلاد الشام تحت الحكم المصري، أعلن محمد علي باشا المساواة بين الطوائف والأجناس كافة ومنحهم الحرية الدينية[186]، وكان هذا الأمر غريباً وجديداً على سكان القدس فهم لم يعتادوا على ذلك في الفترة السابقة للحكم المصري، مما جعلهم ينظرون إلى أهل الذمة نظرة حسد بسبب ما

---

[182]- زياد عبد العزيز المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1800م- 1830م، (أطروحة دكتوراه، جامعة آل البيت)، ط1، منشورات بنك الأعمال، عمان، 1996، ص 228.

[183]- صبري جريس، المرجع السابق، ص 14- زياد عبد العزيز المدني، المرجع السابق، ص 28.

[184]- زياد عبد العزيز المدني، المرجع السابق ، ص 29.

[185]- القضاة أحمد حماد إبراهيم، نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 445.

[186]- المرجع نفسه، ص ص 445- 446.

حصلوا عليه خاصة الطوائف المسيحية وكنائسهم وأديرتهم من امتيازات جعلتهم على نفس الدرجة من المساواة مع المسلمين، فأبدى المسلمون ردة فعل رافضة لسياسة إبراهيم باشا بسبب فقدانهم مراكزهم التقليدية، ففي الوقت الذي شعرت به النخب المحلية من المسلمين بأن الدولة المصرية تعمل على التقليل من نفوذهم، منحت امتيازات واسعة لأهل الذمة من اليهود والمسيحيين[187]. وتظهر الوثائق أن محمد علي سمح للإنجليز ولغيرهم من الأوروبيين بتجارة التنباك بغير تدخل ولا إشراف من الدولة، برغم أن مستندهم في هذا فرمان مبهم وغامض[188].

لم يقتصر التسامح تجاه أهل الذمة على مسألة الضرائب، وإنما شمل أيضاً إلغاء الفوارق الدينية بين المسلمين وغيرهم، لذلك أصدر أمراً بإلغاء عادة نزول النصراني عن دابته إذا صادف في الطريق مسلماً، لأنه رأى بأن المسلم ليس أرفع مقاماً من الذمي، كما أنه سمح لهم بلبس الحذاء الأحمر، وألغى عادة إجبارهم على لبس الملابس السوداء والزرقاء، إضافة إلى السماح لأهل الذمة ببناء واصلاح أماكن عبادتهم[189] دون أخذ رشوة منهم أو ابتزازهم كما كان يحدث في السابق.

وقد تساهل هذا الحكم في منح التراخيص اللازمة لترميم الكنس والكنائس القائمة أو حتى السماح ببناء دور عبادة جديدة مما يشكل مخالفة واضحة لما كان متبعاً في السابق إذ تجاوز محمد علي وأبنه إبراهيم مهمة القاضي وأصدرا أوامر بترميم كنس وكنائس وذلك بتدخل من قناصل الدول الأجنبية الذين كان يؤثر عليهم من قبل رجال الدين المسيحيين واليهود. ومع ذلك فإن هذه الإجراءات قد استمرت متخذه الشكل القانوني السابق من خلال القاضي ظاهراً. وقد حصل اليهود على الحماية اللازمة لممارسة شعائرهم الدينية ومن نتائج هذه السياسة الجديدة أن استغل أهل الذمة هذه الامتيازات فأصلحوا أماكن العبادة التي

---

[187]– المرجع نفسه، ص ص 445– 446.

[188]– أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج2 (3/135)، رقم الوثيقة 4642، بتاريخ 22 ربيع الأول 1252هـ الموافق لـ 7 جوان (يونيو) 1836م.

[189]– صابرين صلاح الدين، المرجع السابق، ص 99.

دمرتها الزلازل عام 1834م[190]، واستطاع رهبان الفرنسيسكان إصلاح كنيسة المخلص، ولم يتوقف الأمر على المسيحيين فقط بل حتى اليهود كان لهم حظاً من هذا الامتياز ففي عام 1834م أصدر محمد قراراً يسمح للسفرديم بإعادة بناء معبد زكاي المهدم، وقد أعطى إبراهيم باشا أوامره بالسماح لليهود بترميم كنس لهم في القدس كانت خربة لعقود عدة. وقد تم بناء كنس جديدة. وفي سنة 1840م وصل عددهم في القدس إلى تسعة وقد ترتب على سياسة التسامح التي مارستها الدولة المصرية مع اليهود إلى زيادة أعداد اليهود الإشكناز القادمين من بولندا[191].

أما من الجوانب السياسية والاقتصادية والقانونية فقد قدم محمد علي تسهيلات لترسيخ الوجود الأجنبي في الشام مما جعل فكرة الدولة اليهودية تنتقل من أحلام المتدينين والدراويش والأدباء اليهود لتصير مشروعًا سياسيًّا تتناوله أروقة الساسة والمفكرين والصحاف، فكان أول ما فعله إبراهيم في الشام هو أن أذن للتجار الأجانب بأن يبتاعوا ويبيعوا في داخل البلاد، وقد كان محظورا عليهم الاتجار مع غير بعض الموانئ في الساحل[192]، وفي الوقت الذي سمح إبراهيم باشا بكل ما سبق من تسهيلات للأجانب، فإنه اتخذ قرارًا بمنع السفن التركية من النزول بموانى الشام، ومنع القوافل الآتية من الأناضول من دخول الشام تخوفًا من أنّها تحمل البارود مددًا للثائرين عليه، مما سبب أزمة تجارية شديدة[193].

فكان أول تنفيذٌ عملي لفكرة الاستعمار اليهُودي قد حدث في عام 1331 م على يدٌ اليهُودي البريطٌاني الثري" موش مونتفيوٌري " الذي أنشا أول مستعمرة يهُوديةٌ في أرض فلسطينٌ التي كانت إبان ذلك الوقت تحت الحكم المصري واستطاع مونتفيوٌري أن حٌصل

---

[190]– علاء كامل عبد الجابر سعادة، متسلمية نابلس في العهد المصري 1831م– 1840م، ط1، دار البشير للنشر، 2009، ص 315.

[191] – كارين أرمسترونغ، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، تر: فاطمة نصر ومحمد زكريا عناني، القاهرة ،دار سطور للنشر والتوزيع، 1998، ص ص 563– 564.

[192]– داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام 1832، ط1، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2014، ص133.

[193]– محمد فريد بك، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، حق: أحمد زكريا الشلق، ط2 ،القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2005م، ص165.

على الضمانات من الدولة العثمانيةٌ بالحمايةٌ والامتيازٌات وذلك بعد زوال حكم محمد علي في فلسطينٌ[194]

لكن المحاولة الأخطر كانت مع رجل المال اليهودي الأشهر موسى مونتفيوري[195]، الذي استقبله محمد علي بالبشاشة والترحاب في القاهرة، وذلك لأن ربوع الشام كانت تحت الإدارة المصرية بعد حروب الباشا و الدولة العثمانية وكان له طموح واسع ومعلن نحو استيطان اليهود لفلسطين من خلال شراء الأراضي الواسعة لزراعتها، وكانت أمانيه المنشورة تدل على ضخامة الآمال التي فجرتها سياسة محمد علي لدى اليهود، فهو يريد منه أن يؤجر له مائة أو مائتي قرية لمدى خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجيا، ويجب أن تكون هذه القرى حرة مجردة من كل مانع وطليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار. وللزارعين الحث في بيع تلك الحاصلات في أي بلد من بلدان العالم[196]، والسماح بإرسال خبراء لتدريب اليهود على أعمال الزراعة والصناعة[197]، وبالمقابل فقد تعهد مونتفيوري لمحمد على بإقامة شبكة من البنوك البريطانية في مدن مصر وسوريا وفلسطين الرئيسية[198] .ولكن مونتفيوري اكتفى في النهاية بشراء بعض الأراضي وإقامة مزارع صغيرة في المناطق المجاورة ليافا والقدس وصفد، لكن المشكلة كانت في أن السلطان هو وحده المخول بالتصرف في الأراضي على هذا النحو، أما محمد علي فقد تعهد لرجل المال اليهودي

---

[194]– حسان الحلاق، موقف الدولة العثمانيةٌ من الحركة الصهيونية، ط1، دار الأحد البحيري، بيروت، 1978، ص 81.

[195] – يهودي إنجليزي ولد عام 1784م في ليفورن Levourne، وكان زعيم الأقلية اليهودية في إنجلترا وأصبح عمدة مدينة لندن، وكان أول يهودي يحصل على لقب« سير .Sir» نجح في إقامة صداقة شخصية متينة مع الملكة فكتوريا . انظر

-Louis Loewe , Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore, Comprising Their Life and Work as Recorded in Their Diarie, Édition réimprimée, London, 2009.

[196]– إيلي ليفي أبو عسل، المرجع السابق، ص144

[197]– المرجع نفسه، ص 145.

[198] –Ben Halpern and Jehuda Reinharz, Zionism and the Creation of a New Society, Oxford University Press, 1998, p. 43

بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سورية. ويرغب السلطان في أن يمنحها لهم بمجرد طلبهم، وقال: "يمكنكم والحالة هذه أن تنتخبوا حكاما يقع اختياركم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها. وإنني لا أدخر وسعًا في سبيل معاونتكم وشد أزركم في إنجاز هذا المشروع الحميد المفيد"[199]. وكان بالمرستون – وزير الخارجية البريطاني– صاحب النفوذ الواسع في حكم محمد علي حريصا على تحقيق أوضاع مريحة لليهود في الشام، وكان يرتب لمونتفيوري اللقاءات بالشخصيات التي يمكنها أن تحقق له أحلامه[200].

و يجب الانتباه هنا أن القوانين العثمانية كانت تنص بصراحة ووضوح على منع بيع الأراضي و العقارات في القدس وضواحيها لليهود. ونظرًا لأن القدس لها مكانتها المقدسة في التراث اليهودي وتستحوذ على مشاعر اليهود الدينية " فقد رأت بريطانيا في ذلك مبررا لتمارس ضغطا شديدا على الدولة العثمانية لتعديل القانون العثماني بحيث تصبح القدس مدينة مفتوحة لليهود يحق لهم استملاك الأراضي والعقارات فيها. وقد تحقق ذلك في عام 1849م حينما نجح مونتفيوري في الحصول على فرمان من السلطان عبد المجيد (1839م/ 1861م)[201] سمح وجبه لليهود بشراء بعض الأراضي. وتمكن مونتفيوري عام 1855م نتيجة تدخل بريطانيا وفي أعقاب مقابلته للسلطان في الآستانة للمرة الثانية من الحصول على فرمان تسنى له بموجبه شراء أول قطعة أرض في القدس خارج سور المدينة القديمة. وبدلا من أن يقيم عليها مستشفى كما ورد في الفرمان، أقام مونتفيوري عليها أول حي سكني يهودي في فلسطين وفي القدس بالذات– وعرف فيما بعد باسم "حي مونتفيوري ". ولم يمض فترة قصيرة من الزمن حتى تم إنشاء العديد من الأحياء اليهودية في المدينة (بلغت ثمانية

---

[199]– المرجع نفسه، ص ص 150– 151.

[200] – Jonathan Frankel, The Damascus Affair: 'Ritual Murder', Politics, and the Jews in 1840, (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p376.

[201]– عبد المجيد الأول (1823م– 1861م): هو ابن السلطان محمود الثاني، تولى السلطنة وله من العمر 16 عامًا وثلاثة أشهر؛ تمكنت الدولة في عهده من الانتصار في حرب القرم، واستعادة سوريا العثمانية من حكم محمد علي باشا، وأدخل إصلاحات عديدة في القوانين العثمانية، وقوّى سلطة الحكومة المركزية مقابل انحلال الولاة السابق، سيرًا على نهج أسلافه بدءًا من سليم الثالث الإصلاحي. توفي سنة 1861م عن عمر يناهز 38 سنة

أحياء عام 1892م)[202]. كان غرض مونتفيوري من ذلك توفير وضع متميز لليهود وقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتنمية المشاريع الزراعية والصناعية في فلسطين حتى يحقق اليهود الاعتماد على الذات. وفي المقابل اقترح مونتفيوري تأسيس البنوك في المدن الرئيسية في المنطقة لتقدم التسهيلات الائتمانية للمنطقة بأكملها[203]. أما بريطانيا كان الهدف الذي تسعى إليه من وراء ضغوطها المستمرة على الباب العالي للسماح لليهود بالتملك وشراء الأراضي في فلسطين وخاصة القدس هو تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين [204].

ويبدو أن مونتفيوري كان يهمه أيضا كسائر أفراد البرجوازية اليهودية في الغرب تحويل مسار هجرات فقراء اليهود القادمة من أوروبا الشرقية إلى دول خارج أوروبا كفلسطين مثلا بدلا من أن تتجه إلى أوروبا الغربية وبريطانيا بالذات وتهدد وضع اليهود الطبقي والحضاري في البلاد التي يعيشون فيها.

طبق محمد علي باشا خلال سنوات حكمه أفكارًا تحديثية وغير إلى الأبد من أسلوب الحياة في القدس، كما تمكن ابنه ابراهيم باشا من تقليص قوة البدو، وهدد بتجنيدهم في الجيش المصري، وأرسى إبراهيم باشا نظاماً قضائيًا علمانيًا أحد من قوة المحاكم الشرعية، وأصبح الذميون منذ ذلك الحين يتمتعون بمساواة كاملة وأمان شخصي لحياتهم وممتلكاتهم، كما تم تمثيل اليهود والمسيحين في مجلس القدس، الذي كان هيئة استشارية تعين لتقديم المشورة لوالي المدينة، وهكذا وصلت العلمانية إلى القدس، واستقلت أجهزة الدولة والنظام القضائي عن السلطة الدينية[205]. وما هو ملاحظ من خلال الكتابات التاريخية أن فترة الحكم المصري شهدت زيادة في الخطط الدولية حول مستقبل فلسطين. حيث بدأت فلسطين تشكل النقطة المركزية في المسألة الشرقية. إذ ازدادت البعثات التبشيرية وكذلك الحجاج اليهود والمسيحيين إضافة إلى الرحالة.

---

[202] – محمود أمين عبدالله، المرجع السابق ص 46.

[203] – عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص177.

[204] – محمود أمين عبدالله، المرجع السابق ص ص 46– 47.

[205]– كارين أرمسترونغ، المرجع السابق، 563.

كما سُمح لليهود خلال الحكم المصري بزيارة أماكن دينية كانوا ممنوعين من زيارتها بدعوى أنها أماكن إسلامية مثل ضريح النبي يعقوب في صفد. وقد شجعهم ذلك على طلب زيارة ضريح النبي داوود في القدس، وحاولوا كسر باب الضريح للدخول إليه[206]، إضافة لذلك انتشرت في فترة حكم محمد علي باشا قضايا التعدي على المقدسات الإسلامية وتحديداً المسجد الأقصى، والتي بلغت حالتان فقط[207]، ورغم عددها القليل إلا أنّها ذات مدلول خطير جداً، فالجرأة الكبيرة التي مكنت اليهوديان من الوصول إلى منطقة الحرم رغم أنها منطقة يمنع على اليهود الدخول إليها، وبعيدة عن محلة اليهود أيضاً مثلما بينت السجلات، ومكنت شخصاً منهم من دخول المسجد الأقصى وتحطيم مقتنياته، تدل على عدم اهتمامه بعواقب فعلته ومن العقوبة التي من الممكن أن تحل به إذا ما تم القبض عليه، كما أننا ومن خلال متابعتنا للسجل لا نجد أن الوالي قد اتخذ أي إجراء بحقهم وإنما تم الاكتفاء بسجنهم، وهذا يعود إلى سياسة التسامح المبالغ فيها من قبل محمد علي باشا وابنه إبراهيم تجاه أهل الذمة من اليهود والنّصارى، وذلك رغبة منهما في استقطاب الدول الأوروبية إلى جانبهم في حربهما مع الدولة العثمانية، مع التأكيد على أن هذه الحالات لم تحدث إطلاقاً في فترة العهد العثماني وهذا ما أكدته السجلات نفسها " إذ هذا الفعل ما سمع مثله قط ولا جرى[208].

رغم عدد هذه الحالات القليلة فهي لم تتجاوز حالتين إلا أن مدلولها قوي جداً، فنجد أن مثل هذه التعديات لم تحدث في العهد العثماني إطلاقاً مثلما سبق وأن أشرنا، فهذه الحالات لم تشهدها مدينة القدس خلال الفترات السابقة، حيث لم تشهد أن ذمياً قد انتهك حرمات مقدسات إسلامية وكنسية، وقد يكون للمساواة والغاء الفوارق الدينية بين المسلمين وأهل الذمة هي السبب في زيادة تمادي اليهود على المقدسات الإسلامية، فقد مر معنا أن سياسة التسامح الشديد التي مارسها إبراهيم باشا مع اليهود كانت سبباً في زيادة عدد اليهود القادمين من بولندا إلى فلسطين، وتحديداً إلى المدينة المقدسة في فترة الحكم المصري، فشعر اليهود

---

[206]– أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، مرجع سابق، ج2، وثيقة رقم 3015، ص 326.

[207]– صابر صلاح الدين، المرجع السابق، ص 123.

[208]– المرجع نفسه، ص ص 123– 124.

بنوع من الحماية والأمن في ظل الدولة المصرية، مما زد من تماديهم في الاعتداء على المقدسات.

وقد أدت سياسة الحكومة المصرية إلى زيادة عدد اليهود في القدس وقد ازدادت الهجرة اليهودية إلى القدس في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وخصوصاً من هولندا وألمانيا. كما حضر الكثيرون من يهود صفد إلى القدس بعد زلزال سنة 1837م الذي دمر قسماً كبيراً من تلك المدينة مما ضاعف عدد السكان اليهود في المدينة البالغ عدد سكانها نحو عشرة آلاف. إذ تشير الإحصاءات أن عددهم قد بلغ الثلث[209] بنحو 1500 يهودي وأصبح عددهم سنة 1840م نحو عشرة آلاف يهودي وازداد العدد في سنة 1860م إلى نحو 15 ألف يهودي كما ازداد سنة 1881م إلى نحو 22 ألف يهودي، وكانت تتركز غالبيتهم خارج سور القدس والذي كان يسمى آنذاك باسم " يمين موشي" نسبة إلى مونتفيوري سالف الذكر، وعلى الرغم من قيام الحكومة العثمانية سنة 1882م بإصدار قانون للحد من الهجرة اليهودية فقد تراجعت عن المشروع في تنفيذه العملي بفعل ضغوط كل من بريطانيا وفرنسا، فتمكن اليهود من الهجرة إلى فلسطين وانشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الدينية والعلمية[210]

وفي الأخير إن التّسهيلات الّتي فتحها محمد علي أمام اليهود والمسيحين كانت له نتائج بالغة في أهمية على واقع فلسطين كدولة وكشعب وعلى العالم الإسلامي بأسره، فقد كانت تلك المساواة بين اليهود والمسلمين سبب في اغتصاب الصهاينة اليهود للأراضي الفلسطينية والقدس وقتل عدد كبير من الفلسطينيين وتشريدهم وأصبح عليه المشرق الأوسط الآن. كما اعتبرت سياسة الانفتاح الي اتبعها الباشا قد شجعت الأجانب أصحاب المشاريع الكبيرة في أوروبا عامة وفرنسا وبريطانيا خاصة على القدوم إلى مصر في محاولة لإقناع واليها بتمويل مشارعهم وتطبيقها في مصر مثل انشاء طرق مواصلا برية وبحرية، وهذا ما سنتعرض له لاحقا في المبحث الموالي.

---

[209]– نفس المرجع ، ص ص 124– 125.

[210]– محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص 401.

3- مشروع بناء قناة سويس

كانت مصر أحد أهم الممرات التّجارية بين الشّرق وأوروبا حتى تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصّالح الّذي غير وجهة التجارة العالمية للمرور إلى هذا الطّريق الذي يعتبر طريقًا طويلا مقارنة بالمرور عبر قناة السويس[211]، إلاّ أن إرهاصات الثّورة الصّناعية في أوروبا دفعت للتفكير في ربط البحرين الأحمر والمتوسط لتسهيل حركة التّجارة العالمية، وهو ما جاء على مراحل خلال النصف الأول من القرن التّاسع عشر

أ- بداية ظهور فكرة شق قناة تربط بين البحرين الأحمر والمتوسط

تتمتع قناة سويس في التاريخ بأهمية كبيرة جدا وتحظى في الحضارة بماكنة عظيمة ولها في الجغرافيا الموقع الفريد وقد يظن البعض أن الحاجة إلى ممر مائي يربط بين البحر الأحمر والأبيض المتوسط لم تنشأ إلا في العصور الحديثة؛ فهل هذا صحيح؟

يتفق أغلب المؤرخين على أن مشروع دي لسبس لم يكن أول مشروع في حفر قناة سويس بل سبقته محاولات لم يكتب لها الاستمرار التطور أو حتى مجرد الحفا عليها، ففكرة الربط بين البحر الحمر والبحر الأبيض المتوسط فكرة قديمة راودت المصريين قبل عشرات القرون وعلى اختلاف حكامها في مكان الوصل المائي لإقامة هذه الصلات وصلاً غير مباشر أول عن طريق أفرع النيل، ومن أشهر هذه القنوات[212]:

أ- قناة الملك سونسرت[213] الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشر عام 1878 ق. م

---

[211]- قناة السويس هي ممر مائي صناعي بمستوى البحر يمتد في مصر من الشمال إلى الجنوب عبر برزخ السويس ليصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، وهي تفصل بين قارتي آسيا وأفريقيا وتعد أقصر الطرق البحرية بين أوروبا والبلدان الواقعة حول المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي وهي أكثر القنوات الملاحية كثافة من حيث الاستخدام.

[212]- أنجلوا ساماركو، قناة سويس (تاريخها ومشكلاتها)، تر: ولاء عفيفى عبد الصمد وآخرون، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2015، ص ص 35- 43 – بدرية علي سيد أحمد عبد العزيز، الأثار السياسية والاقتصادية لقناة سويس في الفترة 1859- 1956، رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة شندي، سودان، سبتمبر 2016، ص ص 14-18.

[213]- كان يُنطق **سيزوستريس الأول. ينظر:** سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مكتبة الأسرة، السودان، 2000، ص 326- 387.

ب–قناة سيتي الأول (خلف لأبيه رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشر) عام 1310ق. م

ت–قناة نخاو (أحد ملوك الأسرة السادسة عشر) عام 610 ق. م

ث–قناة دارا الأول (ملك الفرس 522– 485 ق.م) عام 518 ق. م

ج– قناة الإسكندر الأكبر عام 335 ق. م

ح– قناة بطليموس الثانس عام 285 ق. م

خ– قناة الرومان (تراجان) عام 117 ق. م

د– قناة أمير المؤمنين عام 642 م في عهد عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص، والقاضي بإصلاح القنوات القديمة سابقة الذكر.

غير أن هذه القنوات أهملت بعدة مدة زمنية، ثم انتهى بها الأمر إلى أن أصبح وصلاً مائيا مباشر بين البحرين بقطع البرزخ في آخر الأمر بعدما كانت عبارة عن مشاريع في العصر الحديث، ومن بين هذه المشاريع هي كالنحو التالي:

- في العهد العثماني:

أظهر عدد من السلاطين العثمانيين اهتماماً بالمشروع كما فعل السلطان سليم الأول (1512م– 1520م) عقب استيلائه على مصر 1517م، وكذلك إصدار السلطان سليم الثاني (1566م– 1574م) فرمانا يأمر فيها والي بإجراء الدراسات الهندسية والمعمارية اللازمة لفتح ممر مائي يربط خليج السويس في البحر الأحمر بالحر المتوسط لتسهيل مرور السفن العثمانية كما اقترح قائد الأسطول العثماني الحاج علي باشا عام 1586م على السلطان العثماني مراد الثالث (1574م– 1696م) إعادة شق القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر[214].

[214]– بدرية علي سيد أحمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 19.

- في عهد الحملة الفرنسية على مصر 1798م.

ظهرت فكرة حفر قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط لأول مرة أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر (1798-1801م)[215]، حيث قام بونابرت بعد احتلاله مصر بزيارة لبرزخ السويس وكلف بعثة هندسية تبحث عن القناة القديمة يرأسها المهندس الفرنسي ليبير Lepêre وهو أحد الاختصاصين الذين رفقوا الحملة، وتم إجراء مسح للمنطقة وتقديم دراسة كاملة حول احتمال إعادة فتح القناة وبعد أن قام ليبير بثلاث رحلات الى منطقة السويس في جانفي وفيفري وسبتمبر من عام 1799م، وجهته صعوبات كثيرة من بينها: نقص المياه، وهجمات الأعراب وصعوبة النقل، وتوجه نابليون من مصر نحو بلاد االشام لغرض احتلالها، فضلا عن فيضان النيل الذي كان يعوقهم عن تتبع أثار القناة القديمة قدم تقرير الى نابليون، وفيه وقع لوبير في خطأ هندسي حين اعتقد أن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى البحر المتوسط بنحو 32 قدما، لذا ان فتح القناة في هذ الحالة يؤدي إلى طغيان مياه البحر على منطقة دالتا[216]، وبالتالي عدم جدوي حفر القناة.

أظهرت الحملة الفرنسية على مصر أهمية موقع مصر ولفتت نظر بريطانيا أكثر من ذي قبل، بل أثارت اهتمامها بهذه البلاد لما لها من أهمية خاصة للمصالح البريطانية في شرق البحر المتوسط، كما أظهرت الحملة ضرورة البحث عن طريق قصير الى الهند.

- في عهد محمد علي

وخلال مدة حكم محمد علي باشا كانت هناك محاولات كثيرة لإحياء مشروع قناة السويس، وقد أدت بريطانيا في تلك الحقبة دورا مهما لاهتمامها بالشؤون المصرية والحفاظ على خطوط مواصلاتها مع الشرق؛ فما هو رد محمد علي باشا حول فكرة انشاء القناة ؟

---

[215]- صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي 1798 - 1810،(د. ط)، مطبعة العاني، بغداد، 1979، ص ص80- 81.

[216]- المرجع نفسه، ص 81.

أثناء حكم محمد علي باشا لمصر أصلحت القناة القديمة لاستخدامها في ري المساحات الزراعية بين العباسية والقصاصين، كما أدخلت عليها بعض التحسينات حيث وصلت مياه النيل إلى سويس والإسماعلية.

أرسلت الحكومة فرنسية في عام 1803م قنصلها ماثيو دي لسبس إلى مصر وقد أدى دوره حسب التعليمات التي أنيطت به وهي اتباعه أسلوب الحياد وعدم التدخل في الصراعات الجارية، وهناك مصادر أشارت الى علاقة محمد علي الطيبة مع القنصل الفرنسي ماثيو دي لسبس[217]، وإلى الدور الذي أداه هذا القنصل في وصول محمد علي إلى السلطة وذلك عبر الدعم الفرنسي له قبل وصوله إلى السلطة و ازدياد ذلك الدعم بعد وصوله إلى سدة الحكم[218]، وبعد وفاة ماثيو دي لسبس عُين ابنه فرديناند دي لسبس[219] Fredinand.Delesseps عام 1832م كنائب قنصل في مصر، الذي وصل إلى الإسكندرية على ظهر سفينة ديوجين Diogene[220]، وصادف في ذلك الوقت أن كان وباء الكوليرا منتشرًا في فرنسا لذلك أقام لمدة ثلاثين يوماً في الحجر الصحي وكان واقعاً على ساحل الإسكندرية، واستغل دي لسبس مدة بقائه في الحجر بقراءة الكتب إذ جلب له القنصل الفرنسي ميمو مجموعة من الكتب و التي كان من ضمنها تقرير لوبير Loper[221] المهندس الفرنسي إذ سماه " قنال البحرين"، وفيه بحث عن إمكانية ربط البحرين الأبيض المتوسط و

---

[217]– جورج يانج، المرجع السابق، ص 119.

[218]– ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 91.

[219]– فرديناند دي لسبس دبلوماسي فرنسي ولد في 19 نوفمبر 1805م في ضاحية فارساي القريبة من باريس. ينتمي دي لسبس لأسرة اسكتلندية الأصل عريقة هاجرت إلى فرنسا في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي عمل أكثر أفرادها بالدبلوماسية واشتهرت بمواقفها المؤيدة لنابليون، قضى أعوامه الأولى في ايطاليا حيث عمل مع والده ثم التحق بالتعليم في كلية هنري الرابع بباريس، وفي سن السابعة والعشرين اختير فرديناند دي لسبس قنصلا مساعدا لفرنسا بالإسكندرية سنة 1832م. ينظر: محمود صالح المنسي، مشروع قناة سويس بين أتباع سان سيمون وفرديناند دي ليبس،(د.ط)، منشورات الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، 1971، ص 76– 80..

[220]– سامي صالح الصياد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس (1854– 1869)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006، ص 76.

[221] **لوبير**: كبير المهندسين والذي قضى عامين في دراسة مشروع قناة السويس وعاونه بعض مهندسي الحملة الفرنسية وقدم تقريره إلى نابليون بونابرت بعد مغادرته مصر. ينظر: جمال بدوي، المرجع السابق، ص 80.

البحر الأحمر وذلك عن طريق شق قناة تعرف بقناة السويس، وظل دي لسبس ممعناً في ذلك التقرير إلى أن اختمرت في ذهنه الفكرة[222] على الرغم من أنه لم تكن له علاقة مسبقة بمشروع قناة السويس وكذا لم تكن له خلفية عن المشروع إلا أنه عندما قرأ تقرير المهندس الفرنسي لوبير أثار المشروع انتباهه وظل عالقاً في ذهنه[223]، وقبل وقوع تقرير لوبير في يد دي لسبس كان هناك من تبنى المشروع[224] ألا وهم أتباع السان سيمون إذ عُد هؤلاء هم أول من طرح فكرة إنشاء القناة على محمد علي باشا، وزار بروسبير انفانتين[225] Prosper Enfantin الذي هو أحد أتباع السان سيمون مصر منذ عام 1823م بصحبة من معاونيه في رحلته تلك، وكان في غاية التحمس للمشروع إذ بدأت اللحظة الحقيقية للمشروع عند التقاء انفانتين بنائب القنصل الفرنسي في مصر فرديناند لسبس إذ بدأ كل منهما بإبذال ما بوسعه لإنجاح المشروع، وكان فرديناند يعمل على تسهيل مهمة السان سيمون إذ ابتدأت المناقشات بينهم تدور باستمرار منذ مجيء السان سيمون إلى مصر عام 1833م[226].

وكانت المناقشات دائرة حول مائدة العشاء في القنصلية بين حماس انفانتين وفرديناند دي لسبس، وقامت علاقة بين دي لسبس وجماعة السان سيمون الذين كانوا على اتصال مستمر بالقنصلية الفرنسية في مصر، وبدأ دي لسبس بتوطيد علاقته معهم واستفاد من الدراسات والأبحاث التي أجروها على مشروع القناة[227]، ومن خلال المساعي التي بذلها دي

---

[222]– عزيز خانكي بك، قنال السويس (نبذة تاريخية ومالية)، منشورات المطبعة المصرية، القاهرة،(د.ت)، ص ص 10–11.

[223]– سامي صالح الصياد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس 1875 والموقف الدولي منه، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 15، ع1، جامعة تكريت، ص ص 76– 77.

[224] – عمر الإسكندري وسليم حسن ، المرجع السابق، ص 10.

[225]– بروسبير بارتلمي انفانتين(1769– 1829): اشتراكي فرنسي يدعى أحياناً بالأب انفانتين، قاد الحركة السان سيمونية عقب وفاة مؤسسها سان سيمون، غلب على الحركة خلال قيادته لها سوء السمعة بسبب لباسها وطقوسها الغريبة، حدث انشقاق في عهده للجماعة السان سيمونية قاده بازار الذي نادى بالحب المتحرر، سجن انفانتين عام 1832م، ثم صار من رجال الصناعة الناجحين، تشمل مؤلفاته" علم الإنسان :"عام 1858م و" الحياة الخالدة "عام 1862. **ينظر**: ز. ل . ليفين، المرجع السابق، ص 26.

[226]– جمال بدوي، المرجع السابق، ص 85.

[227] – سامي محمد صالح الصياد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس، المرجع السابق، ص 07.

لسبس بإجرائه لهم مقابلة مع محمد علي لغرض مناقشة المشروع[228]، وقد علق محمد علي على هذا مشروع القناة بشريطين هما[229]:

1.أن مصر هي من تقوم بحفر القناة وتمويلها وتكون ملكا لمصر.

2.أن تضمن الدول الكبرى حيا مصر لتنتفع كل دول العالم بالقناة.

وهو الشرط نفسه الذي سبق واشترطه محمد علي باشا على مندوب شركة ايطالية اسمها ليسيا Lissia غير أن هذا المشروع لم ينجح في عهد محمد باشا نتيجة وقوفه أمام مجموعة من العقبات حالت دون تجسيده على أرض الواقع أهمها[230]:

1. رغبة محمد علي في أن ينفذ المشروع بمعرفة مصري، وتحت إشراف خبراء أجانب كما كان اعتقاد محمد علي أن الهدف لم يكن القناة، بل كان الاستعمار الذي سيسطر عليه.

2. التكتل الأوربي ضد العالم الإسلامي، وعدم اتفاق أوروبا على نام يكفل حياد القنا وانتفاع بالملاحة فيها على قدم المساواة التامة.

3. التنافس الفرنسي البريطاني على الرغم من نفوذ فرنسا القوي لدى محمد علي باشا على شق القناة.

4. الخطأ الهندسي الذي وقع يه الفرنسيون والن بأن مستوى البحرين مختلفان.

5. استراتيجية محمد علي في بناء دولة مصر الحديثة حرص فيها على أن تكون بعيدة عن الاقتراض من البنوك الأوروبية، وأنه إذا أراد شق قناة السويس فيجب أن تكون برؤوس أموال مصرية، وكانت وجهة نظره قائمة على أنه إذا ما تم حفر قناة السويس فأنها ستتحول إلى بوسفور آخر سيجر بمصر إلى الهلاك، كما حدث مع الدولة العثمانية وأجابهم بقوله: " إذا فتحت قنال السويس خلقت لمصر بسفور آخر يكون مطمع دول أوربا"231، وكان الوالي

---

228 –جمال بدوي، المرجع السابق، ص 78.

229– أسماء احمد حسن كحيل ، العلاقات المصرية الفرنسية 1854 – 1904 ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الدراسات الانسانية، جامعة الازهر للبنات، 1987 ، ص 49– بدرية علي سيد أحمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ص 23– سامي محمد صالح الصياد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس، المرجع السابق، ص 69.

230– بدرية علي سيد أحمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ص 23– 24.

231– عزيز خانكي بك، المرجع السابق، ص 11.

في تلك المدة مشغولاً في بناء القناطر الخيرية في النيل. وذلك ما يؤكد حرص الوالي على الحذر من أطماع الدول الأوربية[232].

والحقيقة أن محمد علي لم يكن معارضاً للمشروع في حد ذاته، وإنّما في منح شركة أجنبية امتياز الحفر والانتفاع به، ولم يكن باستطاعة جماعة السان سيمون لا هم ولا غيرهم من إقناع الوالي محمد علي بشق القناة، إذ كان متأكداً بأن إيصال البحر الأبيض بالأحمر سوف يجعل مصر تحت تأثير الدول الأوروبية وبين لهم شروطه إذا أراد الموافقة على هذا المشروع ومنها أن تكون القناة ملكاً لمصر وإن يكون تنفيذها وصيانتها فقط لمصر دون أي تدخل أوروبي.

على الرغم من رفض محمد علي باشا لمشروع قناة السويس إلّا أنّه رحب بأنشاء جمعية للدراسات الخاصة بالمشروع، فتشكلت في ألمانيا جمعية ليبزج Leipzig والتي تأسست في 25 أوت 1845م، ووضعت القواعد الأساسية التي كانت ترى أنّها كفيلة بنجاح تنفيذ مشروع القناة[233]، وقد أرسلت الجمعية أحد ممثلها إلى مصر حاملاً معه مذكرة إلى محمد علي باشا لمناقشة موضوع القناة ومحاولة اقناعه بأن المشروع سوف يؤمن مورداً كبيراً يمكنه من تنمية تجارته وصناعته وزراعته في البلاد، وأن كل دول أوروبا ستقدم ضماناً لحكمه، وأن القناة ستكون عملاً مصرياً أوروبياً، لكن محمد علي أظهر لمندوب الجمعية مخاوفه من موقف بريطانيا من ناحية، واحتمال أن يؤدي شق القناة إلى زيادة التغلغل الأجنبي، ومن ثم احتلال مصر من ناحية أخرى[234].

فضلا عن الرّفض المصري فإن الدولة العثمانية وقفت الموقف نفسه وذلك عائداً لخشيتها من أن يؤدي المشروع إلى ضياع بعض الولايات العثمانية التي كانت حريصة على بقائها في ظل الحكومة العثمانية وخاصة تلك الواقعة في البحر الأحمر هذا من جانب، أما

---

[232]– بدرية علي سيد أحمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 24– أنجلوا ساماركو، قناة سويس (تاريخها ومشكلاتها)، المرجع السابق، ص 81.

[233]– عبد العظيم رمضان، "حركة المد والجزر بين طريقي السويس ورأس الرجاء"، **مجلة السياسة الدولية**، العدد 54، أكتوبر 1978، ص 862.

[234]– سامي محمد صالح الصياد، الصراع البريطاني الفرنسي على مشروع قناة السويس، المرجع السابق، ص 71.

من جانب آخر فكان خشية الباب العالي من المشروع خوفاً من أن يتسبب بثراء مصر ومن ثم يصبح بمقدورها إعلان استقلالها التام عن الدولة العثمانية، ولذا وقفت بالضد من المشروع، وقد اشترطت على موافقتها أن تكون هناك قوات عثمانية مرابطة للقناة وحامية لها وحريصة على أمانها وتكون عند مدخلي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر[235].

وبعد وفاة محمد علي باشا سنة 1848م دخل المشروع حيز التنفيذ في النصف الثاني من القرن الـ 19 بعد دراسات فرنسية دقيقة ساهم فيها المهندس فريدناند ديليسبس الذي ذكرناه سابقاً، والذي منحة حق تنفيذ المشروع الخديوي سعيد.

ومما سبق يظهر لنا أن سياسة محمد علي باشا مع الأجانب والدول الأوروبية هي التي فتحت أعين الدول الأوروبية الكبرى على مشروع قناة سويس وتمهيد لاحتلال مصر فيما بعد. الامر الذي ادى الى ركود نموها السياسي والاقتصادي وعزلها عن العالمين العربي والافريقي . وبذلك تكون القناة التي بنيت بسواعد المصريين واموالهم قد سببت ضررًا كبيرًا لمصر فقد استنزفت مواردها وقضت على العديد من مواطنيها الذين كانوا يعملون في ظروف السخرة البالغة القسوة وعزلتها عن عمقها الاستراتيجي في العالمين العربي والافريقي وافقدتها استقلالها النسبي الذي كانت تتمتع به في ظل الحكم العثماني ووضعت مقدراتها بيد اقوى دولة استعمارية في ذلك الوقت.

[235]– نجيب صالح، تاريخ العرب السياسي 1856– 1956، ط1، دار اقرأ، بيروت، 1985، ص 43.

رابعًا: تقييم المؤرخون تجربة محمد علي باشا في مصر

فهم محمد علي باشا بعد تثبيته على سدة الحكم في مصر قيمة الدعاية وأهميتها إذ أراد أن يستمر في مسيرته السياسية التي أراد لها أن تكون طويلة، فحرص دائماً على مقابلة التّجار والدبلوماسيين والسياح والمبعوثيين من الأجانب بنفسه ويستمع إليهم ويحكي ما أراد، وقد سرب عبرهم كل ما أراد أن يصل إلى أوروبا عن شخصيه وتاريخيه ومشروعاته التعميرية والإصلاحية التي يريد تنفيذها في مصر، ولقد لعبت حكاياته عن نفسه، والتي لم تكن تخلو من الفنتازيا وتبعد أو تقرب من الحقيقة أدوراً أساسية في التعتيم على الباحثين وللدّارسين الذين يصطدمون دائماً مع الحكايات نفسها في مصادر عديدة تروجها، وبعضها يتعارض مع الحقيقة التي يمكن أن نجدها في مصادر أخرى محايدة، أو سلمت من التأثيرات الباشا وآلته الترويجية الذي استطاع تجنيد أمهر المؤرخين، ووجهت أغلب من كتبوا فيما بعد استناداً إلى حكايات محمد علي وقصصه التي روجها عن نفسه، يظهر ذلك في ما كتبه الباحثون من الانجليز والألمان مقارنة بما كتبه الباحثون الفرنسيون الذين حظيت بلادهم باهتمام خاص، ومن ثم العمل الدؤوب من قبل مروجي الدعاية التي سخرها محمد علي في فرنسا تحديداً، نظراً للعلاقات المتميزة بينهما، وإن نظرنا نظرة بسيطة إلى هذه العلاقة ستبين مدى الصورة الإيجابية التي حظي بها محمد علي في الأوساط الفرنسية مقارنة بصورة شديدة السلبية له في الأوساط الإنجليزية، وهذا ما جعلنا نقف في موقف الحائر نتيجة الغموض في شخصية محمد علي باشا وطموحاته نتيجة لتباينت مواقف ورؤى المفكرين العرب والغرب حول اصلاحات محمد علي باشا ومنهجه وأسلوبه في تحديث مصر ونهضتها، ويمكن تقسيم رؤى هؤلاء المفكرين إلى ثلاث اتجاهات: الاتجاه الأول وهو ما يمكن أن نطلق عليه الاتجاه الرافض لمنهج محمد علي باشا واصلاحاته ويغلب سلبياته على إيجابيات ، والاتجاه الثاني: هو الاتجاه المؤيد لمنهج محمد على وإصلاحاته. في حين كان الاتجاه الثالث هو الاتجاه الذي يقف موقفاً وسطاً بين الاتجاهين السابقين، فهو يسجل لمحمد علي إيجابيات ويعتد بها، وفي الوقت نفسه يسجل عليه انتقادات مهمة أدت إلى فشل مشروعه ، ونحاول في الصفحات الآتية عرض وتحليل هذه الاتجاهات.

اختلف المؤرخون في تقييم مشروع محمد علي، إلا أنهم اتفقوا على أن محمد علي باشا حاول تنفيذ مشروعه هذا ليس من منطلق دوافع قومية عربية، وإنما من منطلق دوافع شخصية[236]، وللدكتور أنيس الصايغ رأي في ذلك إذ ذكر أن حملات محمد علي في بعض البلدان العربية في قوله: " لم تكن عملاً عربياً بأي حال، ولم تكن الدوافع عربية بقدر ما كانت بتأثير بعض السلطات الأوربية وتحريضها ..."[237] .

أما رفاعة رافع الطهطاوي فقد عارض أنيس الصايغ في ذلك كغيره من المفكرين المصريين الذين تأثروا بأعمال محمد علي ويذكر أن فتوحات محمد علي باشا في بلاد الشام " كانت لبعث الروح القومية في نفوس الشعب، ولم تكن من محض العبث وإنما جل القصد وتنبيه أعضاء ملة وجنسية عظيمة ..."[238] .

أما جرجي زيدان ، فقد جاء حديثه عن نهضة محمد علي عبارة عن مدح وإطراء وتقدير لمآثره المختلفة على مختلف المجالات ، الإدارية والزراعية والعسكرية والتجارية والصناعية والصحية والعلمية ، ويختم حديثه المطول عن هذه الإنجازات بقوله[239] : "إن محمد على كان حاكماً يراعي حق الرعية وإن آثاره العلمية والعملية واضحة للعيان "، ولذلك لم يسجل زيدان أدنى نوع من أنواع الانتقاد لكل هذه المآثر والإنجازات .

أما عبد الرحمن الجبرتي وصف محمد علي بأنه مخادع وظالم، ووصفه بميكافيلي[240]، وهذه الصفات هي التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر، ووصفه بعدم

236- لويس عوض , تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسة إلى عصر إسماعيل , ص 157 ؛ محمد صبري ، تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث ، ص78 .

237- نقلا عن: فؤاد المرسي الخاطر، حول الفكرة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1985، ص 31.

238-الإعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت،1973، ص133 .

239 - جورجي زيدان، المرجع السابق، ص 106.

240 - طلب محمد علي باشا من وزيره أرتين الذي كان يترجم له كتاب الامير ميكيافيلي وبعد ثلاث ايام قال الباشا: " إني أرى بوضوح أنه ليس لدي مكيافيلي ما يمكنني أن أتعلم منه، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف فلا داعي للاستمرار في ترجمت". ينظر: ذوقان قرقوط، المرجع السابق، ص 15.

المبالاة للإسلام وهي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الرجال الذين يدمرون الإسلام من الداخل والدليل أن عهد محمد علي شهد تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر كالمحفل الذي أنشاه الإيطاليون في الإسكندرية عام 1830[241].

كان محمد علي أول حاكم على مصر يفصل بين علوم الدين ومركزها الأزهر والعلوم العقلية ومركزها المؤسسات التعليمية الحديثة التي أنشاها، فقد عزل محمد علي الأزهر بالتدريج، عن مجالات الحياة والمجتمع، وقلص دور علماء الدين في شؤون الدولة، وأرسى لأول مرة نظام تعيين شيخ الأزهر من قبل الحاكم، وهو النظام الذي ما زال قائماً حتى الآن، وقد حاصر الأزهر شبكة من المدارس العلمانية الحديثة[242]، لذلك كتب الشيخ محمد عبده[243] في مجلة المنار عام 1902، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس أسرة محمد علي حيث قال :" إن لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خلاف كان نافعاً أو ضاراً بالمسلمين في سياستهم العامة"[244].

241- ينظر: محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص 318 – 320 .

242- محمد كامل ظاهر، المصدر السابق، ص 50 – 51 – محمد فؤاد شكري، نصوص ووثائق، المصدر السابق، ص 230.

243- من مؤسسي النهضة الفكرية المصرية الحديثة، وكبار الدعاة في التجديد الديني والإصلاحي في العالم الإسلامي ، ولد في قرية نصر بمحافظة البحيرة في مصر سنة 1845، درس في الأزهر وحفظ القرآن الكريم، احد تلامذة جمال الدين الأفغاني، عُهد أليه بالتدريس في المدارس الأميرية، تولى تحرير صحيفة(الوقائع المصرية)، اشترك في الثورة العرابية فصدر عليه الحكم بالنفي، فاختار بيروت ومنها رحل إلى باريس حيث التقى بالأفغاني فاصدرا مجلة (العروة الوثقى)، وعاد إلى مصر بعد العفو عنه سنة 1888، فانصرف إلى قضايا التجديد الديني والإصلاحي، اختير عضواً في مجلس شورى القوانين، عين مفتياً لمصر سنة 1899، توفي في القاهرة عام ، من أشهر أعماله الأدبية: رسالة التوحيد، الإسلام والنصرانية. ينظر: محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة ، مج2 ، ص 1666 ؛ فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط1 ، بيروت ، 1978 ، ص526 .

244- ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ط1، المدار ماجد للنشر والتوزيع، جده، 2004، ج1، ص 8 .

أولها: تأسيس حكومة مدنية في مصر– علمانية– كانت مقدمة لاحتلال الأجانب لها.
ثانيها: قتاله للدولة العثمانية بما اظهر به للعالم كله ولدول أوربا خاصة ضعفها وعجزها لذلك جرأهم على التدخل في أمور سياستها.
ثالثها: مقاتلة الحركة الوهابية والقضاء على ما نهضت به من الإصلاح الديني في الجزيرة العربية.

كذلك كتب الشيخ محمد عبده مقالاً في المنار جاء فيه: " هذا يعني أن محمد عبده ومدرسته الفكرية لا ينسون مساوئ محمد علي في نسخ الأحكام الشرعية وإعلانه العلمانية في مصر، وهو أول من تجرأ في العالم الإسلامي على استبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوربية، ولا ينسون قتاله لخليفة المسلمين مما يعد حرابةً، ولا ينسون قضاءه على الدولة السعودية العربية المسلمة المصلحة السلفية"[245].

وفي تقييمه لتجربة محمد علي، يقول الشيخ محمد عبده: " ما الذي صنع محمد علي؟... لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش، وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه. وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأسًا يستقر فيه ضمير "أنا"، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا، حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على من بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان، فهلك فيه. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، وكأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه، فسحق بذلك جميع

245– سيد بن حسين العفاني، المرجع السابق، ص 8 .

عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة ... واستقلال، ليصير البلاد المصرية جميعًا إقطاعًا واحدًا له ولأولاده[246].

لذلك يمكن القول أنه مهما قيل عن محمد علي وبناء دولة مصر الحديثة، فإن محمد عبده ينفي عنه ما ينسب له من إصلاح، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة والنخوة في مصر. خلاصة القول فيما يرى محمد عبده أن محمد علي كان تاجراً وزارعاً وصانعاً وجندياً باسلاً ومستبداً ماهراً ، ولكنه كان لمصر قاهراً ولحياتها الحقيقية معدماً، هذا هو رأى محمد عبده في نهضة محمد على فهو لم ير فيها أي جانب إيجابي ، وبغض النظر عما قيل حول هذا الرأي من أنه كتب بدوافع سياسية نتيجة لخصومته مع الخديو عباس وتسلحه بمؤازرة الإنجليز له، فقد جاء نقد محمد عبده ردًّا على تقريظ مصطفي كامل لمحمد علي في خطبة ألقاها.

أما محمد رشيد رضا [247] فقد هاجم محمد علي في إحدى مقالاته حيث قال: " إن مصر بدأت تتجه نحو الاصطباغ بالصبغة الأوربية منذ أيام محمد علي متفوقة على تركيا "[248]. من خلال قوله فإنه لم يختلف رشيد رضا كثيراً عن رأي أستاذه إلا في تفصيلاته، فيشير إلى أن محمد على يعد ضمن المصلحين من الناحية الدنيوية (المادية والسياسية) دون الناحية الدينية والمعنوية ، فقد بنى ركني الثروة والقوة على أساس العلم ولكنه أهمل بناء الأخلاق والآداب على أساس الدين وسنن الاجتماع ، لذلك كان إصلاحه منقوصاً عالج ناحية وأهمل الأخرى ، ويرى أن هذا الإصلاح يعد إصلاحاً صورياً لم يزد الأمة إلا ضرباً من الفساد وإضعاف روح الاستقلال ، فلم يكن محمد علي هو الطبيب الاجتماعي المبصر

246 – المرجع نفسه، ص 9.

247– ولد في القلمون من طرابلس الشام سنة 1865م، وفي مدارسها نال تعليمه، رحل إلى مصر سنة 1898م، والتقى بالشيخ محمد عبده وفيها اصدر مجلة (المنار)، ومن نشاطاته البارزة في مصر تأسيسه لمدرسة الدعوى والإرشاد ، قصد سوريا أيام الملك فيصل بن الحسين، تم اختياره رئيسا للمؤتمر الإسلامي في سوريا ، توفي في القاهرة سنة 1935م. من أبرز مؤلفاته: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، تفسير المنار، الوحي المحمدي. ينظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ص563.

248– نقلاً عن : سيد بن حسين العفاني، المصدر السابق، ص 11 .

بأمراض الأمة الباطنة والظاهرة حتى يتمكن من وصف العلاج الملائم لها ، لذلك كان من أثر عدم تمكن الطبيب أن زادت الأمة مرضاً وضعفاً ، حتى إن العلوم التي أدخلت إليها قسراً كانت مثل الجسم الغريب الذي يدخل في البنية فيفسدها ، لأن هذه العلوم لم تكن على حسب استعداد الأمة وحاجاتها ، بل كانت تقليداً صورياً أو عارضاً وقتياً تمثل ضررها في تلك التقاليد والقوانين الغربية التي قطعت كثيراً من روابط الأمة الملية ومشخصاتها الأدبية والاجتماعية ولم تستبدل ما يحل محلها من مقومات الأمم الأوربية ، بل صارت عيالاً عليهم في جميع الشؤون ، حتى انتهى الأمر إلى فقدان الاستقلال باسم النفوذ أو الحماية أو الاحتلال .

أما ما أورده المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، الذي عاصر شخصية محمد علي، فسجل عليه من السيئات ما سجل ورصد تحركاته المشبوهة، وانتهاكاته المكشوفة التي تكون كافية لتقييم تلك الشخصية [249]، فيذكر الضيق والكرب الذي حل بالمسلمين ، وركون محمد علي إلى النصارى واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، إذ أن أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، فآلمه ما وصل إليه الكفار، من المكانة التي تبوءها في عهد محمد علي[250].

ويقول محمد قطب:"... إن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون وهم يجوسون خلال الديار هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام، وبين تلك الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام، وبذلك يكون محمد علي باشا قد ساعد هؤلاء الصليبين في تنفيذ مخططاتهم والوصول إلى أهدافهم، وأن فرنسا قد احتضنت محمد علي احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها، حيث

---

[249]– انتقد الكثير من المؤرخين ذوي المنهج الاشتراكي الجبرتي في إسرافه كما يقولون في نقد محمد علي، وقالوا : إن الجبرتي لم يعيش ليرى ثمرة ما قام به محمد علي من أعمال عظيمة، مع أن تاريخ الجبرتي يقف عند عام 1236 هـ – 1821م، أي بعد حوالي ستة عشر عاماً من ارتقاء محمد علي لعرش مصر، نقلاً عن: سيد بن حسين العفاني، المصدر السابق، ص 12 .

[250]– عبد الرحمن الجبرتي , عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج3، ص 387– 395 .

أنشأت له جيشاً مدرباً ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة، وذلك ليس حباً في شخص محمد علي أو حباً في مصر وإنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد ان اضطرت للرحيل، وكان ذلك المخطط يرمي إلى القضاء على الدولة العثمانية والقيام بتخريب العالم الإسلامي عن طريق تخريب مصر – بل الأزهر، وقد قام محمد علي بالدور خير قيام "[251]؛ ويتضح مما سبق أن محمد علي كانت له غاية كبيرة وهي تحجيم دور الأزهر في المجتمع المصري كمؤسسة دينية وتعليمية.

كما أن السياسة التي جاء بها محمد علي كانت تحقيقاً لأهداف الحملة الفرنسية على مصر، أما المؤرخ الانكليزي ارنولد ثوينبي فقد أشار بقوله: "كان محمد علي ديكتاتورياً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر "[252].

وبلغ محمد علي درجة كبيرة من الظلم حيث أمر الشيخ عبد الله الشرقاوي أي شيخ الأزهر بلزوم داره وعدم الخروج منها حتى إلى صلاة الجمعة[253]، كما نفى محمد علي نقيب الأشراف عمر مكرم الرجل الأول في إيصاله إلى الحكم وأول من بايعه من الناس[254].

أما السياسة التغريبية الأخرى التي سار عليها محمد علي فهي إنشاء نظام تعليمي جديد على نفس الأنظمة التعليمية في الغرب ، وإرسال البعثات إلى أوربا، التي حملت بذور التخريب والعلمنة، ويذكر أحمد عزت عبد الكريم في قوله: " ومهما يكن من شيء فقد ظهر لمحمد علي أن التعليم في الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه، إن التعليم الذي كان وحده الوسيلة لتحقيق أغراضه، وكان هذا كافياً ليحمل محمد علي أن يحول وجهه عن الأزهر

---

[251]– سيد بن حسين العفاني، المصدر السابق، ص 20 – 21.

[252]– المرجع نفسه، ص 28.

[253] – عبد الرحمن الجبرتي , عجائب الآثار في التراجم والأخبار , ج3 , ص 191 .

[254]– سيد بن حسين العفاني، المرجع السابق، ص 33 .

"[255]، وبهذا المعنى يمكن عُدَ محمد علي أول علماني حقيقي في العالم العربي والإسلامي الحديث .

في حين يدافع بعض المؤرخين المعاصرين أمثال **دكتور رءوف عباس حامد**[256] الذي يرد على المؤرخين في كتابه " كتابة تاريخ مصر .. إلى أين؟ أزمة المنهج ورؤى نقدية " والذي قال فيه: " ولا شك أن التحولات التي تمت على يد محمد علي باشا لم تنشأ من فراغ وخاصة أنه لم يعتمد على رأس المال الأجنبي في إقامة البنية الأساسية لاقتصاد السوق الخاضع لإدارة الدولة، وإنما اعتمد على موارد مصر وحدها طوال حكمه وحقق التراكم الأولى اللازم لإقامة تلك البنية من خلال إعادة تنظيم الاقتصاد المصري وتوجيه بعض قطاعاته وجهات جديدة "[257]، وبعدها يبدأ بطرح مجموعة من التساؤلات من أجل اقناع وجهة نظره بقوله:" فمن أين استطاع الاقتصاد المصري في مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلك الموارد إذا كان اقتصادا تقليديا راكدا؟ وكيف استطاع المجتمع المصري أن يتجاوب مع إصلاحات محمد علي إذا كان مجتمعا يعاني من الاضمحلال والتخلف؟ بل كيف استطاع العامل المصري أن يستوعب الأساليب الفنية الحديثة في مصانع محمد علي إذا كان عطلا من الخبرة، مفتقرا إلى الاستعداد؟ وأخيرا كيف استطاع الفية المصريون الذين تعلموا في ظل النظام التعليم التقليدي في العصر العثماني أن يتجاوبوا مع التعليم الحديث، بل ويتابعوا الدراسة في المعاهد الفرنسية إذا كان النظام التعليمي الأساسي الذي أخرجهم متخلفا عاجزاً؟ وكيف استطاع الفلاح المصري أن يستوعب فنون القتال الحديثة، ويشكل قوام جي فرض سيطرة محمد علي على الشرق الأوسط إذا كان ذلك الفلاح لا يملك الاستعدادات والقدرات اللازمة لذلك؟ >>[258]، وبعدها يجيب على هذه تساؤلات في قوله: << كلها تساؤلات تحتاج

---

[255]– ينظر: تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 1938، ص121.

[256]– الدكتور رءوف عباس حامد، مؤرخ مصري ورئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وأستاذ التاريخ بجامعة القاهرة.

[257]– رؤوف عباس حامد، تاريخ مصر .. إلى أين؟ أزمة المنهج ورؤى نقدية "، (د. ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009، ص 139.

[258]– رؤوف عباس حامد، المرجع السابق، ص 139،

إلى اجابات شافية تدعمها الدراسة الدقيقة للواقع المصري عند ظهور محمد علي، فما فعله محمد علي كان بمثابة إعادة ترتيب ما توفر لديه من أوراق، أي إعادة تنظيم البنية الأساسية في مصر بالاستفادة من مكوناتها الأصلية حقا، لجأ محمد علي إلى الخبرة الأجنبية فاستعان بالفرنسيين وغيرهم في شتى المجالات، لكن كان ذلك على نطاق محدود، وظلت اليد العليا في حركة الاصلاح لتي أدخلها محمد علي لعناصر عثمانية أو مصرية، وجاء نسق الإصلاح مختلفا عن النمط الغربي، ملبيا للظروف الموضوعية للمجتمع المصري التي تضرب بجذورها في أعماق تاريخ مصر عبر العصر العثماني، ولو كان المجتمع المصري تقليديا راكدا مضمحلا لما كان بمقدور محمد علي أن يصنع المعجزات، فيحدث تقليدي ويحرك الراكد، ويستنهض المضمحل، وخاصة أنه كان شرقيا عثمانيا ينتمي إلى نفس الثقافة بما لها وما عليها، وما تحقق على يد محمد علي لم ينشأ من فراغ، وإنما اعتمد على الأساس الراسخ للتجربة التاريخية المصرية، ويعني ذلك أن واقع مصر في العصر العثماني كان له شأن أخر غير الذي شاع في كتابات مدرسة "الحداثة"، واستطاعت **نللي حنا** في دراستها ثقافة الطبقة الوسطى فيمصر العثمانية (ق 16م – ق 18م) أن تثير الشكوك حول مصداقيته[259].

وبالرغم من التحولات الإدارية والاقتصادية والسياسية التي أحدثتها تجربة محمد علي باشا، إلا أنها كانت دون مستوى الطموح من حيث التأثير والنتائج، لاسيما أن محمد علي تبنى سياسة إدارية لم تراع فيها خصائص المصريين، واقتصرت المناصب العليا على العناصر الأجنبية، في حين لم تكن حصة المصريين إلا الوظائف الصغيرة[260]، ومع أن عهدا محمد علي كان عهداً فيه عمران وإصلاح، لكنه بنفس الوقت كان عهد حروب ختمت بمعاهدة لندن 1840م، والتي مهدت الطريق للتغلغل الرأسمالي الأوربي في مصر[261]، فالنتائج السلبية لسياسة محمد علي في توجهه نحو الغرب هي اعتماد مصر على الأسواق

[259] – المرجع نفسه، ص 140.

[260]– أنيس صايغ، الفكرة العربية في مصر، بيروت، 1959، ص 17 .

[261]– لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص 183 .

الأوربية وهي التي جعلت مصر أكثر تعرضاً للتدخل الأوربي في الشؤون الداخلية[262]، ومع أن محمد علي استطاع تحقيق مطامعه الشخصية في الوصول إلى الحكم وجعل حكم مصر وراثياً لأسرته من بعده، لكنه في نفس الوقت مهد الطريق أمام التدخل الأجنبي في الدولة العثمانية، ولو أنّه وقف بجانب السلطان العثماني لامكن من إبعاد التدخل الأوربي الذي انتهى بالاحتلال البريطاني لمصر عام 1882[263].

ومما رافق أيضاً تجربة محمد علي الفكرية في مصر، التخلف الاجتماعي والثقافي وعدم نضوج التجربة الحديثة في المجتمع المصري، لكن استبداد محمد علي وجهله جعله أكثر حكام عصره استنارة ورقي، فقد تمكن من زحزحة الركود المصري وبناء اقتصاد حديث أثر فيما بعد في بلورة مفاهيم جديدة في المجتمع المصري في أثناء القرن التاسع عشر[264].

كان طموح محمد علي غير محدود، وأنه لم يستطيع تحجيم طموحاته في اطار خطة محددة ترتبط بموارده وامكانياته، وأنه حاول بلا جدوى بث الفرقة بين دول أوروبا، وأنه فشل في الاستفادة من المنافسة الانجليزية الفرنسية في شمال افريقيا، كما فشل في الاستفادة من المنافسة الانجليزية الروسية في الأستانة[265].

ومما سبق ذكره تبين لنا أن أغلب المؤرخين لا يوجد خلاف بينهم على كون محمد علي كان حاكما استبداديا مع اختلاف في التبريرات المطروح لهذا الاستبداد، ومنها خصاله البربرية التي تشكل جزء من طابع شخصيته الشرقي، وانتماؤه العثماني، وما يتميز به حكمه للبلاد، والفوضى التي كانت سائدة في مصر، إلا أن محمد علي أقام في النهاية ناما سياسيا

---

[262]– صلاح احمد هريدي، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، 1805 –1882، ج2، ط1، القاهرة، 2000، ص426.

[263]– محمد عبد الفتاح أبو الفضل، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، ص 40.

[264]– سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث 1516 – 1916, ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991، ص 304.

[265]– المرجع نفسه، ص ص 304– 305.

يرتكز على العنف، وهو ما لاحظناه في موقفه من زعماء الحركة الشعبية، ومذبحة المماليك، والإكراه الإجباري لشرائح الشعب على خدمة أهدافه التوسعية، والسخرة الاجبارية، والقسوة في تحصيل الضرائب والتجنيد وتنفيذ المشروعات الزراعية وشق الترع، والرقابة الصارمة على كل نشاطات الدولة. كما اصطدمت طموحات محمد علي بسور منيع حين رفعت الدول أوروبا شعار الحفاظ على وحدة الامبراطورية العثمانية، حيث كانت تريد إجراء تقسيم بطيء ومتدرج، دون أن تشرك محمد علي فيه، أما هو فقد رفع بدوره شعار تحديث الامبراطورية العثمانية" وبدأ الشعاران متفقان ظاهرياً، لكنهما في الواقع متعارضان تماماً.

خلاصة الفصل: لحظنا من خلال هذا الفصل

1.أن مصر دخلت في مضمار التنافس الدولي بعد احتلال فرنسا لها عام 1798م بهدف تهديد وضرب مصالح البريطانية في مستعمراتها في الهند، على اعتبار أن مصر تقع في الطريق المؤدي للهند؛ ولعجز فرنسا عن مواجهة بريطانيا بشكل مباشر والدخول في حرب ضدها. على هذا الأساس عملت انجلترا على طرد فرنسا من مصر وحاولت احتلال مصر لتأمين مصالحها ومواصلاتها للهند، وبذلك اتضحت أهمية مصر السياسية بالإضافة لأهميتها الاقتصادية فتسارعت الدول الأجنبية لتوطيد أقدامها في مصر عن طريق محاولة القيام بمشاريع هامة بها مثل إنشاء السكك الحديدية، وحفر قناة سويس، لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر.

2.مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر وبوفاة محمد علي باشا دخلت مصر فعلياً في طور جديد من التنافس الفرنسي – البريطاني، فسياسة القوة العسكرية والاقتصادية التي تبناها محمد علي والتي أوقفت الأطماع الأوروبية المباشرة باحتلال مصر ما لبثت أن تداعت منذ أواخر عهده ليخرج خلفاؤه عن الثوابت التي ترسخت في عهده كتحاشي الاستدانة من الدول الأجنبية والاحتفاظ بقوة عسكرية قادرة على الدفاع عن البلاد وحماية مصالحها خارج الحدود بالإضافة لتنمية الاقتصاد المحلي، وزيادة دخل الدولة دون الوقوع تحت نفوذ الدول الكبرى، الأمر الذي أجّج التنافس بين المصالح الفرنسية والبريطانية في مصر، حتى شغلت قضية وراثة الحكم في القاهرة الدّبلوماسيين البريطانيين لتفوق النفوذ الفرنسي بين أفراد أسرة محمد علي عبر المعلمين والمربين الفرنسيين، فاستغلت بريطانيا انشغال فرنسا بتبعات ثورة عام 1848م لدعم ترشيح عباس باشا الأكبر عمراً بين ذكور أسرة محمد علي والأكثر بعداً عن تأثير الثّقافة الفرنسية، والذي شكل تمهيداً لوقوع البلاد فريسة للأطماع الأوروبية مجدداً و انتهت بالاحتلال البريطاني.

3.أصيب المجتمع المصري في عهد محمد علي بآفات اجتماعية خطيرة نتيجة ممارسات الأجانب في مصر ومن ضمن هذه الآفات الاجتماعية انتشار البغاء الدعارة وتجارة الرقيق

وتجارة المخدرات، حيث عمل في هذا النشاط مئات الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم وانشار ايضا السرقات.

4.ألحق التّوافق السياسي بين فرنسا وبريطانيا في بعض القضايا أشد الضرر بمصالح محمد علي كما حدث في معركة نفارين البحرية والموقف من ضمه ولايات بلاد الشام إلى دولته وقضية استقلاله عن الدولة العثمانية.

5.دخلت مصر عند بداية النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر وبوفاة محمد علي فعلياً في طور جديد من التنافس الفرنسي – البريطاني، فسياسة القوة العسكرية والاقتصادية التي تبناها محمد علي والتي أوقفت الأطماع الأوروبية المباشرة باحتلال مصر ما لبثت أن تداعت منذ أواخر عهده، ليخرج خلفاؤه عن الثوابت التي ترسخت في عهده كتحاشي الاستدانة من الدول الأجنبية والاحتفاظ بقوة عسكرية قادرة على الدفاع عن البلاد وحماية مصالحها خارج الحدود بالإضافة لتنمية الاقتصاد المحلي وزيادة دخل الدولة دون الوقوع تحت نفوذ الدول الكبرى، الأمر الذي أجّج التنافس بين المصالح الفرنسية والبريطانية في مصر، حتى شغلت قضية وراثة الحكم في القاهرة الدبلوماسيين البريطانيين لتفوق النفوذ الفرنسي بين أفراد أسرة محمد علي عبر المعلمين والمربين الفرنسيين، فاستغلت بريطانيا انشغال فرنسا بتبعات ثورة عام 1848م لدعم ترشيح عباس باشا الأكبر عمراً بين ذكور أسرة محمد علي والأكثر بعداً عن تأثير الثّقافة الفرنسية، و الّذي شكل تمهيداً لوقوع البلاد فريسة للأطماع الأوروبية مجدداً و انتهت بالاحتلال البريطاني عام 1882م.

الخاتمة

ومن خلال دراستنا لموضع طموحات محمد علي الوحدوية وانعكاساتها على العلاقات الدولية 1805- 1840 توصلنا إلى النّتائج التّالية:

1- لا تعد دراستنا لفترة حكم محمد علي باشا وتجربته نوعا من المحاكمة لها ولا لصحابها بهدف إصدار حكم نهائي عليه، فهو بدون شك واحد من أبرز الذين أسهموا في تشكيل تاريخ مصر الحديث، ولكن تناول عصره بالمناقشة بعد محاولة البحث عن جذور الخلفيات لقضايا مازالت تشغل الباحثين في وقتنا الراهن، لذلك فتاريخ مصر الحاضر وعلى امتداد قرنيين منذ تولي محمد علي حكم مصر هو مجرد خلفية تدعم عملية التّحليل والاستنتاج الّتي تأخذ في الحسبان مجمل التّطور الإنساني عبر التّاريخ، والتّفاعلات السّياسية، والثّقافية، والاقتصادية على الأصعدة المحلية، والإقليمية، والدّولية الّتي حدثت منذ تلك الحقبة وحتى الأن.

2- كانت مصر الّتي تقع فى قلب العالم القديم في مفرق الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا مما جعلها أمام اختيارين لا ثالث لهما :إما أن تحقق درجة من القوة تمكنها من أن تصبح دولة إقليمية، أو أن تقع ضحية للقوى الكبرى صاحبة المصالح فى الهيمنة على ذلك الإقليم البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية، وقد صاغ هذان الخياران تاريخ مصر منذ أقدم العصور فعندما يشتد ساعدها وتقوى تصبح الدّولة المركزية الإقليمية، فإذا أصابها الوهن كانت ضحية لغيرها من القوى الإقليمية أو الخارجية.

3- وقد انحصر دور مصر كقوة إقليمية مع الغزو العثماني عام 1517م، فأصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية بعد أن كانت قاعدة لإمبراطورية كبرى فى العصرين الأيوبي والمملوكي، وقد نتج عن انحسار دور مصر الإقليمي فى العصر العثماني إلى تأثرها بظروف الدّولة العثمانية، ولكنها حاولت غير مرة أن تسترد دورها التّاريخي، ولكن الظرف لم يكن مواتيا فى أغلب الأحوال، وخاصة مع قيام الحركة الاستعمارية الأوروبية، الّتي عرفتها مصر مع قدوم الحملة الفرنسية1801 – 1798، والّتي كان لها دور فعال في اليقظة الّتي جعلت المصريين يدركون خطورة اِستمرار الأوضاع التي كانت سائدة فى مصر قبل الحملة، والسّعي لإبراز الكيان المصري، وهى ظروف ساعدت محمد على فى الوصول إلى السّلطة

عام 1805م، وتبنى مشروع النّهضة ولكنها عجزت عن أن تؤتى أكلها بسبب الوضع الجيو-بوليتيكى الذى جعل مصر مطمعاً للقوى الاستعمارية الكبرى.

4- إن الأوضاع في مصر على مدار حقب تاريخية عام 1798م وحتى عام 1805م، كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بما يدور في الشؤون السياسية الأوروبية، تؤثر عليه وتتأثر به وتتفاعل مع جميع التطورات فيه، الأمر الذي جعل موضوعة المسألة المصرية تأخذ بعدا دوليا لاسيما عندما بدأت مصر تؤدي دوراً مهماُ في التأثير على الأمن الاوروبي.

5- كان محمد على أكثر من عاصروا تجربة الزّحف الغربي ممثلاً فى الحملة الفرنسية فهماً لدلالة ذلك الحدث التّاريخي بالنسبة للدّولة العثمانية، فأدرك أن ضعف هذه الدّولة الإسلامية مرده إلى تخلفها الحضاري عن الغرب، وأن ما حدث فى مصر لابد أن يتكرر فى مواقع أخرى من بلاد الدّولة العثمانية، وأنه لا منجاة للدّولة من المصير الذى يهددها إلا إذا تزودت بعوامل القوة والمنعة الّتي جعلها تصمد فى وجه الغرب، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بسد فجوة التّخلف الحضاري الذى تعانى منه البلاد، غير أن محمد على باشا كان جندياً ألبانياً ساعدته ظروف مصر على أن يلى أمرها، ولا يتيح له مركزه أن يصلح من شأن الدولة كلها، ففكر فى أن يحقق ما يهدف إليه فى مصر، فيقيم فيها دولة نموذجية حديثة تحقق له ولأسرته من بعده الظروف الموضوعية الّتي تتيح له ولهم فرصة إقامة دولة مركزية إقليمية قوية؛ أي أنه كان صاحب مشروع سياسي نهضوي يهدف إلى تحويل مصر إلى قوة عسكرية وسياسية حديثة تحمى المنطقة كلها من عدوان الغرب لا عن طريق المواجهة، ولكن عن طريق التّزود بأسباب القوة التي تحقق نوعاً من توازن القوى مع الغرب تجعل الأخير يتعامل معها معاملة الند للند.

6-بكل تأكيد يتميز محمد علي بالذكاء والطّموح وهو شخصية قليلًا ما تتكرر بدايتها البسيطة ليصل إلى ما وصل إليه من حكم بلاد من أهم بلدان العالم وقته، لكنه كان قاسيًا لا يرى إلا نفسه وعائلته ومشروعه الأُسَري، وقد عرف المصريون ذلك وقرروا بما أنه لا فرار من جحيم الباشا وأن الحياة لا تحتمل تحت وطأة الضرائب والاحتكارات والسجن والتجنيد...، وبما أنّهم حتى لو استطاعوا تحمل هذه الويلات فلا سبب يجعلهم يسعون لرؤية أطفالهم وقد استعبدهم نفس المصير.

7- قبيل وصول محمد علي باشا إلى السلطة، لم تكن مصر في وضع جيد، بل كان مثالًا للفشل الاجتماعي السّياسي الاقتصادي، فلم يعتمد محمد علي على طاقات وإمكانات المجتمع المصري والعربي فحسب، بل قدّم تجربة تنتمي إلى الفضاء العربي الإسلامي، بما يشبه التّجارب السّياسية للمماليك والعثمانيين، ولكن في شكل تنظيم جديد ودولة حداثية منفتحة على أوروبا والعصر، لنتذكّر أن محمد علي باشا من أسرة ألبانية، وأنه وُلد في مقدونيا، وأنه لم يتكلم العربية أو يجعلها اللغة الرسمية في بلاطه، وإنما استعاض عنها بالتركية، كما هي حال الدولة العثمانية، ولكنّه بالمقابل كان أوّل من وضع مشروع دولة مصرية في العصر الحديث؛ حيث أدخل العربَ المصريين إلى الجيش، بعدما كانوا محرومين من ذلك طيلة قرون سابقة، وجنّد الفلاحين بما أسهم في تجاوز الفوارق الطبقية في المجتمع المصري، وتطوير فكرة الانتماء إلى الدولة، فنهيك في مشروع جمع الشعوب العربية في إمبراطورية عربية يكون هو على رأسيها وأسرته.

8- إنّ طموح محمد علي باشا وعصيانه وتمرده قد ساهمت بإضعاف الخلافة الإسلامية العثمانية، وتقوية أعدائها من روس وأوروبيين وصهاينة، وهكذا يعتبر من أخطر أعدائها، وأعداء العرب والمسلمين، حيث أن عصيانه قد مهَّد الطريق أمام الاحتلال الإنكليزي لمصر سنة 1882 م، والاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1246 هـ /1830 م، ولتونس سنة 1299 هـ /1881 م، والاحتلال الروسي للأفلاق والبغدان" رومانيا "سنة 1265 هـ /1848م، ونشر التغريب في مصر، وأضعف التعريب .

9- لقد أُطلق على محمد علي باشا لقب "مؤسس مصر الحديثة" بسب التّغيرات التي أحدثها في مختلف المجالات، والّتي مهدت الطريق من أوجه عديدة لنشوء أمة ودولة حديثة، ولكن ومهما كان هذا اللقب مناسباً له بدرجة أو بأخرة إلا أنه أخفى في طياته بعض نواحي نظامه المستمد من الماضي من حيث السّير على نهج سياسات سابقيه، ويميل الأخرون المحدثون إلى التّغاضي عن حقيقة أن محمد علي في بعض طرقه الأساسية كان يتبع الأهداف التّقليدية لحكام مصر، ويستخدم بعض استراتيجياتهم التّقليدية التي كان لها فيما يتعلق بالاقتصاديات والسّياسات الجديدة للقرن التّاسع عشر فحدث تحول في الاقتصاد والمجتمع.

10- جاءت التّسوية الأوروبية بين محمد علي والسّلطان العثماني لتضعف القوى وتبقي على الضّعيف فيسهل على الأطماع الاوروبية أن تتوغل في اسطنبول والقاهرة معاً، ويبدو أن محمد علي ارتكب أخطاء على الصّعيد السّياسة الإقليمية، فقد أدى القضاء على الدّولة الوهابية إلى تكريس الاستعمار البريطاني في منطقة الخليج العربي، وأدت سياسة مواجهة السّلطنة العثمانية وتقطيع أوصالها إلى إضعافها وجعلها أكثر عرضة للنفوذ الأجنبي، وعلى صعيد السياسة الخارجية لم يتمكن محمد علي من فهم سياسة النظام الدّولي ومقوماته فلم يرمم لنفسه حدوداً معينة تسمح بها إمكانياته وقواعد اللعبة الدّولية، كما لم يستطيع فهم طبيعة النّظام الفرنسي وتوازنات الجبهة الداخلية فيه والحدود التي يتجاوزها طوعاً أو كرهاً فعندما اقتربت المواجهة مع الغرب بعد معركة النّصيبين عام 1840م لم يدرك مغزى الجوهري المفاجئ في السّياسة الرّوسية وفي السّاسة النّمساوية المحافظة، فلم يدرك حين هدد باكتساح الأناضول واحتلال الاستانة بينما الثّورة مشتعلة في سوريا وجبل لبنان وفلسطين والأساطيل الأجنبية في سواحل دولته.

10- أثرت سياسة محمد علي باشا في الخليج العربي، وسياسته الخارجية عموماً على علاقته بالدّولة العثمانية والسّلاطين المتعاقبين ، ومع الدّول الكبرى في مرحلة التّوسع الخارجي خاصة بعد أن تفاقمت واستعرت نار الخلافات بين محمد علي باشا وبين هذه الدّول، وقد أسفرت الأحداث إلى تحديد المسار التّاريخي لمنطقة المشرق العربي والسّودان خلال تلك الفترة بعد أن أصبحت ساحة للتّنافس الدولي.

11- أدركت الدّول الأوروبية استحالة تحقيق أطماعها الاستعمارية في ظروف تماسك السّلطنة العثمانية كزعيمة للعالم الاسلامي الممتد من آسيا وأوروبا وافريقيا، ولذا وضعت في رأس أهدافها تفكيك هذه السلطنة وانتزاع ولاياتها وهذا الهدف كان جامحاً لكل القوى الأوروبية بالرغم من صراعها فيما بينها وقد سقطت السّلطنة في فلك تلك السّاسة الاستعمارية اذا كانت تستخير من بطش دولة أوروبية بالارتماء في أحضان دولة أوروبية أخرى طيلة القرن التّاسع عشر.

12- إن التّجربة الّتي قادها محمد علي في مصر لم تكن منغلقة على نفسها بدليل أنّها كانت تجريبة تغريب فقد كانت تلك التّجربة محاولة لإعادة إنتاج نهضة الغرب، أي تحقيق

نهضة في المنطقة العربية على الطريقة الغربية، وعلى أساس أن الحضارة الغرب هي النّموذج والمثال والقدوة، والأدهى والأمر من ذلك أن التّجربة قد فعلت بالغرباء لا بالمسلمين أو المصرين أبناء البلاد.

13- طرح محمد علي للمسألة الشّرقية من خلال رغبته في تسوية موضوع وراثة تركة الدّولة العثمانية لصالحه هو، واصطدامه بمصالح أوروبا، ما دفعها للتدخل، وإثارة أزمات متعددة هددت السلام الأوروبي بدءاً من "حرب المورة" حتى سنة 1841، حيث كانت للقوى الأوروبية العظمى مطامعها الخاصة؛ لكن الصراع حول هذه المطامع والمصالح المعقدة كان يدور تحت غطاء من التّعبيرات، أو المصطلحات الدبلوماسية شديدة العمومية والغموض، منها مصطلح "الدّفاع عن وحدة أراضي الدّولة العثمانية."

14- مثلت الحملة الفرنسية 1798م، وتولي محمد علي 1805م نقطة فارقة في تاريخ مصر السّياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ورغم أن الحملة الفرنسية لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات ، إلا أنها غيرت مسار مصر الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فإن كانت قد فشلت عسكرياً إلا أنها استطاعت أن تحقق أهدافاً سياسية واجتماعية واقتصادية غيرت بها مسار التّاريخ المصري ، فقد تحولت مصر من ولاية عثمانية تابعة إلي الدّولة السنية إلي دولة شبه مستقلة تخطو خطوات نحو الاستقلال التّام تحاول الانفصال عن تبعيتها لدولة الخلافة العثمانية، وتغير توجهاتها سياسياً واجتماعياً وثقافياً، فهي تمثل بداية التّوجه الليبرالي العلماني ، وإن كان ذلك تم بخطي بطيئة وهو ما اقتضته ظروف المجتمع المصري من ناحية ومن ناحية أخري أن التّحولات السّياسية و الاقتصادية والاجتماعية تحتاج لمثل هذا الوقت الكافي فإن هذه التّحولات تمر بأطوار مختلفة حتي تتقبلها المجتمعات وتأتلفها وتتعايش معها، أو بمعنى أخر إن نقطة البدء لتاريخ مصر الحديثة تتوزع بين حملة بونابرت الفرنسية وبين نظام محمد علي الذي قام، حيث كانت أول جسر بين مصر والفكر الأوروبي الحديث، فقد ظلت مصر بمعزل عن مجريات الأمور الخارجية " سياسية– اجتماعية – اقتصادية" ، فكانت الحملة الفرنسية تمثل أول احتكاك مع الحضارة الأوروبية الحديثة بما تحمله من فكر اقتصادي وسياسي واجتماعي بعيد كل البعد عن المجتمع المصري، فكانت الحملة الفرنسية صداماً بين حضارتين لكل منهما مقوماتها.

15- أثرت سياسة محمد علي باشا في الخليج العربي، وسياسته الخارجية عموماً على علاقته بالدّولة العثمانية والسلاطين المتعاقبين، ومع الدول الكبرى في مرحلة التوسع الخارجي خاصة بعد أن تفاقمت واستعرت نار الخلافات بين محمد علي باشا وبين هذه الدول، وقد أسفرت الأحداث إلى تحديد المسار التاريخي لمنطقة الخليج العربي خلال تلك الفترة ، بعد أن أصبحت ساحة للتّنافس الدّولي.

16- طرح محمد علي للمسألة الشّرقية من خلال رغبته في تسوية موضوع وراثة تركة الدّولة العثمانية لصالحه هو، واصطدامه بمصالح أوروبا ما دفعها للتّدخل، وإثارة أزمات متعددة هددت السّلام الأوروبي بدءاً من "حرب المورة" حتى سنة 1841م، حيث كانت للقوى الأوروبية العظمى مطامعها الخاصة؛ لكن الصّراع حول هذه المطامع والمصالح المعقدة كان يدور تحت غطاء من التّعبيرات، أو المصطلحات الدبلوماسية شديدة العمومية والغموض، منها مصطلح "الدّفاع عن وحدة أراضي الدّولة العثمانية"، حيث أدركت الدول الأوروبية استحالة تحقيق أطماعها الاستعمارية في ظروف تماسك السّلطنة العثمانية كزعيمة للعالم الاسلامي الممتد من آسيا وأوروبا وافريقيا، ولذا وضعت في رأس أهدافها تفكيك هذه السلطنة وانتزاع ولاياتها وهذا الهدف كان جامحاً لكل القوى الأوروبية بالرغم من صراعها فيما بينها وقد سقطت السّلطنة في فلك تلك السّاسة الاستعمارية اذا كانت تستخير من بطش دولة أوروبية بالارتماء في أحضان دولة أوروبية أخرى طيلة القرن التّاسع عشر.

17- ففي حين ساندت القوى الأوربية حركات الاستقلال في البلقان ودعمتها بأدوات مختلفة فإن العكس هو الذى حدث مع أنماط من الحركات في المنطقة العربية وعلى رأسها حركة محمد على، ولذا فإذا كان المعتاد وصف كل هذه المرحلة بأزماتها المختلفة الأوربية والعربية بالمسألة الشرقية فإنه يجدر التنويه للفارق بين أهداف ودوافع وأدوات القوى الأوربية في التّعامل مع أزمات" الشّرق الأوربي البلقان، وبين نظائرها في أزمات" الولايات العربية " ناهيك عن حركة الوصل بين الجانبين أي سياسات الاصلاح العثمانية.

18- جاءت التّسوية الأوروبية بين محمد علي والسّلطان العثماني لتضعف القوى وتبقي على الضعيف فيسهل على الأطماع الأوروبية أن تتوغل في اسطنبول والقاهرة معاً، ويبدو أن محمد علي ارتكب أخطاء على الصعيد السّياسة الإقليمية، فقد أدى القضاء على الدّولة

الوهابية إلى تكريس الاستعمار البريطاني في منطقة الخليج العربي، وأدت سياسة مواجهة السّلطنة العثمانية وتقطيع أوصالها إلى إضعافها وجعلها أكثر عرضة للنفوذ الأجنبي، وعلى صعيد السّياسة الخارجية لم يتمكن محمد علي من فهم ديناميكية النظام الدّولي ومقوماته فلم يرمم لنفسه حدوداً معينة تسمح بها إمكانياته وقواعد اللعبة الدّولية، كما لم يستطيع فهم طبيعة النظام الفرنسي وتوازنات الجبهة الداخلية فيه والحدود التي يتجاوزها طوعاً أو كرهاً فعندما اقتربت المواجهة مع الغرب بعد معركة النّصيبين عام 1840م لم يدرك مغزى الجوهري المفاجئ في السّياسة الروسية وفي السّاسة النّمساوية المحافظة، فلم يدرك حين هدد باكتساح الأناضول واحتلال الاستانة بينما الثّورة مشتعلة في سوريا وجبل لبنان وفلسطين والأساطيل الأجنبية في سواحل دولته.

19- بذل محمد علي باشا جهودا هائلة حتي يحقق حلمه في تحويل مصر الي قطعه من اوروبا، لكنه لم يبذل جهدا مماثلا في ان يكون "مصريا" بشكل حقيقي! فلم يحاول هو وعائلته الاندماج في الشعب المصري، ونادرا ما تعلم أحد من افراد هذه الأسرة اللغة العربية وآدابها، ولم يتولد لديهم شعور الاعتزاز بالانتساب الي تاريخ مصر وتراثها الحضاري العظيم، وكان لهذا تأثيره السّلبي في وجدان المصريين الذين شعروا بغربه حكامهم عنهم، مما أدي الي بقاء شرائح واسعه من أفراد المجتمع المصري دون تغيير يذكر بعد اصلاحات محمد علي باشا وخلفائه.

20- لقد فشل محمد علي في مشروعه، لكن تجربته التّاريخية عبّرت عن طموحات قوة فتية محلية أرادت أن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة مستفيدة من نهضتها الاقتصادية والعسكرية، لكن هذا اصطدم بمصالح القوى الأوروبية الرئيسية التي رأت في توحيد، المنطقة تحت قيادة قوة محلية يتعارض مع نفوذها ومصالحها، منفردة أو مجتمعة .ففي عام 1907خلص تقرير بريطاني، عقب اجتماعات لفعاليات سياسية ودبلوماسية وسياسية واقتصادية وجيو- بوليتيكية أوروبية إلى أن أكبر خطر يتهدد مصالح أوروبا في منطقة الشّرق العربي يكمن في توحد أبنائها واستغلالهم ثرواتها الوطنية بأنفسهم، فضلاً عن سيطرتهم على منطقة ذات أهمية استراتيجية.

21- لو أن جيوش محمد علي مع الجيوش العثمانية تحالفت وتعاونت مع الحركة الوهابية لقمع أطماع الدول الأوربية بشكل عام وبريطانيا بشكل خاص لتغير الوضع الأن، لكن الواقع أن بريطانيا استثمرت واستغلت تلك الظروف لخدمة مصالحها الذّاتية في المنطقة الى يومنا هذا.

22- لكن يبقى النّظام محمد علي يعتبر من أبرز تجارب التحديث في الوطن العربي في القرن التّاسع عشر حيث اكتملت له على مدى من السّنيين صياغة نظامه السّياسي على صورة يمكن أن تسمى العثمانية الحديثة.

الملاحق

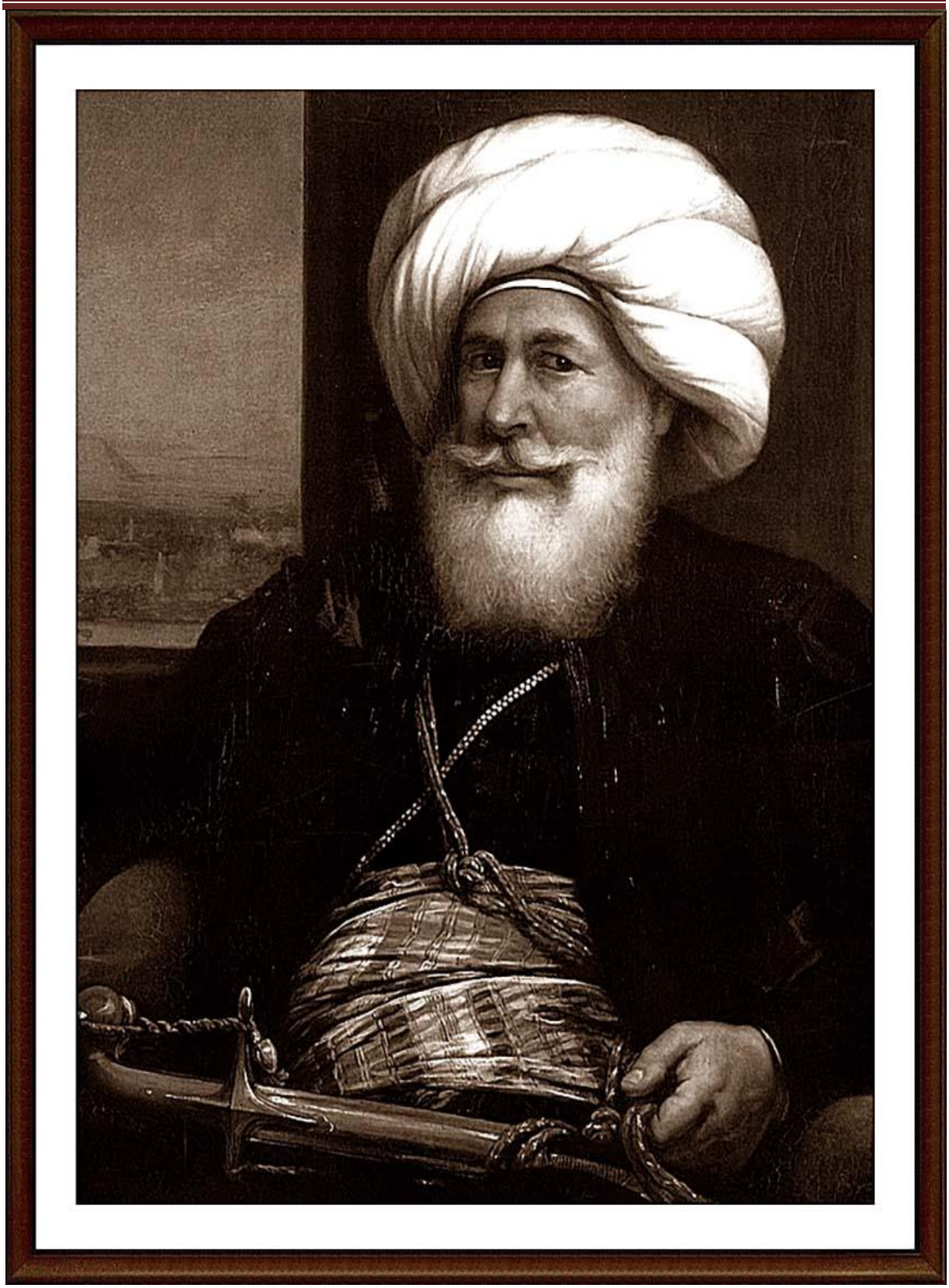

محمد علي باشا[1]

[1] - الياس أيوب، المرجع السابق، ص 17.

إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا[2]

[2] -نفس المرجع، ص 28

فرمانات صادرة عن محمد علي باشا[1]

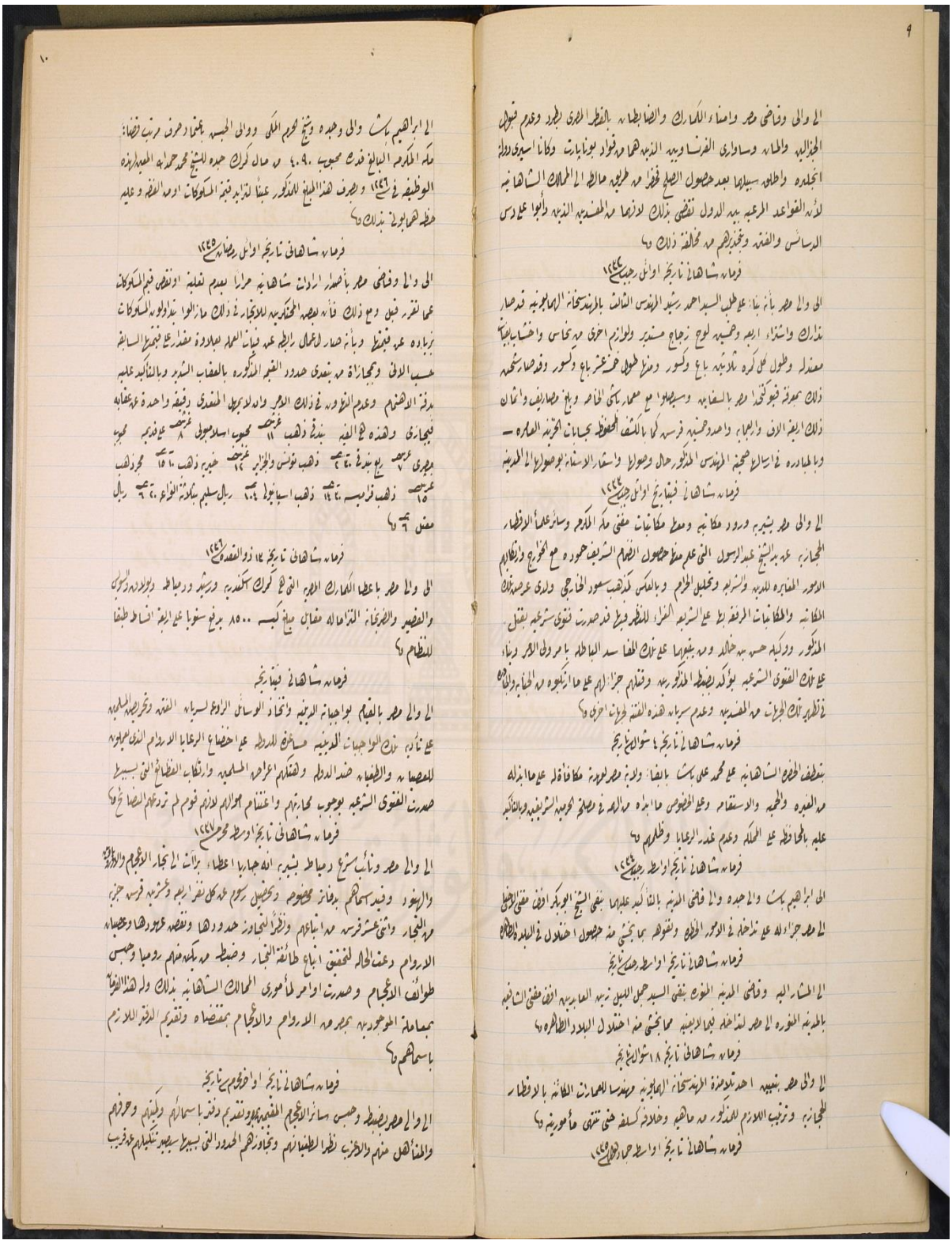

[1]- الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده إبراهيم باشا، مخطوط محفو بدار الكتب والوثائق القومية، تاريخ تيمور، رقم 2484، ميكروفليم 28609، 28610، ص ص 9- 10.

فرمانات وأوامر محمد علي باشا[1]

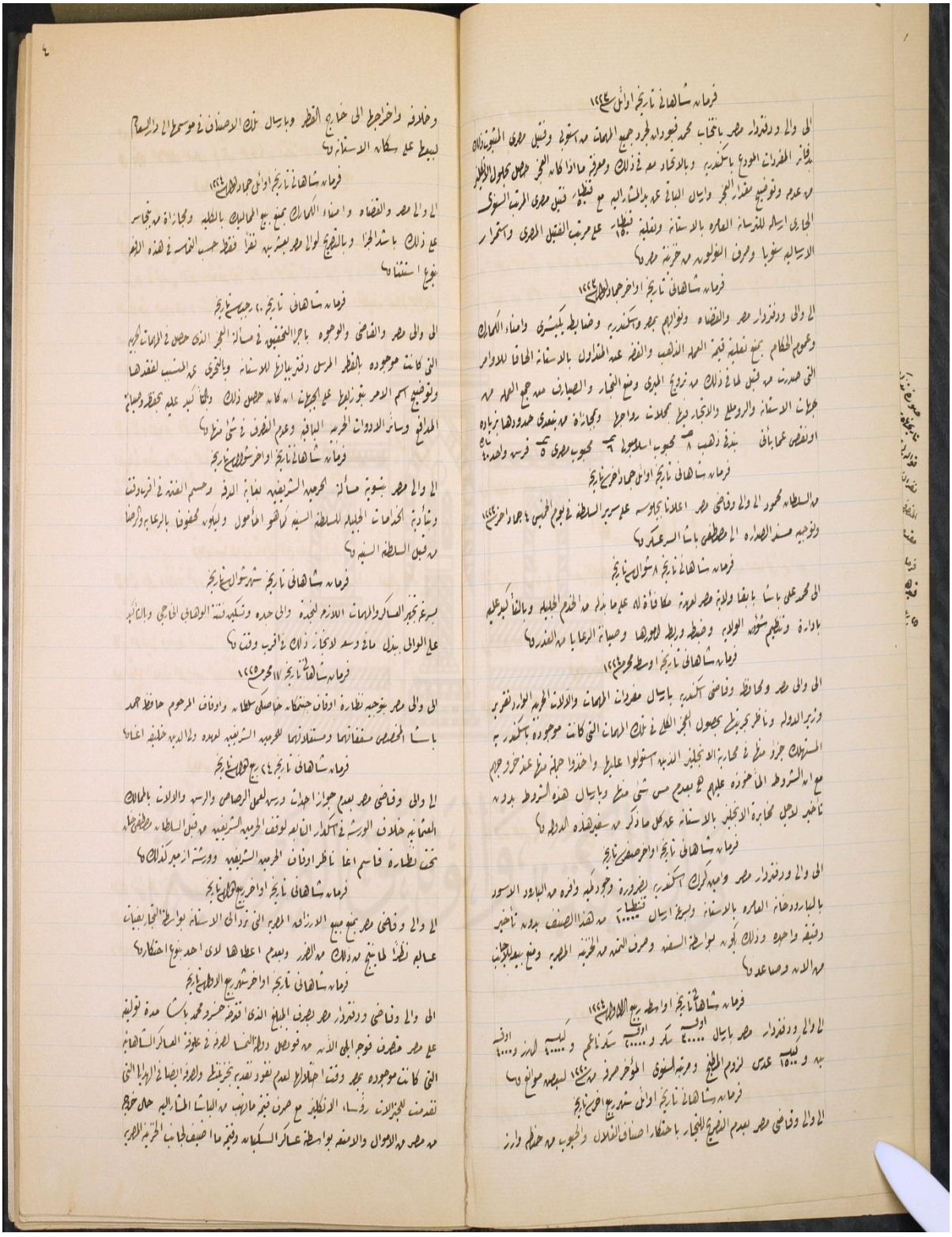

[1]- الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر محمد علي باشا ثم من ولده إبراهيم باشا، مخطوط محفو بدار الكتب والوثائق القومية، تاريخ تيمور، رقم 2484، ميكروفليم 28609، 28610، ص ص 2- 3.

ملحق:

طلب الدّولة العثمانية من محمد علي الاهتمام بمسألة الحجاز، وبدء الباشا الاهتمام بإعداد المهمات اللزمة للحملة[1]

[1]- دار الوثائق القومية، محافظ بحر برا، محفظة 1، وثيقة 22، 23 محرم 1225هـ/ 28 فيفري 1810م

ملحق

تقييم وتحقيق حول أعمال محمد علي باشا الغير المرضية[1]

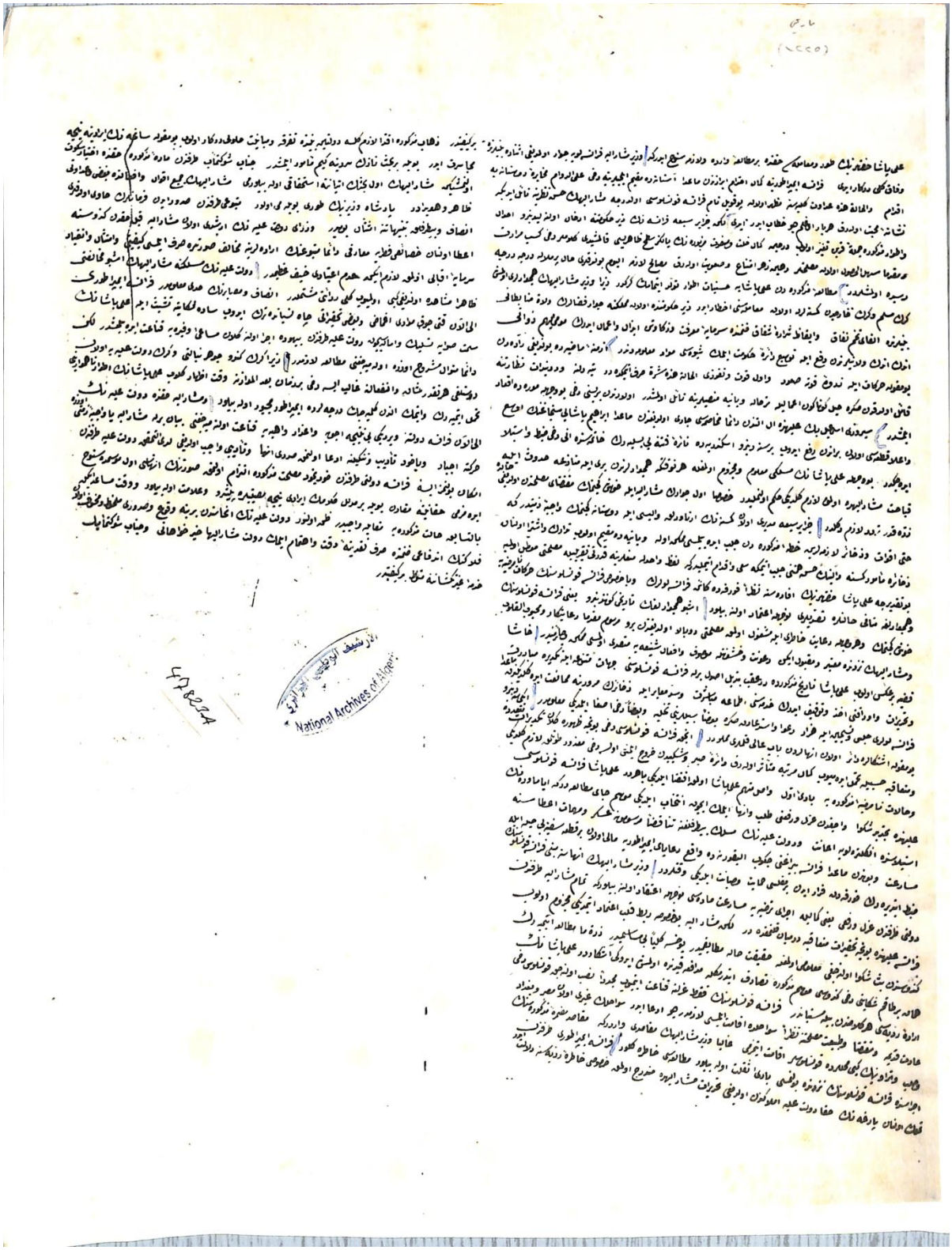

National Archives of Algeria
الأرشيف الوطني الجزائري

[1]- م. م. و. ج. د. ت، دفتر خط همايون، رقم A-47823/ 1225هـ

ملحق

رسالة من السلطان محمود الثاني إلى حسين باشا حول مسألة اليونان[1]

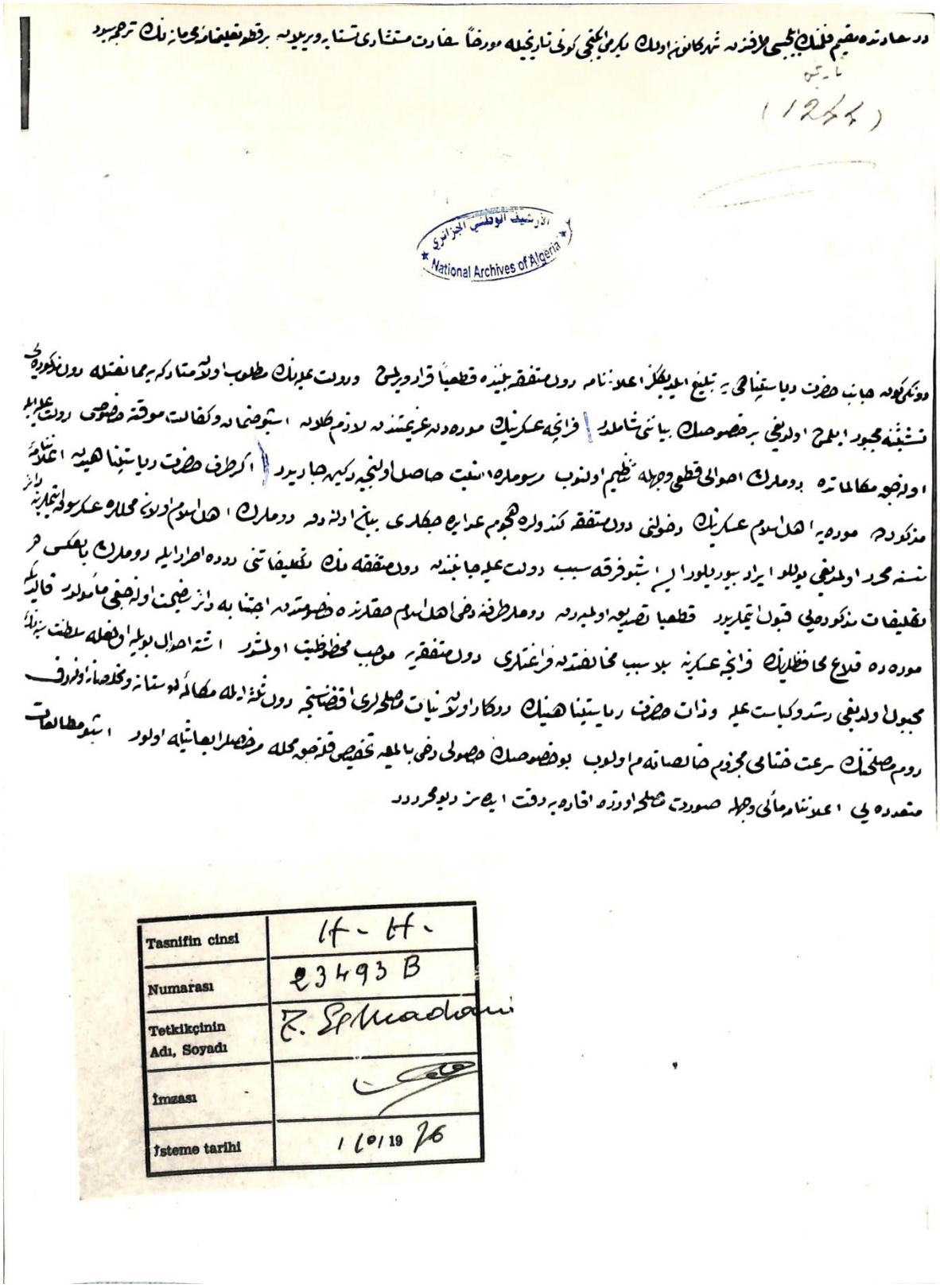

در سعادتده مقیم فلمنك ایلچیسی طرفندن شهر کانون اولك یکرمی ایکنجی کونی تاریخیله مورخاً سفارت مستشاری تستایه ویریلان برقطعه تعلیمنامه محرمانه نك ترجمه سیدر

تاریخ

(1244)

الأرشيف الوطني الجزائري
National Archives of Algeria

دونکی کونده جانب حضرت ریاستپناهی یه تبلیغ ایلدیکلری اعلاننامه دون متفقه بیننده قطعیاً قرار ویرلمش و دولت علیه نك مطلوب اولان متارکه یه ممانعتله دون مذکوره یی
تشبثنه مجبور ایلمش اولدیغی بر خصوصك بیاننی شاملدر | فرانچه عسکرینك موره دن عزیمتندن لازم کلان اشبو ضمانه و کفالت موقته خصوصی دولت علیه ایله
اولنجه مکالماتده دوملرك احوالی قطعی وجهله تنظیم اولنوب رسوملره انبت حاصل اولنجه دکین جاریدر | اکر طرف حضرت ریاستپناهیدن اعلاننامه
مذکورده موره یه اهل اسلام عسکرینك دخولنی دون متفقه کندولره هجوم عدایره جکلری بیان اولنه دن دوملرك اهل اسلام اولان محللره عسکر سوق ایتملرینه دائر
نسنه محرر اولمدیغی یوللو ایراد بیوریلور ایسه اشبو فرقه سبب دولت علیه جانبندن دون متفقه نك تکلیفاتنی رده اصرار ایله دوملرك بالعکس هر
تکلیفات مذکوره یی قبول ایتملریدر قطعیا تصدیق اولمیه دن دوملر طرفنه دخی اهل اسلام حقلرنده خصوصندن اجتنابه دائر نصیحت اولنه جغی مأمولدر قالدیکه
موره ده قلاع محافظلرینك فرانچه عسکرینه بلا سبب مخالفتدن فراغتلری دون متفقه یه موجب محظوظیت اولمشدر اشته احوال بویله اولنجه سلطنت سنیه نك
مجبول اولدیغی رشد و کیاست علیه و ذات حضرت ریاستپناهینك درکار اولان نیات مصلحه لری اقتضاسنجه دون ثلثه ایله مکالمه لوستانه و مخلصانه اولنه رق
روم مصلحتنك سرعت ختامی مجزوم خالصانه م اولوب بو خصوصك حصولی دخی بالمعیه تخصیص قلنجه محله مرخصلر ابعاثیله اولور اشبو مطالعات
متعدده یی اعلاننامه مآلی وجهله صورت مصلحه اوزره افاده یه دقت ایده سز دیو محرردر

Tasnifin cinsi	H. H.
Numarası	23493 B
Tetkikçinin Adı, Soyadı	Z. Elmadani
İmzası	
İsteme tarihi	10/19 76

[1]- م. م. و. ج. د. ت، دفتر خط همایون، ع: 12، رقم 23493 / 1244هـ

ملحق

الصلح في المورة على يد القائد انكليزي في الاسكندرية بينه وبين محمد علي باشا[1]

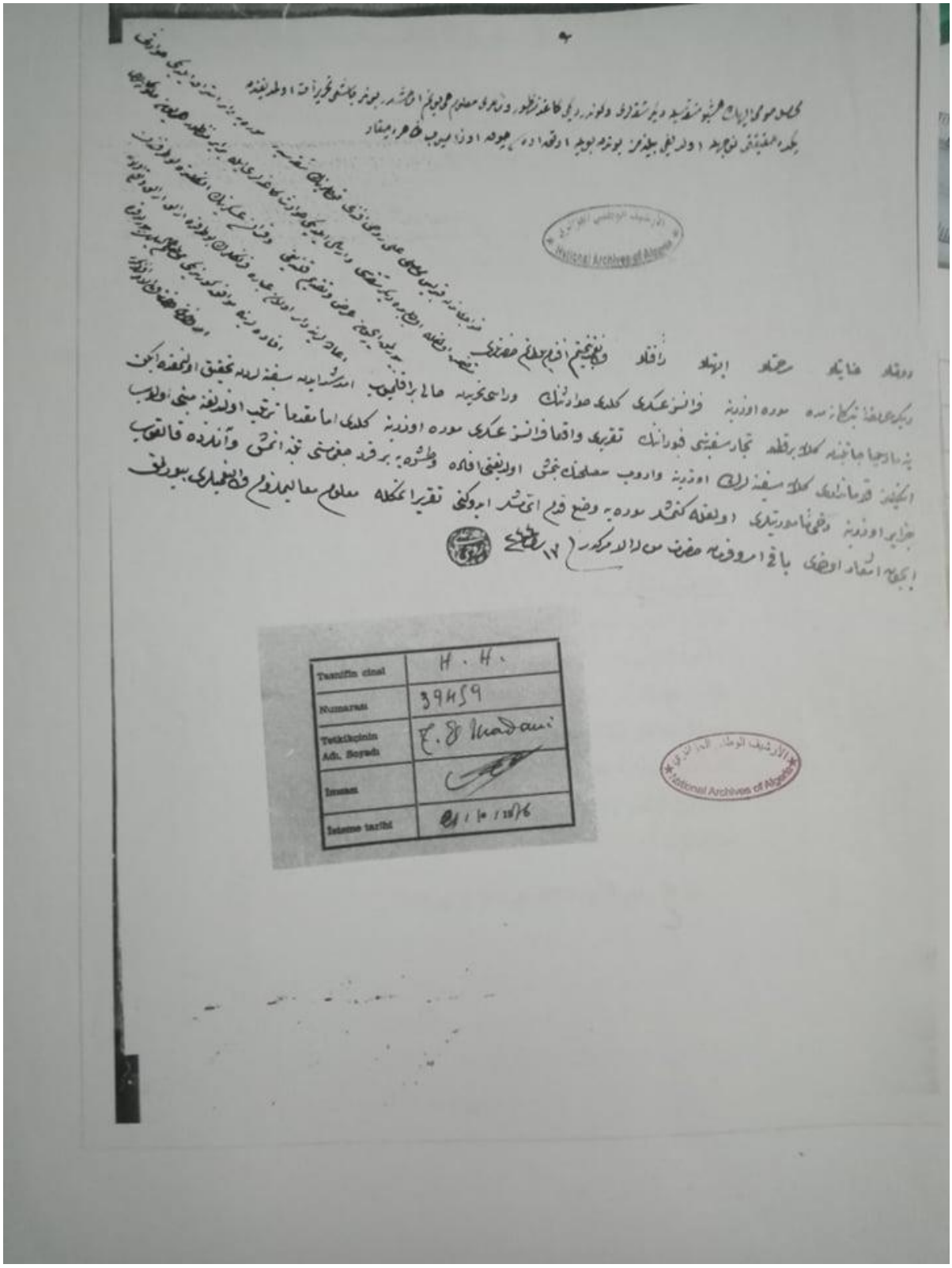

Tasnifin cinsi	H. H.
Numarası	39459
Tetkikinin Adı, Soyadı	E. El Madani
İmzası	
İadesine tarihi	01/10/1976

[1]- م. م. و. ج. د. ت، ع: 12، رقم 39459 / 1244هـ

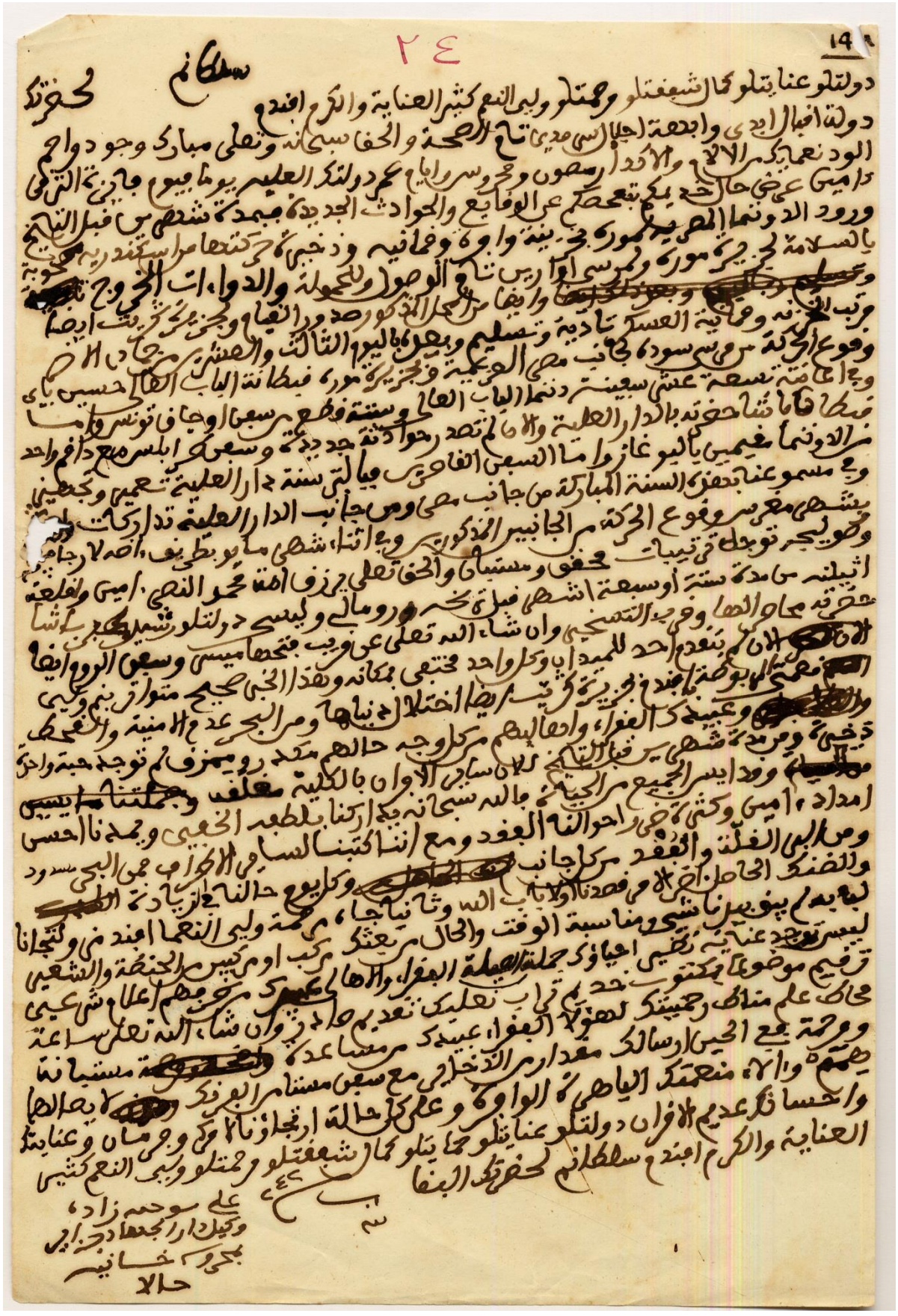

خط همايون: رسالة من علي خوجة زادة وكيل الجزائر في خانية بجزيرة كريت إلى حسين باشا بتاريخ 30 جانفي 1827م، تضمنت وقائع حرب اليونان، وطلب الباب العالي العون من مصر والجزائر.

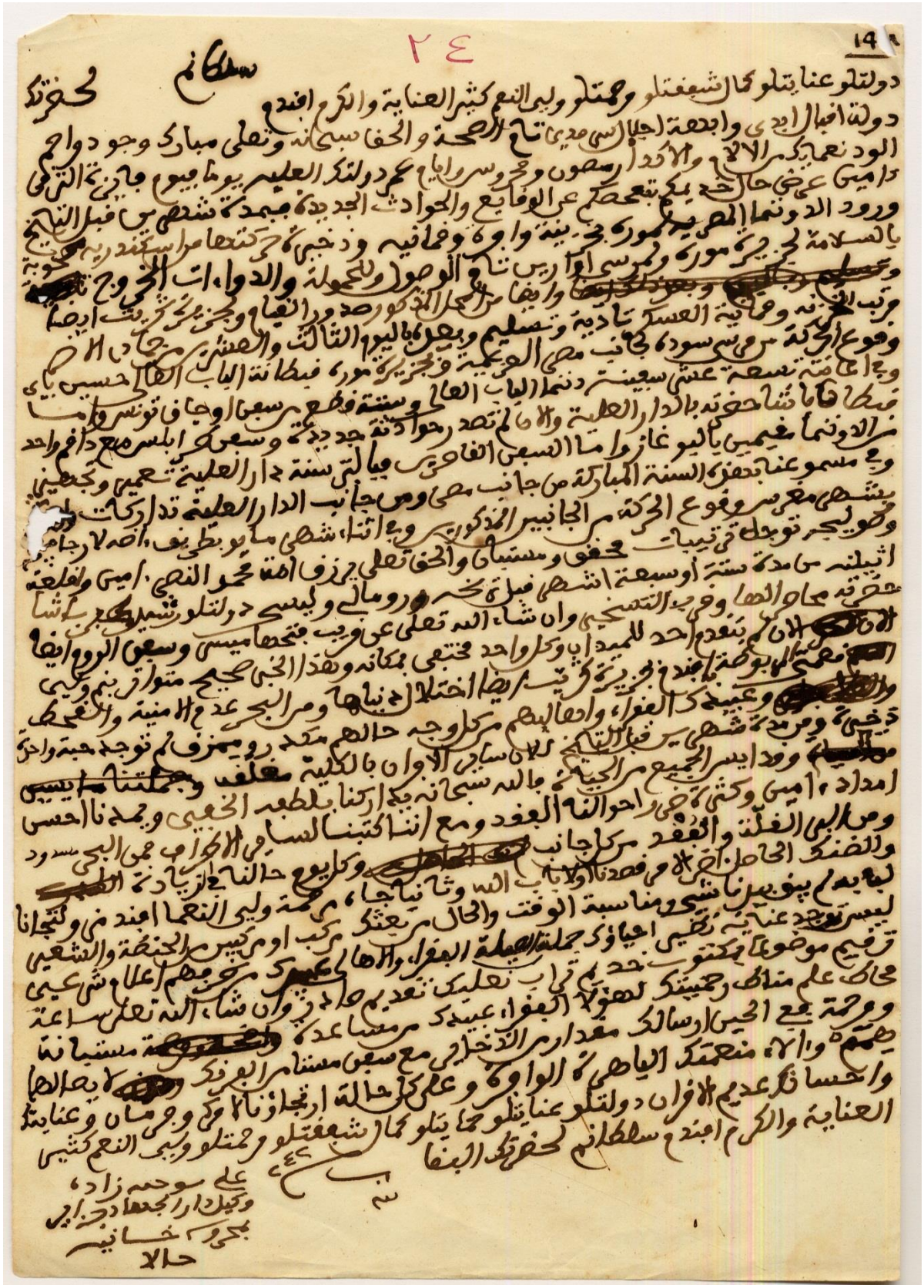

خط همايون: رسالة من علي خوجة زادة وكيل الجزائر في خانية بجزيرة كريت إلى حسين باشا بتاريخ 30 جانفي 1827م، تضمنت وقائع حرب اليونان، وطلب الباب العالي العون من مصر والجزائر.

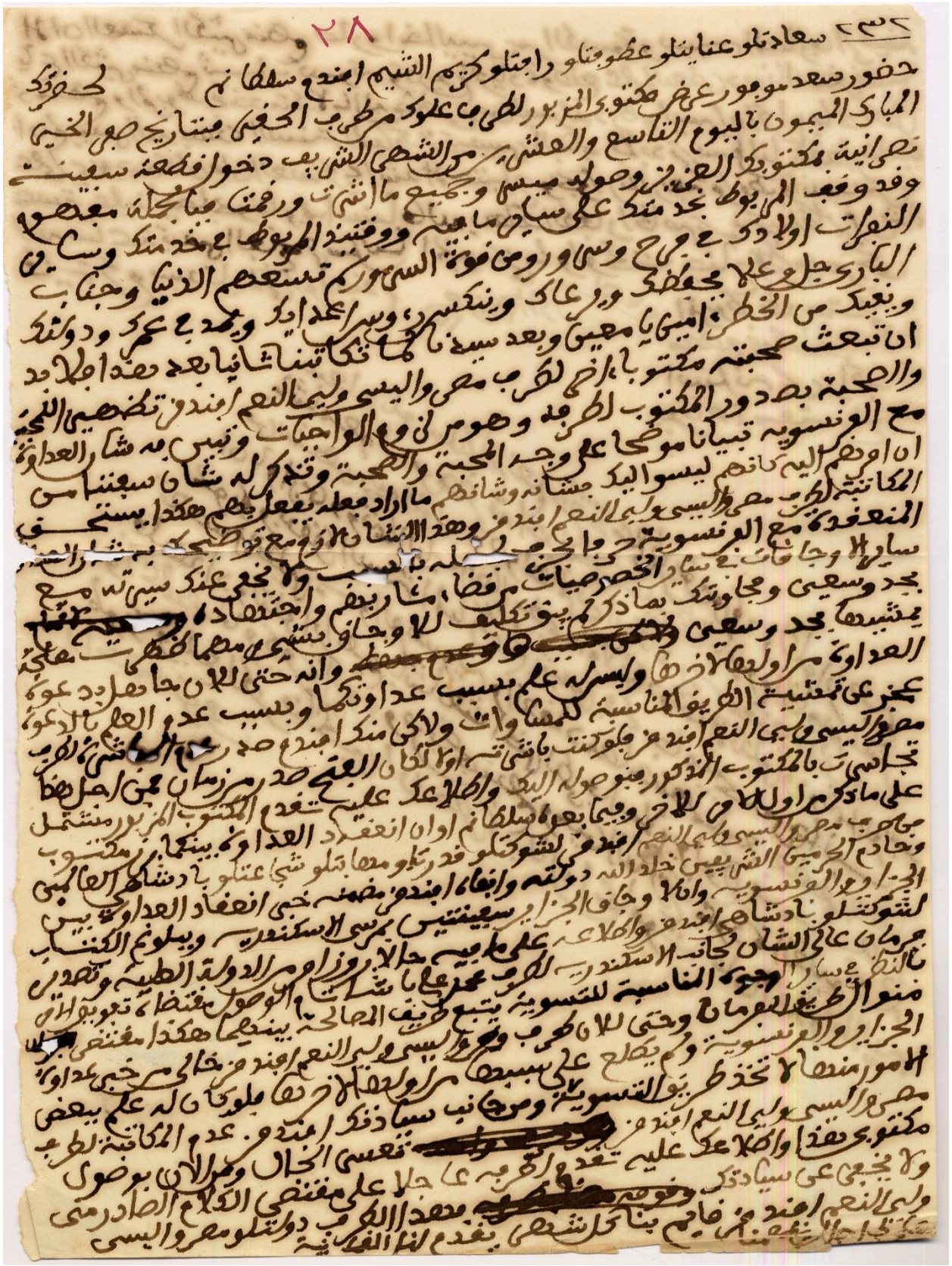

خط همايون: رسالة من مصطفى رايس قائد سفينة مفتاح الجهاد الموجودة في الإسكندرية إلى حسين باشا بتاريخ 07 أكتوبر 1827م، تضمنت وقائع حرب اليونان، و موقف محمد علي من المسألة النزاع بين الجزائر وفرنسا.

الببليوغرافيا

أولاً: <u>الوثائق الأرشفية الغير منشورة</u>:

<u>1- مركز محفوظات الأرشيف الوطني الجزائري:</u>

1- دفتر: خط همايون، رسالة من السلطان محمود الثاني إلى الحاج علي باشا،ع:6، رقم الوثيقة: 47623، تاريخ: 1225هـ.

2- المكتبة الوطنية الجزائرية

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 04.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 08.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة24.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 28.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 29.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 30.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 37.

مج 3204، الملف الأول، الوثيقة 39.

مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 49.

مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 115.

مج 3190، الملف الأول، الوثيقة 350.

<u>3- دار الوثائق القومية المصرية:</u>

أ/ محافظ الأبحاث

1- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 29، محفظة 34، وثيقة 6، تاريخ شعبان 1242هـ/ 8 مارس 1827م، ص 200.

2- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 41، محفظة 44، وثيقة 387، تاريخ 7 رجب 1247هـ/ 12 ديسمبر 1831م، ص 119.

3- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر ، دفتر 64، محفظة 71، وثيقة 6، دون تاريخ، ص 91.

4- دفاتر ديوان معية سنية تركي، دفتر 70، محفظة 79، وثيقة 595، تاريخ 4 ربيع الآخر 1252هـ/ 19 جويلية 1836م، ص 133.

5- دفاتر ديوان معية سنية تركي، دفتر 63، محفظة 57، وثيقة 335، تاريخ 11 رجب 1249/ 24 نوفمبر 1833م، ص 100.
6- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 38، محفظة 41، وثيقة 10، تاريخ: 25 ذي الحجة 1245هـ/ 17 ديسمبر 1245، ص 41.
7- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 58، محفظة 63، وثيقة 91، تاريخ: 11 جمادى الثانية 1249هـ/ 26 أكتوبر 1233، ص 91.

8- دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر 01، رقم 05، 8 شوال 1222 هـ/ 9 سبتمبر 1807م،" رسالة من موسى باشا قائم مقام السلطان يحث محمد علي على الحرب ضد الوهابيين "

9- دفاتر ديوان معية سنية تركي ، ملف 4، رقم 147، تاريخ 11 رجب 1222هـ/ 1807م.

10- دفاتر ديوان معية سنية تركي، ملخصات دفاتر، دفتر 01، محفظة 4، وثيقة 10، تاريخ: أواخر ذي الحجة 1222هـ/ فيفري 1808، ص 6.

11- دفتر ديوان معية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 28، تاريخ: 11 ربيع الأول 1225هـ/ 16 أفريل 1810م.

12- دفتر المعية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 57، تاريخ: 11 محرم 1226هـ/ 28 جانفي 1811م

13- دفتر ديوان معية سني تركي، محفظة 95، وثيقة 70، 9 شعبان 1223هـ

14- دفتر ديوان المعية تركي، دفتر 1، محفظة 1، وثيقة 70، تاريخ: 09 شعبان 1226- هـ/ 29 أوت 1811م

15- دفتر شورى المعاونة، دفتر 286، محفظة 22، تاريخ: 19 رجب 1258هـ/ 26 أوت 1842، ص 403.

16- دفاتر ديوان معية سنية التركية، ملخصات دفاتر، دفتر 17، محفظة 21، وثيقة 125، تاريخ 15 جمادى الأولى 1239هـ/ 16 فيفري 1824، ص 54.
17- دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر 1، وثيقة 48، 5 شوال 1225هـ/ 3 نوفمبر 1810م.

ب/ محافظ الشام

17- محفظة 84، وثيقة 108، من شريف باشا إلى الباشمعون 13 رجب 1256هـ/ 10 سبتمبر 1840م
18- محفظة 84، وثيقة بدون رقم، 29 جادى الآخرة 1256هـ/ 28 أوت 1840م.
19- محفظة 84، وثيقة 76 حمراء، 20 رجب 1256هـ/ 17 سبتمبر 1840م.
20- محفظة 84، وثيقة 200 حمراء، 14 شعبان 1256هـ/ 11 أكتوبر 1840م.
21- محفظة 84، وثيقة 113، 15 رجب 1256هـ / 12 سبتمبر 1840م

ت/ محافظ الحجاز

22- محفظة 95، صورة الورقة محررة إلى طرف سلحدار حضرة السلطان، تاريخ 15 شوال 1288هـ/ 10 أكتوبر 1813م.

ث/ محافظ ديوان بحر برا

23- محفظة 1، وثيقة 22، 23 محرم 1225هـ/ 28 فيفري 1810م.
24- محفظة 2، وثيقة 2، 3محرم 1226هـ/ 28جانفي 1811م.
25- محفظة 4، وثيقة 137، تاريخ 15 صفر 1230هـ/ 26 جانفي 1815م.

5/ دار الوثائق القومية المصرية: الأوامر والمكاتبات الصادرة عن عزيز مصر

27-تاريخ تيمور، عريضة منه للأعتاب الشاهانية، الأمر رقم 41، تاريخ 19 رجب 1226هـ، ص 9.
28- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى نجيب أفندي قبو كتخدان بالأستانة، الأمر رقم 39، تاريخ غرة ربيع الأول 1226هـ /-أفريل 1810م، ص 10
29- تاريخ تيمور، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 61، تاريخ 5 شوال 1228هـ/30 سبتمبر 1813م، ص 24.

30- تاريخ تيمور، مكاتبة منه للصدارة العظمى، الأمر رقم 60، تاريخ 27 شعبان 1228هـ/24 أوت 1813م، ص 23.

31- تاريخ تيمور، مكاتبة منه للصدارة العظمى، الأمر رقم 42، بتاريخ 9 شعبان 1226هـ، ص 8.

32- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى خضرة أغا دار السعادة، الأمر 46، تاريخ 27 ذي الحجة 1226هـ، ص 9.

33- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى خضرة أغا دار السعادة، الأمر 47، تاريخ غرة محرم 1227هـ، ص 10.

34- تاريخ تيمور، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 45، تاريخ 5 ذو القعدة 1226هـ، ص 9.

35- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى قبو كتخدان بالأستانة ، الأمر رقم 43، تاريخ غرة رمضان 1226هـ، ص 9.

36- تاريخ تيمور، مكاتبة منه للصدر الأعظم، الأمر رقم 36، تاريخ 9 صفر 1226هـ، ص 6.

37- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى نجيب أفندي، الأمر رقم 30، تاريخ: 27 شوال 1225هـ، ص 5.

38- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى الصدر الأعظم، الأمر رقم 21، جمادى آخر 1225، ص 4.

39- تاريخ تيمور، مكاتبة منه إلى الصدر الأعظم، الأمر رقم 20، ربيع آخر 1225، ص 4.

40- تاريخ تيمور، تعهد واقرار محمد علي على الاتفاق المنعقد بين الوكلاء والوزراء والأعيان، الأمر رقم 11، دون تاريخ، ص 3.

ثانيا: <u>المصادر باللغة العربية</u>:

1. احسان أوغلي أكمل الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر: صالح شعباوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية، استانبول، 1999.
2. فاكتيجال غوستاف، رحلة إلى وداي دار فور، تع: سيد ديدان المحامي، ط2، دار المنكوب، الخرطوم 2001م.
3. محمد فريد بك، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تح: أحمد زكريا الشلق، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1980.
4. العفاني سيد بن حسين، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ج 1، ط1، المدار ماجد للنشر والتوزيع , جده , 2004
5. نعمة الله نوفل، كشف اللثام عن محيّا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام ، حق: ميشال أبي فاضل وجان نخول، جروس برس، طرابلس – لبنان، د.ط ، .1990
6. مؤلف مجهول، حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، حق: أسد رستم، ط2، منشو رات المكتبة البوليسية، بيروت، 1986.
7. الذكير بن عبد العزيز، العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز، مخطوط في دائرة المخطوطات بغداد، رقم 40354، الورقة 74، نقلا عن المحمدي صبري فالح، البحرين في مخططات محمد علي باشا 1819– 1840، مجلة العرب والمستقبل، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي بجامعة المستنصرية، العراق، ع 11، افريل، 2005.
8. الحنبلي عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد، حق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، (د.ط)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1983، ج 1.
9. شفيق عثمان بهيج البعلبكي منير جحا، المصور في تاريخ لبنان، (د.ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 1950، ج7.
10. مؤلف مجهول، كتاب لمع الشهاب في سيرة بن عبد الوهاب، حق: أحمد مصطفى أبو حاكمة، دار الثقافة، بيروت، 1967

11. زيني دحلان أحمد، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، المطبعة الخيرية بمصر، مصر،1900.
12. الجبرتي عبد الرحمان، عجائب الأثار في التراجم والأخبار، الغزوة الفرنسية، ج4، حق: عبد العزيز جمال الدين، مكتب مدبولي، مصر.
13. الترك نقولا، ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية وبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، حق وتق: ياسين سويد، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1990.
14. عَودَة المزاري الآغَابن، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1990، ج2.
15. ماري مواريه جوزيف، مذكرات ضابط في حملة الفرنسية على مصر، د ط، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.
16. أبي العباس بن يوسف شهاب الدين، الدُّرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: علي محمد معوض، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت. ن)، ج1.
17. ماري السير شارلس، صفحة من تاريخ محمد علي، تع: سليم حسن وطه السباعي، دار المعارف ، مصر،1916م.
18. ادريس أفندي، ادريس أفندي في مصر(مذكرات الفنان المستشرق بريس دافين في مصر 1808م- 1879م)، تر: أنور لوقا، د(ط، د، س).
19. الرجبي جليل بن أحمد، تاريخ الوزير محمد علي باشا، تح: دانيال كريسيليوس وآخرون، ط 1، دار الأفاق العربية، القاهرة.
20. الزهار أحمد الشريف، مذكرات أحمد شريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ويليه محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر.
21. شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824، تر: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
22. سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تر: (عبد القادر زبادية)، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 217.

23. اليعقوبي آغا أبكاريوس الأرمني اسكندر، تاريخ محمد علي باشا المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية، تح: أحمد المنعم، مج و تق: رؤوف عباس، مركز الدراسات الأرمنية، القاهرة، 2009.

24. كلوت بيك، لمحة عامة إلى مصر، تر: محمد مسعود، (د ط)، القاهرة، ج3.

25. الجبرتى عبد الرحمن، وقائع الدهور فى بدائع الزهور ،ج1، مطبعة بولاق ، القاهرة.

26. كار شيوه، إحياء مصر بلادي (محمد علي باشا)، تح: سحر حسن أحمد، تق: حمادة محمود إسماعيل، (د. ط)، دار الكتب القومية والوثائق القومية، القاهرة، 2015.

27. ابن المقفع ساويرس، تاريخ مصر من بداية القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، حق: عبد العزيز جمال الدين، ط1، مكتبة 2006، ج2.

28. مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حماة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق وتقديم: (أحمد غسان سبانو)، د.ط، د.م، د.ت.

29. الحلبي ابن اجا محمد محمود، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، حق: محمد أحمد وهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 282.

30. حسين بن أبي بكر ابن غنام، تاريخ نجد المسمى " روضة الأفكار والإفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام "، حق: ناصر الدين الأسد، مطبعة المدني، القاهرة، 1961.

31. بن أحمد الريكي حسن جمال، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005.

2/ المراجع

أ/ باللغة العربية

1.شامي باشا أمين، تقويم النيل (عصر محمد علي)، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2003.

2.إلهامي محمد، العلاقات المصرية التركية الجذور والثمار، (د.ط)، المعهد المصري للدراسات، مصر، 2017.

3.المرسي الخاطر فؤاد، حول الفكرة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1985، ص 31.

4. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت،1973. .

5.شفيق غربال محمد، الموسوعة العربية الميسرة ، مج2 ، ص 1666 ؛ فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط1 ، بيروت ، 1978.

6.أحمد المصطفى عبد الإله، السياسة الأوروبية وتطورها في بلاد الشام 1840- 1878، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

7.محمد أحمد أحمد المصطفى، الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام (1831- 1841)، ط1، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2007

8.كربتيس بيير، إبراهيم باشا، تر:محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1938

9.ضاهر مسعود، النهضة العربية و النهضة اليابانية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1999.

10. علي الجميل سيار كوكب، تكوين العرب الحديث 1516 – 1916 , ط1، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، 1991.

11. أحمد هريدي صلاح، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، 1805 -1882، ج2، ط1، القاهرة، 2000.

12. أبو الفضل محمد عبد الفتاح، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999.

13. مباشر عبده، البحرية المصرية من محمد علي إلى السّادات (1800م- 1973م)، ط4، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2019.

14. حامد رؤوف عباس، تاريخ مصر .. إلى أين؟ أزمة المنهج ورؤى نقدية "، (د. ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009.

15. عبد الفتاح عصام، أيام محمد على: حكاية رجل سبق عصره !! : عبقرية الإرادة وصناعة التاريخ"، الشريف ماس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.

16. عبده إبراهيم، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية، القاهرة، 1950.

17. عبده إبراهيم، تاريخ الوقائع المصرية 1828 – 1942، ط2، القاهرة، 1942.

18. ابن غانم ، تاريخ ابن غنام المسمى(روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد الغزوات ذوي الإسلام)، اعتنى به سليمان بن صالح الخراشي، ط1، دار الثالوثية، الرياض، 2010، ج1

19. حسين بن أبي بك ابن غنام، تاريخ نجد، حق: ناصر الدين الأسد، قابله على الأصل عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الشيخ، دار الشروق، بيروت1915 .

20. فايز صالح أبو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة،ط[1]، دار البشير ،عمان، 1989، ص 99.

21. آق كوندز أحمد وأوزتورك سعيد، الدولة العثمانية المجهولة 303 سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية، إسطنبول، 2008.

22. المسلماني أحمد، مصرى الكبرى، (د.ط)، دار ليلى، القاهرة، 2012.

23. الشِّلِق أحمد زكرياء، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916، ط$_1$، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 155.

24. زكرياء أحمد وآخرون، محمد علي وعصره،(د.ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005.

25. شلبي أحمد، اوضح الاشارات فيمن تولى مصر، تر وحق: عبد الرحيم عبد الرحمان، ط$_1$، مكتبة الخانجي طباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1978.

26. عبد الرحيم مصطفى أحمد، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة، (د.ط)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1973.

27. العطّار أحمد عبد الغفور، الماسونية، ط3، طبعة خاصة لرابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1978.

28. فتحي سليمان أحمد، بلد فرعون، (د. ط)، الرواق لنشر والتوزيع، (د. ن)، (د. ت).

29. فريد علي مصطفى أحمد، مصر والشام في عصر محمد علي ...، ط$_1$، الهيئة المصرية العامة للكتاب، قاهرة، 2018.

30. جوان إدوار، مصر في القرن التاسع عشر، تر: محمد مسعود، ط1، القاهرة، 1921.
31. دريو إدوار، محمد علي باشا ونابليون، (1806م – 1814م) مراسلات قناصل فرنسا في مصر، تر: ناصر أحمد إبراهيم، مر: رءوف عباس أحمد، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008.
32. وليم لين إدوارد، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، تر: عدلي طاهر نور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998، ج1.
33. ـــــــــــ، القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر ... مصر بعيون أوروبية، تر: أحمد سالم سالم، (د. ط)، دار المصرية اللبنانية، (د. ت. ن).
34. رستم أسد، المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، ج2، American Press ، بيروت، 1941.
35. محمد ذهني إلهام، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.
36. محمد ذهني إلهام، الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر (1756-1986) دراسة وثائقية، ط1، دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، 1988.
37. محمد علي ذهني إلهام، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر،(د.ط)، دار الهيئة المصرية الهامة للكتاب، القاهرة، 1992.
38. عجيل أمل، قصة وتاريخ الحضارات العربية، موسوعة تاريخية جغرافية حضارية أدبية ليبيا والسودان والمغرب، بيروت، 1999 م، ج19
39. الأمير شكيب أرسلان، مدونة أحداث العالم العربي 1800- 1950، ط2، دار التقومية، 2011.
40. إميل خوري، عادل إسماعيل:السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789م-1958م، دار النشر للسياسة و التاريخ، بيروت، 1960، ج2.
41. أمين مصطفى عفيفي عبد الله ، تاريخ مصر الإقتصادي والمالي في العصر الحديث ، ط 3 ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، 1954 ، ص 50 .
42. أنجلو ساماركو، دولة مصر في الوثائق الإيطالية غير المنشورة، تر: محمد صابر عرب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006.

43. ـــــــــــ، الشرق الحديث – الوثائق الديبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشيفات الدولة الإيطالية، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا " ،(مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين) ،تر عماد البغدادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 م، ص 116.

44. أندرياس كاميرون، مصر في القرن التاسع عشر أو محمد علي ومن خلفوه إلى الاحتلال البريطاني في عام 1881،تر: صبري محمد حسن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2019.

45. أنسار بيار، سان سيمون، أعلام الفكر العالمي، ترجمة إبراهيم العريس،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، 1979م.

46. أنطونيو بليتيري، الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا مذكرة تمهيدية، مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين، تر: عماد البغدادي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

47. أنور الجندي – أعلام وأصحاب أقلام – دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت).

48. أنيس منصور، الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم، المكتب المصري الحديث، د.ت.

49. ايريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، ط1 ، مكتبة المحبة (مكتبة مسيحية)، القاهرة، 1969، ج1 2 3 4 5

50. بازيلي قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، تر: طارق معصراني، (د.ط)، دار التقدم، موسكو، 1989.

51. بدر الدين عباس الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط2، ذات السلاسل، الكويت، 1984، ص 132.

52. برونو أليبتي ، لمحات عن أصول القضية المصرية ، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا"، (مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين)، تر: عماد البغدادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005 .

53. بريدجز السير بارفرد جونز، موجز التاريخ الوهابي، تر: عويضة بن متيريك الجيني،ط1، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005 .

54. بكر إسماعيل الكوسوفي ، سياسة محمد علي باشا الدولية"رؤية نقدية في سياسة الخارجية "، مؤسسة آلبا برس ، القاهرة ، 2006 م.

55. بنور فريد، المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782 – 1830، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.

56. بيير كربتيس، إبراهيم باشا، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937.

57. تايلور، المؤسسة العربية – الصراع على السيادة في أوربا 1848– 1918 ، تر: كاظم هاشم نعمه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976.

58. ج. جرانت و هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنيين التاسع عشر والعشرين 1789– 1950، تر بهاء فهمي، ط6، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ـ مصر.

59. جاد طه ، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر،(د.ط)، دار الفكر العربي، (د.ت).

60. جرانت هارود تمبرلي، أوروبا في القرنيين التاسع والعشرين، تر: بهاء فهمي و أحمد عزت عبد الكريم، ط6، دار الكتاب العربي، (د. ت).

61. جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن، ج2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999.

62. جلال يحي، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، د. ت، المكتب الجامعي الحديث، الأزارطة – الاسكندرية،ج2، ص 301– 302.

63. جلال يحي، مصر الحديثة، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1982.

64. جمال بدوي، محمد علي وأولاده، مكتبة السرة، مصر، 1999.

65. ـــــــــ، مصر من نافذة التاريخ، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1994.

66. جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619– 1830، دار هومة، الجزائر، 2010.

67. جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989.

68. جميل عبيد، قصة احتلال محمد علي لليونان 1823- 1827، (د.ط)، لهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990.

69. جورج أنطونيوس، يقظة العرب – تاريخ حركة العرب القومية تر: ناصر الدين الأسد و إحسان عباس، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

70. جوزيف حجّار، أوروبا وصير الشرق العربي(حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية)، تر: بطرس الحلّاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972.

71. جون مارلو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر، تر: عبد العظيم رمضان، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1976.

72. جيلبرت سينويه، الفرعون الأخير محمد علي 1770- 1849، تق: دبروشنوبلكور ، تر: عبد السلام المودني، ط1 منشورات الجمل، بغداد – بيروت، 2012.

73. حسن أحمد ابراهيم، محمد علي في السودان- دراسة لأهداف الفتح المصري التركي، (د. ط)، دار التأليف والترجمة والنشر، خرطوم، (د.ت.

74. حسن حنفي، نحن والتنوير ضمن كتاب قضايا عربية (الحرية والديمقراطية وعروبة مصر)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993.

75. حسين الشريف، المآسي التاريخية الكبرى، (د.ط)، دار الكتب المصرية، الجيزة – مصر، 2020.

76. حسين خلاف، التجدد الاقتصادي المصري الحديث، (د. ط)، دار الإحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962.

77. حسين كافي، محمد علي رؤية لحادثة القلعة، (د.ط)، دار الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992، ص 162.

78. حسين كفافي، محمد علي، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.

79. حضرة عرتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الأن، تقديم محمد زيننه محمّد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهر، مصر، 1995.

80. حقي العظم، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، ط1، مطبعة الترقي، مصر، 1902.

81. حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989.

82. ذوقان قرقوط ، تطور الفكرة العربية في مصر 1805- 1936، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت ، 1972.

83. رأفت الشيخ ، العرب في التاريخ المعاصر،ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 2008 .

84. رزق حسن نوري، قوانين ولوائح الأثار المصرية (من عصر محمد علي حتى ثورة يوليو 1952م)، تق: فاروق جميل جاوش، تص: أحمد الشوكي، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2018.

85. روبرت أو. كولينز في كتابه تاريخ السودان الحديث، تر: مصطفى مجدي الجمال، المشروع القومي للترجمة: 1598، دار العين للنشر، القاهرة، 2010.

86. روبير سوليه، مصر ولع فرنسي، تر: لطيف فرج، (د. ط)، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.

87. روبير ماتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة :بشير السباعي، الجزء الأول، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1989.

88. رؤوف عباس حامد، مصر في القرن التاسع عشر، (د.ت)، دار النهضة العربية، (د. ت).

89. رؤوف عباس و عاصم الدسوقي، كبار الملاك والفلاحين في مصر 1837- 1952، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998.

90. رينيه قطاوي بك وجورج قطاوي، محمد علي وأوربا، نقله عن اللغة الفرنسية الفريديلوز، دار المعارف، مصر، 1952.

91. ز. ل . ليفين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا و مصر، تر: بشير السباعي، ط1، بيروت، 1978.

92. سامي صالح الدوري ، موقف بريطانيا من سياسة محمد علي باشا في اليونان وبلاد الشام (1821م –1841م)، ط1، للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، 2013.

93. ـــــــــــ، عظماء صنعوا التاريخ، ط1، مطبعة جامعة تكريت، العراق – تكريت، 2017.

94. سان سيمون ، أفكار صغيرة لحياة كبيرة ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

95. ساواش بن يوسف كوجاباش، الإمام فخر الدين الزَّيلَعي وكتابه تبيين الحقائق، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.ن).

96. سليمان البستاني، الدولة العثمانية قبل الدستور، حق: خالد زياد، ط1، دار الطليعة، بيروت.

97. سمير عمر ابراهيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992.

98. سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط1، دار الشروق، الأردن، 1997.

99. سَيِّد محمد السَّيِّد، دراسات في التاريخ العثماني، ط1، دارة الصحوة للنشر، القاهرة ـ مصر، 1996.

100. سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1997، ص68.

101. سيد مصطفى سالم، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، مركز الدراسات اليمنية، القاهرة، 1974، ص9.

102. شارل موجل، ف ا رنسوا وباكتو، سيفرين، تاريخ العلاقات الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة شفيق محسن، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2010.

103. الشاطر بصيلي عبد الجليل، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1972م.

104. شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتبة المصرية لتوزيع المطبوعات، القاهرة مصر، 2000

105. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصر الحديث حتى أزمة 1990- 1991، (د.ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991

106. صوفيا لين بول، حريم محمد علي باشا، تر: عزةّ كرارة، ط1، مكتبة الاسكندرية، مصر، 1999.

107. ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، منشورات دار الحياة، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

108. طارق عبد الجليل، العسكر والدستور في تركيا من القبضة الحديدة إلى دستور بلا عسكر، دار نهضة مصر، قاهرة، 2012.

109. طارق عبد العاطي غنيم بيومي، سياسة مصر في البحر البيض المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر 1811- 1848، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د. ت).

110. طلال المهتار، آثار حملة بونابرت على مصر، دار اقرا، بيروت، 1962.

111. عبد الجواد صابر إسماعيل، دور الأزهر في مصر إبَّان الحكم العثماني، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996.

112. عبد الحميد البطريق، ابراهيم باشا في بلاد العرب (ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا 1848م- 1948م)، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948.

113. عبد الحميد البطريق، عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر (1805- 1883)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999.

114. عبد الحميد بطريق وآخرون، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا 1848- 1948، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.

115. عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.

116. عبد الرحمان الدويري، اليهودية والماسونية، ط1، دار السنة، القاهرة، 1994.

117. عبد الرحمان الرافعي، الزعمات الشعبية في السنوات الأولى من حكم محمد علي ."تاريخ الحركة القومية، وتطور نظام الحكم"، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ج3.

118. عبد الرحمان الرفاعي، عصر محمد علي، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1898.

119. عبد الرحمان عبد الغني، مدخل في تاريخ الديمقراطية في أوروبا، مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، 2010.

120. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ط5، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1870.

121. عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، 1999.

122. عبد العزيز محمد الشناوي، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب رقم 67، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

123. عبد العزيز محمد الشناوي، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب رقم 67، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

124. عبد العظيم محمد رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث من ظهور البرجوازية الأوروبية إلى الثورة الفرنسية،(د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ج1، .

125. ـــــــــــــــ، تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

126. ـــــــــــــــ، تاريخ الإسكندرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

127. عبد الفتاح أبو حسن علية و اسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ، الرياض ، 1993.

128. عبد الفتاح حسن أبو علية، مخطوط التركي حجاز سيا حتنامه سي، دار المريخ، الرياض، 1983.

129. عبد الفتاح عبد الصمد منصور، العلاقات المصرية السودانية في ظل الاتفاقية الثنائية 1899– 1924، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

130. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516– 1916، منشورات ألف باء– الأديب، ط1، دمشق، 1974.

131. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الإمام محمد بن سعود دولة الدعوة والدعاة، ط1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، 1997.

132. عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى مرحلة البعثة المصرية، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ص 76.

133. عبد الله صالح العثيمين، الدرعية نشأةً وتطوراً في عهد الدولة السعودية الأولى، (د.ط)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2014

134. عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد علي إلى السّادات (1800م– 1973م)، ط4، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2019.

135. عزت حسن أفندي الدراندلي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني" **ضيانامة**"، تر: سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999.

136. عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الأن، تق: محمد زينهم محمد عزب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

137. عصام عبد الفتاح، حكاية مؤسسة مصر الحديثة والتجربة ورجل سبق عصره أيام محمد علي عبقرية الإرادة وصناعة التاريخ، الريف ماس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013.

138. عفاف لطفي السيد مارسو، مصر في عهد محمد علي باشا، تر: عبد السميع عمر زين الدين، مر: السيد أمين شلبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 299.

139. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج 4، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، 1306هـ.

140. علي الجريتلي، السكان والموارد الاقتصادية في مصر، مطبعة مصر، القاهرة، 1962.

141. علي الجيرتي، " تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر" ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، 1952 .

142. علي بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر 1813- 1814، ط1، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة، 1977.[1]- رؤوف عباس، الحركة العمالية في مصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة، 2016 .

143. ـــــــــ، رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، سلسلة تاريخ مصر رقم 103، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

144. علي حيد سليمان، تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة، ط1، دار الواسط، بغداد - العراق، 1990، ص 224.

145. علي عفيفي علي غازي، الجزيرة العربية والعراق في استراتيجية محمد علي، دار الرافدين، 2016، ص 50.

146. عمر الاسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، مصر ، 1917.

147. عمر طوسون، الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي باشا، ط3، مطبعة المستقبل، الاسكندرية، 1935.

148. عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر مصر 1517- 1801، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980.

149. ـــــــــــــ، تاريخ المشرق العربي 1516- 1922، دار المعرفة الجامعية، الأزارطة – مصر، 2003.

150. ـــــــــــــ، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر1815- 1919، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 2000.

151. عودة محمد و الخطيب إبراهيم ياسين، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989.

152. غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1983.

153. فلييب رينييه، السان سيمونيون في مصر 1833- 1851، تر: أمل الصبان وأخرون، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.

154. قاسم جمال زكريا، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي، الأول (1507- 1830)، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ج4.

155. القومندان جورج دوان، مشروع محمد علي على الجزائر 1829-1830، تر: عثمان مصطفى وعبد الرءوف أحمد عمرو، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.

156. كارلو جيليو، القضية المصرية من عام 1798 إلى عام 1841، ، الإسهامات الإيطالية" في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا "،(مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين)، تر: عماد البغدادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 .

157. كارولين جونييه كورخان، العلاقات المصرية الفرنسية في عهد محمد علي 1805- 1849، ط1، مركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.

158. كارين آرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر: محمد الجورا، ط1، دار الكلمة، دمشق 2005.

159. كرابتيس بيير، إبراهيم باشا، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،، 1973.

160. كرم الصاوي باز، ممالك النوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها وأثره في انتشار الإسلام في سودان وادي النيل 1250 - 1517، المكتبة الأنجلو المصرية، مصر.

161. كمال السعيد حبيب، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية(622م- 1908م)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002،

162. كمال لحامد مغيث، مصر في العصر العثماني 1517- 1798 المجتمع والتعليم، ط1، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة.

163. كوثراني وجيه، بلاد الشام- السكان الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، ط1، معهد الانماء العربي، بيروت، 1978.

164. كوهن برناردس، الاستعمار وأشكال المعرفة: البريطانيون في الهن مطبعة جامعة أكسفورد، أوكسفورد ، المملكة المتحدة،1997.

165. كيسنجر، الدبلوماسية من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة، تر: مالك فاضل البديري،ط2، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان، 1995.

166. كينيث كونو، فلاحو الباشا... الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحرى 1740-1858، تر: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2000.

167. لورانس، المملكة المستحيلة، فرنسا وتكوين العالم العربى الحديث، تر: بشير السباعي، ط1، دار سينا للنشر، القاهرة، 1997.

168. لورد كرومر، مصر الحديثة، تر: صبري محمد حسن، تق: أحمد زكرياء الشلق، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ج1.

169. لويس عوض، الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1992.

170. مبارك الميلي، ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، د.ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3.

171. مجمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000.

172. محسن علي شومان، اليهود في مصر العثمانية حتى القرن التاسع عشر، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000،ج2.

173. محمد . م. الأرناؤوط، مداخلات ثقافية بين ألبانيا ومصر في القرنيين التاسع عشر والعشرين، (د. ط)، دار الشروق، (د. س).

174. محمد أحمد دهمان، العراك بين بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ط1، دار الفكر، دمشق، 1986.

175. محمد السيد سليم، التطور السياسي في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، دار الأمين، القاهرة ـ مصر، 2002.

176. محمد أنيس، مصر في الإقطاع إلي الرأسمالية، ط1، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

177. محمد رفعت الإمام، الأرمن فى مصر القرن التاسع عشر، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1995.

178. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945، القسم الثاني، ج4، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.

179. محمد سعيد العشماوي، مصر والحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999.

180. محمد شفيق غربال، محمد علي الكبير، (د.ط)، هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 12.

181. محمد صبري السربوني، الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية 1811- 1849، تر: ناجي رمضان عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013، ج1.

182. محمد صبري، صفحات من تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.

183. محمد عبد الفتاح أبو الفضل، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، القاهرة، 1998.

184. محمد عبد الكريم الوافي، في تاريخ العرب الحديث يوسف باشا والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس ـ الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.

185. محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، ط1، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1971

186. محمد عفيفي عبد الخالق، الأقباط في مصر في العصر العثماني، (د.ط)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992.

187. محمد علي الغتيت، الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، مطابع الدار القومية للطباعة والنشر، روض الفرج.

188. محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر نحتفل أو لا نحتفل، ط1، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ـ مصر، 1999.

189. محمد عودة، الحملة الفرنسية على مصر نحتفل أولا نحتفل، ط1، دار لثقافة الجديدة، القاهرة ـ مصر، 1999.

190. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العَليّة العثمانية، تحقيق إحسان حقيّ، ط1، دار النفائس، بيروت،1981 .

191. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العَليّة العثمانية، تحقيق إحسان حقيّ، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981.

192. محمد فؤاد شكري وأخرون، بناء دولة مصر محمد علي، تق: عبد الخالق لاشين، (د.ط)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009.

193. محمد فؤاد شكري، الحكم المصري في السودان 1821- 1885، دار الفكر العربي، 1937.

194. محمد قاسم وحسين حسنى، تاريخ القرن التاسع عشر، دار الكتاب العربي، مصر، 1954، ص 68.

195. محمد كردي علي، خطط الشام، ط2، دار الملايين، بيروت، 1890، ص 8.

196. محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية،(د. ط)، دار الثقافة، القاهرة، 1976 .

197. محمد مبروك محمد، الإدارة المالية في عهد محمد علي 1805 – 1848، (د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2009.

198. محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر دراسة في التاريخ والفلسفة، ط1، مكتبة المعارف، الرباط ـ المغرب، 1985، ص 78.

199. محمود متولي ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية ،ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1974.

200. مسعود ضاهر، هجرة الشوام – الهجرة اللبنانية إلى مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2009.

201. المقرحي ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث 1453- 1848، ط1، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1996.

202. مكي شبيكة، مقاومة السودان للغزو والتسلط، معهد البحوث والدراسات، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1972.

203. مليكة عريان، مركز مصر الاقتصادي، ط1، مطبعة رمسيس، القاهرة، 1923.

204. ممدوح نصار و أحمد وهبان، التاريخ الدبلوماسي والعلاقات السياسية بين القوى الكبرى1815- 1991، Www.Kotobarabia.Com

205. مهنا محمد ناصر، الخليج العربي (التطور الحديث والمعاصر)، (د.ط)، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1996.

206. كربتيس بيير، إبراهيم باشا، تر: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937.

207. موسى موسى نصر، صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية، (د. ط) الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، (د. ن).

208. مين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1966.

أ. ن. بولياك، الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان، ط1، منشورات دار الكشوف، بيروت، 1948.

209. ناصر الدين سعيدوني ، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

210. ناصر محمد ناصر، دور العامل الخارجي في اجهاض تجارب النهضة العربية – دراسة تطبيقية في تجربة محم

211. نسيم مقار، رحالة الأجانب إلى السودان 1830م – 1851م، ط 1، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، 1995.

212. نشأت الديهى، محمد على باشا بدايات قاسية ومجد عظيم، (د.ط)، دار الجمهورية للصحافة، القاهرة، أوت 2009.

213. **نشأت الديهي**، محمد علي باشا بدايات قاسية ومجد عظيم، ط1 ، دار كتاب الجمهورية، مصر، 2009.

214. نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان ، ط1 ، دار الثقافة، بيروت،1967.

215. نقولا الترك، ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية وبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر والشام، تحقيق وتقديم ياسين سويد، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1990.

216. نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوروبية)، ط2، دار الفكر، مصر، 1979، ج1.

217. نورالدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوروبية)، ط1، دار الفكر الحديث، لبنان، 1979.

218. نوريس محمد سيف الدين، الجالية الفرنسية في مصر 1882- 1956، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2012.

219. نينلالكسندروفنا دولينا، الامبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في الثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، تر: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، 1999

220. هنري دوديل، الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد علي (مؤسس مصر الحديثة)، تر: أحمد محمد عبد الخالق و أحمد شكري)، مؤسسة هنداوي.

221. الياس الأيوبي، محمد علي سيرته وأعماله وآثاره،(د. ط)، ادارة الهلال، مصر، 1923.

222. يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر ، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

223. يحي بوعزيز، علاقات الجزائرية الخارجية مع دول ومماليك أوروبا 1500- 1830، ديوان المطبوعات الجامعية، ين عكنون، الجزائر.

224. يسرى الجوهري، الخرائط الجغرافية، ط1، مكتبة الاشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 1997.

225. يعقوب لاندوا، تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1815- 1914، تر: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، تق، محمد خليفة حسن، (د. ط)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

226. يونان لبيب رزق زمحسن يوسف، تحديث مصر، تق: اسماعيل سراج الدين، (د. ط)، مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، 2007.

ب/ باللغة الفرنسية:

1.Richard F . Peters, Histoire Des Turcs De L'empire A Démocratie, Traduit: Lucien Pia *M. De Pradt, Question De L'orient Sous Ses Rapports Généraux Particuliers, A La Libraire De Roret, Paris, 1836*u, Payot, Saint- Garmain, Paris, 1966.

2.M.Et J. De Brevery Cadalvene, L' Egypte Et La Nubie, Tome I,Paris, 1841.

3.M. Paul Mérruau, l'Egypte contemporaine de Mohammed Ali A Said pacha, Librairie

4.académique, Paris, 1864.

5.I. B. Juchereau, histoire de l'empire ottoman depuis 1792 jusqu'en 1844, 2t, imp.de guiraudet et jouaust, paris, 1844.

6.E. Driault, la vraie figure de napoléon, Edition Albert marrance, paris,(s.d).

7.P .lyantey, e drame orientale et le rôle de la France, société d étions géographiques maritimes et coloniales, paris, 1923.

8.(M). Mignet, Histoire De La Révolution Française Depuis 1798 Jusqu' En 1814, T2, Librarie Firmin Didot Frères, Paris, 1851.

9.Edmond Ferry, La France En Afrique, Librairie Colin Mézières, Paris, 1905

10. Henry Laurens, L'expédition 1798- 1801, Armand Colin Editeur, Paris,1989

11. (H) Belot, Nouveaux Récits D'histoire De France, Istra, Strasbourg, 1952,

12. J.Laurent ,L'Arménie entre Byzance et l'Islam, Paris, 1919.

13. Aimé Vingtrinier,Soliman Pacha(colonel Seve),Paris,1886, TII, .

14. Hajjar , I Europe et les destinees du procne orient (1815 – 1848) blonded cay . belfifue , 1970.

1.James Bruce, Travels To Discover The Source Of The Nile, In The Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 (7 Vols), London, 1804

15.

16. Hubert Deschamps , **L'afrique Noire Précoloniale**, Presses Univesitaires De France, Paris, France, 1962.

17. *Charles Roux*, France Afrique Du Nord Avant 1830, Les Précurseurs De La Conquête, Felix Aican, Paris, 1932

18. *De Grammont (H-D),* «Histoire D'Alger Sous La Domination Turque 1515- 1830», Ernest Leroux. Paris, 1887

19. *Claude Martin, Histoire De L'Algérie Française 1830 – 1962, Editions Des 4 Fils Aymon, Rue Mazarine, Paris*

20. *(**E**) Plante، Correspondances Des Deys D'Alger Avec La Cour De France ،**2**t .éD.Bouslama،Tunis ،1981،*

***21**. Boutin, Reconnaissance Des Villes, Fortes Et Batteries D'Alger Le C*hef De Bataillon Boutin (1808), Publie Par Esquer Gabriel, Champion, Paris, 1927, **P** 89

22. Charles Roux, France Afrique Du Nord Avant 1830, Les Précurseurs De La Conquête, Felix Alcan, Paris, 1932.

23. Venture De Paradis, Alger Au XVIII Siècle, Edité : E. Fagnan,

24. *(G)Douin, Mohamed Ali Et L'Expédition D'Alger 1829- 1830, Inst. Français D'arch.*

25. *Meulay Belhamissi,* Alger l'Europe Et La Guerre Secrète (1815-1830), Editions Dahlab, Alger, 1988.

الانجليزية:

1.Blaufarb, Rafe. The French Army, 1750–1820: Careers, Talent, Merit. Manchester University Press, 2002.

2.Dull, Jonathan R. The French Navy And The Seven Years' War. University Of Nebraska, 2005.

3.Murphy, Orville T. Charles Gravier, Comte De Vergennes: French Diplomacy In The Age Of Revolution, 1719–1787. State University Of New York Press, 1982

4.Murphy Charles Gravier, Comte De Vergennes: French Diplomacy in the Age of Revolution, 1719-1787 .

5.Leavitt,(B) ,(J) , Monroe Doctrine, Sinclair Tousey- 121 Nassau Street Generlair Agent For Nowsdealers And Booksellers, 1863

6.*Weigall Al David And Murphy Michael, European History, Bppletts Educational, London, 1993 .*

7.Kohn Hans, The Age Of Nationalism, Harrper & Brothers Publishers, New York, 1962

8.Bear , Gabriel : Social change in Egypt (1800 – 1914) in P.M. Holted Political and social change in Moder , Egypt . Oxford , University press , London , Torento . New- York .

9.Gabriel Baer, Landownershop In Modern Egypt – A History Of Landownership In Modern Egypt (1800–1950), Oxford University, Press, London, 1962.

10. Belzoni Giovanni Battista ،Plates illustrative of the researches and operations of G. [1] –Emmanuel K. Akyeampong and Henry Louis Gates, Jr, Dictionary of African Biography , Oxford University Press, 2012

11. Belzoni in Egypt and Nubia، 1vol ، London : John Murray, 1821

12. Dodwell, Henry,The Founder Of Modern Egypt, A Study Of Muhammad Ali, Cambridge: At The University Press ,1931.

13. Driault, Edouard. L Egyte Et L'europe .La Crise De 1839–1841، La Caire: Société Royale De Géographie – d'Egypte, 1930).Vol. 1.

14. Kelly. J. B، Britain And The Persian Gulf 1795–1880 ،Oxford، At The Clarendon Press، 1968 .

15. Grant, J. A – Temperley, Harold. Europe In The Nineteenth And Twentieth Centuries 1789–1939 (London: Longmans, Green And Co., 1948.

16. Tibawi, A. L, A Modern History of Syria–Including Libanon and Palestine, Macmillan, London, 1969, p 69.

17. Marriott. J. A. R, The Eastern Question an Historical Study in European Diplomacy, Amen house, London, Fourth Edition, 1956.

18. G.W.B. Huntingford, The historical geography of Ethiopia from the first century AD to 1704, Oxford University Press, Oxford shire, 1989, p. 76

19. Kelly. J. b, Eastern Arabian frontiers, Edité par Faber, London, 1964, p 119.

20. Naval Intelligence Division, Westernv Arabia And Read Sea, Oxford, 1946.

A. Abir, The Arabe Rebcllion Of Amir Chalib Mecca (1788- 1813), Middle Eastern Studies, Vol 2, 1916.

21. John Lewis Burckhardt, Notes on the Bedouins and Wahabys, London, H. Colburn and R. Bentley, 1831, vol 2.

ثالثا: رسائل الدكتوراه والماجستير:

1/ الدكتوراه:

1. حلمي محروس اسماعيل، دراسات في الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الأدب، قسم التاريخ، 1977.

2. ملك محمد رشوان، سياسة محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، أسيوط، 1984.

3. عبد الله علي عبد الحميد سمك، دور العلماء الأزهر في مواجهة الحملة الفرنسية والأثار المترتبة عليها 1978م- 1801م، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، 2006.

4. خالد جماد أحمد عياد، أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي...، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، قسم العلوم السياسية..

5. سعيد إسماعيل السيد، الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوي، رسالة دكتوراه، جامعة عين الشمس، 1969.

6. صالح رمضان محمد، دور الجاليات الأجنبية في مصر في القرن التاسع عشر (1801م- 1882م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1970.

7. أحمد أبو قايد، الدولة السعودية الأولى من خلال كتابات الرحالة والمستشرفين البريطانيين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2009/ 2010م.

8. لزين العابدين شمس الدين نجم، تاريخ الجالية اليونانية فى مصر فى القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 2007.

2/ الماجستير:

[1]. ماهر محمد سعيد درويش، هجرة الشوام إلى مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مذكرة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية التربية، فلسطين، 2003.

[2]. رياض سوريال بشارة، المجتمع القطبي في مصر في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (د. ت).

[3]. حسين فوزي النجار، السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط، ج 1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953.

[4]. علي 1805- 1839، رسالة ماجستير، جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات، قسم العلوم السياسية، القاهرة، مارس 1993.

[5]. علام عبد السلام عيسى الفلاح، سياسة محمد علي باشا في الخليج العربي1818-1840، رسالة ماجستير، كلية الأدب، قسم التاريخ، جامعة بن غازي، 2011-2012.

[6]. نادية شعبان عطية حسن، المماليك في السياسة المصرية (1798- 1811)، مذكرة ماجستير، جامعة المنيا – قسم التاريخ، مصر، 2004.

[7]. بن أعراب كلثوم، خطاب الإصلاح والنهضة في القرن 19م (حمدان خوجة ورفاعة رافع الطهطاوي أنموذجا)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة. نجلاء عبد التواب خلاوي حسنين، الامتيازات الأجنبية في مصر (1213- 1297هـ/ 17986 1879م)، رسالة ماجستير، حامعة الاسكندرية، كلية الآداب فرع دمنهور، قسم التاريخ والأثار المصرية والاسلامية.

[8]. ناصر محمد ناصر، دور العامل الخارجي في إجهاض تجارب النهضة العربية (دراسة تطبيقية في تجربة محمد علي 1805- 1849)، رسالة ماجستير، اشراف حسن نافعة، قسم العلوم السياسية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1993.

[9] عبد العال محمد علي، العلاقات بين الحجاز والدولة السعودية الأولى (1739م – 1818م)، رسالة ماجستير، اشراف محمد عمر عبد العزيز عمر، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2015.

[10] بن عيسى فاطمة، التحالف الأوروبي ودوره في رسم العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط، مذكرة ماجستير، جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015.

[11] رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، القاهرة، 2000.

[12] هند نجم الدين عباس، الحياة الاجتماعية في مصر (1798– 1848)، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، 2017.

[13] عبد الفاضل الصافي، العلاقات الاقتصادية المصرية الفرنسية في عهد محمد علي حتى سنة 1840، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

رابعاً: الدوريات

1. صالح رمضان محمود، 'الأجانب والتعليم بمصر 1849 – 1879"، **مجلة المؤرخ العربي**، ع 17، بغداد، 1981

2. عمر عبد العزيز عمر، "العلاقات المصرية العثمانية 1820– 1840"، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد 26، 1972.

3. جبار الرفاعي ، "محمد عبده و محمد إقبال"، **مجلة دراسات الأديان** ، ع15 ، مج 6، بغداد، 2008

4. ضاري رشيد ياسين، " فلسفة السياسة الخارجية في اتجاهاتها الأمبريالية الجديدة "، **مجلة الزحف الكبير** ، بغداد، ع 9، جويلية 2001 .

5. نزار عبد اللطيف، " نظرة على التوجه القومي في السياسة المصرية 1805 . 1952 "، **جريدة الثورة**، أكتوبر 1978.

6. صالح رمضان محمود، 'الأجانب والتعليم بمصر 1849 – 1879"، **مجلة المؤرخ العربي**، ع 17، بغداد، 1981

7. جبار الرفاعي ، "محمد عبده و محمد إقبال"، **مجلة دراسات الأديان** ، ع15 ، مج 6، بغداد، 2008.

8. عبد الوهاب بوشليخة، " تجربة الحوار في الفكر النهضوي (حملة نابيليون، محمد علي باشا، رفاعة الطهطاوي)"، **مجلة الأداب والحضارة الإسلامية**، الملجد 1، ع 2، جامعة قسنطينة، 01 مارس 2003.

9.فاطمة بوعمامة، "نفوذ الأرمن في مصر من الفتح الإسلامي حتى القرن الثالث عشر هجري"، **مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، المجلد 5، ع 09 ، الجزائر، 2015.**

10. حازم مجيد أحمد الدوري ومحمد أمجد صالح الدهان، " الجاليات الأجنبية ودورها الاجتماعي في مصر(1805م – 1848م)"، **مجلة الملوية للدراسات الأثارية والتاريخية**، المجلد 7، ع 31، العراق، أوت 2020.

11. عبد ا أحمد الحتة،" الأجانب فى مصر والسودان 1862 – 1849 "، **مجلة الاقتصاد والتجارة**، مج 6، ع 2، جويلية ديسمبر1958.

12. إبراهيم بن محمد الزيد، عثمان بن عبد الرحمن المضايفي أمير الطائف والحجاز في الدولة السعودية الأولى، ط1، **مجلة جامعة الملك عبد العزيز الآداب والعلوم الإنسانية**، جدة، 1994.

13. محمود نافعي، "محمد علي في تقدير المؤرخين الأتراك"، **مجلة الأهرام**، العدد نوفمبر، 1949، القاهرة.

14. يحي محمد محمود، الدبلوماسية في الآستانة زمن محمد علي باشا" دراسة لدور نجيب أفندي" 1813– 1831، **مجلة الوقائع التاريخية**، ،ع ، مصر، جويلية 2004

15. غالب عريبات وخالد طاهر، موقف الروسي من التدخل اللمصر في بلاد الشام 1831–1841، **مجلة دراسات التاريخية**، ع 117– 118، جانفي – جوان، 2012، الأردن.

16. جاكلين اسماعيل، " سياسة بريطانيا في الخليج والكويت في القرن التاسع عشر"، **مجلة الدراسات الخليج والجزيرة العربية**، العدد 06، أكتوبر 1978، الكويت.

17. غالب عريبات وخالد طاهر، موقف الروسي من التدخل اللمصر في بلاد الشام 1831-1841، **مجلة دراسات التاريخية**، ع 117- 118، جانفي – جوان، 2012، الأردن.

18. علي وسف البلخي، الموقف الدّولي من احتلال ممد علي باشا لبلاد الشّام 1831-1840"، **مجلة دراسات التاريخية**، ع 19- 20، سوريا، 1985.

.19

20. علي وسف البلخي، الموقف الدّولي من احتلال ممد علي باشا لبلاد الشّام 1831-1840"، **مجلة دراسات التاريخية**، ع 19- 20، 1985 سوريا.

21. صقر النور، "الباشا والقادر والعيان، قراءة في لائحة الفلاح"، **مجلة مرايا**، العدد الأول، سبتمبر 2017.

22. لرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة ابان العصر العثماني (1517- 1798م)، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد خاص حول الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء الحكم العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية وتوثيق المعلومات، زغوان – تونس، 1988.

23. أرزقي(شويتام)، "التنافس الدولي في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنيين 18- 19 وموقف الجزائر منه"، **حولية المؤرخ**، العدد 3- 4، الجزائر، 2005.

24. **جمال قنان**، "نظرة حول العلاقات الجزائرية الأوروبية في العصر الحديث 1500-1830"، **مجلة المصادر**، العدد 18، السداسي الثاني 2008، باب الواد الجزائر.

25. خليفة بن عبد الرحمن المسعود، سلطنة دارفور بين الرغبة الاستقلالية والسياسة التوسعية في غهد محمد علي باشا والخدوي اسماعيل باشا 1820م 1874م"، **مجلة كلية الآداب** – جامعة أسيوط، مصر، ع 32، أكتوبر 2009.

26. بوقراف جلول أطماع محمد علي باشا التوسعية في السودان 1821- 1881(دراسة في الأسباب والدوافع)، **المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية**، ع 5، ماي 2018.

27. صالح، محمد حبيب، الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، **مجلة دارسات تاريخية**، جامعة دمشق، ع : 67- 68، جانفي – جوان، 1999.

28. سنو عبد الرؤوف ، العلاقات الروسية العثمانية 1687م- 1878م - سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة – الحلقة الأولى، **مجلة تاريخ العرب و العالم**، 1984، العدد 73-74.

29. حسين يوسف عمر يوسف،" الدبلوماسية الفرنسية تجاه المسألة المصرية من بداية الأزمة وحتى معاهدة هونكار .إسكله سي 1831- 1833"، **الملجة الاردنية لتاريخ والاثار**، المجلد 11، العدد 2، 2017.

30. صياد الدوري سامي صالح محمد وعبد الحسن جولان السعداوي دلال، الأوضاع الاجتماعية في مصر في عهد الخديو عباس حلمي الثاني 1892م – 1914، **مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية**، المجلد 21، ع 1، جانفي 2014.

31. رمضان محمود صالح، 'الأجانب والتعليم بمصر 1849 – 1879"، **مجلة المؤرخ العربي**، ع 17، بغداد، 1981

32. الرفاعي جبار، "محمد عبده و محمد إقبال"، **مجلة دراسات الأديان** ، ع15 ، مج 6، بغداد، 2008.

معاجم وموسوعات:

1.محمود محاسيس سليم، معجم المعارك التاريخية، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2011.

2.العابدين زين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ط1، دار الفكر العربي، مصر، 2006.

3.عبد الكريم الخطيب مصطفى، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996.

4.حميد الجميلي لطيفة، موسوعة أعلام العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، بيت الحكمة، بغداد، 2000، ج1.

5.مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة، ج3، المكتبة العصرية، بيروت، 2009.

6.سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط1، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.

<u>الندوات والملتقيات</u>:

1.عزباوي عبد الله محمد ، الحالة السياسية في مصر عند مجيء الحملة الانجليزية 1807 (حملة فريزر)، أعمال ندوة معركة الرشيد عام 1807 قرنان على مقاومة حملة فريزر 1807- 2008، مركز تاريخ مصر المعاصر، 25 نوفمبر 2007، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009.

فهرس

المواضيع

مقدمة:.....01

المدخل.....18

الفصل الأول: الصّراع الداخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي باشا في ظل التّنافس العثماني الفرنسي البريطاني.....48

أولاً: سيرة محمد علي باشا.....50

1- صفات محمد علي باشا.....52

أ- الصّفات الجسمية لمحمد علي باشا من خلال معاصريه.....52

ب- الصّفات الروحية والأخلاقية لمحمد علي بين مادحيه وذاميه.....57

2- مولد ونشأت محمد علي باشا.....57

ثالثاً: الصّراع الدّاخلي في مصر وبروز شخصية محمد علي في ظل التنافس البريطاني الفرنسي العثماني.....64

1/ الدّولة العثمانية.....65

2/ المماليـــك.....67

3/ المصريون وزعامتهم الشّعبية.....70

4/ الانجلـــيز.....74

رابعاً: وصول محمد علي باشا إلى إلى السّلطة.....75

خامساً: المواقف الدّولية من وصول محمد علي باشا إلى السلطة في مصر.....80

1/ موقف الممالك من عين محمد علي باشا واليًا على مصر.....80

2/ موقف الدولة العثمانية.....84

3/ الصّمت الأوروبي من وصول محمد علي باشا إلى الحكم في مصر.....92

خامساً: خطوات محمد علي باشا لتثبيت حكمه في مصر.....108

1- الاستعانة بالعلماء والمعارضين والأعيان ثم التّخلص منهم.....108

2- القضاء على المماليك في مذبحة القلعة 1811م.....109

خلاصة الفصل.....120

الفصل الثاني: سياسة محمد علي باشا الدّاخلية في بناء دولة مصر الحديثة.....121

أولا: دعائم حكم محمد علي باشا ونشأت الأهداف الطموحة.....123

1- أفراد الأسرة والأتباع.....126

2- الأتـــــــراك.....126

3- أهل الذّمة(المورنة والأقباط واليهود).....128

أ/الشّوام.....130

ب/الأقباط.....134

ج/اليهود.....137

4-الأجانب المسلمون.....139

أ/ الأرمن.....140

ب/ اليونانيون.....143

5- غير المسلمين.....145

أ/ الجالية الإيطالية.....149

ب/الجالية الفرنسية.....153

ج/ الجالية الإنجليزية.....158

ثانيًا: تأثير الجاليات الأجنبية على المجتمع المصري.....160

ثالثا: نظرة الغرب إلى المساعدة المقدمة لمحمد علي باشا.....166

رابعاً: انجازات محمد علي باشا الداخلية في بناء دولة مصر الحديثة.....169

1- الإدارة.....170

2- التّعليم.....175

3- الزراعة والصناعة والتّجارة.....179

أ- الزّراعة.....179

ب- الصّناعة.....186

ج- التّجارة.....190

4- الجيش.....195

خلاصة الفصل.....203

الفصل الثّالث: عمليات الضّم والالحاق في دولة محمد علي باشا وانعكاساتها على العلاقات الدّولية.....205

أولا: تغيرات سياسة محمد علي باشا الخارجية.....207

ثانيا: دوافع وأهداف توسعات محمد علي باشا 213

1- الاتجاه الشخصي (ملك وتوسع).....214

2- الاتجاه الديني.....217

3- الاتجاه القومي.....218

ثالثاً: عمليات الضّم والالحاق (ملك وتوسع) في سياسة محمد علي باشا.....222

1- تكليف محمد علي بالقضاء على الحركة الوهابية.....222

2- حملة محمد علي باشا على الشّام.....243

3- حملة محمد علي باشا على السّودان.....256

4- حملة محمد علي باشا على اليونان.....265

5- مشروع محمد علي باشا لاحتلال الجزائر.....281

خلاصة الفصل.....297

الفصل الرابع: نظام مصر النّهائي وانعكاسات طموحات محمد علي باشا على العلاقات الدّولية في النّصف الأولى من القرن التّاسع الميلادي.....300

أولا- معاهدة لندن 1840م ونظام مصر النّهائي.....302

1- معاهدة لندن.....302

2- التّدخل الأوروبي عسكرياً تنفيذاً لمعاهدة لندن 1840م.....307

3- مواقف الدّول الأوروبية من معاهدة لندن.....317

4- مرض محمد علي باشا ووفاته.....324

ثالثًا: عوامل وأسباب فشل محمد علي باشا في تحقيق طموحاته.....328

1 – أسباب وعوامل متعلقة بشخص محمد علي باشا وبالمجتمع المصري.....328

2– أسباب وعوامل خارجية (طموح محمد علي المتنافي مع الغرب).....332

ثالثاً: انعكاسات طموحات محمد علي الوحدوية على العلاقات الدّولية.....335

1– سقوط الدّولة السعودية الأولى.....335

2– دور محمد علي باشا في عودة اليهود الى فلسطين.....337

أ– القدس في العهد العثماني.....337

ب– بوادر ظهور المسألة الصهيونية كجزء من السّياسة الأوروبية في بلاد الشّام.....341

ج– مساهمة محمد علي باشا في عودة اليهود إلى القدس وتحقيق حلمهم.....354

3/ مشروع بناء قناة سويس.....362

رابعًا: تقييم المؤرخون تجربة محمد علي باشا في مصر.....370

– خلاصة الفصل:.....381

– الخاتمة.....384

– الملاحق.....393

– البيبليوغرافيا.....405

– فهرس الموضعات.....442

الملخص باللغة العربية:

كتب الكثير من المؤرخين عن محمد علي باشا وعن تجربته ونهضته بمصر، لكن كانت نظرتهم في صورتان متناقضتانا كلاهما يقع على طرف بعيد عن الآخر، في الصّورة الأولى تظهر لنا محمد علي في صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم، أما الصّورة ثانية فتظهر لنا على أنه يبدو جبارا طاغية غليظ الفؤاد يتحكم في مصير البلاد كما يتحكم في ملكه، لكن أغلب الشّهادات تتفق على وصفه بالرّجل المتعطش إلى السّلطة وإلى العمل العسكري والمزايدات السّياسية التي جعلته المبالغة فيها يتناسى حدوده، وإمكانياته، وبهذا سيبدو جديراً بكونه الأخ التوأم لمثيله نابليون بونابرت، كما تضاربت تلك الآراء فيما بينها حول الأسباب التي أدت إلى تلك التّوسعات وعن أهدافها، الأمر الذي شكل علامة استفهام وبالتالي أخذ المؤرخون الذين تناولوا هذه المسألة أو أشاروا إليها بصورة أو بأخرى ينظر كل واحد منهم إلى المسألة بمنظاره وبمفهوم قد يتفق أو يختلف مع غيره، حيث أعاد بعضهم إلى أسباب شخصية، والبعض الآخر الى أسباب دينية، والبعض إلى أسباب قومية، فشخصية محمد علي في تاريخ مصر الحديث أكثر أسماء إثارة للجدل والاختلاف بين ما يرفعون شأنه ويصفونه بباني الدولة المصرية الحديثة وبين من يقولون أنه كان مساعد على هدم الكيان الإسلامي وأن الدول الأوروبية الاستعمارية استخدمته كآداة حادة للقضاء على الحركة الدينية الوهابية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية و الإجهاز على كل من الخلافة الإسلامية العثمانية محمد علي.

الكلمات المفتاحية: محمد علي – مصر – القومية – النّهضة – الدّولة العثمانية– توسعات – الامبراطورية – الوهابية – الجبرتي – الوحدة .

ملخص باللغة الإنجليزية:

Many historians wrote about Muhammad Ali Pasha and his experience and renaissance in Egypt, but their view was in two contradictory images, both of which are located on a far side from the other, in the first image showing Muhammad Ali in the image of the reformer, the savior and the great constructor, while the second image appears to us that it appears mighty An overpowering tyrant controls the fate of the country as well as his ownership, but most testimonies agree to describe him as a thirsty man for power and military action and political auctions that made him exaggerate his boundaries, and his potential, and thus would seem worthy of being the twin brother of his counterpart Napoleon Bonaparte, as these opinions have contradicted Between them about the reasons that led to these expansions and their goals, The matter that formed a question mark, and therefore the historians who dealt with this issue or referred to it in one way or another took each one to look at the issue in his view and in a concept that might agree or differ with others, as some of them returned to personal reasons, others to religious reasons, and some to national causes. The character of Muhammad Ali in the modern history of Egypt is the most controversial name and the difference between what they raise and describe as the builder of the modern Egyptian state and those who say that he was helping to destroy the Islamic entity and that the colonial European countries used it as a sharp tool to eliminate the Wahhabi religious movement that appeared in the Arabian Peninsula And the elimination of both the Ottoman Islamic caliphate and Mohamed Ali.

Keywords: Muhammad Ali —Egypt. – Nationalism -Renaissance - Ottoman Empire– Expansions- Imperial - Wahhabism - Al-Jabarti – Unity

ملخص

كتب الكثير من المؤرخين عن محمد علي باشا وعن تجربته ونهضته بمصر، لكن كانت نظرتهم في صورتان مناقضتانا كلاهما يقع على طرف بعيد عن الآخر، في الصّورة الأولى تظهر لنا محمد علي في صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم، أما الصّورة ثانية فتظهر لنا على أنه يبدو جبارا طاغية غليظ الفؤاد يتحكم في مصير البلاد كما يتحكم في ملكه، لكن أغلب الشّهادات تتفق على وصفه بالرّجل المتعطش إلى السّلطة وإلى العمل العسكري والمزايدات السّياسية التي جعلته المبالغة فيها يتناسى حدوده، وإمكانياته، وبهذا سيبدو جديراً بكونه الأخ التوأم لمثيله نابليون بونابرت، كما تضاربت تلك الآراء فيما بينها حول الأسباب التي أدت إلى تلك التّوسعات وعن أهدافها، الأمر الذي شكل علامة استفهام وبالتالي أخذ المؤرخون الذين تناولوا هذه المسألة أو أشاروا إليها بصورة أو بأخرى ينظر كل واحد منهم إلى المسألة بمنظاره وبمفهوم قد يتفق أو يختلف مع غيره، حيث أعاد بعضهم إلى أسباب شخصية، والبعض الآخر الى أسباب دينية، والبعض إلى أسباب قومية، فشخصية محمد علي في تاريخ مصر الحديث أكثر أسماء إثارة للجدل والاختلاف بين ما يرفعون شأنه ويصفونه بباني الدولة المصرية الحديثة وبين من يقولون أنه كان مساعد على هدم الكيان الإسلامي وأن الدول الأوروبية الاستعمارية استخدمته كآداة حادة للقضاء على الحركة الدينية الوهابية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية و الإجهاز على كل من الخلافة الإسلامية العثمانية محمد علي

الكلمات المفتاحية

محمد علي؛ مصر؛ القومية؛ النّهضة؛ الدولة العثمانية؛ الجبرتي؛ الوحدة؛ الوهابية؛ التوسعات؛ الحركة الدينية

تاريخ المناقشة:2022/10/01

بتقدير مشرف جدا